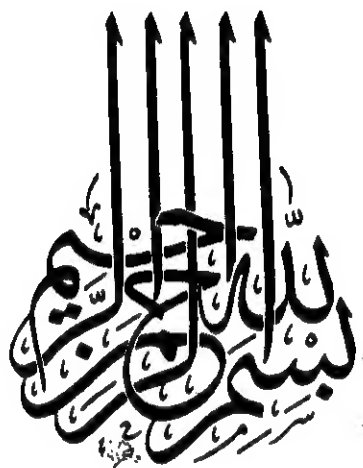


فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد

تأليف
عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب
١١٩٣ - ١٢٨٥ هـ

بتحقيق
الدكتور الوليد بن عبد الرحمن بن محمد آل فرتيان
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الشريعة في الرياض

دار المؤيد



ح الوليد بن عبد الرحمن الفريان ، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عبد الوهاب، عبد الرحمن بن حسن بن محمد

فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد/تحقيق الوليد بن عبد الرحمن الفريان. - الرياض

٦٧٢ ص، ٢٤×١٧ سم .

ردمك : X-٠٦-٧٧٣-٩٩٦٠

١- التوحيد ٢- العقيدة الإسلامية أ- الفريان ، الوليد بن عبد الرحمن (محقق)
ب- العنوان

٢٠/٣٦٤٢

ديوي ٢٤٠

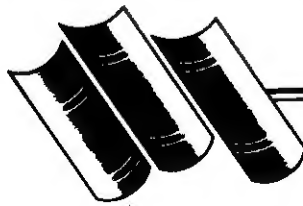
رقم الإيداع : ٢٠/٣٦٤٢

ردمك : X-٠٦-٧٧٣-٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة للمحقق

الطبعة الثامنة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م



دار المويذ

للنشر والتوزيع

جدة : ٢٢١٤٢٤١

أبها : ٢٢٦١٩٧٥

الطائف : ٧٣٢١٨٥١

الأداة العامة - الرياض

هاتف : ٤٠٢٥١٩٧ - ٤٠٣١٣٧٧

فاكس : ٤٠٢٢٦١٥

فتح المجيد
لشرح كتاب التوحيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين، المتفرد بالبقاء والدوام على مر السنين وتعاقب الدهور والأعوام، المنزه عن الأمثال والأوهام.

والصلاة والسلام على نبينا محمد، النبي الخاتم المخصوص من الله بالفضل والإنعام، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الأوفياء الكرماء الميامين، ومن اقتفى أثرهم وسار على نهجهم إلى يوم يُبعثون.

ويعد:

فهذا كتاب (فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد) تأليف العلامة الكبير الشيخ، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: أقدمه بعد أن أمضيت في تحقيقه سنين عدداً، فقابلته على أصوله الخطية وعارضته بمصادره الكثيرة وأصلحت ما وقع في طبعاته السابقة من تحريف ونقص. حتى خرج في هيئة أحسب أنها أقرب ما تكون إلى صورته الأولى التي تركها المؤلف.

وما هذه العناية به ولا الحرص عليه، إلا لما للكلمة التوحيد الخالدة من أثر بالغ في حياة الأمة.

فهي قاعدة الإسلام العظمى، وحقيقته الكبرى: التي لا يقبل الله العمل إلا بها، ولا يرضى لعباده سواها، ولا طريق إلى محبته ورحمته إلا عن طريقها. وفي فاتحة السعادة وسبيل الهداية، وعنوان الفلاح والعاصمة من الخلاف، والأصل لكل خير ونعمة، وأول شئ ندب الله الخلق إليه، وبشر به رسل الله وأنبيأوه عبادة الله، وحده لا شريك له: توحيداً في قصده، وخلقه وأمره وأسمائه وصفاته؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطاغوت». [النحل: ٣٦]. وقال: «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحِي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون». [الأنبياء: ٢٥].

وقال: «وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يُشركون». [التوبة: ٣١].

وقال: «فاعبد الله مُخلصاً له الدين * ألا الله الدينُ الخالص». [الزمر: ٢-٣].

وقال: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مُخلصين له الدين». [البينة: ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن تدبّر أحوال العالم، وجد كل صلاح في الأرض فسيبه توحيدُ الله وعبادته، وطاعة رسوله ﷺ. وكل شر في العالم وفتنة وبلاء، وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسيبه مخالفةُ الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله. ومن تدبّر هذا حق التدبر، وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي غيره عموماً، وخصوصاً. ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١).

ولمّا كان هذا من شأنه، وهذه آثاره الحميدة، وخصاله الجليلة. كان الشيطانُ أسرع شيء إلى هدمه وتقويضه.

فلا يفتأ في مضارّته وتوهينه، ولا يزال يسعى إلى ذلك في غُدُوّه ورواحه، بكل طريق يأمل عائده ويرجو فائدته.

فإن أيس من الشرك الأكبر لم يئأس من شرك المقاصد والالفاظ، وإذا لم يفلح توسّل إليه بالبدع والخرافات^(٢). في استخفاء ماكر خبيث، ووسوسة كذوب، كما تسرى النارُ في الهشيم البالي.

وها هي آثاره المروعة، وسابله المنكودة تفيض بالشر والفساد والانحطاط، حتى عادت بفتام من الأمة إلى دركات الجاهلية الأولى أو أشد.

وغني عن القول بعد أن كلّ دعوة للإسلام لا تقوم على التوحيد الخالص لله تعالى، ولا تأخذ طريقها إلى مشروع سلف الأمة الصالح، فهي تائهةٌ مخدولة مهزومة، وإن توهمت غير ذلك. لا تصبر على لقاء ولا تجسر على حق، ولا تحتملُ المواجهة.

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٢٥/١٥).

(٢) ينظر: ابن تيمية «الاستغاثة» (٢٩٣).

والتماذج الوافرة التي اردحم بها التاريخ، تنطق بهذا المصير الكاسف، والنهاية البائسة.

فكم من دعوات تمادت بها السنون وتوالت عليها الأيام، وقدمت لها الأرواح وبذلت فيها الأموال، ثم انتهت إلى روال. وكم من حركات حثيثة غامرة، روت طريقها بالدماء، وتبارت في ضروب التضحية والفداء. فسقطت دون هدفها، ولم تحقق من أمرها شيئاً سوى الاضطهاد والتنكيل.

غير أن المؤمن المستيقن من موعود الله الحق، لا ييأس ولا يلين أبداً، ولا ينكسر أمام المعاصف العاتية، ولا يقبل أن تتوالى عليه التجارب دون انتفاع^(١).

وله في نبيه الكريم أعظم أسوة وأبلغ قدوة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾. [الاحزاب: ٢١].

وما كان على منهاج النبوة - في الدعوة إلى التوحيد، والبداءة به، وتقديمه على كل مهم - دعوة المجدد العلامة الإمام، محمد بن عبد الوهاب آل مشرف رحمه الله تعالى، التي حثت ركانها وسارعت خطوها وسارت على الهدى الأول. ولم تمض الأيام حتى انبلج صُبح الحق، وأسفر بوجهه. والحجاب عن نجمه، ما غمرها من الظلم والجهل والعصية المقيتة.

وعلى أثرها المبارك: نشأت في تلك البقعة القاصية وقتشذ، دولة إسلامية خالصة متوثبة. طهرت البلاد والعباد من رجس الشرك، وغمامات البغي والفجور. وأتاحت لأولئك الأبرار تسنم نهضة إسلامية لا نظير لها.

وما برح الناس: أن أمنوا وسعدوا، وضرب الإسلام فيها بسلطانه. وتدافع الخير إلى كل مكان.

ولا جرم: فإنه متى اجتمع الحق والصدق، والقيادة المخلصة. فلا أمل لباطل

(١) قال ﷺ: «لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ واحدٍ مرتين». أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٦١٣٣)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٩٩٨)، وأحمد في «المستدرك» (٣٧٩/٢) من حديث أبي هريرة.

في بقاء، وهو إلى ذهاب واضمحلال؛ قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(١). [الإسراء: ٨١].

ولن يضير أهل الحق من أرعد وأزبد، وإن نثر الكنائس وتصيّد الأتباع، ونصب الحبائل وطير الشائعات، وروّج الأحقاد والضغائن. فإن أمره إلى سفال، وعمله في خسار.

وما أشبه الليلة بالبارحة، فشراذم القاصرين والشذاذ عن هذا النور بمعزل، وعن الحق في صدود، وإلى كل فتنة ينقلبون. وإن لجأوا بنصرته، ونعقوا بالدفاع عنه.

وسيقى الخير في ذبوع واتساع، رغم كل جاحد. والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وما كتاب (فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد) الذي نقدم له: إلا قبس من شعاع الحركة السلفية في هذه البلاد، ويعد بحق من أوفى وأشمل كتب الدعوة، التي أسهمت في بيان منهجها وشرح طريققتها والدفاع عنها. بأسلوب علمي، وطريقة معتدلة. فاستحق أن يهتم له ويحتفى به، وأن ينال كل عناية وتقدير.

ورغبة في خدمة المزيد من ثراث أئمة الدعوة، وإظهار جهودهم الكريمة. قمت بتحقيق هذا الكتاب منذ سنوات، وبذلت له ما استطعت من جهد ووقت. ثم رأيت أن أخرجه رجاء أن يكتب الله به النفع، كما انتفع الناس من قبل بنسخه الكثيرة وطبعاته المختلفة، وأن يستدرك به ما كان من نقص وتحريف، وأن لا أحرم من دعوة صالحة تسلك صاحبها في سلك أولئك الأبرار.

والله الموفق والمعين، لكل خير وهو الهادي إلى سواء السبيل.

(١) كان هذا هو أساس نجاح الدعوة والدولة معاً، وسر نشاطها وقوتها واستتباب أمرها. فتسلط عليها العدو الماكر، وأجلب بالأعوان والأذناب. ولا يزال يهتبل القرص، ويبادر الغفلات: في وشاية كاذبة، ووسوسة خنون، واستغلال رخيص لاهواء النفوس وشهواتها.

النسخ المعتمدة:

اجتمع لدي عند الشروع في التحقيق، خمس نسخ:
الأولى: خطية، تقع في ثمان وثمانين ومائة ورقة، ومسطرتها ٢٢ - ٢٣ سطراً تقريباً. محفوظة في مكتبة الرياض السعودية برقم ٥١١/٨٦، وذكر على طرة الكتاب ما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وحده، انتقلت هذه النسخة المباركة من ملك عيسى بن مفتاح الى ملك الحرة المصونة سارة بنت الإمام تركي بن عبد الله آل سعود. وقد أوقفها لوجه الله تعالى على طلبة العلم في بلد الرياض، وفقاً صحيحاً لا يباع ولا يوهب ولا يرهن ضمن بدله... وصلى الله على محمد. (١٢٨٤هـ). ثم كتب بعد ذلك ما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد، تأليف الإمام العالم العلامة والحجة القدوة الفهامة، شيخ الإسلام الشيخ عبد الرحمن ابن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب. أجزل الله لهم الأجر والثواب.
وهي نسخة كاملة، مصححة ومقابلة على أصل المصنف، ومكتوبة في حياته، ومقروءة على العلامة، محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف رحمه الله تعالى (ت ١٣٨٩هـ)، وقد جعلتها أصلاً.

الثانية: خطية، تقع في خمس وثمانين ومائة ورقة، ومسطرتها ٢٧ سطراً تقريباً، وعليها تملك لعبد الله بن علي آل حماد.

فُرج من كتابها في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٠٨هـ بقلم عبد الرحمن بن داود بن سليمان بن تركي آل ضحيان، وأصلها في إحدى مكتبات الرياض الخاصة، وصلت إلي عن طريق الشيخ محمد بن إبراهيم المهنا، ورمزت لها بحرف (ض).
الثالثة: مطبوعة، في مطبعة الأنصاري في دهلي سنة ١٣١١هـ، طباعة حجرية قديمة وهي طبعة ناقصة، كثيرة الأخطاء، نادرة الوجود. سقط منها نحو كراس كامل، في أماكن متفرقة^(١). وعنها أخذت جميع الطبعات اللاحقة^(٢)، ورمزت لها بحرف (هـ).

(١) ينظر: الباب رقم (٤، ٩، ١٨، ٢٧) وغيره.

(٢) كطبعة الشيخ محمد حامد فقي عام ١٣٥٧، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٧ وطبعة مؤسسة النور بالرياض عام ١٣٨٦ هـ، وطبعة دار البيان عام ١٤٠٢ هـ، وغيرها، مع بعض التصرف وتغيير الأصل عما هو عليه.

الرابعة: مطبوعة في مطابع شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة بالعمارة، عام ١٤٠٣هـ. على نفقة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، سابقاً. وهي كسابقتها، ما عدا مواضع يسيرة وأخطاء مطبعية محضة أضافها الطابعون إليها.

وقد جاء في آخرها، ما نصّه: كمل مقابلة وتصحيحاً وقراءة، على يد شيخنا العلامة المحقق الفهامة، بقية أهل الإستقامة الشيخ عبد الله بن الشيخ حسن آل الشيخ متع الله بحياته سنة ١٣٦٢هـ، ورمزت لها بحرف (ط).

الخامسة: خطية، ناقصة من أولها ووسطها وآخرها. وعثر عليها بين أوراق كثيرة، في مكتبة الشيخ المعمر، عبد العزيز بن صالح آل مرشد في الرياض. كتبت بقلم نسخي جيد، ومسطرتها ٢٣ سطراً، وتتفق مع الأصل في كثير من الأحيان. وقد قابلت منها مع النسخ السابقة نحو تسع وعشرين ورقة، الى منتصف باب تفسير التوحيد. ثم اكتفيت بمعارضتها مع النسخ الأخرى، فيما زاد على المطبوعتين. واستأنست بها فيما سوى ذلك، ورمزت لها بحرف (م).

العنوان والتوثيق:

اتفقت جميع النسخ الخطية التي أطلعت عليها، على هذا العنوان (فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد)، وكذلك نص المؤلف في رسالته إلى العُماني^(١).

إلا أنّي رأيت في إحدى المكتبات الخاصة في الرياض نسخة ناقصة، بعنوان (التهذيب والتجريد لشرح كتاب التوحيد). وهكذا جاء في ديباجة الأصل، ثم شطب عليه وأثبت الاسم المذكور.

وفي سائر الطباعات الأخرى عنوانه (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد)، وعلى هذا نص أصحاب التراجم.

غير أنّي أثبت العنوان الأول الذي اختاره المؤلف ونص عليه، وهو المدون على الأصول الخطية المعتمدة.

(١) عبد الرحمن بن حسن، «مجموعة التوحيد» (١/ ٥٥) وانظر: ابن قاسم «الدرر السنية» (٢/ ٢٩٠).

والكتاب صحيح النسبة إلى المؤلف، دون شك، فقد ذكره كما سبق، وأجمعت النسخ على ذلك، وكذلك كُتب التراجم. كما أنه أحال فيه إلى أحد كُتبه المشهورة، وأشار إلى أخذه عن الإمام محمد بن عبد الوهاب. ولا أعرف أن أحداً نسبته إلى غيره، في ما بين يدي من المصادر.

منهج التحقيق:

اعتمدتُ نسخة المكتبة السعودية أصلاً، لجودتها وقدمها. وعارضتُ النسخ الأخريات بها، وأثبت ما بينها من الفروق الهامة^(١)، ولا سيما ما سقط من المطبوعة. أما نُعوت التكريم ونحوها فاقترصتُ على ما في الأصل، دون أن أُشير إلى الاختلاف لعدم الأهمية.

ولم أتصَرَّف في النصِّ إلا في حدود ما تملّيه الضرورة، من تعديل أو إضافة، مع الإشارة إلى ذلك في موضعه.

وقمتُ بعزو الآيات الكريمة، وتخريج الأحاديث والآثار، مع نقل كلام أهل العلم في شأن ثبوتها ما استطعت. واجتهدتُ في أن أرد النصوص إلى مصادرها، حسب الطاقة.

كما فسرت ما حسبه غامضاً، وترجمتُ لغير المشاهير، وعلّقتُ باقتضاب على ما رأيْتُ أنه يحتاج إلى تعليق.

ووضعتُ لكل باب عنواناً مرقماً، أخذته من عناوين كتاب التوحيد، لزيادة الإيضاح. كما أثبت أرقام الأصل في الهامش، لمن أراد الرجوع إليه.

والتزمتُ أن يبدأ كلامُ صاحب المتن بكلمة: قال المصنف رحمه الله تعالى: ويبدأ كلام الشارح بحرف (ش). ولم أُخلْ به قط، وإن كانت النسخ التي بين يدي لا تلتزم به دائماً. وقيمتُ بحذف جميع الزيادات التي لم ترد في الأصول الخطية التي بين يدي، من النصوص والمسائل وغيرها، حيث ضمها الطابعون إلى الشرح وتصرفوا في الكتاب.

كما التزمتُ أيضاً بإيراد الآيات الكريمة كاملة، ما استدعى إليه المقام. وإن كانت

(١) ومن أراد معرفة الفروق بين النسخ فيمكنه الرجوع إلى الطبعة الأولى عام ١٤١٥ هـ.

ترد أحياناً، مشاراً إلى بقيتها بكلمة: الآية. وتركْتُ التنبيه عليه في كل موضع، اكتفاءً بذكره هنا.

وحرصتُ على سلامة نص (كتاب التوحيد)، فقابلته على نُسختين خطيتين جيدتين، صورتهما من إحدى المكتبات الخاصة في الرياض. أسأل الله تعالى أن ينفع به الجميع، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويوفقنا وكافة إخواننا المسلمين إلى ما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة، وأن يكتب للجميع من أسهم فيه الأجر والثوبة. إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو للخير أهل. والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً، كما يحب ربنا ويرضاه. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكتبه

الوليد بن عبد الرحمن بن محمد آل فريان
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الشريعة في الرياض

نماذج النسخ الخطية

ونسقى عنه النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه فقال ليس كمثل شيء من شئ من نبي الله صلى الله عليه وسلم وعو العباس بن
 عبد المطلب ساقه المصنف مختصراً والذي في سنن أبي داود عن العباس بن عبد المطلب
 قال كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فمضت بهم سحابة فظن
 اليها فقال ما تسمي هذه قالوا السحاب قالوا والمن قالوا والمن قالوا والمن قالوا والمن قالوا
 والعنان قال ابو داود لم ارفع العنان جداً قال هل تدرين كم بعد ما بين السماء والارض
 قالوا لا ندرى قال ان بعد ما بينهما اما واحدة واثنان او ثلاث وسبعين سنة ثم
 السماء فوقها كذلك حتى عدد سبع سموات ثم فوق السابعة بحر اسفله واعلاه مثل ما بين
 السماء الى سماء ثم فوق ذلك ثمانية اوعال بين ارضها فمهم ثم ما بين سماء الى
 ثم على ظهورهم العرش بين اسفله واعلاه كما بين سماء الى سماء ثم الله تبارك وتعالى
 ذلك واخرجه الترمذي وابو ماجه وقال الترمذي حسن غريب وقال المحافظ
 الذهبي رواه ابو داود باسناد حسن وروى الترمذي عن محمد بن حنفية عن ابي هريرة
 بعد ما بين سماء الى سماء ثمانية اوعال ولا اشارة بينهما لان تفرد ذلك بمخبراته عام
 هو على سائر الغافلة مثلاً ونيف وسبعين سنة على سائر البريد لانه يصح ان يقال
 بين مصر وعشرون يوماً باعتبار سير العادق واثلاثة ايام باعتبار سير البريد وروى
 بعض هذا الحديث عن سماء فوقه هذا اخر كلامه قلت فيه التصريح بان اسد فوق عرش
 كما تقدم في الايات المحكمات والاحاديث الصحيحة وفي كلام السفرة العصابة والناحية
 وثابعهم وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما ولا عبرة بقول من صنعوا
 لكثرة شواهد التي يستحيل فيها وصرفها عن ظواهرها وهذا الحديث كما قاله
 على عظمة الله وكلمة عظيمة مخلوقة وانه المنصف بصفات اكمل التي وصف
 نفسه في كتابه ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى كل قدرته وانه هو المعبود
 وحده لا شريك له دون كل ما سواه وبالله التوفيق والاحول والاقوم الامام الله
 العلي العظيم وحبنا اسد ونعم الوكيل وصلى الله على سيد المرسلين وامام المومنين
 نبينا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين ثم كتاب فتح المجد بعون الملك الحميد

كتاب فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد
 شيخنا العالم العلامة والخبير الفهم
 حفيد المصنف الشيخ عبد الرحمن ابن
 الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب
 ابن الشيخ ابي سليمان
 ابن الشيخ عالم الله
 بلطفه الخفية
 امين

ملك من فضل رب الكون
 لعل عبده عبد الله
 محمد بن عبد الرحمن
 بالله العلي العظيم
 والحمد لله رب العالمين

العالم نرين وخير الناس يطلبه والجاهلون لاهل العلم اعداء
 فعش بعلم ولا تبغ لبد لا الناس موتى واهل العلم احياء
 اعمل نفسك قبل الموت ^{غير} فاما الرج والخسران في العمل

تعالى الناس فيما قدر او وروا وكلم يدعون الفخر بالظفر
 فخذ بقول يكون النص يصرف اما عن الله او عن تد البشر
 قال الامام الفاضل رحمه الله تعالى اما بعد فان العلم بطي الزمان بعبد كرام
 لا يدرك بالسهم ولا يورث بالمال ولا يورث عن الزبا والاعمال فما هو
 هو شجرة لا تنصلح الا بالعلم والافعال لا بالنفس ولا تنسقى الا بالدين
 ولا تحضر الا بالاستناد الى الحق وافتراش المذموم وادمان السهر وقلة النوم
 وصلة اللذات بالهو ولا تحضر الا بشفقة العينين وحشي على الكبر والظلمة
 نهام بلجم وليله بالجم ان يخرج من ذلك فبقها كلام الله حتى يقتضيه
 الحابر ويقطع الفقار ولا يفصل في طلب العلم بين الليل والنهار ولا

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان الا
 على الظالمين. كما لبنت دعوة والمشركون. واشهد ان لا اله الا الله وحده
 لا شريك له له الاولين والآخرين وقبض السموات والارضين. واشهد
 ان محمدا عبده ورسوله وخيرته من خلقه اجمعين. اللهم صل على
 وعلى آل محمد واصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين. وكل تسليما
 اما بعد فان كتاب التوحيد الذي افهه الامام شيخ الاسلام
 محمد بن عبد الوهاب اعظم الله له الاجر والثواب وغفر له ولن
 اجاب دعوته يوم يقوم الحساب فديعاه بدعي في معناه من بيان
 التوحيد براهينه وجمع جل من ادلت له لثبته فصا على الاخرة
 وجميع على المحدثين فانلفغ به الخلق الاكثروا والجمعة الغفير
 فان هذه الامام رحمه الله تعالى صمد نشئت قد شرح الله صدره
 للعالمين الذي بعث الله به المرسلين من اخلاص العباد بجميع
 انواعها لله رب العالمين وانكار ما كان عليه الكفار من شرك
 المشركين فاعل الله همتهم وقوى عزيمتهم فصدى لدعواهم
 نجد الى التوحيد الذي هو اساس الاسلام والايمان وبها هم عن
 عبادة الاصنام والاعجار والقبور والطوائف من الاوثان
 وعن الايمان بالسيرة والنجسين والكهان فاجل الله بدعوتهم
 بدعة وضلالة يدعون اليها كل شيطان واقام الله به علم اليقين
 وادحض به شبهة المعارضين من اهل الشرك والعناد في
 دان بالاسلام اكثر اهل تلك البلاد الحاضرة منهم والبادية
 دعوتهم ونواقيتهم الا فاقوا حتى اقرت بالفضل من كان من اهل
 الشقاق الامن استغود عليه الشيطان وكثر اليه الايمان
 فاصتر على العناد والطغيان وقد اصبح اكثر اهل جزيرة العرب
 بدعوتهم كما قال قتادة رحمه الله عن حال اول هذه الامة ان
 المسلمين لما قالوا لا اله الا الله انكر ذلك المشركون وكبرت
 عليهم فاني الله الا ان يرضعها وينصرها ويظهرها على من ناولها

ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وحسبنا الله
 ونعم الوكيل وصلى الله على سيد المرسلين
 وامام المتقين نبينا محمد وعلى اله
 وصحبه اجمعين وسلم
 تسليما كثيرا الى
 يوم الدين
 امين

تم الكتاب المسمى فتح المجيد بعون الملك الحميد بقلم افقر
 العباد واحوجهم الى رحمة ربه المنان عبد الرحمن ابن داود
 ابن سليمان ابن تركي الضحيا غفر الله له ولوالديه ولشايخه
 ولاخوانه المسلمين الاحياء منهم والميتين فرغت منه يوم
 الاربعاء لثلاثة وعشرين يوما خلعت في شهر رجب سنة ١٢٨٥ هـ

الجنة قال العباد بن كثير صحيح من هذا الخبر وعن أبي بركة قال
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أنبئكم بالجنة الكبار قلنا بل يا رسول
 الله الصغار لا أشرك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال
 لا أو قول الزور لا أو شهادة الزور فأنزل عليه ما حكي قلنا
 لبيته فسكت وراة البخاري ومسلم وعنه عبيد الله بن عمر قال قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوفى الوالدين وسخطه في
 لخط الوالدين وراة الترمذي وصححه بن حبان والحاكم وعن
 أبي أسيد الساعدي قال بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله
 عليه وسلم إذ جاء رجل من بني سلمة فقال يا رسول الله هل بقي من
 برأيتك شيئا بعد موتك فقال نعم الصلاة عليه ما
 والا أتبعنا لها وانقل فتعبد بها بعد ما وصلة الرحم التي لا تو
 صل إلا بها وأكبر ما صدقتم ما رواه أبو داود وابن ماجه والاحاد
 يثنون من المعنى كثيرة جدا قوله وعبدوا الله ولا تشكروا به شيئا
 قال العباد بن كثير سمعته من النبي صلى الله عليه وآله في هذه الآية بامتنان عبادته بها
 فتمت وخلاصة لا أشرك لي فانه الخائف الذي لا يمنع التفضل على خلقه
 في جميع الحالات وهو الحق منهم ان يوجد ولا يشكروا به شيئا
 من خلقه انه استمر وهذه الآية هي التي تسمى الحق العتق العتق
 وفي بعض النسخ العتق من شيء هذا الكتاب يعلم هذه الا
 لية عبارة الامام وكذا قد مرها المناسبة كذا من سقوا الا في لا
 نية الامام ليكون ذلك بعد ما انشأ وقوله تعالى قل تعالوا
 انك ما حرام عليكم ان تشكروا به شيئا والوالدين احسانا الا
 بان قال العباد بن كثير يعني ان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

الموعود اذا سلم كما يفعله كثير من الشيخين الاسلام لان ذلك لم يبق عندنا
 احدهم الصحيح انه فكان ببطنة محض في البسوط قالوا ما كان لا اسم ان يقف
 عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم وكلمة يسلم وعيسى ونصحه انه يستقبل القبلة
 ويجعل الخرج عن يساره ليلا يستديره وبالجملة قد اتفق الاكابر على انه قال
 دعاء لا يستقبل القبلة فمنا عود هذا يستقبله عند السلام عليه لم لا وحسب
 الحديث دليل على منع هذا الجاهل القبيح صلى الله عليه وسلم والى قبر غيره منكم
 لقبور المشاهدين فذلك من اتخاها اعداء لا يرام اعظم سببا لا تشبه
 باصحابها وهذه هي المسئلة التي افتى بها شيخ الاسلام الحنفى من سافه
 لمجوز سبيل لا يهوى الا بشاره وفضل الحديث ونقله في اختلاف العلماء قد سئل في ذلك
 كالغالب في الجهد المقدسي ومن مانع لذلك كتاب بطة وادعيف والى محمد الجويني
 والقاضي عياض وهذا من الجهد من عند عليهما الكمال ولم يخالف احدهما الا في
 وهو الصواب لما في الصحيحين عن ابي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تشد
 الرجال الا الى ثلاثة ساجد للمجد الامام ومسجد عينا والمسجد الاقصى قد
 في الغني شذها في اية القبور المشاهد فاما ان يكون منها واما ان يكون
 فيها وجبا في اية بصيغة النبي فتعني ان يكون للنهي ولشذها فهم
 منه الصحيح المنع كافي للقطر والسند عنه بصحة في بعضه الفنا في
 انه قال لا يخرجه وقد قبل من الطول لها وكتب قبل ان يخرج اليه لما حدث
 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تملأ المصطفى الا الى الثلاثة ساجد المسجد
 الامام ومسجد في هذا والمسجد الاقصى ومسجد الامام احمد ومسجد شبة في اخيرا
 المدينة باسنا وجين عن قيس بن قال ان شاذ عن فقلته ان اسجد الطول
 فقال انما تشد الرجال الى الثلاثة ساجد المسجد الامام ومسجد المدينة والمسجد
 الاقصى قد عرفت الطول ولا تامة فاجب عن بصحة في اية بصحة جعل
 الطول مما نهى عنه عن شذها الى لا اللفظ النفي فكذلك في الغني عن
 شذها عن الثلاثة مما يقصد به الفرية فعمل ان للسنتي منه عام

النص المحقق



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعينُ وعليه التُّكلان

الحمدُ لله ربَّ العالمين، والعاقبةُ للمتقين ولا عدوان إلاَّ على الظالمين - كالمبتدعة والمُشركين - وأشهدُ أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، إلهُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ وقَيُّومُ السماوات والأرَضِينَ. وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسوله وخيرُهُ من خلقه أَجمعين.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وأصحابه ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا.
أما بعدُ:

فإنَّ كتابَ التَّوحيد - الذي أَلَفَهُ الإمامُ شَيْخُ الإسلام، مُحَمَّدُ بن عبد الوهَّاب، أَجَزَلُ الله له الأجر والثواب، وغفر له ومن أَجاب دعوته يوم يقوم الحساب - قد جاء بديعاً في معناه: من بيان التوحيد ببراہينه، وجمع جُمْلٍ من أدلته لإيضاحه وتبيينه. فصار علماً للموحِّدين، وحُجَّةً على الملحدِّين. فانتفع به الخلقُ الكثير، والجمُّ الغفير.

فإنَّ هذا الإمامَ رحمه الله في مُبتدأ نشأته، قد شرح الله صدره للحق المبین، الذي بَعَثَ به المرسلين: من إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله رب العالمين، وإنكار ما عليه الكثيرُ من شرك المشركين.

فأعلى الله همته، وقوى عزيمته، فتصدَّى لدعوة أهل نجد إلى التوحيد - الذي هو أساسُ الإسلام والإيمان - ونهاهم عن عبادة الأشجار والأحجار، والقبور والطواغيت والأوثان، وعن الإيمان بالسَّحرة والمنجِّمين والكُهَّان.

فأبطل الله بدعوته كلَّ بدعة وضلالة يدعو إليها كلُّ شيطان، وأقام الله به عِلْمُ الجهاد، وأدخَصَ به شُبُهَ المعارضين من أهل الشرك والعناد، ودانَ بالإسلام أكثرُ أهل تلك البلاد، الحاضر منهم والباد، وانتشرت دعوته ومؤلفاته في الآفاق، حتى

أقرّ له بالفضل من كان من أهل الشقاق. إلّا من استحوذ عليه الشيطان وكرّه إليه الإيمان، فأصرّ على العناد والطغيان.

وقد أصبح أكثر أهل جزيرة العرب، بدعوته كما قال قتادة^(١) رحمه الله تعالى عن حال أول هذه الأمة: إنّ المسلمين لما قالوا: لا إله إلّا الله، أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم، وضاق بها إبليس وجنوده. فأبى الله إلّا أن يُمضيها [٢/١] ويظهرها، وينصرها على من ناوأها. إنّها كلمة من خاصم بها قَلَجٌ، ومن قاتل بها نُصِر. إنّما يعرفها أهل هذه الجزيرة التي يقطعها الراكب في ليالٍ قلائل، ويسير الراكب في فئام من الناس، لا يعرفونها ولا يُقرّون بها.

وقد شرح الله صدور كثير من العلماء لدعوته، وسرّوا واستبشروا بطلعته، وأثنوا عليه نثراً ونظماً.

فمن ذلك، ما قاله عالمُ صنعاء: محمد بن إسماعيل الأمير^(٢)، في هذا الشيخ رحمه الله تعالى [شعراً]^(٣)،

وقد جاءت الأخبارُ عنه بأنّه يُعيد لنا الشرعَ الشريف بما يُبدي
وينشر جهرًا ما طوى كلُّ جاهل ومُبتدع منه فوافق ما عندي
ويُعمّر أركان الشريعة هادِمًا مشاهد ضلّ الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سُواع ومثله يغوث وودّ بشس ذلك من ودّ
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سُوحها من عَقيرة أهلت لغير الله جهرًا على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل ومُستلم الأركان منهمن بالأيدي^(٤)

(١) أبو الخطاب بن دُعامة السُدوسي، نابي جليل، ثقة ثبت توفي بعد المئة. «تقريب التهذيب» (٤٥٣).

(٢) محمد بن إسماعيل الأمير، الكُحلاني، من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنه، حافظ أصولي فقيه، ولد سنة ١٠٩٩ هـ. له كتاب: «سُبُل السلام»، «توضيح الأفكار»، «إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد»، توفي سنة ١١٨٢ هـ. «البدر الطالع» (١٣٣/٢).

(٣) إضافة من (ض).

(٤) وهي قطعة من قصيدة طويلة، في أكثر من سبعين بيتاً، كتبها سنة ١١٦٣ هـ ومطلعها:
سلام على نَجْدٍ ومن حلّ في نَجْدٍ وإن كان تسليمي على البُعد لا يُجدي
«الديوان» (١٢٨/).

وقال شيخنا^(١) أبو بكر، حسين بن غنّام^(٢) رحمه الله تعالى، فيه:
لقد رفعَ المولى به رُتبة الهدى بوقتٍ به يُعلَى الضلالُ ويرفعُ
سقاء غيرَ الفهم مولاه فارتوى وعام بتيّار المعارف يقطعُ
فاحيا به التوحيدَ بعد اندراسه وأوهى به من مطلع الشرك مهيع^(٣)
سما ذروة المجد التي ما ارتقى لها سواه ولا حاذى فناها سميدع^(٤)
وشمرَ في منهاج سنّة أحمد يُشيد ويحيى ما تعفَى ويرفع
يُنَظر بالآيات والسُنّة التي أمرنا إليها في التنازع نرجع
فأضحت به السمحاء^(٥) يسمُ ثغرها وأمسى محيّاها يُضىء ويلمع
وعاد به نهجُ الغواية طامسًا وقد كان مسلوكةً به الناس تربع^(٦)
وجرت به نجدٌ ذيول افتخارها وحُقّ لها بالالمعي^(٧) ترفعُ / [١/ب]
فأثّاره فيها سوامٍ سوافِرٍ وأنواره فيها تُضىء وتلمع^(٨)

وأما كتابه المذكور، فموضوعه: في بيان ما بعث الله به رسله: من توحيد
العبادة، وبيانه بالأدلة من الكتاب والسنة، وذكر ما يُنافيه من الشرك الأكبر، أو
يُنافي كماله الواجب من الشرك الأصغر ونحوه، وما يَقْرُب من ذلك أو يوصل
إليه.

(١) (ض) (هـ) (ط) شيخنا عالم الأحساء.

(٢) مؤرخ أديب نحوي، استقدمه الإمام محمد بن سعود من الأحساء ليعلم أبناء الدعوة النحو، فقرأ عليه
غالب من كان في الدرعية من طلبة العلم توفي سنة ١٢٢٥هـ. «عنوان المجد» (١/٣١١).

(٣) المتهيج: الطريق الواسع الواضح. «معجم» ابن فارس (٦/٢٥).

(٤) (ط). سَمِيدَع. وهو بإعجام الدال، وإهمالها: الكريم الشريف السخي الشجاع «ترتيب القاموس»
(٦٢٢/٢).

(٥) الأصل: السمحاء

(٦) (ط): ترتع. والرّبة: السير الشديد «الأضداد» (٣٦٦/).

(٧) الألمعي: الرجل الذي يظنُّ الظنَّ فلا يكاد يكذب، «معجم ابن فارس» (٥/٢١٢).

(٨) مقطع من قصيدة في رثاء الإمام محمد بن عبد الوهاب، وأولها:

لقد كسفت شمسُ المعارف والهُدى فسالت دماءً في الحدود وأدُمع

«عنوان المجد» (١/١٩٣).

وقد تصدَّى لشرحه: حفيد المصنّف، وهو الشيخ سليمان بن عبد الله^(١) رحمه الله تعالى. فوضع عليه شرحاً أجاد فيه وأفاد، وأبرز فيه من البيان ما يحب أن يطلب منه ويراد، وسمّاه (تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد)^(٢).

وحيث أطلق شيخ الإسلام، فالمراد به: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية. والحافظ، فالمراد به: أحمد بن حجر العسقلاني.

ولما قرأتُ شرحه: رأيتُه أطنب في مواضع، وفي بعضها تكرارٌ يستغنى بالبعض منه عن الكل، ولم يكمله^(٣).

فأخذتُ في تهذيبه وتقريبه وتكميله، وربما أدخلت فيه بعضَ النقول المستحسنة تميماً للفائدة، وسمّيته: فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد.

والله أسأل، أن ينفع به كلُّ طالبٍ للعلم ومُستفيد، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وموصلاً مَنْ سعى فيه إلى جنات النعيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم

ش: ابتداء كتابه بالبسملة؛ اقتداءً بالكتاب العزيز، وعملاً بحديث «كلُّ أمرٍ ذي بال^(٤) لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع»^(٥).

(١) العلامة الحافظ المفسر، الفقيه الداعية المجاهد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ولد سنة ١٢٠٠، وتوفي في ريعان شبابه سنة ١٢٣٣ هـ له ترجمة واسعة في مقدّمة رسالة «الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك» مطبوعة سنة ١٤٠٨ هـ.

(٢) مطبوع متداول، وأعمل على تحقيقه ومعارضته بنسخه الكثيرة. يسّر الله ذلك.

(٣) حيث قُتل المؤلف أثناء أحداث الدرعية الدامية سنة ١٢٣٣ هـ ولما يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره، وما تركه كان مسودة، وقد حالت وفاته المبكرة دون إكماله ومراجعتها.

(٤) أي: شريف، يُحتفل له ويهتم به. «النهاية» (١/١٦٤).

(٥) أخرجه عبد القادر الرّهاوي في «الآربعين» كما في «الدرر المنثور» (٢٦/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ابن حجر، كما في «الفتوحات» (٣/٢٩٠): في سنده ضعف، وسقط بعض رواته.

أخرجه ابنُ حَبَّانٍ من طريقين. قال ابنُ الصلاح: والحديثُ حسنٌ^(١).
ولأبي داود، وابن ماجه «كلُّ أمرٍ ذى بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله أو بالحمد فهو
أقطع»^(٢) ولأحمد «كلُّ أمرٍ ذى بال لا يفتح بذكر الله فهو أتر أو أقطع»^(٣)
وللدارقطنى، عن أبى هريرة مرفوعاً: «كلُّ أمرٍ ذى بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو
أقطع»^(٤).

والمصنفُ قد اقتصر فى بعض نسخه على البسمة؛ لأنها من أبلغ الثناء والذكر،
وللحديث المتقدم.

وكان النبىُّ ﷺ يقتصر عليها فى مراسلاته؛ كما فى كتابه لِهَرْقَلٍ عظيم
الروم^(٥).

ووقع لى نسخة بخطه رحمه الله تعالى، بدأ فيها بالبسمة، وثنى بالحمد
والصلاة/ على النبى ﷺ وآله^(٦). [١/٢]

وعلى هذا: فالابتداء بالبسمة حقيقى، وبالحمدلة نسبى إضافى، أى: بالنسبة
إلى ما بعد الحمد، يكون مبدوءاً به.

والباء فى (بسم الله) متعلقة بمحذوف، اختار كثيرٌ من المتأخرين: كونه فعلاً
خاصاً، متأخراً.

أما كونه فعلاً، فلأن الأصل فى العمل للأفعال.

وأما كونه خاصاً: فلأن كل مُبتدئٍ بالبسمة فى أمر، يُضمَرُ ما جعل البسمة
مبدأً له.

(١) قال السيوطى: وسنده حسن. «الدر المنثور» (٢٦/١)، وقد وهم من حسنه بهذا اللفظ، أو عزاه لابن
حَبَّانٍ. وإنما ذلك فى الحديث بعده، كما سيأتى.

(٢) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٨٤٠) وابن ماجه فى «السنن» رقم (١٨٩٤)، وأخرجه ابن أبى شيبة، فى
«المصنف» (١١٦/٩)، من حديث أبى هريرة.

(٣) «المستد» (٣٥٩/٢) وأخرجه النسائى فى «عمل اليوم والليلة» رقم (٤٩٧).

(٤) الدارقطنى فى «السنن» (٨٤/١). وهو حسن بشواهده، كما قال النووى، فى «الأذكار» (١٠٣).

(٥) أخرجه البخارى فى «الصحيح» الرقم (٦) ومسلم فى «الصحيح» الرقم (١٧٧٣) وأحمد فى «المستد»

(٢٦٢/١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٦) وهى النسخة التى اعتمد عليها الشارح، كما سيأتى

وأما كونه متأخراً: فلدلالتة على الاختصاص، وأدخل في التعظيم، وأوفق للوجود، ولأنَّ أهمَّ ما يُبدأ به ذِكْرُ الله تعالى^(١).

وذكر العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى، لحذف العامل فوائد:

منها: أنَّه موطن لا ينبغي أن يتقدَّم فيه غير ذكر الله.

ومنها: أن الفعل إذا حُذِفَ صحَّ الإبتداء بالبسملة، في كل عملٍ وقول وحركة. فكان الحذف أعمَّ. انتهى ملخصاً^(٢).

وباءُ بسم الله؛ للمصاحبة. وقيل: للاستعانة، فيكون التقدير: بسم الله أوَّلُف حال كوني مستعيناً بذكره، متبركاً به.

وأما ظهوره في ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] وفي ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا﴾ [هود/ ٤١] فلأنَّ المقامَ يقتضى ذلك، كما لا يخفى.

والاسم: مشتقٌّ من السُّمُو، وهو العلو. وقيل: من الوَسْم، وهو العلامة؛ لأن كل ما سُمِّيَ فقد نُوِّهَ باسمه ووُسِمَ.

قوله: (الله). قال الكسائي والفرّاء: أصله الإله، حذفوا الهمزة وأدغموا اللام في اللام، فصارتا لاماً واحدةً مشدَّدةً مُفَخَّمةً.

قال ابنُ القيم رحمه الله: الصحيحُ أنَّه مشتق، وأنَّ أصله الإله، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ. وهو الجامع لمعانى الأسماء الحُسنى، والصفات العُلَى.

والذين قالوا بالاشتقاق، إنَّما أرادوا أنَّه دالٌّ على صفة له تعالى، وهي الإلهية. كسائر أسمائه الحُسنى، كالعليم، والقدير، والسميع والبصير، ونحو ذلك. فإنَّ هذه الأسماء مشتقةٌ من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة. ونحن لا نعنى بالاشتقاق إلا أنَّها ملاقيةٌ لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنَّها متولَّدة منه تولَّد الفرع من أصله.

(١) ويرى الحافظ ابن كثير: أنه سواء قدرنا المتعلق بالباء اسماً أو فعلاً فكلاهما صحيح، وكلُّ قد ورد به القرآن

الكريم «التفسير» (١/ ٣٨).

(٢) ابن القيم: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٥).

وتسمية النحاة للمصدر، والمشتق منه: أصلاً وفرعاً، ليس معناه: أن أحدهما متولد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر/ وزيادة^(١). [٢/ب]

قال أبو جعفر بن جرير: الله. أصله الإله، أسقطت الهمزة التي هي فاء الاسم، فالتقت اللام التي هي عين الاسم، واللام الزائدة وهي ساكنة. فأدغمت في الأخرى، فصارتا في اللفظ لاماً واحدة مشددة^(٢). انتهى.

[وقال]^(٣): وأما تأويل الله، فإنه على معنى ما روى لنا، عن عبد الله بن عباس: هو الذى يآلهه كل شىء، ويعبده كل خلق.

- وساق بسنده - عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الله ذو الألوهية والعبودية^(٤) على خلقه أجمعين^(٥).

فإن قال لنا قائل: وما دل على أن الألوهية هي العبادة، وأن الإله هو المعبود، وأن له أصلاً فى فعل ويفعل؟

[قيل: لا تمنع بين العرب فى الحكم]^(٦) - وذكر - بيت رؤبة بن العجاج.

لله در الغانيات المده سبّحن واسترجعن من تألهي^(٧).

يعنى: من تعبدى، وطلبى الله بعملى.

ولا شك أن التأله التفعّل، من آله يآله^(٨). وقد جاء منه مصدر، يدل على أن العرب قد نطقت منه^(٩) بفعل يفعل، بغير زيادة.

وذلك ما حدثنا به سفيان بن وكيع - وساق السند إلى - ابن عباس: أنه قرأ

(١) ابن القيم: «بدائع الفوائد» (١/٢٢). بتصرف.

(٢) ابن جرير: «جامع البيان عن تأويل القرآن» (١/١٢٥).

(٣) إضافة يقتضيها السياق.

(٤) فى «تفسير الطبرى» و«السيوطى»: «المعبودية».

(٥) وأخرجه ابن أبى حاتم كما فى «الدر المنثور» (١/٢٣) وفيه بشر بن عمار. ضعيف.

(٦) ساقط فى جميع النسخ، والاستدراك من «الجامع». والمعنى: لا اختلاف بينهم، يدعو بعضهم إلى دفع ما يقوله الآخر.

(٧) رؤبة: «الديوان» (١/١٦٥).

(٨) فى (ط) زيادة ما نصه: وأن معنى آله إذا نطق به: عبد الله.

(٩) (ض) (ط): به.

﴿وَيَذَرُكَ وَالْهَيْكَلُ﴾ [الأعراف: ١٢٧] قال: عبادتك، ويقول: إنه كان يُعبد، ولا يعبد.

وساق بسند آخر - عن ابن عباس ﴿وَيَذَرُكَ وَالْهَيْكَلُ﴾ قال: إنما كان فرعون يُعبد، ولا يعبد^(١). وذكر مثله عن مُجاهد.

[ثم قال]^(٢): فقد بين قول ابن عباس، ومجاهد [هذا]^(٣): أن أله عبداً، وأن الإلهة مصدره. - وساق حديثاً - عن أبي سعيد مرفوعاً «إن عيسى أسلمته أمه إلى الكتاب ليُعلِّمه. فقال له المعلم: اكتب بسم الله^(٤)، فقال عيسى: أتدرى ما الله؟ الله إله الآلهة^(٥)».

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية - ثم قال - : وأما خصائصه المعنوية، فقد قال أعلم الخلق به صلى الله عليه وسلم «لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٦) وكيف تُحصى خصائص اسم: لسماء كل كمال على الإطلاق، وكل مدح وحمد، وكل ثناء وكل مجد، وكل إجلال وكل كمال، وكل عز وكل جمال. وكل خير وإحسان، وجود [١/٣] وفضل وبر فله ومنه/.

فما ذكر هذا الاسم في قليل إلا كثره، ولا عند خوف إلا أزاله، ولا عند كرب إلا كشفه، ولا عند هم وغم إلا فرجه، ولا عند ضيق إلا وسَّعه، ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة، ولا ذليل إلا أناله العز، ولا فقير إلا أصاره غنياً، ولا مستوحش إلا آنسه، ولا مغلوب إلا أيده ونصره، ولا مضطر إلا كشف ضره، ولا شريد إلا آواه.

فهو الاسم الذي تُكشف به الكربات، وتُستنزَل به البركات، وتُجاب به

(١) الأثران عن ابن عباس، في سندهما: سفيان بن وكيع. ضعيف، ينظر: «جامع البيان» (١/١٢٤).

(٢) ما بينهما ساقط من الأصل (ض) و(هـ).

(٣) «جامع البيان» و(ض): الله.

(٤) وأخرجه ابن حبان في «المجروحين» ترجمة رقم (٤٤)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٥١) وابن عدى في «الكامل» (١/ ٢٩٩) بسند ضعيف جداً، كما قال السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٣).

(٥) ابن جرير، «جامع البيان» (١/ ١٢٢ - ١٢٣).

(٦) قطعة من حديث، أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الدعوات، وتُقَال به العثرات، وتُستدفع به السيئات، وتستجلب به الحسنات.

وهو الاسم الذي قامت به السموات والأرض^(١)، وبه أنزلت الكتب، وبه أرسلت الرسل، وبه شرعت الشرائع، وبه قامت الحدود، وبه شرع الجهاد، وبه انقسمت الخليقة إلى السعداء والأشقياء، وبه حَقَّت الحاقة، ووقعت الواقعة، وبه وُضعت الموازين القسط ونُصب الصراط، وقام سوق الجنة والنار، وبه عبد رب العالمين وحُمد، وبُحِقَّه بُعثت الرسل، وعنه السؤال في القبر ويوم البعث والنشور، وبه الخصام وإليه المحاكمة، وفيه الموالة والمعادة، وبه سَعِدَ من عرفه وقام بحقه، وبه شَقِيَ من جهله وترك حقه. فهو سرُّ الخلق والأمر، وبه قاما وثبتا، وإليه انتهيا.

فالخلقُ به وإليه، ولأجله. فما وجد خلقٌ ولا أمر، ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتدئاً منه متتهياً إليه. وذلك موجه ومقتضاه ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. [آل عمران ٩١]. إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى.

قوله: (الرحمن الرحيم). قال ابن جرير: حدثني السري بن يحيى، حدثنا عثمان بن زُفر، سمعتُ العزمي^(٢) يقول: الرحمن بجميع الخلق، والرحيم بال مؤمنين.

وساق بسنده - عن أبي سعيد - يعنى الخُدري - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَالَ: الرَّحْمَنُ. رَحْمَنُ الْآخِرَةِ وَالْدُّنْيَا، وَالرَّحِيمُ: رَحِيمُ الْآخِرَةِ»^{(٣)(٤)}.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: واسمُه: الله تعالى. دالٌّ على كونه مألوهاً معبوداً، يألوه الخلائق: محبةً وتعظيماً وخضوعاً، ومفزعاً إليه في الخوائج والنوائب/. وذلك مستلزمٌ لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنتين لكمال الملك [٣/ب]

(١) (هـ) (ط): الأرض والسموات.

(٢) محمد بن عبيد الله نسبة إلى عزم. «طبقات ابن سعد» (٦/٣٦٨). قال أحمد في «المسند» (١١/١٤٤):

لا يسأري حديثه شيئاً.

(٣) طرفٌ من خبر طويل، ضعيف جداً، سبق تخريجه قريباً.

(٤) ابن جرير: «جامع البيان» (١/١٢٧).

والحمد. وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه: مستلزمٌ لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحَيٍّ، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا مُتَكَلِّم، ولا فعَّالٌ لما يُريد، ولا حكيمٌ في أقواله وأفعاله.

فصفاتُ الجلال والجمال: أخصُّ باسم الله، وصفاتُ الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع، ونفوذُ المشيئة وكمالُ القوة، وتدبيرُ أمر الخليفة: أخصُّ باسم الرب.

وصفاتُ الإحسان، والجود والبر والحنان، والرافة واللطف: أخصُّ باسم الرحمن^(١).

[وقال رحمه الله، أيضاً]^(٢):

الرحمنُ: دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيمُ: دالٌّ على تعلُّقها بالمرحوم.

وإذا أردتَ فهمَ هذا، فتأمل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الاحزاب: ٤٣] ﴿إِنَّهُمْ بِرُؤُوفٍ رَحِيمٍ﴾ [التوبة: ١١٧] ولم يجئ قطُّ رحمنٌ بهم.

وقال: إنَّ أسماءَ الرب تعالى، هي أسماءٌ ونعوت. فإنَّها دالةٌ على صفات كماله، فلا تنافى فيها بين العلمية والوصفية. فالرحمنُ: اسمه تعالى، ووصفه.

فمن حيثُ هو صفةٌ، جرى تابعاً لاسم الله. ومن حيثُ هو اسم، ورد في القرآن غير تابع. بل ورُودُ الاسمِ العَلَمُ، كقوله تعالى: ﴿الرحمنُ على العرش استوى﴾ [طه: ٥] انتهى ملخصاً^(٣).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: الحمدُ لله.

ش: ومعناه: الثناءُ بالكلام على الجميل، على وجه التعظيم.

فمورده: اللسان، والقلب. والشكرُ: يكون باللسان، والجَنَان، والأركان. فهو أعمُّ من الحمد مُتَعَلِّقاً، وأخصُّ سبباً؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة.

(١) ابن القيم، «مدارج السالكين» (١/٣٢).

(٢) ما بينهما ساقطٌ من الأصل و(ض).

(٣) ابن القيم: «بدائع الفوائد» (١/٢٤).

والحمد: أعمُّ سبباً، وأخصُّ مورداً؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة وغيرها.
فبينهما عمومٌ وخصوصٌ وجهي، يجتمعان في مادة، وينفرد كلُّ واحد عن الآخر
في مادة.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.
ش: أصحُّ ما قيل في معنى صلاة الله على عبده: ما ذكره البخاريُّ رحمه الله
تعالى، عن أبي العالية، قال: صلاةُ الله، ثناؤه عليه عند الملائكة^(١).
وقرَّره ابنُ القيم رحمه الله تعالى، ونصره في كتابه (جلاء الأفهام)^(٢) و(بدائع
الفوائد)^(٣).

قلتُ: وقد يُراد بها الدعاء؛ كما في (المسند) عن علي، مرفوعاً «الملائكة تُصلي
على أحدكم ما دام في مُصَلَّاه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»^(٤). [١/٤]
قوله: (وعلى آله) أي: أتباعه على دينه. نصَّ عليه الإمامُ أحمد هنا.
وعليه أكثرُ الأصحاب^(٥). وعلى هذا: فيشمل الصحابة، وغيرهم من المؤمنين.
قال المصنفُ رحمه الله تعالى: كتابُ التوحيد.

ش: كتاب: مصدر: كَتَبَ يَكْتُبُ كتاباً، وكتابةٌ وكتَباً. ومدارُ المادة على الجمع،
ومنه: تَكْتَبُ بنو فلان، إذا اجتمعوا. والكتيبة: لجماعة الخيل. والكتابة بالقلم:
لاجتماع الكلمات والحروف. وسُمِّي الكتابُ كتاباً: لجمعه ما وُضِعَ له.
والتوحيدُ، نوعان: توحيدٌ في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية،
والأسماء والصفات.

وتوحيدٌ في الطلب والقصد وهو توحيد الإلهية والعبادة.
قال العلامةُ ابنُ القيم رحمه الله تعالى: وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل،
ونزلت به الكتب، فهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب
والقصد.

(١) فتح الباري (٥٣٢/٨).

(٢) ابن القيم: «جلاء الأفهام» (٢٠).

(٣) ابن القيم: «بدائع الفوائد» (٢٦/١).

(٤) «مسند» أحمد (١/١٤٤)، وأخرجه من حديث أبي هريرة. البخاري في «الصحيح» رقم (٦٥٩) ومسلم في

«الصحيح» رقم (٦٤٩).

(٥) أصحاب أحمد. وينظر: ابن قدامة، «المغني» (٢/٢٣٢) وابن عبد الهادي، «الدراية» (١/١٦).

فالأوّل: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى، وصفاته وأفعاله وأسمائه، وتكليمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جِدَّ الإفصاح، كما في أوّل سورة الحديد، وسورة طه، وآخر الحشر، وأوّل تنزيل السجدة، وأوّل آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك.

النوع الثانى: ما تضمنته سورة قل يا أيها الكافرون، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وأوّل سورة تنزيل الكتاب^(١)، وآخرها. وأوّل سورة يونس ووسطها، وآخرها. وأوّل سورة الأعراف، وآخرها. وجملّة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن. بل كل سورة في القرآن، فهي متضمنة لنوع التوحيد، شاهدة به داعية إليه.

فإن القرآن: إمّا خبرٌ عن الله تعالى، وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله. فهو التوحيد العلمى الخبرى.

وإمّا: دعوةٌ إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يُعبد من دونه. فهو التوحيد الإرادى الطلبى.

[٤/ب] وإمّا: / أمرٌ ونهى، وإلزامٌ بطاعته وأمره ونهيه. فهو حقوق التوحيد ومكملاته. وإمّا: خبرٌ عن إكرام أهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا، و[ما]^(٢) يكرمهم به في الآخرة. فهو جزاء توحيد.

وإمّا: خبرٌ عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحلّ بهم في العقبي من العذاب. فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله: في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم. انتهى^(٣).

قال شيخ الإسلام: التوحيد الذى جاءت به الرسل، إنما يتضمن إثبات الإلهية

(١) سورة غافر.

(٢) إضافة من: (ض) و(ط) و(المدارج).

(٣) ابن القيم: «مدارج السالكين» (٣/٤٤٩).

لله وحده، بأن يشهد أن لا إله إلا هو. لا يُعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالى إلا له، ولا يُعادى إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله.

وذلك يتضمن، إثبات ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات؛ قال تعالى: ﴿وَالْهَكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. [البقرة: ١٦٣] وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فإِيايَ فارهبون﴾ [النحل: ٥١] وقال تعالى: ﴿ومن يدعُ مع الله إِلَهًا آخَرَ لا برهانَ له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلحُ الكافرون﴾ [المؤمنون: ١١٧] وقال تعالى: ﴿وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلَهةً يُعبدون﴾ [الزخرف: ٤٥].

وأخبر عن كل نبي من الأنبياء، أنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وقال: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ [المتحنة: ٤]، وقال عن المشركين ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلِهتنا لشاعر مجنون﴾ [الصافات: ٣٥ - ٣٦]، وهذا في القرآن كثير.

وليس المراد بالتوحيد: مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف^١. ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل، فقد أثبتوا غاية التوحيد. وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه، فقد فنوا في غاية التوحيد/ ١

[١/٥]

فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات، ونزّهه عن كل ما ينتزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء: لم يكن موحدًا، حتى يشهد أن لا إله إلا الله. فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له. والإله: هو المألوه المعبود، الذي يستحق العبادة. وليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق؛ فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أن هذا هو أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا هو الغاية في التوحيد - كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمي الصفاتية^(١)، وهو الذي يقولونه عن أبي

(١) المثبتون لبعض الصفات، كالاشاعة والكلائية.

الحسن^(١) وأتباعه - لم يعرف^(٢) حقيقة التوحيد الذى بعث الله به رسوله ﷺ؛ فإن مشركى العرب كانوا مُقرّين بأن الله وحده خالق كل شئ، وكانوا مع هذا مشركين، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال طائفة من السلف: تسألهم، من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله. وهم مع هذا يعبدون غيره^(٣).

قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ سيقولون لله قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩] فليس كل من أقر بأن الله تعالى رب كل شئ وخالقه، يكون عابداً له دون ما سواه، داعياً له دون ما سواه، راجياً له خائفاً منه دون ما سواه، يُوالى فيه ويعادى فيه، ويطيع رُسُلَه، ويأمر بما أمر به وينهى عما نهى عنه.

وعامة المشركين أقرّوا بأن الله خالق كل شئ، وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به، وجعلوا له أنداداً، قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفْعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً [الزمر: ٤٣ - ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفْعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فَيْكُمُ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ولهذا كان من أتباع هؤلاء، مَنْ يسجدُ للشمس والقمر والكواكب ويدعوها، ويصوم وينسك لها. ويتقرب إليها، ثم يقول: إن هذا ليس بشرك! إنما الشرك إذا اعتقدت أنها المدبرة لي!! فإذا جعلتها سبباً وواسطة لم أكن مشركاً!!.

(١) على بن إسماعيل البصرى الأشعرى. كان متكلماً ثم حسن معتقده وترك مذهبه القديم، له كتابا (الابانة) و(المقالات) مات سنة ٣٢٤. الذهبى: «العبر» (٢٣/٢).

(٢) جميع النسخ: يعرفوا. تحريف.

(٣) يروى عن ابن عباس، وغيره. ينظر «تفسير الطبرى» (١٣/ ٥٠، ٥١).

ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، أنَّ هذا شركٌ. انتهى كلامه رحمه الله تعالى^(١):

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ش: بالجذر، عطفٌ على التوحيد. ويجوز الرفع، على الابتداء.

قال شيخ الإسلام: العبادة هي طاعةُ الله، بامثال ما أمر الله به على السنته الرسل.

وقال أيضاً: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة^(٢).

قال ابن القيم: ومدارها على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية.

وبيان ذلك: أنَّ العبادة منقسمة، على القلب واللسان والجوارح. والأحكام التي للعبودية خمسة: واجبٌ، ومستحبٌ، وحرامٌ، ومكروهٌ، ومباحٌ. وهنَّ لكل واحدٍ من القلب، واللسان، والجوارح^(٣).

وقال القرطبي: أصلُ العبادة: التذللُ، والخضوع^(٤).

وسُميت وظائفُ الشرع على المكلفين: عبادات؛ لأنهم يلتزمون بها ويفعلونها، خاضعين متذللين لله تعالى. ومعنى الآية: أن الله تعالى، أخبر أنَّه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته.

فهذا هو الحكمةُ في خلقهم.

قلت: وهي، الحكمةُ الشرعية الدينية.

قال العمادُ بن كثير: وعبادته: هي طاعته بفعل المأمور، وترك المحظور. وذلك

(١) ابن تيمية: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٩٧).

(٢) ابن تيمية: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

(٣) ابن القيم: «مدارج السالكين» (١/ ١٠٩).

(٤) القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢٢٥، ١٧/ ٥٦).

هو حقيقة دين الإسلام؛ لأن معنى الإسلام: الاستسلامُ لله تعالى، المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع. انتهى.

وقال أيضاً - فى تفسير هذه الآية - ومعنى الآية: أن الله تعالى خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتمَّ الجزاء، ومن عصاه عذَّبه أشدَّ العذاب. وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، وهو خالقهم ورازقهم^(١).

[١/٦] قال على بن أبى طالب رضى الله عنه - فى الآية - إلا لأمرهم أن يعبدونى/ وأدعوهم إلى عبادتى^(٢). وقال مجاهد: إلا لأمرهم وأنهم^(٣). اختاره الزجاج^(٤)^(٥)، وشيخ الإسلام^(٦).

قال: ويدلُّ على هذا، قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] قال الشافعى: لا يؤمر ولا يُنهى^(٧).

وقال فى القرآن، فى غير موضع ﴿اعبدوا ربكم﴾ [البقرة: ٢١] ﴿اتقوا ربكم﴾.

فقد أمرهم بما خلُقوا له، وأرسل الرسلَ بذلك. وهذا المعنى، هو الذى قصد بالآية قطعاً، وهو الذى يفهمه جماهير المسلمين، ويحتجُّون بالآية عليه.

قال: وهذه الآية، تُشبه قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ [النساء: ٦٤]. ثم قد يُطاع وقد يُعصى، وكذلك ما خلقهم إلا لعبادته^(٨)، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون.

وهو سبحانه، لم يقل: إنه فعل الأول: وهو خلقهم؛ ليفعلَ بهم كلهم الثانى:

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٠٢).

(٢) ذكره البغوى، فى «معالم التنزيل» (٤/ ٢٣٥).

(٣) ذكره شيخ الإسلام، فى «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٧٨).

(٤) أبو إسحاق، إبراهيم بن السرى. نحوى أديب ت (٣١١هـ) «اللباب» (٢/ ٦٢).

(٥) نقله عنه ابن الجوزى، فى «زاد المسير» (٨/ ٤٢).

(٦) ينظر: ابن تيمية، «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٧٨).

(٧) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد، كما فى «الدر المنثور» (٨/ ٣٦٣).

وهو عبادته. ولكن ذكر الأول، ليفعلوا هم الثاني، فيكونوا هم الفاعلين له. فيحصل لهم بفعله سعادتهم، ويحصل ما يحبه ويرضاه منهم ولهم. انتهى^(١).

ويشهد لهذا المعنى: ما تواترت به الأحاديث.

فمنها: ما أخرجه مسلم في (صحيحه)، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «يقولُ الله تعالى لأَهْوَنِ أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردتُ منك ما هو أهْوَنُ من هذا، وأنت في صلب آدم: أن لا تُشرك بى - أحسبه قال: ولا أدخلك النار - فأبيت إلا الشرك»^(٢).

فهذا المشرك، قد خالف ما أراده الله تعالى: من توحيده، وأن لا يُشرك به شيئاً. فخالف ما أراده الله منه، فأشرك به غيره. وهذه هى الإرادة الشرعية الدينية، كما تقدّم.

فَبَيَّنَ الإرادة الشرعية الدينية، والإرادة الكونية القدرية عمومٌ وخصوص مُطلق. يجتمعان فى حق المُخلص المطيع، وتنفرد الإرادة الكونية القدرية فى حق العاصى! فافهم ذلك، تنجُ به من جهالات أرباب الكلام وتابعيهم.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: وقوله: «ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت» [النحل: ٣٦].

ش: الطاغوت: مشتق من الطغيان، وهو مُجاوزة الحد. قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: الطاغوت: الشيطان^(٣).

وقال جابر رضى الله عنه: الطواغيت، كَهَآنُ كانت تنزل عليهم الشياطين^(٤) / [٦/ب] رواهما ابنُ أبى حاتم^(٥).

(١) ابن تيمية: «مجموع الفتاوى» (٨ / ٥٦).

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٨٠٥)، وأخرجه البخارى فى الصحيح رقم (٦٥٥٧)، وأحمد فى «المسند»

(٣) (٢١٨ / ٣).

(٤) أخرجه الطبرى فى «التفسير» رقم (٥٨٣٤، ٥٨٣٥) والغريابى، وسعيد بن منصور كما فى «الدر المنثور» (٢٢ / ٢)، وعلقه البخارى فى «الصحيح» (٨ / ٢٥١) (فتح) قال الحافظ: وإسناده قوى.

(٥) أخرجه الطبرى فى «التفسير» رقم (٥٨٤٥)، وعلقه البخارى فى «الصحيح» (٨ / ٢٥١).

(٦) ابن أبى حاتم: كما فى «الدر المنثور» (٢ / ٢٢).

وقال مالك: الطاغوت: كلُّ ما عُبد من دون الله^(١).

قال العمادُ بن كثير: الطاغوت: الشيطان، وما زينه من عبادة غير الله.

قلتُ: وذلك المذكور، بعضُ أفرادهِ. وقد حدَّه العلامةُ ابن القيم رحمه الله تعالى، حدًّا جامعاً: الطاغوتُ، ما تجاوز به العبدُ حدَّه: من معبودٍ، أو متبوعٍ، أو مُطاعٍ. فطاغوتُ كلِّ قومٍ: من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتَّبِعونه على غير بصيرة من الله، أو يُطِيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله.

فهذه طواغيتُ العالم. إذا تأملتُها وتأملتُ أحوالَ الناس معها، رأيتَ أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعة الله ورسوله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته^(٢).

وأما معنى الآية: فأخبر تعالى، أنه بعث في كلِّ طائفة من الناس رسولا بهذه الكلمة ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: اعبدوا الله وحده، واتركوا عبادة ما سواه؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وهذا معنى لا إله إلا الله؛ فإنها هي العروة الوثقى.

قال العمادُ بن كثير - في هذه الآية -: وكلُّهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه. فلم يزل تعالى يُرسل الرسلَ بذلك، منذ حدث الشركُ في قوم نوحٍ الذين أرسل إليهم.

وكان أولُ رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ، الذي طبَّقت دعوته الإنس والجن، في المشرق والمغرب. وكلُّهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في «المصدر» السابق.

(٢) ابن القيم: «اعلام الموقعين» (١/ ٥٣).

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [النحل: ٣٦].

فكيف يسوغ لأحد من المشركين - بعد هذا - أن يقول: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء؟! .

فمشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسن رُسُلِهِ. وأما مشيئته الكونية - وهي تمكينهم من ذلك قَدْرًا - فلا حُجَّةَ لهم فيه؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر. وله في ذلك حجة بالغة، وحكمة قاطعة؛ ولهذا/ قال: ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من [١/٧] حَقَّتْ عليه الضلالة﴾ [النحل: ٣٦]. انتهى^(١).

قلت: وهذه الآية تُفسَّرُ الآيةَ قبلها، وذلك قوله تعالى: ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حَقَّتْ عليه الضلالة﴾، فتدبرا.

ودلَّتْ هذه الآية على أنَّ الحكمة في إرسال الرسل: دعوتُهم أُمَمَهُم إلى عبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وأنَّ هذا هو دينُ الأنبياء والمرسلين، وإنَّ اختفت شريعتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لكلُّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجا﴾ [المائدة: ٤٨] وأنه لا بُدَّ في الإيمان من العمل، من القلب والجوارح.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً * واخفض لهما جناح الذلِّ من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

ش: قال مُجاهد: قضى، يعنى: وصَّى^(٢). وكذا قرأ أبي بن كعب^(٣)، وابن مسعود، وغيرهم^(٤).

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٨٩).

(٢) ذكره ابن كثير في «التفسير» (٥/ ٦١).

(٣) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٥/ ٤٦).

(٤) أخرجه الطبراني، وعبد الرزاق، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٥/ ٢٥٨).

ولابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وقضى ربك﴾ يعنى: أمر^(١).
وقوله: ﴿ألا تعبدوا إلا إياه﴾ المعنى: أن تعبدوه وحده دون ما سواه، وهذا
معنى: لا إله إلا الله.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: والنفى المحض ليس توحيداً، وكذلك
الإثبات بدون النفى. فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفى والإثبات، وهذا هو
حقيقة التوحيد.

قوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أى: وقضى أن تحسنوا بالوالدين إحساناً، كما
قضى بعبادته وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى فى الآية الأخرى ﴿أن أشكر لى
ولو الديك إلى المصير﴾. [لقمان: ١٤]. وقوله: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما
أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما﴾ أى: لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا
التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ.

﴿ولا تنهرهما﴾ أى: لا يصدر منك إليهما فعلٌ قبيح، كما قال عطاء بن أبى
رباح^(٢): لا تنفض يديك على والديك^(٣).

ولما نهى عن الفعل القبيح والقول القبيح، أمره بالفعل الحسن والقول الحسن،
فقال: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ أى: لينا طيباً، بأدب وتوقير.

وقوله: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أى: تواضع لهما.

﴿وقل رب ارحمهما﴾ أى: فى كبرهما، وعند وفاتهما؛ ﴿كما ربباني
صغيراً﴾^(٤)، وقد ورد فى برِّ الوالدين أحاديث كثيرة.

منها: الحديث المروى من طُرق، عن أنس، وغيره، أن رسول الله ﷺ لما صعد
المنبر، قال: «آمين آمين/ آمين» فقالوا: يا رسول الله، على ما أمّنت. فقال:
«أتانى جبريل، فقال: يا محمد رَغِمَ أَنْفُ امرئٍ ذُكِرَ عنده فلم يُصلِّ عليك. قل

(١) ابن جرير: «التفسير» (١٥ / ٤٨).

(٢) أبو محمد، القرشى مولا هم المكي. ثقة فقيه من أفاضل التابعين، لكنه كثير الارسال. «تقريب» (٢ / ٢٢).

(٣) أخرجه الطبرى فى «التفسير» (١٥ / ٤٨).

(٤) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٥ / ٦١).

أمين. فقلت: آمين. ثم قال: رَغِمَ أنفُ امرئٍ دخل عليه شهرُ رمضان، ثم خرج ولم يُغفر له. قل آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رَغِمَ أنفُ امرئٍ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يُدخلا الجنة. قل آمين. فقلت: آمين»^(١).

وروى الإمام أحمد، من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ: «رَغِمَ أنفُ، ثم رَغِمَ أنفُ، ثم رَغِمَ أنفُ رجلٍ أدرك والديه، أو أحدهما، لم يدخل الجنة»^(٢) قال^(٣) العمادُ ابن كثير: صحيحٌ من هذا الوجه^(٤).

وعن أبي بكر، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين» وكان مُتَكِنًا فجلس، فقال: «ألا وقولُ الزور، ألا وشهادةُ الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. رواه البخارى، ومسلم^(٥).

وعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «رَضِيَ الربُّ فى رضى الوالدين، وسخطُهُ فى سخطِ الوالدين» رواه الترمذى^(٦)، وصححه ابنُ حبان^(٧) والحاكم^(٨).

وعن أبى أسيد السَّاعِدِى، قال: بينا نحن جلوسٌ عند النبي ﷺ، إذ جاء رجلٌ

(١) أخرجه من حديث أنس الجهميُّ فى «فضل الصلاة على النبي ﷺ» رقم (١٥) والبزار كما فى «مجمع الزوائد» (١٠ / ١٦٦) والفريابى وأبو بكر الشافعى كما فى «جلاء الأفهام» (٢٥ /). وأخرجه «الحاكم فى المستدرک» (٤ / ١٥٣) وصححه ووافقه الذهبى، من حديث كعب بن عُجرة، وأخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» رقم (٦٤٤) من حديث جابر بن عبد الله، وأخرجه الجهميُّ فى «فضل الصلاة على النبي ﷺ» الأرقام (١٦، ١٧، ١٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) «المسند» (٢ / ٢٥٤، ٣٤٦)، وأخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٥٥١).

(٣) من هنا تبدأ نسخة (م).

(٤) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٥ / ٦٢).

(٥) البخارى، فى «الصحيح» رقم (٢٦٥٤)، مسلم، فى «الصحيح» رقم (٨٧)، وأخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٣٠٢).

(٦) الترمذى فى «الجامع» رقم (١٩٠٠).

(٧) ابن حبان: «موارد الظمان» رقم (٢٠٢٦).

(٨) الحاكم فى «المستدرک» (٤ / ١٥٢) وصححه ووافقه الذهبى، وأخرجه بحشل فى «تاريخ واسط» (٥١ /) والبنوى فى «شرح السنة» (١٣ / ١٢) وذكره الألبانى فى «صحيحته» رقم (٥١٦).

من بنى سلمة، فقال: يا رسول الله! هل بقي من برِّ أبوى شيءٍ، أبرُّهما به بعد موتهما؟ فقال: «نعم! الصلاةُ عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذُ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا تُوصل إلا بهما، وإكرام صديقهما» رواه أبو داود، وابن ماجه^(١). والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ جداً.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: «واعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً». [النساء: ٣٦].

ش: قال العمادُ بن كثير رحمه الله تعالى: في هذه الآية: يأمرُ تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه الخالقُ الرارق، المُنعم المتفضلُ على خلقه في جميع الحالات، وهو المستحق منهم أن يُوحّدوه ولا يُشركوا به شيئاً من مخلوقاته. انتهى^(٢).

وهذه الآية، هي التي تُسمّى: آية الحقوق العشرة. وفي بعض النسخ المُعمّدة من نسخ هذا الكتاب: تقديمُ هذه الآية على آية الأنعام. ولهذا قدّمْتُها؛ لمناسبة كلام ابن / مسعود الآتي لآية الأنعام، ليكون ذكرُهُ بعدها أنسب. [١/٨]

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إِملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نُكَلِّف نفساً إلا وسعها وإذا قُلْتُمْ فاعملوا ولو كان ذا قُرْبى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطي مُستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون» [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

ش: قال العمادُ بن كثير: يقول تعالى لنبيّه ورسوله محمد ﷺ: «قُلْ» لهؤلاء المُشركين الذين عبدوا غيرَ الله، وحرّموا ما رزقهم الله: «تَعَالَوْا» أى: هلمُّوا وأقبلوا «أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ» أى: أقصُّ عليكم «ما حرم ربكم عليكم»

(١) أبو داود، في «السنن» رقم (٥١٤٢)، ابن ماجه، في «السنن» رقم (٣٦٦٤).

(٢) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٦٠).

حقاً، لا تخرصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمرأ من عنده ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾
وكان في الكلام محذوفاً، دل عليه السياق. تقديره: وصاكم ألا تشركوا به شيئاً؛
ولهذا قال في آخر الآية ﴿ذَلِكَم وصاكم به﴾ انتهى^(١).

قلت: فيكون المعنى: حرم عليكم ما وصاكم بتركه، من الإشراك به.
وفي (المغنى) لابن هشام^(٢)، في قوله تعالى: ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ سبعة
أقوال. أحسنها: هذا الذي ذكره ابن كثير. ويليه: أُبين^(٣) لكم ذلك لئلا
تُشركوا^(٤). فحذفت الجملة من أحدهما - وهي (وصاكم) - وحرف الجر وما قبله
من الأخرى.

ولهذا إذا سئلوا عما يقول لهم رسول الله ﷺ، قالوا: يقول: «اعبدوا الله ولا
تُشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آبائكم» كما قال أبو سفيان، لهرقل^(٥).
وهذا هو الذي فهم أبو سفيان وغيره، من قول رسول الله ﷺ لهم: «قولوا:
لا إله إلا الله تفلحوا»^(٦).

قوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ قال القرطبي: الإحسانُ إلى الوالدين: برهما
وحفظهما وصيانتها، وامثال أمرهما، وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما.
و﴿إحساناً﴾ نُصب على المصدرية، وناصبة فعل [مضمر]^(٧) من لفظه، تقديره:
وأحسنوا بالوالدين إحساناً.

وقوله: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ الإملاق:

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٥٤).

(٢) عبد الله بن يوسف الأنصاري الحنبلي، نحوي لغوي (ت ٧٦١) «الدر الكامنة» (٢/ ٣٠٨).

(٣) في جميع النسخ: بين. وأثبت من «المغنى».

(٤) ابن هشام: «معنى اللبيب عن كتب الأعراب» (١/ ٢٧٧).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه أحمد في «المستد» (٣/ ٤٩٢، ٤/ ٣٤١)، والطبراني في «المعجم الكبير» رقم (٤٥٨٢) من حديث

ربيعة بن عباد، وأخرجه الدارقطني في «السنن» (٣/ ٤٤) والحاكم في «المستدرک» (٢/ ٦١١) وصححه ووافقه

الذهبي من حديث طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه.

(٧) إضافة من «الجامع» للتوضيح.

الفقرُ. أى: لا تَدُوا بناتكم خشية العيلة والفقر؛ فإنى رازقكم وإياهم. وكان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور، خشية الفقر. ذكره القرطبي^(١).

وفى (الصحيحين)، عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله! أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية [٨/ب] أن يطعم معك» قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك» ثم/ تلا رسول الله ﷺ «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق» الآية [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

وقوله: «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن» قال ابن عطية: نهى عام عن جميع أنواع الفواحش، وهى المعاصى و(ظهر) و(بطن) حالتان تستوفيان أقسام ما جعلتا له من الأشياء. انتهى^(٢).

قوله: «ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق» فى (الصحيحين) عن ابن مسعود^(٣) رضى الله عنه، مرفوعاً: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٤).

قوله: «ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون» قال ابن عطية: (ذلكم) إشارة إلى هذه المحرمات، والوصية: الأمر المؤكّد المقرر^(٥).

وقوله: «لعلكم تعقلون» (لعل) للتعليل: أى إن الله تعالى وصّانا بهذه الوصايا؛ لنعقلها عنه ونعمل بها.

وفى (تفسير) الطبرى الحنفى^(٦): ذكر أولاً (لعلكم تعقلون) ثم (تذكرون) ثم (تتقون)؛ لأنهم إذا عقلوا تذكروا، فإذا تذكروا خافوا واتقوا.

(١) القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن» (١٣٢/٧).

(٢) ابن عطية: «المحرر الوجيز» (١٧٩/٦).

(٣) الاصل و(ض) (م): ابن عباس. تحريف.

(٤) البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٨٧٨)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٦٧٦).

(٥) ابن عطية: «المحرر الوجيز» (١٨٠/٦).

(٦) أبو حامد، أحمد بن الحسين المروزي، المعروف بابن الطبرى. (ت ٣٧٧). «الطبقات السية» (١/٣٤١).

قال بعضهم: معناه: من أراد أن ينظر إلى الوصية التي كأنها كُتبت، وختم عليها فلم تُغَيَّر ولم تُبدَل، فليقرأ ﴿قل تعالوا﴾ إلى آخر الآيات.

شبهها بالكتاب الذي كُتب، ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص. فإن النبي ﷺ لم يوص إلا بكتاب الله تعالى / .

[١/١٠]

كما قال - فيما رواه مسلم - : «وإني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا؛ كتاب الله»^(١).

وقد روى عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يباعدني على هؤلاء الآيات الثلاث؟» ثم تلا قوله: ﴿قل تعالوا أتله ما حرم ربكم عليكم﴾ حتى فرغ من ثلاث الآيات، ثم قال: «من وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فادركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله. إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه» رواه ابن أبي حاتم^(٢)، والحاكم وصححه^(٣)، ومحمد بن نصر في (الاعتصام)^(٤).

قلت: ولأن النبي ﷺ لم يوص أمته إلا بما وصَّاهم به الله تعالى، على لسانه وفي كتابه الذي نزله ﴿تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾. [النحل: ٨٩] وهذه الآيات وصية الله تعالى، ووصية رسوله ﷺ.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قال: كنتُ رديفَ النبي ﷺ على حمارٍ، فقال لي: «يا معاذ، أتدرى ما حقُّ الله على العباد؟ وما حقُّ العباد على الله؟» قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّ الله على العباد: أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً، وحقُّ العباد على الله: أن لا يُعَذِّبَ من لا يشرك به شيئاً» قلتُ: يا رسول الله. أفلا أبشِّرُ الناسَ؟ قال: «لا تُبشِّرُهُم فيتَكَلَّوْا» أخرجاه في (الصحيحين)^(٥).

(١) مسلم، في «الصحيح» رقم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه في حجة الوداع.

(٢) ابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٣/٣٨١).

(٣) الحاكم، في «المستدرک» (٢/٣١٨) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) وأخرجه أيضاً عبد بن حميد، وأبو الشيخ، وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٣/٣٨١).

(٥) البخاري في «الصحيح» الأرقام (١٢٨، ١٢٩، ٢٨٥٦، ٥٩٦٧، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠، ٧٣٧٣)، ومسلم في

«الصحيح» رقم (٣٠).

قوله: ﴿وَلَا تَقْبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال ابن عطية: هذا نهى عام عن القرب الذي يعمّ وجوه التصرف، وفيه سدُّ الذريعة، ثم استثنى ما يحسن: وهو السعى في نمائه. قال مجاهد: التي هي أحسن: التجارة فيه^(١).

وقول: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال مالك وغيره: هو الرشد وزوال السفه، مع البلوغ. روى نحو هذا: عن زيد بن أسلم^(٢)، والشَّعْبِي^(٣)، وربيعه^(٤) وغيرهم^(٥).

قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ قال ابن كثير^(٦): يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء ﴿لَا تَكْلَفْ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا﴾ أى: من اجتهد بأداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد است فراغ وسعه، وبذل جهده فلا حرج عليه^(٧).

قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ هذا أمرٌ بالعدل في القول والفعل، على القريب والبعيد.

قال الحنفى: العدلُ في القول في حق الولي والعدو، ولا يتغيّر في الرضى والغضب. بل يكون على الحق وإن كان ذا قُرْبَى، فلا يميلُ إلى الحبيب والقريب ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا/ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [١/٩] [المائدة: ٨].

قوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قال ابن جرير: وبوصية الله تعالى التي وصاكم بها فأوفوا، وانقادوا لذلك. بأن تُطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ، وذلك هو الوفاء بعهد الله^(٨). وكذا قال غيره.

(١) ابن عطية: «المحرر الوجيز» (٦/ ١٨٠).

(٢) أبو عبد الله العدوى، مولى عمر، المدني، ثقة عالم، وكان يُرسل (ت ١٣٦) «تقريب» (٢٢٢/).

(٣) أبو عمرو، عامر بن شراحيل. ثقة مشهور فقيه فاضل. مات بعد المائة. «تقريب» (٢٨٧/).

(٤) أبو عثمان بن قَرْوْخ المدني، المعروف بربيعه الراى، أو ربيعه بن أبى عبد الرحمن. ثقة فقيه مشهور. (ت ١٣٦). «طبقات بن سعد» (تكملة) (٣٢٤/ «والتقريب» (٢٠٧/).

(٥) ابن عطية: «المحرر الوجيز» (٦/ ١٨١).

(٦) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٥٩).

(٧) «المصدر السابق» (٣/ ٣٦٠).

(٨) الطبرى: «جامع البيان» (١٢/ ٢٢٦).

قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: تتعظون، وتنتهون عما كنتم فيه.

قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قال القرطبي: هذه آية عظيمة، عطفها على ما تقدم؛ فإنه [لما] ^(١) نهى وأمر، حذر عن اتباع غير سبيله، على ما بيّنته الأحاديث الصحيحة، وأقاويل السلف. وأن: فى موضع نصب، أى: وأتل أن هذا صراطى. عن الفراء، والكسائي. [قال الفراء] ^(٢): ويجوز أن يكون خفضاً: أى وصّاكم به، وبأن هذا صراطى.

- قال - والصراط: الطريق، الذى هو دين الإسلام. مستقيماً: نُصب على الحال، ومعناه: مستويّاً قويمّاً ^(٣)، لا اعوجاج فيه.

فأمر باتباع طريقه الذى طَرَقه - على لسان محمد ﷺ - وشرعه، ونهايته الجنة. وتشعبت منه طرف، فمن سلك الجادة نجاً، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أى: تميل. انتهى ^(٤).

وروى أحمد، والنسائي، والدارمي، وابن أبي حاتم، والحاكم - وصححه - ورواه محمد بن نصر المروزي فى (كتاب الاعتصام) بسند صحيح، عن ابن مسعود، قال: (خطّ رسولُ الله ﷺ خطاً بيده. ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خطّ خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: وهذه السُّبُل ليس منها سبيلٌ إلا وعليه شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ^(٥)).

(١) ساقط من الاصل و(م) و(هـ) و(ط).

(٢) إضافة من «التفسير».

(٣) (هـ) (ط): قيماً.

(٤) القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن» (١٣٧/٧).

(٥) «مسند أحمد» (٤٣٥/١)، «السنن الكبرى» للنسائي كما فى «تحفة الأشراف» (٤٩/٧)، و«سنن

الدارمي» (٦٧/١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» كما فى «الدر المنثور» (٣٨٥/٣)، و«المستدرک للحاكم»

(٣١٨/٢) وصححه ووافقه الذهبي، و«السنن» للمروزي (٥/٥)، وله شاهد من حديث جابر، أخرجه ابن

ماجه رقم (١١) وابن أبي عاصم رقم (١٦) والمروزي (٦/٦).

وعن مُجاهد: «ولا تتبعوا السبل» قال: البدع، والشبهات^(١).

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: ولنذكر في الصراط المستقيم قولاً وجيزاً، فإنَّ الناس قد تنوعت عباراتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته. وحقيقتهُ شَيْءٌ واحد، وهو طريق الله الذى نصبه لعباده موصلاً لهم إليه، ولا طريق إليه سواه، بل الطرقُ كُلُّها مسدودةٌ على / الخلق إلا طريقه، الذى نصبه على السن [٩/ب] رسله، وجعله موصلاً لعباده إليه. وهو إفراذه بالعبودية، وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يُشْرِك به أحداً فى عبوديته ولا يُشْرِك برسوله ﷺ أحداً فى طاعته. فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول ﷺ.

وهذا كُلُّه مضمون شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله. فأى شَيْءٍ فُسِّر به الصراطُ المستقيم، فهو داخلٌ فى هذين الأصلين. ونكتة ذلك: أن تُحِبَّه بقلبك، وتُرضيه بجهدك كله فلا يكون فى قلبك موضعٌ إلا معموراً بحبه، ولا يكون لك إرادةٌ إلا متعلقة بمرضاته.

فالأوَّلُ: يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.

والثانى: يحصل بتحقيق شهادة أنَّ محمداً رسول الله. وهذا هو الهدى ودين الحق، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة ما بعث الله به رسوله والقيام به. فقل ما شئت من العبارات، التى هذا آخِيتُها^(٢) وقطبُ رحاها^(٣).

- قال - : وقال سهل بن عبد الله^(٤): عليكم بالآثر والسنة، فإنى أخافُ أنه سيأتى عن قليلٍ زمانٌ، إذا ذَكَرَ إنسانُ النَّبِيَّ ﷺ والإِقْدَاءَ به فى جميع أحواله، ذمُّوه ونفروا عنه وتبرأوا منه، وأذلُّوه وأهانوه.

قال المصنَّفُ رحمه الله تعالى: قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية

(١) أخرجه الطبرى فى «التفسير» الأرقام (١٤١٦٣ - ١٤١٦٥)، وابن أبى شيبه، كما فى «الدر المنثور» (٣/٣٨٦).

(٢) الأخيَّة. بالمد والتشديد. واحد الآخرى، وهى الوجد الذى تشدُّ إليه الدابة. «الصحيح» (٦/٢٢٦٥).

(٣) ابن القيم: «بدائع الفوائد» (٢/٤٠).

(٤) أبو محمد بن يونس التستري من كبار الصوفية. أثنى عليه ابن تيمية، (ت ٢٨٣) ينظر «الاستقامة» (١/٤٠٤) «والشذرات» (٢/١٨٢).

محمد ﷺ التي عليها خاتمته، فليقرأ [قوله تعالى] ^(١) ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية.

ش: قوله: (ابن مسعود). هو عبد الله بن مسعود بن غافل - بمعجمة وفاء - بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، صحابي جليل من السابقين الأولين. من أهل بدر، وأحد، والخندق، وبيعة الرضوان، ومن كبار علماء الصحابة. أمره عمر على الكوفة، ومات سنة اثنتين وثلاثين، رضى الله عنه ^(٢).

وهذا الأثر، رواه الترمذي وحسنه ^(٣)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ^(٤)، والطبراني ^(٥) بنحوه.

^(٦) وسبب هذا القول - والله أعلم - ما رواه البخاري في (صحيحه)، عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه، قال: «أتتوني بكتاب أكْتُبُ لكم كتاباً لا تختلفوا بعده» قال عمر: إن النبي ﷺ غلبه الوجع! وعندنا كتاب الله حسبنّا ^(٧). فاختلفوا، وكثر اللغط، قال: «قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع» فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية، ما حال بين رسول الله وبين كتابه ^(٨) ^(٩). فقال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمته... الحديث ^(١٠).

(١) إضافة من (ض).

(٢) ترجمته في «طبقات ابن سعد» (٣٤٢/٢).

(٣) الترمذي: في «الجامع» رقم (٣٠٧٢).

(٤) كما في «الدر المنثور» (٣٨١/٣).

(٥) «المعجم الكبير» رقم (١٠٠٦٠)، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» كما في «الدر المنثور» (٣٨١/٣).

(٦) من هنا ساقط من (ض) و(م) و(هـ) و(ط) ومعلق في هامش الأصل، وعليه كلمة صح.

(٧) إنما كان قصده رضى الله عنه التخفيف عن رسول الله ﷺ؛ لما رأى ما هو فيه من شدة الكرب، ينظر «فتح الباري» (١٣٤/٨).

(٨) أخرجه البخاري في «الصحيح» الأرقام (١١٤، ٣٠٥٣، ٣١٦٨، ٤٤٣١، ٤٤٣٢، ٥٦٦٩، ٧٣٦٦) ومسلم في «الصحيح» رقم (١٦٣٧)، وأحمد في «المسند» برقم (٢٩٩٢).

(٩) قال ابن تيمية: ومن توهم أن هذا الكتاب كان بخلافة على، فهو ضالّ باتفاق عامة الناس. «منهاج السنة النبوية» (٢٦/٦).

(١٠) إلى هنا ينتهي السقط.

ش: هذا الحديثُ في (الصحيحين) من طُرُق، وفي بعض رواياته نحوُ ما ذكره المصنف.

ومُعَاذ: هو ابن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن، صحابيٌّ مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدرًا وما بعدها. وكان إليه المُنتهى، في العلم والأحكام والقرآن، رضى الله عنه.

وقال النبي ﷺ: « معاذٌ يُحشر يومَ القيامةِ أمامَ العلماءِ برّتوةٍ »^(١) أى بخطوة.

قال في (القاموس): والرتوةُ: الخطوةُ، وشرفٌ من الأرض، وسويعَةٌ من الزمان، والدعوةُ، والقطرةُ^(٢)، ورميةٌ بسهم، أو نحوُ ميلٍ أو مدى البصر. والراتى: العالمُ الربانيُّ. انتهى^(٣).

[١٠/ب] وقال في (النهاية)/: أنه يتقدّم العلماء برّتوة. أى: برّمية سَهْم. وقيل: بميل. وقيل: مدى البصر^(٤). وهذه الثلاثة، أشبهُ بمعنى الحديث.

مات سنة ثمانى عشرة بالشام، فى طاعون عَمَواس. واستخلفه النبي ﷺ على أهل مكة يوم الفتح، يعلمهم دينهم.

قوله: (كنتُ رديفَ النبي ﷺ). فيه: جوازُ الإردافِ على الدابة، وفضيلةُ معاذ. قوله: (على حمار). فى رواية اسمه: عُفَيْر^(٥).

قلت: أهداهُ إليه المُقَوِّسُ^(٦)، صاحب مصر^(٧). وفيه: تواضعه ﷺ لركوب الحمار والإردافِ عليه^(٨)، وخلافًا لما عليه أهلُ الكبر.

(١) أخرجه موصولاً ابنُ سعد فى «الطبقات» (٣٤٨/٢، ٥٨٠/٣)، وأبو نُعيم فى «الحلية» (٢٢٨/١) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وذكره الألبانى فى «صحيحته» برقم (١٠٩٠).

(٢) فى جميع النسخ: الفطرة. والتصويب من «القاموس».

(٣) «القاموس المحيط» للفيروزآبادى (٣٣٢/٤).

(٤) «النهاية فى غريب الحديث» لابن الأثير (١٩٥/٢).

(٥) البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٨٥٦).

(٦) جُرَيْجُ بْنُ مِينَى القِبْطى، والمقوس لقبٌ لكل من حكم مصر فى ذلك الزمان. «القاموس» (٢٤٢/٢).

(٧) أخرجه ابن سعد فى «الطبقات» (٢١٢/٨) عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة.

(٨) «كتاب التوحيد» المسألة الحادية والعشرون.

قوله: «أندرى ما حقُّ الله على العباد» أخرج السؤال بصيغة الاستفهام؛ ليكون أوقع في النفس، وأبلغ في فهم المتعلِّم.

وحقُّ الله على العباد: هو ما يستحقُّه عليهم.

وحقُّ العباد على الله: معناه أنه مُتَحَقِّقٌ لا محالة؛ لأنه قد وعدهم ذلك جزاءً لهم على توحيدِهِ ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦].

قال شيخ الإسلام: كونُ المطيع يستحق الجزاء، هو استحقاق إنعام وفضل. ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوقُ على المخلوق. فمن الناس، من يقول: لا معنى للاستحقاق إلا أنه أخبر بذلك ووعد صدق. ولكن أكثر الناس يُثبتون استحقاقاً رائداً على هذا؛ كما دلَّ عليه الكتابُ والسنة؛ قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، لكن أهل السنة يقولون: هو الذى كتب على نفسه الرحمة، وأوجب على نفسه الحق، لم يوجب عليه مخلوق.

والمعتزلة يدَّعون أنه واجبٌ عليه بالقياس على المخلوق^(١)، وأنَّ العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له، وأنَّهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون الموجب، وغلطوا في ذلك.

وهذا الباب غلِطت فيه الجبريةُ القدرية^(٢) أتباع جهم، والقدريةُ النافية^(٣).

قوله: (قلتُ: الله ورسوله أعلم). فيه: حُسن الأدب من المتعلم، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك، بخلاف أكثر المتكلِّفين^(٤).

قوله: «أنَّ يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» أى: يوحِّدوه بالعبادة. ولقد أحسن

العلامةُ ابن القيم، حيث عرَّفَ العبادة/ بتعريف جامع، فقال:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ مَعَ ذُلٍّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
وَعَلَيْهِمَا فَلْسُكَ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ مَادَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

(١) (م) : الخلق.

(٢) الاصل (هـ) و(ط): والقدرية.

(٣) هم القدريةُ المعتزلة، ينظر «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٣٠٠ - ٣٦٠).

(٤) الأولى إحالة الأمر إلى علم الله وحده، حيث لم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم بعد

وفاة النبي ﷺ، فيما نعلم.

ومداره بالأمر أمر رسوله لا بالهوى والنفس والشيطان^(١)

قوله: «ولا يُشركوا به شيئاً» أى: يوحّدوه بالعبادة، فلا بُدَّ من التجرّد من الشرك فى العبادة. ومن لم يتجرّد من الشرك، لم يكن آتياً بعبادة الله وحده، بل هو مشرك، قد جعل لله نداً.
وهذا معنى قول المصنّف رحمه الله تعالى: وفيه: أن العبادة هى التوحيد؛ لأنّ الخصومة فيه^(٢).

وفى بعض الآثار الإلهية: إني والجن والإنس فى نبيّ عظيم، أخلقُ ويُعبد غيرى، وأرزقُ ويشكر سواي. خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلى صاعد، اتجّب إليهم بالنعم، ويتبغضون إليّ بالمعاصي^(٣).

قوله: «وحقّ العباد على الله أن لا يُعذّب من لا يُشرك به شيئاً». قال الحافظ: اقتصر على نفي الإشراك؛ لأنه يستدعى التوحيد بالاقتضاء، ويستدعى إثبات الرسالة باللزوم. إذ من كذب رسولَ الله ﷺ فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك. أو^(٤) هو مثل قول القائل: من توضع صحت صلاته، أى: مع سائر الشروط. انتهى^(٥).

قوله: (أفلا أبشّرُ الناس). فيه: استحبابُ بشارَةِ المسلم، بما يَسره^(٦)، وفيه: ما كان عليه الصحابةُ من الاستبشار بمثل هذا. قاله المصنّف رحمه الله تعالى.
قوله: «لا تُبشّرهم فيتكلّوا». أى: يعتمدوا على ذلك، فيتركوا التنافس فى الأعمال.

وفى رواية: فأخبر بها معاذٌ عند موته، تأثماً^(٧). أى: تخرجاً من الإثم.

(١) ابن القيم: «الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية» (٣٢).

(٢) المسألة الثانية.

(٣) أخرجه الطبرانى فى «مُسند الشاميين»، والحاكم فى «التاريخ»، والبيهقى فى «شعب الإيمان»، والديلمى فى «مسند الفردوس» كما فى «الدر المنثور» (٧/ ٦٥٢) والحكيم الترمذى فى «نوادير الأصول» كما فى «الكنز»

(٣/ ١٦) مرفوعاً عن حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

(٤) جميع النسخ: و. والثبت من «الفتح».

(٥) ابن حجر العسقلانى: «فتح البارى» (١/ ٢٢٨).

(٦) المسألة السابعة عشرة.

(٧) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٢٨).

قال الوزير، أبو المظفر^(١): لم يكن يكتمها إلا عن جاهلٍ، يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة. فأما الأكياسُ، الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة، ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة، فلا وجه لكتمانها عنهم.

وفى الباب من الفوائد، غير ما تقدّم: الحثُّ على إخلاص العبادة لله تعالى، وأنها لا تنفع مع الشرك بل لا تُسمّى عبادة. والتنبيه على عظمة حق الوالدين، وتحريم عقوقهما. والتنبيه على عظمة الآيات المحكمات في سورة الأنعام^(٢).

وجواز كتمان العلم للمصلحة^(٣).

قوله: (أخرجاه). أى: البخارى، ومسلم.

والبخارى: هو الإمام، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بزْدَرَبَه الجعفى مولاهم، الحافظ الكبير، صاحب (الصحيح) و(التاريخ) و(الأدب المفرد)^(٤)، وغير ذلك من مصنفاته.

روى عن: الإمام أحمد بن حنبل، والحميدى^(٥)، وابن المدينى^(٦)، وطبقتهم. وروى عنه: مسلم، والنسائى، والترمذى، والفريزى^(٧) راوى (الصحيح). ولد سنة أربع وتسعين ومائة، ومات سنة ست وخمسين ومائتين^(٨).

(١) يحيى بن محمد بن هُبيرة، الوزير، فقيه محدث، له كتاب «الافصاح عن معانى الصحاح» وغيره (ت ٥٦٠) «سير أعلام النبلاء» (٢٠ / ٤٢٦).

(٢) «المسألة التاسعة».

(٣) «المسألة السادسة عشرة».

(٤) كلها مطبوعة متداولة، والحمد لله.

(٥) أبو بكر، عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشى، ثقة حافظ فقيه. (ت ٢١٩) «تقريب» (٣٠٣ / ٣).

(٦) أبو الحسن، على بن عبد الله بن جعفر بن نجيب السعدى، مولاهم البصرى، ثقة ثبت إمام. (ت ٢٣٤). «تقريب» (٤٠٣ / ١).

(٧) أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن مطر بن صالح، منسوب إلى قَرْبَر. وهى بلدة على طرف جيحون، م

يلى بخارى (ت ٣٢٠) «اللباب» (٢ / ٤١٨).

(٨) ينظر: الذهبي: «تذكرة الحفاظ» (٢ / ٥٥٥).

ومسلم^(١): هو ابن الحجاج بن مسلم، أبو الحسين، القشيري النيسابوري، صاحب (الصحيح) و(العلل) و(الوحدان)، وغير ذلك. روى عن: أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأبي خيثمة، وابن أبي شيبة وطبقته، وروى عن البخاري (صحيحه).

وروى عنه: الترمذي^(٢)، وإبراهيم بن محمد بن سفيان^(٣) راوي (الصحيح) وغيرهما.

ولد سنة أربع ومائتين، ومات سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور^(٤)، رحمه الله تعالى.

(١) ينظر: في ترجمته، الذهبي، «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٥٩٠).

(٢) روى عنه الترمذي حديثاً واحداً. «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٥٨٨).

(٣) العالم الفقيه. الذهبي، «المصدر السابق».

(٤) منطقة واسعة في شرق بلاد فارس، مما يلي بحر قزوين. ولم تزل بلاد إسلام حتى استحوز عليها الرافضة. ينظر البلاذري «فتوح البلدان» (٣٩٥).

(١)

باب

بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ بيان فضلِ التوحيد وما يكفّر من الذنوب.

ش: (باب): خبرٌ مبتدأ محذوف، تقديره: هذا.

قلت: ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف، تقديره: هذا.

و: (ما). يجوز أن تكون موصولة، والعائد محذوف. أى: وبيان الذى يكفّره من الذنوب. ويجوز أن تكون مصدرية، أى: وتكفيره الذنوب، وهذا الثانى أظهر.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [الانعام: ٨٢].

ش: قال ابن جرير: حدثنى المثنى - وساق بسنده - عن الربيع بن أنس، قال: الإيمان: الإخلاصُ لله وحده^(١).

وقال ابن كثير - فى الآية -: أى: هؤلاء الذين أخلصوا العبادةَ لله وحده، ولم يشركوا به شيئاً: هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون فى الدنيا والآخرة^(٢).

وقال ابن زيد، وابنُ إسحاق: هذا من الله على فصل القضاء، بين إبراهيم وقومه^(٣).

وعن ابن مسعود: لما نزلت هذه الآية، قالوا: فأينا لم يظلم نفسه؟

قال عليه السلام: ﴿إنَّ الشُّرَكَ لَظَلَمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

(١) ابن جرير «التفسير» (٤٩١/١١).

(٢) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (٢٨٨/٣).

(٣) «تفسير الطبرى» (٤٩٣/١١).

[١/١٢] وساقه البخاري/ بسنده، فقال: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ، عَنْ عُلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قلنا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَا لَا يَظْلَمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ، لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ: بِشُرْكَ. أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لَقْمَانَ لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»^(١)

وهذا الحديثُ في (الصحيح) و(المُسْتَدْرَك) وغيرهما.

ولاحمد بنحوه، عن عبد الله، قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَيْنَا لَا يَظْلَمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكَ»^(٢).

وعن عُمَرَ: أَنَّهُ فَسَّرَهُ بِالذَّنْبِ. فَيَكُونُ الْمَعْنَى: الْأَمْنُ مِنْ كُلِّ عَذَابٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ، وَالْكَلْبِيُّ: أَوْلَيْتُكَ لَهُمُ الْأَمْنُ فِي الْآخِرَةِ، وَهُمْ مُهْتَدُونَ فِي الدُّنْيَا.

قال شيخ الإسلام: والذين شَقَّ عَلَيْهِمُ، ظَنُّوا أَنَّ الظُّلْمَ الْمَشْرُوطَ هُوَ ظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ، وَأَنَّهُ لَا أَمْنٌ وَلَا اهْتِدَاءَ إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ. فَبَيَّنَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَا دَلَّهِمْ عَلَى أَنَّ الشِّرْكَ ظُلْمٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَلَا يَحْصُلُ الْأَمْنُ وَالْاهْتِدَاءُ إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِهَذَا الظُّلْمِ، كَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْنِ وَالْاهْتِدَاءِ، كَمَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَصْطِفَاءِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [الآية فاطر: ٣٢].

[و] هذا لا ينفى أن يؤخذ أحدهم بظلمه لنفسه، بذنب إذا لم يتب؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦ - ٧].

وقد سأل أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَا

(١) صحيح البخاري الأرقام (٣٢)، (٣٣٦٠)، (٣٤٢٨)، (٣٤٢٩)، (٤٦٧٦)، (٤٧٧٦)، (٦٩١٨)، (٦٩٣٧)، وأخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (١٢٤).

(٢) «المسند» الأرقام (٣٥٨٩)، (٤٠٣١)، (٤٢٤٠)، والطبري في «التفسير» رقم (١٣٤٨٠)، والترمذي في «الجامع» رقم (٣٠٦٩).

لم يعمل سوءاً؟! فقال: «يا أبا بكر أَلست تنصّب؟ أَلست تحزن، أليس يصيبك الَّلأواء؟^(١)! فذلك ما تُجزون به»^(٢).

فبيّن: أنَّ المؤمن الذى إذا مات دخل الجنة، قد يُجزى بسِئانه فى الدنيا بالمصائب.

- قال -: فمن سلّم من أجناس الظلم الثلاثة: الشرك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه بما دون الشرك، كان له الأمنُ التام/ والاهتداء التام. ومن لم يسلم من [١٢/ب] ظلّمه لنفسه، كان له الأمنُ والاهتداء مطلقاً.

بمعنى: أنّه لأبَدٌ أن يدخل الجنة، كما وعد بذلك فى الآية الأخرى. وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم، الذى تكون عاقبته فيه إلى الجنة. ويحصل له من نقصِ الأمن والاهتداء، بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه.

ليس مرادُ النبى ﷺ بقوله: «إنما هو الشرك» أنَّ من لم يُشرك الشرك الأكبر، يكون له الأمنُ التام والاهتداء التام. فإنَّ أحاديثه الكثيرة، مع نصوص القرآن: تبينُ أنَّ أهل الكبائر مُعرَّضون للخوف، لم يحصل لهم الأمنُ التام والاهتداء التام الذى يكونون به مُهتدين إلى الصراط المستقيم، صراطِ الذين أنعم الله عليهم، من غير عذاب يحصل لهم. بل معهم أصلُ الاهتداء إلى هذا الصراط، ومعهم أصلُ نعمة الله تعالى عليهم، ولأبَدٌ لهم من دخول الجنة.

وقوله: «إنما هو الشرك» إنَّ أراد الأكبر، فمقصوده: أنَّ من لم يكن من أهله فهو آمنٌ بما وعدَ به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة. وإنَّ كان مراده جنس الشرك، فيقال: ظلّم العبد لنفسه، كبخله - بحُب المال - ببعض الواجب هو شركٌ أصغر. وحبه ما يبغضه الله تعالى، حتى يقدّم هواه على محبة الله شركٌ أصغر، ونحو ذلك. فهذا فاتته من الأمن والاهتداء، بحسبه.

(١) الشدة وضيق المعيشة. «النهاية» (٢٢١/٤).

(٢) أخرجه أحمد فى «المسند» الأرقام (٦٨-٧١)، والمرزى فى «مسند» أبى بكر رقم (١١١)، والطبرى فى

«التفسير» الأرقام (١٠٥٢٣ - ١٠٥٢٨)، وابن حبان رقم (١٧٢٣) (موارد)، والحاكم فى «المستدرک»

(٧٤/٣) وصححه ووافقه الذهبى.

ولهذا كان السلفُ يُدخلون الذنبَ في هذا الشرك، بهذا الاعتبار. انتهى
ملخصاً^(١).

وقال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. قال الصحابة: "وأين يا رسول
الله لم يَلْبِسْ إيمانه بظلم؟". قال: «ذلك الشرك». أَلَمْ تسمعوا قولَ العبدِ الصَّالحِ
﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فلما أشكل عليهم المراد بالظلم، فظنُّوا أنَّ ظلمَ النفسِ
داخلٌ فيه، وأنَّ من ظلم نفسه - أى ظلم كان - لم يكن آمناً ولا مهتدياً. أجابهم
صلوات الله وسلامه عليه: بأنَّ الظلمَ الرَّافعُ للأمن والهداية على الإطلاق، هو
الشرك.

وهذا والله، هو الجوابُ الذى يشفى العليلَ ويروى الغليل، فإنَّ الظلمَ المطلق
[١/١٣] التام: هو الشرك، الذى هو/ وضعُ العبادة فى غير موضعها. والأمن والهدى
المطلق: هو الأمن فى الدنيا والآخرة، والهدى إلى الصراط المستقيم. فالظلمُ
المطلق التام، رافعٌ للأمن والهدى المطلق التام. ولا يمنع ذلك أن يكون مطلقُ
الظلم مانعاً من مطلق الأمن، ومطلق الهدى. فتأملهُ. فالمطلقُ للمطلق، والحصةُ
للحصة. انتهى ملخصاً^(٢).

قال المصنَّفُ رحمه الله تعالى: وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه، قال:
قال رسولُ الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً
عبده ورسوله، وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه،
والجنة حقٌّ والنار حقٌّ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» أخرجه^(٣).

ش: عبادة بن الصامت: ابن قيس الأنصارى الخزرجى، أبو الوليد، أحد
النقباء، بدرى مشهور. مات بالرملة^(٤) سنة أربع وثلاثين، وله اثنتان وسبعون
سنة. وقيل: عاش إلى خلافة معاوية.

(١) ابن تيمية، «الكلام على حقيقة الإسلام» (١٢٢ - ١٢٤).

(٢) ابن القيم، «الصواعق المرسلة» (١/ ٢٢١).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٤٣٥)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٨).

(٤) علّق فى هامش الأصل: موضع بالشام. وكتب عليه حرف (ح) إشارة إلى أنه حاشية. والرملة مدينة فى
بلاد فلسطين السليب بالقرب من اللد، بين يافا والقدس.

قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله» أى: من تكلم بها عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾. [محمد: ١٩] وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. [الزخرف: ٨٦].

أمّا النطقُ بها من غير معرفة بمعناها، ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه، من نفى الشرك وإخلاص القول والعمل - قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح - فغيرُ نافع بالإجماع.

قال فى (المفهم على صحيح مسلم)^(١): بابٌ لا يكفى مجرد التلفظ بالشهادتين، بل لابد من استيقان القلب.

هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب المرجئة، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كافٍ فى الإيمان.

وأحاديثُ هذا الباب تدلُّ على فساده، بل هو مذهبٌ معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها. ولأنه يلزم منه تسويغُ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح، وهو باطل قطعاً. انتهى.

وفى هذا الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: «من شهد» فإنَّ الشهادة لا تصلح إلا إذا كانت عن علم ويقين. / [١٣/ب]

قال النووى: هذا حديثٌ عظيمٌ جليل الموقع، وهو أجمع - أو من أجمع - الأحاديث المشتملة على العقائد؛ فإنه ﷺ جمع فيه ما يُخرج من ملل الكفر، على اختلاف عقائدهم وتباُعدها، فاقصر ﷺ فى هذه الأحرف على ما يُبين [به]^(٢) جميعهم. انتهى^(٣).

ومعنى: لا إله إلا الله. أى: لا معبودَ حقٍ إلا الله. وهو فى مواضع من القرآن، ويأتيك فى قول البقاعى^(٤) صريحاً.

(١) المفهم فى شرح مختصر مسلم، لأبى العباس أحمد بن إبراهيم القرطبى (ت ٦٥٦). مخطوط، ينظر «الديباج» (١/ ٤١).

(٢) إضافة من (م) و(ض) و«المنهاج».

(٣) النووى، «المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (١/ ٢٢٧).

(٤) أبو الحسن، إبراهيم بن عمر الشافعى. مفسر، مؤرخ. (ت ٨٨٥) «شذرات الذهب» (٧/ ٣٤٠).

قوله: «وَحْدَهُ» تأكيدٌ للإثبات. «شريك له» تأكيدٌ للنفي. قاله الحافظ؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْهَكَمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. [البقرة: ١٦٣]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَالِى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ﴾. [الأعراف: ٦٥]. فأجابوا - ردأ عليه - بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾. [الأعراف: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

فتضمن ذلك: نفى الإلهية عما سوى الله، وهى العبادة، وإثباتها لله وحده لا شريك له.

والقرآن من أوله إلى آخره، يُبين هذا ويقرره ويُرشد إليه. فالعبادة بجميع أنواعها، إنما تصدر عن تأله القلب بالحب والخضوع والتذلل، رَغْباً وَرَهْباً. وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى، كما تقدم فى أدلة هذا الباب وما قبله.

فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله، فقد جعله ندأ لله، فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل.

ذكرُ كلام العلماء فى معنى: الإله.

قد تقدمَ كلامُ ابن عباس.

وقال الورير، أبو المظفر فى (الإفصاح): قوله: «شهادة أن لا إله إلا الله» يقتضى أن يكون الشاهدُ عالماً بأن لا إله إلا الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

- قال -: واسم الله. مرتفعٌ بعد إلا؛ من حيثُ أنه الواجبُ له الإلهية، فلا يستحقها غيره سبحانه.

- قال -: وجملةُ الفائدة فى ذلك: أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملةٌ على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبتت الإيجاب لله تعالى كنتَ ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله.

وقال في (البدائع) - ردّاً لقول من/ قال: إِنَّ المُسْتَشْنَى مُخْرَجٌ مِنَ الْمُنْفِي - قال: [١٤/١] بل هو مخرجُ المنفي وحُكْمُه، فلا يكون داخلياً في المنفي. إذ لو كان كذلك، لم يدخل الرجلُ في الاسلام بقول: لا إله إلا الله؛ لأنه لم يُثَبِّت الإلهيةَ لله تعالى. وهذه أعظمُ كلمة تضمّنت نفياً للإلهية عما سوى الله، وإثباتاً له بوصف الاختصاص. فدلالتهَا على إثبات إلهيته، أعظمُ من دلالة قولنا: الله إلهٌ. ولا يستريب أحدٌ في هذا، البتّة. انتهى بمعناه^(١).

[قلتُ: ولا ريب أنَّهُ لم يدخل في المنفي أصلاً؛ لأنَّ المراد من هذه الكلمة: إفرادهُ تعالى بالإلهية في قلب الموحّد وقوله وعمله، كما دلّت عليه الآيات المُحكّمات، كما أخبر عن دعوة رُسُلِهِ ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون/ ٣٢] فنفوا الإلهيةَ عما سوى الله تعالى، وأثبتوها لله وحده.

فإنّه تعالى هو المتصفُ بتفرّده بالإلهية، أولاً وأبداً؛ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بَأْنُ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وأخبر تعالى عن المُشركين، أنهم قالوا: ﴿أَجْتَنَّا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وحده﴾. [الأعراف: ٧٠].

أرادوا أَنْ يُدْخِلُوهُ فِي جُمْلَةِ آلِهَتِهِمْ فِي الْعِبَادَةِ، وأنكروا أَنْ تكون العبادةُ له وحده، مع معرفتهم أَنَّ: لا إله إلا الله. تبطلُ ذلك.

وتسويةُ آلِهَتِهِمْ بالله في العبادة: هو الشرك الأكبر، الذي يوجبُ الخلود في النار. فالموحّد، مخالفٌ للمُشرك في قوله وفعله ونيّته. وهذا ظاهرٌ لاخفاء به، بحمد الله^(٢).

وقال أبو عبد الله، القرطبي، في تفسير لا إله إلا هو. أي: لا معبودَ إلا هو^(٣).

وقال الزّمخشري^(٤): الإله. من أسماء الأجناس، كالرجل والفرس، يقع على

(١) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٣/ ٥٨).

(٢) ما بينهما ساقطٌ من الأصل و(م) و(هـ) و(ط).

(٣) والصواب أن يُقال: لا معبود بحق إلا هو.

(٤) أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر الزّمخشري الخوارزمي، لغوي، مفسر. من كبار المعتزلة (ت ٥٣٨)

«اللسان» (٤/ ٦)

كل معبود بحق أو بباطل^(١)، ثم غلب على المعبود بحق^(٢).

قال شيخ الإسلام: الإله. هو المعبود المطاع؛ فإنَّ الإله هو المألوه، والمألوه: هو الذى يستحق أن يُعبد، وكونه يستحق أن يُعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع^(٣).

وقال رحمه الله تعالى: فإنَّ الإله هو المحبوب المعبود، الذى تأله القلوب بحبها، وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه، وتنبى إليه فى شدائدها، وتدعوه فى مهماتها، وتتوكل عليه فى مصالحها، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره، وتسكن إلى حبه. وليس ذلك إلا لله وحده؛ ولهذا كانت: لا إله إلا الله. أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته. فإذا صحَّت صحَّ بها كلُّ مسألة، وحال، وذوق. وإذا لم يُصحَّحها العبدُ فالفسادُ لازمٌ له، فى علومه وأعماله^(٤).

وقال ابن القيم: الإله. هو الذى تأله القلوب محبة وإجلالاً، وإنابة وإكراماً، وتعظيماً وذلاً، وخضوعاً وخوفاً، ورجاءً وتوكلًا^(٥).

وقال ابن رجب: الإله. هو الذى يُطاعُ فلا يُعصى، هيبَةٌ له وإجلالاً ومحبة، وخوفاً ورجاءً وتوكلًا عليه، وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل. فمن أشرك مخلوقاً فى شيءٍ من هذه الأمور التى هى من خصائص الإلهية، كان ذلك قدحاً فى إخلاصه، فى، قول: لا إله إلا الله، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك^(٦).

وقال البيهقي: لا إله إلا الله. أى [انتفى]^(٧) انتفاءً عظيماً أن يكون معبودٌ بحقٍ

(١) (هـ) (ط): باطل.

(٢) الزمخشري، «الكشاف عن حقائق التنزيل وحيون الأقاويل فى وجوه التأويل» (١/ ٣٦).

(٣) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤٩).

(٤) ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٠٢).

(٥) ينظر ابن القيم، «مدارج السالكين» (١/ ٣٢).

(٦) ابن رجب، «كلمة الإخلاص» (٢٣).

(٧) ساقط من الاصل و(م) و(هـ) و(ط).

غيرَ الملكِ الأعظم. فإنَّ هذا العِلْمَ هو أعظمُ الذِّكْرِ المنجية من أهوال الساعة،
وإنما يكونُ علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكونُ نافعاً إذا كان مع الإِذعان والعمل بما
تقضيهِ، وإلا فهو جهلٌ صِرْف.

وقال الطيبي: الإِله. فِعَال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من إله
إلهة. أى: عبادةً.

قال الشَّارحُ: وهذا كثيرٌ فى كلام العلماء، وإجماعٌ منهم^(١) أنَّ الإِلهَ هو
المعبود، خلافاً لما يعتقده عبَادُ القبور وجهلةُ المتكلمين، من أنَّ معناه: هو الخالق
والقادر على الاختراع، ونحو ذلك. ويظنون أنَّهم إذا قالوها فقد أتوا من التوحيد
بالغاية القصوى، ولو فعلوا ما فعلوا: من عبادة غير الله كدعوة الأموات،
والاستغاثة بهم فى الكربات والنذر فى الملمات، إلى غير ذلك من أنواع العبادات.

وما شعروا أنَّ مُشركى العرب وغيرهم يُشاركونهم فى الإقرار بهذا المعنى،
ويعتقدون أنَّ الله هو الخالقُ القادر على الاختراع، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَن سَأَلْتَهُمْ
مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. [الزخرف: ٨٧] وقال: ﴿وَلْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

فأخبر تعالى عنهم: أنَّهم اتخذوا الأولياء من دونه، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا
لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٤]. فتبَّأ لمن كان أبو جهلٍ ورؤوسُ الكفر من
قريشٍ وغيرهم أعلمَ منه بمعنى لا إله إلا الله!!

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ إِنَّا
لَنَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥ - ٣٦]. فعرفوا أنَّها تدلُّ على ترك
عبادة معبوداته^(٢).

قلتُ: ودلالَتُها على هذا دلالةٌ تضمَّن، وأنَّ ذلك يقتضى إخلاصَ العبادة لله
وحده. فدلالَتُها على نفى الإلهية وعبادتها، وإفرادِ الله تعالى بالعبادة دلالةٌ
مُطابقة^(٣).

(١) من هنا ساقطٌ من (م) و(هـ) و(ط) ومعلقٌ فى هامش الأصل، وعليه كلمة صح.

(٢) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد» / (٧٦ - ٧٧).

(٣) هنا يتهى السقط.

فدلت لا إله إلا الله: على نفى العبادة عن كل ما سوى الله، كائنا من كان، وإثبات الإلهية لله وحده، دون ما سواه. وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه [١٤/ب] الرسل/ ودل عليه القرآن من أوله إلى آخره؛ كما قال تعالى عن الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ أَسْمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عجبًا * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾ [الجن: ١ - ٢].

فلا إله إلا الله: لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً، واعتقد ذلك، وقبَّله وعمل به.

وأما من قالها عن غير علم واعتقاد وعمل، فقد تقدّم كلام العلماء أن هذا جهلٌ صرفٌ. فهو حجةٌ عليه، بلا ريب.

فقوله في الحديث: «وحده لا شريك له». تأكيدٌ، وبيانٌ لمضمون معناها. وقد أوضح الله تعالى ذلك، وبينه في قصص الأنبياء والمرسلين في كتابه المبين.

فما أجهل عبَاد القبور بحالهم!!، وما أعظم ما وقعوا فيه. فإنَّ مشركى العرب ونحوهم جحدوا لا إله إلا الله، لفظاً ومعنى. وهؤلاء المشركون أقرُّوا بها لفظاً، وجحدوها معنى.

فتجد أحدهم يقولها وهو ياله غير الله بأنواع العبادة، كالحُب والتعظيم، والخوف والرجاء، والتوكل والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة. بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب؛ فإنَّ أكثرهم إذا وقع في شدة، أخلص الدعاء لغير الله تعالى، ويعتقدون أنه أسرعُ فرجاً لهم. بخلاف حال المشركين الأولين، فإنهم يُشركون في الرخاء، وأما في الشدائد فإنما يُخلصون لله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَاؤُا اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. [العنكبوت: ٦٥].

فهذا تبيّن: أنَّ مشركى أهل هذه الأزمان، أجهلُ بالله وبتوحيده من مشركى العرب، ومن قبلهم.

وقوله: «وأنَّ محمداً عبده ورسوله» أى: وشهد بذلك، وهو معطوفٌ على ما قبله على نية تكرار العامل.

ومعنى: العبد، هنا: المملوكُ العابد. أى: أَنَّهُ مملوكُ الله تعالى، والعبوديةُ الخاصةُ وصفُهُ؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. فأعلى مراتب العبد، العبوديةُ الخاصةُ والرسالة.

فالنبيُّ، محمد ﷺ أكملُ الخلقِ فى هاتين الصفتين الشريفتين. وأما الربوبيةُ والإلهية: فهما حقُّ الله تعالى، لا يُشاركه فى شَيْءٍ منها مَلَكٌ مقرب، ولا نبيُّ مرسل.

وقوله: «عبدُهُ ورسولُهُ» أتى بهاتين الصفتين، وجمعهما دفعاً للإفراط والتفريط. / [١/١٥]

فإنَّ كثيراً مَن يدعى أَنَّهُ من أُمَّته: أفرط بالغلو قولاً وفعلًا، وفرط بترك متابعتِهِ، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به، وتعسف فى تأويل أخبارِهِ وأحكامِهِ، بصرفها عن مدلولها، والصَّدَف عن الانقياد لها مع أطراحها. فإنَّ شهادة أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ: تقتضى الإيمانَ به، وتصديقَهُ فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاءَ عما عنه زجر، وأنَّ يُعْظَم أمرُهُ ونهيُهُ، ولا يُقدَّم عليه قولُ أحدٍ كائنًا من كان.

والواقعُ اليومَ وقبلَهُ خلاف ذلك!، فالله المستعان.

وروى الدارمىُّ فى (مُسْنَدِهِ) عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه، أَنَّهُ كان يقول: إِنَّا لنجدُ صفةَ رسولِ الله ﷺ: إِنَّا أرسلناكَ شاهدًا ومُبَشِّرًا ونَذِيرًا وحررًا للأُمِّيِّين. أنت عبدى ورسولى، سَمِيَّتُهُ المتوكِّل. ليس بفظٌ ولا غليظٌ ولا سخَّابٌ بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويتجاوز.، لن أقبضهُ حتى يُقيمَ المِلَّةَ المتعوجة، بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله، يُفتح بها أعيناً عميا، وأذناناً صُمًّا، وقلوباً غُلْفًا^(١).

قال عطاء بن يَسار: وأخبرنى أبو واقد الليثى، أَنَّهُ سمع كعبا يقول، مثلَ ما قال ابنُ سلام^(٢) ^(٣).

(١) «سنن الدارمى» (١/١٤).

(٢) «سنن الدارمى» (١/١٤).

(٣) جميع هذا النص، من قوله: وروى الدارمى إلى هنا. سقط من (م).

قوله: «وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» أى: خلافاً لما يعتقده النصارى، أَنَّهُ اللَّهُ، أو ابنُ اللَّهِ، أو ثالثُ ثلاثة. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾. [المؤمنون: ٩١].

فَلَا بُدَّ أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. على علمٍ و يقينٍ بأنه مملوكٌ لله، خَلَقَهُ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. [آل عمران: ٥٩]. فليس ربّاً ولا إلهاً، سبحانه الله عما يشركون، قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾ قال إني عبدُ الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً. [مريم: ٢٩ - ٣٠].

وقال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾. [النساء: ١٧٢].

ويشهدُ المؤمنُ أيضاً ببطلان قول أعدائه اليهود: أَنَّهُ وَلَدُ بَغْيٍ، لعنهم الله. فلا يصحُّ إسلامُ أحدٍ^(١) حتى يتبرأ من قول الطائفتين جميعاً في عيسى عليه السلام، [١٥/ب] ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه/ : أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ.

قوله: «وَكَلِمَتُهُ» إنما سُمِّيَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَلِمَتُهُ؛ لوجوده بقوله: كُنْ. كما قاله السلف من المُفسرين^(٢).

قال الإمامُ أحمدُ في (الرَّد على الجهمية): الكلمةُ التي ألقاها إلى مريم [حين]^(٣) قال له: كُنْ. فكان عيسى بكن، وليس عيسى هو: كن. ولكن كان بكن. فكُنْ من الله تعالى قولاً، وليس: كُنْ. مخلوقاً. وكذَّبَ النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى. انتهى^(٤).

وقوله: «أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ». قال ابنُ كثير: خَلَقَهُ بِالْكَلِمَةِ التي أُرْسِلَ بِهَا جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَرْيَمَ، فنَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ بِأَمْرِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فكان

(١) (هـ) (ط): أحد علم ما كانوا يقولونه.

(٢) ينظر «تفسير الطبري» (شاکر) (١/٤١١، ٩/٤١٩).

(٣) إضافة من (ط) و«الرَّد».

(٤) الإمام أحمد، «الرَّد على الجهمية والزنادقة» / (١٢٤).

عيسى بإذن الله عزَّ وجل. فهو ناشئٌ عن الكلمة - التي قال له: كُن، فكان -
والروح التي أرسل بها جبرائيل عليه السلام^(١).

قوله: «وروحٌ منه» قال أبيُّ بن كعب: عيسى روحٌ من الأرواح التي خلقها الله تعالى، واستنطقها بقوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» [الأعراف: ١٧٢] بعثه الله إلى مريمَ، فدخل فيها. رواه عبدُ بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد (المسند)، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وغيرهم^(٢).

قال الحافظ: ووصفُه بأنَّه منه، المعنى: أنَّه كائنٌ منه؛ كما في قوله تعالى: «وسخرَّ لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه» [الجنَّة: ١٣] فالعنى أنَّه كائنٌ منه؛ كما أنَّ معنى الآية الأخرى: أنَّه سخرَّ هذه الأشياءَ كائنةً منه. أي: أنَّه مُكوِّنٌ ذلك وموجِّدُه، بقدرته وحكمته^(٣).

قال شيخُ الإسلام: المضافُ إلى الله تعالى إذا كان معنىً لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات، وجب أن يكون صفةً لله تعالى قائمةً به، وامتنع أن تكون إضافتها إضافةً مخلوقٍ مربوب.

فإذا كان المضافُ عيناً قائمةً بنفسها: كعيسى، وجبرائيل عليهما السلام، وأرواح بنى آدم، امتنع أن تكون صفةً لله تعالى؛ [لأن ما قام بنفسه لا يكون صفةً لغيره]^(٤). لكن الأعيان المضافة إلى الله على وجهين:

(١) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (الشعب) (٢/ ٤٣٠).

(٢) عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٠٠)، وعبد الله بن أحمد، في «المسند» (٥/ ١٣٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٥): رواه عبد الله بن أحمد، عن شيخه محمد بن يعقوب الرضائي. وهو مستور، وبقي رجاله رجال الصحيح، وابن جرير، «جامع البيان» رقم (١٠٨٥٥)، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٠٠)، وأخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢/ ٣٢٣) وصححه ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن منده في «الرد على الجهمية» رقم (٣٣).

(٣) ابن حجر، «فتح الباري» (٦/ ٤٧٥).

(٤) ما بينهما إضافة من (ض) و(م) و(ها) و(ط).

أحدهما: أن تُضاف إليه؛ لكونه خلقها وأبدعها. فهذا شاملٌ لجميع المخلوقات، كقولهم: سماءُ الله، وأرضُ الله. فجميع المخلوقين عبيدُ الله، وجميع المال مالُ الله.

الوجه الثاني: أن يُضاف إليه؛ لما خصَّ به من معنى يُحبُّه ويأمر به ويرضاه، كما خصَّ البيتَ العتيقَ بعبادةٍ فيه لا تكون في غيره، وكما يُقال عن مال الفئءِ والخُمُس: هو مالُ الله ورسوله.

ومن هذا الوجه: فعبادُ الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره، فهذه إضافةٌ تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، وتلك إضافةٌ تتضمن ربوبيته وخلقه. انتهى ملخصاً^(١).

قوله: «والجنة حق والنار حق». أى: وشهد أن الجنة التى أخبر بها تعالى فى كتابه أنه أعدّها للمتقين حق ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التى أخبر بها تعالى فى كتابه أنه أعدّها/ للكافرين حق كذلك ثابتة كما قال تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾. [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ [البقرة: ٢٤]. وفى الآيتين ونظائرهما: دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافاً للمبتدعة. وفيهما: الإيمان بالمعاد.

قوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». هذه الجملة جوابُ الشرط، وفى رواية: «أدخله الله الجنة من أى أبواب الجنة الثمانية شاء»^(٢).

قال الحافظ: ومعنى قوله «على ما كان من العمل» أى: من صلاح أو فساد، لكن^(٣) أهل التوحيد لا بُدَّ لهم من دخول الجنة. ويحتمل أن يكون معنى قوله

(١) ابن تيمية، «الفتاوى» (٦/ ١٤٥، ٩/ ٢٩٠).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٤٣٥).

(٣) فى جميع النسخ: لأن. والمثبت من «الفتح».

«على ما كان من العمل» أى: يدخل أهل الجنة [الجنة]^(١) على حسب [أعمال]^(٢) كل منهم فى الدرجات. انتهى^(٣).

قال القاضى عياض^(٤): ما ورد فى حديث عبادة يكون خصوصاً لمن قال ما ذكره النبى^(٥) ﷺ، وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذى ورد فى حديثه، فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته، ويوجب له المغفرة والرحمة، ودخول الجنة لأول وهلة.

^(٦) قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفاً لمعناها وحقيقته نفيًا وإثباتًا، مُتَصِفًا بموجبه قائماً قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة من هذا الشاهد. أصلها ثابت راسخ فى قلبه، وفروعها متصلة فى السماء، وهى مخرجة لثمرتها كل وقت^(٦). انتهى^(٧).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولهما، فى حديث عتبان «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله»^(٨).

ش: قوله: (ولهما). أى: للبخارى، ومسلم فى (صحيحيهما) بكماله. وهذا طرف من حديث طويل، أخرجه الشيخان.

و: عتبان. بكسر المهملة، بعدها مثناة فوقية، ثم موحدة: ابن مالك بن عمرو ابن العجلان الأنصارى، من بنى سالم بن عوف، صحابى مشهور، مات فى خلافه معاوية.

(١) إضافة من «الفتح».

(٢) ساقط من الأصل و(ض).

(٣) ابن حجر، «فتح البارى» ٦/ ٤٧٥.

(٤) أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض اليحصبى. محدث فقيه (ت ٥٤٤). «الديباج المذهب» ٢/ ٤٦.

(٥) النبى. ليست فى (ض) و(م) و(هـ) و(ط).

(٦) ما بينهما ساقط من (هـ) و(ط). وفى (ض) فى موضع آخر، ومعلق فى هامش الأصل وعليه كلمة صح.

(٧) انظر ابن القيم، «الفوائد» (٢١٤).

(٨) البخارى فى «الصحيح» الأرقام (٤٢٥، ٦٦٧، ٦٤٢٣، ٦٩٣٨)، ومسلم فى «الصحيح» الرقمان (٣٣، ٦٥٧).

فى قصة مالك بن الدخشن.

وأخرجه البخاريُّ في (صحيحه) بسنده، عن قتادة، قال: حدثنا أنس بن مالك، أنَّ النبيَّ ﷺ - ومُعَاذُ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ - قال: «يَا مُعَاذُ! لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قال: «يَا مُعَاذُ! لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قال: «يَا مُعَاذُ! لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ - ثلاثاً - قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّارِ» قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أَخْبِرَ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا، قال: «إِذَا يَتَكَلَّمُوا» فَأَخْبِرْ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأْتِمًا^(١).

وساق بسند آخر: حدثنا معتمر، قال: سمعتُ أبي، قال: سمعتُ أنسًا، قال: ذَكَرَ لِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ» قال: أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قال: «لَا إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَكَلَّمُوا»^(٢).

قلتُ: فتبيِّن بهذا السياق معنى شهادةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأنها تتضمن تركَ الشرك لمن قالها بصدقٍ و يقينٍ وإخلاصٍ.

قال شيخ الإسلام، وغيره - في هذا الحديث ونحوه - : إنها فيمن قالها ومات عليها؛ كلما جاءت مقيدةً بقوله، خالصاً من قلبه غيرَ شاك فيها، بصدقٍ و يقينٍ. فإنَّ حقيقة التوحيد المَجْذِبُ الرُّوحَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى [جملةً، فمن شهد أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ؛ لِأَنَّ الْإِخْلَاصَ هُوَ الْمَجْذِبُ الْقَلْبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى]^(٣) بَأَن يَتُوبَ مِنَ الذُّنُوبِ تَوْبَةً نَصُوحاً.

فإذا مات على تلك الحال نال ذلك؛ فإنه قد تواترت الأحاديثُ بأنه يخرجُ من النار من قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وكان في قلبه من الخير ما يزنُ شعيرةً، وما يزنُ خردةً، وما يزنُ ذرةً.

وتواترت بأن كثيراً ممن يقول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يدخل النار ثم يخرج منها. وتواترت بأن الله حَرَّمَ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ مِنْ ابْنِ آدَمَ؛ فَهَؤُلَاءِ كَانُوا يُصَلُّونَ، وَيَسْجُدُونَ لِلَّهِ.

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٢٨)، وأخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٣٢) واللفظ للبخاري.

(٢) «صحيح البخاري» رقم (١٢٩).

(٣) ما بينها ساقط من الأصل، ولعله انتقل نظر من الناسخ.

وتواترت بأن الله يُحرّم على النار من قال: لا إله إلا الله، وشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال.

وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص!، وأكثر من يقولها إنّما يقولها تقليداً أو عادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه!

وغالب من يُفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء؛ كما في الحديث: «سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلته» وغالب أعمال هؤلاء إنّما هو تقليدٌ واقتداءٌ بأمثالهم، وهم من أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾. [الزخرف: ٢٣] وحينئذٍ فلا منافاة بين الأحاديث.

فإنه إذا قالها بإخلاصٍ ويقين تام، لم يكن في هذه الحال مُصرّاً على ذنب أصلاً؛ فإنّ كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحبّ إليه من كل شيء، فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرّم الله ولا كراهة لما أمر الله.

وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له ذنوبٌ قبل ذلك. فإنّ هذا الإيمان وهذا الإخلاص، وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين، لا تترك له ذنباً إلا مُحي عنه كما يمحو الليلُ النهار.

فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مُصرّ على ذنب أصلاً، فيُغفر له ويحرم على النار.

وإنّ قالها على وجه خلص به/ من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأتِ [١٧/١] بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيءٌ من السيئات.

فيرجحُ بها ميزانُ الحسنات؛ كما في حديث البطاقة^(٢)، فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه.

وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته، ومات مُصرّاً على ذلك. فإنّهُ يستوجب النار، وإنّ قال: لا إله إلا الله، وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنّه لم

(١) أخرجه أحمد في «المستد» (٦/ ١٣٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه المنذرى في «الترغيب» (٤/ ٣٦٥).

(٢) أخرجه أحمد في «المستد» (٢/ ٢١٣)، والترمذى في «الجامع» رقم (٢٦٣٩). وقال حديثٌ حسن. وسياق.

يمت على ذلك، بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده. فإنه في حال قولها كان مُخلصاً، لكنه أتى بذنوبٍ أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نارُ الذنوب حتى أحرقت ذلك. بخلاف المُخلص المستيقن؛ فإنَّ حسناته لا تكون إلا راجحةً على سيئاته، ولا يكون مُصرّاً على سيئات، فإن مات على ذلك دخل الجنة.

وإنما يُخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة، فيضعف إيمانه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات. ويُخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سَلِمَ من الأكبر بقى معه من الأصغر، فيُضيف إلى ذلك سيئاتٍ تنضمُّ إلى هذا الشرك، فيرجح جانبُ السيئات.

فإنَّ السيئات تُضعف الإيمان واليقين، فيضعف قول: لا إله إلا الله، فيمتنع الإخلاصُ بالقلب، فيصير المتكلمُ بها كالهاذي أو النائم، أو من يُحسنُّ صوته بآيةٍ من القرآن من غير ذوق وحلاوة. فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقُضُ ذلك، بل يقولونها من غير يقينٍ وصدق، ويموتون على ذلك، ولهم سيئاتٌ كثيرة تمنعهم من دخول الجنة.

وإذا كثرت الذنوبُ ثَقُلَ على اللسان قولُها، وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح، وثَقُلَ عليه سماعُ القرآن، واستبشر بذكر غيره، واطمأنَّ إلى الباطل، واستحلى الرّفث، ومخالطة أهل الباطل، وكره مخالطة أهل الحق. فمثل هذا إذا قالها، قال بلسانه ما ليس في قلبه، وبفيه ما لا يصدقُه عمله.

قال الحسن: ليس الإيمانُ بالتحلى ولا بالتمنى، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال. فمن قال خيراً وعمل خيراً قُبِلَ منه، ومن قال خيراً وعمل

[١٧/ب] شراً لم يُقبل منه^(١).

وقال بكر^(٢) بن عبد الله المزني^(٣): ما سبقهم أبو بكر رضي الله عنه بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بشيءٍ وقر في قلبه.

(١) أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» رقم (٥٦).

(٢) الأصل (م) و(هـ): أبو بكر. تحريف.

(٣) أبو عبد الله، بن عمر والبصري، من أقران الحسن البصري، ثقة ثبت، من العباد (ت ١٠٨) «سير النبلاء»

(٤/ ٥٣٢).

فمن قال: لا إله إلا الله، ولم يقم بموجبها، بل اكتسب مع ذلك ذنباً، وكان صادقاً في قولها موقناً بها - لكن له ذنبٌ أضعفت صدقه وبقينه - وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي: رجحت^(١) هذه السيئات على هذه الحسنة، ومات مُصرّاً على الذنوب.

بخلاف من يقولها بيقين وصدق؛ فإنه: إما أن لا يكون مُصرّاً على سيئة أصلاً، أو يكون توحيدُه - المتضمن لصدقه وبقينه - رجّح حسناته.

والذين يدخلون النار ممن يقولها: لم يقولوها بالصدق واليقين التامين المنافيين للسيئات، أو لرُجحانها، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم وبقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق وبقين تام؛ لأنّ الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم. فقولها من مثل هؤلاء: لا يقوى على محو السيئات، فترجح سيئاتهم على حسناتهم. انتهى مُلخصاً^(٢).

وقد ذكر هذا كثير من العلماء: كابن القيم، وابن رجب، وغيرهما.

قلت: وبما قرره شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، تجتمع الأحاديث. قال: وفي الحديث دليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد، وبالعكس.

وفيه: تحريم النار على أهل التوحيد الكامل.

وفيه: أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصاً لله تعالى.

تنبيه: قال القرطبي في (تذكرته): قوله في الحديث: «من إيمان» أي: من أعمال الإيمان التي هي من أعمال الجوارح، فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من الإيمان.

والدليل على أنه أراد بالإيمان ما قلناه - ولم يُرد مجرد الإيمان الذي هو

(١) في جميع النسخ: فرجحت. والمثبت من «التيسير» (٩٠).

(٢) في جميع النسخ: و. والمثبت من «التيسير».

(٣) ينظر: ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٢/٢٥٦، ١٤/٤٢٠).

(٤) الأصل (ض) و(م) و(هـ): لما. والمثبت من (ط) و«التذكرة».

التوحيد، ونفى الشركاء والإخلاص بقوله: لا إله إلا الله - ما فى الحديث نفسه، من قوله: «أخرجوا». ثم بعد ذلك «يقبضُ سبحانه قبضةً فيُخرج قوماً لم يعملوا خيراً قط» يُريد بذلك: إلا التوحيد المجرد من الأعمال. انتهى ملخصاً من (شرح سنن ابن ماجه)^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، عن [١/١٨] رسول الله ﷺ، قال: «قال موسى: يارب علمنى شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: كلُّ عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهنَّ غيرى، والأرضين السبع فى كفة، ولا إله إلا الله فى كفة، مالت بهن لا إله إلا الله» رواه ابن حبان، والحاكم وصححه^(٢).

ش: أبو سعيد. اسمه: سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصارى الخزرجى، صحابى جليل، وأبوه كذلك. استُصغر أبو سعيد بأحد، وشهد ما بعدها. مات بالمدينة سنة ثلاث - أو أربع أو خمس - وستين. وقيل: سنة أربع وسبعين.

قوله: «أذكرك» أى: أثنى عليك. «وأدعوك» أى: أسألك به.

قوله: «قل يا موسى: لا إله إلا الله» فيه: أن الذاكر يقولها كلها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة، ولا على هو، كما يفعلُه غلاة جهال المتصوفة؛ فإن ذلك بدعة وضلالة.

قوله: «كلُّ عبادك يقولون هذا» ثبت بخط المصنّف بالجمع، والذي فى الاصول «يقول» بالإفراد مراعاةً للفظه كل.

وهو فى (المُسند) من حديث عبد الله بن عمرو، بلفظ الجمع؛ كما ذكره المصنّف على معنى كل. ومعنى: «كلُّ عبادك يقولون هذا». إنما أريد شيئاً تُخصّنى به من بين عموم عبادك.

وفى رواية - بعد قوله «كلُّ عبادك يقولون هذا» - «قل: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا أنت يا رب! إنما أريد شيئاً تُخصّنى به».

(١) القرطبى، «التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة» (٤٠٢).

(٢) ابن حبان فى «الصحيح» رقم (٢٣٢٤) (موارد)، والحاكم فى «المستدرک» (١/ ٥٢٨) ووافقه الذهبى.

وصححه الحافظ بن حجر فى «فتح البارى» (١١/ ٢٠٨).

ولمَّا كان بالناس - بل بالعالم كُلُّه - من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لا نهاية له، كانت من أكثر الأذكار وجوداً، وأيسرها حُصولاً، وأعظمها معنىً.

والعوامُّ والجهالُ يَعْدِلُون عنها إلى الدعوات المُبتدعة، التي ليست في الكتاب ولا في السنة.

قوله: «وعامرهنَّ غيري». هو بالنصب عطفٌ على السموات. أى: لو أنَّ السموات السبع ومن فيهنَّ من العُمَّار - غير الله تعالى - والأرضين السبع ومن فيهنَّ وُضِعوا في كفة الميزان، ولا إله إلا الله في الكِفَّة الأخرى، مالت بهنَّ لا إله إلا الله.

وروى الإمامُ أحمد عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ «أنَّ نوحاً قال لابنه عند/ موته: آمُرْك بلا إله إلا الله؛ فإنَّ السموات السبع والأرضين السبع لو [١٨/ب] وضعت في كِفَّة ولا إله إلا الله في كفة، رَجَحَتْ بهنَّ لا إله إلا الله، ولو أنَّ السموات السبع والأرضين السبع كُنَّ حَلَقَةً مُبَهَمَةً قصمتهن لا إله إلا الله»^(١).

قوله: «في كِفَّة» هو بكسر الكاف وتشديد الفاء، أى: كِفَّة الميزان.

قوله:

«مالت بهنَّ» أى: رجحت؛ وذلك لما اشتملت عليه من نفى الشرك، وتوحيد الله: الذي هو أفضل الأعمال، وأساسُ الملة والدين. فمن قالها بإخلاصٍ ويقين، وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها، واستقام على ذلك، فهذه الحسنة لا يوازنها شيء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. [الأحقاف: ١٣].

ودلَّ الحديثُ على أنَّ: لا إله إلا الله، أفضلُ الذكر؛ كحديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً «خيرُ الدعاءِ دعاءُ يومِ عرفة، وخيرُ ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي:

(١) أحمد في «المسند» (١٦٩/٢، ١٧٠، ٢٢٥)، وأخرجه البخاري في «الآداب» رقم (٥٤٨)، والحاكم في

«المستدرک» (٤٨/١، ٤٩) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الاسماء والصفات» (١٠٣)، والطبراني

كما في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٢٠) وقال: ورجال أحمد ثقات.

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»
رواه أحمد، والترمذى^(١).

وعنه أيضاً، مرفوعاً «يُصاح برجلٍ من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة،
فيُنشر له تسعة وتسعون سجلاً، كلُّ سجل منها مدٌّ^(٢) البصر، ثم يُقال: أُنكرُ من
هذا شيئاً؟ فيقول: لا يارب. فيُقال: ألك عُذْرٌ أو حسنة؟ فيهاب الرجل، فيقول:
لا. فيُقال: بلى إنَّ لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك، فيُخرجُ له بطاقةٌ فيها:
أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يارب ما هذه
البطاقةُ مع هذه السجلات؟! فيقال: إنَّك لا تُظلم، فتوضع السجلاتُ في كِفَّةٍ
والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشت السجلاتُ وثقلت البطاقةُ.

رواه الترمذى وحسنه، والنسائي، وابنُ حبان، والحاكم وقال: صحيحٌ على
شرط مسلم، وقال الذهبيُّ في (تخليصه): صحيح^(٣).

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: فالأعمالُ لا تتفاضلُ بصورها وعددها، وإنما
[١/١٩] تتفاضلُ بتفاضل ما في القلوب. فتكون صورةُ العملين واحدةً، وبينهما من/
التفاضل كما بين السماء والأرض.

قال: تأمل حديثَ البطاقة التي توضع في كِفَّةٍ، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً،
كلُّ سجل منها مدٌّ البصر، فتثقل البطاقةُ وتطيش السجلات، فلا يُعذَّب. ومعلومٌ
أنَّ كلَّ موحدٍ له هذه البطاقة، وكثرٌ منهم من يدخل النار بذنوبه^(٤).

قوله: (رواه ابنُ حبان، والحاكم). ابنُ حبان، اسمه: محمد بن حَبَّان -
بكسر المهملة وتشديد الموحدة - ابنُ أحمد بن حبان بن مُعَاذ، أبو حاتم التميمي،
البُستي الحافظ، صاحبُ التصانيف: (الصحيح)، و(التأريخ)، و(الضعفاء)،
و(الثقات) وغير ذلك.

(١) الترمذى في «الجامع» رقم (٣٥٧٩) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب، ومالك في «الموطأ» (١/٢١٤، ٢١٥،
٤٢٢، ٤٢٣)، والبيهقي في «السنن» (٥/١١٧)، وذكره الألباني في «صحيحته» رقم (١٥٠٣).

(٢) الأصل (ض) و(هـ) و(ط): مدى.

(٣) الترمذى في «الجامع» رقم (٢٦٤١)، وابن حبان في «الصحيح» رقم (٢٥٢٤) (موارد)، والحاكم في
«المستدرک» (١/٥، ٦) ولم يعزه صاحبُ «تحفة الأشراف» (٦/٣٤٢) إلى النسائي.

(٤) ابن القيم، «مدارج السالكين» (١/٣٣١).

قال الحاكم: كان من أوعية العلم فى الفقه، واللغة، والحديث، والوعظ، ومن عُقلاء الرجال. مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، بمدينة بُسْت - بالمهمله -^(١).

وأما الحاكم، فاسمه: محمد بن عبد الله بن محمد النيسابورى، أبو عبد الله الحافظ، ويُعرف بابن البيّ، ولُد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وصنّف التصانيف: كالـ(المستدرک) و(تأريخ نيسابور) وغيرهما، ومات سنة خمس وأربعمئة^(٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وللترمذى وحسنه، عن أنس: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم! إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بى شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة»^(٣).

ش: ذكر المصنّف رحمه الله تعالى: الجملة الأخيرة من الحديث، وقد رواه الترمذى بتمامه، فقال: عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم! إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالى. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عَنان السماء، ثم استغفرتنى غفرتُ لك ولا أبالى. يا ابن آدم إنك لو أتيتنى . . . الحديث.

الترمذى: اسمه: محمد بن عيسى بن سورة - بفتح المهملة - ابن موسى بن الضحاك السلمى، أبو عيسى، صاحب (الجامع)، وأحد الحفاظ، كان ضرير البصر. روى عن قُتيبة، وهناد، والبخارى، وخلق. مات سنة/ تسع وسبعين ومائتين^(٤).

وأنس: هو ابن مالك بن النضر الأنصارى الخزرجى، خادمُ رسول الله ﷺ:

(١) ينظر: السمعاني، «الأنساب» (٢/ ٢٠٩)، والذهبي، «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٩٢).

(٢) ينظر: الذهبي، «المصدر السابق» (١٧/ ١٦٢).

(٣) الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٥٣٤) وقال: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه أحمد فى «المسند» (٥/ ١٥٤، ١٧٢)، والدرامى فى «السنن» رقم (٢٧٩١) من حديث أبى ذر، وله شاهد عند مسلم من حديث أبى ذر فى «الصحيح» برقم (٢٦٨٧) وسوف يُشير المؤلف إليها.

(٤) ينظر: الذهبي، «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٧٠).

خدمه عشر سنين، وقال [له] ^(١) «اللهم أكثر ماله وولده، وأدخله الجنة» ^(٢) . . مات سنة اثنتين - وقيل: ثلاث - وتسعين، وقد جاوز المائة ^(٣) .

وقد رواه الإمام أحمد، من حديث أبي ذرٍّ بمعناه، وهذا لفظه: «ومن عمل قُرَاب الأرض خطيئة، ثم لقيني لا يُشرك بى شيئاً جعلتُ له مثلها مغفرة» .

ورواه مسلم، وأخرجه الطبراني، من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ .

قوله: «لو أتيتنى بقُرَاب الأرض» بضم القاف، وقيل: بكسرها. والضم أشهر، وهو ملؤها أو ما يُقارب ملأها.

قوله: «ثم لقيتنى لا تُشرك بى شيئاً» شرطٌ ثَقِيلٌ فى الوعد بحصول المغفرة، وهو السلامة من الشرك: كثيره وقليله، صغيره وكبيره. ولا يسلمُ من ذلك إلا من سلَّم الله تعالى، وذلك هو القلبُ السليم؛ كما قال تعالى: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» ^(٤) [الشعراء: ٨٩] .

قال ابنُ رجب: من جاء مع التوحيد بقُرَاب الأرض خطايا، لقيه الله تعالى بقُرْبها مغفرة.

إلى أن قال: فإن كُملَ توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت، أوجب ذلك مغفرة ما قد سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية. فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه، أخرجت منه كل ما سوى الله تعالى: محبةً وتعظيمًا، وإجلالا ومهابة، وخشية وتوكلًا. وحيثُ تَحَرَّقَ ذُنُوبُهُ وخطاياها كلها، وإن كانت مثلَ زبد البحر. انتهى مُلخصاً ^(٥) .

قال العلامةُ ابن القيم رحمه الله تعالى - فى معنى الحديث -: وَيُعْفَى لاهل التوحيد المُحَضَّ - الذين لم يشوبوه بالشرك - ما لا يُعْفَى لمن ليس كذلك. ولو لقي

(١) إضافة من (ط).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٣٧٩، ٦٣٨١)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٤٨٠، ٢٤٨١).

(٣) ينظر: الذهبى، «سير أعلام النبلاء»، (٣/ ٣٩٥).

(٤) ينظر: ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢/ ١٣٣).

(٥) ينظر: ابن رجب، «كلمة الاخلاص» (٢١) وما بعدها.

الموحَّد - الذى لم يُشرك بالله شيئاً البتَّة - ربُّه بقراب الأرض خطايا، أناه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيدُه.

فإنَّ التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك، لا يبقى^(١) معه ذنب؛ لانه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه، ما يوجبُ غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض. فالتجاسة عارضة، والدافع لها قوى. انتهى.

وفى هذا الحديث: كثرةُ ثواب التوحيد، وسعةُ كرم الله وجوده ورحمته^(٢)، والردُّ على الخوارج: الذين يكفرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين: بالمتزلة بين المتزلتين، وهى الفسوق، ويقولون: ليس بمؤمن ولا كافر، ويُخلد فى النار.

والصواب: قولُ أهل السنة: أنه لا يُسلب عنه اسمُ الإيمان، ولا يُعطاه على الإطلاق، بل يقال: هو مؤمنٌ عاصٍ، أو مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته. وعلى هذا يدلُّ الكتاب/، والسنة، وإجماع سلف الأمة.

[٢/٢٠]

وعن عبد الله بن مسعود، قال: لما أُسرى برسول الله ﷺ، انتهى به إلى سِدرة المنتهى، فأعطى ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغُفرَ لمن لا يُشرك بالله من أُمَّته شيئاً المُفحِّمات^(٣). رواه مسلم^(٤).

قال ابنُ كثير - فى (تفسيره) -^(٥): وأخرج الإمامُ أحمد، والترمذى، وابن ماجه، والنسائى، عن أنس بن مالك، قال: قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية ﴿هو أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المذثر: ٥٦]، وقال: «قال ربكم: أنا أهلٌ أنْ أتقى فلا يُجعل معى إله، فمن اتقى أنْ يجعل معى إلهاً كان أهلاً أنْ أغفرَ له»^(٦).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: تأملَ الخمسَ اللواتى فى حديث عبادة، فإنك إذا

(١) الأصل: ولا يبقى.

(٢) المسائلتان: الأولى والثانية.

(٣) المُفحِّمات: الذنوب العظام والكبائر، من التفحيم: وهو الوقوع فى المهالك. «المنهاج» (٣/٣).

(٤) مسلم فى «الصحيح» رقم (١٧٣)، وأخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم: (٣٢٧٢).

(٥) ابن كثير «تفسير القرآن الكريم» (٨/ ٢٩٩).

(٦) أحمد فى «المسند» (٣/ ١٤٢، ١٤٣)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٣٢٥) وقال: هذا حديثٌ حسن

غريب.

جمعتَ بينه وبين حديثِ عِثبانَ: تبيينَ لك معنى قول لا إله إلا الله، وتبيينَ لك خطأ المغرورين.

وفيه: أنَّ الأنبياءَ يحتاجون للتنبية على فضل لا إله إلا الله، والتنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أنَّ كثيراً ممن يقولها يخفُّ ميزانُه. وفيه: إثباتُ الصفات، خلافاً للمعطلة.

وفيه: أنك إذا عرفت حديثَ أنس، [عرفت أنَّ^(١)] قوله في حديثِ عِثبانَ «إنَّ اللهَ حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغى بذلك وجهَ الله» أنَّه تركُ الشرك، ليس قولها باللسان^(٢). انتهى.

(٢) إضافة من كتاب «التوحيد».

(٣) المسائل: الخامسة، والسادسة، والثامنة، والتاسعة، والثانية عشرة، والثالثة عشرة.

(٢)

باب

من حق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب.
ش: أى: ولا عذاب، قلت: تحقيقه: تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك
والبدع والمعاصي.

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. [النحل: ١٢٠].

ش: وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات، التى هى الغاية فى تحقيق
التوحيد:

الأولى: أنه كان أُمَّةً، أى: قدوةً، وإماماً معلماً للخير. وماذاك إلا لتكميله
مقام الصبر واليقين، اللذين تُنال بهما الإمامة فى الدين.

الثانية: قوله: ﴿قَانِتًا﴾ قال شيخ الإسلام: القنوت: دوام الطاعة، والمُصلى إذا
طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت. قال تعالى: ﴿أَمِنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ
سَاجِدًا وَقَانِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]. انتهى ملخصاً.
الثالثة: أنه كان حنيفاً.

قلت: قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: الحنيف: المُقبلُ على الله،
المعرضُ عن كل ما سواه. انتهى^(١).

الرابعة: أنه ما كان من المشركين، أى: لصحة إخلاصه وكمال صدقه، وبُعدِهِ/ [٢٠/ب]
عن الشرك.

(١) ابن القيم، «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٧٤).

قلتُ: يوضح هذا، قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أى: على دينه من إخوانه المرسلين، قاله ابن جرير رحمه الله تعالى^(١).

﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ إلا قول إبراهيم لأبيه لا استغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. [الممتحنة: ٤].

وذكر تعالى عن خليله عليه السلام، أنه قال لأبيه آزر: ﴿وَاَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾. [مريم: ٤٨ - ٤٩].

فهذا هو تحقيق التوحيد: وهو البراءة من الشرك وأهله واعتزالهم، والكفر بهم وعداوتهم وبغضهم. فالله المستعان.

قال المصنف رحمه الله تعالى - فى هذه الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ - : لئلا يستوحش سالك الطريق من قلّة السالكين ﴿قَانَتَا لِلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين! ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يميناً ولا شمالاً، كفعل العلماء المفتونين!! ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خلافاً لمن كثّر سوادهم، وزعم أنّه من المسلمين^(٢). انتهى.

وقد روى ابن أبى حاتم، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ على الإسلام. ولم يكن فى زمانه أحدٌ على الإسلام غيره^(٣).

قلتُ: ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدّم: من أنّه كان إماماً يقتدى به فى الخير.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾. [المؤمنون: ٥٩].

ش: وصف المؤمنين السابقين إلى الجنة، فائضى عليهم بالصفات التى أعظمها:

(١) ابن جرير، «جامع البيان» (٢٨ / ٦٢).

(٢) محمد بن عبد الوهاب، «الاستنباط» (٢٣٧).

(٣) ابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٥ / ١٧٦).

أنهم بربهم لا يُشركون. ولما كان المرء قد يعرض له ما يقدرُ في إسلامه: من شرك جَلَى أو خفى، نفى ذلك عنهم. وهذا هو تحقيق التوحيد، الذى حَسُنَتْ به أعمالُهم، وكُمُلَتْ ونفَعَتْهم.

قلتُ: قوله: حَسُنَتْ وكُمُلَتْ^(١). هذا باعتبار سلامتهم من الشرك الأصغر. وأما الشرك الأكبر، فلا يُقال فى تركه ذلك، فتدبر. ولو قال الشارح: صَحَّتْ، لكان أقوم.

قال ابن كثير: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أى: لا يعبدون مع الله غيره. بل يوحّدونه، ويعلمون أنه: لا إله إلا الله، أحدٌ صمد. لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، وأنه لا نظير له^(٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: عن حُصَيْن بن عبد الرحمن، قال: كنتُ عند سَعِيد/ بن جُبَيْر، فقال: أيُّكم رأى الكوكبَ الذى انقَضَ البارحة؟ فقلتُ: أنا! ثم قلتُ: أما إنى لم أكن فى صلاة، ولكنى لُدغْتُ. قال: فماذا صنعت؟ قلتُ: ارتقيتُ. قال فما حملك على ذلك؟! قلتُ: حديثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبَى، قال: وما حَدَّثَكُم؟ قلتُ: حَدَّثَنَا عن بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْن، أنه قال: «لا رُقِيَةَ إلا من عين أو حُمَةٍ» قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حَدَّثَنَا ابنُ عَبَّاسٍ، عن النبى ﷺ أنه قال: «عُرِضَتْ عَلَى الأُمَمِ، فرأيتُ النبىَّ ومعه الرَّهْطُ، والنبىَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبىَّ وليس معه أحدٌ. إذ رُفِعَ لى سوادٌ عظيم، فظننتُ أنهم أمتى، فقيل لى: هذا موسى وقومه. فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لى: هذه أمتُك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنةَ بغير حساب ولا عذاب» ثم نهَضَ فدخل منزله، فخاض الناسُ فى أولئك، فقال بعضهم: فلعلَّهم الذين صَحِبُوا رسولَ الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلَّهم الذين وُلِدُوا فى الإسلام، فلم يُشْرِكُوا بالله شيئاً، وذكرُوا أشياء، فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ فأخبروه. فقال: «هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ ولا يَكْتُونُونَ ولا يَتَطَيَّرُونَ وعلى ربهم يتوكلون». فقام عكَّاشة بن مَحْضَن. فقال: يا رسول الله، أَدْعُ الله أن يجعلنى منهم، قال: «أنت منهم». ثم

(١) هذه الكلمة ليست فى المطبوعة من «تيسير العزيز الحميد» (١٠١).

(٢) ابن كثير. «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٤٧٣).

قام رجلٌ آخر، فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة». ش: هكذا أورده المصنّف غير معزوّ. وقد رواه البخاريّ مختصراً ومطولاً. ومسلم، واللفظ له، والترمذی، والنسائي^(١).

قوله: (عن حصين بن عبد الرحمن). هو السُّلَمي، أبو الهذيل الكوفي، ثقةٌ مات سنة ستٍ وثلاثين ومائة، وله ثلاثٌ وتسعون سنة^(٢).

وسعيد بن جبیر: هو الإمامُ الفقيه، من جَلَّةِ أصحابِ ابن عباس، روايته عن عائشة، وأبي موسى مُرسلة. وهو كوفيٌّ، مولى لبني أسد. قُتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يكمل الخمسين^(٣).

قوله: (انقضى). هو بالقاف والضاد المعجمة، أى: سقط. والبارحة، هي: [٢١/ب] أقربُ ليلة مضت. قال أبو العباس ثعلب^(٤)/ يقال قبل الزوال: رأيتُ الليلة، وبعد الزوال: رأيتُ البارحة، وكذا قال غيره. وهي مُشتقةٌ من بَرَح: إذا زال.

قوله: (أما إني لم أكن في صلاة)، قال في (معنى اللبيب): أما. بالفتح والتخفيف، على وجهين: أحدهما: أن تكون حرفَ استفتاح بمنزلة ألا، وإذا وقعت أن بعدها كُسرت. الثاني: أن تكون بمعنى حقاً، أو أحقاً^(٥).

وقال آخرون: هي كلمتان: الهمزة للاستفهام، وما اسمٌ بمعنى شيء، ذلك الشيءُ حقٌّ. فالمعنى أحقاً^(٦). وهذا هو الصواب.

[موضع^(٧) ما: النصب على الظرفية: وهذه^(٨) تُفتح أن بعدها. انتهى^(٩).

(١) البخاري في «الصحيح» رقم (٥٧٠٥، ٥٧٥٢) مطولاً، ورقم (٣٤١٠، ٦٤٧٢، ٦٥٤١) مختصراً، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٠)، والترمذی في (الجامع) (٢٤٤٨)، والنسائي في «السنن الكبرى كتاب الطب» كما في «تحفة الأشراف» (٤/ ٤١٠).

(٢) ابن حجر، «تقريب» (١٧٠).

(٣) ابن حجر، «تقريب» (٢٣٤).

(٤) أحمد بن يحيى الشيباني. إمامُ أهل الكوفة في النحو، (ت ٢٩١هـ) «وفيات الأعيان» (١/ ١٠٢).

(٥) في جميع النسخ: أحق، والمثبت من «المعنى».

(٦) في جميع النسخ: أحق، والمثبت من «المعنى».

(٧) إضافة من «المعنى».

(٨) أى: التي بمعنى حقاً، أو أحقاً.

(٩) ابن هشام، «معنى اللبيب عن كتب الأعاريب» (١/ ٥٦).

والأنسبُ هنا هو الوجه الأول.

القائلُ هو حُصَيْن، خاف أن يظنَّ الحاضرون: أَنَّهُ رآه وهو يُصَلِّي، فنفى عن نفسه إيهام العبادة. وهذا يدل على فضل السلف، وحرصهم على الإخلاص وإبعادهم عن الرياء والتزيُّن بما ليس فيهم.

قوله: (ولكني لُدغت) بضم أوله، وكسر ثانيه. قال أهل اللغة: يُقال لدغته العقربُ، وذواتُ السموم: إذا أصابته بسمِّها، وذلك بأنْ تأبره بشوكتها.

قوله: (قلتُ: ارتقيت). لفظُ مسلم: استرقيتُ. أى: طلبتُ من يرقيني.

قوله: (فما حملك على ذلك؟) فيه طلبُ الحجج على صحة المذهب.

قوله: (حديثٌ حدثناه الشعبيُّ). اسمه: عامر بن شُرَاحيل الهمداني. وكُد في خلافة عمر، وهو من ثقات التابعين وفقهائهم، مات سنة ثلاثٍ ومائة.

قوله: (عن بُريدة) بضم أوله وفتح ثانيه، تصغيرُ بُردة (ابن الحُصَيْب) - بضم الحاء وفتح الصاد المُهملتين - ابن الحارث الأسلمي، صحابيٌّ شهير. مات سنة ثلاثٍ وستين. قاله ابنُ سعد^(١).

قوله (لا رُقِيَةَ إلا من عينٍ أو حُمَةٍ) وقد رواه أحمدُ، وابنُ ماجه، عنه مرفوعاً^(٢). ورواه أحمدُ، وأبو داود، والترمذى، عن عمران بن حُصَيْن، به مرفوعاً^(٣). قال الهيثمي: رجالُ أحمد ثقات.

و(العين): هى إصابةُ العائن غيره بعينه. و(الحُمَة) - بضمُّ المهملة وتخفيف الميم - سمُّ العقرب، وشبهها.

قال الخطَّابى: ومعنى الحديث: لا رُقِيَةَ أَشْفَى وأولى من رُقِيَةِ العين والحُمَة، وقد رَقَى النَّبِيُّ ﷺ ورُقِيَ.

قوله: (قد/ أحسن من انتهى إلى ما سمع). أى: مَنْ أخذ بما بلغه من العلم، [١/٢٢]

(١) ابن سعد، «الطبقات» (٤/ ٢٤١).

(٢) أحمد فى «المسند» (١/ ٢٧١)، وابن ماجه فى «السنن» رقم (٣٥١٣).

(٣) أحمد فى «المسند» (٤/ ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٦)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٠٥٧)، وأبو داود فى «السنن»

رقم (٣٨٨٤).

وعمل به فقد أحسن. بخلاف من يعملُ بجهل، أو لا يعمل بما يعلم؛ فإنه مَسِيءٌ
أثم. وفيه: فضيلةُ علم السلف، وحُسنُ أدبهم.

قوله: (ولكن حدثنا ابنُ عباس) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ابنُ
عم النبي ﷺ، دعا له، فقال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمَهُ التَّوْبِيلَ»^(١) فكان
كذلك، مات بالطائف سنة ثمان وستين.

قال المصنّف رحمه الله: وفيه عُمُقُ علم السلف؛ لقوله: قد أحسن من انتهى
إلى ما سمع، ولكن كذا كذا. فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني^(٢).

قوله: «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمِّ» وفي الترمذی، والنسائي - من رواية عبث بن
القاسم^(٣)، عن حصين بن عبد الرحمن: - أن ذلك كان ليلة الإسراء. قال
الحافظ: فإن كان ذلك محفوظاً، كان فيه قوة لمن^(٤) ذهب إلى تعدد الإسراء، وأنه
وقع بالمدينة أيضاً^(٥).

قلت: وفي هذا نظر.

قوله: «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ» الذي في (صحيح مُسلم): «الرَّهْطُ»
بالتصغير لا غير، وهم الجماعةُ دون العشرة، قاله النووي.

قوله: «وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ»، والنبي وليس معه أحدٌ فيه الردُّ على
من احتج بالكثرة.

قوله: «إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ» المراد [به]^(٦) هنا: الشخصُ الذي يُرى من بعيد.

قوله: «فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي»؛ لأن الأشخاص التي تُرى في الأفق لا يُدرك منها
إلا الصورة.

(١) أخرجه أحمد في «المستدرك» (٢٦٦/١)، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٣٦٥)،
والطبراني في «الكبير» رقم (١٠٥٨٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٣٤) وصححه ووافقه الذهبي، قال
الهيثمي في «المجمع» (٢٧٦/٩): ولاحمد طريقان، رجألهما رجال الصحيح. وهو في الصحيح، غير
قوله: «وعلمه التأويل».

(٢) المسألة السابعة عشرة.

(٣) أبو زيد، ابن القاسم الزبيدي، ثقة. ت (١٧٩ هـ). «تقريب» (٢٩٤ /).

(٤) الأصل و(ض) و(م) و(هـ): إلى من. والمثبت من (ط) و«الفتح».

(٥) ابن حجر، «فتح الباري» (١١ / ٤٠٧).

(٦) زيادة من (ض).

وفى (صحيح مسلم) «ولكن انظر إلى الأفق» ولم يذكره المصنف. فلعلَّه سقط من الأصل الذى نقل الحديث منه. والله أعلم.

قوله: «ف قيل لى: هذا موسى وقومه» أى: موسى بن عمران، كليم الرحمن. وقومه: أتباعه على دينه من بنى إسرائيل.

قوله: «فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيم». فقيل لى: هذه أمتكُ ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» أى: لتحقيقهم التوحيد.

وفى رواية ابن فضيل «ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً».

وفى حديث أبى هريرة - فى (الصحيحين) - أنهم^(١) «تُضى وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر»^(٢).

وروى الإمام أحمد، والبيهقى - فى حديث أبى هريرة - «فاستزدتُ ربى فزادنى مع كل ألف سبعين ألفاً»^(٣) قال الحافظ: / وسنده جيد^(٤). [٢٢/ب]

قوله: (ثم نهض). أى: قام.

قوله: (فخاض الناسُ فى أولئك) - [هذا من العام الذى أريد به الخصوص - أى: جملة الحاضرين]^(٥). خاض: بالخاء والضاد المعجمتين.

وفى هذا: إباحة المناظرة والمباحثة فى نصوص الشرع، على وجه الاستفادة وبيان الحق.

وفيه: عمق علم السلف؛ لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

وفيه: حرصهم على الخير. ذكره المصنف^(٦).

(١) الأصل و(ض) و(م) و(هـ): بأنهم.

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٨١١، ٦٥٤٢)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢١٦)، وأحمد فى «المسند» (٢/ ٤٠٠).

(٣) أحمد فى «المسند» (٢/ ٣٥٩)، والبيهقى فى «كتاب البعث» رقم (٤١٦).

(٤) ابن حجر، «فتح البارى» (١١/ ٤١٠).

(٥) ما بينهما إضافة من (ض).

(٦) المسائلان: السابعة، والثامنة.

قوله: فقال «هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ» هكذا ثبت في (الصحيحين)، وهو كذلك في حديث ابن مسعود، في (مُسْنَدُ أَحْمَد) ^(١). وفي رواية لمسلم «لا يَرْقُونَ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: هذه الزيادة وهم من الراوى، لم يَقُلْ النَّبِيُّ ﷺ «لا يَرْقُونَ»؛ وقد قال النَّبِيُّ ﷺ وقد سئل عن الرَّقَى: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه» ^(٢).

وقال: «لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً» ^(٣).

قال: وأيضاً، فقد رقى جبريلُ النَّبِيُّ ﷺ ^(٤) ورقى النَّبِيُّ ﷺ أصحابه ^(٥).

قال: والفرق بين الراقى والمُسترقى: أنَّ المُسترقى ^(٦) سائلٌ مستعطٍ ملتفتٌ إلى غير الله بقلبه، والراقى مُحسن!

قال: وإنما المراد: وصفُ السبعين ألفاً بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهم أن يرقِيهم ولا يكويهم ^(٧). وكذا قال ابن القيم ^(٨).

قوله: «ولا يكتون» أى: لا يسألون غيرهم أن يكويهم، كما لا يسألون غيرهم أن يرقِيهم؛ استسلاماً للقضاء، وتلذذاً بالبلاء.

قلتُ: والظاهر أنَّ قوله: «لا يكتون» أعمُّ من أن يسألوا ذلك، أو يفعل بهم ذلك باختيارهم.

أما الكىُّ في نفسه فجائز؛ كما في (الصحيح) - عن جابر بن عبد الله - أنَّ

(١) أحمد في «المسند» رقم (٣٨٠٦، ٣٨١٩، ٣٩٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٢١٩٩) من حديث جابر.

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٠٠)، وأبو داود في «السنن» رقم (٣٨٨٦) من حديث عوف بن مالك.

(٤) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٢١٨٦)، والترمذى في «الجامع» رقم (٩٧٢) من حديث أبي سعيد. وأخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٢١٨٥) من حديث عائشة.

(٥) أخرجه البخارى في «الصحيح» رقم (٥٧٤٣)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢١٩٤)، وأبو داود في «السنن» رقم (٣٨٩٥) من حديث عائشة.

(٦) الأصل: أن المسترقى. سقط.

(٧) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١/ ١٨٢، ٣٢٨).

(٨) ابن القيم، «مدرج السالكين» (٣/ ٤٩٥).

النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيباً، فقطع له عرقاً، وكواه^(١).
وفى (صحيح البخارى) - عن أنس - أنه كوى من ذات الجنب، والنبي ﷺ
حتى^(٢).

وروى الترمذى، وغيره - عن أنس - أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زُرارة، من
الشوكة^(٣) (٤).

وفى (صحيح البخارى) - عن ابن عباس - مرفوعاً «الشِّفاءُ فى ثلاث: شربةُ
عسل، وشرطة محجم، وكيةُ نار. وأنا أنهى عن الكى»^(٥) وفى لفظ «وما أحب
أن أكتوى»^(٦).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: قد تَصَمَّنَتْ أحاديثُ الكى أربعة أنواع.
أحدها: / فعله. والثانى: عدمُ محبته، والثالث: الشَّاءُ على من تركه، والرابع: [١/٢٣]
النهى عنه. ولا تعارضَ بينها بحمد الله.

فإنَّ فعله له يدلُّ على جوازه، وعدمُ محبته لا يدلُّ على المنع منه. وأما الشَّاءُ
على تاركة، فيدلُّ على أنَّ تركه أولى وأفضل، وأما النهى، فعلى سبيل الاختيار
والكراهة^(٧).

وقوله: «ولا يتطيرون» أى: لا يتشاءمون بالطيور ونحوها. وسيأتى إن شاء الله
تعالى بيانُ الطيرة، وما يتعلَّق بها فى بابها.

قوله: «وعلى ربهم يتوكلون» ذكر الأصلَ الجامع الذى تفرَّعت عنه هذه الأفعالُ
والخصال، وهو التوكلُ على الله، وصِدْقُ الالتجاء إليه، والاعتمادُ بالقلب عليه،

(١) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٠٧)، وأبو داود فى «السنن» رقم (٣٨٦٤).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٧١٩، ٥٧٢١).

(٣) الشوكة: إحمرار يتشتر على الوجه والجسد. ينظر «النهاية» (٢/ ٥١٠).

(٤) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٠٥١). وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب، وابن حبان فى «الصحيح»

رقم (١٤٠٤).

(٥) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٦٨٠، ٥٦٨١).

(٦) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٦٨٣، ٥٦٩٧، ٥٧٠٢، ٥٧٠٤)، ومسلم فى «الصحيح» رقم

(٢٢٠٥).

(٧) ابن القيم، «زاد المعاد» (٤/ ٦٦).

الذى هو نهاية تحقيق التوحيد، الذى يُشمر كلُّ مقام شريف: من المحبة، والرجاء، والخوف، والرضى به رباً وإلهاً، والرضى بقضائه.

وأعلم أن الحديث لا يدلُّ على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً؛ فإنَّ مباشرة الأسباب - فى الجملة - أمرٌ فطرى ضرورى، لا انفكاك لأحد عنه. بل نفسُ التوكل: مباشرة لأعظم الأسباب؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾. [الطلاق: ٣] أى: كافيه.

ولما المراد: أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها، توكلوا على الله تعالى، كالاكتواء والاسترقاء. فتركهم له؛ لكونه سبباً مكروهاً، لاسيما والمريضُ يتشبَّث - فيما يظنُّه سبباً لشفائه - بخيط العنكبوت.

وأما مباشرة الأسباب، والتداوى - على وجه لا كراهية فيه - فغيرُ قاذح فى التوكل، فلا يكون تركه مشروعاً؛ لما فى (الصحيحين) - عن أبى هريرة - مرفوعاً «ما أنزل الله من داءٍ إلا أنزلَ لِنَهْ شِفاء. عِلْمُهُ مِنْ عِلْمِهِ، وَجَهْلُهُ مِنْ جَهْلِهِ»^(١).

وعن أسامة بن شريك، قال: كنتُ عند النبى ﷺ وجاءت الأعرابُ، فقالوا: يا رسول الله، أنتدأوى؟ قال: «نعم - يا عباد الله - تداؤوا؛ فإنَّ الله عزَّ وجل لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً. غيرَ داءٍ واحدٍ» قالوا: وما هو؟ قال: «الهرم» رواه أحمد^(٢).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: وقد تضمَّنت هذه الأحاديثُ إثباتَ الأسبابِ والمسبباتِ. وإبطالَ قول من أنكرها، والأمرَ بالتداوى، وأنه لا يُنافى التوكل؛ كما [٢٣/ب] لا يُنافيه/ دفعُ ألم الجوع والعطش، والحرُّ والبرد، بأضدادها. بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التى نصبها الله تعالى مقتضية^(٣) لمسبباتها قدراً وشرعاً،

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٦٧٨) دون الجملة الأخيرة، وأخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٠٤) من حديث جابر.

(٢) أحمد فى «المستد» (٤/ ٢٧٨)، وأخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٠٣٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) (م) و«زاد المعاد»: مقتضيات.

وَأَنَّ تَعَطُّلَهَا يَقْدَحُ فِي نَفْسِ التَّوَكُّلِ، كَمَا يَقْدَحُ فِي الْأَمْرِ وَالْحِكْمَةِ، وَيُضْعِفُهُ مِنْ حَيْثُ يُظَنُّ مُعْطَلُهَا أَنَّ تَرْكَهَا أَقْوَى فِي (١) التَّوَكُّلِ.

فَإِنَّ تَرْكَهَا عَجَزٌ يُنَافِي التَّوَكُّلَ، الَّذِي حَقِيقَتُهُ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي حَصُولِ مَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ. وَلَا بُدَّ مَعَ هَذَا الْاعْتِمَادِ مِنْ مُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ، وَإِلَّا كَانَ مُعْطَلًا لِلْحِكْمَةِ وَالشَّرْعِ، فَلَا يَجْعَلُ الْعَبْدُ عَجْزَهُ تَوَكُّلًا، وَلَا تَوَكُّلَهُ عَجْزًا (٢).

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي التَّدَاوِي: هَلْ هُوَ مُبَاحٌ، وَتَرْكُهُ أَفْضَلُ، أَوْ مُسْتَحَبٌّ أَوْ وَاجِبٌ؟

فَالْمَشْهُورُ عَنْ أَحْمَدَ الْأَوَّلِ؛ لِهَذَا الْحَدِيثِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ. وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ الشَّافِعِيَةِ الثَّانِي، حَتَّى ذَكَرَ النَّوَوِيُّ - فِي (شَرْحِ مُسْلِمٍ) -: أَنَّهُ مَذْهَبُهُمْ، وَمَذْهَبُ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَعَامَّةِ الْخَلْفِ (٣).

وَاخْتَارَهُ الْوَزِيرُ، أَبُو الْمُظَفَّرِ. قَالَ: وَمَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ: أَنَّهُ مُؤَكَّدٌ، حَتَّى يُدَانِيَ بِهِ الْوَجُوبَ. قَالَ: وَمَذْهَبُ مَالِكٍ: أَنَّهُ يَسْتَوِي فَعْلُهُ وَتَرْكُهُ، فَإِنَّهُ قَالَ: لَا بَأْسَ بِالتَّدَاوِي، وَلَا بَأْسَ بِتَرْكِهِ (٤).

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: لَيْسَ بِوَاجِبٍ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْأَثَمَةِ، وَإِنَّمَا أَوْجِبَهُ طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ (٥).

قَوْلُهُ: (فَقَامَ عَكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ). هُوَ: بَضْمُ الْعَيْنِ وَتَشْدِيدُ الْكَافِ، وَمِحْصَنٌ: بِكَسْرِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْهَاءِ وَفَتْحِ الصَّادِ الْمُهْمَلَتَيْنِ، ابْنُ حُرْثَانَ: بَضْمُ الْمُهْمَلَةِ وَسُكُونِ الرَّاءِ بَعْدَهَا مُثَلَّثَةً. الْأَسَدِيُّ، مِنْ بَنِي أَسَدَ بْنِ خُزَيْمَةَ. كَانَ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَمِنْ أَجْمَلِ الرِّجَالِ. هَاجَرَ، وَشَهِدَ بَدْرًا وَقَاتَلَ فِيهَا، وَاسْتَشْهَدَ فِي قِتَالِ الرُّدَّةِ مَعَ خَالِدِ بْنِ طَلِيحَةَ الْأَسَدِيِّ سَنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ (٦)، ثُمَّ

(١) الْأَصْلُ وَ(ض) وَ(م): مِنْ.

(٢) ابْنُ الْقَيْمِ، «رَادُّ الْمَعَادِ» (٤/ ١٤ - ١٥).

(٣) النَّوَوِيُّ، «الْمَنْهَاجُ» (١٤/ ١٩١).

(٤) يَنْظُرُ: ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، «الْتِمِيدُ» (٢٤/ ٦٥).

(٥) ابْنُ تَيْمِيَّةٍ، «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (٢٤/ ٢٦٩).

(٦) قَتْلَهُ انْتِقَامًا لِمَقْتَلِ أَخِيهِ حِبَالِ بْنِ خُوَيْلِدٍ، عَلَى مَاءِ بُرَازَةِ بِلَادِ بَنِي أَسَدٍ. الْبِلَادِيُّ «فَتْوحُ الْبِلْدَانِ» (١٠٥).

أسلم طليحةً بعد ذلك، وجاهد الفُرس يوم القادسية مع سعد بن أبي وقاص، واستشهد في وقعة الجسر المشهورة^(١).

قوله: (فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم» [٢/٢٤] وللبخارى في رواية، فقال: «اللهم / اجعله منهم» وفيه: طلبُ الدعاء من الفاضل.

قوله: (ثم قام رجلٌ آخر) ذكره مُبهماً، فلا حاجة بنا إلى البحث عن اسمه^(٢).
قوله: فقال «سبقك بها عكاشة» قال القرطبي: لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة، فلذلك لم يُجبه، إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كلُّ من كان حاضراً، فيتسلسل الأمر، فسدَّ الباب بقوله ذلك. انتهى.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وفيه: استعمالُ المعارض، وحسنُ خُلُقهِ عليه السلام^(٣).

(١) وكانت سنة ثلاث عشرة للهجرة، وسمى يوم قس الناطف. «فتوح البلدان» (٢٥٢).

(٢) ما بينهما ساقط من (ط).

(٣) المسألتان: الحادية والعشرون، والثانية والعشرون.

(٣) باب الخوف من الشرك

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ الخوف من الشرك.
وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.
[النساء: ٤٨ - ١١٦].

ش: قال ابن كثير: أخبر تعالى أنّه: ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أى: لا يغفر لعبدٍ لقيه وهو مشرك ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أى: من الذنوب لمن يشاء من عباده. انتهى^(١).

فتبيّن بهذه الآية: أنّ الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله تعالى أخبر أنّه لا يغفره لمن لم يتب منه، وما دونه من الذنوب فهو داخلٌ تحت المشيئة: إن شاء غفره لمن لقيه به، وإن شاء عذّبه.

وذلك يوجبُ للعبد شدة الخوف من الشرك الذى هذا شأنه عند الله؛ لأنه أقبحُ القبيح، وأظلم الظلم، وتنقصُ لرب العالمين، وصرفُ خالص حقه لغيره. وعدلُ غيره به، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. [الأنعام: ١].

ولأنه مناقضٌ للمقصود بالخلق والأمر، منافٍ له من كل وجه، وذلك غايةُ المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته، والدّلّ له، والانقياد لأوامره، الذى لا صلاح للعالم إلا بذلك. فمتى خلا منه خرب، وقامت القيامة، كما قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله، الله» رواه مسلم^(٢).

(١) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٨٦).

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (١٤٨)، من حديث أنس.

ولأنَّ الشَّركَ تشبيهٌ للمخلوق بالخالق - تعالى وتقدَّس - في خصائص الإلهية: من مُلك الضر والنفع، والعطاء والمنع، الذي يوجب تعلُّق الدِّعاء، والخوف والرجاء والتوكل، وأنواع العبادة كُلِّها بالله تعالى وحده. فمن علَّق ذلك بمخلوق فقد شبَّهه بالخالق، وجعلَ من لا يملكُ لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نُشوراً شبيهاً بمن له الحمدُ كُلُّه، وله الخلق كله، وله المُلك كله، وبيده الخيرُ كله، وإليه يرجع الأمرُ كُلُّه.

فأرَمَةُ الأمور كُلِّها بيده سبحانه، ومرجعُها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن [ب/٢٤] / لما أعطى، ولا مُعطى لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمةً فلا مُمسك لها، وما يمسكُ فلا مُرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم. فأقبحُ التشبيه: تشبيه العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغنى بالذات.

ومن خصائص الإلهية: الكمالُ المُطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه. وذلك يوجب أن تكون العبادة كُلُّها له وحده، والتعظيم والإجلال، والخشية والدعاء، والرجاء والإنابة، والتوكلُ والتوبة والاستعانة، وغايةُ الحبِّ مع غايةِ الذلِّ. كلُّ ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة، أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره.

فمن فعل شيئاً من ذلك بغيره، فقد شبَّه ذلك الغيرَ بمن لا شبيه له، ولا مثل له، ولا ندَّ له، وذلك أقبحُ التشبيه وأبطلُهُ.

فلهذه الأمور وغيرها: أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة. هذا معنى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى^(١).

وفى الآية ردُّ على الخوارج المكفرين بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر مخلَّدون في النار، وليسوا عندهم بمؤمنين ولا كفار.

ولا يجوز أن يُحمل قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ على التائب؛ فإنَّ التائب من الشرك مغفورٌ له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾. [الزمر: ٥٣].

(١) ينظر: ابن القيم، «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٦٠ وما بعدها).

فهنا عمّ وأطلق؛ لأن المراد به التائب، وهناك خصّ وعلق؛ لأن المراد به من لم يتب. هذا ملخص قول شيخ الإسلام^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾. [إبراهيم: ٣٥].

ش: الصنم: ما كان منحوتاً على صورة. والوثن: ما كان منحوتاً على غير ذلك. ذكره الطبري^(٢)، عن مجاهد^(٣).

قلت: وقد يُسمّى الصنم وثناً؛ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]^(٤) ويُقال: إنَّ الوثن أعمّ؛ وهو قويٌّ. فالأصنام أوثان، كما أنَّ القبور أوثان.

قوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أى: اجعلنى وبنيّ فى جانبٍ عن عبادة الأصنام، وباعد بيننا وبينها. وقد استجاب الله تعالى دعاءه، وجعل بنيّه / [١/٢٥] أنبياءً وجنّبهم عبادة الأصنام.

وقد بيّن ما يوجب الخوف من ذلك؛ بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾. [إبراهيم: ٣٦]، فإنّه هو الواقع فى كلّ زمان؛ فإذا عرف الإنسان أنّ كثيراً وقعوا فى الشرك الأكبر، وضلّوا بعبادة الأصنام: أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما وقع فيه الكثير، من الشرك الذى لا يغفره الله.

قال إبراهيم التيمي^(٥): وَمَنْ يَأْمَنُ الْبَلَاءَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ؟. رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم^(٥).

فلا يأمنُ الوقوعَ فى الشرك إلا من هو جاهلٌ به، وبما يُخلّصه منه: من العلم بالله، وبما بعث به رسوله، من توحّيده، والنهى عن الشرك به.

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٧٥).

(٢) ينظر «تفسير الطبري» (١١/ ٤٦٩).

(٣) ما بينهما إضافة من (هـ) و(ط).

(٤) أبو أسماء، بن يزيد بن شريك الكوفي العابد، ثقة إلا أنه يرسل ويدلس (ت ١٩٢ هـ) «تقريب» (٩٥).

(٥) كما فى «الدر المنثور» (٥/ ٤٦).

قال المصنف رحمه الله تعالى: وفي الحديث «أخوف ما أخافُ عليكم الشرك الأصغر»، فسئل عنه؟ فقال: «الرياء».

ش: أورد المصنف هذا الحديث مختصراً غير معزوّ. وقد رواه الإمام أحمد، والطبراني، والبيهقي.

وهذا لفظ أحمد: حدّثنا يونس، حدّثنا ليث، عن يزيد - يعنى ابن الهاد - عن عمرو، عن محمود بن لبيد: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء». يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء^(١)؟

قال المنذرى: ومحمود بن لبيد رأى النبی ﷺ، ولم يصح له منه سماع فيما أرى. وذكر ابن أبي حاتم: أن البخاري قال: له صحبة، ورجّحه ابن عبد البر والحافظ.

وقد رواه الطبراني بأسانيد جيّدة عن محمود بن لبيد، عن رافع بن خديج^(٢). مات محمود سنة ست وتسعين. وقيل: سنة سبع وتسعين. وله تسع وتسعون سنة.

قوله: «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» هذا من شفقتة ﷺ بأمرته، ورحمته ورأفته بهم، فلا خير إلا دلّهم عليه وأمرهم به، ولا شر إلا بيّنه لهم وأخبرهم به ونهاهم عنه؛ كما قال ﷺ - فيما صح عنه -: «ما بعث الله من نبي إلا [٢٥/ب] كان حقاً عليه أن يدل أمة على خير ما يعلمه لهم» الحديث^(٣).

فإذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ - مع كمال علمهم وقوّة إيمانهم - فكيف لا يخافه - وما فوقه - ممن هو دونهم في العلم والإيمان

(١) مسند أحمد (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٢): ورجاله رجال الصحيح، والطبراني في «الكبير» رقم (٤٣٠١) قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٢٢): ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن شبيب بن خالد وهو ثقة، وحسن الحافظ إسناده كما في «بلوغ المرام» (٣٠٢).

(٢) المنذرى، «الترغيب والترهيب» (١/ ٦٩).

(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (١٨٤٤)، من حديث عبد الله بن عمرو.

بمراتب؟! خصوصاً إذا عُرِفَ أنَّ أكثرَ علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقرَّ به المشركون!. وما عرفوا معنى الإلهية، التي نفتها كلمة الإخلاص عن كلِّ ما سوى الله.

وأخرج: أبو يعلى، وابن المنذر، عن حذيفة بن اليمان، عن أبي بكر، عن النبي ﷺ، قال: «الشركُ [فيكم]»^(١) أخفى من ديبب النمل» قال أبو بكر: يارسول الله، وهل الشركُ إلا ما عبُد من دون الله، أو ما دُعِيَ مع الله، قال: تُكَلِّتُك أملك! الشركُ فيكم أخفى من ديبب النمل» الحديث. وفيه: «أن تقول: أعطاني الله وفلان، والنَّدُّ: أن يقول الإنسان: لولا فلان قتلني فلان»^(٢) انتهى. من (الدر).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله نداءً دخل النار» رواه البخارى^(٣).
ش: قال ابن القيم: النَّدُّ: الشَّيْبَة، يُقال: فلان نَدُّ فلان، ونديده، أى: مثله وشبهه^(٤). انتهى، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٢٢].

قوله: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً» أى: يجعل لله نداً فى العبادة، يدعوه ويسأله ويستغيث به، «دخل النار».
قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:
والشركُ فاحذره، فشركٌ ظاهرٌ ذا القِسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ النَّدِّ للرحمن أيّاً كان، من حجرٍ ومن إنسان

(١) ساقط من الأصل (م) و(هـ) و(ط).

(٢) أبو يعلى فى «المسند» رقم (٥٨)، وعنه ابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» رقم (٢٨٦). وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم، كما فى «الدر المشور» (٤ / ٥٤)، وفيه ليث بن أبى سليم وهو مدلس، كما فى «مجمع الزوائد» (١٠ / ٢٢٤)، وله شاهد من حديث أبى موسى الأشعرى، أخرجه أحمد فى «المسند» (٤ / ٤٠٣)، (٢٢٣ / ١٠) وشاهد من حديث معقل بن يسار، عن أبى بكر، أخرجه البخارى فى «الأب المفرد» رقم (٧١٦).

(٣) «صحيح البخارى» (٤٤٩٧، ٦٦٨٣)، وأخرجه أحمد فى «المسند» (١ / ٤٦٢، ٤٦٤). وأخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٢) بغير هذا اللفظ.

(٤) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (٢ / ٣٢٥).

يدعوه، أو يرجوه، ثم يخافه ويحبه كمحبة الديان^(١)
واعلم، أن اتخاذ الندى على قسمين:
الأول: أنه يجعله الله شريكاً في أنواع العبادة أو بعضها، كما تقدم. وهو شرك أكبر.

والثاني: ما كان من نوع الشرك الأصغر، كقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت. وكيسير الرياء؛ فقد ثبت أن النبي ﷺ لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتنى لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده» رواه أحمد، وابن أبي شيبة والبخارى فى (الأدب المفرد)، والنسائى، وابن ماجه^(٢). وقد تقدم حكمه فى باب فضل التوحيد.

وفيه: بيان أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلى، كطلب الشفاعة من الأموات. فإنها ملك لله تعالى، / ويده ليس بيد غيره منها شئ، وهو الذى يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالإخلاص والتوحيد من أهل الكبائر، كما يأتى تقريره فى باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «من لقى الله لا يُشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار»^(٣).

ش: جابر: هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام - بمهملتين - الأنصارى، ثم السلمى - بفتحيتين - صحابى جليل، ولأبيه مناقب مشهورة رضى الله عنهما، مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كُفَّ بصره، وله أربع وتسعون سنة.

قوله: «من لقى الله لا يُشرك به شيئاً» قال القرطبى: أى: لم يتخذ معه شريكاً فى الإلهية، ولا فى الخلق، ولا فى العبادة. ومن المعلوم من الشرع، المجمع عليه

(١) ابن القيم، «الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية» (١٥٧).

(٢) أحمد فى «المسند» (١/ ٢١٤، ٢٨٣، ٣٤٧)، والبخارى فى «الأدب» رقم (٧٨٣)، والنسائى فى «عمل اليوم والليلة» رقم (٩٨٨)، وابن ماجه فى «السنن» رقم (٢١١٧). من حديث ابن عباس. وذكره الألبانى فى «صحيحته» رقم (١٣٩).

(٣) مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٣)

عند أهل السنة: أنَّ من مات على ذلك فلا بُدَّ له من دخول الجنة، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة، وأنَّ من مات على الشرك لا يدخل الجنة، ولا يناله من الله رحمة، ويُخلَّد في النار أبد الآباد، من غير انقطاع عذاب، ولا تصرُّم آماد.

وقال النووي: أمَّا دخولُ المشرك النارَ فهو على عُمومه، فيدخلها ويخلَّد فيها، ولا فرق فيه بين الكتابي - اليهودى والنصرانى - وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره، ولا بين من خالف ملَّة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حُكم بكفره؛ بجحده [ما يكفرُ بجحده]^(١) وغير ذلك.

وأما دخولُ من مات غيرَ مشرك الجنة، فهو مقطوعٌ له به. لكن إن لم يكن صاحبَ كبيرة - مات مُصرّاً عليها - دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحبَ كبيرة مات مُصرّاً عليها فهو تحت المشيئة: فإن عفى عنه دخل الجنة أولاً، وإلا عُدَّ في النار، ثم أُخرج من النار وأدخل الجنة^(٢).

وقال غيره: اقتصر على نفي الشرك؛ لاستدعائه التوحيد بالافتضاء، واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم. إذ من كذَّب رُسلَ الله فقد كذَّب الله، ومن كذَّب الله فهو مشرك. وهو كقولك: من توضأ صحَّت صلاتُه، أى: مع سائر الشروط. [٢٦/ب] فالمراد: من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به، إجمالاً في الإجمالى، وتفصيلاً في التفصيلي. انتهى^(٣).

(١) إضافة من «المنهاج».

(٢) النووي، «المنهاج» (١/ ٩٧).

(٣) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد» (١٢٢).

(٤)

باب

الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ الدُّعاءِ إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

ش: لما ذكر المصنّف رحمه الله تعالى: التوحيدَ وفضله، وما يُوجب الخوف من ضده.

نبّه بهذه الترجمة على أنّه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة؛ كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم، كما قال الحسن البصري - لما تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. [فصلت: ٣٣] فقال: هذا حبيبُ الله، هذا وليُّ الله، هذا صفوةُ الله، هذا خيرةُ الله، هذا أحبُّ أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله في دعوته، ودعا الناسَ إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال: إنني من المسلمين. هذا خليفةُ الله^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ: هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. [يوسف: ١٠٨].

ش: قال أبو جعفر بن جرير: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَذِهِ﴾ الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها: من الدعاء إلى توحيد الله، وإخلاص العباد له دون الآلهة والأوثان، والانتهاز إلى طاعته وترك معصيته ﴿سَبِيلِي﴾ وطريقتي، ودعوتي ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى وحده لا شريك له ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ بذلك ويقين علم مني به ﴿أَنَا وَ﴾ يدعو إليه على بصيرة أيضاً ﴿مَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وصدقني، وآمن بي. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ يقول له تعالى ذكره: وقل

(١) أخرجه عبد الرزاق، في «التفسير» (٢/ ١٨٧).

تنزيهاً لله تعالى وتعظيماً له: من أن يكون له شريكٌ في ملكه أو معبود سواه في سلطانه ﴿وما أنا من المشركين﴾ يقول: وأنا برئٌ من أهل الشرك به، لست منهم ولا هم مني. انتهى^(١).

قال في (شرح المآزل): يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم، وهي البصيرة التي يكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر. وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة / عن سائر الأمة، وهي أعلى [١/٢٧] درجات العلماء.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أي: أنا وأتباعي على بصيرة. وقيل ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطفٌ على المرفوع في ﴿ادعوا﴾ أي: أنا أدعو إلى الله على بصيرة، ومن اتبعني كذلك يدعو إلى الله تعالى على بصيرة. وعلى القولين: فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعين إلى الله تعالى، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة. وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى^(٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: فيه مسائل:

منها: التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيراً [من الناس]^(٣) لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

ومنها: أن البصيرة من الفرائض.

ومنها: أن من دلائل حسن التوحيد: أنه تنزيه لله تعالى عن المسببة.

ومنها: أن من قبح الشرك كونه مسببة لله.

ومنها: إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم، ولو لم يُشرك. انتهى^(٤).

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى - في معنى قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى

(١) «تفسير الطبري» (١٦ / ٢٩١).

(٢) ابن القيم، «مدارج السالكين» (٢ / ٤٨١).

(٣) إضافة من كتاب «التوحيد».

(٤) المسائل: الثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة، والسادسة.

سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴿[النحل: ١٢٥] -: ذكر سبحانه مراتب الدعوة، وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو:

فإنه إما أن يكون طالباً للحق محباً له، مؤثراً له على غيره إذا عرفه. فهذا يُدعى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة وجدال.

وإما أن يكون مُشتغلاً بضد الحق، لكن لو عرفه أثره واتبعه. فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب.

وإما أن يكون مُعاندًا معارضاً، فهذا يُجادل بالتى هي أحسن. فإن رجع، وإلا انتقل معه إلى الجلاء إن أمكن. انتهى^(١).

^(٢) وقال أيضاً رحمه الله تعالى: والفرق بين حُبِّ الإمامة والدعوة إلى الله، وحُبِّ الرياسة: هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له، وتعظيم النفس والسعى في حظها.

فإن الناصح لله المحب له، يُحِبُّ أَنْ يُطَاعَ رَبُّهُ فَلَا يُعْصَى، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه. فقد ناصح الله في عبوديته، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله، فهو يحب الإمامة في الدين. بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماماً يقتدى به المقتدون، كما اقتدى هو بالمتقين.

فإذا أحب هذا العبدُ الداعي إلى الله أن يكون في أعين الناس جليلاً، وفي قلوبهم مهيباً، وإليهم حبيباً، وأن يكون فيهم مطاعاً، لكي يأتوا به، ويقتفوا أثر الرسول ﷺ على يديه. لم يضره ذلك بل يُحمد عليه؛ لأنه داعٍ إلى الله، يُحِبُّ أَنْ يُطَاعَ وَيُعْبَدَ وَيُوحَّدَ. فهو يُحِبُّ مَا يَكُونُ عَوْناً عَلَى ذَلِكَ، موصلاً إليه.

ولهذا ذكر الله سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه، وأثنى عليهم في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه. فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم، ثم قال ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ

(١) ينظر ابن القيم، «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٩٣).

(٢) من هنا ساقط من (ط)، ومعلق من هامش الاصل وعليه كلمة صح.

إماماً». [سورة الفرقان: ٧٤]. فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته.

فإنَّ الإمام والمؤتم متعاونان على طاعته، وإنَّما سألوه ما يعاونون به المتقين على مرضاته وطاعته، وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين، التي أساسها الصبر واليقين، قال تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾. [السجدة: ٢٤]. فسؤالهم: أن يجعلهم أئمة للمتقين.

هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمنَّ عليهم بالعلوم النافعة، والأعمال [الصالحة]^(١) ظاهراً وباطناً، التي لا تتم الإمامة إلا بها.

وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسم الرحمن جلَّ جلاله، ليعلم خلقه أنَّ هذا إنما نالوه بفضلهم ورحمته، ومحض جوده ومنته.

وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه الصورة: الغرف وهي المنازل العالية في الجنة.

وهذا لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية - بل من أعلى مراتب يُعطاه العبد في الدنيا - كان جزاؤه عليها الغرف العالية في الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة، فإنَّ طالبيها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم: من العلو في الأرض، وتعبد القلوب لهم، وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم، مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم.

فترتب على هذا الطلب من المفاصد ما لا يعلمه إلا الله: من البغى والحسد، والطغيان والحقد، والظلم، والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقر الله، واختقار من أكرمه الله.

ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك، ولا تُنال إلا بأضعافه من المفاصد، والرؤساء في عَمَى هذا.

فإذا كُشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه، ولا سيما إذا حشروا في صفة

(١) إضافة من (ض).

الذّر، يطوهم أهلُ الموقف بأرجلهم^(١)؛ إهانة لهم وتحقيراً وتصغيراً، كما صغروا أمر الله، وحقروا عباده. انتهى كلامه - رحمه الله تعالى^(٢) ^(٣).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: عن ابن عباس رضى الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ لما بعث مُعَاذاً إلى اليمن، قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أولّ ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله - وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله - فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك. فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(٤). أخرجاه.

ش: قال الحافظ: كان بعث مُعَاذٍ إلى اليمن سنة عشر، قبل حجّ النبي ﷺ؛ كما ذكره المصنّف - يعنى البخارى - فى أواخر المغازي. وقيل: كان ذلك فى آخر سنة تسع، عند مُنْصَرَفِهِ ﷺ من تبوك. رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك. وأخرجه ابن سعد فى (الطبقات) عنه.

واتفقوا أنه لم يزل على اليمن، إلى أن قدم فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه. ثم توجه إلى الشام، فمات بها^(٥).

قال شيخ الإسلام: / ومن فضائل معاذ رضى الله تعالى عنه: أنّه بعثه ﷺ إلى [٢٧/ب] اليمن مبلغاً عنه، ومفقهً ومعلماً وحاكماً^(٦).

قوله «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب» قال القرطبي: يعنى به اليهود

(١) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٤٩٤) وقال: هذا حديث حسن، وأحمد فى «المستد» (١٧٩/٢) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) إلى هنا ينتهى السقط من (ط).

(٣) ابن القيم، «الروح» (٣٧٤).

(٤) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٤٥٨، ١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧، ٧٣٧١)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٩).

(٥) ابن حجر، «فتح البارى» (٣/٣٥٨).

(٦) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٠٠/٦٥٤).

والنصارى؛ لأنهم كانوا فى اليمن أكثر من مشركى العرب أو أغلب. وإنما نبه على هذا ليتهاى المناظرتهم.

وقال الحافظ: هو كالتوطئة للوصية، ليجمع همته عليها.

قوله: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله» شهادة: رفع على أنه اسم يكن مؤخر. وأول: خبرها مقدّم، ويجوز العكس.

قوله: «وفى رواية: إلى أن يوحدوا الله» هذه الرواية ثابتة فى كتاب التوحيد من (صحيح البخارى). وأشار المصنف بذكر هذه الرواية: إلى التنبيه على معنى شهادة أن لا إله إلا الله، فإن معناها توحيد الله تعالى بالعبادة، ونفى عبادة ما سواه.

وفى رواية «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله» وذلك هو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله؛ كما قال تعالى: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا». [البقرة: ٢٥٦]، والعروة الوثقى: هى لا إله إلا الله. وفى رواية للبخارى، فقال: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله».

قلت: لأبدّ فى شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها:

أحدها: العلم، المنافى للجهل.

الثانى: اليقين، المنافى للشك.

الثالث: القبول، المنافى للرد.

الرابع: الانقياد، المنافى للترك.

الخامس: الإخلاص المنافى للشرك. السادس: الصدق، المنافس للكذب.

السابع: المحبة، المنافية لعدمها.

وفيه دليل على أن التوحيد - الذى هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه - هو أول واجب؛ ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم

السلام ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وقول نوح ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وفيه معنى: لا إله إلا الله، مطابقة.

[قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: ولهذا خاطب الرسل أمهم، مخاطبة من لا شك عنده في الله، وإنما دعوهم إلى عبادة الله وحده، لا إلى الإقرار به؛ فقالت لهم ﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. [إبراهيم ١٠] فوجوده سبحانه وروبويته وقدرته، أظهر من كل شيء على الإطلاق.

فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده. فما ينكره إلا مكابر بلسانه، وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلَاءُ رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ﴾. [الرعد: ٢] إلى آخر الآيات^(١).

قال شيخ الإسلام: وقد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ، واتفقت عليه الأمة: أن أصل الإسلام^(٢)، وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فبذلك يصير الكافر مسلماً والعدو ولياً، والمباح دمه [٢/٢٨] وماله معصوم الدم والمال. ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان. قال: وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطناً وظاهراً، عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء. انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وفيه: أن الإنسان قد يكون عالماً وهو لا يعرف معنى لا إله إلا الله، أو يعرفه ولا يعمل به^(٣).

قلت: فما أكثر هؤلاء، لا كثرتهم الله تعالى.

قوله: «فإن هم أطاعوك لذلك» أي: شهدوا، وانقادوا لذلك «فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات» فيه: أن الصلاة أعظم واجب بعد الشهادتين. قال

(١) ما بينهما ساقط من الأصل و(ط).

(٢) ما بينهما ساقط من (ض).

(٣) المسألة العاشرة.

النوى ما معناه: أنه يدلُّ على أنَّ المطالبة بالفرائض فى الدنيا لا يكون إلا بعد الإسلام، ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها، ويزاد فى عذابهم بسببها فى الآخرة. والصحيح: أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، المأمور به والمنهى عنه. وهذا قول الأكثرين. انتهى.

قوله: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم» فيه: دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلاة^(١)، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف على الفقراء. وإنما خصَّ النبي ﷺ الفقراء؛ لأن حقهم فى الزكاة أكد من حق بقية الأصناف الثمانية.

وفيه: أن الإمام هو الذى يتولى قبض الزكاة وصرفها: إما بنفسه أو نائبه، فمن امتنع من أدائها أخذت قهراً منه.

وفى الحديث: دليل على أنه يكفى إخراج الزكاة فى صنف واحد، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد^(٢).

وفيه: أنه لا يجوز دفعها إلى غنى، ولا إلى كافر غير المؤلف، وأن الزكاة واجبة فى مال الصبى والمجنون، كما هو قول الجمهور؛ لعموم الحديث^(٣).

قلت: والفقير إذا أفرد فى اللفظ تناول المسكين وبالعكس، كنظائره. قرره شيخ الإسلام^(٤).

قوله: «فإياك وكرائم أموالهم» بنصب كرائم؛ على التحذير. جمع كريمة، قال [٢٨/ب] صاحب (المطالع): هى الجامعة للكمال الممكن / فى حقها: من غزارة لبن، وجمال صورة، وكثرة لحم وصوف. ذكره النوى^(٥).

قلت: وهى خيار المال، وأنفسه وأكثره ثمناً.

وفيه: أنه يحرم على العامل فى الزكاة أخذ كرائم المال، ويحرم على صاحب

(١) وهو الصواب، ينظر: آل تيمية «المسودة» (٤٦)، والشافعى «أصواء البيان» (٧/ ١١٤).

(٢) ينظر: ابن قدامة، «المغنى» (٤/ ١٢٨).

(٣) ينظر: ابن قدامة، «المغنى» (٩/ ٣١٦)، وابن عبد الهادى، «الدر النقى» (٣/ ٦١٠).

(٤) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٦٧).

(٥) النوى: «المنهاج» (١/ ١٩٧)، وذكره البعلى (ت ٧٠٩ هـ) فى «المطلع على أبواب المنقح» غير معزو.

المال إخراجُ شرارِ المال. بل يُخرجُ الوسط، فإن طابت نفسه بالكرامة جاز.

قوله: «واتقِ دعوة المظلوم» أى: اجعل بينك وبينها وقاية، بالعل وترك الظلم.

وهذان الأمران يقيان مَنْ رُزِقَهما من جميع الشرور، دُنْيا وأُخرى.

وفيه: تنبيهٌ على التحذير من جميع أنواع الظلم.

قوله: «فإنه» أى: الشأن «ليس بينها وبين الله حجاب» هذه الجملةُ مفسرة لضمير الشأن. أى: فإنها لا تُحجب عن الله تعالى، فيقبلها.

وفى الحديث أيضاً: قبولُ خبر الواحد العدل، ووجوب العمل به، وبعثُ الإمام العُمَّالَ لجباية الزكاة، وأنه يعظُ عُمَّالَه وولاته، ويأمرُهم بتقوى الله تعالى، ويعلمُهم، وينهاهم عن الظلم، ويعرفُهم سوء عاقبته. والتنبيةُ على التعليم بالتدريج. قاله المصنف^(١).

قلتُ: ويبدأ بالأهم فالأهم.

واعلم أنه لم يذكر فى الحديث الصومَ والحج، فأشكل ذلك على كثيرٍ من العلماء.

قال شيخُ الإسلام: أجاب بعضُ الناس: أن بعض الرواة اختصر الحديث، وليس كذلك؛ فإنَّ هذا طعنٌ فى الرواة، لأن ذلك إنما يقعُ فى الحديث الواحد، مثل حديث وفد عبد القيس^(٢)، حيث ذكر بعضهم الصيام، وبعضهم لم يذكره. فأما الحديثان المنفصلان فليس الأمرُ فيهما كذلك، ولكن عن هذا جوابان:

أحدهما: أنَّ ذلك بحسب نزول الفرائض. وأوَّلُ ما فرض الله الشهادتان ثم الصلاة، فإنه أمر بالصلاة فى أول أوقات الوحي؛ ولهذا لم يذكر وجوبَ الحج كعامة الأحاديث، إنما جاء فى الأحاديث المتأخرة.

[قلتُ: وهذا من الأحاديث المتأخرة، ولم يُذكر فيها]^(٣).

(١) المسألة الحادية عشرة.

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٣)، ٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨، ٣٠٩٥، ٣٥١٠، ٤٣٦٨، ٦١٧٦،

٧٢٦٦، ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٧) من حيث ابن عباس.

(٣) إضافة من (ض) و(م) و«التيسير».

الجوابُ الثاني: أنه كان يذكرُ في كل مقامٍ ما يُناسبه. فيذكر تارةً الفرائض التي يُقاتل عليها كالصلاة والزكاة، ويذكرُ تارةً الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارةً الصلاة والزكاة والصوم: فإمّا أن يكون قبل فرض الحج، وإمّا أن يكون المخاطبُ بذلك لا حج عليه.

[٢/٢٩] وأما الصلاةُ والزكاةُ فلهما شأنٌ ليس لسائر الفرائض؛ ولهذا ذكر / تعالى في كتابه القتالَ عليهما لأنهما عبادتان ظاهرتان، بخلاف الصوم فإنه أمرٌ باطن من جنس الوضوء والغتسال من الجنابة، ونحو ذلك مما يؤثمنُ عليه العبد. فإنَّ الإنسان يمكنه أن لا ينوى الصوم وأن يأكل سراً، كما يمكنه أن يكتُم حديثه وجنابته. وهو ﷺ يذكر في الأعمال الظاهرة التي يُقاتل الناسُ عليها، ويصيرون مسلمين بفعلها. فلهذا علّق ذلك بالصلاة والزكاة، دون الصوم. وإن كان واجباً كما في آيتي براءة^(١)، [فإنَّ براءة^(٢)] نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس. وكذلك لما بعث معاذاً إلى اليمن لم يذكر في حديثه الصوم؛ لأنه تبع وهو باطن، ولا ذكر الحجَّ لأنَّ وجوبه خاصٌ ليس بعام، ولا يجب في العمر إلا مرة. انتهى بمعناه.

قوله: (أخرجاه) أي: البخاري ومسلم، وأخرجه أيضاً: أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولهما، عن سهل بن سعد: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الرايةَ غداً رجلاً يُحبُّ الله ورسوله، ويحبُّ الله ورسوله يفتح الله على يديه» فبات الناسُ يدوكون ليلتهم: أيُّهم يُعطاهَا. فلما أصبحوا، غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين على بن أبي طالب؟» ف قيل: هو يشتكى عينيه، فأرسلوا إليه. فأثنى به، فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع. فأعطاه الراية، فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى

(١) الآيتان الخامسة، والحادية عشرة.

(٢) ساقط من جميع النسخ، والإضافة من «التيسير».

فيه؛ فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً، خيرٌ لك من حُمْر النّعم»^(١) يدوكون.
أى يخوضون.

ش : قوله : (عن سهل بن سعد)، أى : ابن مالك بن خالد الأنصارى
الخزرجى السّاعدى، أبو العباس، صحابىٌ شهير، وأبوه صحابى أيضاً. مات سنة
ثمانٍ وثمانين، وقد جاوز المائة.

قوله : (قال يوم خيبر) [أى : فى غزوة خيبر] وفى (الصحيحين) عن سلمة بن
الأكوع، قال : كان علىّ رضى الله عنه قد تخلف عن النّبي ﷺ فى خيبر، وكان
أرمداً، فقال : أنا أتخلفُ عن رسول الله ﷺ ؟ فخرج علىّ رضى الله عنه فلحق
بالنّبي ﷺ، فلما كان مساءَ الليلة التى فتحها الله عز وجل فى صباحها، قال رسول
الله ﷺ : «لأعطين الراية - أو ليأخذن الراية - غداً رجلاً يحبه الله ورسوله - أو
قال : يحب الله ورسوله - يفتح الله على يديه». فإذا نحن بعلى وما نرجوه،
فقالوا : هذا على، فأعطاه رسولُ الله ﷺ الراية ففتح الله عليه^(٢).

قوله : «لأعطين الراية» قال الحافظ : فى رواية بُريدة «إنى دافعُ اللّواءَ إلى [٢٩/ب]
رجلٍ يحبه الله ورسوله»^(٣) وقد صرّح جماعةٌ من أهل اللغة بترادفهما.

لكن روى أحمد، والترمذى، من حيث ابن عباس : كانت رايةُ رسول الله ﷺ
سوداء، ولواؤه أبيض. ومثله عند الطبرانى، عن بُريدة^(٤). وعند ابن عدى، عن
أبى هريرة، وزاد : مكتوبٌ فيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله^(٥).
قوله : «يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فيه : فضيلةٌ عظيمةٌ لعلّى رضى
الله تعالى عنه.

قال شيخُ الإسلام : ليس هذا الوصفُ مختصاً بعلّى ولا بالأئمة، فإنَّ الله

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٧٠١)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٤٠٦).

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٧٠٢)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٤٠٧).

(٣) أخرجه أحمد فى «المسند» (٥/٣٥٣).

(٤) الترمذى فى «الجامع» رقم (١٦٨١) وقال : هذا حديث حسن، والطبرانى فى «الكبير» رقم (١١٦١)،

(١٢٩٠٩)، وأخرجه ابنُ ماجة فى «السنن» رقم (٢٨١٨).

(٥) ابن عدى فى «الكامل» (٢/٦٥٨).

ورسوله يحب كل مؤمن تقى يحب الله ورسوله. لكن هذا الحديث من أحسن ما يُحتجُّ به على النواصب، الذين لا يتولَّونه، أو يكفرونه أو يفسقونه، كالخوارج. لكنَّ هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة، الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردِّتهم. فإنَّ الخوارج تقول في على مثل ذلك، لكن هذا باطل؛ فإن الله تعالى ورسوله لا يُطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً^(١).

وفيه: إثباتُ صفة المحبة لله، خلافاً للجهمية.

قوله: «يفتح الله على يديه» صريحٌ في البشارة بحصول الفتح، فهو علَمٌ من أعلام النبوة.

قوله: (فبات الناسُ يدوكون ليلتهم)، بنصب ليلتهم. ويدوكون، قال المصنف: يخوضون. أى: فيمن يدفعها إليه. وفيه: حرصُ الصحابة على الخير واهتمامهم به، وعلوُّ مراتبهم في العلم والإيمان.

قوله: (أيهم يُعطاهَا) هو برفع أى، على البناء؛ لإضافتها وحذف صدر صلتها.

قوله: (فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يُعطاهَا).

وفى رواية أبى هريرة عند مسلم، أنَّ عمر قال: ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذ^(٢).

قال شيخ الإسلام: إنَّ فى ذلك شهادةَ النبى ﷺ لعلى بإيمانه باطناً وظاهراً، وإثباتاً لموالاته لله تعالى ورسوله، ووجوبَ موالة المؤمنين له. وإذا شهد النبى ﷺ لمعين بشهادة، أو دعا له أحبَّ كثيرٌ من الناس أن يكون له مثلُ تلك الشهادة، ومثل ذلك الدعاء، وأنَّ كان النبى ﷺ / يشهد بذلك لخلق كثير، ويدعو لخلق كثير. وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس^(٣)، وعبد الله بن سلام^(٤) - وإن كان قد

(١) ابن تيمية، «منهاج السنة النبوية» (٧/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٤٥٠).

(٣) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (١١٩).

(٤) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٨١٣، ٧٠١٠، ٧٠١٤)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٤٨٤).

شهد بالجنة لآخرين - والشهادة بحجة الله ورسوله للذى ضرب في الخمر^(١) (٢).
قوله: فقال: «أين على بن أبي طالب؟» فيه سؤال الإمام عن رعيته؛ وتفقد
أحوالهم.

قوله: (فقل: هو يشتكى عينيه). أى: من الرمد، كما فى (صحيح مسلم)،
عن سعد بن أبى وقاص، فقال: «ادعوا لى علياً» فأتى به أرمده. الحديث^(٣).

وفى نسخة صحيحة بخط المصنف: فقل: هو يشتكى عينيه، فأرسل إليه.
مبنى للفاعل، وهو ضمير مستتر فى الفعل راجع إلى النبى ﷺ. ويحتمل أن
يكون مبنياً لما لم يُسم فاعله. ولمسلم، من طريق إياس بن سلمة، عن أبيه، قال:
فأرسلنى إلى على، فجئت به أقوده أرمده.

قوله: (فبصق). بفتح الصاد، أى: تفل.

قوله: (ودعا له فبراً) هو بفتح الراء والهمزة، أى: عوفى فى الحال عافية
كاملة، كأن لم يكن به وجع من رمد، ولا ضعف بصر.

وعند الطبرانى، من حديث على: «فما رمدت ولا صدعت منذ دفع النبى ﷺ
إلى الراية»^(٤).

وفيه دليل على الشهادتين.

قوله: (فأعطاء الراية). قال المصنف رحمه الله تعالى: فيه: الإيمان بالقدر؛
لحصولها لمن لم يسع، ومنعها ممن سعى^(٥).

وفيه: أن فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا ينافى التوكل.

قوله: فقال: «انفذ على رسلك» - بضم الفاء - أى: امض. ورسلك - بكسر
الراء وسكون السين - أى: على رفقك من غير عجلة، وساحتهم: فناء أرضهم
وهو ما حولها.

وفيه: الأدب عند القتال، وترك العجلة والطيش، والأصوات التى لا حاجة إليها.

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٧٨٠).

(٢) ابن تيمية، «منهاج السنة» ٧/ (٣٦٧).

(٣) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٤٠٤).

(٤) أخرجه أحمد فى «المسند» (١/ ٧٨)، والطبائسى فى «المسند» رقم (١٨٩)، وأخرجه الطبرانى فى «الوسط»

بغير هذا اللفظ كما فى «مجمع الزوائد» للهيثمى (٩/ ١٢٢) وقال: وإسناده حسن.

(٥) المسألة الثالثة والعشرون.

وفيه: أمرُ الإمامِ عمَّالَه بالرفق من غيرِ ضعفٍ ولا انتقاضِ عزيمة، كما يُشير إليه [قوله: «حتى تنزل بساحتهم»] (١).

قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» أى: الذى هو معنى: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله. وإن شئت قلت: الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وما اقتضته الشهادتان: من إخلاص العبادة لله وحده وإخلاص الطاعة له ولرسوله ﷺ.

ومن هنا طابق الحديثُ الترجمة؛ كما قال تعالى لنبيه ورسوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. [آل عمران: ٦٤].

[١/٣٠] قال/ شيخُ الإسلام رحمه الله تعالى: والإسلامُ هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له. والعبودية له. كذا قال أهل اللغة.

وقال رحمه الله تعالى: ودينُ الإسلام الذى ارتضاه الله، ويبحث به رُسُلُه: هو الاستسلام له وحده - فأصله فى القلب - والخضوعُ له وحده بعبادته وحده دون ما سواه. فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً. ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً، وفى الأصل: هو من باب العمل، عمل القلب والجوارح. وأمَّا الإيمان، فأصله: تصديقُ القلب وإقراره، ومعرفته، فهو من باب قول القلب المتضمنُ عمل القلب. انتهى (١).

فتبين أنَّ أصل الإسلام: هو التوحيد ونفىُ الشرك فى العبادة، وهو دعوة جميع المرسلين. وهو الاستسلامُ لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم به على ألسُن رُسُلِه؛ كما قال تعالى عن أوَّل رسولٍ أرسله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا رُسُلَهُ﴾ (٢). [نوح: ٣].

(١) ساقطٌ من الأصل و(ضر) و(هـ) و(ط).

(٢) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٨٦).

وفيه: مشروعية الدعوة قبل القتال، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جار قتالهم ابتداء^(١)؛ لأن النبي ﷺ أغار على بنى المصطلق وهم غارون، وإن كانوا لم تبلغهم الدعوة وجبت دعوتهم.

قوله: «وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حق الله تعالى فيه» أي: الإسلام، إذا أجابوك إليه فأخبرهم بما يجب من حقوقه التي لأبدٍ لهم من فعلها، كالصلوات والزكاة؛ كما في حديث أبي هريرة «فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها»، ولما قال عمر لأبي بكر في قتاله مانعي الزكاة: كيف تُقاتل الناس، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها؟» قال أبو بكر: فإنَّ الزكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها^(٢).

وفيه بعثُ الإمام الدعوة إلى الله تعالى، كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون؛ كما في (المسند)، عن عُمر بن الخطاب رضى الله عنه/ أنه قال في [١/٣١] خطبته: ألا إني والله ما أُرسلُ عمَّالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أُرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وستتكم^(٣).

قوله: «فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُر النَّعَم» أن: مصدريةٌ واللام قبلها مفتوحة؛ لأنها لأم القَسَم. وأن، والفعل بعدها في تأويل مصدر، رُفِعَ على الابتداء. والخبر: خير. وحُمُر - بضم المهملة وسكون الميم - [جمعُ أحمر]^(٤)، والنَّعَم - بفتح النون والعين المهملة - أي: خيرٌ لك من الإبل الحمر، وهي أنفسُ أموال العرب.

(١) المسائلتان: الخامسة والعشرون، والسادسة والعشرون.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (١٣٩٩، ١٤٥٧، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٠).

(٣) أحمد في «المسند» (٤١/١) وأخرجه أبو داود في «السنن» رقم (٤٥٣٧) وأصله في «صحيح البخاري» رقم (٢٦٤١).

(٤) إضافة من (ط).

قال النووي: وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا؛ إنما هو للتقريب إلى الأفهام.
وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها، وأمثالها معها.
وفيه: فضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد، وجواز الحلف على الخبر
والفتيا ولو لم يُستحلف^(١).

(١) المسألتان: التاسعة والعشرون والثلاثون.

(٥)

باب

تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ تفسيرِ التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله .
ش: [أراد المصنّف رحمه الله تعالى بهذه الترجمة، وما جاء بعدها من الآيات
والحديث: أن يزيد هذا المقام بياناً وإيضاحاً، وإلا فقد تقدم فى الآيات والأحاديث
ما يفسّرُ لا إله إلا الله، وما دلّت عليه من التوحيد ونفى الشرك والتنديد]^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ
إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ
مَحْذُورًا﴾. [الإسراء: ٥٧].

ش: يتبيّن معنى هذه الآية بذكر ما قبلها، وهى قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ
زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ [يا محمد للمشرّكين الذين عبدوا غير
الله]^(٢) ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من [الأصنام و]^(٣) الأنداد، وارغبوا إليهم
فإنّهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ أى: بالكلية: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أى: ولا أن
يحوّلوه إلى غيركم.

فإنّ الذى يقدرُ على ذلك، هو الله وحده لا شريك له، [الذى له الخلقُ
والأمر]^(٤).

(١) ساقط من الأصل و(م) و(هـ) و(ط). والمثبت من (ض) ويلاحظ حذف المكرر من الشرح.

(٢) ساقطة من الأصل و(ض) و(هـ).

(٣) ساقط من الأصل و(هـ).

(٤) إضافة من (ط) «التفسير».

قال العوفي^(١)، عن ابن عباس، فى الآية: كان أهلُ الشُّرك يقولون: نعبُدُ الملائكةَ والمسيحَ وعُزيراً، وهم الذين يُدعون^(٢).

وروى البخارى - فى الآية - عن ابن مسعود، قال: ناسٌ من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا. وفى رواية: كان ناسٌ من الإنس يُعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجنُ وتمسَّك هؤلاء بدينهم^(٣).

وقولُ ابن مسعود هذا، يدلُّ على أنَّ الوسيلةَ هى الإسلام، وهو كذلك على كلا القولين.

[١/٣٣] وقال السُّدى، عن أبى صالح/، عن ابن عباس فى الآية، قال: عيسى وأُمُّه وعُزير.

وقال مغيرة، عن إبراهيم: كان ابنُ عباس، يقول فى هذه الآية هم عيسى وعُزير، والشمس والقمر.

وقال مُجاهد: عيسى وعُزير والملائكة.

قوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ لا تتم العبادةُ إلا بالخوف والرجاء^(٤). فكل داعٍ دُعَاء عبادةٍ أو استغاثةٍ لا بد له من ذلك: فإمَّا أن يكون خائفاً، وإما أن يكون راجياً، وإما أن يجتمع فيه الوصفان.

قال شيخُ الإسلام رحمه الله تعالى - فى هذه الآية لما ذكر أقوال المفسرين -: وهذه الأقوالُ كلها حق؛ فإنَّ الآيةَ تعمُّ من كان معبوده عابداً لله، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر. والسلفُ فى تفسيرهم: يذكرون جنسَ المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول التُّرجمان لمن سأله: ما معنى الخُبز؟ فيريه رغيفاً، فيقول: هذا. فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع، مع شمول الآية.

(١) أبو الحسن، عطية بن سعد بن جُنادة الجُدلى، صدوق يخطئ كثيراً، وكان شيعياً مدلساً (ت ١١١هـ). «تقريب» (٣٩٣).

(٢) أخرجه الطبري فى «التفسير» (٧٢ / ١٥).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٧١٤، ٤٧١٥)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٣٠٣٠).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٨٦ - ٨٧ / ٥).

فَالْآيَةُ خُطَابٌ لِكُلِّ مَنْ دَعَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَدْعَوْاً، وَذَلِكَ الْمَدْعُو يَتَغَيَّرُ إِلَى اللَّهِ الْوَسِيلَةَ وَيَرْجُو رَحْمَتَهُ وَيَخَافُ عَذَابَهُ. فَكُلُّ مَنْ دَعَا مَيْتاً أَوْ غَائِباً مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ سِوَاءِ كَانَ بِلَفْظِ الْإِسْتِغَاثَةِ أَوْ غَيْرِهَا، فَقَدْ تَنَاوَلَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ، كَمَا تَتَنَاوَلُ مِنْ دَعَا الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ. فَقَدْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ دَعَائِهِمْ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنِ الدَّاعِينَ وَلَا تَحْوِيلَهُ. لَا يَرْفَعُونَهُ بِالْكَلِمَةِ وَلَا يَحْوِلُونَهُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، كَتَغْيِيرِ صِفَتِهِ أَوْ قَدَرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فَذَكَرَ نَكْرَةً تَعْمُ أَنْوَاعَ التَّحْوِيلِ.

فَكُلُّ مَنْ دَعَا مَيْتاً أَوْ غَائِباً مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، أَوْ دَعَا الْمَلَائِكَةَ فَقَدْ دَعَا مَنْ لَا يُغَيِّثُهُ وَلَا يَمْلِكُ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْهُ وَلَا تَحْوِيلَهُ. انْتَهَى (١).

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَدْعُو صَالِحاً، وَيَقُولُ: أَنَا لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً؛ الشِّرْكَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

ش: قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِراً عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِمَامِ الْخُفَاءِ، وَوَالِدٍ مِنْ بُعْثٍ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، الَّذِي تَنْتَسِبُ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فِي نَسَبِهَا وَمَذْهَبِهَا: إِنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ فِي عِبَادَتِهِمْ الْأَوْثَانِ/ فَقَالَ: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ [٣٣/ب] مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧] ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] أَيْ: هَذِهِ الْكَلِمَةُ - وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخُلِعَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ، وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - جَعَلَهَا فِي ذُرِّيَّتِهِ يَقْتَدِي بِهَا فِيهَا مِنْ هُدَاهُ اللَّهُ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أَيْ: إِلَيْهَا.

قَالَ عِكْرَمَةُ، وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُهُمْ، فِي قَوْلِهِ:

(١) ابْنُ تَيْمِيَّةٍ، «قَاعَةُ التَّوَسُّلِ» (٧٩، ٢٣١، ٢٦٥).

﴿وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه﴾ يعنى: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها^(١).

وروى ابن جرير، عن قتادة ﴿إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى﴾ قال: إنهم يقولون: إنَّ الله ربُّنا ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾. [الزخرف: ٨٧] فلم يبرأ من ربِّه، [و] ^(٢) رواه عبد بن حميد.

وروى ابن جرير^(٣)، وابن المنذر، عن قتادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقْبِهِ﴾ قال: الإِخْلَاصُ والتَّوْحِيدُ، لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده.

قلت: فتبيِّن أنَّ معنى لا إله إلا الله، توحيدُ الله بإِخْلَاصِ العباد له والبراءة من كل ما سواه.

قال المصنِّف: وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءة، وهذه الموالاة هى شهادة أنَّ لا إله إلا الله^(٤).

وفى هذا المعنى، يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى (الكافية الشافية):

وَإِذَا تَوَلَّاهُ امْرُؤٌ دُونَ الْوَرَى طُرّاً تَوَلَّاهُ الْعَظِيمُ الشَّانَ

قال المصنِّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ش: الأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العبَّاد.

وهذه الآية قد فسرَّها رسولُ الله ﷺ لعَدِي بن حاتم، وذلك أنه لما جاء مُسْلِماً، دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية. قال: فقلت: إنَّهم لم يعبدوهم، فقال: «بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وحلَّلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢١٢).

(٢) إضافة يقتضيه السياق.

(٣) «تفسير الطبرى» (٢٥/ ٣٩).

(٤) المسألة الثالثة.

عبادتهم إياهم» رواه أحمد، والترمذى وحسنه^(١)، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبرانى، من طرق^(٢).

قال السدى: استنصحو الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. [التوبة: ٣١]، فَإِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله تعالى.

فظهر بهذا، أَنَّ الآية دَلَّتْ: على أَنَّ من أطاع غير الله ورسوله، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة فى تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحله الله، وأطاعه فى معصية الله، واتبعه فيما لم يأذن الله، فقد اتخذ ربا ومعبوداً وجعله لله شريكاً. وذلك يُنافى التوحيد، الذى هو دينُ الله الذى دَلَّتْ عليه كلمةُ الإخلاص لا إله إلا الله. فَإِنَّ الإله هو المعبود، وقد سَمَّى الله تعالى طاعتهم عبادةً لهم، وسَمَّاهم أرباباً؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ أى: شركاء لله تعالى، فى العبادة ﴿يَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. [آل عمران: ٨٠]، فكلُّ معبودٍ رب، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله تعالى ورسوله فقد اتخذ المطيع ربا ومعبوداً؛ [كما قال تعالى فى آية الانعام ﴿وَأِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾^(٣) [الانعام: ١٢١] وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة، ويُشبه هذه الآية فى المعنى، قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] والله أعلم.

قال شيخ الإسلام، فى معنى قوله: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً - حيث أطاعوهم فى تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله - يكونون على وجهين.

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدّلوا دينَ الله فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون

(١) الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٠٩٤) وفى المطبوعة: هذا حديثٌ غريب، وعند أحمد فى «المستد» (٤) / ٣٧٨ أصلُ القصة.

(٢) كما فى «الدر المنثور» (٤) / ١٧٤.

(٣) إضافة من (هـ) (ط).

تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، اتباعاً لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل. فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً، وإن لم يكونوا يُصلُّون لهم ويسجدون لهم. فكان من اتبع غيره في خلاف الدين - مع علمه أنه خلاف للدين - واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، مشركاً مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص. فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب؛ كما قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الطاعة في المعروف»^(١).

ثم ذلك المحرّم للحلال والمحلل للحرام؛ إن كان مجتهداً - قصده اتباع الرسول لكن خفى عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع - فهذا لا يؤاخذ به خطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه.

ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسول، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمّه الله، لا سيما إن اتبع في ذلك هواه ونصره باليد واللسان، مع علمه بأنه مخالف للرسول، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه.

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عُرف الحق، لا يجوز تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال.

وأن كان عاجراً عن إظهار الحق الذي يعلمه، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصاري، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق، لا يؤاخذ بما عجز عنه؛ وهؤلاء كالنجاشي وغيره. وقد أنزل الله في هؤلاء الآيات من كتابه، كقوله تعالى: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ» [آل عمران: ١٩٩]، وقوله: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ» [المائدة: ٨٣]، وقوله: «وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٤٣٤٠)، ٧١٤٥، ٧٢٥٧، ومسلم في «الصحيح» رقم (١٨٤٠).

أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿[الأعراف: ١٥٩]، وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمُتَّبِعُ لِلْمُجْتَهِدِ عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما قدر عليه مثله: من الاجتهاد فى التقليد، فهذا لا يؤخذ إن أخطأ؛ كما فى القِبلة.

وَأَمَّا إِنْ قُلِّدَ شَخْصاً دُونَ نَظِيرِهِ بِمَجْرَدِ هَوَاهُ، وَنَصَرَ يَدَهُ وَلِسَانَهُ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ أَنَّ مَعَهُ الْحَقَّ، فَهَذَا مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَإِنْ كَانَ مُتَّبِعُهُ مُصِيباً لَمْ يَكُنْ عَمَلُهُ صَالِحاً، وَإِنْ كَانَ مُتَّبِعُهُ مُخْطِئاً كَانَ آثِماً؛ كَمَا قَالَ فِى (الْقُرْآنِ) بِرَأْيِهِ، فَإِنْ أَصَابَ فَقَطَّ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ^(١) فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ^(٢).

وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذى تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة. فَإِنَّ ذَلِكَ لَمَّا أَحَبَّ الْمَالُ - مَنَعَهُ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ - صَارَ عَبْدًا لَهُ، وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ. فَيَكُونُ فِيهِ شَرَكٌ أَصْغَرُ، وَلَهُمْ مِنَ الْوَعِيدِ بِحَسَبِ ذَلِكَ. وَفِى الْحَدِيثِ: «إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شَرَكٌ»^(٣) وَهَذَا مُبَسَّوْطٌ عَنِ النُّصُوصِ الَّتِى فِيهَا إِطْلَاقُ الْكُفْرِ وَالشَّرِكِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الذُّنُوبِ. انْتَهَى^(٤).

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فِى مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا﴾. [فصلت: ٩] أَى: وَتَجْعَلُونَ لِمَنْ خَلَقَ ذَلِكَ، الْأُنْدَادَ - وَهُمْ الْإِكْفَاءُ مِنَ الرِّجَالِ - تُطِيعُونَهُمْ فِى مَعَاصِي اللَّهِ. انْتَهَى^(٥).

قُلْتُ: كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِ الْقُبُورِ!

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾. [البقرة: ١٦٥].

ش: قَالَ الْعِمَادُ بْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَ الْمُشْرِكِينَ بِهِ فِى الدُّنْيَا وَمَأَلِهِمْ فِى الدَّارِ الْآخِرَةِ، حَيْثُ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا؛ أَى: أَمْثَالًا وَنُظَرَاءَ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِى «السُّنَنِ» رَقْمَ (٣٦٥٢)، وَالتِّرْمِذِى فِى «الْجَامِعِ» رَقْمَ (٢٩٩٣) مِنْ حَدِيثِ جَنْدَبٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِى فِى «الْجَامِعِ» رَقْمَ (٢٩٥١)، وَاحْمَدُ فِى «الْمُسْنَدِ» (١/ ٢٣٣، ٢٦٩، ٣٢٣، ٣٢٧) مِنْ

حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ بَلَفْظًا: (مَنْ قَالَ فِى الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ).

(٣) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ فِى «السُّنَنِ» رَقْمَ (٣٩٨٩)، وَالتِّرْمِذِى فِى «الْمُسْنَدِ» (٢/ ٤٥)، وَابْنُ

فِى «الْمُسْتَدْرَكِ» (١/ ٤، ٤/ ٣٢٨) وَوَافَقَهُ الذَّهَبِىُّ، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِى «الْحَلِيقَةِ» (١/ ٥). مِنْ حَدِيثِ مُعَاذٍ.

(٤) ابْنُ تَيْمِيَّةٍ، «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (٧/ ٧٠).

(٥) الطَّبْرِىُّ، «التَّفْسِيرُ» (٢٤/ ٩٥).

يعبدونهم معه، ويُحبونه كحبه. [وهو الله] ^(١) لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له، ولا شريك معه.

وفى (الصحيحين)، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: قلتُ: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» ^(٢).

وقوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» ولحبهم لله، وتام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم لا يُشركون به شيئاً. بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجأون فى جميع أمورهم إليه. ثم توعدّ تعالى المشركين الظالمين لأنفسهم بذلك.

فقال تعالى: «وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» قال بعضهم: تقديرُ الكلام، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً، أى: إن الحكم لله وحده لا شريك له؛ فإنَّ جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه «وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ». [البقرة: ١٦٥] كما قال تعالى: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ» [الفجر: ٢٥ - ٢٦]، يقول: لو علموا مايعاينون هناك، وما يحلُّ بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه من الضلال. ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم، وتبرُّ المتبوعين من التابعين، فقال: «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا». [البقرة: ١٦٦]، تبرات منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم كانوا يعبدونهم فى الدنيا، فنقول الملائكة «تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ». [القصص: ٦٣] ويقولون «سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ» [سبأ: ٤١]، والجن أيضاً يتبرؤون منهم، ويتصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ». [الاحقاف: ٥ - ٦] انتهى كلامه ^(٣).

(١) إضافة من (هـ) «والتفسير».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٢).

وروى ابن جرير، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ مباحاة ومضاهاة للحق بالأنداد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من الكفار لأوثانهم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ومن الأمور المبيّنة لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: آية البقرة في الكفار الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارَجِينَ مِنَ النَّارِ﴾. [البقرة: ١٦٧]، ذكر أنهم يُحبُّونَ أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يُحبُّونَ الله حباً عظيماً، فلم يُدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحبَّ الله أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الله وحده؟ انتهى^(١).

ففي الآية: بيان أن من أشرك مع الله في المحبة فقد جعله شريكاً لله في العبادة، واتخذته نداً من دون الله. وأن ذلك هو الشرك الذي لا يغفره الله، كما قال تعالى في أولئك: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارَجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾ المراد بالظلم هنا: الشرك؛ كقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا [ب] إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾. [الأنعام: ٨٢] كما تقدم.

فمن أحب الله وحده، وأحب فيه وله فهو مخلص. ومن أحبه وأحب معه غيره، فهو مشرك؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشاً وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٢١ - ٢٢].

قال شيخ الإسلام ما معناه: فمن رغب إلى غير الله في قضاء حاجة أو تفريج كرب، لزم أن يكون محباً له، ومحبة هي الأصل في ذلك. انتهى.

فكلمة الإخلاص: لا إله إلا الله تنفي كل شرك في أي نوع كان من أنواع العبادة، وثبتت العبادة بجميع أفرادها لله تعالى. وقد تقدّم بيان أن الإله: هو المألوه، الذي تأله القلوب بالمحبة أو غيرها من أنواع العبادة. فلا إله إلا الله: نفت ذلك كله عن غير الله، وأثبتته لله وحده، فهذا هو الذي دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة. فلا بد من معرفة معناها واعتقادها، وقبوله، والعمل به باطناً وظاهراً، والله أعلم.

(١) المسألة الرابعة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فتوحيدُ المحبوب: أن لا يتعدّد محبوبه، أى: مع الله تعالى بعبادته له. وتوحيد الحب: أن لا يبقى فى قلبه بقيةُ حب، حتى يبذلها له. فهذا الحب - وإن سُمّي عشقاً - فهو غايةُ صلاح العبد، ونعيمه وقرّة عينه. وليس لقلبه صلاحٌ ولا نعيم، إلا بأن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه من كل ما سواه، وأن يكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالى، فلا يُحب إلا الله؛ كما فى الحديث الصحيح «ثلاث من كن فيه» الحديث^(١).

ومحبةُ رسول الله ﷺ هى من محبته، ومحبة المرء إن كانت لله فهى من محبته، وإن كانت لغير الله فهى مُنقصةٌ لمحبة الله، مضعفة لها.

ويُصدّقُ هذه المحبة: بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلى محبوبه - وهو الكفر - بمنزلة كراهته لإلقائه فى النار أو أشد. ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة؛ فإنَّ الإنسان لا يقدم على محبة نفسه شيئاً، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه - بحيث لو خير بين الكفر وإلقائه فى النار لاختار أن يُلقى فى النار ولا يكفر - كان أحبَّ إليه من نفسه.

وهذه المحبة هى فوق ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبيهم، بل لا نظير لهذه المحبة، كمن لا مثل لمن تعلّقت به، وهى محبةٌ تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس / والمال والولد. وتقتضى كمال الذل والخضوع، والتعظيم والإجلال، والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً. وهذا لا نظير له فى محبة مخلوق، ولو كان المخلوق من كان.

ولهذا من شرك بين الله تعالى وبين غيره فى المحبة الخاصة، كان مُشركاً شركاً لا يفرّه الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ والصحيح: أن معنى الآية: أن الذين آمنوا أشدَّ حباً لله من أهل الأنداد لأندادهم؛ كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يُماثلها محبة المخلوق أصلاً، كما لا يُماثل محبوبهم غيره. وكلُّ أذى فى محبة غيره فهو نعيمٌ فى محبته، وكلُّ مكروه فى محبة غيره فهو قرّة عين فى محبته.

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٤٣) من حديث أنس.

وَمَنْ ضَرَبَ بِمَحَبَّتِهِ الْأَمْثَالَ الَّتِي فِي مُحَبَّةِ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ - كَالْوَصْلِ، وَالْهَجْرِ
وَالْتَجْنِي بِلَا سَبَبٍ مِنَ الْمُحِبِّ، وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَالَى اللَّهُ عَنْهُ عُلُوًّا كَبِيرًا - فَهُوَ
مَخْطِئٌ أَقْبَحُ الْخَطَا وَأَفْحَشُهُ، وَهُوَ حَقِيقٌ بِالْأَبْعَادِ وَالْمَقْتِ. انتهى^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وفي الصحيح، عن النبي ﷺ، أنه قال: «من
قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبدُ من دون الله، حَرَّمَ ماله ودمه، وحسابه على
الله عز وجل»^(٢).

ش: قوله: (وفي الصحيح). أى: (صحيح مسلم)، عن أبي مالك
الأشجعي، عن أبيه، عن النبي ﷺ، فذكره.

وأبو مالك، اسمه: سعد بن طارق، كوفي ثقة، مات في حدود الأربعين
ومائة. وأبوه طارق بن أشيم - بالمعجمة والمثناة التحتية، وزن أحمر - ابن مسعود
الأشجعي، صحابي له أحاديث. قال مسلم: لم يرو عنه غير ابنه.

وفي (مسند الإمام أحمد)، عن أبي مالك، قال: وسمعتَه يقول للقوم «من
وَحَدَّ اللَّهُ وكفر بما يُعبدُ من دون الله، حَرَّمَ ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل».
رواه أحمد، من طريق يزيد بن هارون، قال: أنبأنا أبو مالك الأشجعي، عن
أبيه.

ورواه الإمام أحمد، عن عبد الله بن إدريس، قال: سمعتُ أبا مالك قال:
قلتُ لأبي... الحديث^(٣). ورواية الحديث بهذا اللَّفْظ: يُفسَّرُ لا إله إلا الله.

قوله: «من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبدُ من دون الله». / اعلم أن النبي ﷺ [٣٥/ب]
عَلَّقَ عَصْمَةَ الْمَالِ وَالْدَمِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِأَمْرَيْنِ:

الأول: قولُ لا إله إلا الله. عن علمٍ ويقين، كما هو مُقَيَّدُ فِي قَوْلِهَا فِي غَيْرِ
مَا حَدِيثٍ، كَمَا تَقْدُمُ.

والثاني: الكفر بما يُعبدُ من دون الله، فلم يكتفِ بِاللَّفْظِ الْمَجْرَدِ عَنِ الْمَعْنَى، بَلْ
لَا بُدَّ مِنْ قَوْلِهَا وَالْعَمَلُ بِهَا.

(١) ينظر: ابن القيم، «مدارج السالكين» (٣/ ٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٢٣).

(٣) أحمد في «المستند» (٣/ ٤٧٢، ٦/ ٣٩٤) وليس في أحد الطريقين عبد الله بن إدريس.

قلتُ: وفيه معنى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾. [البقرة: ٢٥٦].

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وهذا من أعظم ما يُبين معنى: لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلطف بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له. بل لا يحرم ماله ودمه حتى يُضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف^(١) لم يحرم ماله ودمه. فيا لها من مسألة ما أجلّها، ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع. انتهى^(٢).

قلتُ: وهذا هو الشرط المصحح لقول: لا إله إلا الله. فلا يصح قولها بدون هذه الخمس - التي ذكرها المصنّف رحمه الله تعالى - أصلاً؛ قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾. [الأنفال: ٣٩]، وقال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْضَرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِنَّا تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾. [التوبة: ٥].

أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك، ويخلصوا أعمالهم لله تعالى، ويقوموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعاً.

^(٣) وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى، في تفسير قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ فقال: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن أحمد، - وساق بسنده - عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾. قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله» الحديث^(٤) (٥).

وفى (صحيح مسلم)، عن أبي هريرة مرفوعاً «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى»^(٦).

(١) في جميع النسخ: تردد. والمثبت من المسألة.

(٢) المسألة الأخيرة في الباب.

(٣) من هنا ساقط من (هـ) و(ط) ومعلق في هامش الأصل وعليه كلمة صح.

(٤) إلى هنا ساقط من (هـ) و(ط) ومعلق في هامش الأصل وعليه كلمة صح.

(٥) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٣)، والحديث: أخرجه البزار في «المستد» رقم (٢٢٨٤) (كشف).

(٦) مسلم في «الصحيح» رقم (٢١)، وأخرجه أحمد في «المستد» (٢/ ٣٤٥، ٤٢٣).

وفى (الصحيحين)، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»^(١).

وهذان الحديثان تفسيرُ الآيتين: آية/ الأنفال، وآية براءة. وقد أجمع العلماء [١/٣٦] على أن من قال: لا إله إلا الله. ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها، أنه يقاتل حتى يعمل بما دلَّت عليه من النفي والإثبات.

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله تعالى - فى قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»^(٢) -: معلوم أن المراد بهذا: أهل عبادة الأوثان، دون أهل الكتاب؛ لأنهم يقولون: لا إله إلا الله. ثم يُقاتلون، ولا يُرفع عنهم السيف^(٣).

وقال القاضى عياض: اختصاصُ عصمة المال والنفس بمن قال: لا إله إلا الله. تعبیرٌ عن الإجابة إلى الإيمان، وأنَّ المراد بذلك: مشركو العرب، وأهل الأوثان. فأما غيرهم ممن يقرُّ بالتوحيد، فلا يُكتفى فى عصمته بقول لا إله إلا الله، إذا يقولها فى كفره^(٤). انتهى ملخصاً.

وقال النووى: لا بُدَّ مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به الرسول ﷺ؛ كما جاء فى الرواية «ويؤمنوا بى وبما جئتُ به»^(٥).

وقال شيخُ الإسلام - لما سُئل عن قتال التتار، فقال: كلُّ طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة - من هؤلاء القوم أو غيرهم - فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه؛ كما قاتل أبو بكر والصحابَةُ رضى الله عنهم مانعى الزكاة. وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم.

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٥)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢)، وأخرجه أحمد فى «المسند» (١٩/١، ٣٥، ٤٨).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١٣٩٩، ١٤٥٧، ٦٩٢٤، ٨٢٨٤)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢١) من حديث أبى هريرة.

(٣) الخطابى، «معالم السنن» (١١/٢).

(٤) ينظر: القاضى عياض، «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» (٢/ ٥٣٨ - ٥٤٢).

(٥) النووى، «المنهاج شرح مسلم بن الحجاج» (٢١٢/١).

قال: فأیما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام، أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء، أو الأموال، أو الخمر أو الميسر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التي لا عذر لأحد في جُحودها أو تركها، التي يكفر الواحد بجحودها، فإن الطائفة الممتنعة تُقاتل عليها وإن كانت مقرّة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء.

قال: وهؤلاء عند المحققين ليسوا بغاة، بل هم خارجون عن الإسلام. انتهى^(١).

[٣٦/ب] قوله: «وحسابه على الله» أي: الله تبارك وتعالى هو الذي يتولّى حسابه/ فإن كان صادقاً جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقاً عذّبه بالعذاب الاليم. وأما في النيا فالحكم على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما يُنافيه ظاهراً، والتزم شرائع الإسلام، وجب الكف عنه.

قلت: وأفاد الحديث أنّ الإنسان قد يقول: لا إله إلا الله، ولا يكفر بما يُعبد من دون الله، ولم يأت بما يعصم دمه وماله؛ كما دلّ على ذلك الآيات المحكمات والأحاديث.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وشرحُ هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب.

ثم: قلت: وذلك أنّ ما بعدها من الأبواب: فيه ما يبيّن التوحيد، ويوضح معنى لا إله إلا الله. وفيه أيضاً: بيانُ أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر، وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع، مما تركّه من مضمون: لا إله إلا الله.

فمن عرف ذلك وتحقّقه: تبين له معنى لا إله إلا الله، وما دلت عليه من الإخلاص ونفى الشرك، وبضدها تتبين الأشياء. فبمعرفة الأصغر من الشرك يُعرف ما هو أعظم منه من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد، وأما الأصغر فإنما ينافي كماله، فمن اجتنبه فهو الموحد حقاً.

وبمعرفة وسائل الشرك - والنهي عنها لتُجتنب - تُعرف الغايات التي تُنهي عن الوسائل لأجلها، فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص، بل يقتضيه.

وفيها أيضاً من أدلة التوحيد: إثبات الصفات، وتنزيه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله. وكل ما يعرفُ بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدلُّ على أنه هو المعبود وحده، وأن العبادة لا تصلح إلا له، وهذا هو التوحيد، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله.

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٥٠٢).

(٦)

باب

من الشرك: لبس الحلقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء، أو دفعه

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابٌ من الشرك: لبسُ الحلقة والخيط ونحوهما؛
لرفع البلاء أو دفعه.

ش: رفعه: إزالته بعد نزوله، ودفعه: منعه قبل نزوله.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ
مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

ش: قال ابن كثير: أى: لا تستطيع شيئاً من الأمر. ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى: الله
كاف من توكل عليه ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كما قال هودّ عليه السلام، حين قال
له قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي
بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى
اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾
[هود: ٥٤ - ٥٦].

قال مقاتل - فى معنى الآية: فسألهم النبي ﷺ فسكتوا. أى: لأنهم
لا يعتقدون ذلك فيها.

وإنما كانوا يدعونها: على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله، لا أنهم يكشفون

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٩١).

الضرَّ ويجيئون دعاء المضطر. فهم يعلمون أنَّ ذلك لله وحده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾^(١) [النحل: ٥٣ - ٥٤].

قلت: فهذه الآية وأمثالها: تبطل تعلق القلب بغير الله، في جلب نفع أو دفع ضرر، وأنَّ ذلك شرك بالله.

وفى الآية: بيان أنَّ الله تعالى وسمَّ أهل الشرك بدعوة غير الله، والرغبة إليه من دون الله. والتوحيد ضدُّ ذلك، وهو: أن لا يدعو إلا الله، ولا يرغب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه. وكذا جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شيء لغير الله؛ كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة وأئمتها، كما تقدَّم.

قال المصنَّف رحمه الله تعالى: عن عمران بن حصين رضى الله عنه، أنَّ النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صُفْر، فقال: «ما هذه؟» قال: من الواهنة. فقال: «انزعها؛ فإنها لا تزيدك إلا وهناً؛ فإنك لو متَّ وهى عليك ما أفلحت أبداً» رواه أحمد، بسند لا بأس به.

ش: قال الإمام أحمد: حدَّثنا خلف بن الوليد، حدَّثنا المبارك، عن الحسن، قال: أخبرني عمران بن حصين: أنَّ النبي ﷺ أبصر على عَضُد رجلٍ حلقة - قال: أراه من صُفْر - فقال: «ويحك، ما هذه؟» قال: من الواهنة. قال: «أما إنها لا تزيدك إلا وهناً. انبذها عنك، فإنك لو متَّ وهى عليك ما أفلحت أبداً» ورواه ابنُ حبان في (صحيحه)، فقال: «فإنَّك إنْ متَّ وُكِلتَ إليها»، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد. وأقرَّه الذهبي^(٢).

وقال الحاكم: أكثرُ مشايخنا على أنَّ الحسن سمع من عمران. وقوله في الإسناد: أخبرني عمران. يدلُّ على ذلك.

قوله: (عن عمران بن حصين). أى: ابن عبيد بن خَلَف الخُزاعى، أبو نُجَيْد - [٣٧/ب] بنون / وجيم. مصغَّر - صحابى، ابنُ صحابى. أسلم عام خيبر. ومات سنة اثنتين وخمسين، بالبصرة.

(١) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد» (١٥٣).

(٢) أحمد في «المستد» (٤٤٥/٤) وابن حبان في «الصحيح» (٦٢٨/٧) والحاكم في «المستدرک» (٤/٢١٦).

قوله: (راى رجلاً). فى رواية الحاكم: دخلتُ على رسول الله ﷺ، وفى عضدى حلقة صُفْر، فقال: «ما هذه؟» الحديث.

فالمُبهم فى رواية أحمد، هو عِموان، راوى الحديث.

قوله: «ما هذه؟» يُحتمل أن الاستفهام للاستفصال عن سبب بُسها، ويحتمل أن يكون للإنكار، وهو أظهر.

قوله: من (الواهنة). قال أبو السَّعادات: الواهنة: عِرْقٌ يأخذُ من المنكب، وفى اليد كُلِّها، فيُرْقَى منها. وقيل: هو مرضٌ يأخذُ فى العضد، وهى تأخذ الرجالَ دون النساء؛ وإنَّما نُهى عنها: لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم، وفيه: اعتبارُ المقاصد^(١).

قوله: «انزعها؛ فإنَّها لا تزيدك إلا وهناً» النزع: هو الجذبُ بقوة. أخبر أنَّها لا تنفعه، بل تضره، وتزيده ضعفاً. وكذلك كلُّ أمرٍ نُهى عنه: فإنه لا ينفع غالباً، وإن نفع بعضه فضره أكبرُ من نفعه.

قوله: «فإنَّك لو متَّ وهى عليك ما أفلحت أبداً»؛ لأنه شرك. والفلاح: هو الفوزُ والظفرُ والسعادة.

قال المصنَّفُ رحمه الله تعالى: فيه شاهدٌ لكلام الصحابة: أنَّ الشرك الأصغر أكبرُ من الكبائر، وأنه لم يُعذر بالجهالة. وفيه: الإنكارُ بالتغليظ على من فعل مثل ذلك^(٢).

قوله: (رواه أحمدُ بسندٍ لا بأس به). هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيَّان^(٣) بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط^(٤) بن مازن بن شيبان بن ذُهَلْ بن ثعلبة بن عكَابَة بن صَعْب بن على بن بكر ابن وائل بن قاسط بن هُنب بن أَفْصَى بن دُعْمَى بن جَدِيلَة بن أسد بن ربيعة بن

(١) ابن الأثير، «النهاية فى غريب الحديث» (٥/ ٢٣٤).

(٢) المسائل: الثانية والثالثة والخامسة.

(٣) فى جميع النسخ: حسان. تصحيف، والتصويب من «طبقات الحنابلة» (٤/ ١).

(٤) فى جميع النسخ: قاسم. تصحيف.

نزار بن معدّ بن عدنان. الإمام العالم، أبو عبد الله، الذهلي، ثم الشيباني المروزي، ثم البغدادي.

إمام أهل عصره، وأعلمهم بالفقه والحديث، وأشدّهم ورعاً ومتابعة للسنة، وهو الذي يقول فيه بعض أهل السنة: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أنته الدنيا فأباها، والشبّه فنفاها. خرّج به من مرو وهو حمل، فولد ببغداد سنة أربع وستين ومائة، في شهر ربيع الأول.

وطلب أحمد العلم سنة وفاة مالك، وهي سنة تسع وسبعين، فسمع من هشيم، وجريز بن عبد الحميد، وسفيان بن عيينة، ومُعتمر بن سليمان، ويحيى بن سعيد القطان، ومحمد بن إدريس الشافعي، [ويزيد بن هارون]^(١) وعبد الرزاق، وعبد الرحمن بن مهدي، وخلائق بمكة، والبصرة، والكوفة، وبغداد، واليمن، وغيرها من البلاد.

روى عنه ابنه: صالح، وعبد الله، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، وإبراهيم الحري، وأبو زُرعة الرازي، وأبو زُرعة الدمشقي، وعبد الله بن أبي الدنيا، وأبو بكر الأثرم، وعثمان بن سعيد الدارمي، وأبو القاسم البغوي، وهو آخر من حدّث عنه، وخلائق. وروى عنه من شيوخه: عبد الرحمن بن مهدي، والأسود بن عامر، ومن أقرانه: علي بن المديني، ويحيى بن معين.

قال البخاري: مرض أحمد لليلتين خلتا من ربيع الأوّل، ومات يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت منه. وقال حنبل: مات يوم الجمعة في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين، وله سبع وسبعون سنة. وقال ابنه عبد الله، والفضل بن زياد: مات في ثاني عشر ربيع الآخر رحمه الله تعالى.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وله عن عُقبة بن عامر، مرفوعاً: «من تعلّق نسيمة فلا أتمّ الله له، ومن تعلّق ودعة فلا ودع الله له» وفي رواية: «من تعلّق نسيمة فقد أشرك».

(١) إضافة من (ضر) و(هـ) و(ط).

ش: الحديث الأول: رواه الإمام أحمد، كما قال المصنف، ورواه أبو يعلى،
والحاكم، وقال صحيح الإسناد، وأقره الذهبي^(١).

قوله: (وفى رواية). أى: من حديث آخر، رواه أحمد، فقال: حدثنا عبد
الصمد بن عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبى منصور،
عن دُخَيْنِ الحَجْرِي، عن عُقْبَةَ بن عامر الجهني، أن رسول الله ﷺ أقبل إليه
رهط، فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله، بايعت تسعة
وأمسكت عن هذا؟ فقال: «إن عليه نَمِيمة»، فأدخل يده فقطعها. فبايعه، وقال:
«من تعلق نَمِيمة فقد أشرك» ورواه الحاكم بنحوه^(٢)، ورواته ثقات.

قوله: (عن عُقْبَةَ بن عامر). صحابى مشهور، فقيه فاضل. ولى إمرة مصر
لمعاوية ثلاث سنين، ومات قريباً من الستين.

قوله: «من تعلق نَمِيمة» أى: علّقها متعلّقاً بها قلبه، فى طلب خير أو دفع شر.
قال المنذرى: خرزة كانوا يُعلّقونها، يرون أنها تدفع عنهم الآفات. وهذا جهل [٣٨/ب]
وضلالة؛ إذ لا مانع، ولا دافع غير الله تعالى^(٣).

وقال أبو السعادات: التماثم: جمع نَمِيمة، وهى خَرَزَاتُ كانت العربُ تعلقها
على أولادهم؛ يتّقون بها العين فى رعمهم، فأبطله الإسلام^(٤).
قوله: «فلا أتمّ الله له» دعاء عليه.

قوله: «ومن تعلق ودعة» بفتح الواو وسكون المهملة. قال فى (مسند
الفردوس): الودع: شىء يخرج من البحر شبه الصدف، يتّقون به العين.

قوله: «فلا ودع الله له» بتخفيف الدال. أى: لا جعله فى دعة وسكون. قال
أبو السعادات: وهذا دعاء عليه.

(١) أحمد فى «المسند» (١٥٤/٤) وأبو يعلى فى «المسند» رقم (١٧٥٩) والحاكم فى «المستدرک» (٤/٤١٧)،
وجود المنذرى إسناده كما فى «الترغيب» (٣٠٦/٤).

(٢) أحمد فى «المسند» (١٥٦/٤) والحاكم فى «المستدرک» (٤/٤١٧)، قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٥/
١٠٣): رواه أحمد ثقات.

(٣) «الترغيب والترهيب» للمنذرى (٣٠٧/٤).

(٤) ابن الأثير، «النهاية فى غريب الحديث» (١/١٩٧).

قوله: وفي رواية: «من تعلق تيممة فقد أشرك» قال أبو السعادات: إنما جعلها شركاً؛ لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولابن أبي حاتم عن حذيفة: أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى، فقطعه وتلا قوله: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» [يوسف: ١٠٦].

ش: قال ابن أبي حاتم، حدثنا محمد بن الحسين بن إبراهيم بن إشكاب، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم الأحول، عن عروة، قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً، فقطعه أو انتزعه، ثم قال: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ»^(١).

وابن أبي حاتم: هو الإمام أبو محمد، عبد الرحمن بن أبي حاتم، محمد بن إدريس الرازي، التميمي، الحنظلي، الحافظ، صاحب الجرح والتعديل، (والتفسير)، وغيرهما. مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

وحذيفة: هو ابن اليمان. واسم اليمان: حسيل - بمهملتين مصغراً - ويقال: حسل - بكسر ثم سكون - العبسي - بالموحدة - حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين، ويقال له: صاحب السر، وأبوه أيضاً صحابي. مات حذيفة في أول خلافة علي، سنة ست وثلاثين.

قوله: (رأى رجلاً في يده خيط من الحمى). أي: عن الحمى. وكان الجهال يعلقون التمام والخيط ونحوهما، لدفع الحمى.

وروى وكيع: عن حذيفة: أنه دخل على مريض يعود، فلمس عضده، فإذا فيه خيط، فقال: ما هذا؟ قال: شيء رقي لي فيه، فقطعه، وقال: لو مت وهو عليك ما صليت عليك.

وفيه: إنكار مثل هذا، وإن كان يعتقد أنه سبب: فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله تعالى ورسوله، مع عدم الاعتماد عليها. وأما التمام والخيط

(١) ذكره ابن كثير في «التفسير» (٤/ ٣٤٢).

والخروز والطلاسم ونحو ذلك، مما يعلّقه الجهال: فهو شرك، يجب إنكاره وإزالته
بالقول والفعل، وإن لم يأذن فيه صاحبه.

قوله: وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾. استدللّ حذيفة
رضي الله عنه بالآية: أن هذا شرك.

ففيه: صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله في الشرك الأكبر؛
لشمول الآية، ودخوله في مسمى الشرك. وتقدّم معنى هذه الآية عن ابن عباس،
وغيره، والله أعلم.

وفي هذه الآثار عن الصحابة: ما يبيّن كمال علمهم بالتوحيد وما ينافيه، أو
ينافي كماله.

(٧)

باب

ما جاء في الرقى والتمايم

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في الرقى والتمايم.

ش: أى: من النهى، وما ورد عن السلف في ذلك.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: في الصحيح، عن أبي بشير الأنصارى: أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً: أن لا يَبْقَيْنَ في رقبة بعير قِلادةٌ من وتر - أو قِلادةٌ - إلا قُطعت.

ش: هذا الحديث في (الصحيحين)^(١).

قوله: (عن أبي بشير). فتح أوله وكسر المعجمة، قيل: اسمه قيس بن عبّيد، قاله ابن سعد. وقال ابن عبد البر: لا يوقف له على اسم صحيح، وهو صحابيٌّ، شهد الخندق، ومات بعد الستين. ويقال: إنه جاوز المائة.

قوله: (في بعض أسفاره). قال الحافظ: لم أقف على تعيينه.

قوله: (فأرسل رسولاً)، هو زيد بن حارثة، روى ذلك الحارث بن أبي أسامة في (مسنده). قاله الحافظ^(٢).

قوله: (أن لا يَبْقَيْنَ) بالمشناة التحتيّة والقاف المفتوحتين، (وقِلادة). مرفوعٌ على أنّه فاعل. (والوتر)، بفتحيتين: واحدٌ أوتار القوس. وكان أهلُ الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره، وقلّدوا به الدواب؛ اعتقاداً منهم أنه يدفع عن الدابة العين.

(١) البخارى في «الصحيح» رقم (٣٠٠٥) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢١١٥).

(٢) ابن حجر، «فتح البارى» ٦/ ١٤١.

قوله: (أو قلادة، إلا قطعت). معناه: أن الراوى شك، هل قال شيخه: قلادة [ب/٣٩] من وتر، أو قال: قلادة. وأطلق ولم يُقيّد؟.

ويؤيدُ الأول: ما روى عن مالك، أنه سئل عن القلادة؟ فقال: ما سمعتُ بكراحتها إلا فى الوتر. ولأبى داود: ولا قلادة. بغير شك^(١).

قال البغوى فى (شرح السنة): تأول مالك أمره عليه السلام بقطع القلائد، على أنه من أجل العين. وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتماثم والقلائد، ويُعلّقون عليها العوذ؛ يظنون أنها تعصمهم من الآفات. فنهاهم النبىُّ ﷺ عنها، وأعلمهم أنها لا تردُّ من أمر الله شيئاً^(٢).

قال أبو عبيد: كانوا يقلّدون الإبل الأوتار، لثلاث تصيها العين. فأمرهم النبىُّ ﷺ بإزالتها؛ إعلماً لهم بأن الأوتار لا تردُّ شيئاً^(٣). وكذا قال ابنُ الجوزى وغيره^(٤).

قال الحافظ: ويؤيده: حديثُ عُبَدة بن عامر، رفعه «من تعلّق نَمِيمةً فلا أتمَّ الله له». رواه أبو داود^(٥)، وهى ما علّق من القلائد خشية العين، ونحو ذلك. انتهى^(٦).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرُقَى والتماثمَ والتَّوَلَةَ شرك». رواه أحمد، وأبو داود.

ش: وفيه قصة، ولفظُ أبى داود: عن زينب، امرأة عبد الله بن مسعود: إن عبد الله رأى فيه عُتْقَى خيلاً، فقال: ما هذا؟ قلتُ: خيطة رُقَى لى فيه، قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرُقَى والتماثمَ والتَّوَلَةَ شرك» فقلت: لقد كانت عيني تقذف،

(١) ينظر: ابن حجر «فتح البارى» (٦/ ١٤١).

(٢) البغوى، «شرح السنة» (١١/ ٢٧).

(٣) أبو عبيدة، «غريب الحديث» (٢/ ٢).

(٤) ابن الجوزى، «غريب الحديث» (٢/ ٤٥٢).

(٥) مضى تخريجه، فى الباب قبله.

(٦) ابن حجر، «فتح البارى» (٦/ ١٤٢).

وكنْتُ أختلفُ إلى فلان اليهودي، فإذا رقي سكنت. فقال عبد الله: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقي كفَّ عنها. إنما كان يكفيك، أن تقولِي كما كان رسولُ الله ﷺ يقول: «أذهبِ البأس، ربَّ الناس، واشفِ أنتَ الشافي، لا شفاءَ إلا شفاؤك، شفاءٌ لا يغادرُ سَقَمًا» ورواه ابنُ ماجة، وابنُ حبان، والحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي^(١).

قوله: «إنَّ الرقي» قال المصنّف: (هي التي تُسمَّى العزائم، وخصَّ منه الدليلُ ما خلا من الشرك. فقد رخص فيه رسولُ الله ﷺ، من العين [١/٤٠] والحمة)^(٢).

يُشير إلى أنَّ الرقي الموصوفةَ بكونها شركاً، هي التي يُستعان فيها بغير الله. وأما إذا لم يُذكر فيها إلا أسماءُ الله وصفاته وآياته، والمأثور عن النبي ﷺ، فهذا حسن: جائزٌ، أو مُستحب.

قوله: فقد رخص فيه رسولُ الله ﷺ من العين والحمة. كما تقدّم، في باب من حقَّق التوحيد^(٣).

وكذا رخص في الرقي من غيرها؛ كما في (صحيح مسلم)، عن عوف بن مالك: كُنَّا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يارسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: «اعرضوا على رقاكم، لا بأس بالرقي ما لم تكن شركاً»^(٤) وفي الباب أحاديثُ كثيرة.

قال الخطّابي: وكان عليه السلام، قد رقي ورقي، وأمر بها وأجازها. فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله تعالى فهي مباحةٌ أو مأمور بها.

وإنما جاءت الكراهة والمنع، فيما كان منها بغير لسان العرب؛ فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله الشرك^(٥).

(١) أحمد في «المسند» (١/ ٣٨١) وأبو داود في «السنن» رقم (٣٨٨٣) وابن ماجة في «السنن» رقم (٣٥٧٦) وابن حبان في «الصحيح» (٧/ ٦٣٠) والحاكم في «المستدرک» (٤/ ٢١٧، ٤١٨).

(٢) المصنّف، «كتاب التوحيد» من هذا الباب.

(٣) الباب الثاني.

(٤) مسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٠٠).

(٥) الخطّابي، «معالم السنن» (٤/ ٢٢٦).

قلتُ: من ذلك: ما كان على مذهب الجاهلية التي يتعاطونها، وأنها تدفع عنهم الآفات، ويعتقدون أنَّ ذلك من قبل الجن ومعونتهم. وبنحو هذا ذكر الخطَّابى.

وقال شيخُ الإسلام: كلُّ اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به، فضلاً أن يدعو به ولو عُرف معناه؛ لأنه يُكره الدعاء بغير العربية. وإنما يُرخص لمن لا يُحسن العربية، فأماً جعلُ الألفاظ العجمية شعاراً، فليس من دين الإسلام^(١).

وقال السيوطى: وأجمع العلماء على جواز الرقى، عند اجتماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربى وبما يُعرف معناه. وأن يعتقد أنَّ الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى.

قوله: «والتائم» قال المصنف: (شئ يُعلَّق على الأولاد، عن العين)^(٢). وقال الخلدخالى^(٣): التائم، جمعُ قيمة، وهى ما يُعلَّق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام؛ لدفع العين. وهذا منهيٌّ عنه؛ لأنه لا دافع إلا الله، ولا يُطلب دفعُ المؤذيات إلا بالله وبأسمائه وصفاته.

قال المُصنَّف: (لكن إذا كان/ الملقى من القرآن، فرخص فيه بعضُ السلف. وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهى عنه. منهم ابن مسعود)^(٤).

اعلم أن العلماء - من الصحابة والتابعين فمن بعدهم - اختلفوا فى جواز تعليق التائم التى من القرآن، وأسماء الله وصفاته.

فقال طائفة: يجوز ذلك، وهو قولُ عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو ظاهر ما روى عن عائشة. [وبه]^(٥) قال أبو جعفر الباقر، وأحمد فى رواية. وحملوا الحديث على التائم، التى فيها شرك.

وقالت طائفة: لا يجوز ذلك، وبه قال ابنُ مسعود، وابنُ عباس. وهو ظاهر

(١) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٦٩).

(٢) المصنف، «كتاب التوحيد» من هذا الباب.

(٣) شمس الدين، محمد بن مظفر الخطيب، أديب محدث. له كتاب «المفاتيح شرح مصابيح السنة» (ت ٧٤٥هـ). «الدرر الكامنة» (٤/ ٢٦٠).

(٤) المصنف، «كتاب التوحيد» من هذا الباب.

(٥) ساقط من الأصل.

قول حذيفة، وعقبة بن عامر وابن عكيم. وبه قال جماعة من التابعين، ومنهم أصحاب ابن مسعود، وأحمد في رواية اختارها كثير من أصحابه. وجزم بها المتأخرون، واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه.

قلت: وهذا هو الصحيح، لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل:
الأول: عموم النهي، ولا مُخصَّص للعموم. الثاني: سدُّ الذريعة؛ فإنه يُفْضَى إلى تعليق ما ليس كذلك.

الثالث: أنه إذا علّق فلا بُدَّ أن يمتنّه المعلق، بحمله معه في [حال] (١) قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك.

وتأمل هذه الأحاديث، وما كان عليه السلف رضى الله تعالى عنهم: يتبيّن لك بذلك غربة الإسلام.

خصوصاً إن عرفت عظيم ما وقع فيه الكثير بعد القرون المفضلة: من تعظيم القبور، واتخاذ المساجد عليها، والإقبال إليها بالقلب والوجه، وصرف جُلِّ الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات - التي هي حقُّ الله تعالى - [إليها] (٢) من دونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦ - ١٠٧] ونظائرهما في القرآن، أكثر من أن تُحصَر.

قوله: «والتَّوَلَّى شِرْكَ» قال المصنّف: (هو شيء يصنعونه، يزعمون أنه يُحِبُّ المرأة / إلى زوجها والرجل إلى امرأته) (٣).

[١/٤١]

وبهذا فسره ابن مسعود، راوى الحديث؛ كما في (صحيح ابن حبان)، والحاكم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن، هذه الرقى والتمايم، قد عرفناها. فما التَّوَلَّى؟ قال: شيء يصنعه النساء، يتحبن إلى أزواجهن (٤).

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٣) المصنّف، «كتاب التوحيد» من هذا الباب.

(٤) ابن حبان في «الصحيح» (٧/ ٦٣٠)، والحاكم في «المستدرک» (١/ ٤١٨).

قال الحافظ: التَّوَلَّى - بكسر المثلثة وفتح الواو واللام مخففاً -: شىءٌ كانت المرأة تجلب به محبةً زوجها، وهو ضربٌ من السحر، والله أعلم.

وكان من الشرك؛ لما يُراد به من دفع المضار، وجلب المنافع من غير الله تعالى. قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن عبد الله بن عكيم، مرفوعاً «من تعلّق شيئاً وكلّ إليه» رواه أحمد، والترمذى.

شىءٌ: ورواه أبو داود، والحاكم^(١). وعبد الله بن عكيم: هو بضمّ المهملة مُصَغَّرًا. ويكنّى أبا معبد، الجُهَنى الكوفى. قال البخارى: أدرك زمنَ النَّبِيِّ ﷺ، ولا يُعرف له سماعٌ صحيح.

وكذا قال أبو حاتم. قال الخطيب: سكن الكوفة، وقدم المدائن فى حياة حذيفة، وكان ثقة. وذكر ابنُ سعد، عن غيره: أنه مات فى ولاية الحجاج^(٢). قوله: «من تعلّق شيئاً وكلّ إليه» التعلّق يكون بالقلب، ويكون بالفعل، ويكون بهما. أى: وكلّه الله، إلى ذلك الشىء الذى تعلّقه.

فمن تعلّق بالله وأنزل حوائجه به، والتجأ إليه وفوض أمره إليه: كفاه، وقرب إليه كلّ بعيد وسرّ له كل عسير. ومن تعلّق بغيره، أو سكن إلى رأيه وعقله ودوائه وتماثمه ونحو ذلك: وكلّه الله إلى ذلك، وخذله. وهذا معروفٌ بالنصوص والتجارب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشام بن القاسم، حدثنا أبو سعيد المؤدّب، حدثنا من سمع عطاء الخراسانى، قال: لقيتُ وهبَ بن منبه وهو يطوف بالبيت، فقلت: حدثنى حديثاً أحفظه عنك فى مقامى هذا، وأوجز. قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: يا داود، أما عزتى وعظمتى، لا يعتصمُ بى عبدٌ من عبادى دون خلقى - أعرف ذلك من نيته - فتكيده السمواتُ السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن: إلا جعلتُ له من بينهن مخرجاً. أما وعزتى وعظمتى، لا يعتصم

(١) أحمد فى «المسند» (٤/ ٣١٠، ٣١١)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٠٧٣) والحاكم فى «المستدرک» (٤/

٢١٦)، ولم أجده عند أبى داود فى «السنن» المطبوعة من رواية اللؤلؤى.

(٢) ابن سعد، «الطبقات الكبرى» (٦/ ١١٥).

عبدٌ من عبادى بمخلوق/ دونى، أعرفُ ذلك من نيته: إلا قطعتُ أسباب السماء [٤١/ب] من يده، وأسختُ الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالى بأى أوديتها هلك^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وروى الإمام أحمد، عن رُوَيْفَع، قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يارُوَيْفَع، لعلَّ الحياة ستطولُ بك، فأخبرِ الناس: أنَّ من عقد لحيته، أو تقلَّد وترّاً أو استنجدى برجيع دابةٍ أو عظم، فإنَّ محمداً برىء منه».

ش: الحديث: رواه الإمام أحمد، عن يحيى بن إسحاق، والحسن بن موسى الأشيب، كلاهما عن ابن لهيعة. وفيه قصةٌ اختصرها المصنف.

وهذا لفظ الحسن: حدَّثنا ابنُ لهيعة، حدَّثنا عياش بن عباس، عن شَيْمِ بن بَيْتَان، قال: حدَّثنا رُوَيْفَع بن ثابت، قال: كان أحدنا فى زمن رسول الله ﷺ يأخذ جمل أخيه، على أن يعطيه النصفَ مما يغنم وله النصف، حتى إنَّ أحدنا ليصير^(٢) له النصلُ والريش، وللآخر القدح. ثم قال لى رسول الله ﷺ. الحديث.

ثم رواه أحمد، عن يحيى بن غيلان، حدَّثنى المفضل، حدَّثنا عياش بن عباس: أن شَيْمِ بن بَيْتَان أخبره، أنه سمع شيبان القَتْبَانِى. الحديث. ابن لهيعة، فيه مقال. وفى الإسناد الثانى: شيبان القَتْبَانِى، قيل فيه: مجهول. وبقيةُ رجالهما ثقات^(٣).

قوله: «لعلَّ الحياة ستطولُ بك» فيه عِلْمٌ من أعلام النبوة، فإنَّ رُوَيْفَعاً طالَت حياته إلى سنة ست وخمسين. فمات ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها، وهو من الأنصار، وقيل: مات سنة ثلاث وخمسين^(٤).

قوله: «فأخبرِ الناس» دليلٌ على وجوب إخبار الناس، وليس هذا مُختصاً برُوَيْفَع. بل كلُّ من كان عنده علمٌ ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس، وجب

(١) لم آتف عليه فى كتاب «الزهد» المطبوع ولا فى «المسند»، وأخرجه من غير هذا الطريق أبو نعيم فى «الحلية» (٢٦/٤).

(٢) فى «المسند»: ليطير.

(٣) أحمد فى «المسند» (١٠٨/٤، ١٠٩).

(٤) الأصل (ض) و(هـ): قوله لعل الحياة. بعد قوله: فأخبر الناس. ولعل المثبت هو الصواب.

إعلامهم به. فإن اشترك هو وغيره فى علم ذلك، فالتبليغُ فرض كفاية. قاله أبو زرعة^(١) فى (شرح سنن أبى داود).

قوله: «أن من عقد لحيته» بكسر اللام لا غير، والجمع لُحى، بالكسر والضم. قاله الجوهري.

قال الخطّابى: أمّا نهيه عن عقد اللحية، فيفسرُ على وجهين:

أحدهما: ما كانوا يفعلونه فى الحرب، كانوا يعقدون لحاهم؛ وذلك من رى بعض الأعاجم، يفتلونها ويعقدونها. قال أبو السعادات: تكبراً وعُجباً.

ثانيهما: أن معناه معالجة الشعر ليتعقّد/ ويتجعّد، وذلك من فعل أهل التأنيث^(٢).

قال أبو زرعة بن العراقى: والأولى، حملُه على عقد اللحية فى الصلاة، كما دلّت عليه روايةُ محمد بن الربيع. وفيه: «أن من عقد لحيته فى الصلاة».

^(٣)[قلت]: وهذه الرواية، لا تدل على تخصيصه فى الصلاة، بل تدلّ على أن فعله فى الصلاة أشد من فعله خارجها^(٣).

قوله: «أو تقلّد وترّاً» أى: جعله قلادة فى عنقه، أو عُنق دابته. وفى رواية محمد بن الربيع «أو تقلّد وترّاً - يريد: تيممة».

فإذا كان هذا فيمن تقلّد وترّاً، فكيف بمن تعلّق بالأموات، وسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات. وما يترتب على ذلك من العبادة، التى لا يستحقها إلا رب الأرض والسماوات، الذى جاء النهىُ عنه وتغليظه فى الآيات المحكمات؟

قوله: «أو استنجدى برجيع دابة أو عظم فإن محمداً برىء منه» قال النووى:

(١) أبو زرعة والى الدين، أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن، الكردى الشافعى، المعروف بابن العراقى، ابن صاحب «الالفة». فقيه محدث، له كتاب «التحرير» و«الدليل القويم» و«شرح سنن أبى داود». ولد سنة (٧٦٢) ومات سنة (٨٢٦) السخاوى، «الضوء اللامع» (١/ ٣٣٦).

(٢) الخطّابى، «معالم السنن» (١/ ٢٧).

(٣) ما بينها ساقطٌ من (هـ) و(ط)، ومعلّقٌ فى هامش الاصل وعليه كلمة صح.

أى: برىء من فعله^(١). وهذا خلاف الظاهر، والنوى كثيراً ما يتأول الأحاديث بصرفها عن ظاهرها، فيغفر الله تعالى له. بل هو برىء من الفاعل، وفعله.

وفى (صحيح مسلم)، عن ابن مسعود رضى الله عنه، مرفوعاً «لا تستنجوا بالروث، ولا العظام؛ فإنه زاد إخوانكم من الجن»^(٢). وعليه لا يجزى الاستنجاء بهما، كما هو ظاهر مذهب أحمد^(٣)؛ لما روى ابن خزيمة، والدارقطنى، عن أبى هريرة، أن النبى ﷺ: نهى أن يستنجى بعظم أو روث، وقال: «إنهما لا يطهران»^(٤).

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن سعيد بن جبير، قال: من قطع تيممة من إنسان، كان كعدل رقبة^(٥). رواه وكيع.

ش: هذا عند أهل العلم، له حكمُ الرفع؛ لأن مثل ذلك لا يُقال بالرائى. ويكون هذا مرسلاً؛ لأن سعيداً تابعى. وفيه: فضلُ قطع التمام لأنها شرك.

ووكيع: هو ابنُ الجراح بن وكيع الكوفى، ثقةٌ إمام، صاحبُ تصانيف، منها (الجامع) وغيره. وروى عنه الإمامُ أحمد، وطبقته. مات سنة سبع وتسعين ومائة^(٦).

قال المصنف رحمه الله تعالى: وله عن إبراهيم، قال: كانوا يكرهون التمام كلها، من القرآن وغير القرآن^(٧).

(١) ينظر: القاسم بن سلام، «كتاب الإيمان» (٨٩).

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (٤٥٠).

(٣) ينظر: ابن قدامة، «المغنى» (١/ ٢١٥).

(٤) ابن خزيمة فى «الصحيح» رقم (٨٢) والدارقطنى فى «السنن» (١/ ٥٦) وقال: إسناده صحيح. واللفظ له،

وأخرجه ابن عدى فى «الكامل» (٧/ ٢٥٠٤).

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة فى «المصنف» رقم (٣٥٢٤).

(٦) ينظر: الذهبى، «سير النبلاء» (٩/ ١٤٠).

(٧) أخرجه ابن أبى شيبة فى «المصنف» رقم (٣٥١٨).

ش: إبراهيم، هو الإمام إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي، يكتنّى أبا عمران، ثقةٌ من كبار الفقهاء. قال المزيّ: دخل على عائشة، ولم يثبت له سماعٌ منها. مات سنة ستٍ وتسعين، وله خمسون سنة أو نحوها^(١).

قوله: (كانوا يكرهون التمايم). إلى آخره، مراده بذلك: أصحاب عبد الله بن [٤٢/ب] مسعود، / كعلقمة، والأسود، وأبى وائل، والحارث بن سويد، وعبيدة السلماني، ومسروق، والربيع بن خثيم، وسويد بن غفلة، وغيرهم. وهم من سادات التابعين. وهذه الصيغة: يستعملها إبراهيم في حكاية أقوالهم، كما بين ذلك الحفظ، كالعراقي وغيره.

(١) المزيّ، «تهذيب الكمال» (٢/ ٢٣٥) وينظر: ابن حجر «تقريب التهذيب» (٩٥).

(٨)

باب

من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما.
ش: كبُقعة أو قبر، ونحو ذلك، أى: فهو مُشرك.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣].

ش: وكانت اللات، لثقيف. والعزى، لقريش وبنى كنانة. ومناة لبنى هلال.
وقال ابن هشام: كانت لهذيل وخزاعة.

فأما (اللآت) فقرأ الجمهور: بتخفيف التاء. وقرأ ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وحُميد، وأبو صالح، ورؤيس^(١)، ويعقوب^(٢): بتشديد التاء.

فعلى الأولى: قال الأعمش: سموا اللات، من الإله. والعزى، من العزيز.
قال ابن جرير: وكانوا قد شقوا اسمها من اسم الله تعالى، فقالوا: اللات، مؤنثة منه. تعالى الله عما يقولون، علواً كبيراً. قال: وكذا العزى، من العزيز^(٣).

وقال ابن كثير: اللات، كانت صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت بالطائف، له

(١) أبو عبد الله، محمد بن المتوكل بن عبد الرحمن اللؤلؤى، البصرى، توفى سنة ٢٣٨ هـ الذهبي، «التذكرة» (٤٧٣).

(٢) ابن اسحاق بن زيد الحضرمي البعوى، مقرر نحوى، ولد سنة ١١٧ هـ ومات سنة ٢٠٥ هـ. الزبيدي «الطبقات» (٥١).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٧/ ٣٤ - ٣٥).

أستار وسدنة. وحوله فناءً معظمً عند أهل الطائف - وهم ثقيف ومن تبعها -
يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب، بعد قریش^(١). قال ابن هشام:
فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة، فهدمها وحرّقها بالنار^(٢).

وعلى الثانية: قال ابن عباس: كان رجلاً يَلْتُ السويق للحاج، فلما مات
عكفوا على قبره. ذكره البخاري^(٣).

قال ابن عباس: كان يبيع السويق والسمن عند صخرة، ويسلوه عليها. فلماً
مات ذلك الرجل، عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق. وعن
مُجاهد نحوه، وقال: فلما مات عبده. رواه سعيد بن منصور^(٤).

وكذا، روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: أنهم عبده^(٥). وبنحو هذا، قال
جماعة من أهل العلم.

قلت: لا منافاة بين القولين؛ فإنهم عبدوا الصخرة والقبر، تألهاً وتعظيماً.

[١/٤٣] ولمثل هذا بُنيت المشاهدُ والقبابُ / [على القبور]^(٦)، واتخذت أوثاناً. وفيه:
بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين، والأصنام والأوثان.

وأما العزى. فقال ابن جرير: كانت شجرةً عليها بناءٌ وأستار، بنخلة - بين مكة
والطائف - كانت قریشُ يعظمونها؛ كما قال أبو سفيان، يوم أحد: لنا العزى ولا
عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم»^(٧).

وروى النسائي، وابن مردويه، عن أبي الطفيل، قال: لما فتح رسول الله ﷺ
مكة، بعث خالد بن الوليد إلى نخلة - وكانت بها العزى، وكانت على ثلاث

(١) «تفسير ابن كثير» (٧ / ٤٣٠).

(٢) «السيرة» لابن هشام (٤ / ١٣٨).

(٣) البخاري في «الصحيح» (٨ / ٦١١) دون الجملة الأخيرة، وأخرجه الطبري في «التفسير» (٢٧ / ٣٥) وعبد بن
حميد، وابن المنذر، وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧ / ٦٥٢).

(٤) سعيد بن منصور في «السنن»، والفاكهي كما في «الدر» (٧ / ٦٥٢).

(٥) ابن أبي حاتم في «التفسير»، وابن مردويه كما في «الدر» (٧ / ٦٥٣).

(٦) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٧) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٣٠٣٩، ٣٩٨٦، ٤٠٤٣، ٤٠٦٧، ٤٥٦١) وأحمد في «المسند» (٤ /

٢٩٣) من حديث البراء.

سَمَرَات - فقطع السَّمَرَات، وهدم البيت الذى كان عليها. ثم أتى النبى ﷺ، فأخبره. فقال: «ارجع، فإنك لم تصنع شيئاً» فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة أمعنوا فى الجبل، وهم يقولون: يا عَزَّى يا عَزَّى. فأتاها خالد، فإذا امرأة عُرْيَانة، ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها! فعممها بالسيف، فقتلها. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزى»^(١) ^(٢) قال أبو صالح: كانوا يعلّقون عليها السيور، والعُهن. رواه عبد بن حميد، وابن جرير^(٣).

قلتُ: وكلُّ هذا، وما هو أعظمُ منه يقعُ فى هذه الأزمنة عند ضرائح الأموات، وفى المشاهد.

وأما مَناء. فكانت بالمشلل عند قُديد، بين مكة والمدينة. وكانت خُزاعة والأوس والخزرج يعظمونها، ويُهَلِّون منها للحج. وأصلُ اشتقاقها، من اسم الله المَنَّان. وقيل لكثرة ما يُمنى - أى يُراق - عندها من الدماء، للتبرُّك بها. قال البخارى رحمه الله تعالى - فى حديث عُروة، عن عائشة رضى الله عنها -: إنها صنمٌ بين مكة والمدينة^(٤).

قال ابن هشام: فبعث رسولُ الله ﷺ علياً، فهدمها عام الفتح^(٥) وقال العماد بن كثير: فبعث رسولُ الله ﷺ خالد بن الوليد فى غزوة بنى المصطلق، فكسرها^(٦) ^(٥).

فمعنى الآية، كما قال القرطبى: أن فيها حذفاً، تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة: أنفعتُ أو ضرتُ، حتى تكون شركاء لله تعالى؟ وقوله: «أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى» قال ابن كثير: أنجعلون له ولداً، وتجعلون ولده أنثى وتختارون لكم الذكور^(٦).

(١) النسائى فى «السنن الكبرى» كما فى «تحفة الأشراف» (٤/ ٢٣٥) وابن مردويه فى «التفسير» كما فى «الدر» (٧/ ٦٥٢).

(٢) ما بينهما ساقطٌ من (هـ) و(ط)، ومعلّقٌ فى هامش الأصل وعليه كلمة صح.

(٣) الطبرى فى «التفسير» (٢٧/ ٣٧) وعبد بن حميد، كما فى «الدر» (٧/ ٦٥٣).

(٤) البخارى فى «الصحيح» (٨/ ٦١٣).

(٥) ينظر ابن كثير، «التفسير» (٧/ ٤٣٢) «البداية» (٢/ ١٩٢، ٤/ ٣٧٥).

(٦) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٣٣).

قوله: ﴿تِلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ ضَيْرَى﴾ أى: جورٌ، وباطلة. فكيف تُقاسمون ربكم [٤٣/ب] هذه القسمة، التى لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً. فتتزهون أنفسكم عن الإناث، وتجعلونهن لله تعالى.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أى: من تلقاء أنفسكم ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أى: من حجة ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أى: ليس لهم مستندٌ إلا حسن ظنهم بآبائهم، الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم. وإلا حظ أنفسهم، فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾. قال ابن كثير: ولقد أرسل الله تعالى إليهم الرسل بالحق المنير، والحجة القاطعة. ومع هذا، ما اتبعوا ما جاؤوهم به ولا انقادوا له^(١).

ومطابقة الآيات للترجمة: من جهة أن عبّاد الأوثان، إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها: بتعظيمها، ودعائها، والاستعانة بها، [والاعتماد عليها فى حصول ما يرجونه منها]^(٢) ويؤملونه ببركتها وشفاعتها، وغير ذلك.

فالتبركُ بقبور الصالحين - كالكالات - وبالأشجار والأحجار - كالعزى، ومناة - من فعل جملة أولئك المشركين مع تلك الأوثان. فمن فعل مثل ذلك، أو اعتقد فى قبرٍ أو حجرٍ أو شجرٍ، فقد ضاهى عبّاد هذه الأوثان فيما يفعلونه معها من هذا الشرك. على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم، أعظم مما وقع من أولئك. فالله المستعان.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: عن أبى واقد الليثى، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حُدثاء عهد بكفر. وللمشركين سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عندها، ويتوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذاتُ أنواط. فمررنا بسدرة، فقلنا: يارسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن. قُتِمَ والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا

(١) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٣٣).

(٢) ما بينهما سقط من الاصل.

كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» [الأعراف: ١٣٨] «لتركبن سنن من كان قبلكم» رواه الترمذى وصححه^(١).

ش: أبو واقد: اسمه الحارث بن عوف. وفى الباب: عن أبى سعيد، وأبى هريرة. قاله الترمذى.

وقد رواه أحمد، وأبو يعلى، وابن أبى شيبه، والنسائى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والطبرانى، بنحوه^(٢).

قوله: (عن أبى واقد). تقدم اسمه، فى قول الترمذى، وهو صحابى مشهور، مات سنة ثمان وستين، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين). وفى حديث عمرو بن عوف - وهو عند ابن أبى حاتم، وابن مردويه، والطبرانى - قال: غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح، ونحن ألف ونيف. حتى إذا كنا بين حنين والطائف - الحديث.

قوله: (ونحن حُدثاء عهد بكفر). / أى: قريب عهدنا بالكفر، ففيه: دليل على [١/٤٤] أن غيرهم ممن تقدم إسلامه من الصحابة لا يجهل هذا، وأن المنتقل من الباطل الذى اعتاده قلبه، لا يأمن أن يكون فى قلبه بقية من تلك العادة. ذكره المصنف^(٣).

قوله: (وللمشركين سدرة يعكفون عندها). العكوف: هو الإقامة على الشئ فى المكان، ومنه قول الخليل عليه السلام: «مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ» [الأنبياء: ٥٢] وكان عكوف المشركين عن تلك السدره؛ تبركاً بها وتعظيماً لها. وفى حديث عمرو: كان يُنَاطُ بها السلاح؛ فسُميت ذات أنواط. وكانت تُعبد من دون الله.

قوله: (وينوطون بها أسلحتهم). أى: يعلّقونها عليها؛ للبركة.

(١) الترمذى فى «الجامع» رقم (٢١٨١) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أحمد فى «المسند» (٥/ ٢١٨) وأبو يعلى فى «المسند» رقم (١٤٤١) وابن أبى شيبه فى «المصنف» (١٥/ ١٠١) والنسائى فى «السنن الكبرى» كما فى «تحفة الأشراف» (١١/ ١١٢) وابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٣١/ ٩) وابن المنذر وابن أبى حاتم كما فى «الدر» (٣/ ٥٣٣) والطبرانى فى «الكبير» رقم (٣٢٩٠)، (٣٢٩٤).

(٣) المسألة: الثانية عشرة، والثانية والعشرون

قلت: ففى هذا، بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك. وبهذه الأمور الثلاثة، عُبدت الأشجار ونحوها.

قوله: (فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط). قال أبو السعادات: سأله أن يجعل لهم، مثلها، فنهاهم عن ذلك. وأنواط: جمع نوط، وهو مصدر سُمي به المنوط^(١). ظنوا أن هذا محبوب عند الله، وقصدوا التقرب به. وإلا فهم أجل قدراً، من أن يقصدوا مخالفة النبي ﷺ.

قوله: (فقال رسول الله ﷺ «الله أكبر») وفى رواية: «سبحان الله!». والمراد: تعظيم الله تعالى، وتنزيهه عن هذا الشرك بأى نوع كان، مما لا يجوز أن يطلب ويُقصد به غير الله.

وكان النبي ﷺ يستعمل التكبير والتسبيح، فى حال التعجب؛ تعظيماً لله وتنزيهاً له. إذا سمع من أحد ما لا يليق بالله، مما فيه هضم للربوبية والإلهية. قوله: «إنها السنن» بضم السين، أى: الطرق.

قوله: «قلتم والذى نفسى بيده، كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اجعل لنا إلهاً» شبه مقالتهم هذه، بمقالة بنى إسرائيل؛ بجامع أن كلا طلب أن يجعل له ما ياله ويعبده من دون الله. وإن اختلف اللفظان، فالمعنى واحد. فتغيير الاسم، لا يغير الحقيقة.

[٤٤/ب] ففيه: الخوف من الشرك. وأن الإنسان قد يستحسن شيئاً يظنه يقربه إلى الله، وهو أبعد ما يبعده من رحمته، ويقربه من سخطه.

ولا يعرف هذا على الحقيقة، إلا من عرف ما وقع فى هذه الأزمان، من كثير من العلماء والعباد مع أرباب القبور. من الغلو فيها، وصرف جل العبادة لها. ويحسبون أنهم على شئ، وهو الذنب الذى لا يغفره الله.

قال الحافظ أبو محمد، عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعى، المعروف بأبى شامة^(٢) - فى (كتاب البدع والحوادث) - : ومن هذا القسم، أيضاً: ما قد عمَّ الابتلاء به، من تزيين الشيطان للعامة: تخليق الحيطان والعمد، وسرُج مواضع

(١) ابن الأثير، «النهاية فى غريب الحديث» (٥/ ١٣٨).

(٢) وهو من كبار العلماء والدعاة، الحفاظ (ت ٦٦٥ هـ) «الشذرات» (٥/ ٣١٨).

مخصوصة، في كل بلد يحكى لهم حاك أنه رأى فى منامه بها أحداً ممن شهر
بالصلاح والولاية. فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه، مع تضييعهم فرائض الله
تعالى وسنته. ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع
تلك الاماكن فى قلوبهم. فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم
بالنذر لها، وهى من عيون وشجر وحائط وحجر.

وفى مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة، كعوينة الحمى خارج باب توما،
والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة خارج باب النصر فى نفس
قارعة الطريق^(١). سهل الله قطعها، واجتثاثها من أصلها. فما أشبهها بذات
أنواط، الواردة فى الحديث. انتهى^(٢).

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: نحو ما ذكره أبو شامة، ثم قال: فما أسرع
أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله، ولو كانت ما كانت. ويقولون: إن
هذا الحجر وهذه الشجرة، وهذه العين تقبل النذر. أى: تقبل العبادة من دون
الله؛ فإن النذر عبادة وقربة، يتقرب بها الناذر إلى المنذور له^(٣). وسيأتى ما
يتعلق بهذا الباب، عند قوله: «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد»^(٤).

وفى الجملة من الفوائد: أن ما يفعله من يعتقد فى الأشجار والقبور
والأحجار، من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها، هو الشرك. ولا يغتر [١/٤٥]
بالعوام والطفام، ولا يستبعد كون الشرك بالله يقع فى هذه الأمة.

فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً، وطلبوه من النبى ﷺ حتى بين لهم
أن ذلك كقوله بنى إسرائيل «اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً» [الاعراف: ١٣٨] فكيف لا يخفى على
من هو دونهم فى العلم والفضل بأضعاف مضاعفة، مع غلبة الجهل وبعد العهد
بآثار النبوة! بل خفى عليهم عظامُ الشُّرك فى الإلهية والربوبية، فأكثروا فعله
واتخذوه قربة.

ومنها: أن الاعتبار فى الأحكام بالمعانى لا بالأسماء، ولهذا جعل النبى

(١) ينظر: ابن بدران، «منادمة الأطلال» (٤٠).

(٢) أبو شامة، «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (٢٣).

(٣) ابن القيم، «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» (١/ ٢٣٠).

(٤) الباب رقم (٢٠).

ﷺ طلبهم كطلب بنى إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سمّوها ذات أنواط.

فالمشرك وإن سمّى شركه ما سماه - كمن يُسمى دعاء الأموات، والذبح لهم والنذر ونحو ذلك تعظيماً ومحبة - فإنّ ذلك هو الشرك، وإنّ سمّاه ما سماه. وقس على ذلك^(١).

قوله: «لتركبن سنن من كان قبلكم» بضمّ الموحدة وضم السين، أى: طرقهم ومناهجهم. وقد يجوز فتح السين على الأفراد، أى: طريقهم. وهذا خبر صحيح، والواقع من كثير من هذه الأمة يشهد له.

وفيه: علّم من أعلام النبوة؛ من حيث إنه وقع كما أخبر ﷺ.

وفى الحديث: النهى عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه، إلا ما دلّ الدليل على أنه من شريعة محمد ﷺ^(٢).

قال المصنّف: وفيه: التنبيه على مسائل القبر، أمّا: مَنْ ربك؟ فواضح، وأمّا: من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب. وأمّا: ما دينك؟ فمن قولهم ﴿اجعل لنا إلهاً﴾ إلى آخره.

وفيه: أنّ الشرك لأبَدٌ أن يقع فى هذه الأمة، خلافاً لمن ادعى خلاف ذلك، وفيه: الغضب عند التعليم، وأنّ ما ذم الله به اليهود والنصارى فإنه لنا لنحذره^(٣). قاله المصنّف.

وأما ما ادعاه بعض المتأخرين: من أنه يجوز التبرك بآثار الصالحين، فممنوعٌ من وجوه:

منها: أنّ السابقين الأولين من الصحابة ومن بعدهم، لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير النبی ﷺ. لا فى حياته، ولا بعد موته. ولو كان خيراً لسبقونا إليه.

(١) المسألة: الخامسة، والثامنة.

(٢) المسألة: الخامسة عشرة، والثامنة عشرة.

(٣) المسائل: السادسة عشرة، والسابعة عشرة، والتاسعة عشرة، والعشرون.

وأفضلُ الصحابة/ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي - وقد شهد لهم النبي ﷺ [٤٥/ب]
فيمن شهد له بالجنة - وما فعله أحدٌ من الصحابة والتابعين مع أحدٍ من هؤلاء
السادة، ولا فعله التابعون مع ساداتهم في العلم والدين، وهم الأسوة.
فلا يجوز أن يُقاس على رسول الله ﷺ أحدٌ من الأمة، وللنبي ﷺ في حال
الحياة خصائصُ كثيرة لا يصلح أن يُشاركه فيها غيره.
ومنها: أن في المنع عن ذلك سداً للزريعة الشرك، كما لا يخفى^(١).

(١) ينظر: الشاطبي، «الاعتصام» (١/ ٤٨٢) وابن رجب، «الحكم الجديرة» (٥٥).

(٩)

باب

ما جاء في الذبح لغير الله

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في الذّبح لغير الله .

ش: أى: من الوعيد، وأنه شرك.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ : ١٦٣].

ش: قال ابن كثير: يأمره تعالى، أن يُخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه^(١): بأنه أخلص لله صلاته وذبيحته؛ لأن المشركين يعبدون الأصنام، ويذبحون لها. فأمره الله تعالى بمخالفتهم، والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى.

قال مُجاهد: النسك: الذبح، في الحج والعمرة^(٢).

وقال الثوري، عن السدي، عن سعيد بن جبيرة: ﴿وَنُسُكِي﴾: ذبحي. وكذا قال الضحاك^(٣) (٤).

وقال غيره: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أى: وما آتية في حياتي، وممّتي عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالصاً لوجهه ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾

(١) في جميع النسخ: له. والمثبت من «التفسير».

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٢ / ٢٨٤).

(٣) أخرجه الطبري. «المصدر السابق».

(٤) «تفسير ابن كثير» (٣ / ٣٧٧).

وَبِذَلِكَ الْإِخْلَاصُ ﴿أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: من هذه الأمة؛ لأن إسلام كل نبي متقدم إسلام^(١) أمته: قال قتادة: «وأنا أول المسلمين» أى: من هذه الأمة^(٢).

قال ابن كثير: وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله، كانت دعوتهم إلى الإسلام. وهو عبادة الله وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وذكر آيات في هذا المعنى^(٣).

وجه مطابقة الآية للترجمة: أن الله تعالى تعبد عباده، بأن يتقربوا إليه بالنسك. كما تعبدهم بالصلاة، وغيرها من أنواع العبادة. فإن الله تعالى أمرهم أن يخلصوا جميع أنواع العبادة له، دون كل ما سواه. فإذا تقرب إلى غير الله بالذبح، أو غيره من أنواع العبادة فقد جعل لله شريكاً في عبادته.

وهو ظاهر في قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ نفى أن يكون لله تعالى شريك في هذه العبادات، وهو بحمد الله واضح.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

قوله: قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين، وهما الصلاة والنسك. الدالتان على القرب والتواضع، والافتقار وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عِدَّتِهِ.

عكس حال أهل الكبر والثفرة، وأهل الغنى عن الله - الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر - ولهذا جمع بينهما في قوله: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي﴾ - الآية.

والنسك: الذبيحة لله تعالى، ابتغاء وجهه. فإنهما أجل ما يتقرب به إلى الله

(١) ما بينهما ساقط من (هـ) و(ط)، ومعلق في هامش (الاصل) وعليه كلمة صح.

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (٢/ ٢٨٥).

(٣) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٧٧).

تعالى، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب؛ لأن فعل ذلك سببٌ للقيام بشكر ما أعطاه الله تعالى من الكوثر.

وأجلُّ العبادات البدنية: الصلاة، وأجلُّ العبادات المالية: النحر. وما يجتمع للعبد في الصلاة، لا يجتمع له في غيرها؛ كما عرفه أربابُ القلوب الحية. وما يجتمع له في النحر - إذا قارنه الإيمان والإخلاص - من قوة اليقين وحسن الظن: أمرٌ عجيب، وكان ﷺ، كثيرَ الصلاة، كثيرَ النحر. انتهى^(١).

قلتُ: وقد تَضَمَّنَت الصلاةُ من أنواع العبادة كثيراً، فمن ذلك: الدعاء والتكبير، والتسبيح والقراءة، والتسميع والثناء، والقيام والركوع، والسجود والاعتدال، وإقامة الوجه لله تعالى، والإقبالُ عليه بالقلب، وغيرُ ذلك مما هو مشروع في الصلاة. وكل هذه الأمور من أنواع العبادة، التي لا يجوز أن يُصرف منها شيءٌ لغير الله. وكذلك النسك، يتضمن أموراً من العبادة، كما تقدم في كلام شيخ الإسلام.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: عن علي بن أبي طالب، قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعنَ الله من ذبح لغير الله، لعنَ الله من لعنَ الله من والديه، لعنَ الله من آوى مُحَدَّثاً، لعنَ الله من غيرَ مَنَارِ الأرض» رواه مسلم.

[٤٦/ب]

ش: رواه مُسلم من طُرُقٍ، وفيه قصة^(٢).

ورواه الإمام أحمد كذلك، عن أبي الطفيل، قال: قُلْنَا لعلی: أخبرنا بشيءٍ أسره إليك رسولُ الله ﷺ، فقال: ما أسرَّ إلى شيئاً كتمه الناس، ولكن سمعته يقول: «لعنَ الله من ذبح لغير الله، ولعنَ الله من آوى مُحَدَّثاً، ولعنَ الله من لعنَ والديه، ولعنَ الله من غيرَ تُخُومِ الأرض. يعنى: المنار»^(٣).

وعلى بن أبي طالب: هو الإمام، أمير المؤمنين، أبو الحسن الهاشمي، ابنُ عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء.

وكان من أسبق السابقين الأولين، ومن أهل بدر وبيعة الرضوان، وأحد

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٦ / ٥٣١).

(٢) مسلم في «الصحیح» رقم (١٩٧٨).

(٣) أحمد في «المسند» (١ / ١٠٨، ١١٨، ١٥٢)، وهو إحدى روايات مسلم في «الصحیح».

العشرة المشهود لهم بالجنة، ورابع الخلفاء الراشدين، ومناقبه مشهورة رضى الله تعالى عنه. قتله ابن ملجم الخارجي، في رمضان سنة أربعين.

قوله: «لعن الله» اللعنة: البعد عن مظان الرحمة، ومواطنها. قيل: واللعين والملعون: من حقت عليه اللعنة، أو دُعِيَ عليه بها. قال أبو السعادات: أصل اللعن: الطرد والإبعاد [من الله، ومن الخلق: السب والدعاء] (١) (٢).

قال شيخ الإسلام: ما معناه: إنَّ الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول؛ كما يصلى سبحانه على من استحق الصلاة من عباده، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٣ - ٤٤] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤] وقال: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١].

والقرآن كلامه تعالى، أوحاه إلى جبرائيل عليه السلام وبلغه رسوله محمداً ﷺ، وجبرائيل سمعه منه، كما سيأتى فى الصلاة إن شاء الله تعالى.

[فالصلاة ثناء الله تعالى]، كما تقدم. فالله تعالى هو المصلى وهو المُتَّيَّب، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وعليه سلف الأمة. قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: لم يزل الله متكلماً إذا شاء.

قوله: «من ذبح لغير الله» قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى - فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] - : ظاهره: أنه ما ذُبح لغير الله، مثل أن يُقال: هذا ذبيحةٌ لكذا.

وإذا كان هذا هو المقصود، فسواء لفظ به أو لم يلفظ. وتحريمُ هذا أظهر من [١/٤٧] تحريم ما ذبحه للحم، وقال فيه: باسم المسيح/ ونحوه؛ كما أنَّ ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أركى وأعظم مما ذبحناه للحم، وقلنا عليه: بسم الله. فإذا حُرِّم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك، أولى؛ فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله.

(١) ساقط من الأصل.

(٢) ابن الأثير، «النهاية فى غريب الحديث» (٤/ ٢٥٥).

وعلى هذا: فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه لحرم، وإن قال فيه: باسم الله. كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، الذين قد يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك.

وإن كان هؤلاء مرتدين، لا تُباح ذبيحتهم بحال. لكن يجتمع في الذبيحة مانعان، الأول: أنه مما أهل به لغير الله. والثاني: أنها ذبيحة مُرتد.

(١) قلت: هذا لا اختلاف [فيه] (٢)، بين العلماء. وأما إذا ذبح للحم وذكر على الذبيحة اسم المسيح أو الزهرة ونحو ذلك، فهذا الذي فيه خلاف العلماء. وكلام شيخ الإسلام هذا: يدل على أنه يقول بتحريمه، ووافقه على ذلك بعض العلماء. وذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾. [الأنعام: ١٢١]: ثم استثنى قوله: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ [المائدة: ٥]. يعنى: ذبيحة اليهودى والنصرانى، وإن كان النصرانى يقول عند الذبح بسم المسيح. واليهودى يقول: بسم عزيز. وذكر قول عطاء: كُل من ذبيحة النصرانى وإن قال: بسم المسيح؛ لأن الله تعالى قد أباح ذبائحهم، وقد علم ما يقولون. وذكر مثله عن القاسم بن مُخَيَّمَة (٣)، وهو قول الزهرى، وربيعه، والشعبى، ومكحول. وروى عن عبادة بن الصَّامِت، وأبى الدرداء من الصحابة. انتهى مُلخصاً (٤).

ثم قال (٥) ومن هذا الباب: ما يفعله الجاهلون بمكة، من الذبح للجن. ولهذا روى عن النبى ﷺ: أنه نهى عن ذبائح الجن (٦). انتهى (٧).

(١) من هنا ساقط من (ض) و(هـ) و(ط) ومثبت فى (م) ومعلق فى هامش الأصل وعليه كلمة صح.

(٢) ساقط من الأصل.

(٣) أبو حُرَّة، الهمدانى الكوفى، ثقة فاضل ت (١٠٠هـ) «تقريب التهذيب» (٤٥٢).

(٤) «تفسير القرطبي» ٦/ ٧٦.

(٥) إلى هنا ساقط من (ض) و(هـ) و(ط).

(٦) أخرجه ابن الجوزى فى «الموضوعات الكبرى» ٢/ ٣٠٢ من حديث أبى هريرة، وقال: فيه عبد الله بن أذينة. وذكره الذهبى فى «الميزان» ٢/ ٣٩١ معزواً إلى ابن حبان، وأخرجه البيهقى فى «السنن» ٩/ ٣١٤ مرسلًا.

(٧) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» ٢/ ٥٦٣.

قال الزمخشري: كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً، ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تُصيبهم الجن، فأضيفت إليهم الذبائح لذلك.

وذكر إبراهيم المروزي^(١): أن ما ذُبح عند استقبال السلطان تقريباً إليه، أفتى أهل بخارى بتحريمه؛ لأنه مما أهل لغير الله^(٢).

قوله: «لعن الله من لعن والديه» يعني أباه وأمه، وإن علياً. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم، يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه»^(٣).

قوله: «لعن الله من آوى مُحَدَّثاً». هو بفتح الهمزة، معدودة: أي ضمه إليه، وحماه أن يؤخذ منه الحق الذي وجب عليه.

قال أبو السعادات: أويّت إلى المنزل، وأويت غيري، وآويته. وأنكر بعضهم المقصور المتعدى. وقال الأزهري: هي لغةٌ صحيحة.

وأما مُحَدَّثاً. فقال أبو السعادات: يُروى بكسر الدال وفتحها، على الفاعل والمفعول. فمعنى الكسر: من نصرَ جانباً وآواه وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يُقتصَّ منه. والفتح: هو الأمر المُبتدع نفسه، ويكون معنى الإيواء فيه: الرضى به والصبر عليه. فإنه إذا رضى بالبدعة، وأقرَّ فاعلها ولم يُنكر عليه فقد آواه^(٤).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: هذه الكبيرة، تختلف مراتبها باختلاف مراتب [٤٧/ب] الحدّث بنفسه. فكلّما كان الحدّث في نفسه أكبر، كانت الكبيرة أعظم.

قوله: لعن الله من غير منار الأرض بفتح الميم: علاماتُ حدودها. قال في (النهاية): أي: معالمها وحدودها، واحدها تخم. قيل: أراد حدود الحرم خاصة،

(١) أبو إسحاق، إبراهيم بن عبد الله بن أحمد الحلال. صدوق ت (٢٤١هـ). «تقريب» (٩٠).

(٢) ذكره النووي في «المنهاج» (١٣ / ١٤١).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٥٩٧٣)، ومسلم في الصحيح رقم (٩٠) وأحمد في «المسند» (٢ /

١٦٤) من حديث ابن عمرو.

(٤) ابن الأثير، «النهاية في غريب الحديث» (٨٢ / ١)، (٣٥١).

وقيل: هو عامٌ في جميع الأرض، وأراد: المعالم التي يُهتدى بها في الطريق.
وقيل: هو أن يدخل الرجلُ في مُلك غيره، فيقتطعه ظُلماً. قال: وروى: تخوم.
بفتح التاء، على الأفراد. وجمعه تُخُم، بضم التاء والحاء. انتهى^(١).

وتغيرُها: أن يُقدِّمها، أو يؤخرها. فيكون هذا من ظلم الأرض، الذي قال فيه
النبي ﷺ: «من ظلم شبراً من الأرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين»^(٢)
ففيه: جوازُ لعن أهل الظلم، من غير تعيين.

وأما لعنُ الفاسق المعين: ففيه قولان، أحدهما: أنه جائز. اختاره ابنُ
الجوزي، وغيره. والثاني: لا يجوز، اختاره أبو بكر عبد العزيز^(٣)، وشيخ
الإسلام.

^(٤) وقال النووي رحمه الله تعالى: ^(٥) «واتفق العلماء على تحريم اللعن؛ فإنه في
اللغة: الابعادُ، والطرْدُ. وفي الشرع: الابعادُ من رحمة الله.

فلا يجوز أن يُبعد من رحمة الله، من لا يُعرف حاله وخاتمة أمره معرفةً قطعية.
فلهذا قالوا: لا يجوز لعن أحدٍ بعينه، مُسليماً كان أو كافراً أو دابة. إلا من علمنا
بنصٍّ شرعي أنه مات على الكفر، أو يموت عليه كأبي جهل وإبليس.

وأما اللعنُ بالوصف، فليس بحرام. كلُّ من: الواصلة والمستوصلة، والواشمة
والمستوشمة، وأكل الربا وموكله، والمصورين، والظالمين، والفاسقين،
والكافرين، ولعن من غيَّر منار الأرض، ومن تولَّى غير مواليه، ومن انتسب إلى
غير أبيه، ومن أحدث في الإسلام حَدَثاً أو آوى محدثاً. وغير ذلك، مما جاءت
النصوص الشرعية بإطلاقه على الأوصاف لا على الأعيان، والله أعلم^(٦) ^(٧).

(١) ابن الأثير، «النهاية في غريب الحديث» (١/ ١٨٣)

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٢٤٥٣)، ٩٣١٩٥، ومسلم في «الصحيح» رقم (١٦١٢)، وأحمد في
«المسند» (٦/ ٦٤، ٧٩، ٢٥٢، ٢٥٩) من حديث عائشة.

(٣) عبد العزيز بن جعفر بن أحمد، المعروف بغلام الخلال، فقيه محدث (ت ٣٦٣هـ). «طبقات الحنابلة» (٢/ ١١٩).

(٤) من هنا ساقط من (هـ) و(ط)، ومثبت في (ض) و(م) ومعلّق في هامش الأصل، وعليه كلمة صح.

(٥) (ض): و. ساقطة.

(٦) النووي «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (٢/ ٦٧).

(٧) إلى هنا ساقط من (هـ) و(ط).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجلٌ في ذُباب، ودخل النار رجلٌ في ذُباب»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مرَّ رجلان على قوم لهم صنمٌ لا يجاوزُهُ أحدٌ حتى يُقَرَّبَ له شيئاً. قالوا لأحدهما: قَرِّب، قال: ليس عندي شيءٌ أَقَرِّب، قالوا له: قَرِّب ولو ذُبَاباً، فقَرَّبَ ذُبَاباً، فخلَّوْا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قَرِّب، قال: ما كنتُ لأَقَرِّب لأحدٍ شيئاً دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة» رواه أحمد^(١).

ثم: قال ابن القيم رحمه الله تعالى: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب يرفعه، قال: «دخل الجنة رجلٌ في ذُباب» الحديث^(٢).

وطارق بن شهاب: هو البجليّ الأحمسي، أبو عبد الله. رأى النبي ﷺ وهو رجل. قال البغوي: ونزل الكوفة. وقال أبو داود: رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً. قال الحافظ: إذا ثبت أنه رأى النبي ﷺ فهو صحابي، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه، فروايته عنه مُرسَلٌ صحابي، وهو مقبولٌ على الراجح. وكانت وفاته - على ما جزم به ابنُ حبان - سنة ثلاث وثمانين^(٣).

قوله: «دخل الجنة رجلٌ في ذُباب» أي: من أجله [لأن في تأني للتعليل].
قوله: (قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟) كأنهم تَقَالَوْا ذلك، وتعجَّبوا منه.
[٢/٤٨] فبيّن لهم النبي ﷺ: ما صيّر لهم هذا الأمر الحَقِيرَ عندهم/ عظيمًا، يستحق هذا عليه الجنة، ويستوجب الآخر عليه النار.
قوله: فقال: «مرَّ رجلان على قومٍ لهم صنمٌ الصنم: ما كان منحوتاً على صورة.

(١) أحمد في «كتاب الزهد» (٢٢/٢)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٠٣/١) كلاهما موقوفاً على سلمان الفارسي.

(٢) ابن القيم، «الجواب الكافي» (٣٦)، وقال الحافظ، سليمان بن عبد الله في «تيسير العزيز الحميد» (١٩٤) ذكره المصنّف معزواً لأحمد، وأظنه تبع ابن القيم في عزوه لأحمد. وقد طالعتُ «المستند» فما رأيته فيه!

(٣) ابن حجر، «الاصابة» (٢/٢٢٠).

قوله: «لا يُجاوزهُ» أى: لا يمرُّ به ولا يتعداه أحدٌ، حتى يقربَ له شيئاً وإن قلَّ.

قوله: «قالوا له: قرب ولو ذباباً، ففرب ذباباً فخلوا سبيله، فدخل النار» وفى هذا: بيانُ عظمة الشرك، ولو فى شيء قليل، وأنه يوجب النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وفى هذا الحديث: الحذرُ من الوقوع فى الشرك، وأنَّ الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدري أنه من الشرك الذى يوجبُ النار.

وفيه: أنه دخل النار بسببٍ لم يقصده ابتداءً، وإنما فعله تخلصاً من شر أهل الصنم.

وفيه: أنَّ ذلك الرجل كان مسلماً قبل ذلك، وإلا فلو لم يكن مسلماً لم يقل: دخل النار فى ذباب.

وفيه: أنَّ عمل القلب هو المقصودُ الأعظم، حتى عند عبدة الأوثان. ذكره المصنّف بمعناه^(١).

قوله: «وقالوا للآخر: قرب». قال: ما كنتُ لأقربُ لأحدٍ شيئاً دون الله عز وجل» ففيه: بيانُ فضيلة التوحيد والإخلاص، والصلابة فى الدين. وفيه: معنى قوله فى الحديث: «وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف فى النار»^(٢) ^(٣).

قال المصنّف: وفيه: معرفةُ قدر الشرك فى قلوب المؤمنين، كيف صبر على القتل ولم يوافقهم، مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر^(٤).

(١) المسائل: التاسعة، والحادية عشرة، والثالثة عشرة.

(٢) ما بينهما ساقطٌ من (هـ) و(ط) ومعلّق فى هامش الأصل، وعليه كلمة صح.

(٣) قطعة من حديث: أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١) ومسلم فى «الصحيح»

رقم (٤٣) من حديث أنس.

(٤) المسألة العاشرة.

(١٠)

باب

لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله.

ش: لا: نافية، ويَحتمل أنها للنهي، وهو أظهر.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا، لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

ش: قال المُفسِّرون: إنّ الله تعالى نهى رسوله ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار، والأمة تبع له في ذلك.

ثم إنه تعالى حثّه على الصلاة في مسجد قُباء، الذي أُسِّس من أوّل يوم بُنى على التقوى، وهى طاعةُ الله ورسوله ﷺ، وجمعاً لكلّمة المؤمنين، ومعقلاً ومنزلاً للإسلام وأهله؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: أنّ رسول الله ﷺ، قال: «صلاةٌ في مسجد قُباء كعمرة»^(١). وفي الصحيح: أنّ رسول الله ﷺ كان [٤٨/ب] يزور قُباء راكباً وماشياً^(٢).

وقد صرّح أنّ المسجد المذكور في الآية هو مسجد قُباء جماعة من السلف، منهم: ابنُ عباس. وعروة، وعطية، والشَّعبى، والحسن وغيرهم.

(١) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٢٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه فى «السنن» رقم (١٤١١)، وقال المنذرى فى «الترغيب» (٢/ ٢١٧): حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١١٩١، ١١٩٣، ١١٩٤، ٧٣٢٦)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٣٩٩) من حديث ابن عمر.

قلتُ: ويؤيده، قوله: ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ الآية. وقيل: هو مسجدُ رسول الله ﷺ؛ لحديث أبي سعيد، قال: تَمَارَى رَجُلَانِ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: هُوَ مَسْجِدُ قُبَاءَ، وَقَالَ الْآخَرُ: هُوَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ مَسْجِدِي هَذَا» رواه مسلم (١). وهو قولُ عمر، وابنه، وزيد بن ثابت، وغيرهم.

وقال ابنُ كثير: وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية والحديث؛ لأنه إذا كان مسجدُ قباء قد أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، فَمَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بطريق الأولى (٢). وهذا بخلاف مسجد الضَّرَّارِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

فلهذه الأمور، نهى الله نبيه ﷺ عن القيام فيه للصلاة. وكان الذين بنوه جازوا إلى النبي ﷺ قبل خروجه إلى غزوة تبوك، فسألوه أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ، وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية. فقال: «إِنَّا عَلَى سَفَرٍ، وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فلَمَّا قَفَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا يَوْمٌ أَوْ بَعْضُهُ نَزَلَ الْوَحْيُ بِخَبَرِ الْمَسْجِدِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ، فَهَدَمَهُ قَبْلَ قُدُومِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ (٣).

ووجهُ مناسبة الآية للترجمة: أَنَّ الْمَوَاضِعَ الْمَعْدَّةَ لِلذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ يَجِبُ اجْتِنَابُ الذَّبْحِ فِيهَا لِلَّهِ؛ كما أَنَّ هَذَا الْمَسْجِدَ لَمَّا أُعِدَّ لِلْمَعْصِيَةِ صَارَ مُحَلًّا غَضَبٍ لِأَجْلِ ذَلِكَ، [١/٤٩] فَلَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ فِيهِ لِلَّهِ. وهذا قياسٌ صحيح، ويؤيده حديثُ ثابت بن الضحَّاك الآتي.

قوله: ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ روى الإمام أحمد، وابنُ خزيمة، وغيرُهما، عن عُوَيْمِ بْنِ سَاعِدَةَ الْأَنْصَارِيِّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَاهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ،

(١) مسلم في «الصحيح» رقم (١٣٩٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٢).

(٣) أخرجه ابنُ أسحاق في «المغازي» كما في «الدلائل» للبيهقي (٥/ ٢٥٩) وابنُ مردويه كما في «الدر» (٣/ ٢٧٦).

فقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ الشَّاءَ بِالطَّهَوْرِ فِي قِصَّةِ مَسْجِدِكُمْ، فَمَا هَذَا الطَّهَوْرُ الَّذِي تَطْهَرُونَ بِهِ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَعْلَمُ شَيْئاً، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لَنَا جِيرَانٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَكَانُوا يَغْسِلُونَ أَدْبَارَهُمْ مِنَ الْغَائِطِ، فَغَسَلْنَا كَمَا غَسَلُوا^(١). وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ جَابِرٍ، وَأَنْسٍ، «هُوَ ذَاكَ فَعَلِيكُمْوهُ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالدَّارِقُطْنِيُّ، وَالْحَاكِمُ^(٢).

قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ قال أبو العالية: إِنَّ الطهور بالماء الحسن، ولكنهم المتطهرون من الذنوب. وفيه: إثباتُ صفةِ المحبة، خلافاً للأشاعرة ونحوهم.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: عن ثابت بن الضحّاك، قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة، فسأل النبي ﷺ، فقال: «هل كان فيها وكَنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: لا. قال: «فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟» قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «أوفِ بنذرِكَ، فإنه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابنُ آدم». رواه أبو داود (٣)، وإسناده على شرطهما.

ش: قوله: (عن ثابت بن الضحاك). أى: ابن خليفة الأشهلي، صحابي مشهور. روى عنه أبو قلابة وغيره، مات سنة أربع وستين.

قوله: (ببؤنة). بضم الباء، وقيل: بفتحها. قال البغوي: موضعٌ في أسفل مكة، دون يَكْمَلَم. قال أبو السعادات: هضبةٌ من وراء يَنْبُع.

قوله: «هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟» فيه: المنعُ من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن، ولو بعد زواله. قاله المصنف رحمه الله^(٤).

قوله: «فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟» قال شيخ الإسلام: العيد: اسمٌ لما يعود - من الاجتماع العام - على وجهٍ مُعتاد، إما يعود السنة، أو يعود الأسبوع، والشهر ونحو ذلك.

(١) أحمد في «المسند» (٣/ ٤٢٢) واللفظ له، وابن خزيمة في «الصحيح» رقم (٨٣).

(٢) ابن ماجة في «السنن» رقم (٣٥٥) وابن أبي حاتم في «التفسير» كما في «الدر» (٣/ ٢٧٨) والدارقطني في

«السنن» (٦٢/١) والحاكم في «المستدرک» (٢/ ٣٣٤).

(٣) أبو داود في «السنن» رقم (٣٣١٣)، قال شيخ الإسلام في «الافتضاء» (١/ ٤٣٦) إسناده على شرط

المصحيحين .

(٤) المسألة السادسة .

والمراد به هنا: الاجتماع المعتاد، من اجتماع أهل الجاهلية. فالعيدُ يجمع أموراً منها: يومٌ عائِد، كيوم الفطر ويوم الجمعة، ومنها: اجتماعٌ فيه، ومنها: أعمالٌ [٤٩/ب] تتبع ذلك، من العبادات والعادات. وقد يختصُّ العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقاً. وكلُّ من هذه الأمور قد يُسمَّى عيداً. فالزمان، كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة: «إنَّ هذا يومٌ جعله الله للمسلمين عيداً»^(١). والاجتماعُ والأعمال، كقول ابن عباس: شهدتُ العيد مع رسول الله ﷺ^(٢).

والمكان، كقوله ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيداً»^(٣) وقد يكون لفظُ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه، وهو الغالب؛ كقول النبي ﷺ: «دعهما يا أبا بكر؛ فإنَّ لكل قوم عيداً»^(٤). انتهى^(٥).

قال المُصنَّفُ: وفيه: استفصالُ المفتى، والمنعُ من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية، ولو بعد زواله^(٦).

قلتُ: وفيه سدُّ الذريعة، وتركُ مشابهة المشركين، والمنعُ مما هو وسيلة إلى ذلك.

قوله: «أوف بنذرك» هذا يدلُّ على أنَّ الذبح لله في المكان الذي يذبح فيه المشركون لغيره، أو في محل أعيادهم، معصية؛ لأن قوله: «أوف بنذرك»^(٧) تعقيبٌ للوصف بالحكم بالفاء، وذلك يدلُّ على أنَّ الوصف سببُ الحكم، فيكون سببُ الأمر بالوفاء خلَّوه عن هذين الوصفين.

(١) أخرجه ابن ماجة في «السنن» رقم (١٠٩٨)، قال البوصيري في «مصابيح الزجاجة» (١/ ٣٦٧): فيه صالح ابن أبي الأخضر، ليئة الجمهور، وباقى رجال الاسناد ثقات.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٩٧٧، ٥٤٩٩).

(٣) أخرجه أبو يعلى في «المستند» رقم (٤٦٩) من حديث علي. وسيأتي بقية تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٩٥٢، ٩٨٧، ٣٥٢٩، ٣٩٣١) ومسلم في «الصحيح» رقم (٨٩٢) من حديث عائشة.

(٥) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٤١).

(٦) المسائلتان: الرابعة، والسابعة.

(٧) من حديث كردم الثقفي.

فلما قالوا: لا. قال: «فأوف بنذكرك» وهذا يقتضى أن كون البقعة مكاناً لعيدهم، أو بها وثنٌ من أوثانهم: مانعٌ من الذبح بها، ولو نذر. قاله شيخ الإسلام^(١).

قوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله» دليلٌ على أن هذا نذرٌ معصية، لو قد وجد في المكان بعضُ الموانع. وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به، بإجماع العلماء.

واختلفوا: هل تجب فيه كفارةٌ يمين؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد.

أحدهما: تجب، وهو المذهب. وروى عن ابن مسعود، وابن عباس. وبه قال أبو حنيفة، وأصحابه؛ لحديث عائشة مرفوعاً: «لا نذر في معصية، وكفارته كفارةٌ يمين» رواه أحمد، وأهل السنن^(٢). واحتج به أحمد، وإسحاق^(٣).

الثاني: لا كفارة عليه. روى ذلك عن مسروق، والشعبي، والشافعي؛ لحديث الباب، ولم يذكر/ فيه كفارة. وجوابه: أنه ذكر الكفارة في الحديث المتقدم، [١/٥٠] والمطلق يُحمل على المقيد.

قوله: «ولا فيما لا يملك ابن آدم» في (شرح المصابيح): يعنى إذا أضاف النذر إلى معينٍ لا يملكه، بأن قال: إن شفى الله مريضى، فله على أن أعتق عبدَ فلان، ونحو ذلك. فأماً إذا التزم في الذمة شيئاً؛ بأن قال: إن شفى الله مريضى فله على أن أعتق رقبة، وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها، فإذا شفى الله مريضه ثبت ذلك في ذمته.

(١) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٤١)

(٢) أحمد في «المسند» (٦/ ٢٤٧)، وأبو داود في «السنن» رقم (٣٢٩٠، ٣٢٩١)، والترمذى في «الجامع» رقم (١٥٢٤) وقال: هذا حديث لا يصح؛ لأن الزهري لم يسمع هذا الحديث من أبي سلمة، ورقم (١٥٢٥) وقال: هذا حديث غريب وهو أصح. وله شاهد من حديث ابن عباس: أخرجه أبو داود في «السنن» رقم (٣٣٢٢) قال ابن حجر في «التلخيص» (٤/ ١٨٦): حديث حسن.

(٣) «الجامع» للترمذى (٥/ ٢٤٣).

قوله: (رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما) - أى: البخارى ومسلم.
وأبو داود: اسمه سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدى
السجستانى، صاحب الإمام أحمد، ومصنف (السنن)^(١) و(المراسيل)^(٢) وغيرهما،
ثقة إمام حافظ، من كبار العلماء، مات سنة خمس وسبعين ومائتين.

(١) مطبوع، برواية اللؤلؤى.

(٢) مطبوع محقق، برواية اللؤلؤى أيضاً.

(١١)

باب

من الشرك النذر لغير الله

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب: من الشرك النذر لغير الله.

ش: أى: لكونه عبادةً يجب الوفاء به إذا نذره الله، فيكون النذر لغير الله شركاً فى العبادة.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

ش: فالآية دلّت على وجوب الوفاء بالنذر، ومدح من فعل ذلك طاعةً لله، ووفاءً بما تقرب به إليه.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

ش: قال ابنُ كثير: يخبر تعالى بأنه عالمٌ بجميع ما يعملُه العاملون [من الخيرات] (١)، من النفقات والمنذورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه (٢).

إذا علمت ذلك: فهذه النذور الواقعة من عبّاد القبور، تقريباً بها إليهم، ليقضوا لهم حوائجهم أو ليشفعوا لهم، هذا شركٌ فى العبادة بلا ريب؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا

(١) إضافة من (ط) و«التفسير».

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٧٢).

لشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ اللَّهُ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿[الأنعام: ١٣٦].

قال شيخ الإسلام: وأما ما نُذِرُ لغير الله، كالنذر للأصنام والشمس والقمر
[٥٠/ب] والقبور ونحو ذلك، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات/. والحالفُ
بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة، وكذلك الناذر للمخلوقات، فإن كلاهما
شرك.

ليس له حرمة. بل عليه أن يستغفر الله من هذا، ويقول ما قال النبي ﷺ:
«من حلف باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله»^(١).

وقال فيمن نذر للقبور ونحوها دهنًا لتَنُورَ به - ويقول: إنها تقبل النذر كما
يقوله بعض الضالين -: وهذا النذر معصيةٌ باتفاق المسلمين، لا يجوز الوفاء به،
وكذلك إذا نذر مالاً للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة، فإن فيهم شبهاً
من السدنة التي كانت عند اللات والعزى ومناة. يأكلون أموال الناس بالباطل،
ويصدون عن سبيل الله.

والمجاورون هناك فيهم شبهٌ من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام: ﴿مَا هَذِهِ
التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ؟﴾ [الأنبياء: ٥٢]، والذين اجتاز بهم موسى وقومه؛
قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ
لَهُمْ﴾. [الأعراف: ١٣٨].

فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع نذرٌ معصية. وفيه شبهٌ من
النذر لسدنة الصُّلبان والمجاورين عندها، أو لسدنة الأبداد^(٢) التي في الهند
والمجاورين عندها.

وقال الأذرعي^(٣) في (شرح المنهاج): وأما النذر للمشاهد التي على قبر وليٍّ أو
شيخ، أو على اسم من حلَّها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٦٦٥٠)، ومسلم في «الصحيح» رقم (١٦٤٧).

(٢) الأبداد: جمع بُد، وهو الصنم.

(٣) أبو العباس، أحمد بن حمدان بن أحمد بن عبد الوهاب، فقيه شافعي (ت ٧٨٣هـ). «الدرر الكامنة» (١)/

(١٢٥).

والصالحين: فإن قصد الناذر بذلك - وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة - تعظيم البقعة والمشهد، أو الزاوية، أو تعظيم من دُفن بها، أو نُسبت إليه، أو بنيت على اسمه، فهذا النذر باطلٌ غيرُ منعقد. فإنَّ معتقدهم أنَّ لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يُدفع به البلاء ويُسْتَجْلَب به النعماء، ويُسْتَشْفَى بالنذر لها من الأدواء. حتى إنهم يندرون لبعض الأحجار؛ لما قيل: إنه استند إليها عبدٌ صالح، ويندرون لبعض القبور: السُّرَج والشموع، والزيت/.

[١/٥١]

ويقولون: القبرُ الفلاني، أو المكان الفلاني يقبلُ النذر، يعنون بذلك: أنه يحصل [به]^(١) الغرض المأمول: من شفاء مريض، أو قدوم غائب وسلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة. فهذا النذر على هذا الوجه باطلٌ لا شك فيه، بل نذرُ الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطلٌ مطلقاً.

ومن ذلك: نذرُ الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء. فإنَّ الناذر لا يقصد بذلك إلا الإيقاد على القبر تبرُّكاً وتعظيماً، ظاناً أنَّ ذلك قربة. فهذا مما لا ريب في بطلانه، والإيقاد المذكور محرَّم، سواء انتفع به هناك منتفعٌ أم لا.

وقال الشيخ قاسمُ الحنفى فى (شرح دُرر البحار)^(٢): النذرُ الذى يندره أكثرُ العوام على ما هو مشاهدٌ: كأن يكون لإنسان غائبٌ أو مريض، أو له حاجة، فيأتى إلى [قبر]^(٣) بعض الصُّلحاء ويجعل على رأسه سِتْرَةً، ويقول: يا سيدى فلان!، إن رَدَّ الله غائبي، أو عوفى مريضى، أو قضيت حاجتى، فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت كذا.

فهذا النذرُ باطلٌ بالاجماع؛ لوجوه:

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) القاسم بن قطلوبغا بن عبد الله المصرى، فقيه حنفى ت (٨٧٩)، له «شرح درر البحار» ليوسف القونوى (ت

٧٨٨) فى الفروع. «هدية العارفين» (١/ ٨٣٠).

(٣) إضافة من «الانتصار لحزب الله» (٧٥).

منها: أنه نذرٌ لمخلوق، والنذرُ للمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أنَّ المندور له ميتٌ، والميت لا يملك.

ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرفُ في الأمور دون الله، واعتقاد ذلك كفر.

إلى أن قال: إذا علمت هذا، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها ويُنقل إلى ضرائح الأولياء، تقريباً إليهم: فحرامٌ بإجماع المسلمين.

نقله عنه ابنُ نجيم^(١) في (البحر الرائق)^(٢). ونقله المرشديُّ في (تذكرته)، وغيرهما عنه، وزاد: وقد ابتلى الناس بهذا، لا سيما في مولد البدوي^(٣).

وقال الشيخُ صنع الله الحلبي الحنفي^(٤) - في الردِّ على من أجاز الذبيح والنذر للأولياء -: فهذا الذبيح والنذر إن كان على اسم فلان، فهو لغير الله، فيكون باطلاً؛ وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي / وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]. والنذرُ لغير الله إشراكٌ مع الله، كالذبيح لغيره^(٥).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفي الصحيح، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه»^(٦).

ش: قوله: في (الصحيح). أي: (صحيح البخاري).

قوله: (عن عائشة): هي أم المؤمنين، زوجُ النبي ﷺ، وابنة الصديق رضي الله عنهما. تزوجها النبي ﷺ وهي ابنة سبع سنين، ودخل بها وهي ابنة تسع.

(١) زين الدين بن إبراهيم بن محمد، فقيه حنفي (ت ٩٧٠هـ) «شذرات الذهب» (٨ / ٣٥٨).

(٢) ابن نجيم، «البحر الرائق شرح كنز الدقائق» (٢ / ٣٢٠ - ٣٢١هـ).

(٣) أبو العباس، أحمد بن علي البري البدوي، ولد عام ٥٩٦هـ وملك، سنة ٦٧٥هـ، من مجاذيب الصوفية، لاعلم ولا دين، له قبر في طندتا (طنطا) يطاف به ويذبح له ويقام فيه المولد كل عام، نعوذ بالله من الخذلان.

ينظر «شذرات الذهب» (٥ / ٣٤٥).

(٤) ابن صنع الله المكِّي، الواعظ بها (ت ١١٢٠هـ) «هدية العارفين» (١ / ٤٢٨) «إيضاح المكنون» (٢ / ٣٥).

(٥) «سيف الله على من كذب على أولياء الله» للشيخ صنع الله الحلبي، ورقة (١١).

(٦) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٦٦٩٦، ٦٧٠٠).

وهي أفقه النساء مطلقاً، وأفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة، ففيها خلاف.
ماتت سنة سبع وخمسين، على الصحيح.

قوله: «من نذر أن يطيع الله فليطعه» أي: فليفعل ما نذره من طاعة الله، وقد
أجمع العلماء على أن من نذر طاعة بشرط يرجوه، كأن شفى الله مريضاً فعلى أن
أتصدق بكذا، ونحو ذلك وجب عليه، إن حصل على ما علق نذره على
حصوله^(١).

وحكى عن أبي حنيفة: أنه لا يلزمه الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع،
كالصوم. وأما ما ليس كذلك، كالاعتكاف فلا يوجب عليه الوفاء به.

قوله: «ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه» زاد الطحاوي «وليكفر عن يمينه»^(٢)
وقد أجمع العلماء: أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية.

قال الحافظ: اتفقوا على تحريم النذر في المعصية، وتنازعوا: هل ينعقد موجباً
للكفارة، أم لا؟^(٣)، وتقدم.

وقد يستدل بالحديث على صحة النذر في المباح، كما هو مذهب أحمد وغيره،
يؤيده: ما رواه أبو داود - عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده - وأحمد،
والترمذي، عن بريدة: أن امرأة قالت: يا رسول الله، إني نذرت أن أضرب على
رأسك بالدف، فقال: «أوفى بنذرك»^(٤).

وأما نذر اللجاج والغضب: فهو يمين عند أحمد، فيخير بين فعله وكفارة
يمين؛ لحديث عمران بن حصين مرفوعاً: «لا نذر في غضب، وكفارته كفارة
يمين». رواه سعيد [بن منصور]^(٥)، وأحمد، والنسائي^(٦). فإن نذر مكروهاً
كالطلاق/ استحب أن يكفر، ولا يفعله.

[١/٥٢]

(١) الأصل و(ض) و(هـ) بزيادة وهو قول جمهور العلماء.

(٢) الطحاوي في «مشكل الآثار» (٤٣/٣).

(٣) ابن حجر، «فتح الباري» (١١/٥٨٧).

(٤) أبو داود في «السنن» رقم (٣٣١٢) وأحمد في «المسند» (٥/٣٥٣، ٣٥٦) «والفضائل» رقم (٤٨٠).

والترمذي في «الجامع» (٣٦٩١) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٥) إضافة من (هـ) و(ط).

(٦) أحمد في «المسند» (٤/٤٣٣، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٣)، والنسائي في «المجتبى» (٧/٢٨، ٢٩).

(١٢)

باب

من الشرك الاستعاذة بغير الله

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابٌ من الشرك الاستعاذة بغير الله.

ش: الاستعاذة: الالتجاء والاعتصام؛ ولهذا يُسمّى المستعاذُ به: معاذاً وملجأً. فالعائذُ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه، إلى ربه ومالكه، واعتصم به واستجار، والتجأ إليه. وهذا تمثيل، وإلا فيما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله، والاعتصام به، والاطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل [له]^(١)، أمرٌ لا تحيط به العبارة. قاله ابن القيم رحمه الله^(٢).

وقال ابن كثير: الاستعاذة: هي الالتجاء إلى الله، والالتصاقُ بجنابه من شرِّ كلِّ ذى شر. والعياذُ يكون لدفع الشر، واللياذ لطلب الخير. انتهى^(٣).

قلت: وهي من العبادات التي أمر الله تعالى عباده بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] وأمثال ذلك في القرآن كثير، كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فما كان عبادة لله فصرّفه لغير الله شرك.

فمن صرف شيئاً من هذه العبادات لغير الله فقد جعله الله شريكاً في عبادته، ونارَعَ الرب في إلهيته؛ كما أنَّ من صلّى لله وصلّى لغيره يكون عابداً لغير الله، ولا فرق، كما سيأتى تقريره قريباً إن شاء الله.

(١) إضافة من (هـ) و(ط).

(٢) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٣).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾. [الجن: ٦].

ش: قال ابن كثير: [أى]^(١): كما نرى أنَّ لنا فضلاً على الإنس، لأنهم كانوا يعوذون بنا. أى: [إذا] نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً - كما كانت عادةُ العربى فى جاهليتها - [يعوذون] بعظيم ذلك المكان من الجن أن يصيبهم شىءٌ بسوء.

^(٢) وذلك أنَّ الرجل من العربى كان إذا أمسى بوادٍ قفر، وخاف على نفسه، قال: أعوذ بسيد هذا الوادى من سُفهاء قومه. يريدُ كبيرَ الجن^(٣)!!

قال مجاهد: كانوا إذا هبطوا وادياً يقولون: نعوذ بعظيم هذا الوادى. ﴿فزادوهم رهقاً﴾. قال: زادوا الكفار طغياناً. رواه عبدُ بن حميد، وابن المنذر^(٣) (٤).

وقال ابن كثير: لما رأت الجنُّ أنَّ الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، زادوهم رهقاً. أى: خوفاً وإرهاباً وذعراً؛ حتى يبقوا أشدَّ منهم مخافةً، وأكثر تعوداً بهم.^(٥) كما قال السدى: (٦) كان الرجلُ يخرج بأهله، فيأتى الأرض فينزلها، فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن، أن أضُرَّ فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى. [٥٢/ب] قال: / فإذا عاذ بهم من دون الله، رهقَتهم الجنُّ الأذى عند ذلك.

وذكر عن ابن أبى حاتم - بسندٍ إلى عكرمة - نحو ذلك^(٥). انتهى^(٧).

وقد أجمع العلماء: على أنَّه لا يجوز الاستعاذة بغير الله.

وقال ملا على قارى الحنفى^(٨): لا تجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذمَّ الله الكافرين

(١) إضافة من (هـ) و(ط) و«التفسير».

(٢) ما بينهما فى (هـ) و(ط) بعد قوله: لما رأت الجن.

(٣) هذا الأثر ساقطٌ من (هـ) و(ط).

(٤) عبد بن حميد، وابن المنذر فى «التفسير» كما فى «الدر المشور» (٦/ ٢٧٢).

(٥) ما بينها. ساقطٌ من (هـ) و(ط).

(٦) الأصل و(ض) و(م): فتادة والمثبت من «التفسير».

(٧) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٦).

(٨) أبو الحسن، على بن سلطان محمد القارى الهروى، فقيه حنفى (ت ١٠١٤ هـ) «اليدر الطالع» (١/ ٤٤٥).

على ذلك - وذكر الآية - وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ . [الأنعام: ١٢٨].

فاستمتع الإنسى بالجنى: فى قضاء حوائجه، وامتنال أوامره، وإخباره بشئ من المغيبات. واستمتع الجنى بالإنسى: تعظيمه إياه، واستعاذته به وخضوعه له. انتهى ملخصاً.

قال المصنف: وفيه: أن كون الشئ يحصل به منفعة دنيوية، لا يدل على أنه ليس من الشرك^(١).

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن خولة بنت حكيم، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ نَزَلَ مِنْزَلاً، فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ: لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» رواه مسلم^(٢).

ش: هى خولة بنت حكيم بن أمية السلمية، يقال لها: أم شريك، ويقال: إنها هى الواهة، وكانت قبلُ تحت عثمان بن مظعون.

قال ابن عبد البر: وكانت سالحة فاضلة.

قوله: «أعوذ بكلمات الله التامات» شرع الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به، بدلاً عما يفعلهُ أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن. فشرع الله للمسلمين أن يتعوذوا بأسمائه وصفاته.

قال القرطبي: قيل: معناه: الكاملات التى لا يلحقها نقص ولا عيب، كما يلحق كلام البشر. وقيل: معناه: الشافية الكافية. وقيل: الكلمات هنا هى القرآن، فإن الله أخبر عنه بأنه «هُدًى وَشِفَاءٌ». [فصلت: ٤٤] وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى.

ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى، كان من باب المندوب إليه المرغَّب

(١) المسألة الخامسة.

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٧٠٨).

فيه . وعلى هذا، فحقُّ المستعِذ بالله تعالى وبأسمائه وصفاته : أن يَصْدُقَ الله في [١/٥٣] التجائه إليه، وتوكل في ذلك عليه، ويُحْضِر ذلك في قلبه . فمتى فعل ذلك، / وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه .

قال شيخ الإسلام: وقد نصَّ الأئمة - كأحمد وغيره - على أنه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق . وهذا مما استدلُّوا به على أن كلامَ الله غيرُ مخلوق، قالوا: لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاوِذ التي لا يُعرف معناها، خشية أن يكون فيها شرك^(١) .

وقال ابن القيم: ومن ذبح للشيطان ودعاه، واستعاذ به، وتقرَّب إليه بما يُحب فقد عبده، وإن لم يسمَّ ذلك عبادة ويسميه استخداماً . وصدَّق، هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان . لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة؛ فإنَّ الشيطان لا يخضعُ له، ولا يعبدُه كما يفعل هو به^(٢) .

قوله: «من شر ما خلق» قال ابن القيم: أى: من كلِّ شرٍّ، فى أىِّ مخلوق قام به الشر: من حيوان أو غيره، إنسياً كان أو جنياً، أو هامةً أو دابة، أو ريحاً، أو صاعقة . أى نوع كان من أنواع البلاء، فى الدنيا والآخرة^(٣) .

وما: ها هنا موصولة، ليس إلا . وليس المرادُ بها العمومَ الإطلاقى، بل المراد التقييد الوصفى، والمعنى: من شرِّ كلِّ مخلوق فيه شرٌّ، لا من شر كل ما خلقه الله، فإنَّ الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شرٌّ^(٤) والشرُّ يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يُفْضى إليه .

قوله: «لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك» قال القرطبي: هذا خبرٌ صحيح وقول صادق، علمنا صدقه؛ دليلاً وتجربة!

(١) ابن تيمية: «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٣٦) .

(٢) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٣٥) .

(٣) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢/ ٢١٥) .

(٤) ما بينهما ساقط من الأصل . وهو انتقال نظر .

فإنى منذُ سمعتُ هذا الخبر عملت عليه، فلم يضرني شيءٌ إلى أن تركته،
فلدغتنى عقربٌ بالمهدية^(١) ليلاً. فتفكرتُ في نفسي، فإذا بي قد نسيتُ أن أتعوِّذَ
بتلك الكلمات.

(١) المهدية: مدينةٌ عامرةٌ ببلاد الأندلس السليب.

(١٣)

باب

من الشرك أن يستغيث بغير الله ، أو يدعو غيره

قال المصنّف رحمه الله تعالى : بابٌ من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره .
ش : قال شيخ الإسلام : الاستغاثة : هي طلبُ الغوث ، وهو إزالة الشدة ؛ كالاستنصار : طلبُ النصر . والاستعانة : طلبُ العون .
وقال غيره : الفرقُ بين الاستغاثة والدعاء : أنَّ الاستغاثة / لا تكون إلا من المكروب ، والدعاءُ أعمُّ من الاستغاثة ؛ لأنه يكون من المكروب وغيره . فعطفُ [٥٣/ب] الدعاء على الاستغاثة ، من عطف العامِّ على الخاص .
فبينهما عمومٌ وخصوص مُطلق ؛ يجتمعان في مادة ، وينفردُ الدعاء عنها في مادة . فكلُّ استغاثةٍ دعاء ، وليس كلُّ دعاءٍ استغاثة .
وقوله : (أو يدعو غيره) اعلم أنَّ الدعاء نوعان : دعاءُ عبادة ، ودعاءُ مسألة . ويُراد به في القرآن هذا تارة ، وهذا تارة ، ويُراد به مجموعهما .
فدعاءُ المسألة : هو طلبُ ما ينفع الداعي ، من جلب نفع أو كشف ضرر ولهذا أنكر الله على من يدعو أحداً من دونه ، ممن لا يملك ضرراً ولا نفعاً ؛ كقوله : ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُم ضَرَّاً وَلَا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ . [المائدة : ٧٦] ، وقوله : ﴿قُلْ أُنذِعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . [الأنعام : ٧١] .

(١) ابن تيمية ، «مجموع الفتاوى» (١/ ٣) .

وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾. [يونس: ١٠٦].

قال شيخ الإسلام: فكلُّ دعاءٍ عبادةٍ مستلزمٌ لدعاء المسألة، وكلُّ دعاءٍ مسألةٍ متضمنٌ لدعاء العبادة، قال الله تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. [الأعراف: ٥٥]، وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا أَنَا كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾. [الأنعام: ٤٠ - ٤١]، وقال: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾. [الحج: ١٨]، وقال: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾. [الرعد: ١٤]. وأمثالُ هذا في القرآن - في دعاء المسألة - أكثر من أن يُحصَرَ، وهو يتضمن دعاء العبادة؛ لأن السائل أخلص سؤاله لله، وذلك من أفضل العبادات، وكذلك الذاكِر لله. والتالي لكتابه ونحوه، طالبٌ من الله في المعنى، فيكون داعياً عابداً^(١).

فتبين بهذا قول شيخ الإسلام: أن دعاء العبادة مستلزمٌ لدعاء المسألة، كما أن [١/٥٤] دعاء المسألة متضمنٌ لدعاء العبادة.

وقد قال تعالى عن خليله: ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا *﴾. [مريم: ٤٨ - ٤٩]. فصار الدعاء من أنواع العبادة؛ فإن قوله: ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ كقول زكريا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾. [مريم: ٤٤].

وقد أمر الله تعالى [به]^(٢) في مواضع من كتابه، كقوله: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا

(١) ابن تيمية، "مجموع الصاوي" (١٥ - ١١).

(٢) ساقط من الأصل.

وَحُفْيَةً، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا
وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٥﴾ [الأعراف: ٥٥ - ٥٦] وهذا هو دعاء
المسألة المتضمن للعادة، فإن الداعى يرغب إلى المدعو، ويخضع له ويتذلل، وغير
ذلك.

وضابطُ هذا: أن كل أمرٍ شرعه الله لعباده وأمرهم به، ففعله لله عبادة. فإذا
سُرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو شركٌ، مصادم لما بعث الله به رسوله من
قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾. [الزمر: ١٤] وسيأتى لهذا مزيد بيان إن
شاء الله تعالى.

قال شيخ الإسلام فى (الرسالة السنّية): فإذا كان على عهد رسول الله ﷺ -
ممن انتسب إلى الإسلام - من مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى
الإسلام والسنة فى هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام؛ لأسباب، منها:
الغلو فى بعض المشايخ، بل الغلو فى على بن أبى طالب، بل الغلو فى المسيح
عليه السلام.

فكلُّ من غلا فى نبي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الإلهية،
مثل أن يقول: ياسيدى فلان انصُرْنى، أو أغثنى أو ارزقنى، وأنا فى
حسبك، ونحو هذه الأقوال. فكلُّ هذا شركٌ وضلال، يُستتاب صاحبه، فإن تاب
ولا قُتل.

فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ليعبد وحده لا شريك
له، ولا يُدعى معه إلهٌ آخر. والذين يدعون مع الله آلهةً أخرى، مثل المسيح
والملائكة والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق/ أو تُنزل المطر، أو [٥٤/ب]
تنبت النبات. وإنما كانوا يعبدونهم، أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم،
يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾. [الزمر: ٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ
شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. [يونس: ١٨]. فبعث الله سبحانه رسله: تنهى أن يُدعى أحدٌ
من دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء استعانة. انتهى^(١).

(١) ابن تيمية، «الوصية الكبرى» (مجموع الفتاوى) (٣: ١، ٢، ٣٩٥).

وقال أيضاً: من جعل بينه وبين الله وسائط، يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم، كفر إجماعاً.

نقله عنه صاحبُ (الفروع)، وصاحبُ (الإنصاف)^(١)، وصاحبُ (الإقناع)^(٢)، وغيرهم. وذكره في (مسألة الوسائط)^(٣)، ونقلته منه في (الرد على ابن جرجيس)^(٤).

وقال ابنُ القيم رحمه الله: ومن أنواعه - أي الشرك - طلبُ الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم والتوجه إليهم. وهذا أصلُ شرك العالم؛ فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فضلا لمن استغاث به أو سألَه أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده^(٥). وسيأتي تنمةُ كلامه في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

وقال الحافظُ محمد بن عبد الهادي^(٦)، في (ردّه على السبكي) في قوله: إنَّ المبالغة في تعظيمه - أي: الرسول ﷺ - واجبة:

إنَّ أريد بها^(٧) المبالغة بحسب ما يراه كلُّ أحد تعظيماً، حتى الحج إلى قبره، والسجود له والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطي ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضى حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء.

فدعوى [وجوب]^(٨) المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك، وانسلاخ من جملة الدين^(٩).

(١) محمد بن مُفلح (ت ٥٧٦٣هـ) «الفروع» (١٦٥/٦) علي بن سليمان المرداوي (ت ٨٨٥هـ) «الانصاف في معرفة الراجح من الخلاف» (٣٢٧/١٠).

(٢) موسى الحجاوي (ت ٩٦٨هـ) «الافتاح لطالب الانتفاع» (٢٩٧/٤).

(٣) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٢٤/١).

(٤) داود بن جرجيس البغدادي ت ١٢٩٩هـ.

(٥) ابن القيم، «مدارج السالكين» (٣٤٦/١).

(٦) أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عبد الهادي، حافظ، فقيه مجوّد (ت ٧٤٤هـ). «تاريخ ابن رجب» (٢/٤٣٦).

(٧) (هـ) (ط): به.

(٨) إضافة من «الصارم».

(٩) ابن عبد الهادي، «الصارم المنكى في الرد على السبكي» (٤٦٤).

وفى (الفتاوى البرازية) - من كُتِبَ الحنفية^(١) - : قال علماؤنا: من قال: أرواحُ المشايخ حاضرةٌ تعلم: يكفر.

وقال الشيخ صنع الله الحلبي^(٢) الحنفى - فى كتابه فى الرد على من ادعى أن الأولياء تصرفات فى الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة -: هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين، جماعات يدعون أن الأولياء تصرفات/ بحياتهم وبعد [١/٥٥] مماتهم، ويُستغاث بهم فى الشدائد والبليات وبهممهم تُكشف المهمات.

فيأتون قبورهم وينادونهم فى قضاء الحاجات، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، وقالوا: منهم أبدالٌ ونُقباء، وأوتادٌ ونُجباء، وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة، والقطبُ: هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيها الأجور.

قال: وهذا كلامٌ فيه تفريطٌ وإفراط، بل فيه الهلاكُ الأبدى والعذاب السرمدى؛ لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومُصادرة الكتاب العزيز المُصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة، وما اجتمعت عليه الأمة، وفى التنزيل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. [النساء: ١١٥].

ثم قال: وأما قولهم: إنَّ الأولياء تصرفات فى حياتهم وبعد الممات، فيردُّه قوله تعالى ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾. [النحل: ٦١ - ٦٤]، ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾. [الأعراف: ٥٤]، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. [الشورى: ٤٩]، ونحوه من الآيات الدالة على أنه المتفرد بالخلق والتدبير، والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره فى شيء ما بوجه م الوجوه. فالكلُّ تمت ملكه وقهره: تصرفاً وملكاً، وإحياء وإماتة وخلقاً.

وتمدح الربُّ تبارك وتعالى [بأنفراده]^(٣) بملكه فى آيات من كتابه، كقوله

(١) تأليف: حافظ الدين، محمد بن محمد بن شهاب الخوارزمي الحنفى، مات بمكة عام ٨٢٧هـ. «الضوء اللامع» (١٠ / ٣٧).

(٢) صنع الله بن صنع الله الحلبي، ثم المكي الحنفى الواعظ بها، له «ارجوزة فى الحديث» و«أكسير النقى» و«سيف الله» فرغ منها سنة ١١١٧هـ. «هدية العارفين» (٥ / ٤٢٨).

(٣) ساقطٌ من الأصل و(ض) و(هـ).

تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾. [فاطر: ٣]، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾. [فاطر: ١٣ - ١٤] وذكر آيات في هذا المعنى.

ثم قال: فقوله في الآيات كلها ﴿من دونه﴾ أى: من غيره، فإنه عامٌ يدخل فيه من اعتقدته، من وكلى وشيطان تستمده؛ فإنَّ من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمدُّ غيره؟

إلى أن قال: إنَّ هذا القول وخيمٌ، وشرك عظيم. إلى أن قال: وأمَّا القول بالتصرف بعد الممات، فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة؛ قال جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾. [الزمر: ٣٠]، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. [الزمر: ٤٢] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. [آل عمران: ١٨٥]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾. [الدثر: ٣٨] وفي الحديث «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث» الحديث^(١).

فجميع ذلك، وما هو نحوه: دالٌّ على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم مُسَكَّة، وأن أعمالهم منقطة عن زيادة أو نقصان. فدلَّ ذلك: على أن ليس للميت تصرف في ذاته، فضلاً عن غيره. فإذا عجز عن حركة نفسه، فكيف يتصرف في غيره؟! فالله سبحانه يُخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إنَّ الأرواح مطلقه متصرفة ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾. [البقرة: ١٤٠].

وقال: وأمَّا اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات، فهو من المغالطة؛ لأن الكرامة شيءٌ من عند الله يكرم بها أوليائه، لا قصد لهم فيه ولا تحدى، ولا قدرة ولا علم؛ كما في قصة مريم ابنة عمران،

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (١٦٣١) من حديث أبى هريرة.

وأُسَيد بن حُضَير^(١)، وأبى مُسلم الخولاني^(٢).

قال: وأماً قولهم: فيستغاثُ بهم في الشدائد. فهذا أقبحُ مما قبله وأبدع؛ لمصادمته قوله جل ذكره: ﴿أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾. [النمل: ٦٢] ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَنْ أَتُجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾. [الأنعام: ٦٣ - ٦٤] وذكر آياتٍ في هذا المعنى.

ثم قال: فإنه جل ذكره قرَّر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، القادر على إيصال الخير، فهو المنفرد بذلك، فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولي.

قال: والاستغاثَةُ تجوز في الأسباب الظاهرة العادية، من الأمور الحسية: في قتال، أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه، كقولهم: يا لزيد، يا للمسلمين، بحسب الأسباب^(٣) الظاهرة بالفعل.

وأماً الاستغاثَةُ بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد: كالمرض، وخوف الغرق والضيق والفقر، وطلب الرزق ونحوه: فمن خصائص/ الله، [١/٥٦] لا يُطلب فيها غيره.

قال: وأماً كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم، كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجاهل، وينادونهم ويستنجدون بهم: فهذا من المنكرات؛ فمن اعتقد أن لغير الله - من نبي أو ولي أو روح، أو غير ذلك - في كشف كربةٍ أو

(١) أبو يحيى، بن سماك الأنصاري، صحابيٌ جليل (ت ٢٠هـ). أضاءت له عصاه، بعد أن انصرف من مجلس النبي ﷺ في ليلة مظلمة، أخرجه: ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٦٠٦) وأحمد في «المسند» (٣/ ١٣٨، ٨٠، ٢٧٢).

(٢) عبد الله بن أثوب الشامي، من التابعين. ألقاه الطاغية العنسي في النار، فلم تأكله. أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٢٩).

(٣) في جميع النسخ: الأفعال. والمثبت من كتاب «سيف الله».

قضاء حاجة تأثيراً: فقد وقع فى وادى جهلٍ خطير، فهو على شفا حفرة من السعير.

وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، فحاشا لله أن تكون أولياء الله بهذه المثابة؛ فهذا ظنُّ أهل الأوثان، كذا أخبر الرحمن: ﴿هُوَ لَاءَ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُون﴾. [يس: ٢٣].

فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر - من نبى وولى وغيره - على وجه الإمداد منه: إشراكٌ مع الله؛ إذ لا قادر على الدفع غيره، ولا خير إلا خيره.

قال: وأما ما قالوه: إنَّ منهم أبدالاً ونقباء، وأوتاداً ونجباء، وسبعين وسبعة، وأربعين وأربعة، والقطب؛ هو الغوث للناس: فهذا من موضوعات إفكهم. كما ذكره القاضى المحدث [أبو بكر بن العربى] فى (سراج المريدين)، وابن الجوزى، وابن تيمية. انتهى باختصار^(١).

والمقصود: أن أهل العلم ما زالوا يُنكرون هذه الأمور الشريكة، التى عمَّت بها البلوى، واعتقدها أهل الأهواء. فلو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشريكة، لطال الكتاب.

والبصير النبيل، يدرك الحق من أول دليل. ومن قال قولاً بلا برهان، فقولُه ظاهرُ البطلان مخالفٌ ما عليه أهل الحق والإيمان، المتمسكون بمحكم القرآن، المستجيون لداعى الحق والإيمان. والله المستعان، وعليه التكلان.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. [يونس: ١٠٦ - ١٠٧].

(١) سيف الله على من كذب على أولياء الله، لصنع الله الحلى ورقة (٢، ٥، ٦، ٧، ٨، ١١).

ش: قال ابن عطية: معناه: قيل لى ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ فهو معطوف على ﴿أَقِم﴾. وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا، / فأحرى أن يتحرز من ذلك [٥٦/ب] غيره^(١). والخطابُ خرج مخرج الخصوص، وهو عامٌ للأمة.

قال أبو جعفر بن جرير فى هذه الآية: يقول تعالى ذكره: ولا تدع، يا محمد، من دون معبودك وخالقك شيئاً لا ينفعك فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولا يضرُّك فى دين ولا دنيا، يعنى بذلك: الآلهة [والأصنام]^(٢)، يقول: لا تعبدوها راجياً نفعها أو خائفاً ضررها؛ فإنها لا تنفع ولا تضر. فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يقول: من المشركين بالله^(٣).

قلت: وهذه الآية لها نظائر، كقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾. [الشعراء ١٢٣] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. [القصص: ٨٨].

ففى هذه الآيات: بيان أن كل مدعو يكون إلهاً، والإلهية حق لله لا يصلح منها شيء لغيره؛ ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. [الحج: ٦٢].

وهذا هو التوحيد الذى بعث الله به رُسله، وأنزل به كتبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. [البينة: ٥] والدين: كل ما يُدان الله به، من العبادات الباطنة والظاهرة. وفسره ابن جرير فى (تفسيره): بالدعاء، وهو فردٌ من أفراد العبادة، على عادة السلف فى التفسير: يفسرون الآية ببعض أفراد معناها.

فمن صرف منها شيئاً لقبر، أو صنم، أو وثن، أو غير ذلك: فقد اتخذه معبوداً، وجعله شريكاً لله فى الإلهية التى لا يستحقها إلا هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾. [المؤمنون: ١١٧] فتبين بهذه الآية ونحوها: أن دعوة غير الله شرك، وكفرٌ وضلال.

(١) ابن عطية، «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» (٩٩/٩).

(٢) إضافة من (ط) «والتفسير».

(٣) الطبرى: «جامع البيان عن تأويل آى القرآن» (٢١٨/١٥).

وقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

[١/٥٧] فإنه المتفرد بالملك والقهر، والعطاء والمنع، والضر والنفع، دون/ كل ما سواه. فيلزم من ذلك: أن يكون هو المدعو وحده، المعبود وحده؛ فإن العبادة لا تصلح إلا للملك النفع. ولا يملك ذلك ولا شيئاً منه غيره؛ فهو المستحق للعبادة وحده، دون من لا ينفع ولا يضر.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. [الزمر: ٢٨] وقال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. [فاطر: ٢] فهذا ما أخبر به في كتابه، من تفرد به بالإلهية والربوبية، ونصب الأدلة على ذلك.

فاعتقد عباد القبور والمشاهد، نقيض ما أخبر به الله، واتخذوهم شركاء لله في استجلاب المنافع ودفع المكروه: بسؤالهم، والالتجاء إليهم بالرغبة والرهبة والتضرع، وغير ذلك من أنواع العبادة التي لا يستحقها إلا الله، واتخذوهم شركاء لله في ربوبيته، وإلهيته.

وهذا فوق شرك كفار العرب القائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، فإن أولئك يدعونهم ليشفعو لهم، ويقربوهم إلى الله. وكانوا يقولون في تلييتهم: لبيك؛ لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك!

وأما هؤلاء المشركون: فاعتقدوا في أهل القبور وفي المشاهد ما هو أعظم من ذلك، فجعلوا لهم نصيباً من التصرف والتدبير، وجعلوهم معاذاً لهم وملاذاً في الرغبات والرهبات ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: لمن تاب إليه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. [العنكبوت: ١٧].

ش: يأمر عبادة بابتغاء الرزق عنده وحده، دون ما سواه، ممن لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً. فتقديم الظرف يُفيد الاختصاص.

وقوله: ﴿وَأَعْبُدُوهُ﴾ من عطف العام على الخاص؛ فإنَّ ابتغاء الرزق عنده/، [٥٧/ب] من العبادة التي أمر بها.

قال العمادُ ابن كثير: ﴿فَابْتَغُوا﴾ [أى: فاطلبوا]^(١) ﴿عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقُ﴾ أى: لا عند غيره؛ لأنه المالكُ له، وغيره لا يملك شيئاً من ذلك ﴿وَأَعْبُدُوهُ﴾ أى: اخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ أى: على ما أنعم عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: [يوم القيامة]، فيُجازى كلَّ عاملٍ بعمله^(٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾. [الاحقاف: ٥ - ٦].

ش: نفى سبحانه أن يكون أحدٌ أضلُّ ممن يدعو غيره. وأخبر أنه لا يستجيب له ما طلب منه إلى يوم القيامة.

والآيةُ تعمُّ كلَّ من يدعى من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾. [الإسراء: ٥٦]. وفى هذه الآية: أخبر أنه لا يستجيب، وأنه غافلٌ عن داعيه ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ فتناولت الآية كلَّ داعٍ، وكلَّ مدعوٍّ من دون الله.

قال أبو جعفر بن جرير - فى قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ -: يقول تعالى ذكره: وإذا جُمع الناسُ ليوم القيامة فى موقف الحساب، كانت هذه الآلهةُ التي يدعونها فى الدنيا لهم أعداءٌ؛ لأنهم يتبرؤون منهم. ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكانت آلهتهم التي يعبدونها فى الدنيا، لعبادتهم

(١) إضافة من (ط) «والتفسير».

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٧٩).

جاحدين؛ لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرنا بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرأنا إليك منهم يا ربنا^(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ: أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾. [الفرقان: ١٧ - ١٨].

قال ابن جرير: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الملائكة والإنس والجن، وساق بسنده عن مجاهد، قال: عيسى وعزير والملائكة^(٢).

ثم قال: يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة/ الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله - وعيسى: تنزيهاً لك يا ربنا، [وتبرئة]^(٣) مما أضاف إليك هؤلاء المشركون ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ نواليهم ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ انتهى^(٤).

قلت: وأكثر ما يُستعمل الدعاء في الكتاب والسنة، واللغة ولسان الصحابة ومن بعدهم من العلماء: في السؤال والطلب؛ كما قال العلماء من أهل اللغة، وغيرهم: الصلاة لغة: الدعاء، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرَكُمْ وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾. [فاطر: ١٣ - ١٤] وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. [الأنعام: ٦٣] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: ١٢] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُوْ دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾. [فصلت: ٥١] وقال: ﴿لَا يَسْأَلُ

(١) «تفسير الطبري» (٤/٢٦).

(٢) «تفسير الطبري» (١٨/ ١٨٩).

(٣) إضافة من (ط) «والتفسير».

(٤) «تفسير الطبري» (١٨/ ١٩٠).

الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّ قَنُوطٌ» [فصلت: ٤٩] وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾. [الأنفال: ٩].

وفى حديث أنس، مرفوعاً «الدعاء مُخُّ العبادة»^(١).

وفى الحديث الصحيح «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»^(٢).

وفى آخر «من لم يسأل الله يغضب عليه»^(٣).

وحديث «ليس شيءٌ أكرمَ على الله من الدعاء» رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه^(٤).

وقوله: «الدعاء سلاحُ المؤمن، وعماد الدين ونور السموات والأرض» رواه الحاكم وصححه^(٥).

وقوله: «سلوا الله كلَّ شيء حتى الشَّسْعُ إذا انقطع» الحديث^(٦). وقال ابن عباس رضى الله عنهما: أفضلُ العبادة الدعاء، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. رواه ابن المنذر، والحاكم وصححه^(٧).

(١) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٤٦٨). والطبرانى فى كتاب «الدعاء» رقم (٨)، وله شاهدٌ من حديث النعمان بن بشير، والبراء بن عازب، وسيأتى تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٣٧٤) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. والحاكم فى «المستدرک» (١/ ٤٩٣). حديث أبى هريرة، وأخرجه أحمد فى «المسند» (٢/ ١٧٧) من حديث ابن عمرو، وقال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٨): إسناده حسن.

(٣) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٣٧٠) وابن ماجه فى «السنن» رقم (٣٨٢٧) وأحمد فى «المسند» (٢/ ٤٤٢، ٤٤٣) من حديث أبى هريرة. قال ابن كثير: إسناده لا بأس به.

(٤) أحمد فى «المسند» (٢/ ٣٦٢) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٣٦٧) وقال: هذا حديثٌ حسن غريب. وابن ماجه فى «السنن» رقم (٣٨٢٩) والحاكم فى «المستدرک» (١/ ٤٩٠) وصححه ووافقه الذهبى، من حديث أبى هريرة.

(٥) الحاكم فى «المستدرک» (١/ ٤٩٢) وصححه ووافقه الذهبى.

(٦) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٦٠٧) وقال: هذا حديثٌ غريب، ورقم (٣٦٠٨) وقال: وهذا أصح.

(٧) ابن المنذر فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (٧/ ٣٠٢) والحاكم فى «المستدرک» (١/ ٤٩١) وصححه ووافقه الذهبى.

وحديث «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان» الحديث^(١).
 وحديث «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد،
 الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»^(٢).
 [٥٨/ب] وأمثالُ هذا فى الكتاب والسنة أكثرُ من أن يُحصى^(٣) فى الدعاء، الذى هو
 السؤال والطلب.

فمن جحد كون السؤال والطلب عبادة: فقد صادم النصوص، وخالف اللغة
 واستعمال الأمة سلفاً وخلفاً.

وأما ما تقدّم من كلام شيخ الإسلام، وتبعه العلامة ابن القيم: من أن الدعاء
 نوعان: دعاءُ مسألة، ودعاءُ عبادة. وما ذكر بينهما من التلازم، وتضمن أحدهما
 للآخر: فذلك باعتبار كون الذاكر والتالى والمصلى والمتقرب بالنسك، وغيره طالباً
 فى المعنى، فيدخلُ فى مسمى الدعاء بهذا الاعتبار. وقد شرع الله تعالى فى الصلاة
 الشرعية من دعاء المسألة ما لا تصح الصلاة إلا به، كما فى الفاتحة وبين السجدين
 وفى التشهد، وذلك عبادة كالركوع والسجود. فتدبر هذا المقام، يتبين لك جهلُ
 الجاهلين بالتوحيد.

ومما يبين هذا المقام، ويزيده إيضاحاً: قولُ العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى
 فى معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ
 الْحُسْنَى﴾. [الإسراء: ١١٠]: هذا الدعاء، المشهور أنه دعاء المسألة، قالوا: كان
 النبىُّ ﷺ يدعو ربه، مرة يقول: يا الله. ومرة: يارحمن. فظن المشركون أنه يدعو
 إلهين، فأنزل الله هذه الآية. ذكر هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما^(٣).
 وقيل: إن الدعاء هنا بمعنى التسمية، والمعنى: أى اسمٌ سمّيتوه به من

(١) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (١٤٩٥) واللفظ له، والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٥٣٧) وقال: هذا
 حديث غريب. والحاكم فى «المستدرک» (١/ ٥٠٣) وصححه ووافقه الذهبى. من حديث أنس.

(٢) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (١٤٩٣) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٤٧١) وقال: هذا حديث حسن
 غريب. من حديث بريدة.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٥/ ١٨٢) وابن مردويه فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (٥/
 ٣٤٨).

أسماء الله تعالى: إِمَّا الله، وإِمَّا الرحمن، فله الأسماء الحسنى.

وهذا هو من لوازم المعنى فى الآية، وليس هو عينُ المراد. بل المراد بالدعاء: معناه المعهود المطرَّد فى القرآن. وهو دعاء السؤال، ودعاء الشئ.

ثم قال: إذا عُرِفَ هذا، فقولُه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. [الأعراف: ٥٥] يتناول نوعى الدعاء، لكنَّه ظاهرٌ فى دعاء المسألة، متضمَّنٌ لدعاء العبادة؛ ولهذا أمر بإخفائه. قال الحسن: بين دعاء السر ودعاء العلانية سبعون ضعفًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء، ولم يُسمعَ لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم^(١).

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أُجِيبَ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿٥٩﴾. [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعى الدعاء، وبكل منهما فُسرَت الآية. قيل: أعطيه إذا سألنى، وقيل: أثيبه إذا عبدنى.

وليس هذا من استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه، بل هذا استعماله فى حقيقته الواحدة المتضمنة للأمريين جميعاً. وهذا يأتى فى مسألة الصلاة، وأنها [هل]^(٢) نُقلت عن مسمَّأها فى اللغة وصارت حقيقة شرعية، أو^(٣) استعملت فى هذه العبادة مجازاً للعلاقة بينهما وبين المسمى اللغوى، أو هى باقية على الوضع اللغوى، وضمٌ إليها أركانٌ وشرائط.

وعلى ما قررناه: لا حاجة إلى شئ من ذلك؛ فإنَّ المصلى من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء: إما دعاء عبادة وثناء، أو دعاء طلب ومسألة، وهو فى الحالين داع. انتهى من (البدائع)^(٤).

قال المصنَّف رحمه الله تعالى: قوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾. [النمل: ٦٢].

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٢ / ٤٨٥) وابن المبارك وأبو الشيخ، كما فى «الدر المنثور» (٣ / ٤٧٦).

(٢) إضافة من «البدائع».

(٣) فى جميع النسخ: و. تحريف.

(٤) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٣ / ٥، ٦).

ش: يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّ الْمَشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ وَنَحْوِهِمْ، قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ لَا يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ وَيَكْشِفُ السُّوءَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ. فَذَكَرَ ذَلِكَ سُبْحَانَهُ مُحْتَجاً عَلَيْهِمْ فِي اتِّخَاذِهِمُ الشُّفَعَاءَ مِنْ دُونِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يَعْنِي يَفْعَلُ ذَلِكَ.

فَإِذَا كَانَتْ أَلِهَتُهُمْ لَا تُجِيبُهُمْ فِي حَالِ الْاضْطِرَارِّ، فَلَا يَصْلِحُ أَنْ يَجْعَلُوهَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ الَّذِي يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَحْدَهُ. وَهَذَا أَصَحُّ مَا فُسِّرَتْ بِهِ الْآيَةُ؛ كَسَابِقَتِهَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. [النمل: ٦٠ - ٦١] وَلَا حَقَّهَا، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. [النمل: ٦٣ - ٦٤].

فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْآيَاتِ، يَتَبَيَّنُ لَكَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اِحْتَجَّ - عَلَى الْمَشْرِكِينَ - بِمَا أَقْرَأَ بِهِ عَلَى مَا جَعَلَهُ، مِنْ قَصْرِ الْعِبَادَةِ جَمِيعِهَا عَلَيْهِ؛ كَمَا فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. [الفاتحة: ٥].

قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ: قَوْلُهُ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: أَمْ مَا [٥٩/ب] تُشْرِكُونَ بِاللَّهِ خَيْرٌ، أَمْ الَّذِي يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ/ وَيَكْشِفُ [السُّوءَ] ^(١) النَّارَ بِهِ عَنْهُ؟

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ يَقُولُ: يَسْتَخْلِفُ بَعْدَ أَمْوَاتِكُمْ ^(٢) فِي الْأَرْضِ مِنْكُمْ خُلَفَاءً، أَحْيَاءَ يَخْلُقُونَهُمْ.

(١) إِضَافَةٌ مِنْ (ض) وَ(هـ) وَ(ط) وَالتَّفْسِيرُ.

(٢) فِي التَّفْسِيرِ. أَمْرَاتِكُمْ.

وقوله: «إِلَهُ مَعَ اللَّهِ» يقول: إلهٌ سواه يفعل هذه الأشياء بكم، وينعم عليكم هذه النعم؟

وقوله: «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ» يقول: تذكُّراً قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم، تذكرون وتعتبرون حُجج الله عليكم يسيراً؛ فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وروى الطبراني، بإسناده: أنّه كان في زمن النبي ﷺ منافقٌ يؤذى المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيثُ برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ»^(٢).

ش: الطبراني: هو الإمام الحافظ، سليمان بن أحمد بن أيوب اللّخمي الطبراني، صاحبُ المعاجم الثلاثة وغيرها. روى عن النسائي، وإسحاق بن إبراهيم الدَّبَرِي، وخلقٌ كثير. مات سنة ستين وثلاثمائة. روى هذا الحديث، عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه.

قوله: (أنه كان في زمن النبي ﷺ منافقٌ يؤذى المؤمنين)، لم أقف على اسم هذا المنافق.

قلت: هو عبد الله ابنُ أبي حاتم، في روايته.

قوله: (فقال بعضهم) -: أى: الصحابة [رضى الله عنهم] - هو أبو بكر رضى الله عنه^(٣).

قوله: (قوموا بنا نستغيثُ برسول الله ﷺ من هذا المنافق) لأنه ﷺ كان يقدّرُ على كفاؤه.

قوله: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ» فيه: النصُّ على أنّه لا يُسْتَغَاثُ بالنبي ﷺ، ولا مَنْ دونه.

(١) «تفسير الطبري» (٢٠ / ٤).

(٢) الطبراني في «المعجم الكبير» كما في «مجمع الزوائد» (١٠ / ١٥٩) وقال: ورجاله رجال الصحيح، غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث. وقال الحافظ ابن تيمية في كتاب «الاستغاثة» (١٥٢): وهو صالح للاعتضاد، ودلّ على معناه الكتاب والسنة.

(٣) إضافة من (هـ) و(ط).

كره ﷺ أَنْ يُسْتَعْمَلَ هذا اللفظ في حقه، وإنْ كان فيما يقدر عليه في حياته^(١): حمايةً لجناب التوحيد، وسدّاً لذرائع الشرك، وأدباً وتواضعاً لربه، وتحذيراً للأمة من وسائل الشرك، في الأقوال والأفعال.

فإذا كان هذا فيما يقدر عليه ﷺ في حياته، فكيف يجوز أَنْ يُسْتَغَاثَ به بعد وفاته، ويُطْلَبَ منه أمورٌ لا يقدر عليها إلا الله؟! كما جرى على السنة كثيرٌ من الشعراء - كالْبُوصَيْرِيِّ^(٢)، والْبَرْعِيِّ^(٣) / وغيرهم - من الاستغاثة بمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

ويعرضون عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شيء، الذي له الخلق والأمر وحده، وله الملك وحده، لا إله غيره، ولا رب سواه؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. [الأعراف: ١٨٨] في مواضع من القرآن ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾. [الجن: ٢١].

فأعرض هؤلاء عن القرآن، واعتقدوا نقيضاً ما دلّت عليه هذه الآيات المحكمات. وتبعهم على ذلك الضلال الخلق الكثير، والجم الغفير. فاعتقدوا الشرك بالله ديناً، والهدى ضلالاً، فإننا لله وإننا إليه راجعون. فما أعظمها من مصيبة عمّت بها البلوى، فعاندوا أهل التوحيد، وبدّعوا أهل التجريد؛ فالله المستعان.

(١) قال ابن تيمية في كتاب «الاستغاثة» (٢٠٠): وظاهر لفظ الحديث، إن صح: يقتضى أنه لم يكن قادراً على دفع ضرر ذلك المنافق، وأنه أمرهم أن يستغيثوا فيه بالله تعالى.

(٢) محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى، أديبٌ صوفى، صاحب البردة، له ديوان مطبوع. مات سنة ٦٩٦ هـ الزركلى، «الاعلام» (٦ / ١٣٩).

(٣) عبد الرحيم بن أحمد اليماني، شاعر متصوف، مشهور ببلاد اليمن، له ديوان مطبوع. مات سنة ٣٠٨ هـ «الاعلام» (٣ / ٣٤٣).

(١٤)

باب

قول الله تعالى:

﴿أَيْشْرَكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ *
وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿أَيْشْرَكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾. [الاعراف: ١٩١ - ١٩٢].

ش: قوله: ﴿أَيْشْرَكُونَ﴾ أى: فى العبادة.

قال المفسرون فى هذه الآية: هذا توبيخٌ وتعنيفٌ للمشركين، فى عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلُقُ شيئاً وهو مخلوق. والمخلوق لا يكون شريكاً للخالق فى العبادة التى خلقهم لها، وبينَ أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم يَنْصُرُونَ، فكيف يُشركون به من لا يستطيع نصرَ عابديه ولا نصر نفسه؟ وهذا برهانٌ ظاهرٌ على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله، وهذا وصف كلِّ مخلوق، حتى الملائكة والأنبياء والصالحين.

وأشرفُ الخلق محمد ﷺ وقد كان يستنصرُ ربه على المشركين، ويقول: «اللهم أنت عضدِي ونصيرِي، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل»^(١).

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا

(١) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٢٦٢٣)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٥٧٨) وقال: هذا حديثٌ حسن غريب. من حديث أنس.

نُشُورًا». [الفرقان: ٣] وقوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. [الأعراف: ١٨٨] وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾. [الجن: ٢١ - ٢٣].

فكفى بهذه الآيات برهاناً على بطلان دعوة غير الله، كائناً من كان. فإن كان نبياً أو صالحاً: فقد شرفه الله تعالى بإخلاص العبادة له، والرضى به رباً ومعبوداً. فكيف يجوز أن يجعل العابد معبوداً مع توجيه الخطاب إليه بالنهي عن هذا الشرك؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. [القصص: ٨٨] وقال ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾. [يوسف: ٤٠].

فقد أمر عباده من الأنبياء والصالحين وغيرهم بإخلاص العبادة له وحده، ونهاهم أن يعبدوا معه غيره. وهذا هو دينه الذي بعث به رسله، وأنزل به كتبه، ورضيه لعباده، وهو الإسلام؛ كما روى البخاري، عن أبي هريرة في سؤال جبرائيل عليه السلام، قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان» الحديث^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكُمْ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾. [فاطر: ١٣ - ١٤].

ش: يخبرُ تعالى عن حال المدعوين من دونه - من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها - بما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو، وهي: الملْك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته. فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته، فكيف إذا عُدَّت بالكلية؟

(١) البخاري في «الصحيح» رقم (٥٠٠، ٤٧٧٧).

نفى عنهم الملك بقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة: القِطْمِيرُ: اللفافة التي تكون على نواه التمر^(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. [النحل: ٧٣] وقال: ﴿قُلْ اذْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾. [سبا: ٢٢ - ٢٣].

ونفى عنهم سماع الدعاء، بقوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾، لانهم ما بين ميت، وغائب عنهم مشغول بما خلق له، مسخر بما أمر به كالملائكة. ثم قال: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لان ذلك ليس إليهم؛ فإن الله تعالى لم يأذن لأحد من عباده في دعاء أحد منهم، لا استقلالاً ولا واسطة، كما تقدم بعض أدلة ذلك.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ فتيين، أن دعوة غير الله شرك. وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾. [مريم: ٨١ - ٨٢]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ قال ابن كثير: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾. [الاحقاف: ٥ - ٦].

قال: وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أى: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها، وما تصير إليه مثل خبير بها. قال قتادة: يعنى نفسه تبارك وتعالى؛ فإنه أخبر بالواقع لا محالة^(٢).

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» (٢٢/ ١٢٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٢٧).

قلتُ: والمشركون لم يُسلّموا للعلیم الخبیر ما أخبر به عن معبوداتهم، فقالوا: تملك وتسمع، وتستجيب وتشفع لمن دعاها، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبیر: من أن كلَّ معبود يعادی عابده يوم القيامة، ويتبرأ منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هَٰلِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨ - ٣٠].

أخرج ابن جرير، عن ابن جريج، قال: قال مجاهد: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ قال: يقول ذلك كلُّ شيء كان يُعبد من دون الله^(١).

[٦١/ب] فالكيّسُ يستقبلُ هذه الآيات - التي هي الحجة والنور والبرهان/ - بالإيمان، والقبول والعمل. فيجرّد أعماله لله وحده دون كلِّ ما سواه، ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعاً، فضلاً عن غيره.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وفي الصحيح، عن أنس، قال: شجَّ النبي ﷺ يوم أحد، فقال: «كيف يُفلحُ قومٌ شجّوا نبيّهم؟» فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

ش: قوله: في (الصحيح)، أي: (الصحيحين). علّقه البخاري، عن حميد، وعن ثابت: عن أنس^(٢). ووصله أحمد، والترمذي، والنسائي، عن حميد، عن أنس به^(٣). ووصله مسلم، عن ثابت، عن أنس^(٤).

وقال ابنُ إسحاق في (المغازي): حدثني حميد الطويل، عن أنس، قال: كسرت رباعيةُ النبي ﷺ يوم أحد، وشجَّ وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه،

(١) ابن جرير الطبري في «التفسير» (١١/ ١١٢).

(٢) ابن حجر، «فتح الباري» (٧/ ٣٦٥).

(٣) أحمد في «المسند» (٣/ ٩٩، ١٧٨، ٢٠٦) والترمذي في «الجامع» رقم (٢٠٠٥) وقال: هذا حديث حسن

صحيح. والنسائي كما في «التغليق» (٤/ ١٠٨).

(٤) مسلم في «الصحيح» رقم (١٧٩١).

وجعل يمسح الدم، وهو يقول: كيف يُفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟! فأنزل الله الآية^(١).

قوله: (شُجَّ النبي ﷺ) قال أبو السعادات: الشجُّ في الرأس خاصة في الأصل، وهو أن يضربه بشيء فيجرّحه فيه ويشقه، ثم استعمل في غيره من الأعضاء^(٢).

وذكر ابن هشام، من حديث أبي سعيد الخدري: أن عتبة بن أبي وقاص، هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ السفلى، وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجّه في وجهه، وأن عبد الله بن قميئة جرحه في وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وأن مالك بن سنان مصّ الدم من وجه رسول الله ﷺ، وازدوده. فقال له: «لن تمسك النار»^(٣).

قال القرطبي: والرباعية - بفتح الراء وتخفيف الياء - وهي كلُّ سنٍّ بعد ثنية.

قال النووي: وللإنسان أربع رباعيات.

قال الحافظ: والمراد: أنها كُسرت، فذهب منها فلقة، ولم تُقلع من أصلها.

قال النووي: وفي هذا: وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه [١/٦٢] عليهم؛ لينالوا جزيل الأجر والثواب، ولتعرف أمهم ما أصابهم، ويأتسوا بهم.

قال القاضي: وليعلم أنهم من البشر، تُصيبهم محن الدنيا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر، ليُتيقن أنهم مخلوقون مربوبون، ولا يُفتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات، ويلبّس الشيطان من أمرهم ما لبّسه على النصاري وغيرهم. انتهى^(٤).

قلتُ: يعنى: من الغلو، والعبادة.

قوله: (يوم أحد).

هو جبل معروف، كانت عنده الوقعة المشهور. فأضيفت إليه.

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (٣/ ٢٨).

(٢) ابن الأثير، «النهاية» (٢/ ٤٤٥).

(٣) «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٨) وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٦٦) وانظر «مغازي الواقدي» (١/ ٢٤٤).

(٤) النووي، «المنهاج شرح صحيح مسلم ابن الحجاج» (١٢/ ١٤٨).

قوله: «كيف يُفلح قومٌ شَجَّوا نبيَّهم؟» زاد مسلم: «وكسروا رباعيته وأدموا وجهه».

قوله: فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ قال ابنُ عطية: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَقِّهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ يَأْسٌ مِنْ فَلَاحِ كِفَارِ قَرِيشٍ؛ فَقِيلَ لَهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أَيْ: عَوَاقِبُ الْأُمُورِ بِيَدِ اللَّهِ، فَاْمَضِي أَنْتَ لَشَأْنِكَ، وَدُمُ عَلَى الدَّعَاءِ لِرَبِّكَ^(١).

وقال ابنُ إسحاق: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فِي عِبَادِي، إِلَّا مَا أَمَرْتُكَ بِهِ فِيهِمْ^(٢).

قال المصنَّفُ رحمه الله تعالى: وفيه: عن ابن عمر، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ - إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ -: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا»، بَعْدَ مَا يَقُولُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(٣).

وفي رواية: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمِيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَتَزَلَّتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(٤).

ش: قوله: (وفيه)، أَيْ: فِي (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ)، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ.

قوله: (عن ابن عمر)، هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، صَحَابِيُّ جَلِيلٌ. شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالصَّلَاحِ. مَاتَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِي آخِرِهَا، أَوْ أَوَّلَ الَّتِي تَلِيهَا.

قوله: (أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ). هَذَا الْقَنْوْتُ عَلَى هَؤُلَاءِ، بَعْدَ مَا شُجَّ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ.

(١) ابن عطية، «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٣/ ٢٢٦).

(٢) «السيرة» لابن هشام (٤٩/٣).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٤٠٠٩، ٤٠٧٠، ٤٥٥٩، ٧٣٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٤٠٧٠) مرسلاً، ووصله الترمذي في «الجامع» رقم (٣٠٠٧) وقال:

هذا حديث حسن غريب. وأحمد في «المسند» (٢/ ٩٣) وابن جرير الطبري في «التفسير» (٤/ ٨٨) من حديث ابن عمر.

قوله: «اللهم العن فلاناً وفلاناً» قال أبو السعادات: أصلُ اللعن: الطردُ والإبعاد من الله. ومن الخلق: السب والدعاء^(١). وتقدم كلامُ شيخ الإسلام.

قوله: (فلاناً وفلاناً). يعنى صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام/، كما بيَّنه فى الرواية الآتية.
[٦٢/ب]
وفيه: جوازُ الدعاء على المشركين بأعيانهم فى الصلاة، وأنَّ ذلك لا يضرُّ الصلاة.

قوله: (بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده)، قال أبو السعادات: أى أجاب حمده، وتقبَّله^(٢). وقال السَّهيلي: مفعولُ سَمِعَ محذوف؛ لأنَّ السمع متعلقٌ بالأقوال والأصوات، دون غيرها. فاللام تُؤذَن بمعنى رائد، وهو الاستجابة للسمع. فاجتمع فى الكلمة الإيجاز، والدلالة على الزائد، وهو الاستجابة لمن حمده.

وقال ابنُ القيم ما معناه: عُدِّي، سمع الله لمن حمده، باللام المتضمنة معنى: استجاب له. ولا حَذَف هناك، وإنما هو مضمَّن.

قوله: (ربَّنا ولك الحمد)، فى بعض روايات البخارى، بإسقاط الواو. قال ابن دقيق العيد: كأنَّ إثباتها دالٌّ على معنى رائد؛ لأنَّه يكون التقدير: ربنا استجب ولك الحمد، فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر.

قال شيخ الإسلام: والحمد ضدُّ الذم، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له، كما أنَّ الذم يكون على مساوئه مع البغض له.

وكذا قال ابنُ القيم، وفرَّق بينه وبين المدح: بأنَّ الإخبار عن محاسن الغير: إمَّا أن يكون إخباراً مجرداً عن حُبٍّ وإرادة، أو يكون مقروناً بحبه وإرادته.

فإنَّ كان الأول، فهو المدح. وإنَّ كان الثانى، فهو الحمد. فالحمدُ: إخبارٌ عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه؛ ولهذا كان خبراً يتضمنُ الإنشاء، بخلاف المدح؛ فإنه خبرٌ مجرد.

(١) ابن الأثير، «النهاية» (٤/ ٢٥٥).

(٢) ابن الأثير، «النهاية» (٢/ ٤٠١).

فالقائل، إذا قال: الحمد لله، أو قال: ربنا ولك الحمد. تضمن كلامه الخبر عن كل ما يُحمد عليه تعالى، باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحققة والمقدرة. وذلك يستلزم إثبات كل كمال يُحمد عليه الرب تعالى؛ ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه، ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه، وهو الحميد المجيد^(١).

[١/٦٣] وفيه: التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد، وهو قول الشافعي/ وأحمد، وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة، فقالا: يقتصر على سمع الله لمن حمده.

قوله: (وفى رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث ابن هشام).

وذلك لأنهم رؤوس المشركين يوم أحد: هم، وأبو سفيان بن حرب. فما استجيب له ﷺ فيهم، بل أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ فتأب عليهم، فأسلموا وحسن إسلامهم.

وفى هذا كله: معنى شهادة أن لا إله إلا الله، الذي له الأمر كله، يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته. ^(٢) فهو المستحق أن يُعبد وحده^(٢).

وفى هذا من الحجج والبراهين: ما يُبين بطلان ما يعتقده عبادة القبور، في الأولياء والصالحين - بل في الطواغيت - من أنهم ينفعون من دعاهم، ويمنعون من لاذ بحماهم.

فسبحان من حال بينهم وبين فهم الكتاب. وذلك عدله سبحانه، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه، وبه الحول والقوة.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وفيه: عن أبي هريرة، قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. [الشعراء: ٢١٤] قال: «يامعشر قريش - أو كلمة نحوها - اشترُوا أنفسكم؛ لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا عباس

(١) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢/ ٩٣).

(٢) ما بينهما ساقط من (ض) و(هـ) و(ط) ومعلق في هامش الاصل، وعليه كلمة صح.

ابن عبد المطلب، لا أغنى عنك من الله شيئاً، يا صفيّة عمّة رسول الله، لا أغنى عنك من الله شيئاً. يا فاطمة بنت محمد، سكينى من مالى ما شئت، لا أغنى عنك من الله شيئاً^(١).

ش : قوله : (وفيه)، أى : (صحيح البخارى).

قوله : (عن أبى هريرة). اختلف فى اسمه. وصحّ النووى أن اسمه : عبد الرحمن بن صخر؛ كما رواه الحاكم فى (المستدرک)، عن أبى هريرة، قال : كان اسماً فى الجاهلية : عبد شمس بن صخر، فسُمّيَتْ فى الإسلام عبد الرحمن^(٢). وروى الدؤلابى بإسناده، عن أبى هريرة، أن النبى ﷺ سمّاه عبد الله^(٣).

وهو دوسى، من فضلاء الصحابة وحفّاظهم. حفظ عن النبى ﷺ أكثر مما حفظه غيره، مات سنة سبع - أو ثمان، أو تسع - وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

قوله : (قام رسول الله ﷺ). / فى الصحيح - من رواية ابن عباس -: صعد [٦٣/ب] رسول الله ﷺ على الصفا^(٤).

قوله : حين أنزل الله عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. عشيرة الرجل : هم بنو أبيه الأذنون أو قبيلته؛ لأنهم أحقّ الناس ببرك وإحسانك الدينى والدنيوى؛ كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾. [التحریم : ٦].

وقد أمره الله تعالى أيضاً بالإنذار العامة، كما قال تعالى : ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾. [يس : ٦] ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾. [إبراهيم : ٤٤].

قوله : «يا معشر قريش» المعشر : الجماعة.

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٧٥٣، ٣٥٢٧، ٤٧٧١).

(٢) الحاكم فى «المستدرک» (٣/ ٥٠٦، ٥٠٧).

(٣) الدؤلابى، «الكنى والاسماء» (٧٧/١).

(٤) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٧٧٠) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٠٨).

قوله: (أو كلمة نحوها) هو بنصب كلمة؛ عطفًا على ما قبله.

قوله: «اشتروا أنفسكم» أى: بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وطاعته فيما أمر به والانتهاى عما نهى عنه؛ فإن ذلك هو الذى يُنجى من عذاب الله. لا الاعتماد على الأنساب والأحساب؛ فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب.

قوله: «لا أغنى عنكم من الله شيئاً» فيه حجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين، ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه، أو يدفعوا عنه.

فإن ذلك هو الشرك الذى حرّمه الله تعالى، وأقام نبيه ﷺ بالإنذار عنه؛ كما أخبر تعالى عن المشركين، فى قوله: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى» [الزمر: ٣] «هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ». [يونس: ١٨].

فأبطل الله ذلك، ونزّه نفسه عن هذا الشرك. وسيأتى تقرير هذا المقام إن شاء الله تعالى.

وفى (صحيح البخارى): «يا بنى عبد مناف، لا أغنى عنكم من الله شيئاً».

قوله: «يا عباس بن عبد المطلب». بنصب ابن، ويجوز فى عباس الرفع والنصب، وكذا فى قوله: «يا صفية عمّة رسول الله»، و«فاطمة بنت محمد».

قوله: [١/٦٤] «سَلِّينِي مِنْ مَّأَلَى مَا شِئْتِ». بَيْنَ ﷺ/ أنه لا يُنجى من عذاب الله إلا الإيمان، والعمل الصالح.

وفيه: أنه لا يجوز أن يُسأل العبد إلا ما يقدر عليه، من أمور الدنيا. وأما الرحمة والمغفرة، والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كلّ ما لا يقدر عليه إلا الله، فلا يجوز أن يُطلب إلا منه.

فإنّ ما عند الله لا يُنال إلا بتجريد التوحيد، والإخلاص له بما شرعه ورضيه لعباده أن يتقربوا إليه به.

فإذا كان لا ينفع ابنته وعمه وعمته وقرباته إلا ذلك، فغيرهم أولى وأحرى.
وفى قصة عمه أبى طالب مُعتبر.

فانظر إلى الواقع من كثيرٍ من الناس: من الالتجاء إلى الأموات، والتوجه إليهم
بالرغبات والرهبات. وهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن
غيرهم. يتبين لك أنهم ليسوا على شيء ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُهْتَدُونَ﴾. [الاعراف: ٣٠].

أظهر لهم الشيطانُ الشرك في قالب محبة الصالحين، وكلُّ صالحٍ يبرأ إلى الله
من هذا الشرك في الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

ولا ريب أنَّ محبة الصالحين: إنما تحصلُ بموافقتهم في الدين، ومتابعتهم
في طاعة رب العالمين. لا باتخاذهم أنداداً من دون الله، يُحبونهم كحب الله،
إشراكاً بالله وعبادة لغير الله، وعدواةً لله ورسله والصالحين من عباده؛ كما
قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَيْنِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ
عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ
لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ
فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.
[المائدة: ١١٦ - ١١٧].

قال العلامة ابن القيم في هذه الآية - بعد كلام سبق -: ثم نفى أن يكون قال
لهم غير ما أمر به، وهو محضُ التوحيد؛ فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ
اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد
الوفاة لا اطلاع له عليهم، وأنَّ الله عز وجل المنفردُ بعد الوفاة/ بالاطلاع عليهم، [٦٤/ب]
فقال: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ
وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وصفه سبحانه: بأنَّ شهادته فوق كلِّ شهادة، وأعم.
انتهى ملخصاً.

قلتُ: ففى هذا بيانُ أنَّ المشركين خالفوا ما أمر الله به رسله: من توحيدهِ الذى هو دينهم، الذى اتفقوا عليه ودعوا الناس إليه، وفارقوهم فيه إلا من آمن. فكيف يُقال لمن دان بدينهم، وأطاعهم فيما أمروا به من إخلاص العبادة لله وحده: إنه قد تنقَّصهم بهذا التوحيد الذى أطاع به ربه، واتبع فيه رسله عليهم السلام، ونزَّه به ربَّه عن الشرك الذى هو هضمٌ للربوبية، وتنقصٌ للإلهية، وسوءٌ ظن برب العالمين؟! .

والمشركون هم أعداءُ الرسل وخصماؤهم فى الدنيا والآخرة، وقد شرعوا لاتباعهم أن يتبرؤوا من كلِّ مشرك، ويكفروا به، ويبغضوه ويعادوه فى ربهم ومعبودهم: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ . [الأنعام: ١٤٩] .

(١٥)

باب

قول الله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. [سبا: ٢٣].

ش: قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: زال الفزع عنها. قاله ابن عباس، وابن عمر، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي، والشعبي، [والحسن]^(١) وغيرهم.

وقال ابن جرير: قال بعضهم: الذى فُزِعَ عن قلوبهم: الملائكة. قالوا: وإنما فُزِعَ عن قلوبهم، من غَشية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحي^(٢).

وقال ابن عطية: فى الكلام حذفٌ يدلُّ عليه الظاهر. كأنه قال: ولا هم شفعاء كما تزعمون أنتم، بل هم عبدةٌ مسلمون أبداً، يعنى منقادون، حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم، والمراد: الملائكة. على ما اختاره ابن جرير، وغيره.

قال ابن كثير: وهو الحق الذى لا مَرِيَّةَ فيه؛ لصحة الأحاديث فيه والآثار^(٣).

وقال أبو حيان^(٤): تظاهرت الأحاديثُ عن رسول الله ﷺ، أنَّ قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ إنما هى فى الملائكة، إذا سمعت الوحيَ إلى جبريل يأمره الله به، سمعت كجبر سلسلة الحديد على الصَّفوان، فتفزعُ عند ذلك تعظيماً وهيبةً.

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) «تفسير الطبرى» (٢٢ / ٩٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٦ / ٥٠٣).

(٤) محمد بن يوسف بن على الجياني، مفسرُ نحوى (ت ٧٤٥هـ) «شذرات الذهب» (٦ / ١٤٥).

[٦٥ / ١] قال: / وبهذا المعنى - مِنْ ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ فِي صَدْرِ الْآيَةِ - تَتَسَقُّ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى الْأُولَى، وَمَنْ لَمْ يَشْعُرْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مُشَارٌّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَوَّلِ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ لَمْ تَتَّصِلْ لَهُ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَا قَبْلُهَا.

قوله: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ولم يقولوا: ماذا خلق ربنا؟ ولو كان كلامُ الله مخلوقاً، لقالوا: ماذا خلق؟! انتهى. من (شرح سنن ابن ماجه).
ومثله الحديث «ماذا قال ربنا يا جبريل؟»^(١) وأمثالُ هذا في الكتاب والسنة كثير.

وقوله: ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾ أى: قالوا: قال الله الحق. وذلك لأنهم إذا سمعوا كلامَ الله صُعِقُوا، ثم [إذا]^(٢) أفاقوا أخذوا يسألون، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيقولون: قال الحق.

قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. علوُ القدر وعلوُ القهر وعلوُ الذات، فله العلوُ الكامل من جميع الوجوه؛ كما قال عبدُ الله بن المبارك - لما قيل له: بماذا نعرف ربنا؟. قال: بأنه على عرشه، بائنٌ من خلقه. تمسكاً منه بالقرآن، لقول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. [طه: ٥] ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾. [الفرقان: ٥٩] فى سبعة مواضع فى القرآن.

قوله: ﴿الْكَبِيرُ﴾. الذى لا أكبر منه ولا أعظم، تبارك وتعالى.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: فى الصحيح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، ينفذهم ذلك، حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم. قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلى الكبير، فيسمعها مُسْتَرَقُّ السمع - ومُسْتَرَقُّ السمع هكذا بعضه فوق بعض، وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه -، فيسمع الكلمة فيلقها إلى من تحته، ثم يلقها الآخر إلى من تحته، حتى يلقها على لسان الساحر أو الكاهن. فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها،

(١) قطعة من حديث النّوّاس بن سميّان، سيّأتى قريباً.

(٢) ساقط من الأصل و(ض) و(هـ).

وربما ألغاهما قبل أن يدركه، فيكذبُ معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»^(١).

ش : قوله : (فى الصحيح) - أى : (صحيح البخارى).

قوله : إذا قضى الله الأمر فى السماء أى : إذا تكلم الله بالأمر الذى يوحىه إلى جبرائيل ، بما أراده ؛ كما صرح به فى الحديث الآتى .

وكما روى سعيد بن منصور، وأبو داود، وابن جرير، عن ابن مسعود «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان»^(٢).

وروى ابن أبى حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال : لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليعثه بالوحي . فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي، فلما كشف عن قلوبهم، سألوا عما قال الله؟ فقالوا: الحق، وعلموا أن الله لا يقول/ إلا حقاً^(٣).

[٦٥/ب]

قوله : «ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله» أى : لقول الله تعالى .

قال الحافظ : خضعاناً . بفتحين، من الخضوع . وفى رواية بضم أوله وسكون ثانية، وهو مصدر بمعنى خاضعين^(٤).

قوله : «كأنه سلسلة على صفوان» أى : كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان، وهو الحجر الأملس .

قوله : «يَنفُذُهم ذلك» هو : بفتح التحتية، وسكون النون، وضم الفاء والذال المعجمة . ذلك . أى : القول . والضمير فى : يَنفُذُهم . للملائكة، أى : ينفذ ذلك القول الملائكة : أى : يخلص ذلك القول، ويمضى فيهم حتى يفرغوا منه .

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٧٠١، ٤٨٠٠، ٧٤٨١).

(٢) سعيد بن منصور، كما فى «الدر المنثور» ٦/ ٦٩٩ وأبو داود فى «السنن» رقم (٤٧٣٨) وابن جرير الطبرى فى «التفسير» ٢٢/ ٩٠.

(٣) ابن أبى حاتم، وابن مردويه، كما فى «الدر المنثور» ٦/ ٦٩٧.

(٤) ابن حجر، «فتح البارى» ٨/ ٥٣٨.

وعند ابن مردويه، من حديث ابن عباس: «فلا ينزل على أهل سماء إلا صُعقوا»^(١).

وعند أبي داود، وغيره مرفوعاً «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل» الحديث^(٢).

قوله: «حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم» تقدم معناه.

قوله: «قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق» أى: قالوا: قال الله الحق، علموا أنه لا يقول إلا الحق.

قوله: «فيسمعها مسترق السمع» أى: يسمع الكلمة التى قضاها الله، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً.

وفى (صحيح البخارى)، عن عائشة مرفوعاً «إن الملائكة تنزل فى العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قُضِيَ فى السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكُهَّان»^(٣).

قوله: (ومسترق السمع، هكذا وصفه سفيان بكفه). أى: وصف ركوب بعضهم فوق بعض.

وسُفيان: هو ابنُ عيينة، أبو محمد الهلالى الكوفى، ثم المكى، ثقةٌ حافظ، فقيه إمام حجة. مات سنة ثمان وتسعين ومائة، وله إحدى وتسعون سنة.

قوله: (فحرفها). بحاء مهملة، وراء مشددة، وفاء.

قوله: (وبدَّد). أى: فرق بين أصابعه.

قوله: «فيسمع الكلمة فيلقبها إلى من تحته» أى: يسمع فوقائى الكلمة، فيلقبها إلى آخر تحته، ثم يلقبها إلى من تحته، حتى يلقبها على لسان الساحر أو الكاهن.

(١) ابن مردويه، كما فى «فتح البارى» (٨ / ٥٣٨).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٢١٠، ٣٢٨٨، ٥٧٦٢، ٦٢١٣، ٧٥٦١).

قوله: «فربما أدركه الشهابُ قبل أن يلقيها» الشهاب: هو النجم الذي يُرمى.
أى: ربما أدرك الشهابُ المسترق.

وهذا/ يدلُّ على أنَّ الرمي بالشَّهْب كان قبل المبعث؛ لما روى أحمدُ، وغيره - [١/٦٦]
والسياق له فى (المسند)، من طريق مَعْمَر -: أنبأنا الزهرى، عن على بن حسين،
عن ابن عباس، قال: كان رسولُ الله ﷺ جالساً فى نفر من أصحابه - قال عبدُ
الرزاق: من الأنصار - قال: فرُمى بنجم عظيم، فاستنار، قال: «ما كنتم تقولون
إذا كان مثل هذا فى الجاهلية؟» قال: كنا نقول: لعلة^(١) يولد عظيم أو يموت
عظيم - قلتُ للزهرى: أكان يُرمى فى الجاهلية؟ قال: نعم، ولكن غلظت حين
بُعِثَ النبي ﷺ - [قال]^(٢): «فإنه^(٣) لا يُرمى بها لموت أحد، ولا لحياته. ولكن ربنا
تبارك اسمه: إذا قضى أمراً سَبَّحَ حملةُ العرش، ثم سبَّح أهلُ السماء الذين
يلونهم، ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا. ثم يستخبر أهلُ
السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش:
ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهلُ كل سماء سماءً، حتى ينتهى الخبرُ إلى
هذه السماء، ويخطفُ الجنُّ السمعَ فيُرمون. فما جاءوا به على وجهه فهو حق،
ولكنهم يقرِّفون فيه ويزيدون». قال عبدُ الله: قال أبى، قال عبد الرزاق ويخطف
الجنُّ ويرمون» وفى رواية له «لكنهم يزيدون فيه، ويقرِّفون وينقصون»^(٤).

قوله: «فيكذب معها مائة كذبة» أى: الكاهن، أو الساحر.

وكذبة. بفتح الكاف، وسكون الذال المعجمة.

قوله: «فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا» هكذا فى نسخة
يخط المصنف رحمه الله، كالذى فى (صحيح البخارى) سواء.
قال المصنّف: وفيه: قبولُ النفوس للباطل. يتعلّقون بواحدة، ولا يعتبرون
بمائة^(٥).

(١) كلمة: لعلة. ليست فى النسختين المطبوعتين من «المسند».

(٢) إضافة من (هـ) و(ط) و«المسند» (ط). المعارف ٢٦٨/٣.

(٣) الأصل و(هـ) و(ط): فإنها. «والمثبت» من (ض) و«المسند».

(٤) أحمد فى «المسند» (١/ ٢١٨)، وأخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢٩).

(٥) المسألة الثامنة عشرة.

وفيه: أن الشيء إذا كان فيه شيء من الحق، فلا يدلُّ على أنه حقُّ كلُّه. فكثيراً ما يلبس أهلُ الضلالِ الحقَّ بالباطل، ليكون أقبل لباطلهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٤٢].

وفى هذه الأحاديث وما بعدها، وما فى معناها: إثباتُ علو الله تعالى على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام [٦٦/ب] يسمعه الملائكة/. وهذا قول أهل السنة قاطبة سلفاً وخلفاً، خلافاً للأشاعرة والجهمية، ونفاة المعتزلة. فإياك أن تلتفت إلى ما رخرقة أهلُ التعطيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن النّوّاس بن سَمْعان، قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أراد الله تعالى أن يُوحى بالامر تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفةً - أو قال رعدةً - شديدةً، خوفاً من الله عز وجل. فإذا سمع ذلك أهلُ السموات صُعقوا وخرّوا لله سجداً. فيكون أوّل من يرفع رأسه جبريلُ، فيكلّمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمرّ جبريل على الملائكة، كلّما مرّ بسماء سألها ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق، وهو العليّ الكبير. فيقولون كلّهم مثل ما قال جبريل، فينتهى جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل».

ش: هذا الحديث: رواه ابنُ أبي حاتم، بسنده، كما ذكره العمادُ ابن كثير فى (تفسيره) (١).

النّوّاسُ بن سَمْعان - بكسر السين - بن خالد الكلابي، ويقال: الأنصاري، صحابي. ويقال: إنَّ أباه صحابيٌّ أيضاً.

قوله: «إذا أراد الله أن يُوحى بالامر» إلى آخره، فيه: النصُّ على أن الله تعالى يتكلّم بالوحي. وهذا من حجة أهل السنة - على النفاة - لقولهم: لم يزل الله متكلماً إذا شاء.

قوله: «أخذت السموات منه رجفةً» السموات مفعول مقدّم، والفاعل رجفة، أى: أصاب السموات من كلامه تعالى رجفة، أى: ارتجفت.

(١) «تفسير ابن كثير» (٦ / ٥٠٤).

وهو صريحٌ في أنها تسمع كلامه تعالى؛ كما روى ابنُ أبي حاتم، عن عكرمة، قال: إذا قضى الله أمراً تكلمَ تبارك وتعالى، رجفت السموات والأرض والجبال، وخرَّت الملائكة كلُّهم سجداً^(١).

قوله: أو قال: «رعدةٌ شديدة». شكٌ من الراوى. هل قال النبي ﷺ رجفة، أو قال: رعدة. والراء مفتوحة فيهما.

قوله: «خوفاً من الله عز وجل» وهذا ظاهرٌ في أنَّ السموات تخاف الله، بما يجعل الله تعالى فيها من الإحساس، ومعرفة مَنْ خَلَقَهَا.

وقد أخبر تعالى: أنَّ هذه المخلوقات العظيمة تُسَبِّحُ؛ كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّنْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ [مريم: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَغْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. [البقرة: ٧٤].

[١/٦٧]

وقد قرَّر العلامة ابن القيم رحمه الله: أنَّ هذه المخلوقات، تسبح الله وتخشاه حقيقة، واحتج بهذه الآيات ونحوها.

وفي البخارى: عن ابن مسعود، قال: كنا نسمعُ تسبيحَ الطعام، وهو يؤكل^(٢).

وفي حديث أبي ذر: أنَّ النبي ﷺ أخذ في يده حصياتٍ، فسَمِعَ لهن تسبيح. الحديث^(٣).

(١) ابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٦/ ٧٠٠).

(٢) البخارى في «الصحيح» رقم (٣٥٧٩)، وأخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٤٦٠).

(٣) أخرجه البزار في «المسند» رقم (٢٤١٣، ٢٤١٤) (كشف) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٩٩):

رجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف، وقال (١٧٩/٥): وإسناده صحيح. وأبو نعيم في

«الدلائل» رقم (٣٣٩) والبيهقي في «الدلائل» (٦٤/٦) والتميمي في «الدلائل» رقم (٢٩٦) والطبراني في

«الأوسط» في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٩٩) قال ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٥٩٢): ليس له إلا هذه

الطريق الواحدة مع ضعفها. وأخرجه من طريق آخر: أبو نعيم في «الدلائل» رقم (٣٣٨)، ومن طريق

ثالث أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (١٧٩/٥) وقال: وفيه محمد بن أبي سُميد،

وهو ضعيف.

وفى الصحيح: قصة حنين الجذع، الذى كان يخطبُ عليه النبىُّ ﷺ قبل اتخاذ المنبر^(١). ومثلُ هذا كثير.

وقوله: «صُعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سَجْدًا» الصَّعَقُ: هو الغشى، ومعه السجود.

وقوله: «فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جَبْرِيلُ» بفتح أول؛ خبر يكون تقدم على اسمها. ويجوز العكس.

ومعنى جبريل: عبد الله؛ كما روى ابن جرير، وغيره، عن على بن الحسين، قال: كان اسم جبريل: عبد الله، واسم ميكائيل: عبید الله، وإسرافيل: عبد الرحمن. وكلُّ شىءٍ رجع إلى إيل، فهو مُعَبَّدٌ لله عز وجل^(٢).

وفيه: فضيلةُ جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾. [التكوير: ١٩ - ٢١].
قال ابن كثير رحمه الله: إنه لتبليغ رسول كريم^(٣).

قال أبو صالح^(٤) - فى الآية - قال: جبريلُ يدخلُ فى سبعين حجاباً من نور، بغير إذن^(٥).

ولأحمد - بإسنادٍ صحيح - عن ابن مسعود، قال: رأى رسولُ الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح، كلُّ جناحٍ قد سدَّ الأفق. يسقط من جناحه من التهاويل^(٦) والدر والياقوت، ما الله به عليم^(٧).

فإذا كان هذا عِظَمُ هذه المخلوقات، فخالقها أعظمُ وأجلُّ وأكبر. فكيف يسوى

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٥٨٣) والترمذى فى «الجامع» رقم (٥٠٥) من حديث ابن عمر.

(٢) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١/ ٤٣٧).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦١).

(٤) ميزان البصرى، مشهور بكنيته، من تلاميذ ابن عباس، مقبول. «تقريب» (٥٥٥).

(٥) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٣٠/ ٨٠).

(٦) التهاويل: واحدها تهوَال، وهى الأشياء المختلفة الألوان، التى تهول الانسان ونحيره «النهاية» (٥/ ٢٨٣).

(٧) أحمد فى «المسند» (١/ ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٧، ٤١٢، ٤٦٠) قال الحافظ ابن كثير فى «التفسير» (٧/ ٤٢٧):

إسناده حسن، وأصل الحديث: عند البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٨٥٦) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٨٢).

به غيره فى العبادة. دعاءً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً، وغير ذلك من العبادات التى لا يستحقها غيره؟ فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِه يَعْملُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾. [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].

قوله: «فینتهی جبریل/ بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل» «من السماء [٦٧/ب] والأرض» وهذا تمام الحديث.

والآيات المذكورة فى هذا الباب، والاحاديث: تُقرّر التوحيد، الذى هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله.

فإنَّ الملك العظيم، الذى تُصعق الأملاك من كلامه خوفاً منه ومهابة، وترجف منه المخلوقات. الكامل فى ذاته وصفاته، وعلمه وقدرته، وملكه وعزّه وغناه عن جميع خلقه، وافتقارهم جميعهم إليه، ونفوذ قدره وتصرف فيه لعلمه وحكمته: لا يجوز شرعاً ولا عقلاً، أن يُجعل له شريك من خلقه فى العبادة التى هى حقه عليهم.

فكيف يُجعل المربوب رباً، والعبد معبوداً؟ أين ذهبت عقول المشركين؟! سبحان الله عما يشركون.

وقال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾. [مريم: ٩٣ - ٩٥].

فإذا كان الجميع عبيداً: فلمَ يعبدُ بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع؟! ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم، تزجرهم عن ذلك الشرك، وتنهاهم عن عبادة ما سوى الله. (انتهى من شرح سنن ابن ماجة).

(١٦) باب الشفاعة

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ الشفاعة.

ش: أى: بيانُ ما أثبتته القرآنُ منها وما نفاه، وحقيقةُ ما دلَّ القرآنُ على إثباته.
قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

ش: الإنذار: هو الإعلامُ بأسبابِ المخافة، والتحذيرُ منها.
قوله: به. قال ابنُ عباس: بالقرآن، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وهو المؤمنون.

وعن الفضيل بن عياض: ليس كلُّ خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون، فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أى: وهم المؤمنون، أصحاب القلوب الواعية.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قال الزجاج: موضع ليس: نصب على الحال، كأنه قال: متخلّين، من وليّ وشفيع. والعاملُ فيه: يخافون.
قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: فيعملون فى هذه الدار عملاً، ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿قُلْ لِّلّٰهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾.

ش: وقبلها ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ / قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا

يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ [الزمر: ٤٣] وهذه الآية، كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨] فيبين تعالى في هذه الآيات، وأمثالها: أنَّ وقوع الشفاعة على هذا الوجه، منتفٍ وممتنع.

وأنَّ اتخاذهم شفعاء شرك، يتنزّه الرب تعالى عنه. وقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الاحقاف: ٢٨] فيبين تعالى: أنَّ دعواهم أنهم يشفعون لهم بتألهيهم، أنَّ ذلك منهم إفكٌ وافتراء.

وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مالكها، وليس لمن تطلب منه شيء منها، وإنما تطلب ممن يملكها دون كلِّ ما سواه؛ لأن ذلك عبادة، وتأله لا يصلح إلا لله.

قال البيضاوي: لعله ردٌّ لما عسى أن يُجيبوا به، وهو أنَّ الشفعاء أشخاصٌ مقربون.

وقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقريرٌ لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه؛ لأنه مالكُ الملك، فاندرج في ذلك ملكُ الشفاعة. فإذا كان هو مالكها، بطل أنَّ تطلب ممن لا يملكها ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾. [الأنبياء: ٢٨].

قال ابن جرير: نزلت لما قال الكفار: ما نعبُدُ أوثاننا هذه، إلا ليقربونا إلى الله رُفقى. قال الله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١﴾﴾ [الزمر: ٤٤].

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. [البقرة: ٢٥٥].

(١) ابن جرير، «التفسير» (٥/ ٣٩٥).

ش : قد تبين مما تقدم من الآيات : أنَّ الشفاعة التي نفاها القرآن، هي التي تُطلب من غير الله .

وفى هذه الآية : بيان أنَّ الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة بإذنه، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ . [طه : ١٠٩] .

فبين أنها لا تقع لأحد، إلا بشرطين : إذنُ الرب تعالى للشافع أن يشفع، ورضاهُ عن المأذون بالشفاعة فيه . وهو تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، إلا ما أريد به وجهه، ولقى العبدُ به مخلصاً غيرَ شاكٍ في ذلك؛ كما دلَّ على ذلك الحديثُ الصحيح^(١) . وسيأتى ذلك مقررًا، في كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى . /

[٦٨/ب]

قال المصنّف رحمه الله تعالى : وقوله : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم : ٢٦] .

ش : قال ابن كثير : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ كقوله : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعَةَ هذه الأنداد عند الله، وهو لم يشرع عبادتها، ولا أذن فيها . بل قد نهى عنها على السنة جميع رسله، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه؟^(٢) .

قال المصنّف رحمه الله تعالى : وقوله : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَالَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ . [سبا : ٢٢ - ٢٣] .

ش : قال ابن القيم رحمه الله تعالى، في الكلام على هذه الآيات : وقد قطع

(١) منها حديث أبي هريرة، عند مسلم في الصحيح رقم (١٩٠٥)، وحديث أبي موسى الأشعري رقم

(١٩٠٤) وفيه : «من قاتل لتكون كلمة الله أعلَى فهو في سبيل الله» .

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧ / ٤٣٤) .

الله الأسباب التي يتعلّق بها المشركون جميعها. فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا لمن فيه خصلة من هذه الأربع: إمّا مالك لما يريدُه عابده منه، فإن لم يكن مالكا كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان مُعيناً له وظهيراً، فإن لم يكن مُعيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده.

فنفي سبحانه المراتب الأربع نفياً مُرتباً، منتقلاً من الأعلى إلى الأدنى. فنفي الملك والشركة، والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية: نوراً وبرهاناً، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها.

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له. ويظنه في نوع وقوم قد خلّوا من قبل، ولم يُعقبوا وارثاً. وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله، إن كان أولئك قد خلّوا، فقد ورثهم من هو مثْلهم أو شرّ منهم، أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك^(١).

ثم قال: ومن نوعه - أي: الشرك - طلبُ الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم.

[١/٦٩] وهذا أضلُّ شرك العالم؛ فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، فضلاً لمن استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده. فإنّه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإِذنه وإنما السبب كمالُ التوحيد. فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإِذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها. وهذه حالة كلِّ مشرك.

فجمعوا: بين الشرك بالمعبود، وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص بالأموات. وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بدمهم وعيبيهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص؛ إذ ظنوا أنهم راضون

(١) ابن القيم، «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٣).

منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه. وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم.

وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيد الله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده.

فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانت به بالله، والتجاء إلى الله، واستغاثته بالله، وقصده الله. متبعاً لأمره، مُتطلباً لمرضاته. إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل الله. فهو لله، وبالله، ومع الله. انتهى كلامه رحمه الله^(١).

وهذا الذى ذكره هذا الإمام: هو حقيقة دين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيفَةً﴾. [النساء: ١٢٥].

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال أبو العباس: نفى الله عما سواه، كل ما يتعلق به المشركون. فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله. ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾. [الأنبياء: ٢٨].

فهذه الشفاعة التى يظنها/ المشركون: هى مُنتفِية يوم القيامة كما نفاها القرآن، [٦٩/ب] وأخبر النبى ﷺ: أنه يأتى فيسجدُ لربه ويحمده. لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تُعط واشفع تُشفع»^(٢).

وقال له أبو هريرة: من أسعدُ الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»^(٣) فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

(١) ابن القيم، «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦).

(٢) قطعة من حديث الشفاعة: أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٣٤٠، ٣٣٦١، ٤٧١٢) ومسلم فى

«الصحيح» رقم (١٩٤) من حديث أبى هريرة.

(٣) سياتى تخريجه.

وحقيقته: أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمَه وينال المقام المحمود. فالشفاعة التى نفاها القرآن: ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص^(١).

ش: قوله: (قال أبو العباس): هو كنية شيخ الإسلام، أحمد بن عبد الحلیم ابن عبد السلام ابن تيمية الحراني، إمام المسلمين رحمه الله.

قوله: (وقال له أبو هريرة) إلى آخره. هذا الحديث رواه البخارى، والنسائي، عن أبي هريرة^(٢).

ورواه أحمد، وصححه ابن حبان، وفيه: «وشفاعتى لمن قال: لا إله إلا الله مخلصاً، يُصدق قلبه لسانه، ولسانه قلبه»^(٣).

وشاهده فى (صحيح مسلم)، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يُشرك بالله شيئاً»^(٤).

وقد ساق المصنف رحمه الله كلام شيخ الإسلام هنا، فقام مقام الشرح والتفسير لما فى هذا الباب من الآيات. وهو كافٍ وافٍ، بتحقيق مع الإيجاز. والله أعلم. وقد عرّف الإخلاص بتعريف حسن، فقال: الإخلاص: محبة الله وحده، وإرادة وجهه^(٥).

وقال ابن القيم رحمه الله - فى معنى حديث أبي هريرة -: تأمل هذا الحديث كيف جعل الأسباب التى تُنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تُنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم ومولاتهم. فقلّب النبي ﷺ ما فى

(١) ابن تيمية، «الكلام على حقيقة الإسلام» (١١٩ - ١٢١).

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٩٩)، (٦٥٧٠)، والنسائي فى «السنن الكبرى» فى كتاب «العلم» كما فى «تحفة الأشراف» (٩/ ٤٨٣).

(٣) أحمد فى «المسند» (٢/ ٣٠٧) وابن حبان فى «الصحيح» (٨/ ١٣١).

(٤) مسلم فى «الصحيح» رقم (١٩٩)، وأخرجه أحمد فى «المسند» (٢/ ٢٧٥).

(٥) ابن القيم، «مدارج السالكين» (٢/ ٨٩).

زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن الله [١/٧٠] للشافع أن يشفع.

ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً، أنه يشفع له وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع من والاهم.

ولم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله؛ كما قال في الفصل الأول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ وبقي فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيدَه واتباع رسوله ﷺ. فهذه ثلاثة فصول، تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاما وعقلها. انتهى^(١).

وذكر أيضاً رحمه الله: أن الشفاعة ستة أنواع:

الأول: الشفاعة الكبرى، التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام، حتى تنتهي إليه ﷺ، فيقول: أنا لها^(٢). وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء، ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف. وهذه شفاعة يختص بها، لا يشركه فيها أحد.

الثاني: شفاعته لأهل الجنة، في دخولها. وقد ذكرها أبو هريرة، في حديثه الطويل المتفق عليه^(٣).

الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمته، قد استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد، الذين يدخلون النار بذنوبهم. والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدعوا من أنكروها، وصاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضلال.

(١) ابن القيم «مدارج السالكين» (١/ ٣٤١).

(٢) قطعة من حديث: أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٧٥١٠) ومسلم في «الصحيح» رقم (١٩٣) من حديث أنس.

(٣) مضي تخريجه قريباً.

الخامس: شفاعته لقوم من أهل الجنة، في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم. وهذه مما لم يُنازع فيها أحد.

وكلها مختصة بأهل الإخلاص، الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شافعاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾. [الأنعام: ٥١].

السادس: شفاعته في بعض الكفار من أهل النار، حتى يُخَفَّفَ عذابه. وهذه خاصة بأبي طالب وحده.

(١٧)

باب

قول الله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾
من يشاء. وهو أعلم بالمهتدين

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. [القصص: ٥٦].

ش: سببُ نزول هذه الآية: موتُ أبي طالب على ملّة عبد المطلب، كما يأتي بيانُ ذلك في حديث الباب.

قال ابنُ كثير: يقول تعالى لرسوله: إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أى: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي/ من يشاء، وله الحكمة [٧٠/ب] البالغة، والحجة الدامغة؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. [البقرة: ٢٧٢] وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

قلتُ: والمنفَى هنا هدايةُ التوفيق والقبول؛ فإنَّ أمر ذلك إلى الله، وهو القادرُ عليه. وأمّا الهداية المذكورة في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الشورى: ٥٢] فإنها هدايةُ الدلالة والبيان. فهو المبيِّنُ عن الله، والدالُّ على دينه وشرعه.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: في الصحيح، عن ابن المسيّب عن أبيه، قال: لما حضرتُ أبا طالب الوفاة، جاءه رسولُ الله ﷺ وعنده عبدُ الله بن أبي أمية،

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٥٥).

وأبو جهل، فقال له: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله». فقال له: أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعاد. فكان آخرُ ما قال: هو على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ: لا ستغفرونَّ لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

ش: قوله: في (الصحيح)، أى في (الصحيحين).

وابن المسيب، هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ ابن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي، أحدُ العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين. اتفق أهل الحديث على أنَّ مراسيله أصحُّ المراسيل. وقال ابنُ المديني: لا أعلمُ في التابعين أوسع علماً منه. مات بعد التسعين، وقد ناهز الثمانين.

وأبوه المسيب صحابي، بقى إلى خلافة عثمان رضى الله عنه، وكذا جدُّه حزن، صحابيٌّ استشهدَ باليمامة.

قوله: (لَمَّا حضرت أبا طالب الوفاة). أى: علاماتها ومقدماتها.

قوله: (جاءه رسول الله ﷺ). يُحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين؛ فإنهما من بنى مخزوم، وهو أيضاً مخزومي. وكان الثلاثة إذ ذاك كفاراً؛ فقتل أبو جهل على كفره، وأسلم الآخران.

قوله: «يا عم» منادى مُضاف/، يجوز فيه إثباتُ الياء وحذفها. حُذفت الياء هنا، وبقيت الكسرة دليلاً عليها. [١/٧١]

قوله: «قل: لا إله إلا الله» أمره أن يقولها، لِعلم أبى طالب بما دلَّت عليه: من نفى الشرك بالله، وإخلاص العبادة له وحده.

(١) أخرجه البخارى في «الصحيح» رقم (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢، ٦٦٨١)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٤).

فإنَّ من قالها بعلمٍ و يقين، فقد برىء من الشرك والمشرَكين ودخل
فى الإسلام؛ لأنهم يعلمون ما دلَّت عليه. وفى ذلك الوقت، لم
يكن بمكة إلا مسلمٌ أو كافر. فلا يقولها إلا من ترك الشرك، وبرىء
منه.

ولما هاجر النبىُّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة: كان فيها المسلمون الموحِّدون،
والمنافقون الذين يقولون بالسُّتْهم وهم يعرفون معناها لكن لا يعتقدونه، لما فى
قلوبهم من العداوة والشك والريب، فهم مع المسلمين بظاهر الأعمال دون
الباطن.

وفىها اليهود، وقد أقرَّهم رسولُ الله ﷺ لما هاجر، ووادعهم بأن لا
يخونوه ولا يُظاهروا عليه عدوًّا، كما هو مذكورٌ فى كُتُب الحديث
والسِّير.

قوله: «كلمة» قال القرطبى: بالنصب، على أنه بدلٌ من لا إله إلا الله. ويجوز
الربع، على أنه خبرٌ مبتدأ محذوف.

قوله: «أحاجُّ لك بها عند الله» هو بتشديد الجيم، من الحاجة.

وفيه: دليلٌ على أنَّ الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها فى تلك الحال، معتقداً ما
دلَّت عليه مطابقة من النفى والإثبات، لنفعته.

قوله: (فقالا له: أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟). ذكرَّاه الحجة الملعونة،
التي يحتج بها المشركون على المرسلين؛ كقول فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ
الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ
مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾
[الزخرف: ٢٣].

قوله: (فأعاد عليه النبىُّ ﷺ، فأعادا). فيه: معرفتهما معنى لا إله إلا
الله؛ لأنهما عرفا أنَّ أبا طالب لو قالها لتبرا من ملة عبد المطلب. فإنَّ
ملة عبد المطلب هى الشرك بالله فى إلهيته؛ وأمَّا الربوبية فقد أقرَّوا بها كما

تقدم، وقد قال عبدُ المطلب لأبرهة: (١) أنا ربُّ الإبل، والبيتُ له ربُّ يمنعه منك (٢).

[٧١/ب] وهذه المقالة منهما/ عند قول النبي ﷺ لعنه «قل: لا إله إلا الله» استكباراً عن العمل بمدلولها؛ كما قال الله تعالى عنهما، وعن أمثالهما من أولئك المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتَنَا لَشَاعِرٌ مَجْنُونٌ﴾ [الصفات: ٣٥ - ٣٦] فردَّ عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصفات: ٣٧].

فبينَّ تعالى أنَّ استكبارهم عن قول: لا إله إلا الله؛ لدلالاتها على نفى عبادتهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله. فإنَّ دلالة هذه الكلمة على نفى ذلك دلالةٌ تضمن، ودلالاتها عليه وعلى الإخلاص دلالةٌ مطابقة.

ومن حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام، ليبين لعباده أنَّ ذلك إليه، وهو القادرُ عليه دون من سواه.

فلو كان عند النبي ﷺ - الذي هو أفضلُ خلقه - من هداية القلوب وتفريج الكرب، ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيء؛ لكان أحقَّ الناس بذلك وأولاهم به عمه، الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه. فسبحان من بهرتْ حكمته العقول، وأرشد العباد إلى ما يدلهم على معرفته وتوحيده؛ وإخلاص العمل له وتجريده.

قوله: (فكان آخرُ ما قال)، الأحسن فيه الرفع، على أنَّه اسمُ كان. وجملته هو، وما بعدها الخبر.

قوله: (هو على ملة عبد المطلب). الظاهر أنَّ أبا طالب، قال: أنا. فغيره الراوي؛ استقباحاً للفظ المذكور، وهي من التصرفات الحسنة، قاله الحافظ (١).

(١) أبرهة الأشرم بن الصباح أبايكم، من قواد النجاشي، تولى الجيش الذي بعثه إلى اليمن لانتفاذ من بقي من النصاري في تلك البلاد، «تفسير ابن كثير» (٨/٥٠٣).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/٩٠).

(٣) ابن حجر، «فتح الباري» (٨/٥٠٧).

قوله: (وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، قال الحافظ: هذا تأكيدٌ من الراوى فى نفى وقوع ذلك من أبى طالب.

قال المُصَنِّفُ: وفيه الردُّ على من زعم إسلامَ عبد المطلب^(١)، وأسلافه. ومضرةٌ أصحاب السوء على الإنسان، ومضرةٌ تعظيم الأسلاف^(٢).
أى: إذا زاد على المشروع، بحيث تُجعل أقوالهم حجة يُرجع إليها عند التنازع.
قوله: فقال النبى ﷺ: «لَا تَسْتَغْفِرُونَ لَكَ مَا لَمْ أَتِهِ عَنْكَ» قال النووى: وفيه جوازُ الحلف من غير استحلاف. وكانَ الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار، [١/٧٢] تطييباً لنفس أبى طالب.

وكانت وفاة أبى طالب بمكة، قبل الهجرة بقليل.
قال ابنُ فارس: مات أبو طالب، ولرسول الله ﷺ تسعٌ وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً.

وتوفيت خديجةُ أم المؤمنين رضى الله عنها، بعد موت أبى طالب بثمانية أيام.
قوله: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ». أى: ما ينبغي لهم ذلك. وهو خبرٌ بمعنى النهى، والظاهرُ أنَّ هذه الآية نزلت فى أبى طالب؛ فإنَّ الإتيانَ بالفاء المفيدة للترتيب، فى قوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ، بعد قوله: «لَا تَسْتَغْفِرُونَ لَكَ مَا لَمْ أَتِهِ عَنْكَ» يفيد ذلك.
وقد ذكر العلماءُ لنزول هذه الآية أسباباً أُخرى، فلا منافاة؛ لأن أسباب النزول قد تتعدد.

قال الحافظ: أمَّا نزولُ الآية الثانية، فواضحٌ فى قصة أبى طالب. وأمَّا نزول الآية التى قبلها، ففيه نظر.
ويظهر أنَّ المراد: أنَّ الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبى طالب بمدة، وهى عامةٌ فى حقه وحق غيره.

(١) الأصل (ض): أبى طالب. والمثبت من (هـ) و(ط) «كتاب التوحيد». ويرد عليهم أيضاً ما ثبت من حديث أبى سعيد الخدرى، أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٨٨٥)، ٦٥٦٤ ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢١١) وحديث ابن عباس، أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢١٢) وأحمد فى «المسند» (١/ ٢٩٠).

(٢) المسائل: السادسة والثامنة والتاسعة.

يوضح ذلك ما يأتي في التفسير: فانزل الله بعد ذلك ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ
آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، ونزل في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ
أَحْبَبْتَ﴾.

كله ظاهر في أنه مات على غير الإسلام، ويضعف ما ذكره السهيلي: أنه رأى
في بعض كتب المسعودي^(١) أنه أسلم؛ لأن مثل ذلك لا يعارض ما في الصحيح.
انتهى^(٢).

وفيه: تحريم الاستغفار للمشركين، وموالاتهم ومحبتهم؛ لأنه إذا حرم
الاستغفار لهم فموالاتهم ومحبتهم أولى.

(١) أبو الحسن، علي بن الحسين بن علي المسعودي، إخباري صاحب غرائب. قال ابن حجر: وكتبه طافحة بأنه
كان شيعياً معتزلياً. ت (٣٤٥هـ). «لسان الميزان» (٤/ ٢٢٤).

(٢) ابن حجر، «فتح الباري» (٧/ ١٩٥).

(١٨)

باب

ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم
دينهم هو الغلو في الصالحين

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين.

ش: قوله: (تركهم). بالجر عطفاً على المضاف إليه. وأراد المصنف رحمه الله تعالى: بيان ما يؤول إليه الغلو في الصالحين، من الشرك بالله في الإلهية الذي هو أعظم ذنب عصى الله به، وهو ينافي التوحيد الذي دلّت عليه كلمة الإخلاص، شهادة أن لا إله إلا الله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقول الله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

ش: الغلو: هو الإفراط في التعظيم، بالقول والاعتقاد/. أى: لا ترفعوا [٧٢/ب] المخلوق عن منزلته التي أنزل الله، فتزكوه منزلة التي لا تنبغي إلا لله.

والخطاب: وإن كان لأهل الكتاب، فإنه عام يتناول جميع الأمة؛ تحذيراً لهم أن يفعلوا فعل النصارى في عيسى عليه السلام، واليهود في العزير، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم» ويأتى.

فكلُّ من دعا نبياً، أو ولياً من دون الله: فقد اتخذهُ إلهاً، وضاهى النصارى فى شركهم، وضاهى اليهود فى تفريطهم.

فإنَّ النصارى غلوا فى عيسى عليه السلام، واليهود عادوه وسبَّوه وتنقَّصوه. فالنصارى أفرطوا، واليهودُ فرطوا؛ وقد قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِاَكْلَانِ الطَّعَامِ﴾ الآية. [المائدة: ٧٥] ففى هذه الآية وأمثالها: الردُّ على اليهود والنصارى.

قال شيخُ الإسلام: ومن تشبَّه من هذه الأمة باليهود والنصارى، وغلا فى الدين بإفراط فيه أو تفريط، فقد شابهم.

قال: وعلى رضى الله عنه حرَّق الغالية من الرافضة، فأمر بأخايد خُدَّت لهم عند باب كندة، فقتلهم فيها. واتفق الصحابةُ على قتلهم، لكنَّ ابن عباس مذهبه أن يُقتلوا بالسيف من غير تحريق، وهو قولُ أكثر العلماء^(١)

قال المصنَّف رحمه الله تعالى: فى الصحيح، عن ابن عباس - فى قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ - قال: هذه أسماءُ رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا. ولم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم، عبُدت^(٢).

ش: قوله: فى (الصحيح) أى: (صحيح البخارى).

[١/٧٣] وهذا الأثر، اختصره المصنَّف رحمه الله. ولفظ/ ما فى البخارى، عن ابن عباس: صارت الأوثانُ التى فى قوم نوح، فى العرب بعد. أمَّا وَدٌّ: فكانت لكلب، بدوْمَةَ الجندل. وأمَّا سُوَاعٌ: فكانت لهذيل. وأمَّا يَغُوثٌ: فكانت لمراد، ثم لبنى غُطَيْفَ بالجُحُف عند سبأ. وأمَّا يعوق: فكانت لهمدان. وأمَّا نَسْرٌ:

(١) ابن تيمية، ينظر «منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية» (٢٨/١). و«مجموع الفتاوى» (٣٧٠/ ٣٣، ٣٩٤).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٩٢٠) وعبد الرزاق فى «التفسير» (٢١/ ٣٢٠).

فكانت لحمير، لآل ذى الكلاع: أسماء رجال صالحين، فى قوم نوح. إلى آخره.

وروى: عن عكرمة، والضحاك، وابن إسحاق، نحو هذا.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس: أن يغوث ويعوق ونسراً، كانوا قوماً صالحين من بنى آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم. فلما ماتوا، قال أصحابهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادۃ؛ فصوروهم. فلما ماتوا، وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم^(١).

قوله: (إن انصبوا)، هو بكسر الصاد المهملة.

قوله: (انصباباً). جمع نصب، والمراد به هنا: الأصنام المصورة على صور أولئك الصالحين، التى نصبوها فى مجالسهم، وسموها بأسمائهم.

وفى سياق حديث ابن عباس: ما يدل على أن الأصنام تسمى أوثاناً. فاسم الوثن، يتناول كل معبود من دون الله، سواء كان ذلك المعبود قبراً أو مشهداً، أو صورة أو غير ذلك.

قوله: (حتى إذا هلك أولئك). أى: الذين صوروا تلك الأصنام.

قوله: (ونسى العلم)، ورواية البخارى: وتَنَسَّخ. وللكشميهنى^(٢): ونسخ العلم. أى: درست آثاره بذهاب العلماء، وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك. فوقعوا فى الشرك، ظناً منهم أنه ينفعهم عند الله.

قوله: (عُبدت). لما قال لهم إبليس: إن من كان قبلكم كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر.

فهو الذى زين لهم عبادة الأصنام، وأمرهم بها. فصار هو معبودهم فى الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنَى آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ

(١) تفسير الطبرى ٩/٢٩٩.

(٢) أبو الهيثم، محمد بن مكى بن محمد المروزى، محدث ثقة، من رواة صحيح البخارى. ت (٣٨٩هـ) سير

أعلام النبلاء ٤/١٦ (٤٩١).

عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠ - ٦٢﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

[٧٣/ب] وهذا يفيدُ الحذرَ من الغلوِّ ووسائلِ الشرك، وإنْ كان القصدُ بها حسناً.

فإنَّ الشيطانَ أدخل أولئك في الشرك من باب الغلو في الصالحين، والإفراط في محبتهم، كما قد وقع مثلي ذلك في هذه الأمة. أظهر لهم البدعَ والغلو في قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم، ليوقعهم فيما هو أعظم من ذلك، من عبادتهم لهم من دون الله.

وفي رواية، أنهم قالوا: ما عَظَّم أولُنا هولاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله. أى: يرجون شفاعَةَ أولئك الصالحين الذين صَوَّروا تلك الأصنام على صورهم، وسمَّوها بأسمائهم.

ومن هنا يعلمُ أنَّ اتخاذَ الشفعاء، ورجاءَ شفاعتهم بطلبها منهم: شركٌ بالله، كما تقدم بيانه في الآيات المحكمات.

قال المصنَّفُ رحمه الله تعالى: وقال ابنُ القيم: قال غيرُ واحدٍ من السَّلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صَوَّروا تماثيلهم. ثم طالَ عليهم الأمدُ، فعبدوهم^(١).

ش: قوله: (وقال ابن القيم). هو الإمام العلامة، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية.

قال الحافظ السخاوي: العلامةُ الحجة، المتقدِّمُ في سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان، المجمعُ عليه بين الموافق والمخالف، صاحبُ التصانيف السائرة، والمحاسن الجمة. مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

قوله: (قال غيرُ واحدٍ من السلف). هو بمعنى ما ذكره البخاريُّ، وابنُ جرير. إلا أنه ذكر عكوفهم على قبورهم، قبل تصويرهم تماثيلهم.

وذلك من وسائلِ الشرك، بل هو شرك؛ لأن العكوف لله في المساجد عبادة. فإذا عكفوا على القبور، صار عكوفهم - تعظيماً ومحبة - عبادة لها.

(١) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٣).

قوله: (ثم طال عليهم الأمدُ فعبدوهم). أى: طال عليهم الزمان. وسبب تلك العبادة والموصل إليها: هو ما جرى من الأولين، من التعظيم فى العكوف على قبورهم، ونصب صورهم فى مجالسهم. فصارت بذلك أوثاناً تعبدُ من دون الله، كما ترجم به المصنفُ رحمه الله تعالى.

فإنهم تركوا بذلك دينَ الإسلام، الذى كان أولئك عليه قبل حدوث وسائل هذا الشرك.

فكفروا بعبادة تلك الصور، واتخاذهم شفعاء. وهذا أولُ شرك حدث فى الأرض.

قال القرطبي: وإنما صورَّ أوائلُهم الصور ليتأسوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم. ثم خلفهم قومٌ جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أنَّ أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها. انتهى^(١).

قال ابنُ القيم: وما زال الشيطانُ يُوحى إلى عبَاد القبور، ويُلقى إليهم أنَّ البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأنَّ الدعاء عندها مُستجاب. ثم ينقلُهم من هذه المرتبة إلى الدعاء به، والإقسام على الله به، فإن شأن الله أعظمُ من أن يُقسم عليه، أو يُسأل بأحدٍ من خلقه.

فإذا تقرَّر ذلك عندهم. نقلهم منه إلى دعائه وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثناً تُعلَّقُ عليه القناديلُ والستور، ويُطاف به ويُستلم ويُقبل، ويُحج إليه ويذبح عنده!

فإذا تقرَّر ذلك عندهم. نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذهِ عيداً ومنسكاً، ورأوا أنَّ ذلك أنفعُ لهم فى دنياهم وأخراهم.

وكلُّ هذا مما قد علِمَ بالاضطرار من دين الإسلام. أنه مضافٌ لما بعث الله به رسولٌ ﷺ: من تجريد التوحيد، وأن لا يُعبد إلا الله.

(١) القرطبي، «أحكام القرآن» (١٨ / ٣٠٨)

فإذا تقرر ذلك عندهم. نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقّض أهل
الرتب العالية، وحطّهم عن منزلتهم، وزعم أنه لا حُرمة لهم ولا قدر.

وغضب المشركون واشمأزت قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ
اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] وسرى ذلك في نفوس كثير من الجاهل والطغام، وكثير
من ينتسب إلى العلم والدين. حتى عادوا أهل التوحيد، ورموهم بالعظائم،
ونفروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظموهم، وزعموا أنهم أولياء الله،
وأنصار دينه ورسوله، ويأبى الله ذلك ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾
[الأنفال: ٣٤]. انتهى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى^(١).

[٧٤/ب] وفى القصة فوائد/ ذكرها المصنف رحمه الله:

(٢) منها: أن من فهم هذا الباب وما بعده، تبين له غربة الإسلام، ورأى من
قُدرة الله وتقليبه القلوب العجب.

ومنها: أن أول شرك حدث فى الأرض، سببه محبة الصالحين. أى: المحبة
التي فيها غلو.

ومنها: معرفة أول شيء غير به دين الأنبياء.

ومنها: معرفة سبب قبول البدع، مع كون الشرائع والفطر تُنكرها، وأن سبب
ذلك كله مزج الحق بالباطل، بأمرين:

الأول: محبة الصالحين. والثانى: فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا
به خيراً، فظن من بعدهم أنهم أرادوا غيره.

ومنها: معرفة جبلة الإنسان، فى كون الحق ينقص فى قلبه والباطل يزيد. أى:
فى الغالب.

ومنها: أن فيها شاهداً لما نُقل عن بعض السلف: أن البدعة سبب الكفر، وأنها

(١) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٣١).

(٢) من هنا ساقط من (ط).

أحبُّ إلى إبليس من المعصية؛ لأن المعصية قد يُتابُّ منها، والبدعة لا يُتابُّ منها^(١).

ومنها: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة، ولو حسن قصد الفاعل.

ومنها: معرفة القاعدة الكلية، وهى: النهى عن الغلو، ومعرفة ما يؤول إليه. أى: من الشرك.

ومنها: النهى عن التماثيل، والحكمة فى إزالتها.

ومنها: معرفة عظم شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها. ومنها: - وهى أعجب - قراءتهم إياها فى كتب التفسير والحديث، ومعرفة أنهم لمعنى الكلام، وكون الله تعالى حال بين قلوبهم، حتى اعتقدوا أنَّ فعل قوم نوح هو أفضلُ العبادة، واعتقدوا أنَّ نهى الله ورسوله هو الكفر المبيح للدم والمال. يعنى: لو نهاهم ناهٍ بنهى الله لهم عن الشرك، لكفروهم واستحلوا دمه وماله بذلك.

ومنها: التصريحُ بأنهم لم يُريدوا إلا الشفاعة.

ومنها: ظنُّهم أنَّ الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

ومنها: التصريحُ بأنها لم تُعبد، حتى نُسى العلم. ففيها: معرفة قدر وجوده ومضرةُ فقده.

ومنها: أنَّ سبب فقد العلم موتُ العلماء. انتهى^{(٢) (٣)}.

ومنها: ردُّ الشبه التى يُسمِّيها أهلُ الكلام عقليات، ويدفعون بها ما جاء به الكتابُ والسنة: / من توحيد الصفات، وإثباتها على ما يليقُ بجلال الله وعظمته [١/٧٥] وكبريائه.

ومنها: مضرةُ التقليد.

(١) أخرجه ابن الجعد فى «المسند» رقم (١٨٨٥) عن سفيان.

(٢) إلى هنا ساقط من (ط).

(٣) المسائل: الأولى، والثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، والثامنة، والتاسعة، والعاشر، والثانية عشرة، والثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة، والسادسة عشرة، والتاسعة عشرة، والعشرون.

ومنها: ضرورة الأمة إلى ما جاء به الرسول ﷺ، علماً وعملاً بما يدلُّ عليه الكتاب والسنة، فإنَّ ضرورة العبد إلى ذلك فوق كلِّ ضرورة.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابنَ مريم؛ إنما أنا عبدٌ. فقولوا: عبدُ الله ورسوله» أخرجاه^(١).

ش: قوله: (عن عمر)، هو ابنُ الخطاب بن نفيل - بنون وفاء مصغراً - العدوى، أميرُ المؤمنين، وأفضلُ الصحابة بعد الصديق رضى الله عنهم. ولِى الخلافة عشر سنين ونصفاً، فامتلات الدنيا عدلاً، وفتحت فى أيامه ممالك كسرى وقيصر. واستشهد فى ذى الحجة، سنة ثلاث وعشرين.

قوله: «لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابنَ مريم» الإطراء: مجاوزة الحدِّ فى المدح، والكذب فيه. قاله أبو السعادات. وقال غيره: أى: لا تمدحونى بالباطل، ولا تجاوزوا الحدَّ فى مدحى.

قوله: «إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسوله» أى: لا تمدحونى فتغلوا فى مدحى، كما غلت النصارى فى عيسى عليه السلام، فادَّعوا فيه الإلهية. وإنما أنا عبدُ الله، فصفونى بذلك كما وصفنى ربى، فقولوا: عبدُ الله ورسوله.

فأبى المشركون إلا مخالفة أمره، وارتكاب نهيه. فعظّموه بما نهاهم عنه وحذّروهم منه، وناقضوه أعظمَ مناقضة، وضاهوا النصارى فى غُلُوهم وشركهم، ووقعوا فى المحذور، وجرى منهم من الغلو والشرك شعراً ونثراً ما يطولُ عدّه، وصنّفوا فيه المصنّفات.

وقد ذكر شيخُ الإسلام، عن بعض أهل زمانه: أنه جوّز الاستغاثة بالرسول ﷺ، فى كلِّ ما يُستغاث فيه بالله. وصنّف فى ذلك مصنفاً، ردّه شيخُ الإسلام، وردّه موجودٌ بحمد الله^(٢).

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٤٤٥)، ٦٨٣٠ وأصله عند مسلم فى «الصحيح» رقم (١٦٩١).

(٢) يُعرف بكتاب «الاستغاثة» أو «الرد على البكرى» (على بن يعقوب بن جبريل ت ٧٢٤ هـ. «طبقات الداودى» ٢١٥/٢) طبع محتصره منذ سنوات طويلة.

ويقول: إنه يعلمُ مفاتيح الغيب، التي لا يعلمها إلا الله. وذكر عنهم أشياء من هذا النمط. نعوذُ بالله من عمى البصيرة.

وقد اشتهر في نظم البوصيري، قوله:

يا أكرمَ الخلق ما لى من الودُّ به سواك عند حُلُولِ الحادثِ العَمَمِ^(١)!!

/وما بعده من الآيات، التي مضمونها: إخلاصُ الدعاء، واللياذ والرجاء [٧٥/ب] والاعتماد - في أصيق الحالات، وأعظم الاضطرار - لغير الله.

فناقضوا الرسول ﷺ في ارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة.

وذلك أنَّ الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم، في قالب محبة النبي ﷺ وتعظيمه. وأظهر لهم التوحيد والإخلاص، الذي بعثه الله به في قالب تنقصه.

وهؤلاء المشركون هم المنتقصون الناقصون، أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشدَّ النهي، وفرطوا في متابعتهم. فلم يعبؤوا بأقواله وأفعاله، ولا رضوا بحكمه ولا سلّموا له. وإنما يحصلُ تعظيمُ الرسول ﷺ: بتعظيم أمره ونهيه، والاهتداء بهديه، واتباع سنته، والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه، ونُصرتَه، وموالاة من عمل به، ومعاداة من خالفه.

فعكس أولئك المشركون ما أَراده الله ورسوله علماً وعملاً، وارتكبوا ما نهى الله عنه ورسوله، فالله المتسعمان^(٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: قال: قال رسول^(٣) الله ﷺ: «إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».

(١) من أبيات البردة المشهورة.

(٢) ينظر: كتاب «المحجة في الرد على اللجة» للمؤلف، ورسالته إلى الحفظي «مجموع رسائل وفتاوى» الشيخ عبد الرحمن بن حسن (٨٢ - ٨٤ ط ١٣٤٥هـ).

(٣) قال الشيخ، سليمان بن عبد الله في «تيسير العزيز الحميد» (٣١٧): هكذا ثبت هذا البياض في أصل المصنف. أهد قُلت: وهكذا أيضاً وجدته في نسخة خطية من نُسخ الكتاب. وفي نسخة خطية أخرى، ذكر ما نصه: وفي الصحيح عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ. فذكره.

ش : هذا الحديث، ذكره المصنفُ بدون ذكر راويه. وقد رواه الإمام أحمد،
والترمذى، وابن ماجه، من حديث ابن عباس^(١).

وهذا لفظُ أحمد: عن ابن عباس، قال: قال لى رسول الله ﷺ غَدَاةُ جَمْعٍ:
«هَلُمَّ الْقُطْ لى» فلَقَطْتُ لَهُ حَصِيَّاتٍ، هُنَّ حَصَى الْحَذَفِ. فلما وضعهن فى يده،
قال: «نعم، بأمثال هؤلاء. وإياكم والغلو فى الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم
بالغلو فى الدين».

قال شيخُ الإسلام: هذا عامٌّ فى جميع أنواع الغلو، فى الاعتقادات والأعمال.
وسببُ هذا اللفظ العام: رمى الجمار، وهو داخلٌ فيه. مثل الرمى بالحجارة
الكبار؛ بناءً على أنه أبلغُ من الصغار.

ثم علله بما يقتضى مجانبةَ هَذَى من كان قبلنا؛ إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا
به. وأن المشارك لهم فى بعض هديهم يُخافُ عليه من الهلاك^(٢).

[١/٧٦] قال المصنفُ رحمه الله تعالى: ولمسلم/، عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ
قال: «هلك المتنطمون» قالها ثلاثاً^(٣).

ش: قال الخطابى: المتنطع: المتعمق فى الشىء، المتكلفُ البحث عنه،
على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيههم، الخائضين فيما لا
تبلغه عقولهم^(٤).

ومن التنطع: الامتناع من المباح مُطلقاً، كالذى يمتنعُ من أكل اللحم والخبز،
ومن لبس الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف، ويمتنعُ من نكاح النساء.
ويظنُّ أنَّ هذا من الزهد المستحب، قال الشيخ تقي الدين: فهذا جاهلٌ ضال.
انتهى^(٥).

(١) أحمد فى «المسند» (٢١٥/١، ٣٤٧) وابن ماجه فى «السنن» رقم (٣٠٦٤) ولم أراه فى «الجامع» قال الحافظ
ابن تيمية فى «الافتضاء» (٢٨٩/١): إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) ابن تيمية، «افتضاء الصراط المستقيم» (٢٨٤٩/١ - ٢٩٠).

(٣) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٧٠).

(٤) الخطابى، «معالم السنن» (١٣/٧) (ط المختصر).

(٥) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٠/٥١١).

وقال ابن القيم رحمه الله: قال الغزالي: والمتنطعون في البحث، والاستقصاء!.

وقال أبو السعادات: هم المتعمقون، الغالون في الكلام، المتكلمون بأقاصي حلولهم. مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استعمل في كل متعمق قولاً وفعلاً^(١).

وقال النووي: فيه: كراهة التقعر في الكلام بالتشديق وتكلف الفصاحة، واتعمال وحشى اللغة، ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم^(٢).

قوله: (قالها ثلاثاً). أى: قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغة في التعليم والإبلاغ، فقد بلغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) ابن الأثير، «النهاية» (٧٤/٥).

(٢) النووي، «رياض الصالحين» (٥٩٠).

1

1

1

(١٩)

باب

ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند
قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟!

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده.

ش: أى: الرجل الصالح؛ فإنَّ عبادته هى الشرك الأكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته. ووسائلُ الشرك محرمة؛ لأنها تؤدى إلى الشرك الأكبر، وهو أعظمُ الذنوب.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: فى الصحيح، عن عائشة: أنَّ أمَّ سَلَمَةَ، ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجلُ الصالح أو العبد الصالح، بَنُوا على قبره مَسْجِداً، وصَوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرارُ الخلق عند الله»^(١)، فهؤلاء، جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل^(٢).

ش: قوله: (فى الصحيح). أى (الصحيحين).

قوله: (أنَّ أمَّ سلمة). هى هندُ بنتُ أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية المخزومية. تزوجها النبى ﷺ بعد أبى سلمة، سنة أربع. وقيل: ثلاث. وكانت قد هاجرت مع أبى سلمة إلى الحبشة، ماتت سنة اثنتين وستين. / [٧٦/ب]

قوله: (ذكرت لرسول الله ﷺ). وفى (الصحيحين): أنَّ أمَّ حبيبة وأمَّ سلمة،

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٢٧، ٤٣٤، ١٣٤١، ٣٨٧٨) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٥٢٨).

(٢) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٣).

ذكرنا لرسول الله ﷺ والكنيسة، بفتح الكاف وكسر النون: معبدُ النصارى.

قوله: «أولئك» بكسر الكاف، خطاباً للمرأة.

قوله: «إذا مات فيهم الرجلُ أو العبدُ الصالح» هذا - والله أعلم - شك في بعض رواة الحديث: هل قال النبي ﷺ هذا أو هذا؟ ففيه: التحرى في الرواية، وجواز الرواية بالمعنى.

قوله: «وصوروا فيه تلك الصور» الإشارةُ إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة، من التصوير التي في الكنيسة.

قوله: «أولئك شرارُ الخلق عند الله» وهذا يقتضى تحريم بناء المساجد على القبور، وقد لُعن من فعل ذلك، كما سيأتى.

قال البيضاوى: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم، ويجعلونها قبلةً يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً، لعنهم النبي ﷺ.

قال القرطبي: وإنما صوروا أولئهم الصور ليتأسوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم. ثم خلفهم قومٌ جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها. فحذّر النبي ﷺ عن مثل ذلك؛ سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك.

قوله: (فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل). هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، ذكره المصنف رحمه الله؛ تنبيهاً على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل. فإنَّ الفتنة بالقبور، كالفتنة بالأصنام أو أشد.

قال شيخ الإسلام: وهذه العلة - التي لاجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور - هي التي أوقعت كثيراً من الأمم: إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك.

[١/٧٧] فإنَّ النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها/ طلاسَم الكواكب ونحو ذلك. فإنَّ الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه، أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر. ولهذا تجدد أهل الشرك يتضرعون عندها

ويخشعون ويخضعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت السَّحَر. ومنهم من يسجدُ لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجون في المساجد.

فلأجل هذه المفسدة، حسم النبي ﷺ مَادَّتَهَا، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً، وإن لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد. كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها، لأنها أوقات يقصد المشركون فيها الصلاة للشمس، فنهى أُمته عن الصلاة حينئذٍ وإن لم يقصد ما قصده المشركون، سداً للذريعة.

وأما إذا قصد الرجلُ الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عينُ المُحَادَّةِ لله ولرسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله.

فإنَّ المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ: أنَّ الصلاة عند القبور منهيٌّ عنها، وأنه لعن من اتخذها مساجد. فمن أعظم المحدثات، وأسباب الشرك: الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها. وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهاي عن ذلك، والتغليظ فيه.

وقد صرَّحَ عامَّةُ الطوائف بالنهاي عن بناء المساجد عليها؛ متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة.

وصرَّحَ أصحابُ أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفةٌ أطلقت الكراهة. والذي ينبغي: أن تُحْمَل على كراهة التحريم، إحساناً للظن بالعلماء، وأن لا يُظن بهم أن يجوزوا فعلَ ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهاي عنه. انتهى كلامه رحمه الله (١).

قال المصنَّفُ رحمه الله تعالى: ولهما عنها - أي: عن عائشة - قالت: لما نُزِلَ برسول الله ﷺ، طَفِقَ يطرحُ خَمِصَةً له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال [٧٧/ب]

(١) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧٤).

- وهو كذلك -: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يُحذّر ما صنعوا. ولولا ذلك أبرز قبره؛ غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً. أخرجاه^(١).

ش : قوله: (ولهما). أى: البخارى ومسلم. وهو يغنى عن قوله، فى آخره: أخرجاه.

قوله: (لما نُزل)، هو بضم النون وكسر الزاى. أى: نزل به ملك الموت والملائكة الكرام عليهم السلام.

قوله: (طَفِقَ). بكسر الفاء وفتحها، والكسرُ أفصح، وبه جاء القرآن^(٢). ومعناه: جعل.

قوله: (خَمِيصَةً)، بفتح المعجمة والصاد المهملة: كساء له أعلام.

قوله: (فإذا اغتمَّ بها كشفها). أى: عن وجهه.

قوله: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يبيّن أن من فعل مثل ذلك، حلّ عليه من اللعنة ما حلّ على اليهود والنصارى.

قوله: (يُحذّرُ ما صنعوا)، الظاهر: أن هذا من كلام عائشة رضى الله عنها؛ لأنها فهمت من قول النبى ﷺ ذلك تحذيراً أمته من هذا الصنيع، الذى كانت تفعله اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم، فإنه من الغلو فى الأنبياء. ومن أعظم الوسائل إلى الشرك.

ومن غربة الإسلام: أن هذا الذى لعن رسول الله ﷺ فاعليه - تحذيراً لامته أن يفعلوه معه ﷺ ومع الصالحين من أمته - قد فعله الخلق الكثير من متأخرى هذه الأمة، واعتقدوه قرينة من القربات، وهو من أعظم السيئات والمنكرات، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله.

قال القرطبى فى معنى هذا الحديث: وكلُّ ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها؛ كما كان السبب فى عبادة الأصنام. انتهى.

(١) البخارى فى «الصحیح» رقم (٤٣٥)، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٤٤٤١، ٤٤٤٣، ٥٨١٥) ومسلم فى «الصحیح» رقم (٥٣١).

(٢) قال تعالى: ﴿نَطَقُوا مِصْرًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ سورة ص آية ٣٣.

إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه، وعبادة الصنم. وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف بن يعقوب، حيث قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. [يوسف: ٣٨] نكرة فى سياق النفي، تعم كل شرك.

قوله: (ولولا ذلك)، أى: ما كان يُحذَرُ من اتخاذ قبر النبي ﷺ مسجداً، لأبرز قبره مع قبور أصحابه الذين كانت قبورهم فى البقيع.

قوله: (غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً)، روى بفتح الخاء، وضمها. فعلى [١/٧٨] الفتح: يكون هو الذى خشى ذلك ﷺ، وأمرهم أن يدفنوه فى المكان الذى قبض فيه. وعلى رواية الضم: يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة - غلوا وتعظيماً - بما أبدى وأعاد من النهى والتحذير منه، ولعن فاعله.

قال القرطبي: ولهذا بالغ المسلمون فى سدِّ الذريعة فى قبر النبي ﷺ، فاعلوا حيطان تربيته وسدوا المدخل إليها، وجعلوها محدقةً بقبره ﷺ. ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة - إذ كان مستقبل المصلين، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة - فبنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال؛ حتى لا يتمكن أحدٌ من استقبال قبره. انتهى.

(١) قال المصنف: وفيه من المسائل: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يُعبد الله فيه على قبر رجل صالح، ولو صحَّت نيةُ الفاعل.

ومنها: النهى عن التماثيل، بتغليظ الأمر.

ومنها: نهيه عن فعله عند قبره، قبل أن يوجد القبر.

ومنها: أنه من سنن اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم.

ومنها: لعنه إياهم على ذلك.

ومنها: أن مراده بذلك تحذيره إيانا عن قبره.

(١) من هنا ساقط من (ط).

ومنها: أنها هي العلة في عدم إبرازه. انتهى (١) (٢).

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن جندب بن عبد الله، قال: سمعتُ النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً. ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكرٍ خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك» (٣).

فقد نهى عنه في آخر حياته.

ثم إنه لعن - وهو في السياق - مَنْ فعله. والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبين مسجداً.

وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجداً، فإن الصحابة لم يكونوا لينوا حول قبره مسجداً. وكل موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتُخذ مسجداً، بل كل موضع يُصلّى فيه يُسمى مسجداً؛ كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» (٤).

ثم : قوله: (عن جندب بن عبد الله). أي: ابن سفيان البجلي، وينسب إلى جده، صحابي مشهور. مات بعد الستين.

قوله: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل» أي: امتنع عما لا يجوز لي أن أفعله. والخلة فوق المحبة، والخليل: هو المحبوب غاية الحب، مشتق من الخلة [٧٨/ب] - بفتح الخاء - وهي تخلل المودة/ في القلب، كما قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سُمي الخليلُ خليلاً (٥)

(١) إلى هنا ساقط من (ط).

(٢) المسائل: الأولى، والثانية، والرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، والثامنة.

(٣) مسلم في «الصحيح» رقم (٥٣٢).

(٤) قطعة من حديث: أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢)، ومسلم في «الصحيح» رقم

(٥٢١)، من حديث جابر. والنقل عن ابن تيمية، في «الافتضاء» (٢/ ٦٦٨، ٦٧١).

(٥) من كلام بشر بن برد، «الديوان» (٢٧٨).

هذا هو الصحيح فى معناه؛ كما ذكره شيخ الإسلام، وابن القيم، وابن كثير وغيرهم^(١).

قال القرطبى: وإنما كان ذلك؛ لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته، فلا يسعُ خُلة غيره.

قوله: «فإن الله قد اتخذنى خليلاً» فيه: بيان أن الخُلة فوق المحبة.

قال ابن القيم رحمه الله: وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكملُ من الخُلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمداً حبيبُ الله، فمن جهلهم.

فإن المحبة عامة، والخُلة خاصة، وهى نهاية المحبة. وقد أخبر النبى ﷺ: أن الله قد اتخذهُ خليلاً، ونفى أن يكون له خليلٌ غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب، وغيرهم^(٢). وأيضاً: فإن الله يحبُّ التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين، وخُلتُهُ خاصة بالخليلين^(٣).

قوله: ولو كنت متخذاً من أمتى خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً» فيه: بيان أن الصديق أفضلُ الصحابة.

وفيه: الردُّ على الرافضة وعلى الجهمية، وهما شرُّ أهل البدع، وأخرجهم بعضُ السلف من الثنتين والسبعين فرقة. وبسبب الرافضة حدث الشركُ وعبادة القبور، وهم أولُ من بنى عليها المساجد. قاله المصنف^(٤)، وهو كما قال بلا ريب.

وفيه: إشارةٌ إلى خلافة أبى بكر؛ لأن من كانت محبته لشخص أشد، كان أولى به من غيره. وقد استخلفه على الصلاة بالناس، وغضب ﷺ لما قيل: يصلى بهم عمر، وذلك فى مرضه الذى توفى فيه، صلواتُ الله وسلامه عليه^(٥).

(١) ينظر: ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٢٠٣)، وابن القيم «الجواب الكافى» (١٩٩).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٦٦٢، ٤٣٥٨)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص.

(٣) ابن القيم، «الجواب الكافى» (٢٠٠).

(٤) المسألة الحادية عشرة.

(٥) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٦٤، ٧١٢، ٧١٣) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٤١٨) من حديث عائشة.

واسمُ أبى بكر: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة. الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ، وأفضل الصحابة بإجماع من يُعتمدُ بقوله من أهل العلم. مات فى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وله ثلاث وستون سنة رضى الله عنه^(١).

قوله: «ألا» حرفُ استفتاح «ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد» الحديث. / [٢/٧٩]

قال الخلقالى: (٢) وإنكارُ النبي ﷺ صنيعهم هذا، يخرجُ على وجهين: أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء، تعظيماً لهم.

الثانى: أنهم يجوزون الصلاة فى مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة فى تعظيم الأنبياء. والأول: هو الشرك الجلى،

والثانى: الخفى، فلذلك استحقوا اللعن.

قوله: (فقد نهى عنه فى آخر حياته). أى: كما فى حديث جندب. هذا من كلام شيخ الإسلام، وكذا ما بعده.

قوله: (ثم إنه لعن - وهو فى السياق - من فعله). كما فى حديث عائشة. قلتُ: فكيف يسوغُ مع هذا التغليظ من سيد المرسلين، أن تُعظَّم القبور ويُنَى عليها، ويُصلى عندها وإليها. هذا أعظمُ مشاقَّة ومحادَّة لله تعالى ولرسوله ﷺ، لو كانوا يعقلون.

قوله: (والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبنِ مسجد). أى: من اتخاذها مساجد، الملعون فاعله، وهذا يقتضى تحريم الصلاة عند القبور وإليها. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، مرفوعاً «الأرضُ كُلُّها مسجدٌ إلا المقبرة والحمام» رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه ابنُ حبان، والحاكم^(٣).

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٦٩).

(٢) ينظر: ابن العماد «شذرات الذهب» (٨/ ٣٣٣).

(٣) أحمد فى «المسند» (٣/ ٨٣، ٩٦)، وأبو داود فى «السنن» رقم (٤٩٢) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣١٧)، وابن ماجه فى «السنن» رقم (٧٤٥)، وابن حبان فى «الصحيح» (٣/ ١٠٣، ٣٢/ ٤) والحاكم فى «المستدرک» (١/ ٢٥١) قال ابن تيمية فى «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧٢): أسانيدُه جيدة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: وبالجمله، فمن له معرفه بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفهم عن رسول الله ﷺ مقاصده، جزم جزماً لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغتيه - صيغة «لا تفعلوا» وصيغة «إنى أنهاكم عن ذلك» - ليس لأجل النجاسة، بل هي لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه أو عدم من لا إله إلا الله.

فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ: صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه. فأبى المشركون إلا معصية لأمره، وارتكاباً لنهيه. وغرهم الشيطان، بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ/ والصالحين، [٧٩/ب] وكلما كنتم لها أشد تعظيماً وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد.

ولعمر الله، من هذا الباب دخل على عبّاد يغوث ويعوق ونسر، ودخل على عبّاد الأصنام، منذ كانوا إلى يوم القيامة.

فجمع المشركون بين الغلو فيهم، والطعن في طريقتهم. فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها: من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم^(١).

قال الشارح: ومن علل بخوف الفتنة بالشرك: الإمام الشافعي، وأبو بكر الأثرم^(٢)، وأبو محمد المقدسي^(٣)، وشيخ الإسلام، وغيرهم، وهو الحق الذي لا ريب فيه^(٤).

(١) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٨).

(٢) أحمد بن محمد هانيء الطائي، فقيه محدث، من أصحاب الإمام أحمد (ت ٢٦١هـ). «تاريخ بغداد» (١١٠/٥).

(٣) عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الصالحى الدمشقى، فقيه أصولى محدث (ت ٦١٥هـ) «تاريخ ابن رجب» (١٣٣/٢).

(٤) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد» (٣٢٩).

قوله: (فإنَّ الصحابة لم يكونوا ليبنوا حولَ قبره مسجداً)، أى: لما علموا من تشديده فى ذلك، وتغليظه ولعن من فعله.

قوله: (وكلُّ موضع قُصِدَت الصلاةُ فيه فقد اتَّخذ مسجداً) أى: وإن لم يُبن مسجداً. بل كلُّ موضع يُصَلَّى فيه يسمى مسجداً.

يعنى: وإن لم يُقصد بذلك، كما إذا عرض لمن أراد أن يُصلى، فأوقع الصلاة^(١) فى ذلك الموضع الذى حانت الصلاة^(٢) عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً.

قوله: كما قال ﷺ: «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» أى: فسمى الأرض مسجداً تحجور الصلاة فى كلِّ بقعة منها، إلا ما استثنى من المواضع التى لا تحجور الصلاة فيها كالمقبرة ونحوها.

قال البغوى فى (شرح السنة): أراد أن أهل الكتاب لم تُبح لهم الصلاة إلا فى بيَعهم وكنائسهم، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، تخفيفاً عليهم وتيسيراً، ثم خص من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس. انتهى^(٣).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولاحمد بسند جيد، عن ابن مسعود مرفوعاً «إنَّ من شرار الناس من تُدرِكهم الساعة وهم أحياء»، والذين يتخذون القبور مساجد» رواه أبو حاتم ابن حبان فى (صحيحه)^(٤).

ش : قوله: «إنَّ من شرار الناس» بكسر الشين /، جمعُ شرير.

قوله: «من تُدرِكهم الساعة وهم أحياء» أى: مقدماتها، كخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها. وبعد ذلك يُنفخ فى الصور، نفخة الفزع.

قوله: «والذين يتخذون القبور مساجد» معطوفٌ على خبر إنَّ، فى محل نصب، على نيه تكرار العامل.

(١) ما بينهما ساقط من (ط).

(٢) البغوى، «شرح السنة» (٤١٢/٢).

(٣) أحمد فى «المسند» رقم (٥٣١٦) وابن خزيمة فى «الصحيح» رقم (٨٧٩)، وابن أبي شيبة فى «المصنف»

(٣٤٥/٣) والطبرانى فى «الكبير» كما فى «مجمع الزوائد» (٢٧/٢) وقال: وإسناده حسن.

أى: ومن شرار الناس، الذين يتخذون القبور مساجد. أى: بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد عليها.

وتقدّم فى الأحاديث الصحيحة أنّ هذا من عمل اليهود والنصارى، وأنّ النبي ﷺ لعنهم على ذلك، تحذيراً للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحهم فعل اليهود والنصارى. فما رفع أكثرهم بذلك رأساً، بل اعتقدوا أنّ هذا الأمر قرينة إلى الله، وهو مما يُبعدهم عن الله ويطردهم عن رحمته ومغفرته.

والعجب أنّ أكثر من يدعى العلم بمن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك، بل ربما استحسنوه ورغبوا فى فعله. فلقد اشتدت غربة الإسلام، وعاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة، نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: أمّا بناء المساجد على القبور: فقد صرح عامة الطوائف بالنهى عنه؛ متابعة للأحاديث الصحيحة. وصرح أصحابنا، وغيرهم من أصحاب مالك والشافعى بتحريمه. [قال]^(١): ولا ريب فى القطع بتحريمه.

ثم ذكر الأحاديث فى ذلك، إلى أن قال: وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم، تتعين إزالتها بهدم أو بغيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين^(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: يجب هدم القباب التى بُنيت على القبور؛ لأنها أُسِّست على معصية الرسول ﷺ^(٣).

وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما فى القرافة^(٤) من الابنية، منهم ابن

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٦٦٧).

(٣) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/٢٢٨).

(٤) مقبرة أهل مصر، بها أبنية وسوق قائمة، منسوبة إلى قرافة: بطن من المعافر، نزلوها فسُيّت بهم. «معجم

البلدان» ياقوت الحموى (٤/٣١٧).

الْجُمُيْزَى^(١) وَالظَّهْرِيَّ التَّزَمَّتِيَّ^(٢) وَغَيْرَهُمَا.

وقال القاضي ابن كَجَّ: ^(٣) ولا يجوز أَنْ تُجَصَّصَ القبور، ولا أَنْ يُبْنَى عليها قباب، ولا غير قباب، والوصيةُ بها باطلة.

وقال الأذرعي^(٤): وَأَمَّا بُطْلَانُ الوصيةِ ببناء القباب وغيرها من الأبنية، وإنفاق [٨٠/ب] الأموال الكثيرة، فلا ريب في تحريمه /

وقال القرطبي في حديث جابر - «نهى أَنْ يُجَصَّصَ القبر أو يُبْنَى عليه»^(٥) - وبظاهر هذا الحديث قال مالك، وكره البناء والحصص على القبور. وقد أجازاه غيره، وهذا الحديث حجةٌ عليه.

وقال ابن رُشد^(٦): كره مالكُ البناء على القبر، وجَعَلَ البلاطة المكتوبة. وهو من بدع أهل الطَّول، أحدثوه إرادةَ الفخر والمباهاة والسمعة، وهو مما لا اختلاف فيه^(٧).

وقال الزَّيْلَعِيُّ^(٨) في (شرح الكنز): ويكره أَنْ يُبْنَى على القبر^(٩). وذكر قاضي خان^(١٠): أَنَّهُ لَا يُجَصَّصُ القبر وَلَا يُبْنَى عليه؛ لما رَوَى عن النبي ﷺ أَنَّهُ نَهَى عَنْ

(١) بهاء الدين، على بن هبة الله بن سلامة اللخمي، فقيه محدث (ت ٦٤٩هـ) «طبقات ابن السبكي» (٣٠١/٨).

(٢) ظهير الدين، جعفر بن يحيى بن جعفر، فقيه، شيخ الشافعية في زمانه (ت ٦٨٢هـ) «طبقات ابن السبكي» (١٣٩/٨).

(٣) أبو القاسم، يوسف بن أحمد الدينوري، فقيه شافعي، من أقران أبي حامد (ت ٤٠٥هـ). «طبقات ابن السبكي» (٣٥٩/٥).

(٤) أبو الوليد، أحمد بن عبد الله الأذرعي، فقيه شافعي، له «غنية المحتاج وغيره» (ت ٧٨١هـ) ابن هداية الله «طبقات الشافعية» (٢٣٨).

(٥) سيأتي تخريجه.

(٦) أبو الوليد، محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي، فقيه أصولي مجتهد (ت ٥٢٠هـ) «الديباج المذهب» (٢٤٨/٢).

(٧) ابن رشد، «البيان والتحصيل» (٢٢٠/٢).

(٨) أبو محمد، عثمان بن علي بن مَحْنَن، فقيه حنفي (ت ٧٤٣هـ) «الجواهر المضية» (٥١٩/٢).

(٩) الزيلعي، «تبيين الحقائق» (١/٢٤٦).

(١٠) الحسن بن منصور ابن أبي القاسم الأوزجندی، فقيه حنفي (ت ٥٩٢هـ) «الجواهر المضية» (٩٤/٢).

التجصيص والبناء فوق القبر. والمراد بالكراهة - عند الحنفية - كراهة التحريم. وقد ذكر ذلك ابن نُجَيْم في (شرح الكتر)^(١).

وقال الشافعي رحمه الله: أكره أن يُعظَّم مخلوق، حتى يُجعل قبره مسجداً؛ مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس^(٢). وكلام الشافعي رحمه الله يبين أن مراده بالكراهة: كراهة التحريم.

قال الشارح: وجزم النووي رحمه الله في (شرح المهذب) بتحريم البناء مطلقاً^(٣)، وذكر في (شرح مسلم)^(٤) نحوه أيضاً^(٥).

وقال أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن قدامة - إمام الحنابلة، صاحب المصنفات الكبار (كالمغني) و(الكافي) - : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى» الحديث.

وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام: تعظيم الأموات واتخاذ صورهم^(٦)، والتمسحُ بها والصلاة عندها، انتهى^(٧).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: وأماً المقربة، فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة، ومن انقلبت تربتها أو لم تنقلب.

ولا فرق بين أن يكون بينه وبين الأرض حائل أو لا؛ لعموم الاسم وعموم العلة، ولأن النبي ﷺ لعن الذين اتخذوا قبور الأنبياء مساجد، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس.

وبالجملة، فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيد عن مقصود النبي ﷺ. ثم لا يخلو أن يكون القبر قد بُنى عليه مسجد، فلا يُصلَّى

(١) ابن نُجَيْم، «البحر الرائق» (٢/٩٠٢).

(٢) الشافعي «الأم» (١/٢٧٨).

(٣) النووي، «المجموع شرح المهذب» (٥/٢٧٠).

(٤) النووي، «النهاج شرح مسلم بن الحجاج» (٧/٣٧).

(٥) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد» (٣٣٣).

(٦) الميث من (هـ) و(ط) و(المغني).

(٧) ابن قدامة، «المغني شرح الخرقي» (٢/٥٠٨).

فى هذا المسجد، سواء كان خلف القبر أو أمامه بغير خلاف فى المذاهب؛ لأن النبى ﷺ قال: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، إِلَّا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنَهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ»^(١). وخصَّ قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ؛ لِأَنَّهُ عَكُوفُ النَّاسِ عَلَى قُبُورِهِمْ أَعْظَمُ، وَاتِّخَاذُهَا مَسَاجِدَ [أَشَدُّ]^(٢).

وكذلك إِنْ لَمْ يَكُنْ بُنِيَ عَلَيْهِ مَسْجِدٌ، فَهَذَا قَدْ ارْتَكَبَ حَقِيقَةَ الْمَفْسَدَةِ الَّتِي كَانَ النَّهْيُ عَنْ الصَّلَاةِ عِنْدَ الْقُبُورِ مِنْ أَجْلِهَا. فَإِنَّ كُلَّ مَكَانٍ صَلَّيَ فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا»^(٣) وَإِنْ كَانَ مَوْضِعُ قَبْرِ أَوْ قَبْرَيْنِ.

وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا: لَا يُمْنَعُ الصَّلَاةُ فِيهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَنَاوَلُهَا اسْمُ الْمَقْبَرَةِ. وَلَيْسَ فِي كَلَامِ أَحْمَدَ، وَلَا بَعْضِ أَصْحَابِهِ هَذَا الْفَرْقُ، بَلْ عُمُومُ كَلَامِهِمْ يَقْتَضِي مَنَعَ الصَّلَاةَ عِنْدَ كُلِّ قَبْرِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ عَلِيٍّ، أَنَّهُ قَالَ: لَا أَصَلَّى فِي حِمَامٍ وَلَا عِنْدَ قَبْرِ. فَعَلَى هَذَا: يَكُونُ النَّهْيُ مَتَنَاوِلًا تَحْرِيمَ الْقَبْرِ وَبَنَائِهِ، وَلَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ فِي مَسْجِدٍ بُنِيَ فِي مَقْبَرَةٍ، سِوَاهُ كَانَ لَهُ حَيَاطَانٌ تَحْجِزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُبُورِ أَوْ كَانَ مَكْشُوفًا. قَالَ فِي رَايَةِ الْأَثَرِ: إِذَا كَانَ الْمَسْجِدُ بَيْنَ الْقُبُورِ لَا يُصَلَّى فِيهِ الْفَرِيضَةُ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ حَاجِزٌ فَرُخِّصَ أَنْ يُصَلَّى فِيهِ عَلَى الْجَنَائِزِ، وَلَا يُصَلَّى فِيهِ عَلَى غَيْرِ الْجَنَائِزِ.

وَذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي مَرْثَدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «لَا تُصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ»^(٤) وَقَالَ: إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ. انْتَهَى^(٥).

وَلَوْ تَتَبَعْنَا كَلَامَ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ، لَاحْتَمَلَ عِدَّةُ أَوْرَاقٍ. فَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ الْعُلَمَاءَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَبْنُونَ أَنَّ عِلَّةَ النَّهْيِ، مَا يُوَدِّى إِلَيْهِ ذَلِكَ: مِنَ الْغُلُوِّ فِيهَا، وَعِبَادَتِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

(١) مَضَى تَخْرِيجُهُ.

(٢) إِضَافَةٌ مِنْ (هـ) وَ(ط).

(٣) مَضَى تَخْرِيجُهُ.

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ» رَقْمَ (٩٧٢).

(٥) يَنْظُرُ: ابْنُ تَيْمِيَّةٍ، «اِقْتِضَاءُ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ» (٢/ ٦٧٢).

وقد حَدَّثَ بعد الأئمة، ومن يُعْتَدُّ بقولهم: أناسٌ كَثُرَ في أبواب العلم بالله اضطرابُهم، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابُهم. فقيّدوا نصوصَ الكتاب [والسنة] ^(١) بقيودٍ أوهنت الانقياد، وغيرُوا بها ما قصده الرسول ﷺ بالنهي وأراد.

فقال بعضهم: النهيُ عن البناء على القبور/ يختصُّ بالمقبرة المسبَّلة، والنهي عن [١/٨١] الصلاة فيها لتنجسها بصديد الأموات. وهذا كله باطل، لوجوه:

منها: أنه من القولِ على الله بلا علم. وهو حرامٌ بنصِّ الكتاب.

ومنها: أنَّ ما قالوه لا يقتضي لعنَ فاعله، والتغليظ. وما المانع له من أن يقول: من صَلَّى في بقعة نجسة فعليه لعنة الله. ويلزم على ما قاله هؤلاء: أنَّ النبي ﷺ لم يُبين العلة، وأحال الأمة في بيانها على من يجيء بعده ﷺ، وبعد القرون المُفضَّلة والأئمة.

وهذا باطلٌ قطعاً عقلاً وشرعاً؛ لما يلزمُ عليه من أنَّ الرسول ﷺ عجز عن البيان، أو قصرَ في البلاغ. وهذا من أبطل الباطل؛ فإنَّ النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين، وقدرته في البيان فوقَ قدرة كلِّ أحد، فإذا بطل اللزوم بطل الملزوم.

ويُقال أيضاً: هذا اللعنُ والتغليظ الشديد إنما هو فيمن اتخذ قبورَ الأنبياء مساجد، وجاء في بعض النصوص ما يعمُّ الأنبياء وغيرهم. فلو كانت هذه [هي] ^(٢) العلة لكانت متتفية في قبور الأنبياء؛ لكون أجسادهم طرية لا يكون لها صديدٌ يمنع من الصلاة عند قبورهم. فإذا كان النهيُ عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص، عُلِمَ أنَّ العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين نقلت أقوالهم.

والحمدُ لله على ظهور الحجة وبيان المحجَّة، والحمدُ لله الذي هدانا لهذا، وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

(١) ينظر: ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧٢).

(٢) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢٠)

باب

ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يُصيرها أوثاناً تُعبد من دون الله.

روى مالك في (الموطأ): أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد. اشتد غضبُ الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

ش: هذا الحديث رواه مالكٌ مرسلًا، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار: أن رسول الله ﷺ قال. الحديث.

ورواه ابنُ أبي شيبة في (مُصنّفه)، عن ابنِ عجلان، عن زيد بن أسلم، به. ولم يذكر عطاء^(١). ورواه البزارُ عن زيد، عن عطاء، عن أبي سعيد الخدري، مرفوعاً^(٢).

وله شاهدٌ عند الإمام أحمد بسنده، عن سُهَيْل/ بن أبي صالح، عن أبيه، عن [٨١/ب] أبي هريرة، رفعه «اللهم لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٣).

قوله: (روى مالك في الموطأ). هو الإمام، مالكُ بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، أبو عبد الله المدني. إمامُ دار الهجرة، وأحدُ الأئمة

(١) مالك في «الموطأ» كتاب الصلاة باب الصلاة رقم (٢٦١) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/٣٤٥).

(٢) البراز في «المسند» رقم (٤٤٠) (كشف) وعزاه الحافظ ابن عبد البر في «التمهيد» (٥/٤٢) إلى البزار من طريق عمر بن محمد العمري، وصححه.

(٣) أحمد في «المسند» (٢/٢٤٦).

الأربعة، وأحد المتقنين للحديث؛ حتى قال البخارى: أصحُّ الأسانيد مالكٌ عن نافع عن ابن عمر، مات سنة تسع وسبعين ومائة. وكان مولده [سنة] (١) ثلاث وتسعين. وقيل: أربع وتسعين. قال الواقدي: بلغ تسعين سنة. قوله: «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد» قد استجاب الله دعاءه، كما قال ابن القيم رحمه الله:

فأجاب ربُّ العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه فى عِزَّةٍ وحماية وصيان (٢)
ودلَّ الحديث: على أن قبر النبي ﷺ لو عُبد لكان وثناً، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس، فلا يُوصلُ إليه.

ودلَّ الحديث: على أن الوثن، هو ما يباشر العابدُ من القبور، والتَّوَابُيت التى عليها. وقد عظمت الفتنة بالقبور بتعظيمها وعبادتها، كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: كيف أنتم إذا لبستكم فتنةٌ يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير. تجرى على الناس يتخذونها سنة، إذا غُيِّرَتْ، قيل: غُيِّرَت السنة. (٣) انتهى (٤).

ولخوف الفتنة، نهى عمر رضى الله عنه عن تتبُّع آثار النبي ﷺ: قال ابنُ وضَّاح (٥): سمعتُ عيسى بن يونس (٦)، يقول: أمر عمرُ بن الخطاب بقطع الشجرة التى بُويع تحتها النبي ﷺ (٧). فقطعها؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا يذهبون فيصلُّون تحتها، فخاف عليهم الفتنة (٨).

(١) ساقط من الأصل.

(٢) ابن القيم، «الكافية الشافية» (١٨٠).

(٣) أخرجه الدارمى فى «السنن» رقم (١٩١)، والحاكم فى «المستدرک» (٥١٤/٤).

(٤) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد» (٣٤٠).

(٥) أبو عبد الله، محمد بن وضَّاح بن بزيع، مولى عبد الرحمن بن معاوية، حافظ الاندلس (ت ٢٨٦هـ) «لسان الميزان» (٥/٤١٦).

(٦) ابن أبى اسحاق السَّيِّعِى، نزل الشام مُرابطاً، ثقةٌ مأمون (ت ١٨٧هـ) «تقريب» (٤٤١).

(٧) أخرجه ابن سعد فى «الطبقات» (٢/١٠٠)، وابن أبى شيبة فى «المصنف» (٢/٣٧٥) عن ابن عون عن نافع، قال ابن حجر فى «الفتح» (٤٤٨/٧) إسناده صحيح.

(٨) ابن وضَّاح، «البدع والنهى عنها» (٤٢).

: قال المعروف بن سويد^(١): صَلَّيْتُ مع عمر بن الخطاب بطريق مكة، صلاة الصبح. ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجدٌ صَلَّى فيه النبي ﷺ فهم يُصَلُّون فيه. فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا؛ كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس ويبيعاً. فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد، فليصل. ومن لا، فليمض ولا يتعمدها^(٢).

وفى (مغازي) ابن إسحاق^(٣)، من زيادات يونس بن بكير^(٤)، عن أبي خلفة خالد بن دينار^(٥)، حدثنا أبو العالية، قال: لما فتحنا تُسْتَرَّ^(٦)، وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجلٌ ميت، عند رأسه مصحف. فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أول رجلٍ قرأه من العرب:

قرأته مثل ما أقرأ القرآن. فقلت: لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم، وما هو كائنٌ بعدُ. قلت: فما صنعتُم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة. فلما كان بالليل دفناه، وسوينا القبور كلها لنُعَمِّيهِ على الناس لا ينبشونه. قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حُبِسَتْ عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجلٌ يقال له: دانيال، فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا، إلا شعيرات من قفاه. إن لحوم الأنبياء لا تُبْلِيها الأرض^(٧).

-
- (١) أبو أمية الأسدي الكوفي، تابعي ثقة، عاش مائة وعشرين سنة. «تقريب» (٥٤٠).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٦/٢) وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (٤٢) قال الحافظ ابن تيمية في «التوسل والوسيلة» (٢٠٣) إسناده صحيح.
(٣) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى مولا هم، المدني نزيل العراق، إمام المغازي، صدوقٌ يدلّس، ورمى بالتشيع والقدر (ت ١٥٠هـ) «تقريب» (٤٦٧).
(٤) أبو بكر، ابن واصل الشيباني الجمال الكوفي، صدوقٌ يخطئ (ت ٢٩٩هـ). «تقريب» (٦١٣).
(٥) التميمي السعدي، البصري الخياط، مشهور بكنته، صدوق. «تقريب» (١٨٧).
(٦) مدينة بالشرق الأقصى، فتحت في خلافة عمر رضى الله عنه، ينظر: ياقوت «معجم البلدان» (٢٩/٢) والذهبي «تاريخ الإسلام» (١٩٨/ عهد الخلفاء).
(٧) قال الحافظ ابن كثير في «البدية والنهاية» (٣٧/٢) وهذا إسناده صحيح، إلى أبي العالية. ولكن أن كان تاريخ وفاته محفوظاً من ثلاثمائة سنة، فليس بنبي، بل هو رجلٌ صالح. وأخرجه تميم بن حماد. في «الفتن» رقم (٣٧) مختصراً. قال ابن تيمية في «الاغاثة» (٢٨): وهذا من فعل أهل الكتاب، لا من فعل المسلمين. فليس فيه حجة، فلا يحتج به محتج.

قال ابن القيم: ففى هذه القصة، ما فعله المهاجرون والأنصار من تَعْمِيَةِ قبره؛ لئلا يُفْتَنَ به. ولم يُرْزَوْه للدعاء عنده والتبرك به، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف، ولعبدوه من دون الله^(١).

قال شيخ الإسلام: وهو إنكارٌ منهم لذلك، فمن قصد بقعةً يرجو الخير بقصدها - ولم يستحب الشارعُ قصدها - فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض. سواء قصدها ليصلَّى عندها أو ليدعو عندها، أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله عندها، أو لينسك عندها. بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التى لم يُشرع تخصيصها به، لا نوعاً ولا عيناً.

إلا أن ذلك قد يجوزُ بحكم الاتفاق، لا لقصد الدعاء فيها. كمن يزورها ويسلمُ عليها، ويسألُ الله العافية له وللموتى، كما جاءت السنة به. وأما تحرى الدعاء عندها، بحيث يستشعرُ أن الدعاء هناك أجوبُ منه فى غيره، فهذا هو المنهى عنه. انتهى مُلخصاً^(٢).

[٨٢/ب] قوله: «اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ اتَّخذوا قبور/ أنبيائهم مساجد» ففيه تحريمُ البناء على القبور، وتحريمُ الصلاة عندها، وأن ذلك من الكبائر.

وفى (القرى) للطبرى^(٣): عن أصحاب مالك، عن مالك، أنه كره أن يقول: زرتُ قبرَ النبى ﷺ. وعَلَّل ذلك، بقوله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد» الحديث. كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر؛ لئلا يقع التَّشْبُه بفعل أولئك؛ سداً للذريعة^(٤).

قال شيخ الإسلام: ومالكٌ قد أدرك التابعين، وهم أعلمُ الناس بهذه المسألة، فدلَّ ذلك على أنه لم يكن معروفاً عندهم ألفاظُ زيارة قبر النبى ﷺ. إلى أن قال: وقد ذكروا فى أسباب كراهته لأن يقول: زرتُ قبر النبى ﷺ؛

(١) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٢٢).

(٢) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٨١) وما بعدها.

(٣) أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبى بكر الطبرى المكي، الشافعى، فقيه محدث (ت ٦٧٤هـ). «تذكرة الحفاظ» (٤/ ٢٥٥).

(٤) الطبرى، «القرى لقاصد أم القرى» (٦٢٩).

لأنَّ هذا اللفظ قد صار كثيراً من الناس يريد [به] ^(١) الزيارة البدعية، وهي قصدُ الميت لسؤاله ودعائه، والرغبة في قضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يفعله كثيرٌ من الناس.

فهم يعنون بلفظ الزيارة: مثل هذا، وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة. فكره مالكٌ أن يتكلَّم بلفظ مجمل يدلُّ على معنى فاسد، بخلاف الصلاة عليه والسلام، فإنَّ ذلك مما أمر الله به.

أمَّا لفظُ الزيارة في عموم القبور، فلا يُفهم منها مثل هذا المعنى، ألا ترى إلى قوله: «فزوروا القبور فإنَّها تذكركم الآخرة» مع زيارته لقبر أمه ^(٢). فإنَّ هذا يتناول قبور الكفار.

فلا يُفهم من ذلك: زيارة الميت لدعائه، وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهلُ الشرك والبدع. بخلاف ما إذا كان المَزُورُ معظماً في الدين كالأنبياء والصالحين، فإنه كثيراً ما يُعنى بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشريكة. فلهذا كره مالك ذلك في مثل هذا، وإن لم يكره ذلك في موضع آخر، ليس فيه هذه المفسدة. انتهى ^(٣).

وفيه: أنَّ النبي ﷺ لم يستعذ إلا بما يُخاف وقوعه. ذكره المصنِّف رحمه الله تعالى ^(٤).

قال المصنِّف رحمه الله تعالى: ولا بن جرير بسنده، عن سُفيان، عن منصور، عن مجاهد «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى» [النجم: ١٩] قال: كان يُلْتُ لهم السَّوِيق فمات، فعكفوا على قبره ^(٥).

وكذا قال أبو الجوزاء، عن ابن عباس: كان يُلْتُ السَّوِيق للحاج ^(٦).

(١) إضافة من (ط).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحیح» رقم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة.

(٣) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٣٥٨/٢٤)، وانظر «اقتضاء الصراط المستقيم» (٧٦٢/٢).

(٤) المسألة الثالثة.

(٥) ابن جرير الطبري في «التفسير» (٥٨/٢٧).

(٦) «المصدر السابق» (٥٩/٢٧).

[١/٨٣] ش : قوله: (ولابن جرير). هو الإمام / الحافظ، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، صاحبُ (التفسير) و(التاريخ) وغيرهما. قال ابنُ خزيمة: لا أعلمُ على وجه الأرض أعلمَ من محمد بن جرير. وكان من المجتهدين، لا يقلدُ أحداً. وله أصحابٌ يتفقهون على مذهبه، يأخذون بأقواله. ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشرٍ وثلاثمائة.

قوله: (عن سُفيان)، الظاهر: أنه سُفيان بن سعيد بن مسروق [الثوري]^(١)، أبو عبد الله الكوفي، ثقةٌ حافظٌ فيه إمامٌ عابد. كان مجتهداً، وله أتباعٌ يتفقهون على مذهبه. مات سنة إحدى وستين ومائة، وله أربعٌ وستون سنة.

قوله: (عن منصور). هو ابن المعتز بن عبد الله السلمي، ثقةٌ ثبتٌ فقيه. مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: (عن مُجاهد) هو ابنُ جَبْر - بالجيم والموحدة - أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي، ثقةٌ إمامٌ في التفسير، أخذه عن ابن عباس وغيره. مات سنة أربع ومائة، قاله يحيى القطان. وقال ابنُ حبان: مات سنة اثنتين - أو ثلاث - ومائة، وهو ساجد. ولد سنة إحدى وعشرين، في خلافة عمر.

قوله: (كان يَلْتُ لهم السَّويق، فمات فعكفوا على قبره)، في رواية: فيطعمُ من يمرُّ من الناس، فلما مات عبده، وقالوا: هو اللات. رواه سعيدُ بن منصور^(٢).

ومناسبتُهُ للترجمة: أنَّهم غلوا فيه لصلاحه حتى عبده، وصار قبره وثناً من أوثان المشركين.

قوله: (وكذا قال أبو الجوزاء). هو أوسُ بن عبد الله الربيعي، بفتح الراء والباء. مات سنة ثلاث وثمانين.

قال البخاري: حدَّثنا مسلم - وهو ابنُ إبراهيم -، حدَّثنا أبو الأشهب^(٣)،

(١) إضافة من (ط).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) جعفر بن حيَّان السعدي الطَّاردي، البصري، مشهور بكنيته، ثقة (ت ١٦٥هـ) «تقريب» (١٤٠).

حدثنا أبو الجوزاء، عن ابن عباس، قال: كان اللاتُ رجلاً يَلْتُ سويق الحاج^(١).

قال ابنُ خزيمة: وكذا العزى، وكانت شجرةً عليها بناءٌ وأستارٌ بنخلة، بين مكة والطائف، كانت قريشٌ يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم^(٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس، قال: لعن رسولُ الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج. رواه أهل السنن^(٣).

ش: قلتُ: وفي الباب حديثُ أبي هريرة/، وحديثُ حسان بن ثابت. فأما [٨٣/ب] حديثُ أبي هريرة: فرواه أحمد، والترمذى وصحّحه^(٤). وحديثُ حسان، أخرجه ابنُ ماجه، من رواية عبد الرحمن [بن حسان]^(٥) بن ثابت، عن أبيه، قال: لعن رسولُ الله ﷺ زائرات القبور^(٦).

وحديثُ ابنِ عباس هذا: فى إسناده أبو صالح مولى أم هانئ، وقد ضعفه بعضهم ووثقه بعضهم. قال على بن المدينى^(٧)، عن يحيى القطان^(٨): لم أر أحداً من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانئ. وما سمعتُ أحداً من الناس يقول فيه

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٨٥٩).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) أبو داود فى «السنن» رقم (٣٢٣٦)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٢٠) وقال: حديث ابن عباس حديث حسن.

يقول ابن تيمية فى «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٢٩٤) قال الترمذى: هذا حديث صحيح.

(٤) أحمد فى «المسند» (٢/٣٣٧، ٣٥٦)، والترمذى فى «الجامع» رقم (١٠٥٦)، وصححه ابن تيمية فى

«الفتاوى» (٢٤/٣٦٠).

(٥) إضافة من (ط).

(٦) ابن ماجه فى «السنن» رقم (١٥٧٤)، قال البوصيرى فى «مصابيح الزجاجة» (١/٥١٦): إسناده صحيح،

ورجاله ثقات.

(٧) أبو الحسن، ابن عبد الله بن جعفر بن نجيح السعدى مولاهم، بصرى ثقة ثبت إمام (ت ٢٣٤هـ). «تقريب»

(٤٠٣).

(٨) أبو سعيد، بن سعيد بن فروخ التميمى، ثقة متقن، حافظ إمام قدره (ت ١٩٨هـ). «تقريب» ٥٩١.

شيئاً، ولم يتركه شُعبة^(١)، ولا زائدة^(٢)، ولا عبد الله بن عثمان^(٣).
وقال ابنُ معين: ^(٤) ليس به بأس، ولهذا أخرجه ابن السَّكَن^(٥) في (صاحبه).
انتهى من (الذهب الإبريز)^(٦)، عن الحافظ المزي^(٧).

قال شيخُ الإسلام: وقد جاء عن النبي ﷺ، من طريقين: فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ: لعن زوارات القبور. وذكر حديث ابن عباس، ثم قال: ورجالُ هذا ليس رجال هذا، فلم يأخذه أحدهما عن الآخر، وليس في الإسنادين من يُتهم بالكذب، ومثلُ هذا حجةٌ بلا ريب. وهذا من أجود الحسن، الذي شرطه الترمذي؛ فإنه جعل الحسن: ما تعددت طرقُه ولم يكن فيه مُتهم، ولم يكن شاذاً، أى: مُخالفاً لما ثبت بنقل الثقات.

وهذا الحديث: تعددت طرقُه، وليس فيها مُتهم، ولا خالفه أحدٌ من الثقات. هذا لو كان عن صاحب واحد، فكيف إذا كان هذا رواه عن صاحبٍ، وذاك عن آخر؟ فهذا كُلُّهُ يُبينُ أنَّ الحديث في الأصل معروف.

والذي رخصوا في الزيارة، اعتمدوا على ما روى عن عائشة رضي الله عنها: أنها زارت قبرَ أخيها عبد الرحمن، وقالت: لو شهدتُك ما زُرْتُك^(٨).

(١) أبو بسطام، شُعبة بن الحجاج بن الورد العتكي، مولا هم الواسطي، ثم البصري، ثقةٌ حافظ متقن، وكان هابطاً (ت ١٦٠هـ). «تأقيب» (٢٦٦).

(٢) أبو الصَّلْت، زائدة بن قدامة الثقفي الكوفي، ثقة ثبت، صاحب سنة (ت ١٦٠هـ) وقيل بعدها «تقريب» (٢١٣).

(٣) البصري، شريك شُعبة، قال النسائي: ثقة ثبت، مات قبل شُعبة. «تقريب» (٣١٣).

(٤) أبو زكريا، يحيى بن معين بن عَوْن الغَطَفَانِي مولا هم، البغدادي، ثقة حافظٌ مشهور إمام الجرح والتعديل (ت ٢٣٣هـ) بالمدينة النبوية. «تقريب» (٥٩٧).

(٥) أبو علي، سعيد بن عثمان بن سعيد البغدادي، حافظ حجة (ت ٣٥٣هـ) «تذكرة الحفاظ» (٩٣٧/٣).

(٦) كتاب «الذهب الإبريز» شرح المعجم الوجيز من أحاديث الرسول العزيز لأبي المحاسن، محمد بن خليل الطرابلسي، القاوقجي (ت ١٣٠٥هـ) «هدية العارفين» (٣٨٧/٢).

(٧) «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للمزي (٧/٤).

(٨) أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم (١٠٥٥)، وابن أبي شيبه في «المصنف» (٣/٣٤٣) وعبد الرزاق في «المصنف» (٥١٧/٣).

وهذا يدلُّ على أنَّ الزيارة ليست مُستحبةً للنساء كما تُستحب للرجال، إذ لو كان كذلك لاستحبت زيارته، سواء شهدته أم لا^(١).

قلتُ: فعلى هذا، فلا حُجة فيه لمن قال بالرخصة.

وهذا السياقُ لحديث عائشة: رواه الترمذی، من رواية عبد الله بن أبي مُليكة^(٢)، عنها/. وهو يُخالف سياق الأثر له، عن عبد الله بن أبي مُليكة أيضاً: [١/٨٤] أنَّ عائشة رضى الله عنها أقبلت ذات يومٍ من المقابر. فقلتُ لها: يا أمَّ المؤمنين، أليس نهى رسولُ الله ﷺ عن زيارة القبور؟ فقالت: نعم!، نهى عن زيارة القبور، ثم أمر بزيارتها^(٣).

فأجاب شيخُ الإسلام عن هذا، فقال: ولا حُجة في حديث عائشة؛ فإنَّ المحتجَّ عليها احتج بالنهي العام، فدفعت ذلك بأنَّ النهي منسوخ، ولم يذكر لها المحتجَّ النهي الخاص بالنساء، الذي فيه لعنهن على الزيارة.

يُبينُ ذلك قولها: قد أمر بزيارتها. فهذا يبينُ أنه أمرٌ بها أمراً يقتضى الاستحباب، والاستحباب إنما هو ثابتٌ للرجال خاصة. ولو كانت تعتقد أنَّ النساء مأمورات بزيارة القبور، لكانت تفعلُ ذلك كما يفعلهُ الرجال، ولم تقل لأخيها: لما زرتك.

واللَّعنُ صريحٌ في التحريم، والخطابُ بالإذن في قوله: «فَزُورُهَا»^(٤) لم يتناول النساء، فلم يدخلن في الحكم الناسخ. والعامُ إذا عُرِف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخاً له عند جمهور العلماء، وهو مذهبُ الشافعي، وأحمد في أشهر الروايتين عنه، وهو المعروفُ عن أصحابه. فكيف إذا لم يُعلم أنَّ هذا العام بعد الخاص؟. إذ قد يكون قوله: «لعن الله زوَّارات القبور» بعد إذنه للرجال في الزيارة؛ يدلُّ على ذلك: أنَّ قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسُّرُج؛ ومعلومٌ أنَّ اتخاذ المساجد

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٣٤٥/٢٤، ٣٥١).

(٢) عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن أبي مُليكة بن عبد الله بن جُدعان التيمي، المدني، أدرك ثلاثين من الصحابة، ثقة فقيه (ت ١١٧هـ). «تقريب» (٣١٢).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٧٦/١) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧٨/٤).

(٤) قطعة من حديث أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٩٧٧) من حديث بريدة.

والسرج المنهى عنه مُحكم؛ كما دلَّت عليه الأحاديثُ الصحيحة، وكذلك الآخر.

والصحيح: أنَّ النساء لم يدخلن في الإِذن في زيارة القبور، لعدة أوجه:
أحدها: أنَّ قوله ﷺ: «فزوروها صيغةً تذكير. وإنما يتناول النساء أيضاً على سبيل التغليب. لكن هذا فيه قولان، قيل: إنه يحتاجُ إلى دليل مُفصل، وحيثُ قد فيحتاج تناول ذلك النساء إلى دليل مُفصل، وقيل: إنه يُحمل على ذلك عند الإطلاق.

وعلى هذا: فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف، والعام لا يُعارضُ الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء. ولو كان النساءُ داخلات في هذا الخطاب لاستُحبَّ لهن زيارة القبور، وما علمنا أحداً من الأئمة استُحبَّ لهن زيارة القبور [ب/٨٤]، ولا كان النساء على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور.

ومنها: أنَّ النبي ﷺ علَّل الإِذن للرجال، بأنَّ ذلك «يذكرُ الموت، ويرقُّ القلب، وتدمع العين» هكذا في (مُسند أحمد)^(١). ومعلوم أنَّ المرأة إذا فُتح لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة؛ لما فيها من الضعف وقلة الصبر. وإذا كانت زيارة النساء مَظنةً وسبباً للأمور المحرَّمة، فإنه لا يمكن أن يُحدَّ المقدار الذي لا يُفضى إلى ذلك، ولا التمييز بين نوع ونوع.

ومن أصول الشريعة: أنَّ الحكمة إذا كانت خفيةً أو مُنتشرة علَّق الحكمُ بمظنتها. فيحرمُّ هذا الباب سداً للذريعة، كما حرَّم النظرُ إلى الزينة الباطنة، وكما حرَّم الخلوةُ بالأجنبية وغير ذلك. وليس في ذلك من المصلحة ما يُعارض هذه المفسدة، فإنه ليس في ذلك إلا دعاؤها للميت. وذلك ممكنٌ في بيتها.

ومن العلماء من يقول: التشجيعُ كذلك، ويحتجُّ بقوله ﷺ: «ارجعن مأزورات غير مأجورات، فإنكن تفتنَّ الحى وتؤذين الميت»^(٢) وقوله لفاطمة: «أما إنك لو

(١) أحمد في «المسند» (٣/٢٣٧، ٢٥٠) حديث أنس.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في «التاريخ» (٦/٢٠١). وأخرجه موقوفاً على عمر: عبد الرزاق في «المصنف» (٣/٤٥٧).

بلغت معهم الكُدَى^(١) لم تدخل الجنة^(٢).

يؤيده: ما ثبت في (الصحيحين)؛ من أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز^(٣)، ومعلوم أن قوله ﷺ: «من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان»^(٤) هو أدل على العموم من صيغة التذكير؛ فإن لفظ: مَنْ، يتناول الرجال والنساء باتفاق الناس، وقد علم بالأحاديث الصحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهى النبي ﷺ لهن عن اتباع الجنائز. فإذا لم يدخلن في هذا العموم، فكذلك في ذلك بطريق الأولى. انتهى ملخصاً^(٥).

قلت: وعمّا استدلل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضاً.

منها: أن ما ذكروه عن عائشة وفاطمة رضى الله عنهما معارض بما ورد عنهما في هذا الباب، فلا يثبت به النسخ.

ومنها: أن قول الصحابي وفعله ليس حجة على الحديث، بلا نزاع. وأما تعليمه عائشة كيف تقول إذا رارت القبور ونحو ذلك، فلا يدل على نسخ ما دلّت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور؛ لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهى الأكيد والوعيد الشديد، والله أعلم.

قال محمد بن إسماعيل^(٦) في كتاب (تطهير الاعتقاد). والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والاحاد، غالب من يعمرها الملوك والسلطين. إما على قريب لهم، أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم.

(١) جمع كُدَى، وهي القطعة الصلبة من الأرض، تحفر فيها القبور. «غريب الحديث» للخطابي (١/٣٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود من حديث بن عمر في «السنن» رقم (٣١٢٣) والنسائي في «المجتبى» (٢٧/٣) وأحمد في «المسند» (١٦٨/٢، ١٦٩) والحاكم في «المستدرک» (١/٣٧٣) وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) البخارى في «الصحيح» رقم (٣١٣، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ٥٣٤٠، ٥٣٤١، ٥٣٤٢، ٥٣٤٣) ومسلم في «الصحيح» رقم (٩٣٨)، من حديث أم عطية.

(٤) البخارى في «الصحيح» رقم (١٣٢٥) ومسلم في «الصحيح» رقم (٩٤٥) من حديث أبى هريرة.

(٥) «مجموع فتاوى» ابن تيمية (٢٤/٣٤٣ - ٣٥٦).

(٦) الأمير، ابن صلاح بن محمد الحسنى الكحلانى، ثم الصنعانى، فقيه محدث، داعية مصلح (ت ١١٨٢) «البدر الطالع» (٢/١٣٣).

ويزوره الناسُ الذين يعرفونه، زيارةَ الأموات من دون توسلٍ به ولا هتفٍ باسمه، بل يدعون له ويستغفرون.

حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتى مَنْ بعدهم من يرى قبراً قد شُيِّد عليه البناء، وسُرُجٌ عليه الشموع، وفُرْشٌ بالفراش الفاخر. فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضرر، وتأتيه السدنةُ يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضر وبفلان النفع، حتى يغرسوا فى جبلته كل باطل. والأمر ما ثبت فى الأحاديث النبوية، من لعن من سرج القبور وكتب عليها وبني عليها. وأحاديث ذلك واسعةٌ معروفة؛ فإنَّ ذلك فى نفسه منهيٌّ عنه، ثم هو ذريعةٌ إلى مفسدةٍ عظيمة. انتهى^(١). ومنه تعلم مطابقة الحديث للترجمة، والله أعلم.

قوله: (والمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ) تقدّم شرحه فى الباب قبله.

قوله: (وَالسُّرُجُ) قال أبو محمد المقدسى: لو أبيع اتخاذُ السرج عليها لم يُلعن من فعله؛ لأنَّ فيه تضييعاً للمال فى غير فائدة، وإفراطاً فى تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام.

وقال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: اتخاذها مساجد وإيقادُ السرج عليها من الكبائر^(٢).

قوله: (رواه أهلُ السنن). يعنى أبا داود، والترمذى، وابن ماجه، فقط، ولم يروه النسائى^(٣).

(١) ابن الأمير «تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد» (٤٨) (ط صبيح).

(٢) ابن القيم، «إغاثة اللهفان من مصادد الشيطان» (١/ ٢١٥).

(٣) أخرجه النسائى كما سبق بيانه، وقد تابع المؤلف الشارح فى ذلك. والله أعلم.

(٢١)

باب

ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك.

ش: الجناب: هو الجانب، والمراد حمايته عما يقرب إليه أو يخالطه من الشرك وأسبابه.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَتَمْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ش: قال ابن كثير: يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما/ أرسل إليهم رسولا من [٨٥/ب] أنفسهم، أى: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أى: منكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي^(١)، والمغيرة بن شعبه لرسول كسرى^(٢): إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ فِيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِفَتَهُ، وَمَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ، وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

(١) أخرجه أحمد في «السند» (٢٠١/١، ٢٩٠/٥) وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (١٩٤) وفي «الحلية» (١١٥/١) والبيهقي في «السنن» (٩/٩) والتميمي في «الدلائل» رقم (١٠٠) من حديث أم سلمة، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٤/٦): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير ابن اسحاق، وقد صرح بالسماع.

(٢) أخرجه الطبري في «التاريخ» (٣/٥٢٣)، وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (٤٧٦).

وقال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قَالَ: لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ مِّنْ وَلَادَةِ الْجَاهِلِيَّةِ^(١).

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أَيْ: يَعِزُّ عَلَيْهِ الشَّيْءُ الَّذِي يَعْنتُ أُمَّتَهُ، وَيَشْقُ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ مِنْ طَرَقٍ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْتُ بِالْخَنِيفَةِ السَّامَةِ»^(٢) وَفِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يَسْرُ»^(٣) وَشَرِيعَتُهُ كُلُّهَا سَمْحَةٌ سَهْلَةٌ كَامِلَةٌ، يَسِيرَةٌ عَلَى مَنْ يَسْرِهَا اللَّهُ عَلَيْهِ.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: عَلَى هِدَايَتِكُمْ، وَوَصُولِ النِّفَعِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ إِلَيْكُمْ.

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ إِلَّا وَهُوَ يَذْكُرُ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا. أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرَّبُ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعَدُ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ بَيَّنَّتْهُ لَكُمْ»^(٤).

قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِخْفَاضُ جَنَاحِكَ لِمَنْ أَتَبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٥ - ٢١٦]. وَهَكَذَا أَمَرَهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ^(٥).

قُلْتُ: فَاقْتَضَتْ هَذِهِ الْأَوْصَافُ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ ﷺ، فِي حَقِّ أُمَّتِهِ: أَنْ أَنْذَرَهُمْ وَحَذَّرَهُمُ الشَّرْكَ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ ذُرَائِعَ الْمُوصَلَةِ إِلَيْهِ، وَأَبْلَغَ فِي نَهْيِهِمْ عَنْهَا. وَمِنْ ذَلِكَ تَعْظِيمُ الْقُبُورِ وَالْغُلُوفِ فِيهَا، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ فِي «التفسير» (٧٦/١١) وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ، كَمَا فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» (٣٢٧/٤).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «المسند» (١١٦/٦)، (٢٢٣) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ، قَالَ السَّخَاوِيُّ فِي «المقاصد الحسنة» (١٨٦): وَسَنَدُهُ حَسَنٌ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصحيح» رَقْمَ (٣٩، ٥٦٧٣، ٦٤٦٣، ٧٢٣٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الكبير» رَقْمَ (١٦٤٧)، قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مجمع الزوائد» (٢٦٤/٨): وَرِجَالُ الطَّبْرَانِيِّ رِجَالُ الصَّحِيحِ، غَيْرَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدٍ الْمَقْرِي وَهُوَ ثِقَةٌ. وَجُودُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِسْنَادُهُ، كَمَا فِي «تيسير العزيز الحميد» (٣٤٩).

(٥) «تفسير ابن كثير» (١٧٧/٤ - ١٧٩).

وإليها، ونحو ذلك مما يُوصل إلى عبادتها، كما تقدّم، وكما سيأتى فى أحاديث الباب.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبرى عيداً. وصلُّوا علىّ فإنّ صلاتكم تبلغنى حيث كنتم» رواه أبو داود بإسناد حسن، رواه ثقات^(١).

ش: قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً» قال شيخ الإسلام: أى: لا تُعطّلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور. فأمر بتحريم العبادة فى البيوت، ونهى عن تحريمها عن القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبّه بهم من هذه الأمة.

وفى (الصحيحين)، عن ابن عمر، مرفوعاً «اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً»^(٢).

وفى (صحيح مسلم)، عن ابن عمر، مرفوعاً «لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ فإنّ الشيطان يفرّ من البيت الذى يسمع سورة البقرة تقرأ فيه»^(٣) (٤).

قوله: «ولا تجعلوا قبرى عيداً» قال شيخ الإسلام: العيد: اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد، عائد: إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر ونحو ذلك^(٥).

وقال ابن القيم: العيد: ما يُعتاد مجيئه وقصده، من زمان ومكان. مأخوذ من المعاودة، والاعتیاد.

فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذى يُقصد فيه الاجتماع، وانتيا به للعبادة أو لغيرها؛ كما أنّ المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام التّعبّد^(٦) فيها عيداً.

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٢٠٤٢) قال الحافظ ابن تيمية فى «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٤): وإسناده حسن. وسيأتى كلام المؤلف عليه فى شرح الحديث الذى بعده.

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٣٢، ١١٨٧)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٧٧٧).

(٣) مسلم فى «الصحيح» رقم (٧٨٠)، من حديث أبى هريرة.

(٤) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٧).

(٥) ابن تيمية، «المصدر السابق» (١/ ٤٤١).

(٦) جميع النسخ: العيد. والمثبت من «الاغائة».

وكان للمشركين أعيادٌ زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوّض الخُفَاءَ منها عيد الفطر وعيد النحر، وأيام منى. كما عوّضهم عن أعياد المشركين المكانية، الكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمُشَاعِر^(١).

قوله: «وصلُّوا علىَّ فإنَّ صلاتكم تبلِّغُنِي حيثُ كنتم».

قال شيخُ الإسلام: يُشيرُ بذلك إلى أنَّ ما ينالُنِي منكم من الصلاة والسلام يحصلُ مع قربكم من قبري وبُعدكم، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً. انتهى^(٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن علي بن الحسين، أنه رأى رجلاً يجرُّ إلى فُرْجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخلُ فيها فيدعو. فنهاه، وقال: ألا أُحدِّثُكم حديثاً سمعته من أبي، عن جدِّي، عن رسول الله ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، فإنَّ تسليمكم يبلِّغُنِي أين كنتم» رواه في المُخْتَارَةِ^(٣).

ش: هذا الحديثُ والذي قبله جيّدان، حَسَنَا الإسنادين.

[٨٦/ب] أمّا الأول/ : فرواه أبو داود، وغيره، من حديث عبد الله بن نافع الصَّانِع^(٤)، قال: أخبرني ابنُ أبي ذئب^(٥)، عن سعيد المَقْبُرِي^(٦)، عن أبي هريرة، فذكره. ورواه ثقاتٌ مشاهير، لكن عبد الله بن نافع، قال فيه أبو حاتم الرازي: ليس بالحافظ، تعرفُ وتُنكر. وقال ابنُ معين: هو ثقة. وقال أبو زُرْعَةَ: لا بأس به.

قال شيخُ الإسلام: ومثُلُ هذا، إذا كان لحديثه شواهدُ عُلِمَ أنَّه محفوظ، وهذا له شواهدٌ متعدّدة^(٧).

(١) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٩).

(٢) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٧).

(٣) الضياء المقدسي في «المختارة» رقم (٤٢٨).

(٤) أبو محمد، الخزومي مولا هم المدني، ثقةٌ صحيح الكتاب، في حفظه لين. (ت ٢٠٦هـ). «تقريب» (٣٣٦).

(٥) أبو الحارث، محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث القرشي العامري المدني، ثقة فقيه فاضل (ت ١٥٨هـ). «تقريب» (٤٩٣).

(٦) أبو سعد، ابن كيسان المقبري المدني، ثقة، تغير قبل موته بأربع سنين (ت ١٢٠هـ). «تقريب» (٢٣٦).

(٧) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٤).

وقال الحافظُ محمد بن عبد الهادي: هو حديثٌ حسن، جيّدُ الإسناد، وله شواهد كثيرة يرتقى بها إلى درجة الصحة^(١).

وأما الحديثُ الثاني: فرواه أبو يعلى، والقاضي إسماعيل، والحافظ الضياء في (المختارة).

قال شيخُ الإسلام: فانظر هذه السُّنة، كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت، الذين لهم من رسول الله ﷺ قُربُ النسب وقُرب الدار؛ لأنهم إلى ذلك أحوَج من غيرهم، فكانوا له أضبط. انتهى^(٢).

وقال سعيد بن منصور في (سُننه): حدَّثنا عبدُ العزيز بن محمد^(٣)، أخبرني سهيل بن أبي سهيل، قال: رأيتُ الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب^(٤) رضي الله عنه عند القبر، فناداني، وهو في بيت فاطمة يتعشّى، فقال: هلُم إلى العشاء. فقلت: لا أُریده. فقال: مالي رأيتك عن القبر؟ فقلت: سلّمتُ على النبي ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسَلِّم. ثم قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلُّوا علىّ فإنّ صلاتكم تبلُغني حيثما كنتم، لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء^(٥).

وقال سعيد أيضاً: حدَّثنا حبان بنُ علي^(٦)، حدَّثنا محمد بن عجلان^(٧)، عن أبي سعيد مولى المهري^(٨)، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا بيتي عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلُّوا علىّ فإنّ صلاتكم تبلُغني»^(٩).

(١) ابن عبد الهادي، «الصارم المنكى في الرد على السبكي» (٤١٤).

(٢) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٦٠).

(٣) أبو محمد، ابن محمد بن عُبيد الدَّرَاوَرْدِي الجهنّي مولاهم، المدني، صدوقٌ كان يحدث من كتب غيره فيخطئ (ت ١٨٦هـ). «تقريب» (٣٥٨).

(٤) صدوق، (ت ١٩٧هـ). «تقريب» (١٥٩).

(٥) وأخرجه الجهضمي في «فضل الصلاة» رقم (٣٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٣٤٥).

(٦) أبو علي، العنزي الكوفي، وكان له فقهٌ وفضل (ت ١٧٢هـ). «تقريب» (١٤٩).

(٧) أبو عبيد الله، المدني، صدوق إلا أنه اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة (ت ١٤٨هـ). «تقريب» (٤٩٦).

(٨) مقبول من الثالثة. «تقريب» (٦٤٤).

(٩) وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٣٤٥).

قال شيخ الإسلام: فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين، يدلان على ثبوت الحديث. لا سيما وقد احتجَّ به من أرسله، وذلك يقتضى ثبوته عنده. هذا لو لم/ يُروى من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدَّم مُسنداً؟^(١) [١/٨٧]

قوله: (عن علي بن الحسين). أى: ابن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين رضى الله عنه، أفضلُ التابعين من أهل بيته وأعلمهم. قال الزهرى: ما رأيتُ قرشياً أفضل منه.

مات سنة ثلاث وتسعين، على الصحيح. وأبوه الحسين، سبَّطُ رسول الله ﷺ وريحانته. حفظ عن النبي ﷺ، واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين، وله ست وخمسون سنة.

قوله: (أنه رأى رجلاً يجرى إلى فُرجة). بضم الفاء وسكون الراء، وهى الكُوَّة فى الجدار والخوخة ونحوهما.

قوله: (فدخل فيها فيدعو، فنهاه). هذا يدلُّ على النهى عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

قال شيخ الإسلام: ما علمتُ أحداً رخص فيه؛ لأن ذلك نوعٌ من اتخاذ عيداً، ويدلُّ أيضاً: أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلى منهى عنه، لأن ذلك لم يُشرع.

وكره مالكُ لأهل المدينة كلَّما دخل الإنسان المسجد أن يأتى قبر النبي ﷺ؛ لأنَّ السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، قال: ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها^(٢).

وكان الصحابةُ والتابعون رضى الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلُّون، فإذا قضاوا الصلاة قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام؛ لعلمهم أنَّ الصلاة والسلام عليه فى الصلاة أكملُّ وأفضل.

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك، أو الصلاة أو الدعاء، فلم

(١) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٦).

(٢) نقله القاضى عياض فى «الشفاء» (٢/ ٨٧).

يشرعه لهم. بل نهاهم، في قوله: «لا تتخذوا قبوري عيداً وصلُّوا على فإنَّ صلاتكم تبلِّغني»، فبيِّن أنَّ الصلاة تصل إليه من بُعدٍ، وكذلك السلام، ولعن من اتَّخذ قبور الأنبياء مساجد^(١).

وكانت الحجرةُ في زمانهم يُدخِل إليها من الباب، إذا كانت عائشة فيها، وبعد ذلك، إلى أن بُني الحائط الآخر. وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه، لا لسلام ولا لصلاة، ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم. ولا كان الشيطان يطمعُ فيهم - حتى يُسمعهم كلاماً أو سلاماً، فيظنون/ أنه هو كلمهم وأفتاهم وبيِّن لهم الأحاديث، أو أنه قد ردَّ عليهم [٨٧/ب] السلام بصوت يُسمع من خارج - كما طمع الشيطان في غيرهم، فأصلَّهم عند قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أنَّ صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويُفتيهم ويحدثهم في الظاهر، وأنه يخرجُ من القبر ويرويه خارجاً من القبر، ويظنون أنَّ نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأنَّ روح الميت تحسَّدت لهم فراوها، كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج^(٢).

والمقصود: أنَّ الصحابة لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره، كما يفعلهُ من بعدهم من الخلف. وإنَّما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلمُ عليه إذا قدم من سفره، كما كان ابنُ عمر يفعلهُ.

قال عُبَيْدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ^(٣)، عن نافع: كان ابنُ عمر إذا قدم من سفر أتى قبرَ النبي ﷺ، فقال: السلامُ عليك يا رسول الله. السلام عليك يا أبا بكر. السلام عليك يا أبتاه، ثم ينصرف^(٤). قال عُبَيْدُ اللَّهِ: ما نعلمُ أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابنُ عمر. وهذا يدلُّ على أنَّه لا يقفُ عند القبر للدعاء إذا سلَّم، كما يفعلهُ كثير.

(١) مفسى تخريجه.

(٢) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٣٨٦).

(٣) أبو عثمان، بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، المدني، ثقة ثبت، توفي سنة بضع وأربعين ومائة.

(٤) «تقريب» (٣٧٣).

(٤) أخرجه ابن بطه في «اللبانة» باسناد صحيح كما في «اللاقتضاء» (٢/ ٦٦٣).

قال شيخ الإسلام: لأنَّ ذلك لم يُنقل عن أحد من الصحابة، فكان بدعة محضة^(١). وفى (المبسوط): قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ، ولكن يُسلم ويمضى. ونصَّ أحمد أنه يستقبل القبلة، ويجعل الحجرة عن يساره؛ لئلا يستدبره.

وبالجملة، قد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وتنازعوا: هل يستقبله عند السلام عليه أو لا؟^(٢).

وفى الحديث: دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ، وإلى غيره من القبور والمشاهد؛ لأنَّ ذلك من اتخاذها أعياداً. بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها.

وهذه هى المسألة التى أفتى فيها شيخ الإسلام - أعنى من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين - ونقل فيها اختلاف العلماء. فمن مبيح لذلك، كالغزالي، وأبى محمد المقدسى. ومن مانع لذلك، كابن بطَّة^(٣)، وابن عقيل، وأبى محمد الجوينى، والقاضى عياض.

وهو قول الجمهور؛ نصَّ عليه مالك، ولم يخالفه أحد من الأئمة: وهو الصواب؛ لما فى (الصحيحين)، عن أبى سعيد، عن النبى - ﷺ - /: «لا تُشدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى»^(٤)، فدخل فى النهى: شدُّها لزيارة القبور والمشاهد، فإما أن يكون نهياً، وإما أن يكون نهياً. وجاء فى رواية، بصيغة النهى^(٥)، فتعيَّن أن يكون للنهى.

ولهذا فهم منه الصحابة المنع؛ كما فى (الموطأ)، [والمسند]^(٦) والسنن، عن بصرة بن أبى بصرة الغفارى، أنه قال لأبى هريرة - وقد أقبل من الطَّور -: (٧) لو

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٣٩٦/٢٧).

(٢) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١/٢٣٠).

(٣) أبو عبد الله، عبيد الله بن محمد بن بطة العكبرى، فقيه محدث (ت ٣٨٧هـ) «طبقات الحنابلة» (٢/١٤٤).

(٤) البخارى فى «الصحيح» رقم (١١٩٧، ١٩٩٥)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٨٢٧).

(٥) وهى عند مسلم، بلفظ «لا تشدوا الرحال».

(٦) إضافة من (ط).

(٧) جبل يقع فى الضفة الشرقية من خليج السويس، فى جنوب شبه جزيرة سيناء. ينظر «معجم البلدان» (٤٨/٤).

أدرتكَ قبل أن تخرج إليه لما خرجت؛ سمعتُ رسول الله يقول: «لا تُعمل المَطِيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»^(١).

وروى الإمام أحمد، وعمر بن شبة^(٢) في (أخبار المدينة) بإسناد جيد، عن قَزعة^(٣)، قال: أتيتُ ابن عمر، فقلت: إني أريد الطُّور. فقال: إنما تشدُّ الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى. فدع عنك الطور ولا تأته^(٤).

فابن عمر، وبصرة بن أبي بصرة، جعلوا الطور مما نُهي عن شدِّ الرحال إليه؛ لأن اللفظ الذي ذكرناه: في النهي عن شدِّها إلى غير الثلاثة، مما يُقصدُ به القُرْبَة. فعلم أنَّ المستثنى منه عامٌّ في المساجد وغيرها، وأنَّ النهي ليس خاصاً بالمساجد؛ ولهذا نهياً عن شدِّها إلى الطور مُستدلين بهذا الحديث.

والطُّورُ إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البُقعة؛ فإنَّ الله سمَّاه الوادي المقدَّس^(٥) والبُقعة المباركة^(٦)، وكلَّم كليمه موسى هناك، وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربعة، وجمهور العلماء.

- ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يُعارضه، فعليه بما كتبه شيخُ الإسلام مُجيباً لابن الأختاني^(٧) فيما اعترض به على ما دلَّت عليه الأحاديثُ، وأخذ به العلماء^(٨) وفي (الجواب الباهر)^(٩) الذي نقل عنه ابن

(١) مالك في «الموطأ» كتاب الصلاة باب الصلاة رقم (٩٣)، وأحمد في «المسند» (٧/٦)، (٣٩٧) والنسائي في «المجتبى» (١١٣/٣).

(٢) أبو زيد، النميري البصري، حافظ مؤرخ (ت ٢٦٢هـ) «تذكرة الحفاظ» (٥١٦/٢).

(٣) أبو الغادية، قزعة بن يحيى البصري الأموي مولاها، ثقة من الثالثة «تقريب» (٤٥٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٤/٢)، (٦٥/٤) وأحمد، في «المسند» (٤٥/٣)، (٦٤، ٩٣).

(٥) كما في سورة طه، آية: ١٢، سورة النازعات: آية: ١٦.

(٦) كما في سورة القصص: آية: ٣٠.

(٧) أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران السعدي، المصري، فقيه مالكي (ت ٧٥٠هـ)،

«الديباج المذهب» (٢/ ٣٢١). وردَّ شيخ الإسلام عليه مطبوع، واطلعتُ على نسخة خطية، في إحدى

مكتبات الرياض الخاصة.

(٨) ما بينهما ساقطٌ من (ض) و(هـ) و(ط) ومعلَّقٌ في هامش الأصل، وعليه كلمة صح.

(٩) «الجواب الباهر في زوار المقابر»، نشره الشيخ عبد الرحمن المعلمي، والصنِّع سنة ١٣٧٨هـ.

عبد الهادى رحمه الله تعالى - وقياسُ الأولى^(١)؛ لأن المفسدة فى ذلك ظاهرة.
وأما النهى عن زيارة غير المساجد الثلاثة، فغاية ما فيها: أنها لا مصلحة فى ذلك توجبُ شدَّ الرحال، ولا مزية تدعو إليه.
وقد بسط القول فى ذلك الحافظُ محمد بن عبد الهادى فى كتاب (الصَّارمِ المنكى) فى رده على السُّبكى^(٢)، وذكر فيه عللَ الأحاديث الواردة فى زيارة قبر النبى ﷺ.

وذكر هو، وشيخُ الإسلام رحمه الله: أنه لا يصحُّ منها حديثٌ عن النبى ﷺ، [٨٨/ب] / ولا عن أحدٍ من أصحابه. مع أنها لا تدلُّ على محل النزاع؛ إذ ليس فيها إلا مطلقُ الزيارة، وذلك لا ينكره أحدٌ بدون شد الرحال. فيُحمل على الزيارة الشرعية، التى ليس فيها شرك ولا بدعة.
قوله: (رواه فى المختارة)، المختارة: كتابٌ جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على (الصحيحين).

ومؤلفه: هو أبو عبد الله، محمد بن عبد الواحد المقدسى، الحافظ ضياء الدين الحنبلى، أحدُ الأعلام. قال الذهبي: أفنى عمره فى هذا الشأن مع الدين المتين، والورع والفضيلة التامة والإتقان، فالله يرحمه ويرضى عنه^(٣).
وقال شيخُ الإسلام: تصحيحه فى (مختارته) خيرٌ من تصحيح الحاكم بلا ريب^(٤). مات سنة ثلاثٍ وأربعين وستمائة.

(١) ينظر «الصَّارمِ المنكى» (٤١) وما بعدها.

(٢) أبو الحسن، على بن عبد الكافى بن على بن تمام، فقيهٌ متكلمٌ (ت ٧٥٦هـ) «طبقات الشافعية» (١٠/ ١٣٩).

(٣) الذهبي، «سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ١٢٦).

(٤) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٥).

(٢٢)

باب

ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان.
وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

ش: الوثن: يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله، من
القبور والمشاهد وغيرها؛ لقول الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] مع قوله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا
عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١] وقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] فبذلك
يُعلم أن الوثن يطلق على الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله، كما تقدم في
الحديث.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ روى ابن أبي حاتم، عن عكرمة،
قال: جاء حيي بن أخطب^(١) وكعب بن الأشرف^(٢) إلى أهل مكة، فقالوا لهم:
أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنّا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما
محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء^(٣)، ونسقى الماء على اللبن،
ونفك العنابة، ونسقى الحجيج. ومحمد صنبور^(٤)، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج

(١) من يهود بني قريضة، قتل مع من قتل منهم حين نزلوا على حكم سعد بن معاذ، بعد أن نقضوا العهد
الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ في أواخر السنة الخامسة «الدر في المغارى والسير» (٢٠٦).

(٢) نبهاني من طيء، وأمه من بني النضير، أسرف في إيذاء المسلمين، فقتله محمد بن مسلمة بأمر النبي ﷺ
في السنة الثالثة. «المصدر السابق» (١٥٢) ويأتى.

(٣) الكوماء: المرتفعة السنام «غريب الحديث» للخطابي (٣٨٩/١).

(٤) الصنبور: الأبر الذي لا عقب له. «النهاية» (٥٥/٣).

من غفار، فنحن خيرٌ أم هو؟ فقالوا: أنتم خيرٌ وأهدى سبيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾^(١).

وفى (مسند أحمد)، عن ابن عباس، نحوه^(٢).

قال عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه: الجبْت: السحر، والطاغوت: الشيطان^(٣). وكذا قال ابنُ عباس/ وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وغيرهم. [١/٨٩]

وعن ابن عباس، وعكرمة، وأبى مالك: الجبْت: الشيطان - زاد ابنُ عباس: بالحبشية.

وعن ابن عباس أيضاً: الجبْت: الشرك. وعنه، الجبْت: الأصنام. وعنه، الجبْت: حُمى بن أخطب.

وعن الشعبي، الجبْت: الكاهن.

وعن مجاهد، الجبْت: كعب بن الأشرف^(٤).

قال الجوهري: الجبْت: كلمةٌ تقع على الصنم والكاهن والساحر، ونحو ذلك^(٥).

قال المصنف: وفيه: معرفة الإيمان بالجبْت والطاغوت فى هذا الموضع: هل هو اعتقادُ قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بُغضها، ومعرفة بطلانها؟^(٦)

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

(١) ابن أبى حاتم فى «التفسير» كما فى «تفسير ابن كثير» (٢/٢٩٤).

(٢) عزاه لأحمد ابن كثير فى «التفسير» (٢/٢٩٥) والسيوطى فى «الدر» (٢/٥٦٢) ولم أجده فى النسخة المطبوعة من «المسند»، وأخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٥/١٣٤) وابن المنذر وابن أبى حاتم كما فى «الدر» (٢/٥٦٢).

(٣) حلقه البخارى فى «الصحيح» (٨/٢٥١) «فتح» قال الحافظ: وإسناده قوى.

(٤) أخرج هذه الآثار: ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٥/١٣٤) وما بعدها.

(٥) الجوهري، «الصحاح» (١/٢٤٥).

(٦) المسألة الرابعة.

ش: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد، هل أخبركم بشرّ جزاءٍ عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا؟ وهم أنتم أيها المتّصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أى: أبعد من رحمته ﴿وَعَصِبَ عَلَيْهِ﴾ أى: غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾.

وقد قال الثورى: عن علقمة بن مرثد،^(١) عن المغيرة بن عبد الله^(٢)، عن المعرور بن سويد: إن ابن مسعود، قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنزير: أهى مما مسخ الله؟ فقال: «إن الله لم يهلك قوماً - أو قال: لم يمسح قوماً - فيجعل لهم نسلأ ولا عاقبة، وإن القردة والخنزير كانت قبل ذلك»^(٣) ورواه مسلم^(٤).

قال البغوى فى (تفسيره): ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ﴾ أخبركم ﴿بِشَرِّ مَنْ ذَلِكَ﴾ يعنى، قولهم: لم نر أهل دين أقل حظاً فى الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء؛ كقوله: ﴿قُلْ أَفَأَتَيْتُكُمْ بِشَرِّ مَنْ ذَلِكَ النَّارُ﴾ [الحج: ٧٢].

وقوله: ﴿مَثُوبَةً﴾ ثواباً وجزاء، نُصب على التفسير ﴿عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فالقردة أصحاب السبت، والخنزير كفار مائدة عيسى. وعن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير.

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أى: وجعل منهم/ من عبد الطاغوت، أى: أطاع الشيطان [٨٩/ب] فيما سؤل له.

وقرأ ابن مسعود ﴿وَعَبَدُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقرأ حمزة: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بضم الباء وجر التاء، أراد العبد. وهما لغتان: عبد بجزم الباء، وعبد بضمها، مثل سبع وسبع، وقرأ الحسن ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ على الواحد^(٥).

(١) أبوالحارث، الحضرمى الكوفى، ثقة من السادسة «تقريب» (٣٩٧).

(٢) ابن أبى عقيل الشكرى، الكوفى، ثقة من الرابعة «تقريب» (٥٤٣).

(٣) أخرجه ابن مردويه فى «التفسير» كما فى «الدر» (١٠٩/٣).

(٤) مسلم فى «الصحیح» رقم (٢٦٦٣)، وأخرجه أحمد فى «المسند» (١/٣٩٠، ٤٣٣، ٤٤٥، ٤٦٦).

(٥) البغوى، «معالم التنزيل» (٤٩/٢).

وفى (تفسير الطبرسى)^(١): قرأ حمزة وحده ﴿وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ بضم الباء وجر التاء، والباقون ﴿وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ بنصب الباء وفتح التاء. وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وإبراهيم النخعي، والأعمش، وأبان بن تغلب ﴿وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ بضم العين والباء، وفتح الدال وخفض التاء.

قال: وحجة حمزة فى قراءته ﴿وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ أنه يحمله على ما عمل فيه ﴿جعل﴾. كأنه: وجعل منهم عبد الطاغوت. ومعنى ﴿جَعَلَ﴾: خلق، كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وليس عبد لفظ جمع؛ لأنه ليس من أبنية الجمع شىء على هذا البناء، ولكنه واحد يُراد به الكثرة. ألا ترى أن فى الأسماء المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه لفظ الأفراد ومعناه الجمع، كما فى قوله: ﴿وإنَّ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] ولأنَّ بناء فعل يُراد به المبالغة والكثرة نحو يَقْظَ ودُنُس، وكان تقديره: أنه قد ذهب فى عبادة الطاغوت كل مذهب.

وأما من فتح فقال: ﴿وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ فإنه عطفه على بناء المضى الذى فى الصلة، وهو قوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾. وأفرد الضمير فى عبد، وإن كان المعنى فيه الكثرة؛ لأنَّ الكلام محمولٌ على لفظه دون معناه. وفاعله ضميرٌ من، كما أنَّ فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضميرٌ من، فأفرد لحمل ذلك جميعاً على اللفظ. وأما قوله: ﴿عَبْدُ الطَّاغُوتِ﴾ فهو جمع عبد.

وقال أحمد بن يحيى: عبد جمع عابد؛ كبارل وبزل، وشارف وشرف، وكذلك عبد جمع عابد. ومثله عباد وعباد. انتهى^(٢).

وقال شيخ الإسلام - فى قوله: ﴿وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ - الصَّوَاب: أنه معطوفٌ على ما قبله من الأفعال، أى: مَنْ لعنه وغضب عليه، وَمَنْ جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت. قال: والأفعال المتقدمة، الفاعلُ فيها اسمُ الله تعالى، مظهراً ومضمراً. وهنا الفاعلُ اسمُ مَنْ عبد الطاغوت، وهو الضمير فى عبد. ولم يُعد سبحانه مَنْ؛ لأنه جعل هذه الأفعال صفةً لصنفٍ واحد، وهم اليهود^(٣).

(١) أبوعلی، الفضل بن الحسن الطبرسى، لغوى مفسر، شيعى مُحترق ت (٥٥٤٨هـ) «روضات الجنات» للخونسارى (٥١٢).

(٢) الطبرسى، «مجمع البيان فى تفسير القرآن» (١٣٥/٦).

(٣) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٤٥٥/١٤).

قوله: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ مما تظنون بنا ﴿وأضلُّ عن سواءِ السبيل﴾ وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة، كقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] قاله العِمَادُ ابن كثير في (تفسيره)^(١). وهو ظاهر.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

ش: والمراد: أَنَّهُمْ فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يُذَمُّ فاعله؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢) أراد تحذير أمته أن يفعلوا كفعالهم.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حَذْوَ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن» أخرجاه^(٣).

ش: وهذا سياق مسلم.

قوله: «سنن» بفتح المهملة، أى: طريق من كان قبلكم. قال المهلب: الفتح أولى. قوله: «حَذْوَ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ» بنصب حذو، على المصدر. والقُدَّة - بضم القاف - واحدة القذاذ، وهو ريشُ السَّهْم. أى: لتتبعن طريقهم فى كلِّ ما فعلوه، وتشبهوهم فى ذلك كما تشبه قُدَّة السهم القُدَّة الأخرى، فوقع كما أخبر ﷺ. وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة. وقد وقع كما أخبر، وهو عِلْمٌ من أعلام النبوة.

قوله: «حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه» وفى حديث آخر «حتى لو كان فيهم من يأتى أمّه علانية لكان فى أمتى من يفعل ذلك»^(٥).

(١) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٣٥).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) البغارى فى «الصحيح» رقم (٣٤٥٦) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٦٩).

(٤) أبو القاسم، المهلب بن أحمد بن أسيد بن عبد الله الأسدى، محدثٌ لُغوى (ت ٤٣٥هـ) سير أعلام النبلاء، (١٧/ ٥٧٩).

(٥) قطعة من حديث أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٦٤٣).

أراد ﷺ أَنْ أُمَّتَهُ لَا تَدْعُ شَيْئاً مِمَّا كَانَ يَفْعَلُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى إِلَّا فَعَلْتَهُ كُلَّهُ، لَا تَتْرَكَ مِنْهُ شَيْئاً؛ وَلِهَذَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فِيهِ شِبْهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عِبَادِنَا فِيهِ شِبْهُ مِنَ النَّصَارَى. انْتَهَى^(١).

قلتُ: فما أكثرَ الفريقين، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أَنْ جعل هذه الأمة لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ؛ كَمَا فِي حَيْثُ ثَوْبَانَ الْآتَى قَرِيباً.

[٩٠/ب] قوله: قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن» هو برفع اليهود؛ خبرٌ مبتدأٌ محذوف، أى: أهم اليهود والنصارى الذين نتبعُ سننهم؟! ويجوزُ النصب بفعلٍ محذوفٍ تقديره: تعنى.

قوله: قال: «فمن» استفهامٌ إنكار. أى: فمن هم غير أولئك؟

قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن ثوبان: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مُشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَلُغُ مَلِكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا. وَأُعْطِيتُ الْكَتْرَيْنِ: الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ. وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بَسَنَةٌ بَعَامَةٌ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ. وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ. وَإِنِّي أُعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بَسَنَةً بَعَامَةً، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ. وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَاقِطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(٢).

ورواه البرقاني في (صحيحه)، وزاد: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأُتَمَةَ الْمُضْلِينَ. وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِتْنًا مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانِ. وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ. وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي. وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى».

(١) هذا الأثر، نقله ابنُ تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٦٧).

(٢) مسلم في «الصحيح» رقم (٢٨٨٩).

ش: هذا الحديثُ رواه أبو داود في (سننه)، وابن ماجه، بالزيادة التي ذكرها المصنف^(١).

قوله: عن (ثوبان). هو مؤلى النبي ﷺ. صحبه ولازمه، ونزل بعده الشام. ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

قوله: «زوى لى الأرض» قال التوريشتى^(٢): زويتُ الشيء، جمعته وقبضته. يُريدُ تقريبَ البعيد منها، حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب.

وحاصله: أنه طوى له الأرض، وجعلها مجموعةً كهيئة كف فى مرآة ينظره. قال الطيبى^(٣): أى: جمعها لى، حتى أبصرتُ ما تملكه أمتى من أقصى المشارق والمغارب منها.

قوله: «وإنَّ أمتى سيبلغ ملكها ما روى لى منها» قال القرطبى: هذا الخبر وُجد مخبره كما قال، وكان ذلك من دلائل نبوته. وذلك أنَّ مُلك أمته اتسع/ إلى أن [١/٩١] بلغ أقصى طُنجة - بالنون والجيم - الذى هو مُنتهى عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد الهند والسند والصُغد^(٤). ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال؛ ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أريه، ولا أخبر أنَّ مُلك أمته يبلغه.

قوله: «زوى لى منها» يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل، وأن يكون مبنياً للمفعول.

قوله: «وأعطيتُ الكنزين: الأحمرَ والأبيض» قال القرطبى: يعني بها كنز كسرى، وهو ملكُ الفُرس، وكنز قيصر وهو ملكُ الروم وقصورهما وبلادهما. وقد قال ﷺ: «والذى نفسى بيده لتنفقنَّ كنوزهما فى سبيل الله»^(٥) وعبر

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٢٥٢) وابن ماجه فى «السنن» رقم (٤٠٠٠).

(٢) شهاب الدين، فضل الله بن حسن التوريشتى، محدث فقيه (ت ٦٦٠هـ). «طبقات الشافعية» (٣٤٩/٨).

(٣) أبو العباس، أحمد بن على بن أحمد، القاضى، فقيه محدث توفى بعد الخمس مائة «طبقات الشافعية» (٢٨/٦).

(٤) بلاد واسعة فيما وراء النهر، عاصمتها سمرقند «معجم البلدان» (٤٠٩ / ٣).

(٥) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٦٢٩) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٩١٩) من حديث أبى هريرة.

بالأحمر عن كثر قيصر؛ لأنَّ الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كثر كسرى؛ لأنَّ الغالب عندهم كان الجواهر والفضة.

ووجد ذلك في خلافة عمر؛ فإنه سبق إليه تاجُ كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر. والأبيض والأحمر، منصوبان على البدل.

قوله: «وإني سألتُ ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة» هكذا ثبت في أصل المنصف رحمه الله تعالى: بعامة. بالباء، وهي روايةٌ صحيحة في (صحيح مسلم). وفي بعضها بحذفها.

قال القرطبي: وكأنها رائدة؛ لأنَّ عامة صفةُ السنة، والسنة: الجذب الذي يكون به الهلاكُ العام. ويسمى الجذبُ والقحطُ: سنة. ويُجمع على سنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الاعراف: ١٣٠] أى: الجذب المتوالى.

قوله: «وإن لا يُسلطَ عليهم عدواً من سوى أنفسهم» أى: من غيرهم من الكفار: من إهلاك بعضهم بعضاً، وسبى بعضهم بعضاً، كما هو مبسوطٌ في التاريخ فيما قبلُ، وإلى زماننا هذا. نسأل الله العفو والعافية.

قوله: «فيسبيحُ بيضتهم» قال الجوهري: بَيَضَةُ كلِّ شَيْءٍ: حَوَازَتُهُ. وبَيَضَةُ القوم: ساحتهم^(١).

وعلى هذا فيكون معنى الحديث: إنَّ الله تعالى لا يُسلطُ العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حاروه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض، وهي جوانبها. وقيل: بيضتهم: معظمهم وجماعتهم، وإن قلَّوا.

[٩١/ب] قوله: «حتى يكون بعضهم يهلكُ بعضاً، ويسبى بعضهم بعضاً» والظاهر أنَّ حتى. عاطفة، أو تكون لانتهاء الغاية. أى: أنَّ أمر الأمة ينتهى إلى أنَّ «يكون بعضهم يهلكُ بعضاً» الحديث. وقد يسلطُ بعضهم على بعض، كما هو الواقع؛ وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم.

(١) الجوهري، «المصباح» (٣/١٠٦٨).

قوله: «وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد» قال بعضهم: أى: إذا حكمتُ حكماً مُبرماً نافذاً فإنه لا يرد بشيء، ولا يقدر أحدٌ على رده؛ كما قال النبي ﷺ: «ولا راداً لما قضيت»^(١).

قوله: (ورواه البرقاني في صحيحه). هو الحافظ الكبير، أبو بكر، أحمد بن محمد [بن أحمد]^(٢) بن غالب الخوارزمي الشافعي. ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة.

قال الخطيب: كان ثباتاً ورعاً، لم نر في شيوخنا أثبت منه، عارفاً بالفقه. كثير التصانيف، صنّف (مسنداً) ضمّنه ما اشتمل عليه (الصحيحان)، وجمع حديث الثوري، وحديث شعبة، وطائفة.

(٣)/ وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه، بسنده إلى أبي قلابة، عن أبي أسماء، [١/٩٢] عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله - أو قال: إن ربي - زوى لى الأرض، فرأيتُ مشارق الأرض ومغاربها، وإنّ ملك أمتى سيلغ ما زوى لى منها، وأعطيتُ الكتزين: الأحمر والأبيض، وإنى سألتُ ربي لأمتى أن لا يهلكها بسنة عامة، ولا يسلط عليها عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وأن ربي قال لى: يا محمد، إنى إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، ولا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها - أو قال: بأقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وحتى يكون بعضهم يسبى بعضاً، وإنما أخافُ على أمتى الأئمة المضلين. وإذا وضع السيف فى أمتى لم يرتفع عنها إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتى بالمشركين، وحتى تعبّد قبائل من أمتى الأوثان. وإنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدى، ولا تزال طائفة من أمتى على الحق - قال ابن عيسى: ظاهرين، ثم اتفقا - لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله»^(٤).

(١) أحمد فى «المسند» (٣/١٢٨، ١٦٧، ٢٨٤) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٢٢، ٢٨٥٤) واللفظ له.

(٢) إضافة من (ط) «وسير أعلام النبلاء» (١٧/٤٦٤).

(٣) من هنا ساقط من (ض) ومضاف إلى الأصل بقلم مُختلف.

(٤) مضى تخريجه.

وروى أبو داود أيضاً، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «تدور رَحَى الإسلام لخمس وثلاثين، أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يَقم لهم دينهم يَقم سبعين عاماً»، قال: قلت: إِمّا بقى أو مما مضى؟ قال: «مما مضى»^(١).

وروى فى (سننه) أيضاً، عن هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يتقارب الزمان وينقص العلم، وتظهر الفتن، ويلقى الشَّعْ، ويكثر الهرج» قيل: يا رسول الله، أيُّهُ هو؟ قال: «القتل القتل»^(٢).

قوله: «وإنما أخافُ على أمتي الأئمة المضلِّين» أى: الأمراء والعلماء والعباد، فيحكمون فيهم بغير علم فيضلُّوهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الاحزاب: ٦٧].

وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه: من كان له حاجة فليأت إلى قبرى فإني أقضيها له، ولا خير فى رجلٍ يحجبه عن أصحابه ذراعٌ من تراب، أو نحو هذا.

وهذا هو الضلالُ البعيد؛ يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله، ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم، وتفريج كُرَبَاتِهِمْ، وقد قال تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ * يَدْعُوا مَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَشَرٍ الْمَوْتَى وَلِبَشَرٍ الْعَشِيرِ. [الحج: ١٢ - ١٣] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً﴾ [الفرقان: ٣] وقال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] وأمثالُ هذا فى القرآن كثير، يُبينُ تعالى الهدى من الضلال.

ومن هذا الضرب: مَنْ يدعى أنه يصلُّ مع الله إلى حال تسقط عنهم التكاليف، أو يدعى أن الأولياء يدعون أو يستغاث بهم فى حياتهم ومماتهم. وأنهم ينفعون

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٢٥٤) وقال ابن حجر: وإسناده حسن.

(٢) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٢٥٥)، وأخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٠٦١) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٥٧).

ويضربون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، أو أنه يطلع على اللوح المحفوظ،
ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم.

أو يُجَوِّزُ بناء المساجد على قبور الأولياء/ والصالحين، وإيقادها بالسرج، ونحو [١/٩٣]
ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله. فما أكثر هذا الهذيان والكفر، والمحادثة
لله ولكتابه ولرسوله.

وقوله ﷺ: «وإنما أخافُ على أمتي الأئمة المضلين» أتى بإنما، التي قد تأتي
للحصر؛ بياناً لشدة خوفه على أئمة من أئمة الضلال. وما وقع في خلد النبي ﷺ
من ذلك، إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقعُ نظير ما في الحديث قبله من
قوله: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» الحديث.

وقد بين الله تعالى في كتابه صراطه المستقيم، الذي هو سبيل المؤمنين. فكلُّ
من أحدث حدثاً ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ فهو ملعونٌ، وحديثه
مردود؛ كما قال ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ حَدَّثاً، أَوْ آوَى مُحَدَّثاً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفاً وَلَا عَدلاً»^(١).

وقال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(٢).

وقال «كُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٍ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٣).

وهذه أحاديثٌ صحيحة، ومدارُ أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث
ونحوها. وقد بين الله تعالى هذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز، كما قال
تعالى: «اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونَهُ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا
تَذَكَّرُونَ» [الأعراف: ٣] وقال «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنُيْغِنَا عَنْكَ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً» الآية [الجاثية:
١٨ - ١٩] ونظائرها في القرآن كثيرة.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (١٨٧٠، ٦٧٥٥) ومسلم في «الصحيح» رقم (١٣٧١).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٢٦٩٧) ومسلم في «الصحيح» رقم (١٧١٨) من حديث عائشة.

(٣) قطعة من حديث العرابض بن سارية: أخرجه أبو داود في «السنن» رقم (٤٦٠٧) والترمذي في «الجامع»
رقم (٢٦٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) الاسدي، ثقة عابد، من الثانية. «تقريب» (٢١٨).

وعن زياد بن حدير^(٤)، قال: قال لى عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين. رواه الدارمي^(١).

وقال يزيد بن عميرة^(٢): كان معاذ بن جبل لا يجلس مجلساً للذكر إلا قال: الله حكم قسط، هلك المرتابون - وفيه -: واحذروا زينة الحكيم؛ فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم قد يقول المنافق كلمة الحق. قلت لمعاذ: وما يدرينى - رحمك الله - أن الحكيم قد يقول كلمة الضلال، والمنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: قال لى: اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التى يُقال: ما هذه؟ ولا [٩٣/ب] يشينك عنه، / فإنه لعله يُراجع الحق، وتلق الحق إذا سمعته، فإن على الحق نوراً. رواه أبو داود، وغيره^(٣).

قوله: «وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفع إلى يوم القيامة» وكذلك وقع، فإن السيف لما وقع بقتل عثمان رضى الله عنه لم يُرفع، وكذلك يكون إلى يوم القيامة، ولكن قد يكثر تارة، ويقل أخرى. ويكون فى جهة، ويرتفع عن أخرى. قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين» الحى واحد الأحياء، وهى القبائل. وفى رواية أبى داود «حتى يلحق قبائل من أمتى بالمشركين» والمعنى. أنهم يكونون معهم، ويرتدون؛ برغبتهم عن أهل الإسلام، ولحوقهم بأهل الشرك.

قوله: «وحتى تعبد فتام من أمتى الأوثان» والفنأم - مهموز -: الجماعات الكثيرة. قاله أبو السعادات^(٤).

وفى رواية أبى داود «وحتى تعبد قبائل من أمتى الأوثان».

وهذا هو شاهد الترجمة. ففيه: الرد على من قال بخلافه من عبادة القبور، الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان. وذلك لجهلهم بحقيقة

(١) الدارمي فى «السنن» رقم (٢٢٠)، وأخرجه ابن المبارك فى «الزهد» رقم (١٤٧٥) والفريابي فى «صفة النفاق»

(٧١) وأبو نعيم فى «الحلية» (١٩٦/٤) وابن عبد البر فى «الجامع» (١١٠/٢).

(٢) الحمصى الزيدى، ثقة من الثانية، نزل الكوفة. «تقريب» (٦٠٤).

(٣) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٦١١).

(٤) ابن الأثير، «النهاية» (٤٠٦/٣).

التوحيد وما يُناقضه من الشرك والتنديد، فالتوحيدُ هو أعظم مطلوب، والشرك هو أعظم الذنوب.

وفى معنى هذا الحديث: ما فى «الصحيحين»، عن أبى هريرة رضى الله عنه، مرفوعاً «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليآتُ نساءِ دَوسَ على ذى الخَلْصة». قال: وذو الخَلْصة، طاغيةُ دوس التى كانوا يعبدون فى الجاهلية^(١). وروى ابنُ حبان، عن معمر، قال: إنَّ عليه الآن بيتاً مبنياً مُغلَقاً^(٢).

قال العلامة ابنُ القيم - فى قصة هدم اللآت لما أسلمت ثقيف -: فيه أنه لا يجوزُ إبقاءُ مواضع الشرك والطواغيت بعد القُدرة على هدمها وإبطالها، يوماً واحداً.

وكذلك حُكْمُ المشاهد التى بُنيت على القبور، والتى اتُخذت أوثاناً تعبدُ من دون الله. والأحجار التى تُقصد للشرك والنذر، لا يجوزُ إبقاءُ شىء منها على وجه الأرض مع القُدرة على إزالتها. وكثيرٌ منها بمنزلة اللآت والعُزَّى ومناة، وأعظم شركاً عندها وبها. فاتَّبِعْ هؤلاء سَنَنَ من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القُدَّة بالقُدَّة، وغلب الشركُ على أكثرِ النفوس؛ لظهور الجهل [٢/٩٤] وخفاء العلم. فصار المعروفُ منكراً والمنكرُ معروفاً، والسُّنة بدعة والبدعة سنة. وطُمست الأعلام، واشتدت غُربة الإسلام، وقلَّ العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتدَّ البأس، وظهر الفسادُ فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس.

ولكن لا تزال طائفةٌ من العصابة المحمَّدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خيرُ الوارثين. انتهى ملخصاً^(٣).

قلتُ: فإذا كان هذا فى القرن السابع وقبله، فما بعده أعظمُ فساداً [كما هو الواقع]^(٤).

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٧١١٦)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٩٠٦).

(٢) ابن حبان فى «الصحيح» (٨/ ٢٦٤).

(٣) ابن القيم، «زاد المعاد» (٣/ ٥٠٦).

(٤) إضافة من (هـ) و(ط).

قوله: «وإنه سيكون في أمتي كذّابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي» قال القرطبي: وقد جاء عددهم معيّناً في حديث حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ «يكون في أمتي كذّابون دجالون سبع وعشرون، منهم أربع نسوة» أخرجه أبو نعيم. وقال: هذا حديث غريب^(١). انتهى.

وحديث ثوبان أصح من هذا.

قال القاضي عياض: عد من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن - ممن اشتهر بذلك، وعُرف وأتبعه جماعة على ضلّالته - فوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كُتب الأخبار والتواريخ عرف صحّة هذا.

وقال الحافظ: قد ظهر مصداق ذلك في زمن النبي ﷺ: فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن. وفي خلافة أبي بكر: طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح في بني تميم.

وقُتل الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ، وقُتل مسيلمة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه. وتاب طليحة ومات على الإسلام في زمن عمر رضي الله عنه، ونُقِل أن سجاح تابت أيضاً.

ثم خرج المختار ابن أبي عبيد الثقفي، وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير. فأظهر محبة أهل البيت، ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين، فتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك وأعان عليه، فأحبّه الناس. ثم ادّعى النبوة، وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه. ومنهم الحارث الكذاب، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل. وخرج في خلافة بني العباس جماعة.

وليس المراد بالحديث من ادّعى النبوة مطلقاً، فإنهم لا يُحصون كثرة؛ لكون [٩٤/ب] غالبهم/ ينشأ عن جنون أو سوداء. وإنما المراد من قامت له شوكة، وبدا له شبهة كمن وصفنا. وقد أهلك الله تعالى من وقع منهم ذلك، وبقي منهم من يلحقه بأصحابه، وآخرهم الدجال الأكبر^(٢).

قوله: «وأنا خاتم النبيين» قال الحسن: خاتم: الذي ختم به، أي: أنه آخر

(١) أبو نعيم في «الحلية» (١٧٩/٤) قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٨٧) وسنده جيد

(٢) ابن حجر، «فتح الباري» (٦/ ٦١٧).

النبيين، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وإنما ينزل عيسى ابن مريم في آخر الزمان، حاكماً بشريعة محمد ﷺ مُصَلِّياً إلى قبلته. فهو كأحد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة؛ قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً. فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية»^(١).

قوله: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم». قال يزيد بن هارون، وأحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدى من هم؟^(٢).

قال ابن المبارك، وعلى بن المديني، وأحمد بن سنان^(٣)، والبخاري، وغيرهم: إنهم أهل الحديث^(٤).

وعن ابن المديني، رواية: هم العرب. واستدل برواية من روى: هم أهل الغرب^(٥). وفسر الغرب بالدلو العظيمة؛ لأن العرب هم الذين يستقون بها^(٦).

قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة، من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد. ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، واقتراهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد، وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٣٤٤٨) ومسلم في «الصحيح» رقم (١٥٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) عن يزيد: أخرجه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» رقم (٢٧)، وعن أحمد: أخرجه الخطيب في «المصدر السابق» رقم (٤٨). وإسناده صحيح، كما قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٢٩٣).

(٣) أبو جعفر، بن أسد بن حبان القطان الواسطي، ثقة حافظ ت (٢٥٩هـ) «تقريب» (٨٠).

(٤) عن ابن المبارك: أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» رقم (٤٧)، وعن ابن المديني: أخرجه

الترمذي في «الجامع» (٨/ ٧)، وعن ابن سنان: أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» رقم (٤٩)،

وعن البخاري: أخرجه الخطيب في «المصدر السابق» رقم (٥١).

(٥) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (١٩٢٥) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٦) النووي، «المنهاج» (١٣/ ٦٨).

بعضهم أولاً فاولاً، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة بيلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله. انتهى ملخصاً، مع زيادة فيه. قاله الحافظ^(١).

قال القرطبي: وفيه دليل على أن الإجماع حجة؛ لأن الأمة إذا اجتمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة.

قال المصنف: وفيه: الآية العظيمة، أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم. والبشارة بأن الحق لا يزول بالكلية^(٢).

قلت: واحتج به الإمام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع، ما دامت هذه الطائفة موجودة.

قوله: «حتى يأتي أمر الله» الظاهر أن المراد به/ ما روى من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة، ووقوع الآيات العظام.

ثم لا يبقى إلا شرار الناس؛ كما روى الحاكم: أن عبد الله بن عمرو، قال: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر أهل الجاهلية. فقال عتبة بن عامر لعبد الله: أعلم ما تقول، وأما أنا فسمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال عصاة من أمتي يُقاتلون على أمر الله، ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك» فقال عبد الله: ويبعث الله ريحاً ريحها المسك، ومسها مس الحرير، فلا تترك أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس، فعليهم تقوم الساعة^(٣).

وفى (صحيح مسلم) «لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض: الله الله»^(٤). وعلى هذا: فالمراد بقوله في حديث عتبة، وما أشبهه «حتى تأتيهم الساعة» ساعتهم، وهي وقت موتهم بهبوب الريح. ذكره الحافظ^(٥).

وقد اختلف في محل هذه الطائفة، فقال ابن بطال^(٦): إنها تكون في بيت

(١) ابن حجر، «فتح الباري» (١٣/ ٢٩٥).

(٢) المسائلان: التاسعة والعاشر.

(٣) الحاكم في «المستدرک» (٤/ ٤٥٦) وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٥) (١٩٢٤).

(٤) مضي تخريجه.

(٥) ابن حجر، «فتح الباري» (١٣/ ٢٩٤).

(٦) أبو الحسن، على بن خلف بن بطال البكري، مُحدث فقيه مالكي ت (٤٤٩هـ) «سير أعلام النبلاء» (٤٧/ ١٨).

المقدس؛ كما رواه الطبرائي، من حديث أبي أمامة، قيل: يارسول الله، وأين هم؟ قال: «بيت المقدس»^(١) وقال معاذُ بن جبل: هم بالشام^(٢).

وفى كلام الطبري ما يدلُّ على أنه لا يجب أن تكون في الشام أو في بيت المقدس دائماً، بل قد تكون في موضع آخر في بعض الأزمنة.

قلتُ: ويشهدُ له الواقع، وحالُ أهل الشام وأهل بيت المقدس. [فإنهم]^(٣) من أرمئة طويلة لا يُعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه، في القرن السابع وأوّل الثامن.

فإنَّهم على الحق يدعون إليه، وينظرون عليه، ويجاهدون فيه. وقد يجيءُ من أمثالهم بعدُ بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة، والله على كلِّ شيء قدير.

ومما يؤيِّدُ هذا: أن أهل الحق والسنة في زمن الأئمة الأربعة، وتوافر العلماء في ذلك الزمان وقبلة وبعده، لم يكونوا في محلٍّ واحد. بل هم في غالب الأمصار: في الشام منهم أئمة، وفي الحرمين، وفي مصر، وفي العراق، وفي اليمن.

وكلُّهم على الحق يُناضلون ويُجاهدون أهل البدع، ولهم المصنفات التي صارت أعلاماً لأهل السنة، وحُجَّةً على كلِّ مُبتدع.

فعلى هذا: فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تفترق، وقد تكون في الشام، وقد [٩٥/ب] تكون في غيره.

فإنَّ حديث أبي أمامة، وقول معاذ، لا يُفيدُ حصرها بالشام، وإنما يُفيد أنها تكون في الشام في بعض الأزمان لا في كلّها.

وقوله: «تبارك وتعالى» قال ابن القيم: البركة نوعان: أحدهما: بركة هي فعله، والفعلُ منها بارك. ويتعدَّى بنفسه تارة، وبأداة على تارة، وبأداة في تارة. والمفعول منها مبارك. وهو ما جعل منها كذلك، فكان مباركاً بجعله تعالى.

(١) الطبراني في «الكبير» رقم (٧٦٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٣٦٤١).

(٣) إضافة من (ط).

والنوعُ الثاني: بركةٌ تُضاف إليه إضافةُ الرحمة والعزة، والفعلُ منها تبارك. ولهذا لا يُقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عز وجل. فهو سبحانه المُبَارَك، وعبدُه ورسوله المُبَارَك، كما قال المسيح عليه السلام: «وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ» [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه، فهو المُبَارَك.

وأما صفتُه تبارك فمختصةٌ به، كما أطلقها على نفسه في قوله: «تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» [الأعراف: ٥٤]، «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [الملك: ١]. أفلا تراها كيف اطرّدت في القرآن جاريةً عليه مختصةٌ به، لا تُطلق على غيره؟.

وجاءت على بناء السَّعة والمُبَالغة، كتعالى وتعظيم ونحوه. فجاء بناء «تَبَارَكَ» على بناء: تعالى، الذي هو دالٌّ على كمال العلوِّ ونهايته، فكذلك «تَبَارَكَ» دالٌّ على كمال بركته وعظمتها وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف «تَبَارَكَ»: تعظيم. وقال ابنُ عباس: جاء بكلُّ بركة^(١).

(١) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢/ ١٨٥ - ١٨٦).

(٢٣)

باب

ما جاء فى السحر

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء فى السّحر.

ش: أى والكهانة. والسّحر فى اللغة: عبارة عمّا خفى ولطف سببه؛ ولهذا جاء فى الحديث «إنّ من البيان لسحراً»^(١) وسُمى السّحر سحراً؛ لأنه يقع خفياً آخر الليل.

قال أبو محمّد المقدسى فى (الكافى): السّحر: عزائم ورقى وعُقَد، تؤثّر فى القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل، ويفرّق بين المرء وزوجه، قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفرق: ٤].

يعنى: السواحر اللاتى يعقدن فى سحرهن، وينفشن فى عقدهن. ولولا أنّ للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعاذة منه.

وعن عائشة رضى الله عنها: أنّ النبى ﷺ سحر، حتى إنّهُ لِيُخَيَّلُ إليه أنه يفعل الشىء وما يفعله، وأنّه قال لها ذات يوم: «أتانى ملكان، فجلس أحدهما عند رأسى والآخر/ عند رجلى، فقال: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد ابن الأعصم، وفى مشطٍ ومِشاطة، فى جُفٍّ طلعةٍ ذكر»^(٢) فى بئر ذُرّوان» رواه البخارى^(٣) (٤).

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥١٤٦، ٥٧٦٧) وأحمد فى «المسند» (١٦/٢، ٥٩، ٦٣، ٩٤) من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) هو الغشاء الذى يكون على الطلع. «فتح البارى» (١٠/٢٢٩).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣١٧٥، ٥٧٦٣، ٦٠٦٣).

(٤) ابن قدامة، «الكافى» (٣/ ١٦٤).

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالُهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ش: قال ابن عباس: من نصيب^(١). قال قتادة: وقد علم أهل الكتاب فيما عهد إليهم: أن الساحر لا خلاق له في الآخرة^(٢). وقال الحسن: ليس له دين^(٣).

فدلَّت الآية على تحريم السحر، وكذلك هو محرمٌ في جميع أديان الرسل عليهم السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]. وقد نص أصحاب أحمد: أنه يكفر بتعلُّمه وتعليمه^(٤).

وروى عبد الرزاق، عن صفوان بن سليم، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلَّم شيئاً من السحر قليلاً كان أو كثيراً كان آخرُ عهده من الله»^(٥) وهو مُرسل.

وقد اختلفوا: هل يكفر الساحرُ أو لا؟ فذهب طائفةٌ من السلف [إلى] ^(٦) أنه يكفر، وبه قال مالك، وأبو حنيفة، وأحمد. قال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدويةٍ وتدخين وسقى شيء^(٧) لا يضر، فلا يكفر.

وقال الشافعي: إذا تعلَّم السحر، قلنا له: صف لنا سحرك!، فإن وصف ما يوجب الكفر - مثل ما اعتقده أهلُ بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها - فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر: فإن اعتقد إباحته كفر. انتهى^(٨).

وقد سمَّاهُ الله كُفْراً في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ قال ابن عباس، في قوله:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، في «التفسير» والطبري، في «مسائله» كما في «الدر المنثور» (١/٢٥١).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري، في «التفسير» رقم (١٧٠٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (١/٥٤).

(٤) ينظر: ابن قدامة المقدسي، «المغني» (١٢/٣٠٠).

(٥) عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/١٨٤).

(٦) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٧) (ض) (هـ) (ط): لا. ساقطة.

(٨) ينظر: القرافي «كتاب الفروق» (٤/١٥٢).

﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

ش: تقدّم الكلامُ عليهما في الباب قبله. وفيه: أن السحر من الجبّ. قاله المصنّف.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: قال عمر: الجبّ: السحر، والطاغوت: الشيطان.

ش: هذا الأثر، رواه ابنُ أبي حاتم، وغيره^(٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقال جابر: الطواغيت: كُهانٌ، كان ينزل عليهم الشيطان، في كلِّ حيٍّ واحد.

ش: هذا الأثر، رواه ابنُ أبي حاتم بنحوه مطولاً، عن وهب بن مُنبّه، قال: سألتُ جابر بن عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها، قال^(٣): إنّ في جُهنّةٍ واحداً، وفي أسلمٍ واحداً، وفي هلالٍ واحداً، وفي كلِّ حيٍّ واحداً، وهم كُهانٌ تنزلُ عليهم الشياطين^(٤).

[٩٦/ب]

قوله: (قال جابر)، هو ابنُ عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري.

قوله: (الطواغيت: كهان)، أراد أن الكهان من الطواغيت، فهو من أفراد المعنى.

قوله: (كان ينزل عليهم الشيطان)، أراد الجنس، لا الشيطان الذي هو إبليس خاصة، بل تنزل عليهم الشياطين، ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقونه من السمع، فيصدّقون مرة، ويكذبون مائة.

(١) «تفسير ابن كثير» (٢٥٢/١).

(٢) سبق تخريجه. وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٢٥٢/٨١): إسناده قوى.

(٣) (ط): فقال.

(٤) ابن أبي حاتم في «التفسير» كما في «الدر المنثور» (٢٢/٢).

قوله: (فى كلِّ حيٍّ واحد). الحىُّ واحدُ الأحياء، وهم القبائل، أى: فى كل قبيلة كان يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب، وكذلك كان الأمرُ قبل مبعث النبى ﷺ. فابطل الله ذلك بالإسلام، وحُرست السماءُ بكثرة الشُّهب.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبعَ الموبقات» قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشركُ بالله، والسحر، وقتل النفس التى حَرَّمَ الله إلا بالحق، وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، والتولّى يوم الزحف، وقذفُ المُحصّناتِ الغافلاتِ المؤمنات».

ش: [كذا أورده المصنّف غير معزوّ]^(١)، وقد رواه البخارى، ومسلم^(٢).

قوله: «اجتنبوا» أى: ابعدوا، وهو أبلغ من قوله: دعوا أو اتركوا؛ لأنّ النهى عن القربان أبلغ، كقوله: «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن». [الأنعام: ١٥١].

قوله: «الموبقات» بموحدة وقاف. أى: المهلكات. وسُميت هذه موبقات؛ لأنها تُهلك فاعلها فى الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفى الآخرة من العذاب.

وفى حديث ابن عمر - عند البخارى فى (الأدب المفرد)، والطبرى فى (التفسير)، وعبد الرزاق، مرفوعاً وموقوفاً - قال: الكبائرُ تسع - وذكر السبعة المذكورة - والإلحاد فى الحرم. وعقوق الوالدين^(٣).

ولابن أبى حاتم، عن على، قال: الكبائر - فذكر السبع، إلا مال اليتيم - وزاد: العقوق، والتعربُ بعد الهجرة، وفراق الجماعة، ونكث الصفة^(٤).

قال الحافظ: ويحتاج عند هذا، إلى الجواب عن الحكمة فى الاقتصار على سبع.

ويُجاب: بأنّ مفهوم العدد ليس بحُجة، وهو ضعيف، أو بأنّه أعلم أولاً

(١) ما بينهما ساقطٌ من الأصل.

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٥٧)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٨٩).

(٣) البخارى فى «الأدب المفرد» رقم (٨) وابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (٩١٨٨) وعبد الرزاق فى «المصنّف» (١٠ / ٤٦٠).

(٤) ابن أبى حاتم فى «التفسير» كما فى المصدر السابق (٢ / ١٤٧).

بالمذكورات. ثم أعلم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائد، أو أن الاختصار وقع بحسب المقام بالنسبة للسائل.

وقد أخرج الطبراني، وإسماعيل القاضي، عن ابن عباس، أنه قيل له: [١/٩٧] الكبائر سبع، قال: هن أكثر من سبع وسبع^(١). وفي رواية: هي إلى السبعين أقرب^(٢). وفي رواية: إلى السبعمئة^(٣)^(٤).

قوله: قال «الشرك بالله» هو أن يجعل لله نداً، يدعو كما يدعو الله ويرجوه كما يرجو الله، ويخافه كما يخاف الله.

وبدا به؛ لأنه أعظم ذنب عصى الله به، كما في (الصحيحين)، عن ابن مسعود: سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» الحديث^(٥).

وأخرج الترمذي - بسنده - عن صفوان بن عسال، قال: قال يهودى لصاحبه: أذهب بنا إلى هذا النبي، فقال له صاحبه: لا تقل: نبي، إنه لو سمعت لك أن له أربع أعين، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات، فقال رسول الله ﷺ «لا تُشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببرىء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا مُحَصَّنَةً، ولا تُولّوا الفرار يوم الزحف. وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدوا في السبت» قال: فقبلاً يديه ورجليه. وقالوا: نشهد أنك نبي. الحديث^(٦). وقال: حسن صحيح.

قوله: «والسحر» تقدم معناه. وهذا وجه مناسب لهذا الحديث للترجمة.

قوله: «وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ» أي: حرّم قتلها.

«إِلَّا بِالْحَقِّ» أي: بأن تفعل ما يوجب قتلها، كالشرك، والنفس بالنفس،

(١) وأخرجه الطبري في «التفسير» رقم (٩٢٠٣).

(٢) وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٤٦٠ / ١٠) وابن جرير في «التفسير» رقم (٩٢٠٦).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (٩٢٠٧).

(٤) ابن حجر، «فتح الباري» (١٢ / ١٨٣).

(٥) مضمي تخريجه.

(٦) الترمذي في «الجامع» رقم (٢٧٣٤، ٣١٤٣).

والزاني بعد الإحصان. ^(١) وقوله: «وقتل النفس التي حرم الله» أي: نفس المسلم المعصوم^(٢)، وقتل المُعاهد؛ كما في الحديث «من قتل مُعاهداً لم يرح رائحة الجنة» الحديث^(٣).

واختلف العلماء فيمن قتل مؤمناً متعمداً، هل له توبة أم لا؟ فذهب ابن عباس، وأبو هريرة، وغيرهما: إلى أنه لا توبة له؛ استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾. [النساء: ٩٣].

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية وهي آخر ما نزل، وما نسخها شيء^(٤). وفي [٩٧/ب] رواية: لقد نزلت في آخر ما نزل، ما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحى^(٥).

وروي في ذلك آثارٌ تدلُّ لما ذهب إليه؛ كما عند الإمام أحمد، والنسائي، وابن المنذر، عن معاوية: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً»^(٦).

وذهب جمهور الأمة - سلفاً وخلفاً - إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأُتِيب وعمل صالحاً بذلَّ الله سيئاته حسنات؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ فقد قال أبو هريرة، وغيره: هذا جزاؤه إن جازاه.

[وقد روي عن ابن عباس ما يوافق قول الجمهور، فروى عبدُ بن حميد،

(١) ما بينهما ساقطٌ من (ظ).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحیح» رقم (٣١٦٦، ٦٩١٤) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٣) أخرجه البخاري في «الصحیح» رقم (٤٥٩٠، ٤٧٦٦) ومسلم في «الصحیح» رقم (٣٠٢٣).

(٤) أخرجه في «المسند» رقم (٢١٤٢) وابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (١٠١٨٨).

(٥) أحمد في «المسند» (٩٩/٤) والنسائي في «المجتبى» (٨١/٧) من حديث أبي الدرداء.

والنَّحَّاس، عن سعيد بن عبيد: أنَّ ابن عباس رضى الله عنهما كان يقول: لمن قتل مؤمناً توبة^(١). وكذلك ابن عمر رضى الله عنهما^(٢). وروى مرفوعاً: أنَّ جزاءه جهنمُ إنْ جازاه^(٣) (٤).

قوله: «وأكلُ الربا» أى: تناوله بأى وجه كان؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾. الآيات [البقرة: ٢٧٥ - ٢٨٠]. قال ابنُ دقيق العيد^(٥): وهو مجرَّبٌ لسوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك.

قوله: «وأكلُ مالِ اليتيم» يعنى: التعدى فيه. وعبرَ بالاكل؛ لانه اعمُ وجوه الانتفاع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾. [النساء: ١٠].

قوله: «والتولى يوم الزحف» أى: الإِدبار عن الكفار وقت التحام القتال. وإنما يكون كبيرة إذا فرَّ إلى غير فئة، أو غير متحرِّفٍ لقتال، كما قيَّد به فى الآية.

قوله: «وقذفُ المُحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ» وهو بفتح الصاد: المحفوظات من الزنا، وبكسرهما: الحافظات فروجهن منه. والمراد: الحرائر العفيفات، والمراد: رميمهن بزنا أو لواط. والغافلات: أى: عن الفواحش، وما رُمين به. فهو كناية عن البريئات؛ لأن الغافل برىء عمَّا بُهت به، والمؤمنات: أى بالله تعالى، احترازاً من قذف الكافرات.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن جُنْدُب مرفوعاً «حدُّ الساحر: ضربه بالسيف» رواه الترمذى، وقال: الصحيح أنه موقوف^(٦).

(١) عبد بن حميد، والنحَّاس، كما فى «الدر المنثور» (٢/٦٢٩).

(٢) أخرجه النحَّاس، كما فى «الدر المنثور» (٢/٦٢٩).

(٣) ما بينهما إضافة من (هـ) و(ط).

(٤) أخرجه ابنُ أبى حاتم، والطبرانى، كما فى «الدر المنثور» (٢/٦٢٧).

(٥) أبو الفتح، تقى الدين، محمد بن على بن وهب القشيري، فقيه محدث (ت ٧٠٢هـ) «طبقات الشافعية» (٩/٢٠٧).

(٦) الترمذى فى «الجامع» رقم (١٤٦٠).

ش: قوله: (عن جُنْدُب) ظاهرُ صنيع الطبراني في (الكبير): أنَّه جُنْدُب بن عبد الله البجلي. [١/٩٨] لا جُنْدُب الخير/ الأزدي، قاتل الساحر؛ فإنه رواه في ترجمة جُنْدُب البجلي، من طريق خالد العبد، عن الحسن، عن جندب، عن النبي ﷺ، وخالد العبد: ضعيف.

قال الحافظ: والصواب أنَّه غيره، وقد رواه ابنُ قانع، والحسن بن سُفيان من وجهين، عن الحسن، عن جُنْدُب الخير: أنه جاء إلى ساحرٍ، فضربه بالسيف حتى مات، وقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: فذكره.

وجُنْدُب الخير: هو جندب بن كعب - وقيل: جندب بن زهير، وقيل هما واحد؛ كما قاله ابنُ حبان - أبو عبد الله الأزدي الغامدي، صحابي. روى ابنُ السكن، من حديث بُريدة: أنَّ النبي ﷺ قال: «يضرب ضربةً واحدةً فيكون أمةً وحده»^(١).

قوله: «حدُّ الساحر: ضربه بالسيف» وروى بالهاء وبالثاء، وكلاهما صحيح. وبهذا الحديث: أخذ أحمدُ، ومالك، وأبو حنيفة، فقالوا: يُقتل الساحر. وروى ذلك عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز.

ولم ير الشافعي عليه القتل بمجرد السحر، إلا إنَّ عمل في سحره ما يبلغ الكفر. وبه قال ابنُ المنذر، وهو رواية عن أحمد^(٢).

والأوَّل أولى؛ للحديث ولأثر عمر، وعمل به الناسُ في خلافته من غير نكير. قال المصنَّف رحمه الله تعالى: وفي (صحيح البخاري)، عن بَجالة بن عبدة قال: كتب عمرُ بن الخطاب: أنِ اقتلوا كلَّ ساحرٍ وساحرة، قال: فقتلنا ثلاثَ سواحر^(٣).

ش: هذا الأثرُ رواه البخاري؛ كما قال المصنَّف، لكن لم يذكر قتلَ السواحر.

(١) ابن السكن كما في «الإصابة» (١/ ٢٥٠).

(٢) ينظر: ابن قدامة، «المغنى» (١٢/ ٣٠٢).

(٣) البخاري في «الصحيح» رقم (٣١٥٦).

قوله: (عن بَجَالَة) بفتح الموحدة بعدها جيم. ابن عبدة - بفتحيتين - التميمي العنبري، بصرى ثقة.

قوله: (كتب إلينا عمرُ بن الخطاب: أن اقتلوا كلَّ ساحرٍ وساحرة)، وظاهره أنه يُقتل من غير استتابة. وهو كذلك على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك؛ لأنَّ علم الساحر لا يزول بالتوبة. وعن أحمد يُستتاب، فإن تاب قُبِلت توبته، وبه قال الشافعي؛ لأنَّ ذنبه لا يزيد عن الشرك، والمشرِك يُستتاب وتُقبل توبته. ولذلك صحَّ إيمانُ سحرة فرعون وتوبتهم^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وصحَّ عن حفصة: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرَها/ فقتلت. وكذا صحَّ عن جندب.

[٩٨/ب]

ش: هذا الأثر، رواه مالك في (الموطأ)^(٢).

وحفصة، هي أم المؤمنين، بنت عمر بن الخطاب، تزوّجها النبي ﷺ بعد خُيس بن حذافة^(٣)، وماتت سنة خمس وأربعين.

قوله: (وكذا صحَّ عن جندب)، أشار المصنّف بهذا إلى قتله الساحر؛ كما رواه البخاري في (تاريخه)، عن أبي عثمان النهدي، قال: كان عند الوليد رجلٌ يلعب، فذبح إنساناً وأبان رأسه. فعجبنا! فأعاد رأسه. فجاء جندب الأزدي فقتله^(٤).

ورواه البيهقي في (الدلائل) مطولاً. وفيه: فأمر به الوليد، فسُجن. فذكر القصة بتمامها^(٥)، ولها طرق كثيرة.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

ش: أحمد، هو الإمام، أحمد بن محمد بن حنبل.

قوله: (عن ثلاثة). أي: صحَّ قتل الساحر عن ثلاثة، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من (أصحاب النبي ﷺ)، يعني: عمر، وحفصة، وجندب. والله أعلم.

(١) ينظر: أبو يعلى، «الروايتين» (٣٠٣/٢).

(٢) مالك في «الموطأ»، كتاب العقول رقم (٤٦) بلاغاً، ووصله عبد الرزاق في «المصنّف» (١٠ / ١٨٠).

(٣) أبو حذافة، ابن قيس بن عدي، هاجر إلى الحبشة وشهد بدرًا، مات في أول السنة الثالثة من الهجرة.

«الطقات الكبرى» لابن سعد (٣٩٢/٣).

(٤) البخاري في «التاريخ الكبير» (٢٢٢/٢) قال الدمشقي في «تاريخ الإسلام» (٣/٣): سنده صحيح.

(٥) كما في «الإصابة» (١ / ٢٥) وأخرجه في «اللسان الكبرى» (١٣٦/٨).

(٢٤)

باب

بيان شيء من أنواع السحر

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ بيان شيء من أنواع السحر.

ش: قلتُ: ذكر الشارحُ هنا شيئاً من الخوارق وكرامات الأولياء، وذكر ما اغترَّب به كثيرٌ من الناس من الأحوال الشيطانية التي غرَّت كثيراً من العوام والجهال، وظنّوا أنها تدلُّ على ولاية من جرت على يده، ممن هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، ثم قال: ولشيخ الإسلام كتابُ (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) فراجعهُ. انتهى^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: قال أحمد: حدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا عوف، حدَّثنا حيَّان بن العلاء، حدَّثنا قُطَن بن قبيصة، عن أبيه: أنه سمع النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجَبْتِ» قال عوف: العيَافَةُ: زَجَر الطير، وَالطَّرْقُ: الخطُّ يُخطُّ في الأرض. والجبت: قال الحسن: رَنَّةُ الشيطان^(٢). إسنادهُ جيد. ولأبي داود، [والنسائي]^(٣)، وابن حبان في (صحيحه): المسندُ منه^(٤).

ش: قوله: (قال أحمد) هو الإمام، أحمد بن محمد بن حنبل.

(١) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (٣٩٨).

(٢) أحمد في «المسند» (٦٠/٥، ٤٧٧/٣). وفيه قال الحسن: إِنَّهُ الشَّيْطَانُ. وهو الصواب. والله أعلم.

(٣) إضافة من (ط).

(٤) أبو داود في «السنن» رقم (٣٩٠٧) والنسائي في «السنن الكبرى» التفسير كما في «تحفة الأشراف» (٢٧٥/٨)

وابن حبان في «الصحيح» (٦٤٦/٧)، قال النووي في «رياض الصالحين» (٦٣٧): رواه أبو داود بإسنادٍ

حسن.

ومحمد بن جعفر: هو المشهور بغُندَر الهذلي البصري، ثقةٌ مشهور. مات سنة ستٍ ومائتين.

[٩٩/٢] وعوف: هو ابنُ أبي جَميلة - فتح الجيم - العبدى البصرى، المعروف بعوف الأعرابى، ثقة. مات سنة ستٍ - أو سبعٍ - وأربعين^(١)، وله ستٌ وثمانون سنة. وحيَّان بن العلاء: هو بالتحذية، ويقال: حيَّان بن مُخارق، أبو العلاء البصرى، مقبول. وقَطَن - بفتحيتين - أبو سهل البصرى، صدوق.

قوله: (عن أبيه) هو قَبِيصة - بفتح أوله - ابن مُخارق - بضم الميم - أبو عبد الله الهلالى، صحابىٌ نزل البصرة.

قوله: «إنَّ العيافة والطَّرُق والطيرة من الجَبْت» قال عوف: العيافة: زجرُ الطير، والتفاوُلُ بأسمائها وأصواتها وممرُّها. وهو من عادة العرب، وكثُرُ في أشعارهم. يُقال: عاف يعيف عيفاً: إذا زجر وحدث وظن.

قوله: «والطَّرُق»: الخط يُخط بالأرض. كذا فسره عوف، وهو كذلك.

وقال أبو السعادات: هو الضربُ بالخصى، الذى يفعله النساء^(٢).

وأما الطيرة: فيأتى الكلامُ عليها، فى بابها إن شاء الله تعالى.

قوله: «من الجَبْت» أى: السَّحَر^(٣)، قال القاضى: والجَبْتُ فى الأصل: الفشلُ الذى لا خير فيه، ثم استُعير لما يُعبد من دون الله، وللسَّاحِر والسحر.

قوله: (قال الحسن: رَنَّةُ الشيطان)^(٤). قلتُ: ذكر إبراهيمُ بن محمد بن مُفلح^(٥):

أنَّ فى (تفسير بَقِيَّ بن مَخْلَد)^(٦): أنَّ إبليسَ رَنَّ أربعَ رنات: رنة حين لُعن،

(١) بعد المائة «تقريب التهذيب» (٤٣٣).

(٢) ابن الأثير، «النهاية فى غريب الحديث» (١٢١/٣).

(٣) يعنى: من أفعال السحرة، وليست هى بذاتها من السحر. والله أعلم.

(٤) سبق التنبيه على ذلك.

(٥) أبو إسحاق المقدسى، الرامنى، فقيه حنبلى (ت ٨٨٤هـ) «شذرات الذهب» (٣٣٨/٧).

(٦) أبو عبد الرحمن، ابن يزيد الأندلسى القرطبى، حافظ مفسر، إمام مجتهد صالح، متقطع القرنين. ت

(٢٧٦هـ) و«طبقات الحنابلة» لابن أبى يعلى (١/١٢٠).

ورنة حين أهبط، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب^(١).

قال سعيد بن جبير: لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة، فكل رنة منها في الدنيا إلى يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم^(٢).

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، رن إبليس رنة اجتمعت عليه جنوده. رواه الحافظ الضياء في (المختارة).

الرنين: الصوت. وقد رن يرن رنيًا. وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله.

قوله: (ولأبي داود، وابن حبان في صحيحه: المسند منه). ولم يذكر التفسير الذي فسره به عوف. وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور، بدون كلام الحسن^(٣). [٩٩/ب]

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» رواه أبو داود^(٤)، بإسناد صحيح.

ش: وكذا صححه النووي، والذهبي^(٥). ورواه أحمد، وابن ماجه^(٦).

قوله: «من اقتبس» قال أبو السعادات: قبست العلم واقتبسته: إذا علمته. انتهى^(٧).

قوله: «شعبة» أي: طائفة من علم النجوم. والشعبة الطائفة، ومنه الحديث «الحياة شعبة من الإيمان»^(٨) أي: جزء منه.

(١) أخرجه ابن أبي شبة، كما في "الدر المنثور" (١١/١) والطبراني في "الأوسط" (٢٩٥/١) عن أبي هريرة. قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح "مجمع الزوائد" (٣١١/٦). وقال ابن رجب في "لطائف المعارف" (١٩٢) والمعروف لهذا عن مجاهد من قوله، أخرجه وكيع وغيره.

(٢) ابن أبي حاتم، كما في "الدر المنثور" (٨٠/٥) وابن أبي الدنيا كما في "اللطائف" (١٩٢).

(٣) لكن أبا داود رحمه الله رواه بإسناد خاص. برقم (٣٩٠٨).

(٤) أبو داود في "السنن" رقم (٣٩٠٥).

(٥) النووي في "رياض الصالحين" (٦٣٧) والذهبي في "الكبان" (١٢٣) وقال ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (١٩٣/٣٥): إسناده صحيح.

(٦) أحمد في "المسند" (٣١١، ٢٧٧/١) وابن ماجه في "السنن" رقم (٣٧٧٩)، وقال ابن مفلح في "الآداب الشرعية" (٤٣٤/٣): إسناده جيد.

(٧) ابن الأثير، "النهاية في غريب الحديث" (٤/٤).

(٨) قطعة من حديث أخرجه البخاري في "الصحيح" رقم (٩)، ومسلم في "الصحيح" رقم (٣٥) وأحمد في "المسند".

(٩) من حديث أبي هريرة.

قوله: «فقد اقتبس شُعبة من السحر»، المحرّم تعلّمه.

قال شيخ الإسلام: فقد صرّح رسولُ الله ﷺ بأنَّ علم النجوم من السحر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ اتَىٰ﴾^(١). [طه: ٦٩].

قوله: «زاد ما زاد» أى: كلّما زاد من تعلّم علم النجوم، زاد فى الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شُعبه؛ فإنَّ ما يعتقدُه فى النجوم من التأثير باطل، كما أنَّ تأثير السحر باطل. والله اعلم.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وللنسائي، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه: «مَنْ عَقَدَ عَقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَر، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكَلَّ إِلَيْهِ»^(٢).

ش: هذا الحديثُ ذكره المصنّف من حديث أبى هريرة، وعزاه للنسائي^(٣). وقد رواه النسائي مرفوعاً^(٤)، وحسنه ابنُ مفلح^(٥).

قوله: (وللنسائي). هو الإمام الحافظ، أحمد بن شعيب بن على بن سنان بن بحر بن دينار، أبو عبد الرحمن، صاحبُ (السنن) وغيرها. روى عن محمد بن المثنى، وابن بشار، وقتيبة، وخلق. وكان إليه المنتهى فى العلم بعلل الحديث. مات سنة ثلاث وثلاثمائة، وله ثمان وثمانون سنة.

قوله: «مَنْ عَقَدَ عَقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَر» إعلم أنَّ السُّحرة إذا أرادوا عمل السحر، عقدوا الخيوط ونفثوا على كلّ عَقْدَةٍ، حتى نعقد كلّ ما يُريدون من السحر، قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾^(٦) يعنى: السواحر اللاتى يفعلن ذلك. والنفث: هو النفخ من ريق، وهو دون التفل. والنفث فعلُ الساحر، فإذا تكيّفت نفسه بالخُبث والشر - الذى يُريده بالمسحور ويستعين عليه / بالأرواح الخبيثة - نفخ فى تلك العَقْدَة نفخاً معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفسٌ مخرجٌ^[١/٨]

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٣٥ / ١٩٣).

(٢) النسائي فى «المجتبى» (٧ / ١١٢).

(٣) ولم يُبين هل هو موقوف أو مرفوع. «التيسير» (١ / ٤٠).

(٤) والصواب أنه موقوف على الحسن؛ كما قال الذهبي فى «الميزان» (٢ / ٣٧٨).

(٥) ابن مفلح، «الأدب الشرعية» (٣ / ٧٨).

للشر والأذى، مُقْتَرَنٌ لِلرِّيقِ الممازج لذلك، وقد تَسَاعَدَ هو والروح الشَّيْطَانِيَّةُ عَلَى أَذَى الْمَسْحُورِ، فَيَصِيْبُهُ السَّحَرُ بِإِذْنِ اللَّهِ الْكَوْنِيِّ الْقَدْرِيِّ، لَا الشَّرْعِيِّ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ (١).

قوله: «وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ» نَصٌّ فِي أَنَّ السَّاحِرَ مُشْرِكٌ؛ إِذْ لَا يَتَأَنَّى السَّحَرُ بِدُونِ الشَّرِكِ، كَمَا حَكَاهُ الْخَافِظُ عَنْ بَعْضِهِمْ.

قوله: «وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكُلَّ إِلَيْهِ» أَيْ: مَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ شَيْئًا - بِحَيْثُ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ وَيَرْجُوهُ - وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ.

فَمَنْ تَعَلَّقَ عَلَى رَبِّهِ وَإِلَهِهِ وَسَيِّدِهِ وَمَوْلَاهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، كَفَاهُ وَوَقَاهُ وَحَفَظَهُ وَتَوَلَّاهُ، فَنَعَمَ الْمَوْلَى وَنَعَمَ النَّصِيرُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزُّمَرُ: ٣٦]. وَمَنْ تَعَلَّقَ عَلَى السَّحَرَةِ وَالشَّيَاطِينِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَى مَنْ تَعَلَّقَهُ، فَهَلَكَ..

وَمَنْ تَأَمَّلَ ذَلِكَ فِي أَحْوَالِ الْخَلْقِ، وَنَظَرَ بَعِينَ الْبَصِيرَةِ رَأَى ذَلِكَ عَيَانًا، وَهَذَا مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ الْمَصْنُفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ مَا الْعَضَّةُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ: الْقَائِلَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢).

ش: قوله: «أَلَا أُنبِئُكُمْ» أَيْ: أَخْبِرْكُمْ، وَ«الْعَضَّةُ» بِفَتْحِ الْمُهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْمَعْجَمَةِ.

قَالَ أَبُو السَّعَادَاتِ: هَكَذَا يُرَوَّى فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ. وَالَّذِي فِي كُتُبِ الْغَرِيبِ «أَلَا أُنبِئُكُمْ مَا الْعَضَّةُ» بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَفَتْحِ الضَّادِ.

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: أَصْلُهَا: الْعَضَّةُ، فَعِلُهُ مِنَ الْعَضِّ وَهُوَ الْبَهْتُ، فَحُذِفَتْ لَامُهُ، كَمَا حُذِفَتْ مِنَ السَّنَةِ وَالشَّفَةِ. وَتُجْمَعُ عَلَى عِضِينَ (٣).

ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: «هِيَ النَّمِيمَةُ: الْقَائِلَةُ بَيْنَ النَّاسِ» فَأُطْلِقَ عَلَيْهَا: الْعَضَّةُ؛ لِأَنَّهَا لَا تَنْفَكُ عَنِ الْكَذْبِ وَالْبَهْتَانِ غَالِبًا. ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ.

(١) ابْنُ الْقَيِّمِ، «بَدَائِعُ الْفَوَائِدِ» (٢/ ٢٢١).

(٢) مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ» رَقْمُ (٢٦٠٦).

(٣) ابْنُ الْأَثِيرِ، «النِّهَايَةُ» (٣/ ٢٥٤).

وذكر ابنُ عبد البر، عن يحيى بن أبي كثير، قال: يفسدُ المنام والكذبُ في ساعةٍ ما لا يُفسدُ الساحرُ في سنة^(١).

وقال أبو الخطَّاب^(٢) في (عيون المسائل): ومن السَّحر السَّعى بالنميمة والإفساد بين الناس.

قال في (الفروع): ووجهه: أنَّه يقصدُ الأذى بكلامه وعمله، على وجه المكر [١٠٠/ب] والحيلة، أشبه السحر. وهذا يُعرف/ بالعرف والعادة أنه يؤثر، وينتج ما يعمله السَّحرُ أو أكثر. فيُعْطى حكمه؛ تسويةً بين المَثْمَلين أو المتقاربين. لكن يُقال: الساحرُ إنَّما يكفر لوصف السحر، وهو أمرٌ خاص ودليله خاص. وهذا ليس بساحر، وإنَّما يؤثر عمله ما يؤثره فيُعْطى حكمه، إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة. انتهى ملخصاً^(٣).

وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة. وهو يدلُّ على تحريم النميمة، وهو مجمعٌ عليه.

قال ابنُ حزم: اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة، في غير النصيحة الواجبة^(٤). وفيه: دليلٌ على أنَّها من الكبائر.

قوله: «الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» قال أبو السَّعَادَات: أى: كثرةُ القول، وإيقاع الخصومة بين الناس. ومنه الحديث: «فَفَشَّتِ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»^(٥).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولهما، عن ابن عمر: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا»^(٦).

ش: البيان: البلاغةُ والفصاحة.

قال صَعَصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ^(٧): صدق نبيُّ الله، فإنَّ الرجل يكون عليه الحقُّ وهو

(١) نقله ابن مفلح في «الفروع» (٦/ ١٨٠).

(٢) محفوظ بن أحمد الكلوزاني، البغدادي الحنبلي، فقيه أصولي (ت ٥١٠هـ) «طبقات الحنابلة».

(٣) ابن مفلح، «الفروع». (٦/ ١٨٠) ونقل كلام أبي الخطَّاب.

(٤) ابن حزم، «مراتب الإجماع» (١٥٦).

(٥) ابن الأثير، «النهاية» (٤/ ١٢٣).

(٦) مضمي تخريجه.

(٧) العبدى، نزيل الكوفة، تابعي كبير، مخضرم، فصيح، ثقة، مات في خلافة معاوية. «تقريب» (٢٧٦).

الحنُّ بالحُجج من صاحب الحق، فيسحرُ القومَ ببيانه فيذهب بالحق^(١).
وقال ابنُ عبد البر: تأولتَه طائفةٌ على الذم؛ لأنَّ السحر مذموم. وذهب أكثرُ
أهل العلم، وجماعة أهل الأدب إلى أنَّه على المدح؛ لأن الله تعالى مدح البيان.
قال: وقد قال عمرُ بن عبد العزيز لرجل سألَه عن حاجة فأحسن المسألة، فأعجبه
قوله قال: هذا والله السحرُ الحلال. انتهى^(٢).

والأوَّلُ أصحُّ^(٣). والمرادُ به البيان الذي فيه تمويهٌ على السامع وتلبيس، كما قال
بعضُهم: شعراً.

فِي زُخْرَفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِباطِلِهِ وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرٍ^(٤)
[مأخوذٌ من قول الشاعر:]^(٥)

تَقُولُ: هَذَا مُجَاجِ النَّحْلِ، تَمْدَحُهُ وَإِنْ تَشَأْ قُلْتُ: ذَا قِيءُ الزَّنَائِيرِ
مَدْحاً وَذَمّاً، وَمَا جَاوَزْتَ وَصَفَهُمَا وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرٍ^(٦)

وقوله: «إِنَّ من البيان لسحراً» هذا من التشبيه البليغ؛ لكون ذلك يعملُ
عملَ السحر، فيجعل الحقَّ في قالب الباطل، والباطلَ في قالب الحق. فيستميلُ
به قلوبُ الجُهال، حتى يُقبل الباطل وينكر الحق. نسألُ الله الثبات، والاستقامة
على الهدى.

وأما البيانُ الذي يوضِّحُ الحقَّ ويقرِّره، [ويبطلُ الباطل] ^(٧) ويبيِّنه. فهذا هو
الممدوح، وهكذا حالُ الرسل وأتباعهم؛ ولهذا علت مراتبُهم في الفضائل،
وعظمت حسناتهم.

(١) ذكره أبو داود في، «السنن» (٢٧٨/٥).

(٢) ينظر «معالم السنن» للخطابي (١٣٦/٤).

(٣) قال ابن رجب في «فضل علم السلف» (٥٥) وإنما قاله في ذم ذلك، لا مدحاً له كما ظن من ظنه. ومن
تأمل سياق ألفاظ الحديث قطع بذلك.

(٤) من كلام أحمد بن شافع الجليلاني (ت ٥٦٥هـ) ذكره ابن رجب في «التاريخ» (٣١٣/١).

(٥) ساقط من الأصل و(ضر).

(٦) والبيتان ذكرهما ابن القيم رحمه الله تعالى في «مفتاح دار السعادة» (١٥٣).

(٧) إضافة من (ص) و(هـ) و(ط).

[١/١٠١] وبالجمله: فالبيان لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلى حد/ الإسهاب والاطناب،
وتغطية الحق وتحسين الباطل. فإذا خرج إلى هذا فهو مذموم؛ وعلى هذا تدلُّ
الأحاديثُ، كحديث الباب، وحديث «إنَّ اللهَ يبغضُ البليغَ من الرجال الذي
يتخلَّلُ بلسانه كما تتخلَّلُ البقرةُ بلسانها» رواه أحمد، وأبو داود^(١).

(١) أحمد في «المسند» (٢/١٦٥، ١٨٧) وأبو داود في «السنن» رقم (٥٠٠٥)، من حديث عبد الله بن عمرو،
وله شاهدٌ من حديث سعد بن أبي وقاص عند أحمد في «المسند» (١/١٧٦، ١٨٤).

(٢٥)

باب

ما جاء في الكهان ونحوهم

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في الكُهان ونحوهم.
ش: الكاهن: هو الذى يأخذ عن مُسترق السمع، وكانوا قبل المبعث كثيراً.
وأما بعد المبعث فإنهم قليل؛ لأن الله تعالى حرس السماء بالشَّهْب.
وأكثر ما يقع فى هذه الامة: ما يُخبر به الجنُّ مواليهم من الإنس، عن الأشياء
الغائبة مما يقع فى الأرض من الأخبار، فيظنه الجاهلُ كشفاً وكرامة. وقد اغترَّ
بذلك كثيرٌ من الناس، يظنون ذلك المخبر لهم عن الجن ولياً لله، وهو من أولياء
الشیطان؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ
الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى
أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.
[الأنعام: ١٢٨].

قال المصنّف رحمه الله تعالى: روى مسلم فى (صحيحه) عن بعض أزواج
النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أتى عَرَّافاً فسأله عن شيءٍ - فصدقه بما يقول
- لم تُقبل له صلاةٌ أربعين يوماً»^(١).

ش: قوله: (عن بعض أزواج النبي ﷺ) هى حفصة، وذكره أبو مسعود
الدمشقي^(٢)؛ لأنه ذكر هذا الحديث فى (الأطراف) فى مُسندها.

(١) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٣٠) دون قوله «فصدقه بما يقول» فهى عند أحمد فى «المسند» (٤/٦٨،
٣٨٠/٥).

(٢) إبراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقي، ثقة حافظ، مصنف كتاب أطراف الصحيحين (ت ٤٠١هـ) «تاريخ
بغداد» (٦/١٧٢).

قوله: «من أتى عرافاً سيأتى ببيان العراف إن شاء الله تعالى». وظاهر الحديث: أن الوعيد مُرتَّبٌ على مجيئه وسؤاله، سواء صدَّقه أو شك في خبره؛ فإن [فى] ^(١) بعض روايات الصحيح «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة» ^(٢).

قوله: «لم تُقبل له صلاة» إذا كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسؤول؟ قال النووي وغيره: معناه أنه لا ثواب له فيها، وإن كانت مُجزئةً بسقوط الفرض عنه. ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث؛ فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة. انتهى ملخصاً ^(٣). وفى الحديث: النهى عن إتيان الكاهن ونحوه.

[١٠١/ب] قال القرطبي: يجب على من قدر على ذلك من مُحْتَسِب وغيره أن/ يُقيم من يتعاطى شيئاً من ذلك من الأسواق، ويُنكر عليهم أشد النكير، على من يجيء إليهم، ولا يغتر بصدقهم في بعض الأمور، ولا بكثرة من يجيء إليهم ممن ينتسب إلى العلم؛ فإنهم غيرُ راسخين في العلم، بل من الجهال بما في إتيانهم من المحذور.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ». رواه أبو داود ^(٤).

ش: وفي رواية أبي داود «أو أتى امرأة - قال مُسَدَّد: امرأته - حائضاً، أو أتى امرأة - قال مُسَدَّد: امرأته - في دبرها، فقد برىء مما أنزل على محمد ﷺ» فناقل هذا الحديث من (السنن) حذف منه هذه الجملة، واقتصر على ما يُناسب الترجمة. قال المصنّف رحمه الله تعالى: وللأربعة، والحاكم - وقال: صحيحٌ على

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) هذا نصُّ رواية مسلم.

(٣) النووي «المنهاج» (١٤/ ٢٢٧).

(٤) أبو داود في «السنن» رقم (٣٩٠٤).

شرطهما - عن... (١) «من أتى عَرَأْفًا أو كاهنًا فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ».

ش: هكذا بيّض المصنّف لاسم الراوى. وقد رواه أحمد، والبيهقى، والحاكم عن أبى هريرة مرفوعاً (٢).

قوله: «من أتى كاهنًا» قال بعضهم: لا تعارض بين هذا وحديث «من أتى عَرَأْفًا فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة» هذا على قول من يقول: هو كفرٌ دون كفر. أمّا على قول من يقول بظاهر الحديث، فيُسأل عن وجه الجمع بين الحديثين!.

وظاهرُ الحديث: أنّه يكفر، متى اعتقد صدقه بأى وجهٍ كان. وكان غالبُ الكهان قبل النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين.

قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد» قال القرطبي: المراد بالمتنزل: الكتاب والنسبة. انتهى.

وهل الكفرُ فى هذا الموضع كفرٌ دون كفر، فلا ينقل عن الملة، أم يُتوقف فلا يقال: يُخرج عن الملة ولا ما يخرج؟ وهذا أشهرُ الروايتين عن أحمد رحمه الله.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولأبى يعلى - بسندٍ جيدٍ - عن ابن مسعود، مثله موقوفاً (٣).

ش: أبو يعلى: اسمه: أحمد بن على بن المُثنى الموصلى، الإمام صاحبُ التصانيف [كالمسند]/ وغيره، روى عن يحيى بن معين وأبى خيثمة، [١٠٢/١] وأبى بكر بن أبى شيبة، وخلق. وكان من الأئمة الحُفاظ. مات سنة سبع وثلاثمائة.

(١) يباصرُ فى جميع الأصول الخطية التى اطلعتُ عليها من كتاب التوحيد وشروحه.

(٢) أحمد فى «المسند» (٤٢٩/٢) والبيهقى فى «السنن» (١٣٥/٨) والحاكم فى «المستدرک» (٨/١)، وصححه

وروافقه الذهبى، وقال الذهبى فى «الكبائر» (١٢٣): إسناده صحيح.

(٣) أبو يعلى فى «المسند» رقم (٥٤٠٨)، قال المنذرى فى «الترغيب والترهيب» (٣٦/٤) رواه البراز وأبو يعلى،

باسناد جيد موقوفاً.

وهذا الأثر: رواه البزارُ أيضاً، ولفظه: من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ^(١).

وفيه: دليلٌ على كفر الكاهن والساحر؛ لأنهما يدعيان علم الغيب، وذلك كفر. والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به، وذلك كفر أيضاً.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن عمران بن حصين، مرفوعاً: «ليس منا من تطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر، أو سحر له. ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ^(٢)». بإسنادٍ جيد.

ورواه الطبراني بإسناد حسن، من حديث ابن عباس، دون قوله: «ومن أتى كاهناً إلى آخره»^(٣).

ش: قول: «ليس منا» فيه: وعيدٌ شديد، يدلُّ على أنَّ هذه الأمور من الكبائر؛ وتقدّم: أنَّ الكهانة والسحر كفر.

قوله: «من تطير» أى: فعل الطيرة، «أو تطير له» أى: قبل قول المتطير له وتابعه، وكذا معنى «أو تكهن أو تُكهن له» كالذى يأتى الكاهن ويصدقه ويتابعه، وكذلك من عمل الساحر له السحر.

فكلُّ من تلقى هذه الأمور عمّن تعاطاها فقد برىء منه رسول الله ﷺ؛ لكونها: إما شركٌ كالطيرة، أو كفرٌ كالكهانة والسحر. فمن رضى بذلك وتابع فهو كالفاعل؛ لقبوله الباطل واتباعه.

قوله: (رواه البزار). هو أحمدُ بن عمرو بن عبد الخالق، أبو بكر البزار البصرى، صاحب (المُسند الكبير). وروى عن ابن بشار^(٤)، وابن المثنى^(٥)، وخلق. مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

(١) البزار فى «المُسند» رقم (٢٠٦٧) قال ابن حجر فى «الفتح» (١٠ / ٢١٧): إسناده جيد.

(٢) البزار فى «المُسند» رقم (٣٠٤٤) قال المنذرى فى «الترغيب والترهيب» (٤ / ٣٣) إسناده جيد.

(٣) الطبرانى فى «الأوسط» كما فى «مجمع الزوائد» (٥ / ١١٧) قال المنذرى فى «الترغيب والترهيب» (٤ / ٣٣): إسناده حسن.

(٤) أبو بكر، محمد بن بشار بن عثمان العبدي، البصرى، بُنّار، (ثقة ت ٢٥٢هـ) «التقريب» (٤٦٩).

(٥) أبو موسى، محمد بن المثنى بن عبيد العزى، البصرى، ثقة ثبت، وكان هو وبُنّار كفرسى رمان، وماتا فى سنة واحدة. «التقريب» (٥٠٥).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: قال البَغَوِي: العَرَّاف: الذى يدّعى معرفة الأمور بمقدّماتٍ يستدلُّ بها على المسروق ومكان الضَّالّة، ونحو ذلك^(١).

وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذى يُخبر عن المغيّبات فى المُستقبل. وقيل: الذى يُخبر عمّا فى الضمير.

وقال أبو العباس ابنُ تيمية: العَرَّاف: اسمٌ للكاهن والمنجم والرّمّال ونحوهم، ممن يتكلّم فى معرفة الأمور بهذه الطرق^(٢).

ش: البَغَوِي - بفتحيتين - هو الحُسَيْن بن مسعود بن الفراء الشافعى، صاحبُ التصانيف، وعالمُ أهلِ خُرَاسان. كان ثقةً فقيهاً زاهداً. مات فى شوال سنة ست عشرة وخمسمائة.

قوله: (العَرَّاف: الذى يدّعى معرفة الأمور). ظاهره، أنّ العَرَّاف: الذى يُخبر عن الواقع كالسرقة وسارقها، والضّالة ومكانها.

وقال شيخُ الإسلام: إنّ العَرَّاف: اسمٌ للكاهن والمنجم والرّمّال/ ونحوهم، [١٠٢/ب] الحارّز الذى يدّعى علمَ الغيب، أو يدّعى الكشف!

وقال أيضاً: والمنجمُ يدخلُ فى اسم العراف، وعند بعضهم هو فى معناه.

وقال أيضاً: والمنجمُ يدخلُ فى اسم الكاهن، عند الخطّابى وغيره من العلماء، وحكى ذلك عن العرب.

وعند آخرين: هو من جنس الكاهن، وأسوأ حالاً منه، فيُلحق به من جهة المعنى^(٣).

وقال الإمامُ أحمد: العراف: طَرَفٌ من السحر. والساحرُ أخبث.

وقال أبو السعادات: العَرَّاف: المنجم، والحارّز^(٤) الذى يدّعى علم الغيب، وقد استأثر الله تعالى به^(٥).

(١) البغوى «شرح السنة» (١٢/١٨٢).

(٢) ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (٣٥/١٧٣).

(٣) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٣٥/١٧٣، ١٩٣).

(٤) فى النهاية: أو الحارّز.

(٥) ابن الأثير، «النهاية» (٣/٢١٨).

وقال ابن القيم: من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عافاً، وعراًفاً.

والمقصود من هذا: معرفة من يدعى معرفة علم شئ من المغيبات، فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى، فيلحق به. وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة، في بعض الأحيان يكون بالكشف. ومنه ما هو من الشياطين، ويكون: بالفال، والزجر، والطيرة، والصرب بالخصى، والخط في الأرض، والتنجيم، والكهانة، والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية.

ونعني بالجاهلية: كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام، كالفلاسفة والكهّان والمنجّمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ؛ فإن هذه علوم القوم، ليس لهم علم بما جاءت به الرسل عليهم السلام.

وكل هذه الأمور يُسمى صاحبها كاهناً وعراًفاً، أو في معناهما. فمن اتاهم فصدّقهم بما يقولون لحقه الوعيد. وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام، فادّعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وادّعوا أنهم أولياء، وأن ذلك كرامة!!

ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدلّ بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن!! إذ الكرامة: أمرٌ يُجرّيه الله على يد عبده المؤمن المتقى: إما بدعاء، أو أعمال صالحة لا صنّع للولى فيها، ولا قدرة له عليها. بخلاف من يدعى أن ولى الله، ويقول للناس: اعلّموا أنّي أعلم المغيبات؛ فإن مثل هذه/ الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب، وإن كانت أسباباً محرّمة كاذبة في الغالب. [١/١٠٣]

ولهذا قال ﷺ في وصف الكهّان: «فيكذبون معها مائة كذبة»^(١) فبين أنهم يصدقون مرةً ويكذبون مائة.

وهكذا حال من سلك سبيل الكهّان، ممن يدعى الولاية والعلم بما في ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه؛ لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهى عنها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾. [النجم: ٣٢] وليس هذا من شأن الأولياء، بل شأنهم الإِزراء على نفوسهم وعيبيهم لها، وخوفهم من ربهم. فكيف

(١) قطعة من حديث، أخرجه البخارى في «الصحيح» رقم (٣٢١٠، ٣٢٨٨، ٥٧٦٢، ٦٢١٣، ٧٥٦١) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٢٨) من حديث عائشة.

يأتون الناس، يقولون: اعرفوا أننا أولياء، وأنا نعلم الغيب؟ وفي ضمن ذلك طلبُ
المنزلة في قلوب الخلق، واقتناصُ الدنيا بهذه الأمور.

وحسبك بحال الصحابة والتابعين، وهم سادات الأولياء رضى الله عنهم،
أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شيء؟! لا والله، بل كان أحدُهم لا
يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن، كالصديق رضى الله عنه^(١). وكان عمر
يُسمع نشيجهُ من وراء الصفوف يبكي في صلاته^(٢)، وكان يمرُّ بالآية في ورده
بالليل فيمرضُ منها ليالى يعودونه^(٣). وكان غميمُ الدارى يتقلبُ في فراشه لا
يستطيع النوم إلا قليلاً، خوفاً من النار، ثم يقوم إلى صلاته!

ويكفيك في صفات الأولياء، ما ذكره الله تعالى من صفاتهم: في
سورة الرعد، والمؤمنين، والفرقان، والذاريات، والطور. فالتصنفون بتلك
الصفات هم الأولياء الأصفياء، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة ربِّ العالمين
فيما اختصَّ به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب، بل مجردُ دعواه علمُ
الغيب كفر.

فكيف يكون المدعى لذلك ولياً لله؟ وقد عظم الضررُ واشتدَّ الخطبُ بهؤلاء
المفتريين الذى ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبسوا بها على خفافيش القلوب.
نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقال ابنُ عباس - في قوم يكتبون أبا جاد،
وينظرون في النجوم -: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق^(٤).

ش: هذا الأثر، رواه الطبراني / عن ابن عباس، مرفوعاً. وإسناده ضعيف، [١٠٣/ب]

(١) أخرجه البخارى في «الصحيح» رقم (٧١٦) ومسلم في «الصحيح» رقم (٤١٨).

(٢) أخرجه البخارى في «الصحيح» معلقاً (٢٠٦/٢) ووصله ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٥/١) قال ابن

حجر في «التعليق» (٣٠٠/٢): هذا إسنادٌ صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٩/١٣).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٦/١١) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦٠٢/٨).

ولفظه: رَبُّ مُعَلِّمِ حُرُوفِ أَبِي جَادِ دَارِسٍ فِي النُّجُومِ. ليس له عند الله خلاقٌ يوم القيامة^(١).

ورواه حميد بن زنجويه عنه، بلفظ: رَبُّ نَاطِرٍ فِي النُّجُومِ وَمُعَلِّمِ حُرُوفِ أَبِي جَادِ، ليس له عند الله خلاق.

قوله: (ما أرى). يجوزُ فتحُ الهمزة، بمعنى لا أعلم. ويجوز ضمُّها، بمعنى: لا أظن.

وكتابه أبي جاد، وتعلُّمها - لمن يدعى بها علم الغيب - هو الذي يُسمَّى علمُ الحرف^(٢)، وهو الذي فيه الوعيد. فأما تعلُّمها للتهجى وحساب الجمل، فلا بأس به.

قوله: (وينظرون في النجوم)، أى: ويعتقدون أنَّ لها تأثيراً؛ كما سيأتى في باب التنجيم.

وفيه من الفوائد: عدمُ الاغترار بما يؤتاه أهلُ الباطل من معارفهم وعلومهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. [غافر: ٨٣].

(١) الطبرانى فى «الكبير» رقم (١٠٩٨٠) قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (١١٧/٥): وفيه خالد بن يزيد العمرى، وهو كذاب!

(٢) ينظر: طاش كبرى زاده، «مفتاح السعادة» (٢/ ٥٩١).

(٢٦) باب ما جاء في النشرة

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في النشرة.

ش: بضمّ النون؛ كما في (القاموس). قال أبو السعادات: النشرة: ضربٌ من العلاج والرّقية، يُعالج به من كان يُظنُّ أنَّ به مسًّا من الجن، سُمِّيَتْ نُشْرَةً؛ لأنه يُنْشَرُ بها عنه ما خامرته من الداء، أى: يُكْشَفُ ويُزال.

قال الحسن: النشرة من السحر^(١). وقد نَشَرَتْ عنه تنشيراً، ومنه الحديث «فلعلّ طبّاً أصابه» ثم نَشَرَهُ بِـ «قل أعوذُ بِربِّ الناس» أى: رَقَاهُ^(٢).

وقال ابنُ الجوزي: النشرة: حلُّ السّحر عن المسحور. ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر^(٣).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: عن جابر، أنَّ رسولَ الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: «هى من عمل الشيطان» رواه أحمدٌ بسندٍ جيّد، وأبو داود^(٤). وقال: سئل أحمدٌ عنها؟ فقال: ابنُ مسعودٍ يكره هذا كلّهُ^(٥).

ش: هذا الحديث رواه أحمد، ورواه عنه أبو داود فى (سُنَّته). والفضلُ بن رِيَاد فى كتاب (المسائل)، عن عبد الرزاق، عن عَقِيل بن مَعْقِل بن مُنْبَه، عن عمه

(١) أخرجه الخطائى فى «معالم السنن» (٢٠١/٤). أى: عن السحر.

(٢) ابن الأثير، «النهاية» (٥٤/٥).

(٣) «غريب الحديث» لابن الجوزى (٤٠٨/٢).

(٤) أحمد فى «المسند» (٢٩٤/٣) وأبو داود فى «السنن» رقم (٣٨٦٨)، قال ابن حجر فى «فتح البارى» (١٠/

٢٣٣): إسناده حسن.

(٥) رواية جعفر عنه، كما فى «الأدب الشرعية» لابن مفلح (٧٧/٣).

وهب بن منبه، عن جابر، فذكره. قال ابن مفلح: إسناده جيد^(١). وحسن [١/١٠٤] الحافظ/ إسناده.

قوله: (سُئِلَ عن النُّشْرَةِ)، الألف واللام في النُّشْرَةِ للعهد. أى: النُّشْرَةُ المعهودة، التى كان أهلُ الجاهلية يصنعونها، هى من عمل الشيطان.

قوله: (وقال: سُئِلَ أحمدُ عنها؟ فقال: ابنُ مسعود يكره هذا كله)، أراد أحمدُ رحمه الله: أن ابن مسعود يكره النُّشْرَةَ التى هى من عمل الشيطان؛ كما يكره تعليقَ التمانم مُطلقاً.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وللبخارى، عن قتادة: قلتُ لابن المسيّب: رجلٌ به طَبٌّ أو يُؤخَذُ عن امرأته، أَيَحِلُّ عنه أو يُنْشَرُ؟ قال: لا بأسَ به، إنّما يُريدون به الإصلاح؛ فأما ما ينفع فلم يُنه عنه^(٢).

ش: قوله: (عن قتادة). هو ابن دُعامة - بكسر الدال - السّدُوسى، ثقة، فقيه، من أحفظ التابعين. قالوا: إنه ولد أكمه. مات سنة بضع عشرة ومائة.

قوله: (رجلٌ به طَبٌّ). بكسر الطاء. أى: سِحْرٌ، يُقال له: طَبُّ الرجل - بالضم - إذا سَحَر، ويقال: كُنُوا عن السحر بالطب؛ تفاؤلاً. كما يُقال للديغ: سليم.

وقال ابنُ الأنبارى^(٣): الطَّبُّ من الأضداد. يقال لعلاج الداء: طَبٌّ. والسحرُ من الداء، ويقال له: طَبٌّ^(٤).

قوله: (يُؤخَذُ) - بفتح الواو مهموز، وتشدِيدِ الحاء المعجمة وبعدها ذالٌ مُعْجَمَةٌ - أى: يُحبَس عن امرأته، ولا يصل إلى جماعها. والأُخْذَةُ - بضم الهمزة - الكلامُ الذى يقوله السّاحِر.

قوله: (أَيُحَلِّ)، بضم الياء وفتح الحاء، مبنى للمفعول.

(١) ابن مفلح، «الأدب الشرعية» (٧٣/٣).

(٢) البخارى فى «الصحيح» تعليقاً (١٠/ ٢٣٢)، ووصله ابن جرير الطبرى فى «التهذيب» كما فى «تغليق التعليق» (٥/ ٤٩) بإسناد صحيح.

(٣) أبو بكر، محمد بن القاسم بن بشار، المقرئ النحوى (ت ٣٢٨هـ) «طبقات الخنابلة» (٢/ ٦٩).

(٤) ابن الأنبارى «كتاب الأضداد» (٢٣١).

قوله: (أو يُنشر) بتشديد المعجمة. قوله: (لا بأس به) يعنى: أن النشرة لا بأس بها؛ لأنهم يريدون بها الإصلاح. أى: إزالة السحر، ولم يُنه عما يُراد به الإصلاح، وهذا من ابن المسيب يُحمل على نوع من النشرة، لا يعلم أنه سحر. قال المصنّف رحمه الله تعالى: ويروى عن الحسن، أنه قال: لا يحلُّ السحر إلا ساحر^(١).

ش: هذا الأثر، ذكره ابن الجوزى فى (جامع المسانيد)^(٢).

والحسن: هو ابنُ أبى الحسن، واسمه يسار - بالتحية والمهمله - البصرى الأنصارى، مولا هم. ثقةٌ فقيه، إمامٌ من خيار التابعين. مات سنة عشر ومائة، وقد قارب التسعين.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: قال ابنُ القيم: النشرة: حلُّ السحر عن المسحور، وهى نوعان:

أحدهما: حلُّ بسحر مثله، وهو الذى من عمل الشيطان. وعليه يُحمل قولُ الحسن، فيتقرَّب الناشرُ والمنتشر إلى الشيطان بما يُحب، فيبطل عمله عن المسحور. والثانى: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز^(٣).

ش: ومما جاء فى صفة النشرة الجائزة: ما رواه ابنُ أبى حاتم، وأبو الشيخ، [١٠٤/ب] عن ليث بن أبى سليم، قال: بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاءٌ من السحر بإذن الله، - تقرأ فى إناء فيه ماء، ثم يُصبُّ على رأس المسحور - الآية التى فى يونس ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾. [يونس: ٨١ - ٨٢]، وقوله: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. [الأعراف: ١١٨] إلى آخر الآيات الأربع، وقوله. ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾. [طه: ٦٩]^(٤).

(١) أخرجه ابنُ جرير الطبرى فى «التهذيب» كما فى «فتح البارى» (٢٣٣ / ١٠).

(٢) نقله عنه ابنُ منلج فى «الآداب الشرعية» (٧٧ / ٣).

(٣) ينظر ابنُ القيم «زاد المعاد» (٤ / ١٢٤، ١٨١).

(٤) ابنُ أبى حاتم فى «التفسير»، وأبو الشيخ، كما فى «الدر المنثور» (٣٨١ / ٤).

وقال ابنُ بطَّال: فى (كتاب وهب بن مُنبّه): أن يأخذ سبعَ ورقات من سدر أخضر، فيدقُّه بين حجرين، ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل^(١)، ثم يحسو منه ثلاثَ حسوات، ثم يغتسل به، يذهب عنه كلُّ ما به، وهو جيد للرجل إذا حُبس عن أهله^(٢).

قلتُ: قولُ العلامة ابن القيم: (والثانى: النُّشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة. فهذا جائز). يُشير إلى مثل هذا، وعليه يُحمل كلامُ من أجاز النُّشرة من العلماء.

[والحاصلُ: أن ما كان منه بالسحر فيحرم، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة، فجائز]^(٣). والله أعلم.

(١) السور الثلاث الأخيرة، من القرآن الكريم. وسورة الكافرون.

(٢) نقله ابن حجر فى «فتح البارى» (١٠/٢٣٣).

(٣) ما بينهما إضافة من (هـ) و(ط).

(٢٧)

باب

ما جاء في التطير

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في التطير.

ش: أى: من النهى عنه والوعيد فيه، مصدرُ تطيّر [تطيّراً] ^(١)، والطيّرة - بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تُسَكَّن -: اسمُ مصدرٍ من تطيّر [طيّرة] ^(٢).

وأصله: التطيّر بالسّوانح والبوارح، من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدّهم عن مقاصدهم. فنفاه الشّرْع وأبطله، وأخبر أنّه لا تأثير له فى جلب نفع أو دفع ضرر ^(٣).

قال المدائنى ^(٤): سألت رؤبة بن العجاج: ما السانح؟ قال: ما ولاك ميامنه. قلت: فما البارح؟ قال: وما ولاك مياسره. والذي يجىء من أمامك فهو النّاطح والنطيح، والذي يجىء من خلفك هو القاعد والقعيد!

ولما كانت الطييرة من الشّرك المُنافى لكمال التوحيد الواجب - لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته - ذكرها المصنّف فى (كتاب التوحيد)؛ تحذيراً مما يُنافى كمال التوحيد الواجب.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [١٠٥/١] ولكنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. [الاعراف: ١٣١].

(١) إضافة من (ض) و(ه).

(٢) إضافة ن (ض) و(ه) و(ط).

(٣) ينظر: ابن الأثير، «النهاية» (٣/١٥٢).

(٤) أبو الحسن، على بن محمد بن عبد الله بن أنى سيف الأحمارى، مؤرخ نسابة حافظ، له كتاب الرجز

والقال (ت ٢٢٥هـ) «اللباب» (٣/١٨٢).

ش: ذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾. [الأعراف: ١٣١].

المعنى: أن آل فرعون إذا أصابتهم الحسنة، أى: الخصب والسعة والعافية - كما فسره مجاهد وغيره^(١) - قالوا: لنا هذه، أى: نحن الجديرون والحقيقون به، ونحن أهلّه. وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ، أى: بلاء وقحط، يطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه، أصابنا بشؤمهم. فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

قال ابن عباس: طائرهم: ما قضى عليهم وقدر لهم. وفي رواية: شؤمهم عند الله ومن قبله. أى: إنما جاءهم الشؤم من قبله؛ بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله^(٢).

قوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: أكثرهم جهال لا يدرون، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. [يس: ١٩].

ش: المعنى - والله أعلم - حظكم وما نابكم من شرّ معكم، بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل ببغيتكم وعداوتكم.

فطائرُ الباغي الظالم معه، فما وقع به من الشرور فهو سببه الجالب له. وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. [القلم: ٣٥ - ٣٦].

ويحتمل أن يكون المعنى: طائركم معكم. أى: راجع عليكم. فالتطير الذى حصل لكم إنما يعود عليكم؛ وهذا من باب القصاص فى الكلام، ونظيره قوله

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٤٩٨٣).

(٢) «تفسير البغوى» (٢/ ١٩٠).

عليه السلام: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»^(١) ذكره ابن القيم^(٢).

وقوله: «أَتْنِ ذُكْرْتُمْ» أى: من أجل أنا ذُكِّرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ» وقال قتادة: أتن ذُكِّرناكم بالله تطيّرتم بنا^(٣)!.

ومناسبة الآيتين للترجمة: أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين، وقد ذمهم الله به ومقتهم. وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطير، وأخبر أنه شرك؛ كما سيأتى فى أحاديث الباب/.

[٥/١٠٥ ب]

قال المصنّف رحمه الله تعالى: عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا عَدُوَّ وَلَا طِيْرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ» أخرجاه^(٤). زاد مسلم: «وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ»^(٥).

ش: قال أبو السعادات: العَدُو: اسمٌ من الإِعداء. كالرَعْوَى. يُقال: أعداء الداء، يُعديه إعداء: إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء^(٦).

وفى رواية لمسلم: أن أبا هريرة، كان يُحدّثُ بحديث «وَلَا عَدُوَّ»، ويُحدّثُ عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصْحٍ».

ثم إنَّ أبا هريرة اقتصر على حديث «لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصْحٍ» وأمسك عن حديث «لَا عَدُوَّ» فراجعوه، وقالوا: سمعناك تُحدّثه، فأبى أن يعترف به.

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٢٥٨، ٦٩٢٦) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢١٦٣) من حديث أنس ابن مالك.

(٢) ابن القيم، «مفتاح دار السعادة» (٥٧٩).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٥٨/٢٢).

(٤) البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٧٥٧) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢٠).

(٥) من رواية أبى هريرة، ومن رواية جابر رقم (٢٢٢٢).

(٦) ابن الأثير، «النهاية» (١٩٢/٣).

قال أبو سلمة - الراوى عن أبى هريرة -: فلا أدري أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر؟^(١).

وقد روى حديث «لا عدوى» جماعة من الصحابة: أنس بن مالك^(٢)، وجابر ابن عبد الله^(٣)، والسائب بن يزيد^(٤)، وابن عمر^(٥) وغيرهم^(٦)، وفى بعض روايات هذا الحديث «وفر من المجذوم كما تفر من الأسد»^(٧).

وقد اختلف العلماء فى ذلك، وأحسن ما قيل فيه: قول البيهقى - وتبعه ابن الصلاح، وابن القيم، وابن رجب، وابن مفلح، وغيرهم^(٨) - أن قوله: «ولا عدوى» على الوجه الذى يعتقده أهل الجاهلية، من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وأن هذه الأمور تعدى بطبعها. وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شئ من الأمراض سبباً لحدوث ذلك؛ ولهذا قال: «وفر من المجذوم كما تفر من الأسد» وقال: «لا يؤرد ممرض على مصح» وقال فى الطاعون «من سمع به فى أرض فلا يقدم عليه»^(٩) وكل ذلك بتقدير الله تعالى^(١٠).

ولأحمد، والترمذى، عن ابن مسعود، مرفوعاً «لا يعدى شئ شيئاً» - قالها ثلاثاً - فقال أعرابى: يا رسول الله النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة فتجرب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «فمن أجرب الأول؟ لا عدوى

(١) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢١).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٧٥٦، ٥٧٧٦) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢٤).

(٣) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢٢).

(٤) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢٠).

(٥) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٧٧٢) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢٥).

(٦) وأخرجه أحمد فى «المستد» (٢٦٩/١، ٣٢٨) من حديث ابن عباس، وأخرجه أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو (٢٢٢/٢) ومن حديث سعد بن أبى وقاص (١٨٠/١) ومن حديث ابن مسعود (٤٤٠/١).

(٧) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٧٠٧) تعليقا، وقد وصله أحمد فى «المستد» (٤٤٣/٢).

(٨) البيهقى، فى «السنن» (٢١٦/٧) وابن الصلاح، «علوم الحديث» (٤١٥) وابن القيم، «مفتاح دار السعادة» (٥٨٢) و«زاد المعاد» (١٤٨/٤) وابن رجب، «لطائف المعارف» (٦٩) وابن مفلح، «الآداب الشرعية» (٣٦٣/٣).

(٩) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٧٢٨) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢١٨) من حديث أسامة.

(١٠) ينظر البغوى، «شرح السنة» (١٦٩/١٢).

ولا طيرة ولا هامة ولا صفّر، خلق الله كلّ نفسٍ وكتب حياتها ومصائبها [١/١٠٦]
ورزقها^(١).

فأخبر ﷺ: أنّ ذلك كلّهُ بقضاء الله وقدره، والعبدُ مأمورٌ باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية. فكما أنه يُؤمر أن لا يُلقي نفسه في الماء وفي النار، مما جرت العادةُ أنه يهلك أو يضر. فكَذلك اجتنابُ مقاربةِ المريض كالمجذوم، والقدوم على بلد الطاعون؛ فإن هذه كلها أسبابٌ للمرض والتلف، فالله سبحانه هو خالقُ الأسباب ومُسيئاتها، لا خالقُ غيره ولا مقدرٌ غيره.

وأما إذا قوى التوكّل على الله، والإيمان بقضاء الله وقدره - فقويت النفسُ على مُباشرة بعض هذه الأسباب، اعتماداً على الله، ورجاءً منه لا يحصل به ضرر - ففي هذه الحال تجوزُ مُباشرةُ ذلك، لا سيما إذا كانت مصلحةً عامة أو خاصة.

وعلى هذا يُحمل الحديث الذي رواه أبو داود، والترمذى: أنّ النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فادخلها معه في القَصْعة، ثم قال «كُلْ بِسْمِ اللَّهِ، ثقةً بالله وتوكلاً عليه»^(٢) وقد أخذ به الإمامُ أحمد. وروى ذلك عن عمر^(٣)، وابنه^(٤)، وسلمان^(٥) رضى الله عنهم.

ونظيرُ ذلك: ما روى عن خالد بن الوليد من أكل السم^(٦)، ومنه: مَشَى سعد ابن أبي وقاص^(٧)، وأبى مُسلم الخولاني على متن البحر. قاله ابنُ رجب رحمه الله^(٨).

(١) أحمد في «المستد» (٤٤٠ / ١) والترمذى في «الجامع» رقم (٢١٤٤).

(٢) أبو داود في «السنن» رقم (٣٩٢٥) والترمذى في «الجامع» رقم (١٨١٨) وقال: هذا حديثٌ غريب، من حديث جابر، وقال ابنُ القيم في «زاد المعاد» (٤ / ١٥٣): لا يثبت ولا يصح.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠ / ٤٠٥، ١١ / ٢٠٥) البغوى في «شرح السنة» (١٢ / ١٧٢): وهو هندی أشبه وأصح.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨ / ٣١٧).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨ / ٣١٧).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (١٥٥٧٧) وأبو يعلى في «المستد» رقم (٧١٨٦) وأخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» رقم (١٤٨١، ١٤٨٢) بإسناد متصل.

(٧) أخرجه أبو نُعيم في «الدلائل» رقم (٥٢٢).

(٨) ابن رجب، «لطائف المعارف» (٦٩).

قوله: «ولا طيرة» قال ابن القيم: يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً، أى: لا تطيروا، ولكن قوله فى الحديث «ولا عدوى ولا صفراً ولا هامة» يدل على أن المراد النفى، وإبطال هذه الأمور التى كانت الجاهلية تعانيتها. والنفى فى هذا أبلغ من النهى؛ لأن النفى يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهى إنما يدل على المنع منه.

وفى (صحيح مسلم)، عن معاوية بن الحكم: أنه قال لرسول الله ﷺ: ومنا أناس يطيطون، قال: «ذلك شئٌ يجده أحدكم فى نفسه فلا يصدنكم»^(١) فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو فى نفسه وعقيدته، لا فى المتطير به. فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذى يطيره ويصده، لا ما رآه وسمعه.

[١٠٦/ب] فأوضح ﷺ لأمته الأمر، وبين لهم فساد الطيرة/ ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصيبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التى أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد. فقطع ﷺ علق الشريك من قلوبهم؛ لئلا يبقى فيها علقه منها، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال [أهل]^(٢) النار البتة.

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى، واعتصم بحبله المتين، وتوكل على الله، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها، وبادر خواطرها من قبل استمكانها.

قال عكرمة: كنّا جلوساً عند ابن عباس، فمر طائرٌ يصيح، فقال رجلٌ من القوم: خير خير، فقال ابن عباس: لا خير ولا شر^(٣). فبادره بالإنكار عليه، لئلا يعتقد تأثيره فى الخير والشر.

وخرج طاوسٌ مع صاحب له فى سفر، فصاح غرابٌ، فقال الرجل: خير، فقال طاوس: وأى خير عند هذا؟ لله لا تصحبني^(٤). انتهى ملخصاً^(٥).

(١) قطعة من حديث طويل، عند مسلم فى «الصحيح» رقم (٥٣٧).

(٢) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٣) أخرجه الطبري، كما فى «فتح الباري» (٢١٥/١٠).

(٤) أخرجه عبد الرزاق فى «المصنف» (٤٠٦/١٠).

(٥) ابن القيم «مفتاح دار السعادة» (٥٨٢).

وقد جاءت أحاديثُ ظن بعضُ الناس أنها تدلُّ على جواز الطيرة؛ كقوله ﷺ:
«الشؤمُ في ثلاث: في المرأة، والدابة، والدار»^(١) ونحو هذا.

قال ابنُ القيم رحمه الله: إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثباتُ
الطيرة التي نفاها الله، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على
من قاربها وسكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤمٌ ولا شر.

وهذا كما يُعطى سبحانه الوالدين ولدًا مباركًا يريان الخير على وجهه، ويُعطى
غيرهما ولدًا مشؤومًا يريان الشرَّ على وجهه، وكذلك ما يُعطاه العبدُ من ولاية أو
غيرها، فكذلك الدارُ والمرأة والفرس.

والله سبحانه خالقُ الخير والشر والسُّعود والنحوس، فيخلق بعضَ هذه الأعيان
سعودًا مباركة، ويقضى بسعادة من قاربها وحصولِ اليُمن والبركة له. ويخلق
بعضها نحوسًا يتنحَّس بها من قاربها.

وكلُّ ذلك بقضاء الله وقدره، كما خلق سائرَ الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة
والمختلفة. كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذَّذ بها مَنْ قاربها من
الناس، وخلق ضدها وجعلها سببًا لآلم من قاربها/ من الناس.

والفرقُ بين هذين النوعين مُدركٌ بالحوس، فكذلك في الديار والنساء والخيول،
فهذا لونٌ والطيرةُ الشركية لون. انتهى^(٢).

قوله: «ولا هامة» بتخفيف الميم، على الصحيح. قال الفراء^(٣): الهامة: طيرٌ
من طيور الليل. كأنَّه يعني البومة.

قال ابنُ الأعرابي^(٤): كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم، يقول:
نَعَتْ إلى نفسى أو أحدًا من أهل داري، فجاء الحديثُ بنفي ذلك وإبطاله.

(١) أخرجه البخارى في «الصحيح» رقم (٢٨٥٨)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٢٥) من حديث ابن عمر.

(٢) ابن القيم «مفتاح دار السعادة» (٦٠٦).

(٣) أبو زكريا، يحيى بن زياد بن عبد الله الاسدي، مولا هم، حافظ نحوى، لغوى مفسر (ت ٢٠٧هـ) «تذكرة

الحفاظ» (١/٣٧٢).

(٤) أبو عبد الله، محمد بن زياد بن الاعرابي الهاشمي، مولا هم، لغوى مؤرخ نسابة (ت ٢٣١هـ) «تاريخ ابن

كثير» (١٠/٣٠٧).

قوله: «ولا صفر» بفتح الفاء. روى أبو عبيدة في (غريب الحديث)، عن رؤبة، أنه قال: هي حية تكون في البطن تُصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب^(١)!

وعلى هذا: فالمرادُ بنفيه: ما كانوا يعتقدونه من العدوى. ومن قال بهذا سفيانُ ابن عيينة، والإمام أحمد، والبخاري، وابن جرير.

وقال آخرون: المراد به: شهر صفر، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسء، وكانوا يحلُّون المحرم ويحرِّمون صفر مكانه، وهو قول مالك^(٢).

وروى أبو داود، عن محمد بن راشد، عن سمعته يقول: إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه شهر مشؤوم، فأبطل النبي ﷺ ذلك^(٣).

قال ابن رجب: ولعل هذا القول أشبه الأقوال، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطير المنهى عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام، كيوم الأربعاء، وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة^(٤).

قوله: «ولا نوء» النوء: واحد الأنواء، وسيأتي الكلامُ عليه في بابهِ إن شاء الله تعالى.

قوله: «ولا غول» هو بالضم، اسمه. وجمعه أغوالٌ وغيلان. وهو المراد هنا.

قال أبو السعادات: الغول: واحد الغيلان، وهو جنسٌ من الجن والشياطين. كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تترأى للناس، تتلون تلوناً [في صور]^(٥) شتى، وتقولُهم: أى: تُضلُّهم عن الطريق وتهلكُهم، فنفاه النبي ﷺ وأبطله^(٦).

فيكون المعنى بقوله: «لا غول» أنها لا تستطيع أن تُضلَّ أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه. ويشهدُ له الحديثُ الآخر «لا غول ولكن السَّعالي»^(٧)

(١) أبو عبيدة، «غريب الحديث» (٢٥/١).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» رقم (٣٩١٤).

(٣) أبو داود في «السنن» رقم (٣٩١٥).

(٤) ابن رجب «لطائف المعارف» (٧٤).

(٥) ساقط من الأصل.

(٦) ابن الأثير، «النهاية» (٣/٣٩٦).

(٧) أخرجه الخطابي في «غريب الحديث» (٤٦٣/١)، وروى معناه عن عمر، أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٦٢/٥).

[السَّعَالِي] (١): سَحَرَةُ الْجِنِّ. أَيْ: وَلَكِنَّ فِي الْجِنِّ سَحَرَةً لَهُمْ تَلْبِيسٌ وَتَخْيِيلٌ.

ومنه: الحديث «إِذَا تَغَوَّلْتَ الْغِيلَانَ فَبَادِرُوا بِالْأَذَانِ» (٢) أَيْ: ادْفَعُوا شَرَّهَا بِذِكْرِ اللَّهِ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرَدِّ بِنَفْيِهَا عَدَمَهَا.

[١٠٧/ب]

ومنه: حديثُ أَبِي أَيُّوبَ: كَانَ لِي تَمَرٌ فِي سَهْوَةٍ، فَكَانَتْ الْغَوْلُ تُجْبَى فَنَأْخُذُ (٣) (٤).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَهُمَا، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا عَدَوَى وَلَا طَيْرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَالُ» قَالُوا: وَمَا الْفَالُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيْبَةُ» (٥).

ش: قَوْلُهُ: «وَيُعْجِبُنِي الْفَالُ» قَالَ أَبُو السَّعَادَاتِ: الْفَالُ - مَهْمُوزٌ - فِيمَا يَسُرُّ وَيَسُوءُ، وَالطَّيْرَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا فِيمَا يَسُوءُ، وَرَبَّمَا اسْتَعْمَلْتَ فِيمَا يَسُرُّ. يُقَالُ: تَفَاءَلْتُ بِكَذَا وَتَفَاوَلْتُ، عَلَى التَّخْفِيفِ وَالْقَلْبِ. وَلَقَدْ أَوْلَعَ النَّاسُ بَتْرِكَ الْهَمْزَةِ تَخْفِيفًا، وَإِنَّمَا أَحَبَّ الْفَالُ، لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا أَمَلُوا فَائِدَةَ اللَّهِ، وَرَجَوْا عَائِدَتَهُ عِنْدَ كُلِّ سَبَبٍ ضَعِيفٍ أَوْ قَوِيٍّ فَهَمُّ عَلَى خَيْرٍ، وَإِذَا قَطَعُوا أَمَلَهُمْ وَرَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرِّ.

وَأَمَّا الطَّيْرَةُ: فَإِنَّ فِيهَا سُوءَ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَتَوَقُّعَ الْبَلَاءِ، وَالتَّفَاوُلُ: أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ مَرِيضٌ فَيَسْمَعُ آخَرَ يَقُولُ: يَا سَالِمٌ، أَوْ يَكُونُ طَالِبٌ ضَالَّةً فَيَسْمَعُ آخَرَ يَقُولُ: يَا وَاجِدٌ، فَيَقَعُ فِي ظَنِّهِ أَنَّهُ يَبْرَأُ مِنْ مَرَضِهِ وَيَجِدُ ضَالَّتَهُ؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْفَالُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيْبَةُ» (٦).

(١) إِضَافَةٌ مِنَ «النَّهْيَةِ».

(٢) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ: أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٣/٣٠٥، ٣٨١، ٣٨٢) وَأَبُو يَعْلَى فِي «الْمُسْنَدِ» رَقْم (٢٢١٩) مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ، وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، وَأَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «الْمُصَنَّفِ» (١٦٣/٥). وَلَهُ شَاهِدٌ آخَرُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي «الصَّحِيحِ» رَقْم (٢٥٤٩)،

وَأَصْلُهُ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» رَقْم (١٩٢٦) دُونَ اللَّفْظِ الْمَذْكُورِ.

(٣) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ: أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «الْجَامِعِ» رَقْم (٢٨٨٣) وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَأَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٤٢٣/٥).

(٤) ابْنُ الْأَثِيرِ، «النَّهْيَةُ» (٣/٣٩٦).

(٥) الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ» رَقْم (٥٧٧٦)، وَمُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ» رَقْم (٢٢٢٤).

(٦) ابْنُ الْأَثِيرِ، «النَّهْيَةُ» (٣/٤٠٥).

قوله: قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة» بين ﷺ أن الفأل يُعجبه، فدلَّ على أنه ليس من الطيرة المنهى عنها.

قال ابن القيم: ليس في الإعجاب بالفأل ومحبة شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، وموجب الفطرة الإنسانية، التي تميل إلى ما يوافقها ويلانئها؛ كما أخبرهم ﷺ أنه حُبُّ إليه النساء والطيب^(١)، وكان يُحبُّ الحلواء والعسل^(٢)، ويحبُّ حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمتع إليه^(٣)، ويحبُّ معالي الأخلاق ومكارم الشيم^(٤).

وبالجملة: يُحبُّ كلَّ كمالٍ وخير، وما يُفضى إليهما. والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجابَ بسماع الاسم الحسن، ومحبة وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح، والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاة والتهنئة، والبُشرى والفوز والظفر ونحو ذلك. فإذا قرعت هذه الأسماءُ الأسماع استبشرت بها النفس، وانشرح لها الصدر، وقوى بها القلب. وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضدَّ هذه الحال، فأحزنها ذلك/ وأثار لها خوفاً وطيرةً وانكماشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه، فأورث لها ضرراً في الدنيا ونقصاً في الإيمان ومقارفةً الشرك^(٥).

وقال الحلبي^(٦): وإنما كان ﷺ يُعجبه الفأل؛ لأنَّ التشاؤم سوءُ ظنٍّ بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسنُ ظنٍّ به، والمؤمن مأمورٌ بحسن الظن بالله تعالى على كلِّ حال^(٧).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولأبي داود - بسند صحيح - عن عُقبة بن عامر، قال: ذُكرت الطيرةُ عند رسول الله ﷺ، فقال: «أحسنها الفألُ، ولا تَرُدُّ مسلماً،

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٦١/٧) وأحمد في «المستد» (١٢٨/٣)، ١٩٩، ٢٨٥ من حديث أنس.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٥٤٣١) ومسلم في «الصحيح» رقم (١٤٧٤) من حديث عائشة.

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٥٠٤٩) ومسلم في «الصحيح» رقم (٨٠٠) عن ابن مسعود.

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٣٨٦١) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٤٧٤) من حديث أبي ذر.

(٥) ابن القيم «مفتاح دار السعادة» (٥٩٢).

(٦) أبو عبد الله، الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم المروزي حافظ، من فقهاء الشافعية (ت ٤٠٣هـ). «تذكرة الحافظ» (١٠٣٠/٣).

(٧) الحلبي «المنهاج في شعب الإيمان» (٢٥/٢).

فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك^(١).

ش: قوله: (عن عتبة بن عامر) هكذا وقع في نسخ (التوحيد)، وصوابه: عن عروة بن عامر^(٢). كذا أخرجه أحمد، وأبو داود، وغيرهما. وهو مكى، اختلف في نسبه، فقال أحمد: عن عروة بن عامر القرشي^(٣). وقال غيره: الجهني. واختلف في صحبته، فقال الباوردي: له صحبة. وذكره ابن حبان في ثقات التابعين. وقال المزني: لا صحبة له تصح^(٤).

قوله: فقال: «أحسنها الفأل» قد تقدم أنه ﷺ كان يعجبه الفأل.

وروى الترمذي وصححه، عن أنس: أن النبي ﷺ كان إذا خرج لحاجته، يحب أن يسمع: يا نبيج، ياراشد^(٥).

وروى أبو داود، عن بريدة: أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً سأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رأى كراهية ذلك في وجهه^(٦). وإسناده حسن. وهذا فيه استعمال الفأل.

قال ابن القيم: أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة، وهو خيرها. فابطل الطيرة، وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها. ففصل بين الفأل والطيرة؛ لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما، ومضرة الآخر، ونظير هذا: منعه من الرقى بالشرك، وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك، لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة^(٧).

(١) أبو داود في «السنن» رقم (٣٧١٩)، قال النووي في «رياض الصالحين» (٦٣٩): رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٢) يبدو أن الغلط في ذلك قديم؛ فقد أخرجه ابن السني من رواية عتبة، وهكذا نقله النووي في «الأذكار» (٢٧٤).

(٣) ليس في «مسند أحمد» المطبوع شيء من حديث عروة بن عامر.

(٤) المزني، «تهذيب الكمال» (٢٦/١٠).

(٥) الترمذي في «الجامع» رقم (١٦١٦).

(٦) أبو داود في «السنن» رقم (٣٩٢٠)، قال ابن حجر في «فتح الباري» (٢١٥/١٠): أخرجه أبو داود بسند حسن.

(٧) ابن القيم، «مفتاح دار السعادة» (٥٩٣).

قوله: «ولا تردُّ مسلماً» قال الطيبى. تعريضٌ بأنَّ الكافر بخلافه.

[١٠٨/ب] قوله: «اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت/ أى: لا تأتى الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لا شريك لك الذى تأتى بالحسنات، وتدفع السيئات.

ففيه: نفى تعلُّق القلب بغير الله فى جلب نفع أو دفع ضرر، وهذا هو التوحيد. وهو دعاء مناسب لمن وقع فى قلبه شيءٌ من الطيرة، وتصريحٌ بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً، ويُعدُّ من اعتقدها سفيهاً مُشركاً.

قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بك» استعانةٌ بالله تعالى على فعل التوكل، وعدم الالتفات إلى الطيرة التى قد تكون سبباً لوقوع المكروه عقوبةً لفاعلها. وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل، الذى هو أقوى الأسباب فى جلب الخيرات ودفع المكروهات.

والحولُ والتحول: الانتقالُ من حالٍ إلى حال، والقوةُ على ذلك بالله وحده.

ففيه: التبرى من الحول والقوة والمشية بدون حول الله وقوته ومشيته، وهذا هو التوحيد فى الربوبية، وهو الدليلُ على توحيد الإلهية الذى هو إفرادُ الله تعالى بجميع أنواع العبادة، وهو توحيدُ القصد والإرادة. وقد تقدَّم بيانُ ذلك بحمد الله.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود، مرفوعاً: «الطيرةُ شركٌ، والطيرةُ شركٌ» وما منا إلا، ولكن الله يُذهِبُهُ بالتوكل. رواه أبو داود، والترمذى، وصحَّحه^(١)، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

ش: ورواه ابنُ ماجه، وابنُ حبان^(٢). ولفظُ أبى داود «الطيرةُ شركٌ، والطيرةُ شركٌ، الطيرةُ شركٌ» ثلاثاً.

وهذا صريحٌ فى تحريم الطيرة، وأنها من الشرك؛ لما فيها من تعلُّق القلب على غير الله تعالى.

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٣٩١٠) والترمذى فى «الجامع» رقم (١٦١٤).

(٢) ابن ماجه فى «السنن» رقم (٣٥٣٨) وابن حبان فى «الصحيح» (٦٤٢/٧).

قال ابنُ حمدان^(١): تُكره الطيرة، وكذا قال غيره من أصحاب أحمد.

قال ابنُ مفلح: والأولى القطعُ بتحريمها؛ لأنها شرك، وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهة الاصطلاحية؟!^(٢).

قال في (شرح السنن): وإنما جعل الطيرة من الشرك؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنَّ الطيرة تجلبُ لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضرراً إذا عملوا بموجبه، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى^(٣).

قوله: (وما منا إلا) قال أبو القاسم الأصبهاني^(٤)، والمُنذرى: في الحديث إضماراً، والتقدير: وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيءٌ من ذلك. انتهى^(٥).

وقال الخليلي: حَذَفَ المُستثنى؛ لما يتضمَّنُه من الحالة المكروهة. وهذا/ من [١٠٩/١].

أدب الكلام.

قوله: (ولكن الله يُذهبه بالتوكل). أى: لكن لما توكلنا على الله فى جلب النفع أو دفع الضرر، أذهب الله عنا بتوكلنا عليه وحده.

قوله: (وجعل آخره من قول ابن مسعود)، قال ابنُ القيم: وهو الصواب؛ فإنَّ الطيرة نوعٌ من الشرك^(٦).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولاحمد، من حديث ابن عمرو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حاجته فقد أشرك». قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أَنْ تقول: اللهم لا خيرَ إلا خيرُك، ولا طيرَ إلا طيرُك، ولا إلهَ غيرُك»^(٧).

(١) أبو عبد الله، أحمد بن حمدان بن شبيب بن حمدان النمرى، فقيه أصولى (ت ٦٩٥هـ) «تاريخ ابن رجب» (٣٣١/٢).

(٢) ابن مفلح «الأدب الشرعية» (٣/٣٦٢).

(٣) «معالم السنن» للخطابى (٤/١٣٤).

(٤) إسماعيل بن محمد بن الفضل بن على القرشى، الأصبهاني، حافظ مفسر لغوى (ت ٥٣٥هـ) «شذرات الذهب» (١٠٥/٤).

(٥) المنذرى، «الترغيب والترهيب» (٤/٦٤).

(٦) ابن القيم «مفتاح السعادة» (٥٨١).

(٧) أحمد فى «المسند» (٢/٢٢٠).

ش: هذا الحديث رواه أحمد، والطبراني، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وفي إسناده ابن لهيعة، وبقية رجاله ثقات^(١).

قوله: (من حديث ابن عمرو). هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي، أبو محمد - وقيل: أبو عبد الرحمن - أحد السابقين المكثرين من الصحابة، وأحد العبادة الفقهاء. مات في ذي الحجة، ليالي الحرّة^(٢) - على الأصح - بالطائف.

قوله: «من ردّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» وذلك أنّ الطيرة هي التشاؤم بالشيء المرئى أو المسموع. فإذا ردّه شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها - كإرادة السفر ونحوه - فمنعه عما أراده وسعى فيه ما رأى وسمع تشاؤمًا، فقد دخل في الشرك؛ كما تقدم. فلم يُخلص توكّله على الله بالتفاتة إلى ماسواه، فيكون للشيطان منه نصيب.

قوله: (فما كفارة ذلك)؟ إلى آخره. فإذا قال ذلك، وأعرض عمّا وقع في قلبه ولم يلتفت إليه: كفر الله عنه ما وقع في قلبه ابتداءً؛ لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد على الله وحده، والإعراض عمّا سواه.

وتضمن الحديث: أنّ الطيرة لا تضرّ من كرهها ومضى في طريقه، وأمّا من لم يُخلص توكّله على الله، واسترسل مع الشيطان في ذلك، فقد يُعاقب بالوقوع فيما يكره؛ لأنه إعراض عن واجب الإيمان بالله، وأنّ الخير كلّ بيده. فهو الذي يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته، وهو الذي يدفع عنه الضر وحده بقدرته ولطفه وإحسانه. فلا خير إلا منه، وهو الذي يدفع الشرّ عن عبده، فما أصابه من ذلك فبذنبه؛ كما قال تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾. [النساء: ٧٩].

(١) كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٥/٥) وله شاهد من حديث بريدة، أخرجه الطبراني في «الدعاء» رقم (١٢٧٠).

(٢) ينظر تاريخ الطبري (٤٩١/٥)، وابن تيمية، «مناهج السنة النبوية» (٥٧٥/٤).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وله، من حديث الفضل بن عباس: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردّك»^(١).

ش: هذا الحديث: عند الإمام أحمد، من حديث الفضل بن عباس، قال: خرجت مع رسول الله / ﷺ يوماً، فبرّح ظبي، فمال في شقه فاحتضته، فقلت: [١٠٩/ب] يا رسول الله، تطيرت، فقالت: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردّك».

وفى إسناده انقطاع^(٢)، أى: بين مسلمة راويه، وبين الفضل. وهو الفضل بن العباس بن عبد المطلب، ابن عم النبي ﷺ. قال ابن معين: قُتل يوم اليرموك^(٣). وقال غيره: [قُتل يوم مرج الصفر^(٤)] سنة ثلاث عشرة، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة. وقال أبو داود: قتل بدمشق، كان عليه درع النبي ﷺ^(٥).

قوله: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردّك» هذا حدّ الطيرة المنهى عنها، لأنها: ما يحمل الإنسان على المضي فيما أَراده، ويمنعه من المضي فيه كذلك. وأما الفأل الذي كان يُحبه النبي ﷺ: فيه نوعُ بشارة، فيسرُّ به العبدُ ولا يعتمد عليه؛ بخلاف ما يُمضيه أو يردّه؛ فإنَّ للقلب عليه نوعُ اعتماد، فافهم الفرق، والله أعلم.

(١) أحمد فى «المسند» (٢١٣/١) من حديث أبى أمامة.

(٢) كما قال ابن مفلح فى «الأدب الشرعية» (٣٦١/٣).

(٣) الطبرى (٣٩٤/٣).

(٤) المرج: الأرض الواسعة فيها نبت كثير، والصفر بليدة فى ضواحي دمشق. «معجم البلدان» (١٠١/٥).

(٥) قال ابن كثير فى «البداية والنهاية» (٣٤/٧): والصحيح أنه تأخر إلى سنة ثمانى عشرة.

(٢٨)

باب

ما جاء في التنجيم

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في التَّنْجِيمِ.
ش: قال شيخ الإسلام: التنجيم: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية، على
الحوادث الأرضية^(١).

وقال الخطّابى: علمُ النجوم المنهى عنه: ما يدّعيه أهلُ التنجيم، من علم
الكوائن والحوادث التي ستقع في مُستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح ومجيء
المطر، وتغيّر الأسعار، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تُدرك معرفتها
بمسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها وافتراقها يدّعون أن لها تأثيراً في
السُّفليات. وهذا منهم تحكّم على الغيب، وتعاط لعلم قد استأثر الله به، لا يعلم
الغيب سواه^(٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: قال البخارى في (صحيحه): قال قتادة: خلق
الله هذه النجوم لثلاث: رينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى بها.
فمن تأوّل فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلّف ما لا علم له به.
انتهى^(٣).

ش: هذا الاثرُ علّقه البخارى في (صحيحه)، وأخرجه عبد الرزاق، وعبد بن
حميد^(٤)، وابن جرير، وابن المنذر، وغيرهم^(٥).

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٩٢/٣٥).

(٢) الخطّابى «معالم السنن» (٢٣٠/٤).

(٣) البخارى في «الصحيح» (٢٩٥/٦).

(٤) عبد الرزاق في «التفسير» كما في «الدر المنثور» (٣٢٨/٣).

(٥) ابن جرير الطبرى في «التفسير» (٩١/١، ٣/٢٩).

وأخرجه الخطيبُ في (كتاب النجوم)، عن قتادة، ولفظه، قال: إِنَّمَا جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينةً للسماء، وجعلها يُهتدى بها، وجعلها رجوماً للشیاطین. فمن تعاطى فيها غیرَ ذلك فقد قال برأيه، وأخطأَ حظَّه، [١/١١٠] وأضاع/ نصيبه، وتكلَّف ما لا علم له به. وإنَّ ناساً جهلةً بأمر الله، قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير، والحسن والدميم، وما عِلِمُ هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيءٍ من هذا الغیب. ولو أن أحداً عِلِمَ الغیب لعلمه آدمُ الذي خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وعِلِمَهُ أسماء كلِّ شيء. انتهى (١).

وتأمل ما أنكره هذا الإمام، مما حدث من هذه المنكرات في عصر التابعين. وما زال الشرُّ يزداد في كل عصرٍ بعدهم، حتى بلغ الغاية في هذه الأعصار، وعمَّت به البلوى في جميع الأمصار، فمقلٌّ ومستكثر. وعزَّ في الناس من يُنكره، وعظُمَت المصيبة في الدين. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قوله: (خلق الله هذه النجوم لثلاث). قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾. [الملک: ٥] وقال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. [النحل: ١٦].

وفيه: إشارة إلى أنَّ النجوم في السماء الدنيا؛ كما روى ابنُ مردويه، عن ابن مسعود رضی الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ «أما السماء الدنيا: فإنَّ الله خلقها من دخان، وجعل فيها سراجاً وقمرًا منيراً، وزينها بمصابيح، وجعلها رجوماً للشیاطین، وحفظاً من كلِّ شیطانٍ رجيمٍ» (٢).

قوله: (وعلامات). أي: دلالات على الجهات. يُهتدى بها، أي: يهتدى بها الناسُ في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾. [الأنعام: ٩٧] أي: ليعرفوا بها جهةَ قصدهم، وليس المراد أنه يُهتدى بها في علم الغیب، كما يعتقدُه المنجمون.

(١) الخطيب البغدادي في كتاب «القول في النجوم» كما في «الدر المشور» (٣/٣٢٨).

(٢) ينظر «الدر المشور» (٣/٣٢٨).

وقد تقدّم بطلانه وأنه لا حقيقة له؛ كما قال قتادة: فمن تأول فيها غير ذلك -
أى: زعم فيها غير ما ذكر الله فى كتابه من هذه الثلاث - فقد أخطأ، حيث زعم
شيئاً ما أنزل الله به من سلطان، وأضاع نصيبه من كل خير؛ لأنه أشغل نفسه بما
يضره ولا ينفعه^(١).

فإن قيل: المنجم قد يصدق!! قيل: صدقه كصدق الكاهن، يصدق فى كلمة
ويكذب فى مائة. وصدقته ليس عن علم، بل قد يوافق قدراً فيكون فتنة فى حق
من صدقه.

وعن ابن عباس/ رضى الله عنهما - فى قول تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ﴾.
[النحل: ١٥ - ١٦].

فقوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ معطوف على ما تقدّم، مما ذكره فى الأرض، ثم
استأنف، فقال: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ذكره ابن جرير، عن ابن عباس
بمعناه^(٢).

وقد جاءت الأحاديث عن النبى ﷺ بإبطال علم التنجيم؛ كقوله: «من اقتبس
شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر. زاد ما زاد»^(٣).
وعن رجاء بن حيوة^(٤)، أن النبى ﷺ قال: «مما أخاف على أمتي:
التصديق بالنجوم، والتكذيب بالقدر، وحيف الأئمة». رواه عبد بن
حميد^(٥).

(١) قال ابن تيمية، فى «مجموع الفتاوى» (١٩٣/٣٥): والاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون لا فى
الدنيا ولا فى الآخرة.

(٢) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٩١/١٤).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أبو المقدام، الكندى الفلسطينى، ثقة فقيه (ت ١١٢ هـ) «تقريب» (٢٠٨).

(٥) عبد بن حميد فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (٣١/٨)، وأخرجه أيضاً، من طريق عبد الله بن محيرز

به، كما فى «المصدر السابق».

وعن أبي معجن، مرفوعاً «أخافُ على أمتي ثلاثاً: حيفَ الأئمة، وإيماناً بالنجوم، وتكذيباً بالقدر» رواه ابنُ عساكر، وحسنه السيوطي^(١).

وعن أنس، مرفوعاً «أخافُ على أمتي بعدى خصلتين: تكذيباً بالقدر وإيماناً بالنجوم». رواه أبو يعلى، وابنُ عدى، والخطيب في (كتاب النجوم)^(٢)، وحسنه السيوطي أيضاً.

والأحاديثُ في ذمِّ التنجيم والتحذير منه كثيرة.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وكره قتادةُ تعلُّمَ منازل القمر، ولم يُرخص ابنُ عيينة فيه. ذكره حرب^(٣) عنهما. ورخص في تعلُّمِ المنازل أحمدُ، وإسحاق^(٤).

ش: قال الخطّابي: أمّا علمُ النجوم الذي يُدرك من طريق المشاهدة والخبر، الذي يُعرف به الزوال، وتُعلم به جهةُ القبلة: فإنه غيرُ داخل فيما نهى عنه؛ وذلك أن معرفة رصدِ الظل، ليس شيئاً بأكثر من أن الظل مادام مُتناقصاً، فالشمسُ بعدُ صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمسُ هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي. وهذا علمٌ يصحُّ إدراكه بالمشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوا له من الآلات التي يستغنى الناظرُ فيها عن مراعاة مدّته ومُراصدته.

وأما ما يُستدلُّ به من النجوم على جهة القبلة: فإنها كواكبُ رصدها أهلُ الخبرة بها من الأئمة، الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها، وصدقهم فيما أخبروا به عنها. مثل أن يُشاهدَها بحضرة الكعبة، ويُشاهدَها على حال الغيبة عنها. فكان إدراكُهم الدلالة منها بالمعينة، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا

(١) ابن عساكر في «التاريخ» كما في «الكتز» (١٥/٦) وله شاهدٌ من حديث أبي أمامة، أخرجه الطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٢٠٣/٧) وقال: وفيه ليث بن أبي سليم، وهو لين، وبقيّة رجاله وثقوا.

(٢) أبو يعلى في «المسند» رقم (٤١٣٥) وابن عدى في «الكامل» (٤/١٣٥٠) والخطيب البغدادي في كتاب «القول في النجوم» كما في «الدر المنثور» (٣/٣٣٠).

(٣) أبو محمد، حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني، فقيه محدث، من تلاميذ أحمد، له عنه مسائل «طبقات الحنابلة» (١/١٤٥).

(٤) أبو محمد، إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي، ثقة حافظ مجتهد، قرين أحمد (ت ٢٣٨هـ) «التقريب» (٩٩). ونقله عنهم، ابن رجب في «فضل علم السلف» (٣١، ٣٢).

عندنا غير متهمين في دينهم، ولا مقصرين في معرفتهم/ انتهى^(١).

وروى ابن المنذر، عن مجاهد: أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر^(٢).

وروى عن إبراهيم: أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدى به^(٣).

قال ابن رجب: والمأذون في تعلمه [علم]^(٤) التسيير لا علم التأثير؛ فإنه باطل محرم، قليله وكثيره. وأما علم التسيير، فيتعلم منه ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق. جائز عند الجمهور. انتهى^(٥).

قوله: (ذكره حرب عنهما). هو الإمام الحافظ، حرب بن إسماعيل، وأبو محمد الكرماني، الفقيه، من جلة أصحاب الإمام أحمد. روى عن أحمد، وإسحاق، وابن المديني، وابن معين، وغيرهم. وله (كتاب المسائل) التي سئل عنها الإمام أحمد وغيره، مات سنة ثمانين ومائتين.

وأما إسحاق: فهو ابن إبراهيم بن مخلد، أبو يعقوب الحنظلي النيسابوري، الإمام المعروف بابن راهويه. روى عن ابن المبارك، وأبي أسامة، وابن عيينة وطبقتهم. قال أحمد: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين. روى عنه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود وغيرهم، وروى هو أيضاً عن أحمد. مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مُدْمِنُ الخمر، وقاطع الرحم، ومصدقٌ بالسحر». رواه أحمد، وابن حبان في (صحيحه)^(٦).

(١) الخطابي «معالم السنن» (٤/ ٢٣٠).

(٢) وأخرجه الخطيب البغدادي كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٢٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (٥٦٩٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٢٥).

(٤) إضافة من (ض).

(٥) «فضل علم السلف على علم الخلف» لابن رجب (٣٤).

(٦) أحمد في «المسند» (٤/ ٣٩٩) وابن حبان في «الصحيح» (٧/ ٣٦٦).

ش: هذا الحديث رواه أيضا الطبراني، والحاكم، وقال: صحيح. وأقره
الذهبي^(١). وقامه: «ومن مات وهو مدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة: نهر
يجرى من فروج المومسات، يؤذي أهل النار ريحُ فروجهن».

قوله: عن (أبي موسى). هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حَصَّار - فتح
المهملة وتشديد الضاد - أبو موسى الأشعري، صحابيٌ جليل، مات سنة خمسين.

قوله: «ثلاثة لا يدخلون الجنة» هذا من نصوص الوعيد التي كره السلفُ
تأويلها، وقالوا: أمرؤها كما جاءت، ومن تأولها فهو على خطر من القول على
الله بلا علم.

وأحسن ما يقال: إنَّ كلَّ عملٍ دون الشرك والكفر المخرج عن ملة الإسلام فإنه
[١١١/ب] يرجع إلى مشيئة الله، فإن عذبه به فقد استوجب العذاب، وإن غفر له فبفضله
وعفوه ورحمته.

قوله: «مدمن الخمر» أي: المداوم على شربها.

قوله: «وقاطع الرحم» يعني القرابة؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ
أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾. [محمد: ٢٢] الآية.

قوله: «ومصدقٌ بالسحر» أي: مطلقاً، ومنه التنجيم؛ لما تقدّم من الحديث،
وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة.

قال الذهبي في (الكبائر): ويدخل فيه تعلم السِّمِّيا وعملها، وعقد المرء عن
زوجته، ومحبة الزوج لامراته وبغضها وبغضه، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة.
قال: وكثيرٌ من الكبائر - بل عامتها إلا الأقل - يجهل خلقٌ من الأمة تحريمه، وما
بلغه الزجر فيه، ولا الوعيدُ عليه. انتهى^(٢).

(١) الطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٧٤/٥) والحاكم في «المستدرک» (١٤٦/٤) وله شاهدٌ من حديث أبي
سعيد: أخرجه أحمد في «المستدرک» (١٤/٣)، (٨٣).

(٢) الذهبي، «الكبائر» (٤٥، ٤٦).

(٢٩)

باب

ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

ش: أى: من الوعيد، والمراد: نسبة السّقيّا ومجىء المطر إلى الأنواء. - جمع نوء وهى منازل القمر.

قال أبو السّعادات: وهى ثمان وعشرون منزلة، ينزل القمر كل ليلة منزلة منها. ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ﴾. [يس: ٣٩].

يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مُقابِلَتها ذلك الوقت من المشرق، فتتقضى جميعها مع انقضاء السنة. وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها، ويقولون: مُطرنا بنوء كذا. وإنما سُمى نوءاً؛ لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالمشرق، أى: نهض وطلع^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. [الواقعة: ٨٢].

ش: روى الإمام أحمد، والترمذى - وحسنه - وابن جرير، وابن أبى حاتم، والضياء فى (المختارة)، عن على رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ يقول: شكركم ﴿أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ يقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا كذا^(٢) وهذا أولى ما فُسِّرَتْ به الآية.

(١) ابن الأثير، «النهاية» (١٢٢/٥).

(٢) أحمد فى «المسند» (٨٩/١، ١٠٨، ١٣١) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٢٩١) وابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٠٨/٢٧)، وابن أبى حاتم فى «التفسير» والضياء فى «المختارة» كما فى «الدر المنثور» (٢٩/٨).

وروى ذلك: عن علي، وابن عباس، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وغيرهم^(١)، وهو قول جمهور المفسرين، وبه يظهر وجه استدلال المصنف بالآية. قال ابن القيم: أي: وتعملون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم: [١/١١٢] التكذيب به، يعنى/ القرآن^(٢).

[قال الحسن: تعملون حظكم ونصيبكم من القرآن]^(٣) أنكم تُكذِّبون^(٤). قال: وخسر عبداً لا يكون حظُّه من القرآن إلا التكذيب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخرُ بالأحساب، والطعنُ في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة». وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قطران، ودرعٌ من جرب» رواه مسلم^(٥). ش: أبو مالك، اسمه: الحارث بن الحارث الشامي. صحابيٌّ، تفرد عنه بالرواية أبو سلام. وفي الصحابة أبو مالك الأشعري، اثنان غير هذا^(٦).

قوله: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن» ستفعلها هذه الأمة: إمّا مع العلم بتحريمها، أو مع الجهل بذلك، مع كونها من أعمال أهل الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل المبعث؛ سُموا بذلك لفسرط جهلهم، وكلُّ ما يخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فهو جاهلية. فقد خالفهم رسول الله ﷺ في كثير من أمورهم أو أكثرها، وذلك يُدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة.

قال شيخ الإسلام: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم، ذمّا لمن لم يتركه، وهذا يقتضى أن كلَّ ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذمومٌ في

(١) ينظر «تفسير الطبري» (٢٧/٢٠٨).

(٢) ابن القيم، «التيان في أقسام القرآن» (١/٤١٨).

(٣) ساقط من الأصل، وهو انتقال نظر.

(٤) أخرجه عبد بن حميد، كما في «الدر المنثور» (٨/٣٠).

(٥) مسلم في «الصحیح» رقم (٩٣٤).

(٦) ينظر «الاستغناء في الكنى» لابن عبد البر (١/٢٢٠).

دين الإسلام، وإلا لم يكن فى إضافة هؤلاء المنكرات إلى الجاهلية ذمٌ لها. ومعلوم أن إضافتها للجاهلية خرج مخرج الذم؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَحْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَةِ الْأُولَى﴾. [الأحزاب: ٣٣].

[فإن فى ذلك ذمّاً للتبرج، وذمّاً لحال الجاهلية الأولى]^(١) وذلك يقتضى المنع من مشابهتهم فى الجملة^(٢).

قوله: «الفخرُ بالأحساب» أى: التعاضُّمُ على الناس بالآباء ومآثرهم، وذلك جهلٌ عظيم، إذ لا كرم إلا بالتقوى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. [الحجرات: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾. [سبا: ٣٧].

ولأبى داود، عن أبى هريرة، مرفوعاً: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ»^(٣)، وفخرها بالآباء. إنما هو مؤمنٌ تقى، أو فاجرٌ شقى. الناسُ بنو آدم، وآدمُ خلقٌ من تراب، ليدعَنَّ رجالٌ فخرهم بأقوام - إنما هم فحمٌ من فحم جهنم - أو ليكوننَّ أهونَ على الله من الجعلان^(٤) / الحديث^(٥). [١١٢/ب]

قوله: «والطعنُ فى الأنساب» أى: الوقوعُ فيها، بالعيب والتقص.

(١) ساقطٌ من الأصل، وهو انتقال نظر.

(٢) ابن تيمية «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٠٥).

(٣) العُبِّيَّة: الكبر والنخوة. الخطائى «غريب الحديث» (١/ ٢٩٠).

(٤) أبو داود فى «السنن» رقم (٥١١٦)، (٢/ ٦٠) قال الحافظ ابن تيمية فى «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢١٦)،

(٣٦٣): رواه أبو داود وغيره، وهو صحيح.

(٥) وهذا لا يعنى قطعاً إسقاط ما للعرب من خصوصية، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: الذى عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس المعجم والشعرية الذين لا يفضلون العرب على من سواهم إنما يفعلون ذلك عن نوع نفاق!!

ومن أجل ذلك كانت الكفاءة فى النسب شرطاً من شروط صحة النكاح، ولا تختص بقدر معين بل لجميع الأولياء قريبهم وبعيدهم ممن وجد ومن لم يوجد بعد على أن الذى يجب على المسلم إذا نظر فى الفضائل، أو تكلم فيها: أن يسلك سبيل العاقل الدِّين، الذى غرضه أن يعرف الخير ويتحرره جهده. ليس غرضه الفخر على أحد ولا الغمض من أحد. ينظر: ابن تيمية «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٨١، ٣٨٥، ٣٩٥، ٤٠١) ومجموع الفتاوى (١٥/ ٣٣١).

ولما عير أبو ذر رضى الله عنه رجلاً بأمه، قال النبي ﷺ: «أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية» متفق عليه^(١).

فدلَّ على أنَّ الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية، وأنَّ المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجبُ ذلك كفره ولا فسقه. قاله شيخ الإسلام^(٢).

قوله: «والاستسقاء بالنجوم» أى: نسبة المطر إلى النوء، وهو سقوط النجم؛ كما أخرج الإمام أحمد، وابن جرير، عن جابر السوائي، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أخافُ على أمتي ثلاثاً: استسقاء بالنجوم، وحيفَ السلطان، وتكذيباً بالقدر»^(٣).

فإذا قال قائلهم: مُطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا، فلا يخلو: إمَّا أن يعتقد أنَّ له تأثيراً في نزول المطر، فهذا شركٌ وكفر. وهو الذى يعتقدُه أهلُ الجاهلية، كاعتقادهم أنَّ دعاء الميت والغائب يجلبُ لهم نفعاً، أو يدفع عنهم ضرراً، أو أنَّه يشفع بدعائهم إياه، فهذا هو الشرك الذى بعث الله رسوله ﷺ بالنهى عنه وقتال من فعله؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] والفتنةُ الشرك.

وإمَّا أن يقول: مُطرنا بنوء كذا مثلاً، لكن مع اعتقاده أنَّ المؤثر هو الله وحده، لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم.

والصحيح: أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم، ولو على طريق المجاز، فقد صرح ابن مفلح في (الفروع)، بأنه يحرم قول: مُطرنا بنوء كذا^(٤). وجزم في (الإنصاف) بتحريمه، ولم يذكر خلافاً^(٥).

وذلك أنَّ القائل لذلك نسبَ ما هو من فعل الله تعالى - الذى لا يقدر عليه

(١) البخارى في «الصحيح» رقم (٣٠)، ٢٥٤٥، ٦٠٥٠. ومسلم في «الصحيح» رقم (١٦٦١).

(٢) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٢٠).

(٣) أحمد في «المسند» (٨٩/ ٥)، ٩٠. وابن جرير الطبري كما في «الدر المنثور» (٨/ ٣٠). وللحديث شواهد مضت في الباب السابق.

(٤) ابن مفلح، «الفروع» (٢/ ١٦٣).

(٥) المرداوى، «الإنصاف» (٢/ ٤٦١).

غيره - إلى خلقٍ مُسَخَّرٍ، لا ينفع ولا يضر ولا قُدرة له على شيء. فيكون ذلك شركاً أصغر، والله أعلم.

قوله: «والنياحة» أى: رفعُ الصوت بالندب على الميت؛ لأنها تسخُّطُ لقضاء الله، وذلك يُنافى الصبر الواجب، وهى من الكبائر، لشدة الوعيد والعقوبة.

قوله: «النائحة إذا لم تتب/ قبل موتها» فيه: تنبيهٌ على أن التوبة تكفر الذنب [١/١١٣] وإن عظم، هذا مجمعٌ عليه فى الجملة. وتكفر أيضاً بالحسنات الماحية والمصائب، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض، وبالشفاعة بإذن الله وعفو الله عمَّن شاء ممن لا يُشرك بالله شيئاً.

وفى الحديث، عن ابن عمر، مرفوعاً «إنَّ الله تعالى يقبلُ توبةَ العبد ما لم يُغرَّغِر» رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وابن حبان^(١).

قوله: «تُقَام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قطرانٍ ودرعٌ من جرب» قال القرطبى: السربال، واحدُ السراويل، وهى الثياب والقُمص، يعنى أنهم يُلطَّخَن بالقطران، فيكون لهن كالقُمص، حتى يكون اشتعالُ النار بأجسادهن أعظم، ورائحتهن أنتن، وألمها بسبب الجرب أشد.

وروى عن ابن عباس: أن القطران هو النحاسُ المذاب^(٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولهما، عن زيد بن خالد، قال: صلّى لنا رسولُ الله ﷺ صلاة الصبح بالحُدَيْبِيَّة، على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادى مؤمنٌ بى وكافر، فأما من قال: مُطَرْنَا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بى كافرٌ بالكوكب. وأما من قال: مُطَرْنَا بَنُوْءِ كَذَا وكَذَا، فذلك كافرٌ بى مؤمنٌ بالكوكب»^(٣).

(١) أحمد فى «المستد» (١٣٢/٢، ١٥٣) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٥٣١) وقال: هذا حديثٌ حسن غريب،

وابن ماجه فى «السنن» رقم (٤٢٥٣) وابن حبان فى «الصحيح» (١٢/٢).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٥٧/١٣).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٧١).

ش: ريدُ بن خالد الجهنى، صحابى مشهور، مات سنة ثمانٍ وستين، وقيل:
غير ذلك، وله خمسٌ وثمانون سنة.

قوله: (صلى لنا رسولُ الله ﷺ) أى: بنا، فاللامُ بمعنى الباء. قال الحافظ:
وفيه إطلاقُ ذلك مجازاً. وإنما الصلاةُ لله^(١).

قوله: (الحُدَيْيَّة) بالمهملة وتخفيفِ يائها، وتثقل.

قوله: (على إثر) بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور، وهو ما يعقبُ
الشيء.

قوله: (سما). أى: مطر؛ لأنه ينزل من السحاب، والسماءُ يطلق على كل ما
ارتفع.

قوله: (فلما انصرف). أى: من صلاته، أى: التفت إلى المأمومين؛ كما يدلُّ
عليه قوله: (أقبل على الناس). ويُحتمل أنه أراد السلام.

قوله: «هل تدرون» لفظُ استفهام، ومعناه التنبيه.

وفى النسائى «ألم تسمعوا ما قال ربُّكم الليلة؟»^(٢) وهذا من الأحاديث
القدسية.

وفيه: إلقاءُ العالم المسألة على أصحابه، ليختبرهم.

قوله: [١١٣/ب] (قالوا الله ورسوله أعلم). فيه حُسنُ الأدب/ للمسؤول إذا سُئل عما
لا يعلم: أن يكِلَ العلم إلى عالمه. وذلك يجب.

قوله: «أصبح من عبادى» الإضافةُ هنا للعموم؛ بدليل التقسيم إلى مؤمن
وكافر، كقوله تعالى: «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ». [التغابن: ٢].

قوله: «مؤمنٌ بى وكافر» إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً فى إنزال المطر، فهذا كفر؛
لأنه شركٌ فى الربوبية، والمشركُ كافر. وإن لم يعتقد ذلك، فهو من الشرك
الأصغر؛ لكونه نسبُ نعمة الله إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال

(١) ابن حجر، «فتح البارى» (٢/٥٢٣).

(٢) النسائى فى «المجتبى» (٣/١٦٥).

المطر فيه، وإنما هو فضلٌ من الله ورحمة. يحبسُه إذا شاء، ويُنزله إذا شاء.
ودلَّ هذا الحديث: أنه لا يجوز لأحدٍ أن يُضيف أفعالَ الله إلى غيره، ولو على
سبيل المجاز.

وأيضاً، الباءُ تحتل معاني، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ، فليست للسببية ولا
للاستعانة؛ لما عرفتَ من أنَّ هذا باطل. ولا تصدقُ أيضاً على أنها للمصاحبة؛ لأنَّ
المطر قد يجيءُ في هذا الوقت وقد لا يجيء فيه. وإنما يجيء المطرُ في الوقت الذي
أراد الله مجيئه فيه، برحمته وحكمته وفضله. فكلُّ معنى تُحمل عليه الباءُ في هذا
اللفظ المنهى عنه فاسدٌ.

فيظهر على هذا: تحريمُ هذه اللفظة مطلقاً؛ لفساد المعنى. وقد تقدَّم القطعُ
بتحريمه في كلام صاحب (الفروع) و(الإيناف).

قال المُصنَّف: وفيه التفطنُ للإيمان في هذا الموضع^(١). يشيرُ إلى أنه
الإخلاص.

قوله: «فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته» فالفضلُ والرحمة صِفَتان لله،
ومذهبُ أهل السنة والجماعة: أنَّ ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من
صفات الذات: كالحياة، والعلم. وصفات الأفعال؛ كالرحمة التي يرحم بها
عباده، كلها صفات لله قائمة بذاته، ليست قائمةً بغيره، فتفطنُ لهذا؛ فقد غلط فيه
طوائف.

وفي هذا الحديث: أنَّ نعم الله لا يجوز أن تُضاف إلا إليه وحده، وهو الذي
يُحمد عليها، وهذه حالُ أهل التوحيد
قوله: «وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا» إلى آخره، قد تقدم ما يتعلقُ
بذلك.

قال المُصنَّف: وفيه: التفطنُ للكفر في هذا الموضع^(٢).
يُشير: أن نسبة النعمة إلى غير الله كفر؛ ولهذا قطع بعضُ العلماء بتحريمه،

(١) المسألة السادسة.

(٢) المسألة السابعة.

[١/١١٤] وإن لم يعتقد تأثير النوء في إنزال المطر. فيكون من كفر النعم؛ لعدم نسبتها إلى الذى أنعم بها ونسبتها إلى غيره، كما سيأتى فى قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾. [النحل: ٨٣].

قال القرطبى فى شرح حديث زيد بن خالد: وكانت العرب إذا طلع نجم من المشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطراً أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب؛ نسبة إيجاد واختراع، ويطلقون ذلك القول المذكور فى الحديث. فنهى الشارع من إطلاق ذلك؛ لثلا يعتقد أحد اعتقادهم، ولا يشتبه بهم فى نطقهم. انتهى.

قوله: فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد. يدل على أن بعضهم لا يعتقد ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدُ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾. [العنكبوت: ٦٣]. فدل على أن منهم من يعرف ويقر بأن الله هو الذى أوجد المطر، و[قد]^(١) يعتقد هؤلاء أن للنوء فيه شيئاً من التأثير.

والقرطبى فى شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذى ذكره، فلا اعتراض عليه بالآية؛ للاحتمال المذكور.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولهما، من حديث ابن عباس، معناه. وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾^(٢). [الواقعة: ٧٥ - ٨٢].

ش: وبلفظه، عن ابن عباس، قال: مطر الناس على عهد النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ: «أصبح من الناس شاكراً، ومنهم كافر». قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾.

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) هو من حديث ابن عباس، عند مسلم فى «الصحیح» رقم (٧٣) وأخرجه من حديث أسى هريرة رقم (٧٢).

هذا قسمٌ من الله عز وجل، يقسمُ بما شاء من خلقه على ما شاء، وجوابُ القسم «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ» فتكونُ: لا صلةً لتأكيد النفي، فتقديرُ الكلام: ليس الأمرُ كما زعمتم في القرآن أنه سحرٌ، أو كهانة، بل هو قرآنٌ كريم.

قال ابنُ جرير: قال بعضُ أهل العربية: معنى قوله «فَلَا أُقْسِمُ» فليس الأمرُ كما تقولون، ثم استؤنف القسم بعد، فقليل: أقسم^(١).

ومواقع النجوم، قال ابنُ عباس: يعنى نجوم القرآن، فإنه نزل جملةً ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مُفرقاً في السنين بعد. ثم قرأ ابنُ عباس هذه الآية^(٢).

ومواقعها: نزولُها شيئاً بعد شيء. وقال مُجاهد: مواقع النجوم: مطالعها ومساقطها^(٣). واختاره ابنُ جرير.

[١١٤/ب]

وعلى هذا: فتكون المناسبةُ بين المقسم به والمقسم عليه - وهو القرآن - من وجوه:

أحدها: أن النجوم جعلها الله يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يُهتدى بها في ظلمات النفي والجهل. فلك هدايةٌ في الظلمات الحسية، والقرآنُ هدايةٌ في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهديتين.

مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة، وفي القرآن من الزينة الباطنة، ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن.

والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآنُ آياته المتلوّة السمعية؛ مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية، ومواقعها عند النزول. ذكره ابنُ القيم^(٤).

(١) ابن جرير، «جامع البيان» (٢٧/٢٠٣).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» (٢٧/٢٠٣).

(٣) في جميع النسخ: ومشاركها. والمثبت من «التفسير» (٢٧/٢٠٤).

(٤) ابن القيم، «النبیان فی أقسام القرآن» (١/٣٩٣).

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ قال ابن كثير: أى: وإنَّ هذا القسم الذى أقسمتُ به لقسمٌ عظيم، لو تعلمون عظمتَه لعظمتكم المقسم به عليه^(١).

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ هذا هو المقسمُ عليه، وهو القرآن، أى: وإنَّه وحىُ الله وتنزيلُهُ وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحرٌ أو كهانة، أو شعر. بل هو قرآن كريم: أى: عظيمٌ كثير الخير، لأنه كلامُ الله.

قال ابنُ القيم: فوصفه بما يقتضى حُسَنه، وكثرة خيره ومنافعه وجلالته؛ فإنَّ الكريم هو البهىُّ الكثير الخير العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله.

والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم. ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره وحسنُ منظره من النبات وغيره؛ ولذلك فسر السلفُ، الكريم: بالحسن؛ قال الأزهري: الكريم اسمٌ جامع لما يُحمد، والله تعالى كريمٌ جميلُ الفعال. وإنه لقرآن كريمٌ يُحمد؛ لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة^(٢).

وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ أى: معظَّم، فى كتابٍ معظَّم محفوظ موقر. قاله ابنُ كثير^(٣).

وقال ابنُ القيم: اختلف المفسرون فى هذا، ف قيل: هو اللوحُ المحفوظ. ولاصحيحُ أنَّ الكتابُ الذى بأيدي الملائكة، وهو المذكور فى قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بأيدي سفرةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾. [عبس: ١٣ - ١٦].

ويدلُّ على أنَّه الكتابُ الذى بأيدي الملائكة؛ قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ فهذا يدلُّ على أنه بأيديهم يمسونه^(٤).

(١) «تفسير ابن كثير» (٢١/٨).

(٢) ابن القيم، «التيان فى أقسام القرآن» (٤٠٠/١).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢١/٨).

(٤) ابن القيم «التيان فى أقسام القرآن» (٤٠٢/١).

قوله: «لا يمسه إلا المطهرون» قال/ ابن عباس: «لا يمسه إلا المطهرون» [١/١١٥]
قال: الكتاب الذي في السماء. وفي رواية «لا يمسه إلا المطهرون» يعنى
الملائكة^(١).

وقال قتادة: لا يمسه عند الله إلا المطهرون. فأما في الدنيا: فإنه يمسه المجوسى
النجس والمنافق الرجس^(٢). واختار هذا القول كثيرون. منهم ابن القيم، ورجحه.
وقال ابن زيد^(٣): زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله
تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون؛ كما قال تعالى: «وما تنزلت به الشياطين * وما
ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون». [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].
قال ابن كثير: هذا قولٌ جيد، وهو لا يخرج عن القول قبله^(٤). وقال البخارى
في (صحيحه)^(٥) - في هذه الآية - لا يجد طعمه إلا من آمن به.

قال ابن القيم: هذا من إشارة الآية وتنبهها، وهو أنه لا يتلذذ به، وبقرائه،
وفهمه، وتدبره، إلا من يشهد أنه كلامُ الله تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله
وحياً. لا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه منه حرج، بوجه من الوجوه^(٦).
وقال آخرون: «لا يمسه إلا المطهرون» أى: من الجنابة والحَدَث. قالوا:
ولفظُ الآية خبرٌ، ومعناه الطلب.

وقالوا: والمراد بالقرآن ها هنا المصحف؛ واحتجوا على ذلك بما رواه مالك في
(الموطأ)، عن عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: إنَّ في
الكتاب الذى كتبه رسولُ الله ﷺ لعمر بن حزم: «أن لا يمسه القرآن إلا
طاهر»^(٧).

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٧/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» (٢٧/ ٢٠٦).

(٣) أبو الشعثاء، جابر بن زيد الأزدي البصري، مشهور بكنيته، ثقة فقيه (ت ١٩٣هـ) «تقريب» (١٣٦).

(٤) «تفسير» ابن كثير (٨/ ٢٢).

(٥) هكذا في جميع النسخ، ولم أجده في مخطاته منه، ونسبه ابن كثير في «التفسير» (٨/ ٢٢) إلى الفراء.

(٦) ابن القيم، «التيان» (١/ ٤١٠).

(٧) مالك في «الموطأ» كتاب الصلاة باب الصلاة رقم (٣١٧) مرسلاً، وأخرجه من حديث ابن عمر، الطبراني

في «الكبير» رقم (١٣٢١٧) و«الصغير» رقم (١١٦٢) والدارقطنى في «السنن» (١/ ١٢١) قال ابن حجر في

«التلخيص الحبير» (١/ ١٣١): إسناده لا بأس به.

وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن كثير: أى: هذا القرآن منزلٌ من الله ربِّ العالمين، وليس كما يقولون: إنه سحر وكهانة أو شعر، بل هو الحقُّ الذى لا مرية فيه، وليس وراءه حقٌّ نافع^(١). وفى هذه الآية: أنه كلام الله تكلم به.

قال ابن القيم: ونظيره ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾. [السجدة: ١٣] ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾. [النحل: ١٠٢] هو إثباتُ علو الله تعالى على خلقه؛ فإنَّ النزولَ والتَّزِيلَ الذى تعقله العقولُ، وتعرفه الفطر هو وصولُ الشيء من أعلى إلى أسفل. ولا يرد عليه قوله: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾. [الزُّمَر: ٦] لأننا نقول: إنَّ الذى أنزلها فوقَ سمواته، فأنزلها لنا بأمره.

قال ابن القيم: وذكر التَّزِيلَ مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزِمَ للملكه لهم وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه وإنعامه عليهم، وأنَّ مَنْ هذا شأنه مع [١١٥/ب] الخلق، كيف يليق به مع ربوبيته/ التامة أن يتركهم سُدىً، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثاً. لا يأمرهم ولا ينهائهم، ولا يُثيبهم ولا يُعاقبهم؟ فمن أقرَّ بأنه ربُّ العالمين، أقرَّ بأنَّ القرآنَ تنزيلُهُ على رسوله، واستدلَّ بكونه ربُّ العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به. وهذا الاستدلالُ أقوى وأشرفُ من الاستدلالِ بالمُعْجَزَاتِ والخوارق، وإن كانت دلالتها أقربَ إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء^(٢).

قوله: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ قال مجاهد: أى: تريدون أن تُمالِثوهم فيه، وتركوا إليهم^(٣).

قال ابن القيم: ثم وبَّخهم سبحانه على وضعهم الادهان فى غير موضعها، وأنهم يُذاهنون فيما حقه أن يُصدع به ويُفَرِّق به، ويُعَصَّ عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوبُ والأفئدة، ويُحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفاتٌ إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اعتداء فى طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به.

(١) «تفسير ابن كثير» (٣٢/٨).

(٢) ابن القيم، «التيان فى أقسام القرآن» (٤١٢/١).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٠٧/٢٧).

فهو روحُ الوجود، وحياة العالم، ومدارُ السعادة، وفائدة، الفلاح، وطريقُ النجاة، وسبيلُ الرشاد، ونور البصائر.

فكيف تُطلب المداينة بما هذا شأنه، ولم ينزل للمداينة، وإنما نزل بالحق وللحق، والمداينة إنما تكون في باطلٍ قوى لا تُمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا تُمكن إقامته، فيحتاج المداين إلى أن يترك بعضَ الحق ويلتزم بعضَ الباطل. فأما الحق الذي قام به كلُّ حق، فكيف يُداهن به^(١)؟

وقوله : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ تقدم الكلامُ عليها أول الباب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) ابن القيم، «التبيان في أقسام القرآن» (١/٤١٦).

(٣٠)

باب

قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾. [البقرة: ١٦٥].

ش: لما كانت محبته سبحانه هي أصل دين الإسلام الذي يدور عليه قطب رجاه، فبكمالها يكمل، وينقصها ينقص توحيد الإنسان [نبه المصنف على ذلك بهذه الترجمة]^(١).

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾. الآية. قال في (شرح المنازل): أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى، فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً. فهذا ند في المحبة، لا في الخلق والربوبية؛ فإنَّ أحداً/ من أهل الأرض لا يُثبت هذا الند. بخلاف ند [١/١١٦] المحبة، فإنَّ أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ وفي تقدير الآية قولان: أحدهما: والذين آمنوا أشدَّ حباً لله من أصحاب الأنداد لأناداهم وألهتهم، التي يُحبونها ويعظمونها. من دون الله.

وروى ابن جرير، عن مُجاهد، في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾: مُباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من الكفار لأوثانهم^(٢).

(١) إضافة من (ط).

(٢) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (٢٤٠٧، ٢٤٠٨).

ثم روى: عن ابن زيد، قال: هؤلاء المشركون أندادهم أللهتهم التى عبدوا مع الله، يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله، والذين آمنوا أشد حباً لله من حبهم أللهتهم. انتهى^(١).

والثانى: والذين آمنوا أشد حباً لله، من المشركين بالانداد لله؛ فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الانداد قد ذهبت اندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين فى قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾؛ فإن فيها قولين أيضاً:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله. فيكون قد أثبت لهم محبة الله، ولكنها محبة شرَّكَوا فيها مع الله تعالى اندادهم. والثانى: أن المعنى: يحبون اندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الانداد لاندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذموا بأن شرَّكَوا بين الله وبين اندادهم فى المحبة، ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة فى قوله تعالى حكاية عنهم، وهم فى النار، أنهم يقولون لأللهتهم واندادهم وهى محضرة معهم فى العذاب: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. [الشعراء: ٩٧ - ٩٨]. ومعلوم أنهم لم يسوؤهم برب العالمين فى الخلق والربوبية، وإنما سوؤهم به فى المحبة والتعظيم.

وهذا أيضاً هو العدل المذكور فى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. [الأنعام: ١]. أى: يعدلون به غيره فى العبادة، التى هى المحبة والتعظيم.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾. [آل عمران: ٣١] [١١٦/ب] وهذه تسمى آية المحنة. قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله عز

(١) المصدر السابق رقم (٢٤١٠).

وجل آية المحنة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبة، وثمرتها وفائدتها. فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول ﷺ، وفائدتها وثمرتها: محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة فلا محبة له حاصلة، ومحبة لكم مُتَّقِيَة.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾. [المائدة: ٥٤] وذكر لهم أربع علامات:

أحدها: أنهم أذلة على المؤمنين، قبيح معناه: أرقاء رُحماء مشفقين عليهم، عاطفين عليهم. فلما ضَمَّنْ أذلة هذا المعنى عداه بأداة على، قال عطاء رحمه الله: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده.

وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(١). [الفتح: ٢٩].

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله تعالى، بالنفس واليد واللسان والمال. وذلك يُحقِّق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة. فكلُّ محبٍ أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحبٍّ على الحقيقة.

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾. [الإسراء: ٥٧]، فذكر المقامات الثلاثة: الحب. وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف يدلُّ على أن ابتغاء الوسيلة أمرٌ زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً أنه لا يتنافس إلا في قرب من يحبُّ قربه، وحُبُّ قربه تبعٌ لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه.

وعند الجهمية والمعتزلة: ما من ذلك كله شيء؛ فإنه عندهم لا تقرب ذاته من

(١) هذه هي العلامة الثانية.

شيء، ولا يقرب من ذاته شيء، ولا يُحِبُّ لذاته ولا يُحِبُّ. فانكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرّة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة. ولذلك ضُربت قلوبهم بالقسوة، وضُرب دونهم ودون الله حجابٌ على معرفته ومحبته. فلا يعرفونه ولا يحبونه، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه [١/١١٧] وصفاته. فذكرهم أعظمُ آثامهم وأوزارهم، بل يُعاقبون من يذكره بأسمائه/ وصفاته ونعوت جلاله، ويرمونهم بالأدواء التي هم أحقُّ بها وأهلها.

وحسبُ ذى البصيرة وحياة القلب، ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده. والله المستعان^(١).

وقال رحمه الله أيضاً: لا تُحدِّد المحبةُ بحدٍّ أوضح منها، فالحدودُ لا تزيدُها إلا خفاءً.

فحدِّدْها وجودُها، ولا توصفِ المحبةُ بوصفٍ أظهرَ من المحبة. وإنما يتكلَّم الناسُ في أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدِها، وثمراتها، وأحكامها.

وأجمعُ ما قيل في ذلك، ما ذكره أبو بكر الكتاني^(٢) رحمه الله، عن الجنيد^(٣):

قال أبو بكر: جرت مسألة في المحبة بمكة - أعزها الله - في أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سناً، فقالوا: هات ما عندك يا عراقى، فاطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه، متصلٌ بذكر ربه، قائمٌ بأداء حقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه. أحرق قلبه نورُ هيبته، وصفا شربُه من كأس مودته، وانكشف له الجبار^(٤) من أستار غيبه. فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله: فهو بالله والله ومع الله. فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين!

وذكر رحمه الله: أنَّ الأسبابَ الجالبة للمحبة عشرة: أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه، وما أريد به.

(١) ابن القيم، «مدارج السالكين» (٣/ ٢٠ - ٢٣).

(٢) محمد بن علي بن جعفر، زاهد متسك. (ت ٣٢٢هـ) «تاريخ بغداد» (٣/ ٧٤).

(٣) أبو القاسم بن محمد بن الجنيد البغدادي، فقيه محدث زاهد، «وفيات الأعيان» (١/ ٣٧٣).

(٤) في جميع النسخ: الحياء. والمثبت من «مدارج السالكين». وهي كلمة فيها نظر!!

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض .

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيته من المحبة على قدر هذا.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدة برة وإحسانه، ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: - وهو أعجبها - : انكسار القلب بين يديه.

الثامن: الخلوة وقت النزول الإلهي، وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب كلماتهم، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك/ ومنفعة لغيرك. [١١٧/ب]

العاشر: مباحة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب^(١).

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. [التوبة: ٢٤].

ش: أمر الله نبيه ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشيرته، وتجارته ومسكنه، فأثرها أو بعضها على فعل ما أوجبه الله عليه من الأعمال، التي يحبها الله تعالى ويرضاها، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك.

قال العماد ابن كثير: أى: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أى: انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه. روى الإمام

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، (٩/٣)، ١٦ - ١٨.

أحمد، وأبو داود - واللفظ له - من حديث أبي عبد الرحمن الخراساني^(١)، عن عطاء الخراساني، عن نافع، عن ابن عمر، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتكم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتُم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى تُراجعوا دينكم»^{(٢) (٣)}.

فلا بُدَّ من إيثار ما أحبه الله من عبده وأرادَه، على ما يُحبه العبدُ ويُرِيدُه، فيجبُ ما يُحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، ويؤالي فيه ويُعادي فيه، ويتابع رسوله ﷺ؛ كما تقدَّم في آية المحنة، ونظائرها.

قال المصنَّفُ رحمه الله تعالى: وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناسِ أجمعين» أخرجاه^(٤).

ش: أى: البخارى، ومسلم. قوله: «لا يؤمن أحدكم» أى: الإيمان الواجب، والمرادُ كماله، حتى يكون الرسولُ أحبَّ إلى العبد من ولده ووالده والناسِ أجمعين. بل ولا يحصل هذا الكمالُ إلا بأن يكون الرسولُ أحبَّ إليه من نفسه؛ كما في الحديث: أن عمر قال: لانت يا رسول الله أحبُّ إلىَّ من كلِّ شيءٍ إلا نفسي، فقال: «والذى نفسى بيده، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك» فقال له عمر: فإنك الآن أحبُّ إلىَّ من نفسي، فقال: «الآن يا عمر». رواه البخارى^(٥).

[٢/١١٨] فمن قال: إنَّ المنفى هو الكمال، فإنَّ أراد الكمالَ الواجب/ الذى يُذمُّ تاركهُ ويعرَّضُ للعقوبة، فقد صدَّق. وإنَّ أراد أنَّ المنفى الكمالُ المُستحب، فهذا لم يقع قطُّ فى كلام الله ورسوله ﷺ. قاله شيخُ الإسلام^(٦).

فمن ادَّعى محبةَ النبي ﷺ بدون متابعة، وتقديم قوله على قول غيره فقد

(١) إسحاق بن أسيد الانصارى، نزيل مصر، فيه ضعف «تقريب» (١٠٠).

(٢) أحمد فى «المسند» (٢٨/٢)، ٤٢، ٨٤) وأبو داود فى «السنن» رقم (٣٤٦٢)، قال ابن تيمية فى «إقامة الدليل» (٤٥) وهذان إسنادان حسنان، أحدهما يشد الآخر ويقويه.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٦٧/٤).

(٤) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٥) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٤٤).

(٥) البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٦٣٢).

(٦) ابن تيمية، «الكلام على حقيقة الإسلام» (٦٦).

كَذَّبَ؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. [النور: ٤٧].

فنفى الإيمانَ عمن تولَّى عن طاعة الرسول ﷺ، لكن كلَّ مسلم يكون مُحِباً بقدر ما معه من الإسلام، وكل مسلم لا بُدَّ أن يكون مؤمناً وإن لم يكن مؤمناً الإيمان المطلق؛ لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المؤمنين.

قال شيخ الإسلام: وعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر، أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله، فهم مسلمون ومعهم إيمانٌ مُجْمَلٌ. لكنَّ دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً، إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثيرٌ من الناس لا يصلون إلى اليقين، ولا إلى الجهاد. ولو شكَّكوا لشكوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا؛ إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يُقدِّمونه على الأهل والمال. فهؤلاء إن عُرِفوا من المحنة، وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتُلُوا بمن يُدخل عليهم شبهات تُوجب ريبَهم، فإن لم يُنعم الله عليهم بما يُزيل الريب، وإلا صاروا مُرتابين، وانتقلوا إلى نوع من النفاق. انتهى^(١).

وفى الحديث: أنَّ الأعمال من الإيمان؛ لأن المحبة عمل القلب.

وفيه: أنَّ محبة الرسول ﷺ واجبةٌ، تابعةٌ لمحبة الله لازمةٌ لها؛ فإنها محبةٌ لله ولاجله، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقصُ بنقصها. وكلُّ من كان مُحِباً لله فإنما يُحب في الله ولاجله، كما يُحبُّ الإيمان والعمل الصالح. وهذه المحبة ليس فيها شيءٌ من شوائب الشرك، كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوبٍ منه أو دفعٍ مرهوب. وما كان فيها ذلك، فمحبةٌ مع الله؛ لما فيها من [١١٨/ب] التعلُّق على غيره، والرغبة إليه من دون الله.

فهذا يحصلُ التمييز بين المحبة في الله ولاجله - التي هي من كمال التوحيد - وبين المحبة مع الله التي هي محبةُ الانداد من دون الله؛ لما يتعلَّق بقلوب المُشركين من الإلهية، التي لا تجوز إلا لله وحده لا شريك له.

(١) ابن تيمية، «الكلام على حقيقة الإسلام» (٢٨١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولهما عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وجد حلاوة الإيمان: أَنْ يكونَ الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما. وأنَّ يُحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا الله، وأنَّ يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف في النار»^(١).

وفى رواية: «لا يجد أحدٌ حلاوة الإيمان حتى» إلى آخره^(٢).

ش: قوله: (ولهما عنه). أى: البخارى، ومسلم، عن أنس.

قوله: «ثلاثٌ» أى: ثلاثٌ خصال.

قوله: «من كنَّ فيه» أى: وجدت فيه تامة.

قوله: «وجد بهن حلاوة الإيمان» الحلاوة هنا: هى التى يُعبّر عنها بالذوق؛ لما يحصل به من لذة القلب، ونعيمه وسروره وغذائه، وهو شىءٌ محسوس يجده أهلُ الإيمان فى قلوبهم.

قال السيوطى فى (التوشيح): وجد حلاوة الإيمان. فيه: استعارةٌ تخيلية. شبهَ رغبة المؤمن فى الإيمان بشىءٍ حلوا، وأثبت له لازمَ ذلك الشىء، وأضافه إليه.

وقال النووى: معنى حلاوة الإيمان: استلذاذُ الطاعات وتحملُ المشاق، وإيثارُ ذلك على أغراض الدنيا، ومحبةُ العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك الرسول ﷺ^(٣).

قال يحيى بن معاذ^(٤): حقيقةُ الحب فى الله: أن لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفاء.

قوله: «أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما» يعنى بالسوى: ما يحبُّه الإنسان بطبعه، كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوها، فتكون: أحبُّ هنا على بابها.

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٦، ٢١، ٦٩٤١) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٤٣).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٠٤١).

(٣) النووى، «المنهاج» (١٣/٢).

(٤) أبو زكريا الرازى، الواعظ الزاهد. (ت ٢٥٨ هـ) «تاريخ بغداد» (٢٠٨/١٤).

[وقال الخطّابى: والمراد بالمحبة هنا: حُبُّ الاختيار لا حب الطبع. كذا قال!] (١).

وأما المحبة الشريكية - التى قد تقدّم بيانها - فقليلها وكثيرها يُنافى محبة الله ورسوله. وفى بعض الأحاديث «أحبوا الله بكلّ قلوبكم» (٢).

فمن علامات محبة الله ورسوله: أَنْ يُحِبَّ ما يُحِبُّه الله ويكره ما يكرهه الله، ويؤثّر مرضاته على ما سواه، ويسعى فى ما يُرضيه ما استطاع، [ويُبعد عمّا حرّمه ويكرهه أشد الكراهة]، ويُتابع رسوله ويمثل أمره ويترك نهيه؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾. [النساء: ٨٠].

فمن أثر أمرٍ غيره على أمره، وخالف ما نهى عنه، فذلك علَمٌ على عدم محبة الله ورسوله؛ فإنَّ محبة الرسول من لوازم محبة الله. فمن أحبَّ الله وأطاعه أحبَّ الرسول وأطاعه، ومن لا فلا؛ كما فى آية المحنة ونظائرها، والله المُستعان.

قال شيخ الإسلام: أخبر النبىُّ ﷺ أَنَّ هذه الثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجود الحلاوة للشئ يتبع المحبة له. فمن أحبَّ شيئاً واشتَهاه، إذا [١١٩/٢] حصل له مرادُه، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمرٌ يحصل عقيب إدراك الملائم الذى هو المحبوب والمشتهى.

قال: فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح، تتبع كمال محبة العبد لله. وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفرغها، ودفع ضدها. فتكميلها: أَنْ يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما؛ [فإنَّ محبة الله ورسوله لا يُكتفى فيها بأصل الحب، بل لابد أَنْ يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما] (٣).

قلتُ: ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته، فإنه يحب من عبده أَنْ يطيعه والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولا بد.

ومن لوازم محبة الله أيضاً: محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين

(١) ساقط من الأصل.

(٢) قطعة من حديث مُرسَل، أخرجه البيهقى فى «الدلائل» (٢/ ٥٢٥) وذكره ابن اسحاق كما فى «السيرة»

لابن هشام (٢/ ١٤٦) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

(٣) ما بينهما ساقط من الأصل، وهو انتقال نظر. ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٠٥).

من عباده. فمحبته ما يحبه الله، ومن يحبه الله من كمال الإيمان؛ كما في حديث ابن عباس الآتي:

قال: وتفرغها: أن يحب المرء لا يحبه إلا الله، قال: ودفع ضدها: أن يكره ضداً الإيمان، كما يكره أن يقذف في النار. انتهى^(١).

قوله: «أحب إليه مما سواه» فيه جمع ضمير الرب سبحانه وتعالى وضمير رسوله ﷺ، وفيه قولان.

أحدهما: أنه ثنى الضمير هنا، إيماءً إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين. لا كل واحدة، فإنها وحدها لاغية. وأمر بالإفراد في حديث الخطيب^(٢)، إشعاراً بأن كل واحد من العصيانيين مستقلٌ باستلزام الغواية؛ إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم.

الثاني: حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى، وهذا على الجواز.

وجواب ثالث: وهو أن هذا ورد على الأصل، وحديث الخطيب ناقلٌ فيكون أرجح.

قوله: «كما يكره أن يقذف في النار» أي: يستوى عنده الأمران. وفيه ردٌّ على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقصٌ في حقه مُطلقاً، وإن تاب منه.

والصواب: أنه إن لم يتب كان نقصاً، وإن تاب فلا؛ ولهذا كان المهاجرون [١١٩/ب] والأنصار أفضل هذه الأمة، مع كونهم في الأصل كفاراً، فهداهم الله إلى الإسلام. والإسلام يمحو ما قبله وكذلك الهجرة، كما صح الحديث بذلك^(٣).

قوله: وفي رواية «لا يجد أحد» هذه الرواية أخرجه البخاري في الأدب من (صحيحه). ولفظه «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا الله، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ

(١) ابن تيمية، «المصدر السابق» (١٠/٢٠٦).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٨٧٠).

(٣) أخرجه أحمد في «المستند» (٤/١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥) والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٩/٣٥١) وقال ورجالهما ثقات. والبيهقي في «السنن» (٩/١٢٣) «والدلائل» (٤/٣٤٣) من حديث عمرو بن العاص.

أنقذه الله منه، وحتى أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما.
وقد تقدّم أن المحبة هنا: عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور،
والإجلال والهيبة، ولوازم ذلك، قال الشاعر:

أهابك إجلالا. وما بكِ قدرةٌ علىّ، ولكن ملء عينٍ حبيبها^(١)

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس، قال: من أحب في الله،
وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تُنال ولايةُ الله بذلك. ولن
يجد عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك. وقد صارت
عامّة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يُجدي على أهله شيئا. رواه ابن
جرير^(٢).

ش: وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، الجملة الأولى منه فقط^(٣).
قوله: (من أحب في الله) أى: أحبَّ أهلَ الإيمان بالله وطاعته؛ من أجل
ذلك.

قوله: (وأبغض في الله): أى: أبغض من كفر بالله وأشرك به، وفسّق عن
طاعته؛ لأجل ما فعلوه مما يُسخط الله، وإن كانوا أقربَ الناس إليه، كما قال
تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ
كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾. الآية. [المجادلة: ٢٢].

قوله: (ووالى في الله) هذا والذى قبله، من لوازم محبة العبد لله تعالى. فمن
أحبَّ الله أحب فيه، ووالى أوليائه، وعادى أهلَ معصيته وأبغضهم، وجاهد
أعداءه ونصر أنصاره. وكلما قويت محبة العبد لله فى قلبه قويت هذه الأعمالُ
المرتبة عليها، وبكمالها يكملُ توحيدُ العبد، ويكون ضَعْفُها على قدر ضَعْفِ محبة
العبدَ لربه؛ فمقلٌّ، ومستكثر، ومحروم!

قوله: (فإنما/ تُنال ولايةُ الله بذلك) أى: تولّيه لعبده. وولاية: بفتح الواو [١٢٠/٢].
لا غير، أى: الأخوة والمحبة والنصرة، وبالكسر الإمارة، والمراد هنا الأول.

(١) من كلام مجنون ليلى «الديوان» (٧١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا فى كتابه «الأخوان» رقم (٢٢) وابن المبارك فى «كتاب الزهد» رقم (٣٥٣).

(٣) ابن أبي شيبة فى «المسند» وابن أبي حاتم فى «التفسير»، كما فى «الدر المنثور» (٨٧/٨).

ولأحمد، والطبراني، عن النبي ﷺ قال: «لا يجدُ العبدَ صريحَ الإيمانِ حتى يُحِبَّ اللهَ ويبغضَ اللهَ. فإذا أحبَّ اللهَ وأبغضَ اللهَ، فقد استحقَّ الولايةَ لله»^(١).

وفى حديث آخر «أوثقُ عُرَى الإيمانِ الحبُّ في الله والبغضُ في الله عز وجل». رواه الطبراني^(٢).

قوله: (ولن يجدَ عبدٌ طعمَ الإيمانِ) إلى آخره. أى: لا يحصل له ذوقُ الإيمانِ ولذته وسروره وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، أى: حتى يُحِبَّ في الله، ويبغضَ في الله، ويعادى في الله، ويوالى في الله.

وفى حديث أبى أمامة، مرفوعاً «من أحبَّ الله وأبغضَ الله وأعطى الله ومنع الله، فقد استكمل الإيمان». رواه أبو داود^(٣).

قوله: (وقد صارت عامةٌ مؤاخاةُ الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يُجدى على أهله شيئاً) أى: لا ينفعهم بل يضرهم؛ كما قال تعالى: «الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ». [الزخرف: ٦٧].

فإذا كانت البلوى قد عمَّت بهذا فى زمن ابن عباس فى خير القرون، فما زاد الأمرُ بعد ذلك إلا شدة. حتى وقعت الموالاةُ: على الشرك، والبدع، والفسوق، والعصيان. وقد وقع ما أخبر به ﷺ، بقوله: «بدأ الإسلامُ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»^(٤).

وقد كان الصحابةُ رضى الله عنهم فى عهد نبيهم ﷺ، وعهد أبى بكر وعمر [يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه، محبةً فى الله وتقرباً إليه]^(٥)؛ كما قال تعالى: «وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ». [الحشر: ٩].

(١) أحمد فى «المسند» (٤٣٠/٣) والطبراني كما فى «مجمع الزوائد» (٨٩/١) وقال: وفيه رشدين، وهو ضعيف. كلاهما من حديث عمرو بن الجموح وعمرو بن الحقيق.

(٢) الطبراني فى «الكبير» (٢٧٢/١٠) و«الصغير» رقم (٦٢٤)، وانظر بقية التخريج فى كتاب «أوثق عُرَى الإيمان» للعلامة سليمان بن عبد الله (٢٧).

(٣) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٦٨١).

(٤) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (١٤٥) من حديث أبى هريرة.

(٥) ما بينهما ساقط من الأصل.

وعن ابن عمر، قال: لقد رأيتنا على عهد رسول الله ﷺ، وما منا أحد يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم. رواه ابن ماجه^(١)

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقال ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾. [البقرة: ١٦٦] قال: المودة.

ش: هذا الأثر رواه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه^(٢).

قوله: (قال: المودة)، أى: التى / كانت فى الدنيا، خانتهم أحوج ما كانوا [١٢٠/ب] إليها، وتبرأ بعضهم من بعض؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾. [العنكبوت: ٢٥].

قال العلامة ابن القيم - فى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾. [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

فهؤلاء المتبعون كانوا على الهدى، وأتباعهم ادَّعوا أنهم على طريقهم ومنهاجهم وهو مخالفون لهم سالكون غير طريقهم. ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم، فيتبرؤون منهم يوم القيامة؛ فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله.

وهذا حال كل من اتخذ من دون الله وليجةً وأولياء، يوالى لهم ويُعَادى لهم، ويرضى لهم، ويغضب لهم. فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبها ونصبها؛ إذ لم يجرّد موالاته ومعاداته، ومحبتة وبغضه، وانتصاره وإيثارة لله ورسوله. فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله، وقطع تلك الأسباب.

(١) لم أجده فى المطبوعة من السنن، وأخرجه أحمد فى «المسند» (٨٤/٢) والطبرانى فى «الكبير» رقم (١٣٥٨٣، ١٣٥٨٥) (٣١٣/١، ٣١٨/٣) قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٢٨٥/١٠): رواه الطبرانى بإسناد، وبعضها حسن.

(٢) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (٢٤٢٣)، كما فى «الدر المنثور» (٤٠٢/١).

فينقطع يوم القيامة كلُّ سببٍ ووصلة ووسيلة ومودة كانت لغير الله، ولا يبقى إلا السببُ الواصل بين العبد وربه. وهو خطُّه من الهجرة إليه وإلى رسوله، وتجريدُ عبادته وحده ولوازمها: من الحبِّ والبغض، والعطاء والمنع، والموالة والمعادة، والتقريب والإبعاد، وتجريدُ متابعة رسوله ﷺ وتجريداً محضاً، بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلاً عن الشرك بينه وبين غيره، فضلاً عن تقديم قول غيره عليه.

فهذا السببُ هو الذى لا ينقطع بصاحبه، وهذه هى النسبة التى بين العبد وبين ربه، وهى نسبة العبودية [المحضة] ^(١). وهى أختُّه التى يجول ما يجول وإليها مرجعه، ولا تتحقق إلا بتجريد متابعة الرُّسل صلواتُ الله وسلامه عليهم؛ إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عُرِفَتْ إلا بهم، ولا سبيلَ إليها إلا [٢/١٢١] بمتابعتهم/.

وقد قال تعالى: ﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمَلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾. [الفرقان: ٢٣]. فهذه هى الأعمالُ التى كانت فى الدنيا على غير سنة رُسُلِهِ وطريقتهم، ولغير وجهه، يجعلها الله هباءً منثوراً، لا ينتفع منها صاحبُها بشيءٍ أصلاً. وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة، أن يرى سعيه ضائعاً، وقد سعد أهلُ السعى النافع بسعيهم. انتهى مُلخصاً ^(٢).

(١) إضافة من (غر) و(ها) و(ط).

(٢) ابن القيم، «التبوكية» (٥٧).

(٣١)

باب

قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُم وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُم وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. [آل عمران: ١٧٥].
ش: الخوف من أفضل مقامات الدين [واجلها] ^(١)، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾. [النحل: ٢٨] وقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾. [الرحمن: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾. [الأنبياء: ٢٨] وقال تعالى: ﴿وَلْيَأْيُ فَارُهْبُونَ﴾ ^(٢). [البقرة: ٤٠] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي﴾. [المائدة: ٤٤]، وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.

والخوف من حيث هو، ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله، من وثن أو طاغوت أن يصبه بما يكره؛ كما قال تعالى عن قوم هود، إنهم قالوا له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾. [هود: ٥٤ - ٥٥] وقال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾. [الزمر: ٣٦] وهذا هو الواقع من عبَاد القبور ونحوها من

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) ليست في الاصل.

الأوثان، يخافونها ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العباداة لله، وهذا يُنافى التوحيد.

الثانى: أن يترك الإنسان ما يجب عليه، خوفاً من بعض الناس. فهذا مُحَرَّم، وهو نوع من الشرك بالله المُنافى لكمال التوحيد، وهذا هو سبب نزول هذه الآية، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣: ١٧٥].

وفى الحديث «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن لا تُغيّره؟ فيقول: ربّ خشيتُ الناس. فيقول: إياي كنتَ أحقُّ أن تخشى» (١).

[١٢١/ب] الثالث: الخوفُ الطبيعي، وهو الخوف من عدو أو سبُع/ أو غير ذلك، فهذا لا يذم؛ كما قال تعالى فى قصة موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾. [القصص: ٢١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى: يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله تعالى، فلا يخافون إلا إياه.

وهذا هو الإخلاص الذى أمر الله به عباده، ورضيه منهم. فإذا أخلصوا له الخوف، وجميع العباداة: أعطاهم ما يرجون، وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾. [الزمر: ٣٦].

قال العلامة ابن القيم: ومن كيد عدو الله: أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائهم؛ لئلا يُجاهدوهم، ولا يأمرهم بمعروف، ولا ينههم عن منكر. وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافه.

(١) أخرجه أحمد فى «المستد» (٢٧/٣، ٢٩، ٧٧) والحميدى فى «المستد» رقم (٧٣٩) وابن حبان فى «الصحيح» (٢٣٠/٩) وأبو نعيم فى «أخبار أصبهان» (٢٨٧/٢) من حديث أبى سعيد.

قال: والمعنى عند جميع المُفسِّرين: يخوِّفكم بأوليائه. قال قتادة: يعظمهم في صدوركم. فكلُّما قوى إيمانُ العبد زال من قلبه خوفُ أولياء الشيطان، وكلُّما ضعف إيمانه قوى خوفُه منهم. فدلَّت هذه الآيةُ على أنَّ إخلاص الخوف من شروط كمال الإيمان^(١).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾. [التوبة: ١٨].

ش: أخبر تعالى أنَّ مساجد الله لا يعمرها إلا أهلُ الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشيةَ دون من سواه.

فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أنَّ نفاها عن المشركين؛ لأنَّ عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشرِك وإنَّ عمل فعله: ﴿كَسْرَابٍ بَقِيْعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾. [النور: ٣٩] أو ﴿كَرَّمَادٍ اسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾. [إبراهيم: ١٨] وما كان كذلك فالعدمُ خيرٌ منه. فلا تكون المساجدُ عامرةً إلا بالإيمان الذي مُعظمه التوحيد، مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع. وذلك كلُّه داخلٌ في مسمى الإيمان المطلق، عند أهل السنة والجماعة.

قوله: / ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قال ابنُ عطية: يُريد خشيةَ التعظيم والعبادة [١/١٢٢] والطاعة، ولا محالة أنَّ الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية. وينبغي أن يخشى في ذلك كلُّه قضاء الله وتصريفه^(٢).

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: الخوفُ عبودية القلب، فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء، وغيرها من عبودية القلب^(٣).

قوله: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ قال ابنُ أبي طلحة، عن ابن

(١) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ١٣٠).

(٢) ابن عطية «المحرر الوجيز» (٨/ ١٤٨).

(٣) ينظر ابن القيم، «طريق الهجرتين» (٣٦٢).

عباس رضى الله عنهما: يقول: إِنَّ أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ؛ وَكُلُّ ﴿عَسَى﴾ فِي الْقُرْآنِ
فَهِيَ وَاجِبَةٌ (١).

وفى الحديث «إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ» قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. رواه أحمد،
والترمذى، والحاكم (٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا
أُؤْذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾. [الآية العنكبوت: ١٠].

ش: قال ابن كثير: يقول تعالى مُخْبِرًا عَنْ صفات قومٍ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الَّذِي
يَدْعُونَ الْإِيمَانَ بِالسُّتْهُمْ، وَلَمْ يَثْبِتْ فِي قُلُوبِهِمْ: إِنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ مُحَنَّةٌ وَفِتْنَةٌ فِي
الدُّنْيَا، اعْتَقَدُوا أَنَّهَا مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ بِهِمْ، فَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ. قال ابن عباس:
يعنى: فَتَنَتْهُ، أَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ إِذَا أُؤْذِيَ فِي اللَّهِ (٣).

وقال ابن القيم: النَّاسُ إِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرِّسَالُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَقُولَ
أَحَدُهُمْ: آمَنَّا. وَإِمَّا أَنْ لَا يَقُولَ ذَلِكَ، بَلْ يَسْتَمِرُّ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَالْكَفْرِ. فَمَنْ
قَالَ: آمَنَّا، امْتَحَنَهُ رَبُّهُ وَابْتَلَاهُ وَفَتَنَهُ. وَالْفِتْنَةُ: الْإِبْتِلَاءُ وَالْإِخْتِبَارُ، لِيَتَّبِعِينَ الصَّادِقُ
مِنَ الْكَاذِبِ. وَمَنْ لَمْ يَقُلْ: آمَنَّا. فَلَا يَحْسَبُ أَنَّهُ يُعْجِزُ اللَّهَ وَيَفُوتَهُ وَيَسْبِقَهُ.

فَمَنْ آمَنَ بِالرِّسَالِ وَأَطَاعَهُمْ عَادَاهُ أَعْدَاؤُهُمْ وَأَذَوْهُ، فَابْتُلِيَ بِمَا يُؤْلَهُ. وَمَنْ لَمْ
يُؤْمِنْ بِهِمْ وَلَمْ يُطْعَمْهُمْ، عُوِّبَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحَصَلَ لَهُ مَا يُؤْلَهُ، وَكَانَ هَذَا
الْأَلَمُ أَعْظَمَ وَأَدْوَمَ مِنَ أَلَمِ أَتْبَاعِهِمْ.

فَلَا بَدَّ مِنْ حَصُولِ الْأَلَمِ لِكُلِّ نَفْسٍ آمَنَتْ، أَوْ رَغِبَتْ عَنِ الْإِيمَانِ. لَكِنِ الْمُؤْمِنُ
يَحْصُلُ لَهُ الْأَلَمُ فِي الدُّنْيَا ابْتِدَاءً، ثُمَّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.
وَالْمَعْرُضُ عَنِ الْإِيمَانِ تَحْصُلُ لَهُ اللَّذَةُ ابْتِدَاءً، ثُمَّ يَصِيرُ فِي الْأَلَمِ الدَّائِمِ.

(١) أخرجه ابن جرير فى «التفسير» رقم (١٦٥٥٥).

(٢) أحمد فى «المسند» (٦٨/٣، ٧٦) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٠٩٣) وقال: هذا حديث حسن، والحاكم

فى «المستدرک» (٢١٢/١، ٣٣٢/٢).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢٧٥/٦).

والإنسان لا بد أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات. فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له العذاب/ تارة منهم وتارة من غيرهم.

[١٢٢/ب]

كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقتهم أو سكوتهم عنهم. فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداءً لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم.

فالخزم كل الخزم في الأخذ بما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمعارية رضي الله عنه «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً»^(١).

فمن هداه الله وألهمه رشده، ووقاه شر نفسه، امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصبر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة؛ كما كانت للرسول وأتباعهم.

ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أودى في الله جعل فتنة الناس له، وهي أذاهم ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك - في فراره منه وتركه السبب الذي يناله به - كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون بالإيمان.

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم، فرؤا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب.

وهذا من ضعف بصيرته، فر من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم. ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس - في الفرار منه - بمنزلة عذاب الله. وغبن كل الغبن؛ إذ استجار من الرضاء بالنار، وفر من ألم

(١) أخرجه موقوفاً: الترمذي في «الجامع» (١٣٣/٧)، وأحمد في «الزهد» وأبو دأود في «الزهد» رقم (٣٢٢)، والبيهقي في «الزهد» رقم (٨٨٦)، والقاضي وكيع في «الآخبار» (٣٨/١) بإسناد صحيح، عن عائشة.

ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جُنْدَه وأولياءه، قال: إني كنتُ معكم، والله أعلم بما انطوى عليه صدره من النفاق. انتهى^(١).

وفى الآية: ردُّ على المرجئة والكرامية، ووجهه: أنه لم ينفع هؤلاء قولهم: آمنا بالله. مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم فى الله، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل، فلا يصدق الإيمانُ الشرعى على الإنسان إلا باجتماع الثلاثة: التصديق بالقلب وعمله، والقول باللسان، والعمل بالأركان. وهذا قول أهل السنة والجماعة، سلفاً وخلفاً. والله سبحانه أعلم.

[١/١٢٣] ^(٢) وفيه: الخوف من مدهانة/ الخلق، والمعصوم من عصمه الله^(٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: عن أبي سعيد مرفوعاً: «إنَّ من ضَعَفَ اليقين: أنْ تُرضى الناسَ بسخطِ الله، وأنْ تحمدهم على رزقِ الله، وأنْ تَدْمَهُم على ما لم يؤتكَ الله، إنَّ رزقَ الله لا يُجره حرصٌ حريص، ولا يردّه كراهية كاره».

ش: هذا الحديث رواه أبو نعيم فى (الحلية)، والبيهقى^(٣). وأعلّه بمحمد بن مروان السدى، وقال ضعيف^(٤). وفى إسناده أيضاً: عطية العوفى، ذكره الذهبى فى (الضعفاء)^(٥). وموسى بن بلال، قال الأزدي: ساقط^(٦).

وتأمّ الحديث: «وإنَّ الله بحكمته جعل الروحَ والفرحَ فى الرضى واليقين، وجعل الهمَّ والحزنَ فى الشكِّ والسخط».

^(٧) والحديث وإن كان فى إسناده من ذكر، فمعناه صحيح^(٧).

قوله: «إنَّ من ضَعَفَ اليقين» [الضعف: يُضْمُّ ويحرك، ضد القوة، ضَعُفَ ككرم ونصر، ضعفاً، وضعفة، ضعافية، فهو ضعيف وضعوف وضعفان، والجمع: ضعاف وضعفاء وضعفة وضعفى وضعافى].

(١) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١٨٩/٢).

(٢) ما بينهما ساقط من (ط).

(٣) أبو نعيم فى «الحلية» (١٠٦/٥، ٤١/١٠) والبيهقى فى «شعب الإيمان» رقم (٢٠٣).

(٤) قال ابن حجر فى «التقريب»، (٥٠٦): متهم بالكذب، من الثامنة.

(٥) الذهبى «المغنى» (٤٣٦/٢) وقال فى «التقريب» (٣٩٣): صدوق يخطئ كثيراً، وكان شيعياً مدلساً.

(٦) وينظر: الذهبى، «ميزان الاعتدال» (٢٠١/٤).

(٧) ما بينهما ساقط من (ض) و(هـ) و(ط).

أو الضَّعْف - بالفتح - فى الرأى، وبالضم فى البدن، فهى ضعيفة وضعوف^(١). واليقين: المرادُ به الإيمان كله؛ كما قال ابنُ مسعود: اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان. رواه الطبرانى بسند صحيح، [وأبو نعيم فى (الحلية)، والبيهقى فى (الزهد) من حديثه مرفوعاً^(٢)].

قال^(٣): ويدخل فى ذلك تحقيقُ الإيمان بالقَدَر السابق؛ كما فى حديث ابن عباس مرفوعاً «فإن استطعت أن تعمل بالرضى فى اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإنَّ فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»^(٤) وفى رواية: قلت: يا رسول الله كيف أصنع باليقين؟ قال: «أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك»^(٥) [٦].

قوله: «أن تُرضى الناس بسخط الله» أى: تؤثر رضاهم على رضى الله، بأن توافقهم على ترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى عنه؛ استجلاًباً لرضاهم.

وهذا يُنافى قوَّةَ اليقين، وكمال الإيمان فى إثارة ما يُرضى الله على ما تهواه النفوس، والصبر على مخالفة هواها؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾. [الأحزاب: ٣٩].

[وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته، ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخطَ خالقه وربِّه ومليكه، الذى يترصف فى القلوب ويفرِّج الكروب، ويفغر الذنوب.

وبهذا الاعتبار يدخل فى نوع من الشرك؛ لأنه أثر رضى المخلوق على رضى الله، وتقرب إليه بما يسخط الله. ولا يسلم من هذا إلا من سلَّمه الله، ووفَّقه

(١) فى الأصل: قال فى المصباح: الضعف بفتح الضاد، لغة نعيم. وبضمها، لغة قريش. خلاف القوة والصحة.

(٢) الطبرانى فى «الكبير» رقم (٨٥٤٤) وأبو نعيم فى «الحلية» (٣٤/٥) والبيهقى فى «الزهد» (٢٨/١)، قال ابن حجر فى «الفتح» (٤٨/١) أثر وصله الطبرانى بسند صحيح، ولا يثبت رفعه.

(٣) أى صاحب «تيسير العزيز الحميد» (٤٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (٣١٤/١) والحاكم فى «المستدرک» (٥٤١/٣).

(٥) أخرجه الآجرى فى «الشریعة» (١٩٨) قال ابن رجب فى «الجامع» (١٨٤): إسناده ضعيف.

(٦) ما بينهما إضافة من (ض) و(ها) و(ط).

لمعرفته، ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله، وتنزيهه تعالى عن كل ما يُنافى كماله، معرفة توحيده في ربوبيته وإلهيته، وبالله التوفيق^(١).

قوله: «وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ» أى: على ما وصل إليك على أيديهم، بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه؛ فَإِنَّ الْمُتَفَضِّلَ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ، الَّذِي قَدَّرَهُ لَكَ وَأَوْصَلَهُ إِلَيْكَ، وَإِذَا أَرَادَ أَمْرًا قَبِضَ لَهُ أَسْبَابًا.

ولا يُنافى هذا حديث «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ»^(٢)؛ لَأَنَّ شُكْرَهُمْ إِنَّمَا هُوَ فِي الدُّعَاءِ لَهُمْ، لَكُونَ اللَّهُ سَاقَهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ، فَتَدْعُو لَهُمْ أَوْ تَكَافُتُهُمْ؛ لِحَدِيثِ «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافُتُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تَكَافُتُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنْكُمْ قَدْ كَافُتُمُوهُ»^(٣) فإِضَافَةُ الصَّنِيعَةِ إِلَيْهِمْ لَكُونُهُمْ صَارُوا سَبَبًا فِي إِيْصَالِ الْمَعْرُوفِ إِلَيْكَ، وَالَّذِي قَدَّرَهُ وَسَاقَهُ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ.

[١٢٣/ب] قوله: / «وَأَنْ تَذْمَهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُوْثِقَ اللَّهُ» لَأَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ لَكَ مَا طَلَبْتَهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ، فَلَوْ قُدِّرَ لَكَ لِسَاقَتِهِ الْمُقَادِيرُ إِلَيْكَ. فَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الْمُتَفَرِّدَ بِالْعَطَاءِ وَالنَّعْيِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَرْزُقُ الْعَبْدَ بِسَبَبٍ وَبِلَا سَبَبٍ، وَمَنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، لَمْ يَمْدَحْ مَخْلُوقًا عَلَى رِزْقٍ، وَلَمْ يَذْمَهُ عَلَى مَنَعٍ، وَيَفُوضُ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ، وَيَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فِي أُمُورِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

وقد قرّر هذا المعنى بقوله في الحديث «إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حَرَصٌ حَرِيسٌ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةٌ كَارِهِ»؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. [فاطر: ٢].

قال شيخ الإسلام: اليقينُ يتضمَّنُ اليقينَ في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمَّنُ اليقينَ بقدر الله وخلقه وتدبيره. فإذا أَرْضَيْتَهُمْ بسخط الله لم

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» (٤٨١١)، والترمذي في «الجامع» رقم (١٩٥٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه أبو داود في «السنن» رقم (١٦٧٢)، (٥١٠٩) والنسائي في «المجتبى» (٨٢/٥) وأحمد في «المسند» (٦٨/٢، ٩٩، ١٢٧) من حديث ابن عمر.

تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك: أما ميل إلى ما في أيدي الناس، فيترك القيامَ فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم. وإمّا ضعفُ تصديقه بما وعد الله أهل طاعته، من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة. فإنك إذا أرضيت الله، نصرك ورزقك وكفأك مؤنتهم.

وإرضائهم بما يَسْخَطُهُ إنما يكون خوفاً منهم ورجاءاً لهم، وذلك من ضعف اليقين. وإذا لم يُقدَّر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمرُ في ذلك إلى الله لا لهم؛ فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا دُعمتهم على ما لم يُقدَّر كان ذلك من ضعف يقينك.

فلا تَخَفْهم ولا ترجهم، ولا تدمهم من جهة نفسك وهواك. ولكن من حِمْدِهِ الله ورسوله فهو المحمود، ومن ذَمَّهُ الله ورسوله منهم فهو المذموم. ولما قال بعضُ وفد بني تميم: أي محمد، أعطني! فإنَّ حَمْدِي زَيْنٌ، وذَمِّي شَيْنٌ، قال ﷺ: «ذاك الله»^(١) انتهى^(٢).

ودلَّ الحديثُ على أنَّ الإيمانَ يزيد وينقص، وأنَّ الأعمالَ من مسمى الإيمان.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس، رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سَخَطَ الله عليه وأسخط عليه/ الناس» رواه [١/٢٤]

ابن حبان في (صحيحه)^(٣).

قُل: هذا الحديثُ: رواه ابنُ حبان بهذا اللفظ، ورواه الترمذِيُّ عن رجلٍ من أهل المدينة، قال: كتب معاويةُ، إلى عائشة: أن أكتبني لى كتاباً تُوصيني فيه، ولا تُكثري عليّ، فكتبت عائشةُ إلى معاوية: سلامٌ عليك، أما بعد: فأني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس،

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤٨٨/٣)، (٣٩٣/٦)، (٣٩٤) والطبراني في «الكبير» رقم (٨٧٨) من حديث الأقرع بن حابس.

(٢) ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (٥١/١).

(٣) ابن حبان في «الصحيح» (٢٤٧/١).

ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكلّه الله إلى الناس» والسلام عليكم. ورواه أبو نعيم^(١).

قوله: «من التمس»: أى: طلب.

قال شيخ الإسلام: وكتبت عائشة إلى معاوية، وروى أنها رفعتة: «من أَرْضَى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أَرْضَى الناس بسخط الله لم يُغْنُوا عنه من الله شيئاً» هذا لفظ المرفوع.

ولفظُ الموقوف: من أَرْضَى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأَرْضَى عنه الناس، ومن أَرْضَى الناس بسخط الله عاد حامدُهُ من الناس له ذاماً.

وهذا من أعظم الفقه فى الدين؛ فإنَّ من أَرْضَى الله بسخطهم كان قد اتَّقاه، وكان عبْدَه الصالح، والله يتولى الصالحين، والله كاف عبْدَه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. [الطلاق: ٢ - ٣] والله يكفيه مؤونة الناس بلا ريب!

وأما كونُ الناس كلُّهم يرضون عنه، فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سَلِمُوا من الأغراض، وإذا تَبَيَّنَ لهم العاقبة. «ومن أَرْضَى الناس بسخط الله لم يُغْنُوا عنه من الله شيئاً» كالظالم الذى يَعْصُ على يديه.

وأما كون حامدِه ينقلب ذاماً، فهذا يقع كثيراً، ويحصل فى العاقبة. فإنَّ العاقبة للتقوى، لا تحصل ابتداءً عند أهوائهم. انتهى^(٢).

وقد أحسن من قال:

إذا صحَّ منك الودُّ يا غاية المنسى فكلُّ الذى فوق التراب تُراب^(٣)

قال ابن رجب: فمن تحقَّق أنَّ كل مخلوقٍ فوق التراب فهو تراب، فكيف

(١) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٤١٦)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١٨٨/٨).

(٢) ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (٥٢/١).

(٣) من كلام أبى فراس الحمدانى. نقله ابن القيم فى «مدارج السالكين» (٣٠١/٢)، (١٧٨/٣).

يقدّم طاعةً من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب؟ إنّ هذا لشيءٌ عَجَابٌ^(١).

وفى الحديث: عقوبةٌ من خاف الناس/ وآثر رضاهم على الله، وأنَّ العقوبة قد [١٢٤/ب] تكون في الدين. عياداً بالله من ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٨].

(١) ابن رجب، «نور الاقتباس» (٨٩).

(٣٢)

باب

قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. [المائدة: ٢٣].

ش: قال أبو السعادات: يقال: توكل بالامر: إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان: إذا اعتمدت عليه، ووكل فلان فلاناً: إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه. انتهى^(١).

وأراد المصنف بهذه الترجمة بالآية: بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى؛ فإن تقديم المعمول يفيد الحصر، أى: وعلى الله فتوكلوا لا على غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة. فإنه إذا اعتمد على الله فى جميع أموره الدينية والدنيوية، دون كل من سواه، صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى.

فهو من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله؛ كما فى هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾. [يونس: ٨٤] وقوله: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾. [المزمل: ٩] والآيات فى الأمر به كثيرة جداً.

قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب^(٢).

(١) ابن الأثير، «النهاية» (٢٢١/٥).

(٢) نقله ابن القيم فى «مدارج السالكين» (١١٤/٢). و«طريق الهجرتين» (٣٢٩).

وقال ابن القيم في معنى الآية المترجم بها: فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان، فدلّ على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفي الآية الأخرى: ﴿قال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾. [يونس: ٨٤] فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلّما قوى توكل العبد كان إيمانه أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد. والله تبارك وتعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

فظهر أنّ التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأنّ منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس؛ فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته/ وأعماله إلا على ساق التوكل^(١).

قال شيخ الإسلام: وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه؛ فإنّه مشرك: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾. [الحج: ٣١].

قال الشارح: قلت: لكنّ التوكل على [غير]^(٢) الله قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالذي يتوكل على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم: من نصرٍ أو حفظ أو رزق أو شفاة، فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه: من رزق، أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوع شرك أصغر. والوكالة الجائزة: هي توكيل الإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، لكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وكّله عليه، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها، بل يعتمد على المسبّب الذي أوجد السبب والمسبّب^(٣).

(١) ابن القيم «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (٣٢٧ - ٣٣٠).

(٢) ساقط من جميع النسخ، والإضافة من «الشرح».

(٣) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (٤٩٧).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. [الأنفال: ٢].

ش: قال ابن عباس في الآية: المنافقون، لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلّون إذا غابوا، ولا يؤدّون زكاة أموالهم. فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدّوا فرائضه. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم^(١).

ووجّل القلب من الله يستلزم القيام بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه. قال السدّي: ﴿الذين إذا ذكر الله وجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهيم بمعصية، فيقال له: اتق الله، فيجلّ قلبه. رواه ابن أبي شيبة، وابن جرير^(٢).

قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ استدللّ الصحابة والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة، بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه. قال عمير بن حبيب، الصحابي: إنّ الإيمان يزيد وينقص. فقليل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وخشيناه، / فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا [١٢٥/ب] وضيعنا، فذلك نقصانه. رواه ابن سعد^(٣).

وقال مجاهد: الإيمان يزيد وينقص، وهو قول وعمل. رواه ابن أبي حاتم^(٤).

(١) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (١٥٦٨٤). وابن أبي حاتم في التفسير كما في «الدر المنثور» (١١/٤)، وأخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٦٠٢).

(٢) ابن أبي شيبة كما في «الدر المنثور» (١٢/٤) وابن جرير في «التفسير» رقم (١٥٦٩٠).

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (٦٢٤) وابن أبي شيبة في «الإيمان» رقم (١٤) وابن بطه الحنبلي في «الإبانة» رقم (١١٣١) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٧٢١) والبيهقي في «شعب الإيمان» رقم (٥٥).

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (٦١١) والآجزي في «الشرعية» (١١١) وابن بطه الحنبلي في «الإبانة» رقم (١١٦٧) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٧٢٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» رقم (٥٩).

وحكى الإجماع على ذلك الشافعي، وأحمد، وأبو عبيد، وغيرهم^(١).

وقوله: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: يعتمدون عليه بقلوبهم، مفوضين إليه أمورهم. فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يرغبون إلا إليه، يعلمون أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده، والمعبود وحده لا شريك له.

وفي الآية: وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان، وهى: الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده. وهذه المقامات تقتضى كمال الإيمان، وحصول أعماله الباطنة والظاهرة. مثال ذلك: الصلاة، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها، وأدى الزكاة كما أمره الله، استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات، وترك جميع المحرمات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾. [النكبات: ٤٥].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. [الأنفال: ٦٤].

ش: قال ابن القيم: أى: الله وحده كافيك وكافى أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقيل: المعنى: حسبك الله، وحسبك المؤمنون.

قال ابن القيم: وهذا خطأ محض، لا يجوز حمل الآية عليه؛ فإن الحسب والكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوى والعبادة، قال تعالى: ﴿وإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَنِيهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾. [الأنفال: ٦٢].

ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. [آل عمران: ١٧٣] ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله.

(١) أخرجه ابن بطه الحنبلى فى «الإبانة» رقم (١١٤٦) اللالكائى فى «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٥٩٢) وينظر «شرح السنة» للبخارى (٣٨/١) وكتاب «الإيمان» لابن تيمية (١٢٣) وما بعدها.

ونظيرُ هذا قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾. [التوبة: ٥٩].

فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول، وجعل الحسبَ له وحده، فلم يقل: / [١/١٢٦] حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالصَ حقِّه؛ كما قال: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فجعل الرغبةَ إليه وحده، كما قال: ﴿وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾. [الشرح: ٨] فالرغبة والتوكل والإنابة والحسبُ لله وحده؛ كما أنَّ العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى. انتهى^(١).

وبهذا يتبيَّن مطابقة الآية للترجمة؛ فإذا كان هو الكافى لعبده، وجب ألا يتوكل إلا عليه. ومتى التفت بقلبه إلى سواه، وكُلَّ إلى من التفت إليه؛ كما فى الحديث: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكُلَّ إِلَيْهِ»^(٢).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾. [الطلاق: ٣].

ش: قال ابنُ القيم: أى: كافيه. ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدو، ولا يضره إلا أذى لا بُدَّ منه، كالحر والبرد والجوع والعطش. وأما أن يضره بما يبلغ به مراده، فلا يكون أبداً. وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء، وفى الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه، وبين الضر الذى يتشفى به منه.

قال بعضُ السلف: جعل الله لكل عملٍ جزاءً من نفسه، وجعل جزاءَ التوكل عليه نفسَ كفايته، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ولم يقل: فله كذا وكذا من الأجر، كما قال فى الأعمال. بل جعل نفسه سبحانه كافى عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبدُ على الله حقَّ توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن، لجعل له مخرجاً، كفاه ونصره. انتهى^(٣).

وفى أثرٍ رواه أحمد فى (الزهد)، عن وهب بن مُنبه، قال الله عزَّ وجل فى بعض كتبه: بعزتى، إنَّه من اعتصم بى فكادته السمواتُ بمن فيهن والأرضون بمن

(١) ابن القيم «زاد المعاد» (١/٣٥ - ٣٧) وانظر ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٩٣، ١٠/١٥٤).

(٢) مضى تخريجُه.

(٣) ابن القيم «تفسير سورة الفلق» التفسير القيم (٥٨٧).

فيهن، فأني أجعلُ له من ذلك مخرجاً. ومن لم يعتصم بي، فأني أقطعُ يديه من أسباب السماء، وأخسف من تحت قدميه الأرض، فأجعلُه في الهواء، ثم أكلُه إلى نفسه. كفى بي لعبدي مآلاً، إذا كان عبدي في طاعتي أُعطيهِ قبل أن يسألني، وأستجيب له قبل أن يدعوني، فأنا أعلم بحاجته التي ترفق به منه^(١).

وفي الآية: دليلٌ على فضل التوكل، وأنه أعظمُ الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار؛ لأنَّ الله علَّقَ الجملةَ الأخيرة على الأولى تعليقَ الجزاءِ على الشرط، فيمتنع أن يكون وجودُ الشرط كعدمه، لأنه تعالى رتب الحكم على الوصف [١٢٦/ب] المناسب له، فعلم أن توكله هو/ سببُ كون الله حسباً له.

وفيه: تنبيهٌ على القيام بالأسباب مع التوكل؛ لأنه تعالى ذكر التقوى، ثم ذكر التوكل، كما قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. [المائدة: ١١]، فجعل التوكل مع التقوى، الذي هو قيامٌ بالأسباب المأمور بها. فالتوكلُ بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجزٌ محض، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل.

فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولا عجزه توكلأً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكره ابن القيم بمعناه^(٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس، قال: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادهم إيماناً وقالوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. [آل عمران: ١٧٣] رواه البخاري^(٣).

ش: قوله: (حَسْبُنَا اللَّهُ)، أي: كافينا، فلا نتوكل إلا عليه؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾. [الزمر: ٢٣].

قوله: (وَنِعْمَ الْوَكِيلُ): أي: نعم الموكول إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾. [الحج: ٧٨] ومخصوص نعم، محذوف تقديره: هو.

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» رقم (٤٩٦).

(٢) ابن القيم، «مدارج السالكين» (١٢٨/٢).

(٣) البخاري في «الصحیح» رقم (٤٥٦٣، ٤٥٦٤).

قال ابن القيم: هو حسب من توكل عليه وكافى من لجأ إليه، وهو الذى يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير. فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه، وانقطع بكتلته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه. ومن خافه واتقاه، آمنه مما يخاف ويحذر، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع^(١).

قوله: (قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار). قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾. [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

قوله: وقالها محمد عليه السلام حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

وذلك بعد مُنصرف قريش والأحزاب من أحد: بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكربة عليهم، فخرج النبي عليه السلام فى سبعين راكباً حتى انتهى إلى حمراء الأسد^(٢)، فلقى الله الرعب فى قلب أبى سفيان. فرجع إلى مكة بمن معه، ومر به ركب من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: فهل أنتم مبلغون محمداً عنى/ رسالة؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد جمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم. فمر الركب برسول الله عليه السلام وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان. فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»^(٣).

فى هاتين القصتين: فضل هذه الكلمة العظيمة، وأنها قولُ الخليلين عليهما السلام، فى الشدائد.

وجاء فى الحديث «إذا وقعت فى الأمر العظيم، فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»^(٤).

(١) ينظر: ابن القيم «طريق الهجرتين» (٣٣١).

(٢) موضع على ثمانية أميال من المدينة «معجم البلدان» لياقوت الحموى (٣٠١/٢).

(٣) أخرجه الطبرى فى «التفسير» رقم (٨٢٤٣) فى سياق طويل، عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو

بن حزم.

(٤) أخرجه ابن مردويه فى «التفسير» كما فى «تفسير ابن كثير» (١٤٨/٢) وقال: هذا حديث غريب من هذا

الوجه.

(٣٣)

باب

قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾. [الأعراف: ٩٩].

ش: قصد المصنف رحمه الله تعالى بهذه الآية: التنبيه على أن الأمن من مكر
الله من أعظم الذنوب، وأنه ينافي كمال التوحيد، كما أن القنوط من رحمة الله
كذلك. وذلك يُرشد إلى أن المؤمن يسيرُ إلى الله بين الخوف والرجاء؛ كما دلَّ
على ذلك الكتابُ والسُّنة، وأرشد إليه السلف والأئمة.

ومعنى الآية: أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذِّبين للرسُل،
بيَّن أن الذي حملهم على ذلك، هو الأمن من مكر الله، وعدم الخوف منه؛ كما
قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمِنَ أَهْلُ
الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا
الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾. [الأعراف: ٩٦ - ٩٨] أى: الهالكون.

وذلك أنهم آمنوا مكر الله؛ لما استدرجهم بالسراء والنَّعيم، فاستبعدوا أن يكون
ذلك مكرًا.

قال الحسن: من وسَّع الله عليه، فلم ير أنه يمكر به، فلا رأى له!
وقال قتادة: بَغَتْ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قطُّ إلا عند سَلَوَتِهِمْ
وغرَّتْهُمْ ونعمتْهُمْ. فلا تغتروا بالله^(١).

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٥٠٥/٣).

وفى الحديث: «إذا رأيت الله يُعطى العبد من الدنيا وهو مُقيمٌ على معاصيه ما يُحبُّ، فإنما هو استدراج». رواه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم^(١).

وقال إسماعيلُ بن رافع^(٢): من الأمن من مكر الله: إقامةُ العبد على الذنب، يتمنى على الله المغفرة. رواه ابنُ أبي حاتم^(٣).

وهذا هو تفسيرُ المكر فى قول بعض السلف: يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويُملئ لهم، ثم يأخذهم أخذَ عزيزٍ مُقتدر. وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك. ذكره ابنُ جرير بمعناه^(٤).

[١٢٧/ب] قال المصنفُ رحمه الله تعالى: وقوله: / «وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ». [الحجر: ٥٦].

ش: [القنوط: استبعادُ الفرَج، واليأسُ منه. وهو يقابلُ الأمنَ من مكر الله، وكلاهما ذنبٌ عظيم]^(٥). وتقدم ما فيه؛ لمنافاته لكمال التوحيد.

وذكر المصنفُ رحمه الله، هذه الآية مع التى قبلها؛ تنبيهاً على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته، بل يكون خائفاً راجياً، يخاف ذنوبه، ويعمل بطاعة الله، ويرجو رحمته؛ كما قال تعالى: «أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ». [الزمر: ٩] وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». [البقرة: ٢١٨].

فالرجاءُ مع المعصية وتركِ الطاعة غرورٌ من الشيطان؛ ليوقع العبدَ فى المخاوف مع ترك الأسبابِ المنجية من المهالك. بخلاف حال أهلِ الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفاً من الله، وهرباً من عقابه، وطمعاً فى المغفرة، والرجاء لشوابه.

(١) أحمد فى «المُسند» (١٤٥/٤) وفى «الزهد» (١٢) وابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٣٢٤١، ١٣٢٤٠).

وابن أبي حاتم فى «التفسير» وهو حديثٌ حسن، كما قال العراقى فى «تخريج الأحياء» (١٣٢/٤).

(٢) أبو رافع بن عُويمr الاتصارى المدنى، ضعيف الحفظ. (ت ١٥٠ هـ) «تقريب» (١٠٧).

(٣) ابن أبي حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٥٠٧/٣).

(٤) «تفسير الطبرى» (١٢/٥٧٩).

(٥) ساقطٌ من الاصل.

والمعنى: أن الله تعالى حكى قولَ خليله إبراهيم عليه السلام، لما بشرته الملائكةُ بابنه إسحاق: ﴿قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾. [الحجر: ٥٤]؛ لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنهُ وسنُ زوجته، استبعد أن يولد له منها. والله على كل شيء قدير، فقالت الملائكة: ﴿بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الذى لا ريب فيه؛ فإنَّ الله إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كُنْ فيكون ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ أى: من الآيسين، فقال عليه السلام: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ فإنه يعلم من قدرة الله وحكمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم؛ لكنه - والله أعلم - قال ذلك على وجه التعجب.

قوله: ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون؛ كقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾. [يوسف: ٨٧].

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من رَوْحِ الله، والأمن من مكرِ الله».

ش: هذا الحديث رواه البزار، وابن أبي حاتم^(١)، من طريق شبيب بن بشر^(٢)، عن عكرمة، عن ابن عباس. ورجاله ثقات، إلا شبيب بن بشر. فقال ابن معين: ثقة. وليّنه أبو حاتم^(٣). وقال ابن كثير: فى إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً^(٤).

قوله: «الشرك بالله» هو أكبر الكبائر. قال ابن القيم رحمه الله: الشرك بالله [١/١٢٨] هضمٌ للربوبية، وتنقُصٌ للإلهية، وسوءٌ ظنٌ برب العالمين. انتهى.

ولقد صدق ونصح؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

(١) البزار فى «المسند» رقم (١٠٦)، وابن أبى حاتم فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (١٤٧/٢) وقال: إسناده حسن.

(٢) أبو بشر البجلي الكوفي، صدوق يخطئ. «تقريب» (٢٦٣).

(٣) ينظر: ابن حجر، «تهذيب التهذيب» (٣٠٦/٤).

(٤) ابن كثير، «التفسير» (٢٤٣/٢).

قوله: «والْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ» أى: قطعُ الرجاءِ والأملِ من الله، فيما يخافُه ويرجوه؛ وذلك إساءةً ظَنَّ بالله، وجهلٌ به وبسعةِ رحمته وجوده ومغفرته.

قوله: «والْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ» أى: من استدراجِه للعبد، وسلبه ما أعطاه من الإيمان، نعوذُ بالله من ذلك. وذلك جهلٌ بالله وبقدرته، وثقةٌ بالنفس وعُجبٌ بها.

واعلم أنَّ هذا الحديث لم يُرد به حَصْرُ الكبائرِ في الثلاث، بل الكبائرُ كثيرة. وهذه الثلاثُ من أكبر الكبائرِ المذكورة في الكتاب والسنة، وضابطها:

ماقاله المحققون من العلماء: كلُّ ذنبٍ ختمه الله بنارٍ أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخُ الإسلام ابن تيمية: أو نفى الإيمان^(١).

قلتُ: ومن برىء منه رسولُ الله ﷺ، أو قال: ليس متاً من فعل كذا وكذا. وعن ابن عباس: هى إلى سبعمئة أقرب منها إلى سبع، غيرَ أنَّه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار^(٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود، قال: أكبرُ الكبائرِ: الإشراكُ بالله، والأمنُ من مكرِ الله والقنوط من رحمة الله، واليأسُ من رَوْحِ الله. رواه عبدُ الرزاق^(٣).

ش: ورواه ابنُ جرير، بأسانيدٍ صحاح، عن ابن مسعود^(٤).
قوله: (أكبرُ الكبائرِ: الإشراكُ بالله). أى: فى ربوبيته أو عبادته. وهذا بالإجماع.

قوله: (والقنوطُ من رحمة الله). قال أبو السعادات: هو أشدُّ اليأس^(٥).
وفيه: التنبيهُ على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس، بل يرجو رحمة الله.

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٦٥٢/١١).

(٢) أخرجه اللالكائى فى «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٩١٩).

(٣) عبد الرزاق فى «المصنف» (٤٥٩/١٠).

(٤) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (٩١٩٠، ٩١٩٣، ٩١٩٦).

(٥) ابن الأثير، «النهاية» (١١٣/٤).

وكان السلفُ يستحبُّون أن يقوى في الصحة الخوفُ، وفي المرض الرجاء، وهذه طريقةُ أبي سليمان الداراني^(١) وغيره.

قال: وينبغي للقلب أن يكون الغالبُ عليه الخوف، فإذا غلب الرجاءُ الخوفُ فسد القلب^(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

[الملك: ١٢] وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾. [النور: ٣٧]

وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ/ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ [١٢٨/ب]

يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾. [المؤمنون: ٦٠ - ٦١] وقال: ﴿أَمِنْ هُوَ

قَانَتْ آَنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ﴾. [الآية الزُّمر: ٩]

وقدَّم الحذرَ على الرجاء في هذه الآية.

(١) عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني العنسي، من كبار الصوفية. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه

الله تعالى في «الاستقامة» (٩٥/٢): من أجلاء المشايخ وساداتهم، ومن أتبعهم للشرعية. (ت ٢١٥هـ)

«تاريخ بغداد» (٢٤٨/١٠).

(٢) سليمان بن عبد الله، «تفسير العزيز الحميد» (٥١١).

(٣٤)

باب

من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابٌ من الإيمان بالله: الصبرُ على أقدار الله .
ش: قال الإمامُ أحمدُ رحمه الله: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من كتابه^(١). وفي الحديث الصحيح «الصبرُ ضياءٌ». رواه أحمدُ، ومُسلم^(٢).
وللبخارى، ومسلم، مرفوعاً «ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»^(٣).
وقال عُمر: وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر. رواه البخارى^(٤).
قال علي: إنّ الصبر من الإيمان، بمنزلة الرأس من الجسد. ثم رفع صوته، فقال: ألا إنّه لا إيمان لمن لا صبر له^(٥).
واشتقاقه: من صَبَرَ: إذا حَبَسَ ومنع. والصبرُ حبس النفس عن الجزع، وحبسُ اللسان عن التشكى والتسخط، والجوارح عن لطم الحدود وشقّ الجيوب، ونحوهما. ذكره ابنُ القيم^(٦).
واعلم أنّ الصبر ثلاثة أقسام: صبرٌ على ما أمر الله به، وصبرٌ عما نهى عنه، وصبرٌ على ما قدره الله من المصائب.

(١) نقله ابن القيم في «ملاّرج السالكين» (١٥٢/٢).

(٢) أحمد في «المسند» (٣٤٣/٥ و ٣٤٤) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري.

(٣) البخارى في «الصحيح» رقم (١٤٦٩، ٦٤٧٠)، ومسلم في «الصحيح» رقم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد.

(٤) البخارى في «الصحيح» تعليقا (٣٠٣/١١) ووصله أحمد في كتاب «الزهد» (٢٧/٢) بسند صحيح كما قال ابن حجر في «الفتح» (٣٠٣/١١).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبه في «كتاب الإيمان» رقم (١٣٠) واللالكائى في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٥٦٩)، والبيهقى في «شعب الإيمان» رقم (١٠).

(٦) ابن القيم «ملاّرج السالكين» (١٥٦/٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. [التغابن: ١١].

ش: وأوّلُ الآية: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [قال ابنُ عباس: بأمر الله. يعنى عن قَدَرِهِ ومشِيَّتِهِ. (١) (٢) أى: بمشيئته وإرادته وحكمته؛ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. [الحديد: ٢٢] وقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾. [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أى: مَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فعلم أنها بقضاء الله وقَدَرِهِ (٣) فصبر واحتسب، جازاه الله بهدائه قلبه التى هى أصلُ كُلِّ سعادة، وخير فى الدنيا والآخرة وقد يخلفُ الله عليه فى الدنيا ما كان أخذه، أو خيراً منه (٤).

قوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تنبيهٌ على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته. وذلك يوجب الصبر والرضا.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: قال علقمة: هو الرجلُ تُصِيبُهُ المصيبةُ فيعلمُ أنّها [١/١٢٩] من عند الله، فيرضى ويُسلم.

ش: هذا الأثر، رواه ابنُ جرير، وابنُ أبى حاتم (٥).

وعلقمة: هو ابنُ قيس بن عبد الله النخعى الكوفى. وُلِدَ فى حياة النبى ﷺ، وسمع من أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وسعد، وابن مسعود، وعائشة، وغيرهم وهو من كبار التابعين، وعلمائهم وثقاتهم. مات بعد الستين (٦).

(١) ما بينهما معلقٌ فى هامش الأصل. وعليه كلمة صح، وفى (غ) و(هـ) و(ط) ألحتم فى غير موضعه.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١٦٣/٨).

(٣) (هـ) (ط): بقدر الله.

(٤) «تفسير ابن كثير» (١٦٣/٨).

(٥) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٢٣/٢٨) وابن أبى حاتم فى «التفسير» كما فى «تفسير ابن كثير» (١٦٣/٨).

(٦) ابن حجر، «تهذيب التهذيب» (٢٧٦/٧).

قوله: (هو الرجل تُصيبه المصيبة). إلى آخره: هذا الأثرُ رواه الأعمش، عن أبي ظبيان، قال: كُنَّا عند علقمة، فقرأَ عليه هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فقال: هو الرجل تُصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم. هذا سياقُ ابن جرير.

وفى هذا دليلٌ: على أنَّ الأعمال من مُسمَّى الإيمان. قال سعيدُ بن جبیر ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعنى يسترجع، يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون^(١).

وفى الآية: بيانٌ أنَّ الصبر سببٌ لهداية القلب، وأنها من ثواب الصابر. قال المصنّف رحمه الله تعالى: وفى (صحيح مسلم)، عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اثنان فى الناس هما بهم كفرٌ: الطعن فى النسب، والنياحة على الميت»^(٢).

ش: أى: هما بالناس كفرٌ؛ حيث كانتا من أعمال الجاهلية. وهما قائمتان بالناس، ولا يسلم منهما إلا من سلّمه الله، ورزقه علماً وإيماناً يستضىء به.

لكن ليس من قام به شعبةٌ من شعب الكفر، يصير كافراً الكفر المطلق. كما أنه ليس من قام به شعبةٌ من شعب الإيمان، يصير مؤمناً الإيمان المطلق.

وفرقٌ بين الكفر المعروف باللام؛ كما فى قوله: «ليس بين العبد وبين الكُفر أو الشرك إلا ترك الصلاة»^(٣) وبين كُفرٍ مُنكَرٍ فى الإثبات^(٤).

قوله: «الطعن فى النسب» أى: عيبه، ويدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان، مع ثبوت نسبه شرعاً.

قوله: «والنياحة على الميت» أى: رفعُ الصوت بالندب، وتعداد فضائله؛ لما فيه من التأسخط على القدر، المنافى للصبر، كقول النائحة: واعضدْه، واناصرْه، ونحو ذلك.

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/١٦٤).

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (٦٧).

(٣) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٨٢) من حديث جابر.

(٤) ابن تيمية، (اقتضاء الصراط المستقيم) (١/٢٠٨).

وفيه: دليلٌ على أنَّ الصبر واجب، وأنَّ من الكفر ما لا ينقل عن الملة.
قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولهما عن ابن مسعود، مرفوعاً: «ليس مِنّا من ضرب الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»^(١).

ش: هذا من نصوص الوعيد. وقد جاء عن سفيان الثوري، وأحمد: كراهة تأويلها؛ ليكون أوقع في النفوس، وأبلغ في الزجر، وهو يدلُّ على أنَّ ذلك يُنافي كمال الإيمان الواجب.

قوله: «من ضرب الخدود» قال الحافظ: خُصَّ الخدُّ لكونه الغالب، وإلا فضربُ بقية الوجه مثله^(٢).

قوله: «وشقَّ الجيوب» هو الذي يُدخل فيه الرأسُ من الثوب/ وذلك من عادة أهل الجاهلية؛ حُزنًا على الميت.

قوله: «ودعا بدعوى الجاهلية» قال شيخ الإسلام: هو ندبُ الميت^(٣). وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور. وقال ابن القيم: الدعاء بدعوى الجاهلية، كالدعاء بالقبائل والعصبية، ومثله التعصُّب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعض على بعض، يدعو إلى ذلك، ويؤالي عليه ويُعادي. فكلُّ هذا من دعوى الجاهلية^(٤).

وعند ابن ماجه - وصححه ابن حبان - عن أبي أمامة: أنَّ رسول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشَّاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور^(٥).

وهذا يدلُّ على أنَّ هذه الأمور من الكبائر، وقد يُعفى عن الشيء اليسير من

(١) البخاري في «الصحيح» رقم (١٢٩٤، ١٢٩٧، ٣٥١٩) ومسلم في «الصحيح» رقم (١٠٣).

(٢) ابن حجر، «فتح الباري» (٣/١٦٤).

(٣) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٢٠٤).

(٤) وقد انتشر مثل هذا أو أكثر في عصرنا، وفرح أقوامٌ بما عندهم من العلم. فنسوا الجامعة الدينية والاخوة الإسلامية، واستنفذوا قواهم: في التميؤ والتزوير ونشِ الأخطاء، والانتصار للأهواء وزرع الضغينة والأحقاد، وترويج الأكاذيب والرمي بالظنون والتخرصات والحط على الدعاة، واستعداد الحكام وشق عصا المسلمين. فلم يستبقوا خيراً، ولا حفظوا ذمماً. فالله حسيهم، وهو الموعد ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٥) ابن ماجه في «السنن» رقم (١٥٨٤) وابن حبان في «الصحيح» (٥/٦٢)، وقال البوصيري في «مصابح الزجاجة» (١/٥٢١): هذا إسنادٌ صحيح.

ذلك إذا كان صدقاً، وليس على وجه النوح والتسخط. نص عليه أحمدُ رحمه الله^(١)؛ لما وقع لأبى بكر^(٢) وفاطمة رضى الله عنهما^(٣)، لما توفى رسول الله ﷺ^(٤).

وليس فى هذه الأحاديث ما يدلُّ على النهى عن البكاء؛ لما فى الصحيح: أنَّ رسول الله ﷺ لما مات ابنه إبراهيم، قال: «تدمعُ العينُ ويحزنُ القلبُ، ولا نقولُ إلا ما يرضى الربُّ، وإنا بك يا إبراهيمُ لمحزونون»^(٥).

وفى (الصحيحين)، عن أسامة بن زيد: أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبيٌّ فى الموت، فرُفِعَ إليه ونفسُهُ تَقَعَّقُ كأنها شَنٌّ. ففاضت عيناه، فقال سعدٌ: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمةٌ جعلها الله فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٦).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبةَ فى الدنيا، وإذا أراد بعبده الشرَّ أَمْسَكَ عنه بذنبه، حتى يُوافي به يوم القيامة».

ش: هذا الحديثُ: رواه الترمذى، والحاكم وحسنه الترمذى^(٧). وأخرجه الطبرانى، والحاكم، عن عبد الله بن مُغَفَّل^(٨)، وأخرجه ابن عدى، عن أبى هريرة^(٩)، والطبرانى عن عمار بن ياسر^(١٠).

(١) نقله الزركشى فى «شرح مختصر الخرقي» (٣٥٦/٢).

(٢) أخرجه أحمد فى «المسند» (٣١/٦) عن عائشة.

(٣) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٤٦٢).

(٤) قال الخطابى فى «غريب الحديث» (٦٤٩/١): فأما المراتى التى فيها ثناءٌ على الميت ودعاءٌ له، فغير مكروهة.

(٥) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١٣٠٣) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٣١٥) من حديث أنس، وأسماء بنت يزيد.

(٦) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٢٨٤، ٥٦٥٥، ٦٦٠٢، ٦٦٥٥، ٧٣٧٧، ٧٤٤٨) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٩٢٣).

(٧) الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٣٩٨) والحاكم فى «المستدرک» (٣٤٠/١).

(٨) الحاكم فى «المستدرک» (٣٤٩/١)، (٣٧٦/٤) والطبرانى كما فى «مجمع الزوائد» للهيثمى (١٩١/١٠).

(٩) ابن عدى فى «الكامل» (١١٩٢/٣).

(١٠) الطبرانى كما فى «مجمع الزوائد» للهيثمى (١٩٢/١٠). وقال: إسناده جيد.

قوله: «إذا أراد الله بعبد الخير عَجَلَ له العقوبة في الدنيا» أى: بصبَّ البلاء والمصائب عليه؛ لِمَا فرط من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنبٌ يوافي به [١٣٠/٢] يوم القيامة/ .

قال شيخ الإسلام: المصائبُ نعمة؛ لأنها مكفّرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر، فيثاب عليها. وتقتضى الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

فنفسُ البلاء يكفر الله به الخطايا، وهذا من أعظم النعم. فالمصائب رحمةٌ ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في أعظم مما كان قبل ذلك، فتكون شراً عليه من جهة ما أصابه في دينه؛ فإنَّ مَنْ الناس من إذا ابتلى بفقرٍ أو مرضٍ أو جوع، حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب، أو الكفر الظاهر أو ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضرراً في دينه. فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة [لا من جهة نفس المصيبة]^(١) كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة، كانت في حقه نعمةً دينية، فهي بعينها فعلُ الرب عز وجل رحمةٌ للخلق. والله تبارك وتعالى محمودٌ عليها.

فمن ابتلى فرزق الصبر، كان الصبرُ نعمة عليه في دينه، وحصل له بعدما كفر من خطايا رحمة، وحصل له بثناؤه على ربه صلاة ربه عليه، قال جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ وحصل له غفرانُ السيئات، ورفع الدرجات. فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك. انتهى ملخصاً^(٢).

قوله: «وإذا أراد بعبد الشرَّ أمسك عنه بذنبه» أى: أخر عنه العقوبة بذنبه «حتى يوافي» به يوم القيامة هو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً بحتى، مبنياً للفاعل.

قال العزيمى^(٣): أى: لا يُجاريه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفراً

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) ينظر: ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٤٨/١٠).

(٣) نور الدين، على بن أحمد بن محمد بن إبراهيم العزيمى، البولاقى، فقيه شافعى، له «السراج المنير» شرح «الجامع الصغير» و«الفوائد». مات سنة ١٠٧٠هـ. ينظر: كحالة «معجم المؤلفين» (٢٤/٧).

الذنوب وافيهما، فيستوفى ما يستحقه من العقاب^(١). وهذه الجملة هي آخر الحديث.

فأما قوله: وقال النبي ﷺ «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ» إلى آخره، فهو أول حديث آخر؛ لكن لما رواهما الترمذى بإسناد واحد، وصحابه واحد جعلهما المصنف كحديث واحد.

وفيه: التنبيه على حسن الرجاء، وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك؛ كما قال تعالى: «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ». [البقرة: ٢١٦]. [ب/١٣٠]

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقال النبي ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ». حسنه الترمذى^(٢).

ش: قال الترمذى: حدثنا قتيبة، حدثنا الليث، عن زيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس، وذكر الحديث السابق.

ثم قال: وبهذا الإسناد، عن النبي ﷺ، قال: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ» الحديث. ثم قال: وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

ورواه ابن ماجه^(٣)، ورواه الإمام أحمد، عن محمود بن لبيد، رفعه «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْماً ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزَعَ فَلَهُ الْجَزَعُ»^(٤) قال المنذرى: رواه ثقات^(٥).

قوله: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ» بكسر العين وفتح الظاء فيها. ويجوز ضمها مع سكون الظاء. أى: من كان ابتلاؤه أعظم كيفية وكمية. وقد يحتج بهذا الحديث من يقول: إِنَّ المصائب يُثاب عليها مع تكفير الخطايا.

(١) العزيزى «السراج المنير» (١/٨٨).

(٢) الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٣٩٨).

(٣) ابن ماجه فى «السنن» رقم (٤٠٢١).

(٤) أحمد فى «المسند» (٤٢٧/٥)، (٤٢٩).

(٥) «الترغيب والترهيب» (٤/٢٨٣) وبه قال: ابن حجر فى «فتح البارى» (١٠/١٠٨).

ورجح ابن القيم: أن ثوابها تكفيرُ الخطايا فقط، إلا إذا كانت سبباً لعملٍ صالح، كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار، فإنه حينئذ يُثاب على ما تولد منه. وعلى هذا، يُقال في معنى الحديث: إنَّ عظمَ الجزاء مع عظمِ البلاء إذا صبر واحتسب.

قوله: «وإنَّ الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم» ولهذا ورد في حديث سعد: سئل النبي ﷺ: أى الناس أشدَّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء»، ثم الأمثل فالأمثل؛ يُبتلى الرجلُ على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابَةٌ اشتدَّ بلاءُوه، وإن كان في دينه رقةٌ ابتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة». رواه الدارمي، وابن ماجه، والترمذي وصححه^(١).

وهذا الحديث ونحوه: من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبدُ أنَّ الأنبياء والاولياء يصيبهم البلاءُ في أنفسهم، الذي هو في الحقيقة رحمة [ولا يدفعه عنهم إلا الله]^(٢)، عرف أنَّهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً، فلأن لا يملكونه لغيرهم أولى وأحرى.

فيحرمُ قصدُهم، والرغبةُ إليهم في قضاء حاجةٍ أو تفريج كربة. وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين، من الأسرار والحكم والمصالح في العاقبة ما لا يُحصى.

قوله: «فمن رضى فله الرضا» أى: من الله تعالى. والرضا قد وصف الله به نفسه في مواضع من كتابه، كقوله: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ / تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. [البينة: ٨].

ومذهبُ السلف وأتباعهم من أهل السنة: إثباتُ الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ [على ما يليق بجلاله وعظمته]^(٣) إثباتاً بلا تمثيل، وتزويهاً بلا تعطيل. فإذا رضى الله تعالى عنه حصل له كلُّ خير، وسلم من كلِّ شر.

(١) الدارمي في «السنن» رقم (٢٧٨٦) وابن ماجه في «السنن» رقم (٤٠٢٣) والترمذي في «الجامع» رقم (٢٤٠٠).

(٢) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٣) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

والرضا: هو أن يُسلم العبدُ أمره إلى الله، ويُحسن الظنَّ به، ويرغبَ في ثوابه. وقد يجد لذلك راحةً وانسباطاً؛ محبةً لله وثقةً به؛ كما قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: إنَّ الله - بقطعه وعدله - جعل الرُّوحَ والفرحَ في اليقين والرضا، وجعل الهمَّ والحزنَ في الشكِّ والسخط^(١).

قوله: «ومن سخط» هو بكسر الخاء. قال أبو السعادات: السخطُ: الكراهية للشئ وعدم الرضا به^(٢). أى: من سخط على الله فيما دبره، فله السخط من الله، وكفى بذلك عقوبة.

وقد يُستدلُّ به على وجوب الرضا. وهو اختيار ابن عقيل. واختار القاضي عدم الوجوب، ورجَّحه شيخُ الإسلام، وابن القيم^(٣).

قال شيخُ الإسلام: ولم يجيء الأمرُ [به كما جاء الأمر]^(٤) بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه. قال: وأما ما يُروى: من لم يصبر على بلائى ولم يرض بقضائى، فليتخذ رياءً سواى.

فهذا إسرائيلى، لم يصح عن النبى ﷺ^(٥) ^(٦).

قال شيخُ الإسلام: وأعلى من ذلك - أى من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة، لما يرى من إنعام الله عليه بها. انتهى^(٧). والله أعلم.

(١) قطعة من أثر: أخرجه ابن أبى الدنيا فى «الرضا» رقم (٩٤) والبيهقى فى «شعب الإيمان» رقم (٢٠٥).

(٢) ابن الأثير، «النهاية» (٢/٣٥٠).

(٣) ابن القيم، «مدارج السالكين» (٢/١٧١، ١٨٤).

(٤) ساقط من الأصل.

(٥) وكذلك ما أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٢٢/٣٢٠) و«الصغير» (٢/٤٨) وأبو نعيم فى «أخبار أصبهان»

(٢٢٨/٢) والبيهقى فى «الشعب» رقم (١٩٦) من حديث أنس، مرفوعاً «من لم يرض بقضاء الله ويؤمن

بقدر الله فليتمس إلهاً غير الله» فقال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٧/٢٠٧): فيه سهيل بن أبى حزم.

وقال السمعانى فى «الأنساب» (٢/١١٣): هذا إسنادٌ مظلم، لا أصل له.

(٦) نقله ابن القيم فى «مدارج السالكين» (٢/١٧١).

(٧) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١١/٢٦٠).

(٣٥) باب ما جاء فى الرياء

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء فى الرياء.

ش: أى: من النهى والتحذير. قال الحافظ: هو مشتق من الرؤية، والمراد به: إظهارُ العبادة؛ لقصد رؤية الناس لها، فيحمدون صاحبها^(١).

والفرقُ بينه وبين السُّمعة: أنَّ الرياء لما يُرى من العمل، كالصلاة. والسمعة لما يُسمع كالقراءة والوعظ والذكر. ويدخل فى ذلك التحدثُ بما عمله.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. [الكهف: ١١٠].

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ أى: ليس لى من الربوبية ولا من الإلهية شىء، بل ذلك كله لله وحده لا شريك له، أوحاه إلى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أى: يخافه: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

قوله: ﴿أَحَدًا﴾ نكرة فى سياق النهى تعمّ، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة، والصالحين والأولياء، وغيرهم/.

[١٣١/ب]

قال شيخ الإسلام: أمّا اللقاء: فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمّن

(١) ابن حجر، «فتح البارى» (١١/٣٣٦).

المُعَايَنَةِ، وَقَالُوا: لِقَاءُ اللَّهِ، يَتَضَمَّنُ رُؤْيَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَذَكَرَ الْأَدْلَةُ عَلَى ذَلِكَ^(١).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْآيَةِ: أَيْ: كَمَا أَنَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ سِوَاهُ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. فَكَمَا تَفَرَّدَ بِالْإِلَهِيَّةِ، يَجِبُ أَنْ يُفَرَّدَ بِالْعِبَادَةِ، فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ: هُوَ الْخَالَصُ مِنَ الرِّيَاءِ، الْمُقَيَّدُ بِالسَّنَةِ. انْتَهَى^(٢).

وَفِي الْآيَةِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَصْلَ الدِّينِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ وَالْمُرْسَلِينَ قَبْلَهُ، هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾. [الأنبياء: ٢٥].

وَالْمُخَالَفُ لِهَذَا الْأَصْلِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَقْسَامٌ: إِمَّا طَاغُوتٌ يُنَارِعُ اللَّهُ فِي رَبوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى عِبَادَتِهِ، أَوْ طَاغُوتٌ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، أَوْ مُشْرِكٌ يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ أَوْ بَعْضُهَا، أَوْ شَاكٌ فِي التَّوْحِيدِ: أَهْوَى اقْتِرَابِ حَقٍّ، أَمْ يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ شَرِيكَاً فِي عِبَادَتِهِ؟ أَوْ جَاهِلٌ يَعْتَقِدُ أَنَّ الشَّرْكَ دِينٌ يَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ عَلَى أَكْثَرِ الْعَوَامِّ؛ لَجَهْلِهِمْ وَتَقْلِيدِهِمْ مَنْ قَبْلَهُمْ؛ لَمَّا اشْتَدَّتْ غُرْبَةُ الدِّينِ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ بِدِينِ الْمُرْسَلِينَ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، مَرْفُوعاً: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشَّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشَرِكُهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣).

ثُمَّ: قَوْلُهُ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي» أَيْ: مَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ غَيْرِي مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، تَرَكْتُهُ وَشَرِكُهُ.

وَلابن ماجه «فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ» وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ^(٤) قَالَ الطَّبْرِيُّ: الضَّمِيرُ الْمُنْصَوْبُ فِي قَوْلِهِ: «تَرَكْتُهُ» يَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْعَمَلِ.

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ: وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَمَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ أَقْسَامٌ: فَتَارَةً يَكُونُ رِيَاءً مُحْضًا كَحَالِ

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٤٨٨/٦).

(٢) ابن القيم، «الجواب الكافي» (١٣٦).

(٣) مسلم في «الصحیح» رقم (٢٩٨٥).

(٤) ابن ماجه في «السنن» رقم (٤٢٥٥). وَقَالَ الْبُوصَيْرِيُّ فِي «مَصْبَاحِ الزَّجَاجَةِ» (٢٩٥/٣): هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. [النساء: ١٤٢] وهذا الرياء المحض، لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام. وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج، وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها؛ فإن الإخلاص فيها عزيز. وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله [١/١٣٢] والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله، ويشاركه الرياء. فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه.

- وذكر أحاديث تدل على ذلك - منها: هذا الحديث، وحديث شداد بن أوس، مرفوعاً «مَنْ صَلَّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ قَسِيمٍ لِمَنْ أَشْرَكَ بِي، فَمَنْ أَشْرَكَ بِي شَيْئاً فَإِنَّ جِدَّةَ عَمَلِهِ وَقَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ لَشَرِيكِهِ الَّذِي أَشْرَكَ بِهِ. أَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ». رواه أحمد^(١).

- وذكر أحاديث في المعنى - ثم قال: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء، مثل أخذ أجره للخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة، أو التجارة، نقص بذلك أجر جهادهم، ولم يبطل بالكلية.

قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد: التاجر والمستاجر والمكاري، أجرهم على قدر ما يخلص من نيّاتهم في غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله، لا يخلط به غيره.

وقال أيضاً - فيمن يأخذ جُعلاً على الجهاد -: إذا لم يخرج لأجل الدراهم، فلا بأس. كأنه خرج لدينه، فإن أعطى شيئاً أخذه^(٢).

وروى عن عبد الله بن عمرو، قال: إذا أجمع أحدكم على الغزو، فعوضه الله رزقاً، فلا بأس بذلك. وأما إن أحدكم إن أعطى دراهم غزاً، وإن لم يعط دراهم لم يغز، فلا خير في ذلك.

(١) أحمد في «المستد» (٤/١٢٥، ٤/١٢٦).

(٢) ينظر: أبو داود «المسائل» (٢٥١)، وابن هانئ «المسائل» رقم (١٦٣٥)، ابن قدامة «المغنى» (١٣/١٦٣).

وروى عن مُجاهد، أَنَّهُ قال - فى حج الجمال وحج الأجير، وحج التاجر -:
هو تامٌ لا يُنقص من أجورهم شيء. أى: لأن قصدَهم الأصلى، كان هو الحج
دون التكبسب.

قال: وأما إن كان أصلُ العمل لله، ثم طرأ عليه نيّةُ الرياء: فإن كان خاطراً ثم
دفعه، فلا يضره بغير خلاف. وإن استرسل معه، فهل يُحيط عمله أم لا،
ويُجازى على أصل نيته؟ فى ذلك اختلافٌ بين العلماء من السلف، قد حكاه
الإمام أحمد، وابن جرير، ورجحاً أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يُجازى بنيته
الأولى، وهو مرويٌّ عن الحسن وغيره.

[فأما إذا عمل العمل لله خالصاً ثم ألقى الله له الثناء الحسن فى قلوب
المؤمنين بذلك، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك، لم يضره
ذلك] (١).

وفى هذا المعنى: جاء حديثُ أبى ذر، عن النبى ﷺ أَنَّهُ سئل عن الرجل،
[١٣٢/ب] يعمل العمل من الخير يحمده الناسُ / عليه، فقال: «تلك عاجلُ بُشرى المؤمن».
رواه مسلم (٢) انتهى ملخصاً (٣).

قلت: وقام هذا المقام يتبين فى شرح حديث أبى سعيد، إن شاء الله تعالى.
قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن أبى سعيد، مرفوعاً: «ألا أخبركم بما
هو أخوفُ عليكم عندى من المسيح الدجال؟» قالوا: بلى، قال:
«الشركُ الخفى: يقوم الرجلُ فيُصلّى فيُزينُ صلاته؛ لما يرى من نظر رجل».
رواه أحمد (٤).

ش: وروى ابنُ خزيمة فى (صحيحه)، عن محمود بن لبيد، قال: خرج
رسولُ الله ﷺ فقال: «أيها الناس، إياكم وشركُ السرائر» قالوا: يا رسول الله وما

(١) إضافة من «الجامع» وتيسير العزيز الحميد» يقتضيها السياق.

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٤٢).

(٣) ابن رجب، «جامعُ العلوم والحكم» (١/٧٩ - ٨٤). ط مؤسسة الرسالة

(٤) أحمد فى «المسند» (٣/٣٠)، وأخرجه ابن ماجه فى «السنن» رقم (٤٢٠٤) قال البوصيرى فى «مصابح

الزجاجة» (٣/٢٩٦): هذا إسنادٌ حسن.

شرك السرائر؟ قال: «يقوم الرجلُ فيصلي فيزيّن صلاته جاهداً لما يرى من نظر الرجل إليه، فذلك شرك السرائر»^(١).

قوله: (عن أبي سعيد). هو الخدرى. وتقدّم.

قوله: «الشرك الخفى» سمّاه خفياً؛ لأن صاحبه يُظهر أنّ عمله لله، وقد قصد غيره، أو شرّكه فيه بتزيين صلاته لأجله.

وعن شداد بن أوس، قال: كنّا نعدّ الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر. رواه ابنُ أبي الدنيا فى (كتاب الإخلاص)، وابنُ جرير فى (التهذيب)، والطبرانى، والحاكم وصححه^(٢).

وقال ابنُ القيم: وأمّا الشرك الأصغر^(٣)، فكيسر الرياء، والتصنّع للمخلوق والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، ومالى إلا الله وأنت، وأنا متوكّل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركاً أكبر، بحسب حال قائله ومقصده. انتهى^(٤).

ولا خلاف أنّ الإخلاص شرطٌ لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة؛ كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى، فى قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. [الملك: ٢] قال: أخلصه وأصوبه.

قيل: يا أبا على، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة^(٥).

(١) ابن خزيمة فى «الصحيح» رقم (٩٣٧)، بإسناد حسن، كما قال الذهبى فى «المهذب من سنن البيهقى» (٢/٢٦١).

(٢) ابن أبي الدنيا فى «كتاب الإخلاص» كما فى «الدر المشور» (٥/٤٧٠) والطبرانى فى «الكبير» رقم (٧١٦٠) والحاكم فى «المستدرک» (٤/٣٢٩) وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) وحدّه الضابط له: كل وسيلة وذريعة يُطرق منها إلى الشرك الأكبر، من الإرادات والأقوال والأفعال، التى لم تبلغ رتبة العبادة. «القول السديد» (٥٣).

(٤) ابن القيم، «مدارج السالكين» (١/٣٤٤).

(٥) نقله: ابن تيمية، «الاستقامة» (٢/٣٠٩)، وابن رجب، «جامع العلوم والحكم» (١/٧٢).

وفى الحديث من الفوائد: شفقةُ النبي ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأنَّ الرِّياءَ [١/١٣٣] أخوف/ على الصالحين من فتنة المسيح الدجال. فإذا كان النبي ﷺ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم، فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك، أصغره وأكبره.

(٣٦)

باب

من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا.

ش: فإن قيل: فما الفرق بين هذه الترجمة، وبين ترجمة الباب قبله؟

قلت: بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق، يجتمعان في مادة، وهو إذا أراد الإنسان بعمله التزيّن عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياءٌ كما تقدم بيّنه، كحال المنافقين. وهو أيضاً إرادةٌ للدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام.

وفارقه الرياء، بكونه عملٌ عملاً صالحاً، أراد به عَرَضاً من الدنيا، كمن يُجاهد ليأخذ مالا؛ كما في الحديث: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ»^(١) أو يُجاهد للمغنم، أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا^(٢) عن ابن عباس، وغيره من المفسرين في معنى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾^(٣). [هود: ١٥].

وأراد المصنّف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها: أن العمل لأجل الدنيا، شركٌ ينافي كمالَ التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال. وهو أعظم من الرياء؛ لأن مُريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثيرٍ من عمله، وأمّا الرِّياءُ فقد يعرض له في عملٍ دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمنُ يكون حذراً من هذا وهذا.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أولئك الذين ليس لهم في

(١) قطعة من حديث، سيأتي تخريجه قريباً.

(٢) العلامة المُجَدِّد، محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى.

(٣) سيأتي نصُّ كلامه بعد قليل.

الْآخِرَةَ إِلَّا النَّارُ وَحِيطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» . [هود: ١٥ - ١٦] .
 ش: قال ابن عباس: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» أى: ثوابها «وَزِينَتَهَا»
 أى: ما لها «نُوفٌ» نوَفَّرَ لهم ثواب أعمالهم، بالصحة والسرور فى المال والأهل
 والولد «وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخَسُونَ» لا ينقصون. ثم نسختها «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ
 عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ» . [الإسراء: ١٨] الآية^(١) رواه النَّحَّاسُ فى
 (ناسخه)^(٢) .

قوله: ثم نسختها، أى: قيدتها، فلم تبق الآية على إطلاقها.

وقال قتادة: يقول: من كانت الدنيا همُّه وطلبته ونيته، جازاه الله بحسناته فى
 الدنيا ثم يُفْضَى إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها جزاء. وأمَّا المؤمنُ فيُجَازَى
 بحسناته فى الدنيا، ويُنَابِ عليها فى الآخرة. ذكره ابن جرير بسنده^(٣) .

ثم ساق حديثَ أبى هريرة، عن ابن المبارك، عن حيوة بن شريح، قال:
 حَدَّثَنِي الْوَلِيدُ بْنُ أَبِي الْوَلِيدِ أَبُو عَثْمَانَ، أَنَّ عُقْبَةَ بْنَ مَسْلَمٍ حَدَّثَهُ، أَنَّ شُقَيْبَ بْنَ
 مَاتِعٍ^(٤) الْأَصْبَحِيَّ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ،
 فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: أَبُو هُرَيْرَةَ. فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ
 يُحَدِّثُ. فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلَا. قُلْتُ: أَنْشُدْكَ بِحَقٍّ وَبِحَقٍّ لَمَّا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ
 مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، عَقَلْتَهُ وَعَلِمْتَهُ. فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَفْعَلْ، لِأَحَدِثْكَ حَدِيثًا
 [١٣٣/ب] حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا الْبَيْتِ، مَا فِيهِ أَحَدٌ غَيْرِي/ وَغَيْرِهِ، ثُمَّ نَشَخَ^(٥) أَبُو
 هُرَيْرَةَ نَشْغَةً، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: لِأَحَدِثْكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا
 الْبَيْتِ، مَا فِيهِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرِهِ، ثُمَّ نَشَخَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى، ثُمَّ مَالَ خَارًا
 عَلَى وَجْهِهِ، وَاشْتَدَّ بِهِ طَوِيلًا! ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ
 تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، نَزَلَ إِلَى أَهْلِ الْقِيَامَةِ لِيُقْضَى بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ
 جَائِيَةٌ.

(١) (ط): الآيتين.

(٢) النَّحَّاسُ فى «النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ» (١٧٧).

(٣) «تفسير» ابن جرير الطبري رقم (١٨٠١٩).

(٤) ثَقَّةٌ مِنَ الثَّالِثَةِ، أَرْسَلَ حَدِيثًا فَذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ فى الصَّحَابَةِ خَطًا، مَاتَ فى خِلَافَةِ هِشَامٍ. «تقريب» (٢٦٨).

(٥) شَقَّ حَتَّى كَادَ يَغْشَى عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يُفْعَلُ ذَلِكَ تَشْوِيقًا أَوْ أَصْفًا. «القاموس»، (ترتيب) (٤/ ٣٧٥).

فأولُ مَنْ يدعو به رجلٌ جمع القرآن، ورجلٌ قُتل في سبيل الله، ورجلٌ كثيرُ المال. فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يارب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنتُ أقومُ آناءَ النهار. فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكةُ: كذبت! ويقول الله له: بل أردت أن يُقال فلانٌ قارئ، فقد قيل ذلك!.

ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يارب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصلُ الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكةُ: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يُقال فلانٌ جواد، فقد قيل ذلك!.

ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله، فيقال له: فبماذا قُلت؟ فيقول: أمرتُ بالجهاد في سبيلك، فقاتلتُ حتى قُلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكةُ كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يُقال: فلانٌ جرىء، وقد قيل ذلك!.

ثم ضرب رسولُ الله ﷺ على رُكبتي، فقال: «يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أولُ خلق الله تُسعر بهم النار يوم القيامة»^(١).

وقد سئل شيخنا المصنف رحمه الله تعالى، عن هذه الآية؟ فأجاب بما حاصله: ذُكر عن السلف فيها أنواعٌ مما يفعلُه الناسُ اليوم، ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك: العملُ الصالح، الذي يفعلُه كثيرٌ من الناس ابتغاءَ وجه الله: من صدقة وصلاة، وصلة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعلُه الإنسانُ أو يتركه خالصاً لله.

لكنه لا يُريد ثوابه في الآخرة، إنما يُريد أن يُجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعم عليهم، ولا همةَ له في طلب الجنة والهرب من النار. فهذا يُعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب. وهذا النوع، ذكره ابنُ عباس.

(١) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (١٨٠٢٨) وأصله في «صحيح مسلم» برقم (١٩٠٥).

[١٣٤/٢] النوع الثاني: وهو أكبر من الأول، / وأخوف، وهو الذى ذكره مجاهد فى الآية: أنها نزلت فيه، وهو أن يعمل أعمالاً صالحة^(١) ونيتُهُ رياءُ الناس، لا طلبَ ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالا، مثل أن يحج لمال يأخذه لا لله، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم. فقد ذكر أيضاً هذا النوع فى تفسير هذه الآية، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع كثيراً.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله، مُخلصاً فى ذلك لله وحده لا شريك له، لكنه على عملٍ يكفره كفراً يخرجُه عن الإسلام. مثل اليهود والنصارى، إذا عبدوا الله، أو تصدَّقوا أو صاموا ابتغاءَ وجه الله والدار الآخرة. ومثل كثير من هذه الأمة، الذين فيهم كفرٌ أو شركٌ أكبر، يخرجهم من الإسلام بالكلية، إذا أطاعوا الله طاعةً خالصة يُريدون بها ثوابَ الله فى الدار الآخرة، لكنَّهم على أعمال تُخرجهم من الإسلام، وتمنع قبول أعمالهم.

فهذا النوعُ أيضاً قد ذُكر فى هذه الآية، عن أنس بن مالك وغيره، وكان السلفُ يخافون منها.

قال بعضهم: لو أعلم أنَّ الله تقبَّل منى سجدةً واحدةً لتمنيت الموت؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢). [المائدة: ٢٧].

ثم قال: بقی أن يُقال: إذا عمل الرجلُ الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاءَ وجه الله، طالباً ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدنيا، مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا، كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما.

(١) ساقط من الأصل، وهو انتقالُ نظر.

(٢) أخرجه ابن عساکر، كما فى «الدر المنثور» (٥٧/٣) عن ابن عمر رضى الله عنهما.

وقد قال بعضهم: القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخُلص وأهل النار الخُلص، ويسكت عن صاحب الشائبين، وهو هذا وأمثاله. انتهى^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: في (الصحيح) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَسَ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعَسَ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعَسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رِضًى، وَأَنْ لَمْ يُعْطَ سَخَطٌ، تَعَسَ وَأَنْتَ كَسٌ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا أَنْتَقِشَ. طَوْبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسَهُ، مُغْبِرَةً قَدَمَاهُ. إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»^(٢).

[١٣٤/ب]

ش: قوله: (في الصحيح) أى: (صحيح البخارى).

قوله: «تَعَسَ» هو بكسر العين، ويجوز الفتح، أى: سقط، والمراد هنا: هلك. قاله الحافظ. وقال فى موضع آخر: وهو ضدُّ سَعَدَ أى: شقى^(٣). وقال أبو السعادات: يقال تعس يتعس. أى: عثر وانكبَّ لوجهه. وهو دعاءٌ عليه بالهلاك^(٤).

قوله: «عَبْدُ الدِّينَارِ» هو المعروف من الذهب، كالمثقال فى الوزن. رثته: درهمٌ وثمن درهم.

قوله: «تَعَسَ عَبْدُ الدَّرْهَمِ» وهو من الفضة، قدره الفقهاء بالشعير وزناً، وعندنا منه درهمٌ من ضربِ بنى أمية، وهو زنة خمسين حبة شعير وخمسا حبة. سمّاه عبداً له؛ لكونه هو المقصود بعمله. فكلُّ من توجه بقصده لغير الله، فقد جعله شريكاً لله فى عبوديته، كما هو حال الأكثر.

قوله: «تَعَسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ» قال أبو السعادات: هى ثوب خَزٌّ أو صوفٌ مُعَلَمٌ، وقيل: لا تُسَمَّى خَمِيصَةً إِلَّا أَنْ تَكُونَ سَوْدَاءَ مُعَلَّمَةٍ؛ وَتُجْمَعُ عَلَى خَمَائِصَ. والخميلة - بفتح الخاء المعجمة - قال أبو السعادات: ذات

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب، «كتاب الاستباط» (١٢٠ - ١٢٣).

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥).

(٣) ابن حجر، «فتح البارى» (١١/٢٥٤، ٨٢/٦).

(٤) ابن الأثير، «النهاية» (١/١٩٠).

الْحَمَل - ثِيَابٌ لَهَا حَمَلٌ مِنْ أَى شَيْءٍ كَانَ^(١).

قوله: «تعس وانتكس» قال الحافظ: هو بالمهملة، أى: عاوده المرض. وقال أبو السعادات: أى: انقلب على رأسه. وهو دعاءٌ عليه بالخيبة^(٢).

قال الطيبي: فيه الترقى بالدعاء عليه؛ لأنه إذا تعس، انكبَّ على وجهه. فإذا انتكس، انقلب على رأسه بعد أن سقط.

قوله: «وإذا شيك» أى أصابته شوكة «فلا انتقش» أى: فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش. قاله أبو السعادات^(٣).

والمراد: أن من كانت هذه حاله [فإنه يستحق أن يدعى عليه بما يسؤوه فى العواقب، ومن كانت هذه حاله]^(٤) فلا بد أن يجد أثر هذه الدعوات، من الوقوع فيما يضره فى عاجل دُنياء وآجل أخراه.

قال شيخ الإسلام: فسمَّاهُ النبي ﷺ عبدَ الدينار والدرهم، وعبدَ القطيفة وعبدَ الخميصة. وذكر فيه ما هو دعاءٌ بلفظ الخبر، وهو قوله: «تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» وهذه حال من إذا أصابه شرٌّ لم يخرج منه ولم يُفلح؛ لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلاص من المكروه.

وهذا حال من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه «إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ مُنِعَ سَخَطَ»؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ/ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾. [التوبة: ٥٨].

فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله. وهكذا حال من كان متعلقاً برياسة أو بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه. إن حصل له رضى، وإن لم يحصل له سخط. فهذا عبدٌ ما يهواه من ذلك، وهو رقيقٌ له؛ إذ الرقُّ والعبودية فى الحقيقة: هو رِقُّ القلب وعبوديته، فما استرقَّ القلب واستعبده فهو عبده.

(١) ابن الأثير، «النهاية» (٨١/٢).

(٢) ابن الأثير «المصدر السابق» (١١٥/٥).

(٣) ابن الأثير «المصدر السابق» (١٠٦/٥).

(٤) إضافة من (هـ) و(ط).

- إلى أن قال -: وهكذا أيضاً طالبُ المال، فإنَّ ذلك يستعبدهُ ويسترقُّه، وهذه الأمور نوعان:

فمنها: ما يحتاج إليه العبد، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه، ومنكحه ومسكنه، ونحو ذلك. فهذا يطلبه من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المالُ عنده يستعمله في حاجته: بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، من غير أن يستعبده فيكون هلوياً!

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي أن لا يُعلَّق قلبه بها. فإذا تعلَّق قلبه بها، صار مُستعبداً لها [وربما صار مستعبداً و]^(١) معتمداً على غير الله فيها. فلا يبقى معه حقيقةُ العبودية لله، ولا حقيقةُ التوكل عليه، بل فيه شعبةٌ من العبادة لغير الله، وشعبةٌ من التوكل على غير الله.

وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الحميلة» وهذا هو عبدُ لهذه الأمور، ولو طلبها من الله؛ فإنَّ الله إذا أعطاه إياها رضى، وإن منعه إياها سخط.

وإنما عبدُ الله: مَنْ يُرضيه ما يُرضى الله، ويُسخطه ما يسخط الله، ويُحبُّ ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغض الله ورسوله، ويوالى أولياء الله، ويعادى أعداء الله، فهذا الذى استكمل الإيمان. انتهى مُلخصاً^(٢).

قوله: «طوبى لعبد» قال أبو السعادات: طوبى، اسمُ الجنة، وقيل: هى شجرةٌ فيها^(٣).

ويؤيد هذا: ما روى ابنُ وهب - بسنده - عن أبى سعيد، قال رجلٌ: يا رسول الله وما طوبى؟ قال: «شجرةٌ فى الجنة مسيرة مائة سنة، ثيابُ أهل الجنة تخرج من أكمامها»^(٤).

ورواه الإمامُ أحمد: حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبدَ الله بن لهيعة، حدثنا

(١) ساقط من الأصل.

(٢) ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨٠ - ١٩٠).

(٣) ابن الأثير، «النهاية» (٣/ ١٤١).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري فى «التفسير» رقم (٢٠٣٩٥).

[١٣٥/ب] دَرَّاجُ أَبُو السَّمْحِ، أَنَّ أَبَا/ الْهَيْثَمِ حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طُوبَى لِمَنْ رَأَى وَأَمِنَ بِكَ. قَالَ: «طُوبَى لِمَنْ رَأَى وَأَمِنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرْنِي» قَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: «شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا»^(١). وَلَهُ شَوَاهِدٌ فِي (الصَّحِيحَيْنِ)^(٢) وَغَيْرِهَا^(٣).

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنْبَهٍ هَاهُنَا أَثَرًا غَرِيبًا عَجِيبًا. قَالَ وَهْبٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يُقَالُ لَهَا: طُوبَى، يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا: رَهْرَهَا رِيَاطٌ، وَوَرَقُهَا بُرُودٌ، وَقَضْبَانُهَا عَنَبٌ، وَبَطْحَاؤُهَا يَاقُوتٌ، وَتَرَابُهَا كَافُورٌ، وَوَحْلُهَا مَسْكٌ.

يُخْرَجُ مِنْ أَصْلِهَا أَنْهَارُ الْخَمْرِ وَاللَّيْنِ وَالْعَسَلِ، وَهِيَ مَجْلِسٌ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ. فَبَيْنَمَا هُمْ فِي مَجْلِسِهِمْ، إِذْ أَتَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ رَبِّهِمْ يَقُودُونَ نُجْلًا مَزْمُومَةً بِسُلَاسِلٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَجُوهُهَا كَالْمَصَاحِبِ مِنْ حُسْنِهَا، وَوَبَرُّهَا كَخَزْزُ الْمَرْعَزَى مِنْ لِينِهَا، عَلَيْهَا رِحَالٌ أَلْوَاحُهَا مِنْ يَاقُوتٍ، وَدَفُوفُهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَثِيَابُهَا مِنْ سُنْدُسٍ وَاسْتَبْرَقٍ، فَيَنِيخُونَهَا، وَيَقُولُونَ: إِنَّ رَبَّنَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ لِتُزَوِّدُوهُ وَتَسَلِّمُوا عَلَيْهِ، قَالَ: فَيَرْكَبُونَهَا.

قَالَ: فَهِيَ أَسْرَعُ مِنَ الطَّائِرِ، وَأَوْطَأُ مِنَ الْفَرَّاشِ. نُجْبًا مِنْ غَيْرِ مَهْنَةٍ، يَسِيرُ الرَّكَّابُ إِلَى جَنْبِ أَخِيهِ وَهُوَ يَكْلِمُهُ وَيُنَاجِيهِ، لَا تَصِيبُ أُذُنُ رَاحِلَةٍ مِنْهَا أُذُنُ صَاحِبَتِهَا، وَلَا تَرُكُ رَاحِلَةٌ تَرُكَ الْآخَرَى^(٤)، حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَةَ لَتَنْتَحِي عَنْ طَرِيقِهِمْ؛ لَثَلَا تُفَرِّقَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَخِيهِ.

قَالَ: فَيَأْتُونَ إِلَى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَيَسْفِرُ لَهُمْ عَنْ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَيْهِ، فَإِذَا رَأَوْهُ قَالُوا: االلَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمَنْكَ السَّلَامُ، وَحَقٌّ لَكَ الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ، قَالَ: فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَ ذَلِكَ: أَنَا السَّلَامُ وَمَنْى السَّلَامُ، وَعَلَيْكُمْ حَقَّتْ رَحْمَتِي وَمَحَبَّتِي، مَرْحَبًا بِعِبَادِي الَّذِينَ خَشَنُونِي بِالْغَيْبِ وَأَطَاعُوا أَمْرِي.

(١) أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٧١/٣).

(٢) الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ» رَقْم (٦٥٥٣) وَمُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ» رَقْم (٢٨٢٨).

(٣) أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٢٤٨/٥، ٢٥٧، ٢٦٤) وَابْنُ حِبَّانٍ فِي «الصَّحِيحِ» (١٧٨/٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي إِسْمَاعِيلَ، وَانْظُرْ «مَجْمَعَ الزَّوَائِدِ» (١٠/٦٦).

(٤) وَلَعَلَّ الصَّوَابَ: وَرَكَ، كَمَا نَبَّهَ إِلَيْهِ مُحَقِّقُ «تَفْسِيرِ» الطَّبْرِيِّ.

قال: فيقولون: ربنا إنا لم نعبدك حقَّ عبادتك، ولم نقدِّرك حقَّ قدرك، فأذن لنا بالسجود قدَّامك. قال: فيقول الله تعالى: إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دارُ ملكٍ ونعيم، وإنِّي قد رفعتُ عنكم نصب العبادة، فسلوني ما شئتم، فإنَّ لكل رجلٍ منكم أمنيته. فيسألونه، حتى إنَّ أقصرهم أمنيته/ ليقول: ربِّي، [١/١٣٦] تنافس أهلُ الدنيا في دنياهم فتضايقوا، رب فاتني مثل كلِّ شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا، فيقول الله تعالى: لقد قصرت بك [اليوم]^(١) أمنيَّتكَ، ولقد سألت دون منزلتك. هذا لك مني [وسأتحفك بمنزلتي]^(١)؛ لأنه ليس في عطائي نكد ولا قصر يد^(٢).

قال: ثم يقول: اعرضوا على عبادي ما لم تبلغ أمانيتهم، ولم يخطر لهم على بال. قال: فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيتهم التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم: براذين مُقرَّنة على كلِّ أربعة منها سريرٌ من ياقوته واحدة على كل سرير منها قُبَّةٌ من ذهب مُفرَّغة، في كلِّ قُبَّةٍ منها فرش من فرش الجنة مُظاهرة، في كل قُبَّةٍ منها جاريتان من الحور العين. على كلِّ جاريةٍ منهنَّ ثوبان من ثياب الجنة، وليس في الجنة لونٌ إلا وهو فيهما، ولا ريح طيبٌ إلا قد عبق بهما. ينفذ ضوءُ وجوههما غلظ القبة، حتى يظنَّ من يراها أنَّهما دونَ القبة. يرى مخَّهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء، يرى لهما من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل. ويرى لهما مثل ذلك. ثم يدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه، ويقولان له: والله ما ظننا أنَّ الله يخلقُ مثلك، ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفًّا في الجنة، حتى ينتهي كلُّ رجلٍ منهم إلى منزلته التي أُعدَّت له^(٣).

وقد روى هذا الأثر ابنُ أبي حاتم بسنده، عن وهب بن مُنبه، وزاد: فانظروا إلى مواهب ربِّكم الذي وهب لكم، فإذا بقبابٍ في الرفيق الأعلى، وغُرَفٍ مبنية من الدر والمرجان، وأبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندسٍ وإستبرق، ومنابرها من نور. يفور من

(١) إضافة من «التفسير».

(٢) (هـ) «والتفسير»: تصريد.

(٣) ابن جرير في «التفسير» (١٤٨/١٣).

أبوابها وعراصها نورٌ مثل شعاع الشمس، عنده مثل الكوكب الدرّى فى النهار المضى.

وإذا بقصور شامخة فى أعلى علّيين، من الياقوت يزوها نورها، فلولا أنه مُسَخَّرٌ إذا لالتمع الأبصار. فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض، فهو مفروشٌ بالحرير الأبيض. وما كان منها من الياقوت الأخضر، فهو مفروشٌ بالارجوان الأصفر. [١٣٦/ب] بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر، فهو مفروشٌ بالارجوان الأصفر. مُبَوَّبةٌ بالزمرد الأخضر، والذهب الأحمر، والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجواهر، وشرفها قبابٌ من لؤلؤ، وبروجها غرفٌ من المرجان.

فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم، قُرِبَتْ لهم براذينٌ من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح، تحتها الولدان المخلّدون، بيد كلٍّ وليدٌ منهم حَكَمَةٌ برزون من تلك البراذين، ولجمها وأعتتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت، سروجها سررٌ موضونة مفروشة بالسندس والاستبرق.

فانطلقت بهم تلك البراذين تزفُ بهم ينظروا رياض الجنة، فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور؛ ينتظرونهم ليزورهم ويصافحهم ويهنتوهم كرامة ربهم. فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وتمنوا، وإذا على كل باب قصرٌ من تلك القصور أربعة جنان: جنتان ذواتا أفنان، وجنتان مُدْهَمَتَان، وفيهما عينان نضّاختان، فيهما من كل فاكهة زوجان، وحوَرٌ مقصورات فى الخيام.

فلما تبوؤوا منازلهم، واستقروا قرارهم، قال لهم ربهم: فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قالوا: نَعَمْ وَرَبَّنَا. قال: هل رَضِيتُمْ ثَوَابَ رَبِّكُمْ؟ قالوا: رَبَّنَا رَضِينَا فَارِضَ عَنَا، قال: فَبِرِضَايَ عَنْكُمْ أَحَلَلْتُكُمْ دَارِي وَنَظَرْتُمْ إِلَى وَجْهِى، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿١﴾.

(١) ابن أبى حاتم فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (٦٤٧/٤) قال الحافظ بن كثير فى «النهاية» (٢/٥٢٠): وهذا مرسلٌ ضعيفٌ غريب، وأحسن أحواله أن يكون من كلام بعض السلف، فوهمه بعض رواته فحده مرفوعاً، وليس كذلك، والله أعلم.

[فاطر: ٣٤ - ٣٥]. وهذا سياقٌ غريب، وأثرٌ عجيب، ولبعضه شواهد في (الصحيحين)^(١).

وقال خالد بن معدان^(٢): إنَّ في الجنة شجرة يُقال لها: طُوبى، ضروعُ كُلِّها، تُرضعُ صبيانَ أهل الجنة، وإنَّ سَقَطَ المرأة يكون في نهرٍ من أنهار الجنة يتقلَّبُ فيه حتى تقوم القيامة، فيُبعث ابن أربعين سنة رواه ابنُ أبي حاتم^(٣).

قوله: «أخذ بعنان فرسه في سبيل الله» أي: في جهاد المشركين.

قوله: «أشعث» مجرورٌ بالفتحة؛ لأنه اسمٌ لا ينصرف للوصف ووزن الفعل، و«رأسه» مرفوعٌ على الفاعلية، وهو طائرُ الشعر، أشغله الجهادُ / في سبيل الله، [١/١٣٧] عن التمتع بالإذهان وتسريح الشعر.

قوله: «مغبرة قدماء» هو بالجر، صفة ثانية لعبد.

قوله: «إنَّ كان في الحراسة» هو بكسر الحاء، أي: حماية الجيش عن أن يهجم العدوُّ عليهم.

قوله: «كان في الحراسة» أي: غير مقصِّرٍ فيها ولا غافل، وهذا اللفظُ يُستعمل في حق من قام بالأمر على وجه الكمال.

قوله: «وإنَّ كان في السَّاقَة كان في السَّاقَة» أي: في مؤخرة الجيش، أي: يُقلَّب نفسه في مصالح الجهاد. فكلُّ مقامٍ يقوم فيه إنَّ كان ليلاً أو نهاراً؛ رغبةً في رضا الله، وطلباً لثوابه ومحبةً لطاعته.

قال ابنُ الجوزي: وهو خاملُ الذِّكر، لا يقصد السمو^(٤).

وقال الخليلي: المعنى: ائتماره لما أمر، وإقامته حيثُ أُقيم. لا يُفقد من مكانه، وإنَّما ذكر الحراسة والسَّاقَة لأنهما أشدُّ مشقة. انتهى. وفيه فضلُ الحراسة في سبيل الله.

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٣٨٠).

(٢) أبو عبد الله، الكلاعي الحمصي ثقةٌ عابد، يُرسل كثيراً (ت١٠٣هـ) «تقريب» (١٩٠).

(٣) ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٤/٦٤٥).

(٤) ينظر: ابن حجر «فتح الباري» (٦/٨٣).

قوله: «إن استأذن لم يؤذن له» أى: إذا استأذن على الأمراء ونحوهم، لم يأذنوا له؛ لأنه لا جاء له عندهم ولا منزلة؛ لأنه ليس من طلابها، وإنما يطلب ما عند الله، لا يقصد بعمله سواه.

قوله: «وإن شفع» بفتح أوله وثانيه. قوله: «لم يشفع» بفتح الفاء مشددة. يعنى: لو أُلجأته الحال إلى أن يشفع فى أمرٍ يحبه الله ورسوله، لم تُقبل شفاعته عند الأمراء ونحوهم!.

وروى الإمام أحمد، ومسلم، عن أبى هريرة، مرفوعاً «رُبَّ أشعث مدفوع بالابواب، لو أقسم على الله لأبره»^(١).

قال: الحافظ: فيه تركُ حبِّ الرياسة والشهرة، وفضلُ الخمول والتواضع. انتهى^(٢).

وروى الإمام أحمد أيضاً، عن مُصعب بن ثابت^(٣)، أن^(٤) عبد الله بن الزبير، قال: قال عثمان - وهو يخطب على منبره - : إني محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، لم يكن يمنعنى أن أحدثكم به إلا الضن بكم. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حَرَسُ لَيْلَةٍ فى سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ من أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَيَصَامُ نَهَارُهَا»^(٥).

وروى الحافظُ ابن عساكر - فى ترجمة عبد الله بن المبارك - قال عبدُ الله بن محمد، قاضى نصيبين^(٦): حدثنى محمد بن إبراهيم بن أبى سُكينة، أنه أَملى عليه عبدُ الله بن المبارك هذه الأبيات بطَرَسُوس^(٧)، ووعدته الخروج وأنفذها^(٨)

(١) أحمد فى «المسند» (١٢٨/٣، ١٦٧، ٢٨٤) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٢٢، ٢٨٥٤) واللفظ له.

(٢) ابن حجر، «فتح البارى» (٨٣/٦).

(٣) أبو عبد الله، مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدى، لين الحديث وكان عابداً (ت ١٥٧هـ) «تقريب» (٥٣٣).

(٤) (ض) (هـ) (ط): ابن. تحريف.

(٥) أحمد فى «المسند» (٦١/١، ٦٥) قال ابن حجر فى «الفتح» (٨٣/٦) إسناده حسن.

(٦) مدينة بين دجلة والفرات فى بلاد العراق، على جادة القوافل المتجهة من الموصل إلى الشام، فُتحت على يد سعد بن أبى وقاص فى عهد عمر سنة ١٧هـ «معجم البلدان» لياقوت الحموى (٢٨٨/٥).

(٧) مدينة بشفور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم، وتقع الآن ضمن دولة تركيا. «المصدر السابق» (٢٨/٤).

(٨) فى جميع النسخ: وأنشدها والمثبت من «تاريخ دمشق».

معه/ إلى الفضيل بن عياض، في سنة سبع وسبعين ومائة. قال: [١٣٧/ب]

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنجورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا	رهج السنايك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى وغبار خيل الله في	أنف أمرى ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال: فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأ ذرفت عيناه، فقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحنى، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم، قال لى:

اكتب هذا الحديث، وأملى على الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن رجلاً قال: يا رسول الله، علمنى عملاً أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله، فقال: «هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟» فقال: يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبى ﷺ: «فو الذى نفسى بيده لو طوقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين فى سبيل الله. أما علمت أن فرس المجاهد ليستن فى طوكه^(١) فيكتب له بذلك حسنات؟»^(٢) (٣).

(١) الطول: الحبل الطويل الذى يشد فى يد الفرسان، حتى لا تذهب «النهاية» (٣/١٤٥).

(٢) ابن عساکر «تاريخ دمشق» (٣٨/٣٥٤)، وانظر «سير أعلام النبلاء» (٨/٤١٢).

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٧٨٥).

(٣٧)

باب

من أطاع العلماء والأمرأ. فى تحريم ما أحل الله
أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابٌ من أطاع العلماء والأمرأ فى تحريم ما أحلّ الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله.

ش: لقول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. [التوبة: ٣١] وتقدّم تفسيرُ هذا فى أصل المصنف، لما ذكر حديثَ عدىّ بن حاتم رضى الله عنه^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقال ابنُ عباس: يُوشكُ أنْ تنزلَ عليكم حجارةٌ من السماء؛ أقول: قال رسولُ الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟^(٢).

ش: قوله: (يُوشك) بضم أوله وكسر الشين المُعجَمة، أى: يقرب ويسرع.

وهذا القولُ من ابنِ عباس/ رضى الله عنهما، جوابٌ لمن قال له: إنَّ أبا بكر [١/١٣٨] وعمر رضى الله عنهما لا يريان التمتعَ بالعمرة إلى الحج، ويريان أنْ إفرادَ الحجِّ أفضل، أو ما هو معنى هذا.

(١) فى باب: تفسير التوحيد وشهادة أنْ لا إله إلا الله. الباب الخامس.

(٢) أخرجه أحمد فى «المستد» رقم (٣١٢١) وأبو بكر الأثرم فى «السنن» كما فى «المغنى شرح مختصر الخرقي»

(٩١/٥)، وابن إسحاق كما فى «المطالب العالبة» (٣٦٠/١) والخطيب فى «الفيق والمفتق» (١٤٥/١) وابن

عبد البر فى «جامع بيان العلم» (١٦٩/٢) والفياء فى «المختارة» كما فى «الأداب» لابن مفلح (٦٦/٢) عن

سعيد بن جبیر. وله شاهدٌ من طريق عروة، أخرجه الطبرانى فى الأوسط كما فى «مجمع الزوائد»

(٢٣٤/٣) بإسناد حسن.

وكان ابنُ عباس يرى أنَّ التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، ويقول: إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، فقد حلَّ من عمرته شاء أم أبى؛ لحديث سُرَّاقة بن مالك، حين أمرهم النبي ﷺ أن يجعلوها عمرة، ويحلُّوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سُرَّاقة: يارسول الله، ألعاننا هذا أم للأبد؟ قال: «بل للأبد» والحديثُ في (الصحيحين) (١).

وحينئذ فلا عُذر لمن استفتى: أنَّ ينظر في مذاهب العلماء، وما استدلَّ به كلُّ إمام، ويأخذ من أقوالهم مادلَّ عليه الدليلُ، إذا كان له ملكةٌ يقتدر بها على ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. [النساء: ٥٩].

وللبخارى، ومسلم، وغيرهما: أنَّ النبي ﷺ قال: «لو استقبلتُ من أمرى ما استدبرت ما أهديت، ولولا أنَّ معى الهدى لأحللت» هذا لفظُ البخارى، فى حديث عائشة (٢).

ولفظه فى حديث جابر «افعلوا ما أمرتكم، فلولاً أنى سقتُ الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم» (٣) فى عدة أحاديث تؤيد قولَ ابن عباس.

وبالجملة: فلهذا قال ابنُ عباس - لما عارضوا الحديث برأى أبى بكر وعمر -: يوشك أن تنزل عليكم حجارةٌ من السماء. الحديث.

وقال الإمامُ الشافعى رحمه الله تعالى: أجمع العلماء على أنَّ من استبانت له سنةٌ رسول الله ﷺ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد (٤).

وقال الإمامُ مالك رحمه الله تعالى: ما منا إلا رادٌّ ومردود عليه، إلا أصحاب هذا القبر ﷺ (٥). وكلامُ الأئمة فى هذا المعنى كثير.

وما زال العلماءُ رحمهم الله يجتهدون فى الوقائع: فمَن أصاب منهم فله

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٧٨٥)، (٧٢٣٠) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٢١٦).

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٧٢٢٩) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٢١١).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٦٥١)، (١٧٨٥) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٢١٦)، (١٢١٨).

(٤) نقله ابن القيم فى «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٨٢).

(٥) ينظر ابن عبد البر «الجامع» (٢/ ٣٢).

أجران، ومن أخطأ فله أجر؛ كما في الحديث^(١).

لكن إذا استبان لهم الدليل، أخذوا به وتركوا اجتهادهم. وأما إذا لم يبلغهم الحديث، أو لم يثبت عن النبي ﷺ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارضٌ أو مُخصَّصٌ ونحو ذلك. فحيثُتذ، يسوغ للإمام / أن يجتهد.

[ب/١٣٨]

وفي عهد الأئمة الأربعة، إنما طلبوا الأحاديثَ ممن هي عنده، باللقى والسماع، ويسافر الرجلُ في طلب الحديث إلى الأمصار عدَّة سنين^(٢).

ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف، ودوّنوا الأحاديث ورووها بأسانيدها، وبيّنوا صحيحها من حسنها من ضعيفها. والفقهاء صنّفوا في كلّ مذهب، وذكرُوا حُجَجَ المجتهدين. فسهل الأمرُ على طالب العلم، وكلُّ إمام يذكر الحكمَ بدليله عنده.

وفي كلام ابن عباس رضي الله عنهما، ما يدلُّ على أن من بلغه الدليلُ فلم يأخذ به - تقليداً لإمامه - فإنه يجب الإنكارُ عليه بالتغليظ؛ لمخالفته الدليل.

وقال الإمامُ أحمد: حدّثنا أحمد بن عمرو البزار، حدّثنا زياد بن أيوب، حدّثنا أبو عبيدة الحداد، عن مالك بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ليس منا أحدٌ إلا يؤخذ من قوله ويدع، غير النبي ﷺ^(٣).

وعلى هذا: فيجب الإنكارُ على من ترك الدليلَ لقول أحدٍ من العلماء، كائنًا من كان. ونصوصُ الأئمة على هذا، وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي لا دليل فيها يُرجع إليه من كتاب ولا سنة. فهذا هو الذي عناه بعضُ العلماء بقوله: لا إنكار في مسائل الاجتهاد^(٤).

وأما ما خالف الكتاب والسنة: فيجب الردُّ عليه؛ كما قال ابنُ عباس، والشافعي، ومالك، وأحمد. وذلك مجمعٌ عليه، كما تقدّم في كلام الإمام الشافعي رحمه الله تعالى.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٧٣٥٢) ومسلم في «الصحيح» رقم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص.

(٢) ينظر: الخطيب البغدادي «الرحلة في طلب الحديث» (٨١، ١٠٩)، وما بعدها.

(٣) لم أجده في شيء من كتب أحمد المطبوعة، وأخرج نحوه أبو نُعيم في «الحلية» (٣٠٠/٣) والخطيب البغدادي في «الفتاوى والمنقحة» (١٧٦/١) وابن عبد البر في «الجامع» (٩١/٢) عن مجاهد.

(٤) ينظر الكلام حول هذه المسألة في كتاب «إتمام المنّة والنعمّة في ذم اختلاف الأئمّة» لتجل المؤلف.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقال الإمام أحمد: عجبتُ لقوم عرفوا الإسنادَ وصحّته، يذهبون إلى رأى سفيان. والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. [النور: ٦٣] أتدرى ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك. لعلّه إذا ردّ بعضَ قوله، أن يقع في قلبه شيءٌ من الزيج فيهلك.

ش: هذا الكلامُ من الإمام أحمد، رواه عنه الفضلُ بن زياد^(١)، وأبو طالب^(٢). قال الفضل، عن أحمد: نظرتُ في المصحف، فوجدتُ طاعةَ الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

[١/١٣٩] فذكر من قوله: الفتنة: الشرك، إلى قوله: فيهلك. ثم جعل يتلو هذه الآية/ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٣). [النساء: ٦٥].

وقال أبو طالب - عن أحمد - وقيل له: إنَّ قوماً يدعون الحديث، ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره، [فقال: أعجبُ لقوم سمعوا الحديث، وعرفوا الإسناد وصحّته يدعونه، يذهبون إلى رأى سفيان وغيره]^(٤)، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أتدرى ما الفتنة؟ الفتنة: الكفر. قال الله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾. [البقرة: ٢١٧] فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ: وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأى. ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام.

قوله: (عرفوا الإسناد). أى: إسناد الحديث وصحته، فإذا صح إسنادُ الحديث، فهو صحيحٌ عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء.

وسفيان: هو الثوري، الإمامُ الزاهد، العابدُ الثقةُ الفقيه، وكان له أصحابٌ

(١) أبو العباس الفطان، من أصحاب أحمد، ومن أكثروا الرواية عنه «تاريخ بغداد» (١٢/٢٦٣).

(٢) أحمد بن حُميد المشكاني، متخصصٌ بصحبة أحمد، وكان يكرمه ويعظمه (ت ٢٤٤هـ) «طبقات الحنابلة» (٣٩/١).

(٣) أخرجه عبيد الله بن بطة في «الابانة الكبرى» رقم (٩٧) وينظر «مسائل عبد الله» (٣/١٣٥٥).

(٤) ساقط من الأصل. وهو انتقال نظر.

يأخذون عنه. ومذهبه مشهور، يذكره العلماء في الكتب التي يذكر فيها مذاهب الأئمة، كـ: (التمهيد) لابن عبد البر^(١)، و(الاستذكار) له^(٢)، وكتاب (الإشراف على مذاهب الأشراف) لابن المنذر^(٣)، و(المحلى) لابن حزم^(٤)، و(المغنى) لأبي محمد، عبد الله بن أحمد بن قدامة الحنبلي^(٥)، وغير هؤلاء.

فقول الإمام أحمد رحمه الله: (عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته) إلى آخره، إنكار منه لذلك، وأنه يؤول إلى ريغ القلوب، الذي يكون به المرء كافراً.

وقد عمت البلوى بهذا المنكر، خصوصاً ممن ينتسب إلى العلم. نصبوا الحبائل في الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصدوا الناس عن متابعة النبي ﷺ وتعظيم أمره ونهيه.

فمن ذلك قولهم: لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انقطع. ويقول: هذا الذي قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال، التي غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ. وغيره من الأئمة يخالفه ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا والذي معه بعض العلم لا كله.

فالواجب على كل مكلف، إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك: أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه؛ كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. / [١٣٩/ب] [الأعراف: ٣] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. [العنكبوت: ٥١].

(١) طبع كاملاً.

(٢) طبع منه مجلدان فقط.

(٣) طبع منه المجلد الرابع.

(٤) مطبوع منذ سنوات، بتحقيق العلامة أحمد شاكر.

(٥) طبع طبعات كثيرة، آخرها وأجودها بتحقيق الأستاذ الدكتور عبدالله التركي والدكتور عبد الفتاح الحلو، وقد اكتمل الآن والحمد لله.

وقد تقدّم حكاية الإجماع على ذلك؛ وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكى أيضاً أبو عمر بن عبد البر وغيره الإجماع على ذلك.

قلت: ولا يخالف في ذلك إلا جهال المقلدة، لجهلهم بالكتاب والسنة، ورغبتهم عنهما. وهؤلاء وإن ظنوا أنهم اتبعوا الأئمة، فإنهم في الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غير سبيلهم؛ كما قدّمنا من قول مالك، والشافعي، وأحمد.

لكن في كلام أحمد رحمه الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم، وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفها، لقول إمام من الأئمة؛ وذلك إنما نشأ عن الإعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله، والإقبال على كتب من تأخر، والاستغناء بها عن الوحيين. وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب، الذين قال الله فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] كما سيأتي بيان ذلك، في حديث عدي بن حاتم.

فيجب على من نصح نفسه: إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها، وعرف أقوالهم، فليعرضها على ما في الكتاب والسنة؛ فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه، لا بد أن يذكر دليله.

والحق في المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم. فالمنصف يجعل النظر في كلامهم وتأمله، طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهنًا، وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التي يذكرها المستدلون، ويتعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه.

والأدلة على هذا الأصل في كتاب الله أكثر من أن تحصر، وفي السنة كذلك؛ كما أخرج أبو داود بسنده، عن أناس من أصحاب معاذ: أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن، قال: «كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟» قال: أقضى بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: «فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟» قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله» وساق بسنده، عن الحارث بن عمر، عن أناس

من أصحاب معاذ، عن معاذ بن جبل: أَنَّ رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن -
بمعناه^(١).

والأئمة رحمهم الله، لم يُقَصِّروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانَت
السنة؛ لعلمهم أَنَّ من العلم شيئاً لم يعلموه، وقد يبلغ غيرهم، وذلك كثير، كما
لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء.

قال أبو حنيفة: إذا جاء الحديثُ عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا
جاء عن الصحابة رضى الله عنهم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين
فنحن رجالٌ وهم رجالٌ!

وقال: إذا قلتُ قولاً وكتاب الله يخالفه، فاتركوا قولى لكتاب الله. قيل: إذا كان
قول الرسول ﷺ يخالفه؟ قال: اتركوا قولى لخبر الرسول ﷺ. وقيل: إذا كان
قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولى لقول الصحابة^(٢).

وقال الربيع: سمعتُ الشافعى يقول: إذا وجدتم في كتابى خلافَ سنة رسول
الله ﷺ، فخذوا سنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت.

وقال: إذا صح الحديثُ بما يخالف قولى، فاضربوا بقولى الحائط^(٣)!

وقال مالك: كلُّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ.

وتقدم له مثلُ ذلك، فلا عذر لمقلِّد بعد هذا. ولو استقصينا كلامَ العلماء في
هذا لخرج بنا عما قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفايةً لطالب الهدى.

قوله: (لعلَّه إذا ردَّ بعضَ قوله - أى: قول الرسول ﷺ - أن يقع في قلبه شيءٌ
من الزيف فيهلك).

نَبَّهَ رحمه الله أن رد قول الرسول ﷺ سببٌ لزيف القلب، وذلك هو الهلاكُ في
الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ﴾. [الصف: ٥].

(١) أبو داود في «السنن» رقم (٣٥٩٢، ٣٥٩٣). وقال ابن حجر في «التلخيص» (٤/ ١٨٢): إسناده ضعيف،
لجهالة أصحاب معاذ.

(٢) ذكرهما القلاوى في «إيقاظ همم أولى الابصار» (٥٠).

(٣) أخرجه البيهقى في «المنقب» (١/ ٤٧١).

قال شيخ الإسلام - في معنى قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ -: فإذا كان المخالفُ عن أمره قد حُدِّرَ من الكفر والشرك؛ أو من [١٤٠/ب] العذاب الاليم، دلَّ على أنه قد يكون مُفضياً إلى الكفر والعذاب الاليم. ومعلوم أن إفضاءً إلى العذاب هو مجرد فعل المعصية، وإفضاءً إلى الكفر إنما هو لما يقترب به من الاستخفاف في حق الأمر؛ كما فعل إبليس لعنه الله. انتهى.

وقال أبو جعفر بن جرير: عن الضحاك ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ قال: يُطَبَّعُ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يُؤْمَنُ أَنْ يُظْهَرَ الْكُفْرَ بِلِسَانِهِ فَتُضْرَبَ عُنُقُهُ.

قال أبو جعفر: أدخلت عن؛ لأن معنى الكلام: فلحذر الذي يلوذون عن أمره، ويُدبرون عنه معرضين^(١).

قوله: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ﴾ في عاجل الدنيا عذابٌ من الله مُوجع؛ على خلافهم أمر رسول الله ﷺ.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخِذُوا أَنْبَاءَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَا أَمَرُوا إِلَّا ليعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. [التوبة: ٣١] فقلت: إنا لسنا نعبدهم، فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم». رواه أحمد، والترمذي وحسنه^(٢).

ش: هذا الحديث قد روى من طرق: فرواه ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي.

(١) ابن جرير الطبري في «التفسير» (١٧٨/١٨).

(٢) الترمذي في «الجامع رقم (٣٠٩٤) وأصله عند أحمد في «المسند» (٢٥٧/٤، ٣٧٨) دون هذا اللفظ، وقد سبق تخريجه في أول الكتاب.

قوله: (عن عدى بن حاتم)، أى: الطائى المشهور، وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج - بفتح الحاء المهملة - المشهور بالسخاء والكرم. قدم عدى على رسول الله ﷺ فى شعبان سنة تسع من الهجرة فأسلم. وعاش مائة وعشرين سنة.

وفى الحديث: دليل على أن طاعة الأحرار والرهبان فى معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويظهر ذلك؛ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفَاسِقٌ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. [الأنعام: ١٢١].

وهذا قد وقع فى كثير من الناس مع من قلّدهم، لعدم اعتبارهم بالدليل / إذا [١/١٤١] خالف المقلّد، وهو من هذا الشرك.

ومنهم من يغلو فى ذلك، واعتقد أن الأخذ بالدليل - والحالة هذه - يكره، أو يحرم؛ فعظمت الفتنة. ويقول: هم أعلم منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد. وربما تفوّها بدم من يعمل بالدليل، ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام، كما قال شيخنا رحمه الله تعالى فى المسائل:

فتغيّرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية. فصار عند الأكثر، عبادة الرهبان: هى أفضل الأعمال، ويسمونها ولاية، وعبادة الأحرار: هى العلم والفقه. ثم تغيّرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين، وعُبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين^(١).

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم، فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله: فقد عمّت به البلوى قديماً وحديثاً، فى أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلمّ جرا. وقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ

(١) المسألة الخامسة.

مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ .
[القصص: ٥٠].

وعن زياد بن حدير، قال: قال لى عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا. قال: يهدمه رلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين. رواه الدارمى^(١).

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق، وبه يعدلون.

(١) الدارمى فى السنن رقم (٢٢٠)، وأخرجه الفريابى فى «صفة المنافق» رقم (٣١) وأبو نعيم فى «الحلية» (١٩٦/٤).

(٣٨)

باب

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ
أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ
يَرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ
أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يَرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ
إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا
وَتَوْفِيقًا﴾. [النساء: ٦٠ - ٦٢].

ش: قال العماد ابن كثير: والآية دأمة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكم
إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا^(١).

وتقدم ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله في حده للطاغوت، وأنه كل ما
تجاوز به العبد حده: من معبود أو متبوع أو مطاع.

فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقد حاكم إلى الطاغوت
الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به. فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب
الله وسنة رسوله، ومن كان يحكم بهما. فمن حاكم إلى غيرهما: فقد تجاوز به
حده، وخرج عما شرعه الله ورسوله، وأنزله/ منزلة لا يستحقها.

[١٤١/ب]

وكذلك من عبد شيئاً دون الله فإنما عبد الطاغوت، فإن كان المعبود صالحاً

(١) ابن كثير في «التفسير» (٢/٣٠٥).

صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذى أمره بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللّٰهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. [يونس: ٢٨ - ٣٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشِرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾. [سبا: ٤٠ - ٤١].

وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه، أو كان شجراً أو حجراً أو قبراً، أو غير ذلك مما كان يتخذه المشركون لهم أصناماً على صور الصالحين أو الملائكة أو غير ذلك، فهي من الطاغوت الذى أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته، ويتبرأوا منه، ومن عبادة كل معبود سوى الله كائناً من كان. وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله، فهو الذى دعا إلى كل باطل وزينه لمن فعله، وهذا ينافى التوحيد الذى هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

فالتوحيد: هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَحَدُّهُ﴾. [الممتحنة: ٤]. وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حده، وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه.

قال الإمام مالك: الطاغوت: ما عبد من دون الله^(١).

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله: فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه، وجعل لله شريكاً فى الطاعة، وخالف ما جاء به الرسول ﷺ فيما أمره الله تعالى به فى قوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾. [المائدة: ٤٩] وقوله: ﴿فَلَا

(١) أخرجه ابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٢/٢٢).

وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ . [النساء: ٦٥].

فمن خالف ما أمر الله به رسوله ﷺ: بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، [١/١٤٢] أو طلب ذلك اتباعاً لما يهواه ويريده، فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه. وإن زعم أنه مؤمن.

فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في رعمهم الإيمان؛ لما فى ضمن قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ من نفى إيمانهم، فإن ﴿يَزْعُمُونَ﴾ إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها، وعمله بما ينافيها. يحقق هذا قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾؛ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد، كما فى آية البقرة. فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحدًا.

والتوحيد هو أساس الإيمان، الذى تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعده. كما أن ذلك بين فى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾. [البقرة: ٢٥٦] وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ يبين تعالى فى هذه الآية: أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويؤثره لمن أطاعه، ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله. وأكد بالمصدر، ووصفه بالبعد، فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى.

فى هذه الآية أربعة أمور. الأول: أنه من إرادة الشيطان. الثانى: أنه ضلال. الثالث: تأكيد بالمصدر. الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.

فسبحان الله! ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه، وما أدله على أنه كلام رب العالمين، أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين. صلوات الله وسلامه عليهما أجمعين.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ بين تعالى أن هذه صفة المنافقين، وأن

من فعل ذلك أو طلبه، وإن زعم أنه مؤمن فإنه فى غاية البعد من الإيمان.
قال العلامة ابن القيم: هذا دليل على أن من دعى إلى تحكيم الكتاب والسنة
فأبى، أنه من المنافقين.

قوله: ﴿يَصْدُونُ﴾ لازم. وهو بمعنى يُعرضون؛ لأن مصدره، صدوداً. فما
[١٤٢/ب] أكثر من اتصف بهذا الوصف، خصوصاً ممن / يدعى العلم. فإنهم صدّوا عما
توجيه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله إلى أقوال من يخطئ كثيراً، ممن ينتسب
إلى الأئمة الأربعة:

فى تقليدهم من لا يجوز تقليده، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد
على قوله، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو
المعتمد عندهم، الذى لا تصح الفتوى إلا به. فصار المتبع للرسول ﷺ بين أولئك
غريباً، كما تقدّم التنبيه على هذا فى الباب الذى قبل هذا.

فتدبر هذه الآيات وما بعدها، يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض
عن الحق وترك العمل به فى أكثر الوقائع. والله المستعان.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فى الأرضِ
قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾. [البقرة: ١١].

ش: قال أبو العالية فى الآية: يعنى: لا تعصوا فى الأرض؛ لأن من عصى الله
فى الأرض، أو أمر بمعصية الله: فقد أفسد فى الأرض؛ لأن صلاح الأرض
والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله^(١).

وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام، فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ
مُؤَذِّنٌ أَيَّتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ
* قَالُوا تَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَكِنْ جَاءَ بِه حِمْلٌ بَعِيرٌ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ *
قَالُوا تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فى الأرضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾.
[يوسف: ٧٠ - ٧٢] فدلّت الآية على أن كلّ معصية فساد فى الأرض.

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «التفسير» رقم (١٢١)، وأخرجه الطبرى فى «التفسير» رقم (٢٤٠) عن الربيع بن
أنس.

ومناسبة الآية للترجمة: أَنَّ التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين، وهو من الفساد فى الأرض.

وفى الآية: التنبيه على عدم الاغترار [بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوى. وفيها: التحذير من الاغترار]^(١) بالرأى، مالم يقيم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله. فما أكثر من يُصدّق بالكذب ويُكذّب بالصدق إذا جاءه، وهذا من الفساد فى الأرض، ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة تخرج صاحبها من الحق وتدخله فى الباطل. ونسأل الله العفو والعافية والمعافة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة.

فتدبر تجد ذلك فى حال الأكثر: إلا من عصمه الله، ومنّ عليه بقوة داعى الإيمان، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات، وبصراً ناقداً عند ورود الشبهات. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾. [الاعراف: ٥٦].

ش: قال/ أبو بكر بن عيَّاش^(٢) - فى الآية -: إِنَّ الله بعث محمداً ﷺ إلى [١/١٤٣] أهل الأرض وهم فى فساد، فأصلحهم الله بمحمد ﷺ. فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين فى الأرض^(٣).

وقال ابن القيم: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصى، والدعاء إلى غير طاعة الله، بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله؛ فإنَّ عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به: أعظمُ فساد فى الأرض. بل فساد الأرض فى الحقيقة إنّما هو بالشرك به ومخالفة أمره. فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ: هو أعظمُ الفساد فى الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود

(١) ساقط من الأصل، وهو انتقال نظر.

(٢) ابن سالم الأسدى الكوفى، المقرء مشهور بكُنْيته، والاصح أنها اسمه، ثقة عابد، إلا أنه لما كبر ساء حفظه، وكتابه صحيح (ت ١٩٤هـ) «تقريب» (٦٢٤).

(٣) أخرجه أبو الشيخ، كما فى «الدر المنثور» (٤٧٦/٣).

المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا. وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة.

ومن تدبر أحوال العالم: وجد كل صلاح في الأرض، فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله. وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسببه: مخالفة رسوله، والدعوة إلى غير الله ورسوله. انتهى^(١).

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله، وهو سبيل المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. [النساء: ١١٥].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. [المائدة: ٥٠].

ش: قال ابن كثير: ينكر تعالى، على من خرج عن حكم الله تعالى المشتغل على كل خير، والنهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله؛ كما كان أهل الجاهلية يحكمون بها من الجهالات والضلالات، كما يحكم بها التتار من السياسات المأخوذة عن جنكز خان^(٢) الذي وضع لهم كتاباً مجموعاً من أحكام أقيسة من شرائع شتى. وفيها كثير من الأحكام أخذها عن/ مجرد نظره، وصار في بنيته شرعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله.

ومن فعل ذلك: فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير^(٣).

(١) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (١٧/٣).

(٢) سلطان التتار الهالك، ووالد ملوكهم ومؤسس حكمهم الجائر. لا يعرف له نسب، كان باذلاً للمال ومسرماً في القتل مشركاً، بالله، ومن ذريته هولاء السفاح، مات سنة (٦٢٤هـ) «تاريخ ابن كثير» (١١٧/١٣).

(٣) ابن كثير في «التفسير» (١٢٣/٣).

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ استفهام إنكار، أى: لا حكم أحسن من حكمه تعالى.

وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر مشارك، أى: ومن أعدل من الله حكماً لمن عقل عن الله شرعه، وآمن وأيقن أن الله تعالى: أحكم الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، العليم بمصالح عباده القادر على كل شيء، الحكيم فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره؟.

وفى الآية: التحذير من حكم الجاهلية، واختياره على حكم الله ورسوله. فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن، وهو الحق، إلى ضده من الباطل.

قال المصنف رحمه الله تعالى: عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به» قال النووى: حديث صحيح، رويناه فى كتاب (الحجة) بإسناد صحيح.

ش: هذا الحديث: رواه الشيخ أبو الفتح، نصر بن إبراهيم المقدسى الشافعى^(١) فى كتاب (الحجة على تارك المحجة)، بإسناد صحيح، كما قاله المصنف، عن النووى^(٢).

ورواه الطبرانى، وأبو بكر بن عاصم، والحافظ أبو نعيم فى (الأربعين) التى شرط لها أن تكون من صحاح الأخبار^(٣)، وشاهده فى القرآن:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُوكَ فِيمَا شَجَرِ بَيْنَهُمْ﴾. الآية [النساء: ٦٥]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. [الأحزاب: ٣٦] وقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾. [القصص: ٥٠] ونحو هذه الآيات.

قوله: «لا يؤمن أحدكم»: أى: لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذى

(١) النابلسى، يعرف بابن أبى حافظ، فقيه محدث (ت ٤٩٠هـ) «سير النبلاء» (١٩/١٣٦).

(٢) النووى فى «الأربعين» (الحديث الحادى والأربعون).

(٣) الطبرانى كما فى «جامع العلوم والحكم» (٢/٢٦٨) وابن أبى عاصم فى «السنة» رقم (١٥) وأبو نعيم فى «الأربعين» كما فى «جامع العلوم والحكم» (٢/٢٦٨). وقال الحافظ ابن رجب فى «جامع العلوم والحكم»

(٢/٢٦٩): تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه. وذكرها.

وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار، وقد يكون في درجة أهل الإِسَاءَةِ والمَعَاصِي من أهل الإِسْلَام.

قوله: «حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به». الهوى: بالقصر، أى: ما يهواه وتحميه نفسه وتميل إليه.

فإن كان الذى يحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعاً لما جاء به ﷺ لا يخرج عنه إلى ما يخالفه، فهذه صفة أهل الإيمان المطلق.

[١/١٤٤] وإن كان / بخلاف ذلك، أو فى بعض أحواله أو أكثرها. انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب؛ كما فى حديث أبى هريرة «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارقُ حين يسرق وهو مؤمن»^(١) يعنى أنه بالمعصية ينتفى عنه كمالُ الإيمان الواجب، وينزل عنه فى درجة الإِسْلَام. وينقص إيمانه، فلا يطلق عليه الإيمانُ إلا بقيد المعصية أو الفسوق، فيقال: مؤمنٌ عاصٍ، أو يقال: مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بمعصيته، فيكون معه مُطلق الإيمان الذى لا يصح إسلامه إلا به؛ كما قال تعالى: «فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٌ». [النساء: ٩٢].

والأدلة على ما عليه سلفُ الأمة وأئمتها - أن الإيمان قولٌ وعملٌ ونيةٌ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية - من كتاب الله وسنة رسوله أكثرُ من أن تُحصَر.

فمن ذلك: قوله تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ». [البقرة: ١٤٢] أى: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقولُ النبى ﷺ لوفد عبد القيس «أمرُكم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله، الحديث، وهو فى (الصحيحين)، و(السنن)^(٢).

والدليل على أن الإيمان يزيد: قوله تعالى: «وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا». [المائدة: ٣١]، «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهمْ إِيْمَانًا». [التوبة: ١٢٤] خلافاً لمن قال: إن الإيمان هو القول، وهم المرجئة، ومن قال: إن الإيمان هو التصديق، كالأشاعرة.

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٨١٠) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٥٧).

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٣، ٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٠٧) من حديث ابن عباس.

ومن المعلوم عقلاً وشرعاً: أنَّ نية الحق تصديق، والعمل به تصديق، وقول الحق تصديق. فليس مع أهل البدع ما ينافي قول أهل السنة والجماعة. ولله الحمد والمنة.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾. [البقرة: ١٧٧] أي: فيما عملوا به في هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة. وشاهد في كلام العرب، قولهم: حملة صادقة.

وقد سمى الله تعالى الهوى المخالف لما جاء به الرسول ﷺ إلهاً، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾. [الفرقان: ٤٣] قال بعض المفسرين: لا يهوى شيئاً إلا ركبته^(١).

قال ابن رجب: أمّا معنى الحديث: فهو أنَّ الإنسان لا يكون مؤمناً كاملاً بالإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ / من الأوامر والنواهي [١٤٤/ب] وغيرها. فيحب ما أمر به، ويكره ما نهى عنه. وقد ورد القرآن بمثل هذا المعنى في غير موضع، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله، أو أحب ما كرهه الله؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾. [محمد: ٢٨].

فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله، محبةً توجب له الاتيان بما أوجب عليه منه. فإن زادت المحبة حتى أتى ما نُدب إليه منه، كان ذلك فضلاً. وأن يكره ما يكرهه الله كراهةً توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً، كان ذلك فضلاً.

فمن أحب الله ورسوله محبةً صادقةً من قلبه، أوجب ذلك له أن يحب بقلبه: ما يُحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، فيرضى بما يرضى به الله

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، كما في «الدر المشور» (٦/ ٢٦٠) عن قتادة السدوسي.

ورسوله، وَيَسْخَطُ مَا يُسْخَطُ اللَّهُ ورسوله، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض. فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، وترك ما يحبه الله ورسوله - مع وجوبه والقدرة عليه - دلّ ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التي هي ركنُ العبادة إذا كملت. فجميعُ المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله.

وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى فى مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾. [القصص: ٥٠].

وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع؛ ولهذا سُمي أهلها أهل الأهواء. وكذلك المعاصي، إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه الله.

وكذلك حبُّ الأشخاص: الواجبُ فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، فيجب على المؤمن محبةً من يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً؛ ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان: أن يحب المرء لا يحبه إلا الله^(١). فتحرم موالاة أعداء الله/ ومن يكرهه الله عموماً، وبهذا يكون الدين كله لله وحده. ومن أحبَّ الله وأبغض الله، وأعطى الله ومنع الله: فقد استكمل الإيمان^(٢). ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه: كان ذلك نقصاً فى إيمانه الواجب. فيجب التوبة من ذلك. انتهى ملخصاً^(٣).

ومناسبة الحديث للترجمة: بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي، فى أقوالهم وأفعالهم وإراداتهم.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودى: نتحاكم إلى محمد؛ عرف أنه لا يأخذ

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١٦، ٢١) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٤٣) من حديث أنس.

(٢) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٤٦٨١) من حديث أبى أمامة.

(٣) ابن رجب «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٧٠).

الرشوة. وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلهم أنهم يأخذون الرشوة. فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية^(١).

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف. ثم ترافعا إلى عمر بن الخطاب، فذكر له أحدهما القصة. فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذاك؟ قال نعم، فضربه بالسيف فقتله^(٢).

ش: قوله: (وقال الشعبي). هو عامر بن شراحيل الكوفى، عالم أهل زمانه، وكان حافظاً علامة ذا فنون. كان يقول: ما كتبتُ سوداءَ فى بيضاء. وأدرك خلقاً من الصحابة، وعاش بضعاَ وثمانين سنة. قاله الذهبى^(٣).

وفيما قاله الشعبى ما يُبين أنَّ المنافق يكون أشدَّ كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى. ويكون أشدَّ عداوة منهم لأهل الإيمان؛ كما هو الواقع فى هذه الأزمنة وقبلها: من إعانة العدوِّ على المسلمين، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان^(٤).

ومن تدبَّر ما فى التاريخ وما وقع منهم فى الوقائع عرف أنَّ هذا حالُ المنافقين قديماً وحديثاً، وقد حذَّر الله نبيَّه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم، وحضَّه على جهادهم فى مواضع من كتابه؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبَشِّرَ الْمُصِيرَ﴾. [التحریم: ٩].

وفى قصة عمر، وقتله المنافق الذى طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودى: دليلٌ على قتل من أظهر الكفر والنفاق.

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (٩٨٩١، ٩٨٩٢، ٩٨٩٣) بإسناد صحيح، كما قال ابن حجر فى «فتح البارى» (٣٧/٥).

(٢) أخرجه الثعلبى، كما فى «الدر المنثور» (٥٨٢/٢)، والكلبى كما فى «فتح البارى» (٣٧/٥) عن ابن عباس، قال ابن حجر: وهذا الإسناد وإن كان ضعيفاً لكن تقوى بطريق مجاهد، أخرجه الطبرى فى «التفسير» رقم (٩٩٠١) بإسناد صحيح.

(٣) الذهبى «سير النبلاء» (٣٠١/٤).

(٤) وقد استحوذ الرافضةُ والاسماعيليةُ (الباطنية من القاديانية والمكرمية والنصيرية والبهائية ونحوهم) ومن شايهم من العلمانيين والحدائين فى وقتنا من ذلك على النصيب الاوفى. نعوذ بالله تعالى من الخذلان.

وكان كعبُ بن الأشرف^(١) هذا شديدَ العداوة للنبي ﷺ والأذى له، وإظهار عداوته. فانتقض به عهده، وحلَّ به قتله. وروى مسلمٌ في (صحيحه)، عن عمرو: سمعتُ جابراً يقول: قال رسولُ الله ﷺ «من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد أذى الله ورسوله» قال محمد بن مسلمة: يا رسول الله، أتحبُّ أن أقتله؟ قال: «نعم» قال: ائذن لي فلا أقول، قال: «قل».

فأتاه فقال له، وذكر ما بينهم، وقال: إنَّ الرجلَ قد أراد صدقةً، وقد عَنَّا. فلما سمعه، قال: وأيضاً والله لثمتُ، قال: إنا قد اتبعناه الآن، ونكره أن ندعه [١٤٥/ب] حتى ننظر إلى أيِّ شيء يصير أمره، قال: وقد أردتُ أن تُسلفني سلفاً. قال: فما ترهنُّني؟ قال: ما تُريده؟ قال: ترهنني نساءكم؟ قال: أنت أجملُ العرب، أنرهنك نساءنا؟ قال: ترهنوني أولادكم؟ قال: يُسبُّ ابنُ أحدنا، فيقال: رهنٌ في وسقين من تمر. ولكن نرهنك الأمة - يعني السلاح - قال: نعم. وواعده أن يأتيه بالحرث، وأبى عبس ابن جبر، وعباد بن بشر. قال: فجاؤوا، فدعوه ليلاً فنزل إليهم، قال سفيان قال غير عمرو: قالت له امرأته: إني لأسمع صوتاً كأنه صوت دم، قال: إنما هذا محمد بن مسلمة، ورضيعه، وأبو نائلة؛ إنَّ الكريم لو دُعي إلى طعنة ليلاً لأجاب. قال محمد: إني إذا جاء فسوف أمدُّ يدي إلى رأسه، فإذا استمكنْتُ منه فدونكم. قال: فلماً نزل، نزل وهو متوشَّحٌ. فقالوا: لمجد منك ريحَ الطيب، قال: نعم، تحتى فلانةُ أعطر نساء العرب. قال: فتأذن لي أن أشم منه؟ قال: نعم فشُمُّاً فتناوله فشَم، ثم قال: أتأذن لي أن أعود؟ قال: فاستمكن من رأسه. ثم قال: دونكم، قال: فقتلوه^(٢).

وفى قصة عمر: بيانُ أنَّ المنافق المغموصَ بالنفاق^(٣) إذا أظهر نفاقه قُتل؛ كما في (الصحيحين)، وغيرهما: أن النبي ﷺ إنما ترك قتلَ من أظهر نفاقه منهم، تأليفاً للناس؛ فإنه قال: «لا يتحدثُ الناسُ أنَّ محمداً يقتل أصحابه»^(٤) صلواتُ الله وسلامه عليه.

(١) قال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى في «زاد المعاد» (٣/١٩١): كان رجلاً من اليهود، وأمه من بني النضير. وفي «فتح الباري» (٧/٣٣٧): كان عريباً من بني نيهان، وهم بطن من طيء. وكان أبوه أصاب دماً في الجاهلية، فأتى المدينة فحالف بني النضير. فشرف فيهم، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق فولدت له كعباً. ا. هـ.

(٢) مسلم في «الصحيح» رقم (١٨٠١).

(٣) المتهم به، المطعون عليه. «تاج العروس» (١٨/٥٨).

(٤) البخاري في «الصحيح» رقم ٣٥١٨٠، ٤٩٠٥، ٤٩٠٧ ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٥٨٤).

(٣٩)

باب

من جحد شيئا من الأسماء والصفات

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات، وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾. [الرعد: ٣٠].

ش: سبب نزول الآية معلومٌ مذكور في كتب التفسير وغيرها، وهو أن مُشركي قريش^(١) جحدوا اسم «الرحمن» عنادا^(٢).

قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. [الإسراء: ١١٠] والرحمن: اسمه وصفته. دلّ هذا الاسم على أن الرحمة وصفه سبحانه؛ وهي من صفات الكمال.

فإذا كان المشركون جحدوا اسماً من أسمائه تعالى، وهو من الأسماء التي دلّت على كماله سبحانه وبحمده: فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك. فإنّ جهّم بن صفوان^(٣) ومن تبعه: يزعمون أنّها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى. وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم؛ فلهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة؛ قال ابن القيم رحمه الله تعالى / .

[١/١٤٦]

ولقد تقلّد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

(١) قبيلة، وقريش هو: النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، من سلالة هابر فيما قيل. وعند هابر تلتقى أنساب العرب جميعاً، قحطانيهم وعدنانيهم. والله أعلم. ينظر: الملك الرسول، «طرفة الأصحاب» (٥٨). وابن كثير، «التاريخ» (١٨٧/٢).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» (١٥٠/١٣).

(٣) أبو محرز، مولى بني راسب، وأصله من بلخ، عاش في سمرقند فنسب إليها، كان له نشاط مشبوه في تشييت الأمة وإغراقها في بحر الشبهات، إلى أن هلك في زمن صغار التابعين. «ميزان الاعتدال» للذهبي (٤٢٦/١).

واللالكائى الإمام حكاه عند هم بل حكاه قبله الطبرانى

فإن هؤلاء الجهمية، ومن وافقهم على التعطيل: جحدوا ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصلوه من عند أنفسهم، فقالوا: هذه الصفات هي صفات الأجسام، فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسما.

هذا منشأ ضلال عقولهم، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين. فشبهوا الله فى ابتداء رأيهم الفاسد بخلقه، ثم عطّلوه من صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات.

فشبهوا أولاً، وعطلوا ثانياً، وشبهوا ثالثاً بكل ناقص أو معدوم. فتركوا ما دلّ عليه الكتاب والسنة، من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته.

هذا هو الذى عليه سلف الأمة وأئمتها؛ فإنهم أثبتوا لله ما أثبتة لنفسه وأثبتة له رسوله ﷺ، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل؛ فإن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات يُحتذى حذوه. فكما أن هؤلاء المعطلة يُثبتون لله ذاتاً لا تشبه الذوات، فأهل السنة يقولون ذلك، ويثبتون ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، لا تُشبه صفات خلقه.

فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولم يتناقضوا. وأولئك المعطلة: كفروا بما فى الكتاب والسنة من ذلك، فتناقضوا.

فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل - والله الحمد والمنة - وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين.

وقد صنّف العلماء رحمهم الله تعالى فى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم، فى إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت: كالإمام [١٤٦/ب] أحمد رحمه الله تعالى فى رده المشهور^(١)، و(كتاب السنة) لابنه عبدالله^(٢)،

(١) الرد على الجهمية والزنادقة، طبع مرات، ولدى منه ثلاث نسخ خطية جيدة.

(٢) مطبوع مُحقق فى مجلدين (رسالة دكتوراه).

وصاحب (الحيدة)، عبد العزيز الكنانى فى ردّه على بشر المريسى^(١). و(كتاب السنة) لأبى عبدالله المروزى^(٢)، وردّ عثمان بن سعيد على الكافر العنيد وهو بشر المريسى^(٣)، و(كتاب التوحيد) لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعى^(٤)، و(كتاب السنة) لأبى بكر الخلال^(٥)، وأبى عثمان الصابونى الشافعى^(٦)، وشيخ الإسلام الأنصارى^(٧)، وأبى عمر بن عبد البر النمرى، وخلق كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم، وأهل الحديث.

ومن متأخريهم: أبو محمد، عبدالله بن أحمد بن قدامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأصحابه وغيرهم. فله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها، مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء، والله أعلم.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وفى (صحيح البخارى)، قال على: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله^(٨).

ش: على: هو أمير المؤمنين أبو الحسن، على بن أبى طالب، وأحد الخلفاء الراشدين. وسبب هذا القول - والله أعلم - ما حدث فى خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرة القصّاص وأهل الوعظ، فيأتون فى قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل. فربما استنكرها بعض الناس وردّها، وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح، فيقع بعض المفاصد لذلك. فأرشدهم أمير المؤمنين رضى الله عنه إلى أنّهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف، ينفع الناس فى أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال والحرام الذى كلّفوا به علما وعملا، دون ما

(١) مطبوع، وانظر كلام الذهبى عنه فى «سير النبلاء» (٢٤٨/١٨).

(٢) مطبوع دون عناية تذكر.

(٣) مطبوع فى مصر. بإشراف الشيخ حامد الفقى رحمه الله تعالى.

(٤) مطبوع مُحقق فى مجلدين كبيرين (رسالة دكتوراه).

(٥) طبع منه المجلد الأول مُحققاً (رسالة دكتوراه).

(٦) إسماعيل بن عبد الرحمن النيسابورى، مفسّر محدّث، له كتاب السنة (مطبوع فى المنيرية) وغيره. ت

٤٤٩هـ «سير النبلاء» (٤٠/١٨).

(٧) أبو اسماعيل، عبد الله بن محمد الأنصارى الهروى، فقيه محدّث، له كتاب ذم الكلام ومنار الساترين

وغيرهما. ت ٤٨١هـ ابن أبى يعلى «طبقات الحنابلة» (٢٤٧/٢).

(٨) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٢٧).

يُشغل عن ذلك، مما قد يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله، فيُفضى بهم إلى التّكذيب، لا سيما مع اختلاف الناس في وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم.

وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله لا يُحب أن يُقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعبادتهم ومعاملاتهم الذي لا غنى لهم عن معرفته، وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي: (كالمنعش)، و(المرعش)، و(التبصرة)، لما في ذلك من الاعراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغي اعتقاده، والمعصوم من عصمه الله.

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ينهى القُصّاص عن القُصص؛ لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك، ويقول: لا يقص إلا أمير أو مأمور^(١).

[١/١٤٧] وكلُّ هذا محافظة على لزوم الثبات/ على الصراط المستقيم علما وعملا ونية وقصدا، وترك كلِّ ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها، والله الموفق للصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك! فقال: ما فرّق هؤلاء؟ يجدون رقة عند مُحكمه، ويهلكون عند مُشابهه. انتهى^(٢).

ش: قوله: (وروى عبد الرزاق). هو ابن همام الصنعاني المحدث، مُحدث اليمن صاحب التصانيف، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهري. وهو شيخ عبد الرزاق. يروى عنه كثيرا^(٣).

ومعمر - بفتح الميم وسكون العين - أبو عروة بن أبي عمرو، راشد الأزدي الحرّاني ثم اليماني، أحدُ الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهري، يروى عنه كثيرا^(٤).

(١) حديث، أخرجه أحمد في «المستد» (٢٢/٦)، ٢٣، ٢٧، ٢٩ من حديث عوف بن مالك.

(٢) عبد الرزاق في «المصنف» رقم (٢٠٨٩٥).

(٣) ترجمته: «الفهرست» لابن النديم (٢٨٤).

(٤) ترجمته: «الفهرست» لابن النديم (١٠٦).

قوله: (عن ابن طاوس). هو عبدالله بن طاوس اليماني. قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية. وقال ابن عيينة: مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة^(١).

قوله: (عن أبيه). هو طاوس بن كيسان الجندی - بفتح الجيم والنون - الإمام العلم، قيل: اسمه ذكوان، قاله ابن الجوزي^(٢).

قلت: وهو من أئمة التفسير، ومن أوعية العلم. قال في (تهذيب الكمال): عن الوليد الموقري^(٣)، عن الزهري، قال: قدمت على عبد الملك بن مروان، فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قال: قلت: من مكة، قال: من خلقت يسودها وأهلها؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي؟ قال: فبم سادهم؟ قال، قلت: بالديانة والرواية. قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا. قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي؟ قال: فبم سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء، قال: إنه لينبغي ذلك، قال: فمن يسود مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، عبد نوبى أعتقه امرأة من هذيل، قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ [ب/١٤٧] قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت: الحسن البصري، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلت: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من العرب، قال: ويلك يا زهري، فرجت عني، والله لتسودن الموالي على العرب في هذا

(١) ترجمته: «تقريب التهذيب» (٣٠٨).

(٢) ترجمته: «تقريب التهذيب» (٢٨١).

(٣) أبو بشر، ابن محمد البلقاوى، مولى بنى أمية، متروك. (ت ١٨٢هـ) «تقريب» (٥٨٣).

البلد، حتى يُخطب لها على المنابر والعرب تحتها. قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين. من حفظه سادَ ومن ضيَّعه سقط^(١).

قوله: (عن ابن عباس). قد تقدَّم، وهو حَبْرُ الأمة وترَجَّمان القرآن، ودعا له النبي ﷺ، وقال: «اللهم فقَّهه في الدين، وعلمَّه التأويل»^(٢) وروى عنه أصحابه أئمة التفسير، كمجاهد، وسعيد بن جبَّير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس، وغيرهم.

قوله: (ما فَرَّقُ هؤلاء). يستفهم من أصحابه، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس، فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه، حصل معهم فَرَق. أى: خوف، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذي أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين.

قال الذهبي: حدَّث وكيعٌ - عن إسرائيل - بحديث: إذا جلس الربُّ على الكرسي. فاقشعر رجلٌ عند وكيع. فغضب وكيع، وقال: أدركنا الأعمش وسفيان يُحدِّثون بهذه الأحاديث ولا يُنكرونها. أخرجه عبد الله في (كتاب الردِّ على الجهمية)^(٣).

وربما حصل معهم من عدم تلقَّيه بالقبول تركٌ ما وجب من الإيمان به، فتشبه حالهم حال من قال الله فيهم: «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض». [البقرة: ٨٥]. فلا يَسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه في ذلك، من الإيمان بكتاب الله كله واليقين؛ كما قال تعالى: «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكمات هنَّ أمُّ الكتاب وأخرُ متشابهات» فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به / كلٌّ من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب». [آل عمران: ٧].

(١) المزى «تهذيب الكمال» (٨١/٢٠). وفيه لمؤرِّق، وهو متروك، ولا يبعد أن يكون من وضع الشعوية. والله أعلم.

(٢) مضى تحريجه.

(٣) عبد الله بن أحمد بن حنبل في «كتاب السنة» رقم (٥٨٧).

فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس - رضى الله عنهما - تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن. وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذى أراد الله، فيحمله على غير معناه؛ كما جرى لأهل البدع، كالخوارج والرافضة والقدرية، ونحوهم ممن يتأول بعض آيات القرآن على بدعته.

وقد وقع منهم ما وقع، من الابتداع والخروج على الصراط المستقيم. فإن الواقع من أهل البدع، وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس. وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم فى الفهم، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها، الذين وفقهم الله تعالى: لمعرفة المراد، والتوفيق بين النصوص، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضاً، ورد التشابه إلى المحكم. وهذه طريقة أهل السنة والجماعة فى كل زمان ومكان. فله الحمد لا نحصى ثناء عليه.

ذكر ما ورد عن علماء السلف فى التشابه:

قال فى (الدر المنثور): أخرج الحاكم - وصححه - عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، فنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال. فأحللوا حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا»^(١).

قال: وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، قال: طلب القوم التأويل، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة، وطلبوا ما تشابه منه، فهلكوا بين ذلك.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبى حاتم، عن ابن عباس فى قوله: ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ قال: من هنا^(٢): ﴿قل تعالوا﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣] إلى

(١) الحاكم فى «المستدرک» (١/٥٥٣)، (٢/٢٨٩)، وصححه ووافقه الذمى.

(٢) فى جميع النسخ: منهن. والمثبت من «تفسير الطبرى» «والدر المنثور».

ثلاث آيات، ومن هنا: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٣٩].
إلى ثلاث آيات بعدها^(١).

وأخرج ابن جرير، من طريق أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس،
[١٤٨/ب] وعن مرة، عن ابن مسعود وناس من الصحابة/ : المحكمات: الناسخات التي
يُعمل بهن. والمتشابهات: المنسوخات^(٢).

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن إسحاق بن سويد:
أن يحيى ابن يعمر، وأبا فاختة تراجعا هذه الآية: ﴿هن أم الكتاب﴾ فقال أبو
فاختة: هن فواتح السور، منها يُستخرج القرآن ﴿الم * ذلك الكتاب﴾ منها
استُخرجت البقرة، ﴿الم * الله لا إله إلا هو﴾ منها استُخرجت آل عمران. وقال
يحيى: هن اللاتي فيهن الفرائض، والأمر والنهي والحلال، والحدود وعماد
الدين^(٣).

وأخرج ابن جرير، عن محمد بن جعفر بن الزبير، قال: ﴿المحكمات﴾ حجة
الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس فيها تصريح ولا تحريف عما
وضعت عليه ﴿وأخر متشابهات﴾ في الصدق، لهن تصريح وتحريف وتأويل،
ابتلى الله فيهن العباد، كما ابتلاهم في الحلال والحرام، لا يُصرفن إلى الباطل،
ولا يحرفن عن الحق^(٤).

وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان: إنما قال ﴿هن أم الكتاب﴾ لأنه
ليس من أهل دين لا يرضى بهن ﴿وأخر متشابهات﴾ يعني فيما بلغنا ﴿الم﴾
و﴿المص﴾ و﴿المر﴾^(٥).

قلت: وليس في هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من
المتشابه، وما قاله النفاة: من أنها من المتشابه، دعوى بلا برهان.

(١) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (٦٥٧٣).

(٢) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (٦٥٧٦).

(٣) ابن جرير الطبري في «التفسير»، في أثرين منفصلين رقم (٦٥٨٩، ٦٥٩١).

(٤) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (٦٥٨٧).

(٥) السيوطي، «الدر المنثور» (١٤٥/٢).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر:
الرحمن. أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.
[الرعد: ٣٠].

ش: روى ابن جرير، عن قتادة: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ ذكر لنا أن نبي
الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشا، كتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول
الله». فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك! ولكن
اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: دعنا
يا رسول الله نقاتلهم، فقال: «لا». ولكن اكتبوا كما يريدون، إني محمد بن
عبد الله. فلما كتب الكاتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قالت قريش: أمّا
الرحمن فلا نعرفه - وكان أهل الجاهلية يكتبون: باسمك اللهم - فقال أصحابه:
يا رسول الله دعنا نقاتلهم! قال: «لا». ولكن اكتبوا كما يريدون^(١).

وروى أيضا، عن مجاهد/ قال: قوله: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ الآية [الرعد: ٣٠]. قال: هذا لما^(٢) كاتب رسول الله ﷺ قريشا في
الحديبية؛ كتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قالوا: لا تكتب الرحمن، ما ندرى
وما الرحمن؟ ولا تكتب إلا: باسمك اللهم. قال الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ
قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(٣).

وروى أيضا، عن ابن عباس، قال: كان النبي ﷺ يدعو ساجدا: يارحمنُ
يارحيم. فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى.
فأنزل الله: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٤)
[الإسراء: ١١٠].

(١) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (٢٠٣٩٧).

(٢) جميع النسخ: ما. تحريف.

(٣) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (٢٠٣٩٨).

(٤) ابن جرير الطبري في «المصدر السابق» (١٥/١٨٢).

(٤٠)

باب

قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَكَثَرَهُمُ الْكَافِرُونَ﴾

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] قال مُجاهد - ما معناه - : هو قول الرجل: هذا مالى، ورثتهُ عن آبائى. وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا. وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلِهتنا.

ش: ذكر المصنّف رحمه الله تعالى: ما ذكر بعضُ العلماء فى معناها. وقال ابنُ جرير: فإنَّ أهل التأويل اختلفوا فى المعنى بالنعمة. فذكر عن سفيان، عن السدى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ قال: محمد ﷺ. وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم يعرفون أنَّ ما عدّد الله تعالى ذكره فى هذه السورة من النعم من عند الله، وأنَّ الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

وأخرج، عن مجاهد: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾، قال: هى المساكن والأنعام وما يُرزقون منها، والسراييل من الحديد والثياب. تعرف هذا كفارُ قريش ثم تنكره، بأن تقول: هذا كان لأبائنا فورثونا إياه. وقال آخرون: معنى ذلك أنَّ الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ أقروا بأنَّ الله هو الذى رزقهم، ثم ينكرون ذلك بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة آلِهتنا^(١).

وذكر المصنّف رحمه الله مثل هذا عن ابن قتيبة. وهو أبو محمد، عبد الله بن

(١) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٥٧/١٤).

مُسلم بن قُتيبة الدِّينَوْرِي، قاضى مصر، النحوى اللغوى، صاحبُ المصنفات
البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمّة، اشتغل ببغداد، وسمع الحديث على
إسحاق بن راهَوِيه وطبقته. توفى سنة ستٍ وسبعين ومائتين.

وقال آخرون: ما ذكره المصنّف، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود
الهُذَلِي - أبو عبد الله الكوفي الزاهد. [روى] ^(١): عن أبيه، وعائشة، وابن عباس.
[١٤٩/ب] عنه قتادة وأبو الزبير، والزهرى. وثقه أحمد، وابنُ معين. قال البخارى: مات
بعد العشرين ومائة ^(٢) - «يعرفون نعمة الله ثم يُنكرونها» قال: إنكارُهم إياها: أنْ
يقول الرجل لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا ^(٣).

واختار ابنُ جرير القول الأول، واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء فى
معناها. وهو الصواب، والله أعلم.

قوله: (قال مجاهد). هو شيخ التفسير، الإمامُ الربّانى، مجاهد بن جَبْرِ المكى،
مولى بنى مخزوم، يقول: عرضتُ القرآن على ابن عباس ثلاث مرات، أقفه عند
كل آية، وأسأله: فيم نزلت؟ وكيف معناها ^(٤)؟. توفى سنة اثنتين ومائة. وله
ثلاث وثمانون سنة.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقال أبو العباس - بعد حديث زيد بن خالد،
الذى فيه: أن الله تعالى قال: «أصبح من عبادى مؤمنٌ بى وكافرٌ» الحديث. وقد
تقدّم -: وهذا كثيرٌ فى الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يُضيفُ إنعامه إلى غيره
ويُشرك به.

قال بعضُ السلف: هو كقولهم: كانت الريحُ طَيِّبَةً، والملاحُ حاذقا، ونحو ذلك
مما هو جارٍ على السنة كثير.

ش: قوله: (وقال أبو العباس). هو شيخُ الإسلام، أحمد بن عبد الحليم بن
عبد السلام ابن تيمية، الإمامُ الجليل.

(١) إضافة يقتضيهما السياق.

(٢) ترجمته فى «تهذيب التهذيب» (١٧١/٨).

(٣) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٥٨/١٤).

(٤) أخرجه أبو نُعيم فى «الحلية» (٢٧٩/٣).

(بعد حديث زيد بن خالد). قد تقدّم في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.
قال: (وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره
ويشرك به. قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة؛ والملاح حاذقا.
ونحو ذلك مما هو جار على السنة كثير.) انتهى.
وكلامُ شيخ الإسلام يدل على أنَّ حُكم هذه الآية عامٌ فيمن نسب النعمَ إلى
غير الله الذي أنعم بها، وأسند أسبابها إلى غيره؛ كما هو مذكورٌ في كلام المفسرين
المذكور بعضه هنا.
قال شيخنا رحمه الله تعالى: وفيه اجتماع الضدين في القلب، وتسميةُ هذا
الكلام إنكاراً للنعمة^(١).

(١) المسألتان: الثالثة والرابعة.

(٤١)

باب

قول الله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ قولِ الله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾. [البقرة: ٢٢].

ش: الند: المثل والنظير. وجعلُ الندُّ لله: هو صرفُ أنواع العبادَة - أو شيء منها - لغير الله، كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم، ويشفع لهم.

وهذه الآية في سياق قوله: ﴿يا أيها الناسُ اعبدوا ربَّكم الذي خلَقكم والذين من قبلكم لعلَّكم تتقون﴾ الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرجَ به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢].

قال العمادُ ابن كثير في (تفسيره): قال أبو العالية: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ أى: عدلاء شركاء. وهكذا قال الربيعُ بن أنس، وقتادة، والسدى، وأبو مالك، وإسماعيل/ بن أبي خالد^(١).

[١/١٥٠]

وقال ابن عباس: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ أى: لا تشركوا بالله شيئا من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره. وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه. وكذلك قال قتادة.

وعن قتادة، ومجاهد: ﴿لا تجعلوا لله أندادا﴾ قال: أكفاء من الرجال تُطيعونهم في معصية الله.

(١) الأحمسي مولاهم، البجلي، ثقة ثبت. (ت ١٤٦هـ) «تقريب» (١٠٧).

وقال ابنُ زيد: الأنداد: الآلهةُ التي جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له.

وعن عباس «فلا تجعلوا لله أندادا» قال: أشباها^(١).

وقال مُجاهد «فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون» قال: تعلمون أنه إلهٌ واحدٌ في التوراة والإنجيل.

وذكر حديثاً في معنى هذه الآية الكريمة: وهو ما في (مسند الإمام أحمد)، عن الحارث الأشعري: أن نبي الله ﷺ قال: «إنَّ الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات: أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وأنه كاد يُبطئ بها. فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات: أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن. فإما أن تبُلِّغهن، وإما أن أبلغهن، فقال: يا أخى، أنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يُخسف بى. قال: فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد فقُعد على الشرف. فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنَّ الله أمرنى بخمس كلمات: أن أعمل بهن، وأمركم أن تعملوا بهن:

أولاهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإنَّ مثل ذلك كمثّل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فجعل يعمل ويؤدى غَلَّتْهُ إلى غير سيده، فأيكّم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإنَّ الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً.

وأمركم بالصلاة، فإنَّ الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وأمركم بالصيام، فإنَّ مثل ذلك كمثّل رجل معه صرة مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك. وإن خلوف فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثّل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه، [١٥/ب] وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدى نفسى منكم؟ فجعل/ يفتدى نفسه بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

(١) أخرج هذه الآثار: ابنُ أبي حاتم في «التفسير» رقم (٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤) وابن جرير الطبري في «التفسير» (١/١٦٣).

وأمركم بذكر الله تعالى كثيراً، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله».

قال: وقال: رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع والطاعة والهجرة، والجهاد في سبيل الله. فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جئى جهنم». قالوا: يا رسول الله وإن صلى وصام؟ فقال: «وإن صلى وصام، وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم. بل بما سمأهم الله عز وجل: المسلمين المؤمنين، عباد الله»^(١).

هذا حديث حسن، والشاهد منه في هذه الآية، قوله: «وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشرکوا به شيئاً».

وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة، وحده لا شريك له. وقد استدلل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع^(٢)، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى. والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

وسئل أبو نواس عن ذلك؟ فأنشد:
تأمل في نبات الأرض، وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين فأترا بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك^(٣)
وقال ابن المعتز:

فيا عجباً، كيف يعصى الإله، أم كيف يجحده الجاحد

(١) أحمد في «المسند» (٤/ ١٣٠، ٢٠٢، ٣٤٤)، وهو من الأحاديث التي استدرکها الدارقطني على صحيح مسلم كما في «الالزامات والتتبع» (١٣٠).

(٢) أراد المؤلف رحمه الله تعالى الإخبار عن الفعل فحسب. أما أن يكون اسماً لله فلا. قال ابن القيم في «شفاء العليل» (٢٢٥): «وأما لفظ الصانع فلم يرد في أسماء الرب سبحانه، ولا يمكن ورود». فإن الصانع: من صنع شيئاً، عدلاً كان أو ظلماً. وما انقسم مسماه إلى مدح وذم، لم يجر اسمه المطلق في الأسماء الحسنى.

(٣) ذكرها ابن كثير في «التاريخ» (١٠/ ٢٤٥).

وفى كل شىء له آيةٌ تدل على أنه واحد^(١) (٢)
قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس، فى الآية: الأنداد: هو
الشرك، أخفى من ديب النمل على صفة سوداء فى ظلمة الليل. وهو أن تقول:
والله وحياتك يا فلانة، وحياتى، وتقول: لولا كلبية هذا لأتانا اللصوص، ولولا
البط فى الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ماشاء الله وشئت، وقول
الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلانا. هذا كله به شرك. رواه ابن أبى
حاتم^(٣).

[١/١٥١] ش: بين ابن عباس رضى الله عنهما/ أن هذا كله من الشرك، وهو الواقع
اليوم على السن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك.

فتنبه لهذه الأمور؛ فإنها من المنكر العظيم، الذى يجب النهى عنه والتغليظ
فيه؛ لكونه أكبر من الكبائر. وهذا من ابن عباس رضى الله عنهما تنبيه بالادنى من
الشرك على الأعلى.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أن رسول
الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك». رواه الترمذى، وحسنه،
وصححه الحاكم^(٤).

ش: قوله: فقد كفر أو أشرك، يُحتمل أن يكون شكاً من الراوى. ويحتمل أن
تكون: أو بمعنى الواو، فيكون قد كفر وأشرك. ويكون من الكفر الذى هو دون
الكفر الأكبر، كما هو من الشرك الأصغر. وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا
اللفظ.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذباً أحبُّ
إلى من أن أحلف بغيره صادقاً^(٥).

(١) نسبها ابن كثير فى «التاريخ» (٢٤٣/١٠) لأبى العتاهية، وهى فى ديوانه (١٢٢)، وعند ابن خلكان فى
«وفيات الأعيان» (١٣٨/٧) لأبى نواس. والله أعلم.

(٢) ابن كثير فى «التفسير» (١/١١٠ - ١١٢).

(٣) ابن أبى حاتم فى «التفسير» رقم (٢٣٠). وسنده حسن.

(٤) الترمذى فى «الجامع» رقم (١٥٣٥) والحاكم فى «المستدرک» (١٨/١، ٢٩٧/٤) وصححه ووافقه الذهبى.

(٥) أخرجه عبد الرزاق فى «المصنف» (٤٦٩/٨) والطبرانى فى «الكبير» رقم (٨٩٠٢) والديلمى فى «مسند»
الفردوس» رقم (٧٨٧١)، قال المنذرى فى «الترغيب والترهيب» (٦٠٧/٣): رواه رواة الصحيح.

ش: ومن المعلوم أنَّ الحلف بالله كاذبا من الكبائر، لكن الشرك أكبر من الكبائر وإن كان أصغر؛ كما تقدم بيان ذلك.

فإذا كان هذا حالُ الشرك الأصغر، فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به، والرغبة إليه، وإنزالِ حوائجه به، كما هو حالُ الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها: من تعظيم القبور، واتخاذها أوثاناً والبناء عليها، واتخاذها مساجد، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة مَنْ بُنيت باسمه، وتعظيمه، والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال.

وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وتركوا ما دلَّ عليه القرآن العظيم من النهي عن هذا الشرك وما يُوصل إليه.

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتُوفُونَهُم قَالُوا أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾. [الاعراف: ٣٧]. كَفَرَهُمُ تَعَالَىٰ بِدَعْوَتِهِمْ مَنْ كَانُوا يَدْعُونَهُ مِنْ دُونِهِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا؛ وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾. [الحج: ١٨]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا * قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾. [الحج: ٢٠ - ٢١].

وهؤلاء المشركون/ عكسوا الأمر. فخالفوا ما بُلِّغ به الأمة، وأخبر به عن نفسه [١٥١/ب] ﷺ. فعاملوه بما نهاهم عنه: من الشرك بالله، والتعلُّق على غير الله؛ حتى قال قائلهم:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مِنَ الْوُدِّ بِهِ سَوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ
إِنْ لَمْ تَكُنْ فِي مَعَادِي أَخَذًا بِيَدِي فَضْلًا؛ وَإِلَّا فَقُلْ: يَا رَلَّةَ الْقَدَمِ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا وَمِنْ عِلْمِكَ عِلْمَ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ!!^(١)

فانظر إلى هذا الجهل العظيم، حيثُ اعتقد أنه لا نجاة له إلا بعبادته وليأذ به غير الله.

(١) الآيات من «قصيدة البردة» لمحمد بن سعيد البوصيري (ت ٦٩٦).

وانظر إلى هذا الإطراء العظيم، الذى تجاوز الحدَّ فى الإطراء؛ الذى نهى عنه ﷺ بقوله «لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابنَ مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا عبدُ الله ورسوله، رواه مالك وغيره^(١). وقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾. [الأنعام: ٥٠].

فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة، والمحادة لله ورسوله. وهذا الذى يقوله هذا الشاعر هو الذى فى نفوس كثير، خصوصا ممن يدعى العلم والمعرفة، ورأوا قراءة هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمها من القربات، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن حذيفة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان». رواه أبو داود بسند صحيح^(٢).

ش: وذلك لأنَّ المعطوف بالواو يكون مساوياً للمعطوف عليه؛ لكونها إنَّما وضعت لمُطلق الجمع فلا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً.

وتسوية المخلوق بالخالق شركٌ، إنْ كان فى الأصغر - مثل هذا - فهو أصغر، وإنْ كان فى الأكبر فهو أكبر؛ كما قال تعالى عنهم فى الدار الآخرة: ﴿ثَالِثٌ إِنَّ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. [الشعراء: ٩٧ - ٩٨]. بخلاف المعطوف بـ: ثم. فإنَّ المعطوف بها يكون مُتراخياً عن المعطوف عليه بمُهلة. فلا محذور؛ لكونه صار تابعا.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن إبراهيم النخعى: أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ. وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، قَالَ: وَيَقُولُ: لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فَلَان. وَلَا يَقُولُ: لَوْلَا اللَّهُ وَفَلَان^(٣).

ش: قد تقدّم الفرقُ بين ما يجوز وبين ما لا يجوز من ذلك. وهذا إنَّما هو فى الحى الحاضر الذى له قدرةٌ وسبب فى الشئ/، وهو الذى يجرى فى حقه مثلُ [١/١٥٢]

(١) مضى تخريجه.

(٢) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٩٨٠) قال النوى فى «الأذكار» (٣٠٨): إسناده صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى «كتاب الصمت» رقم (٣٤٧).

ذلك. وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم، ولا قدرة لهم على نفع ولا ضرر. فلا يُقال في حقهم شيء من ذلك؛ فلا يجوز التعلُّق عليه بشيء ما، بوجه من الوجوه.

والقرآنُ يبيِّنُ ذلك، ويُنادي بأنه يجعلهم آلهةً إذا سئلوا شيئاً من ذلك، أو رَغِبَ إليهم أحدٌ بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر. فمن تدبَّرَ القرآنَ ورزقَ فهمه، صار على بصيرة من دينه، وبالله التوفيق.

والعلمُ لا يُؤخذُ قسراً، وإنما يُؤخذُ بأسبابٍ ذُكرَ بعضها في قوله:

أخى، لن تنال العلمَ إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان ذكاء، وحرص، واجتهاد، وبلغه وإرشاد أستاذ، وطول زمان^(١)

وأعظمُ من هذه الستة: من رَزَقَهُ الله تعالى الفهمَ والحفظ، وأتعب نفسه في تحصيله. فهو الموفق لمن شاء من عباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾. [النساء: ١١٣].

ولقد أحسن العلامةُ ابن القيم رحمه الله تعالى، حيثُ قال:

والجهلُ داءٌ قاتلٌ وشفاءه أشران في التركيب مُتَّفَقَانِ
نصٌّ من القرآن، أو من سنة وطبيبُ ذاك العالمُ الرَّبَّانِي
والعلمُ أقسامٌ ثلاث، ما لها من رابع، والحق ذو تبيان
علمٌ بأوصاف الإله وفعله وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكلُّ في القرآن والسُنن التي جاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ما قال امرؤ متحذلقٌ بهواهما إلا من الهذيان^(٢)

(١) من كلام الشافعي رحمه الله تعالى، «الديوان» (٨١).

(٢) ابن القيم، «الكافية الشافية» (١٨٩).

(٤٢)

باب

ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله.
عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله» رواه ابن ماجة بسند حسن^(١).

ش: قوله: «لا تحلفوا بآبائكم» تقدّم النهي عن الحلف بغير الله عموماً.
قوله: «من حلف بالله فليصدق» هذا مما أوجبه الله على عباده، وحضهم عليه/ في كتابه؛ قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين». [١٥٢/ب]
[التوبة: ١١٩]. وقال: «والصادقين والصادقات». [الاحزاب: ٣٥]. وقال: «فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم». [محمد: ٢١].

وهو حال أهل البر؛ كما قال تعالى: «ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون». [البقرة: ١٧٧].

وقوله: «من حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله»، أمّا إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فاحلفه، فلا ريب أنه يجب عليه الرضا.

(١) ابن ماجة فى «السنن» رقم (٢١٠١) قال ابن حجر فى «فتح البارى» (١١/ ٥٣٥): سننه حسن.

وأما إذا كان فيما يجرى بين الناس، مما قد يقع فى الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك. فهذا من حق المسلم على المسلم: أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً، أو متبرئاً من تهمته. ومن حقه عليه: أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه؛ كما فى الأثر عن عمر: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك شرّاً وأنت تجد لها من الخير محملاً^(١).

وفيه: من التواضع والألفة والمحبة، وغير ذلك من المصالح التى يحبها الله مالا يخفى على من له فهم؛ وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله. ثم إنه يدخل فى حسن الخلق الذى هو أثقل ما يوضع فى ميزان العبد؛ كما فى الحديث^(٢) وهو من مكارم الأخلاق.

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى: من القيام بحقوقه وحقوق عباده، وإدخال السرور على المسلمين، وترك الإنقباض عنهم والترفع عليهم؛ فإن فيه من الضرر ما لا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال. وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكوراً فى كتب الأدب وغيرها. فمن رزق ذلك، والعمل بما ينبغى العمل به منه، وترك ما يجب تركه من ذلك: دلّ على وفور دينه، وكمال عقله، والله الموفق والمعين لعبده الضعيف المسكين، والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد فى كتاب «الزهد» كما فى «الدر المنثور» (٥٦٥/٧).

(٢) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٤٧٩٩) والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٠٠٣)، ٤ - ٢٠٠. وقال: هذا حديث حسن صحيح، من حديث أبو الدرداء.

(٤٣)

باب

قول: ما شاء الله وشئت

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ قول: ما شاء الله وشئت، عن قُتَيْبَةَ: أنَّ يهوديا أتى النبي ﷺ، فقال: إنكم تُشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا، أن يقولوا: وربُّ الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت. رواه النسائي وصححه^(١).

ش: قوله: (عن قُتَيْبَةَ). - بِمُثَنَّاةٍ مُصَغَّرَةٍ - بنت صيفى الأنصارية، صحابيةٌ / [١/١٥٣] مهاجرة، لها حديثٌ فى (سنن النسائي)، وهو المذكور فى الباب. ورواه عنها عبدالله بن يسار الجعفى.

وفيه: قبولُ الحقِّ ممن جاء به كائناً من كان. وفيه: بيانُ النهى عن الحلف بالكعبة، مع أنها بيتُ الله التى حجَّها وقصدها بالحج والعمرة فريضة. وهذا يُبيِّن أنَّ النهى عن الشرك بالله عامٌّ، لا يصلح منه شيء لا للملك مقرب ولا لنبي مرسل، ولا للكعبة التى هى بيتُ الله فى أرضه.

وَأنت ترى ما وقع من الناس اليوم، من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله. ومن المعلوم أنَّ الكعبة لا تضر ولا تنفع، وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها، وجعلها للأمة قبلة. فالطوافُ بها مشروع، والحلفُ بها ودعاؤها ممنوع.

فَمَيِّزْ أيها المكلف بين ما يُشرع وما يُمْنَع، وإن خالفك مَنْ خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام، بل هم أضلُّ سبيلاً.

(١) النسائي فى «المجتبى» (٦/٧) «وعمل اليوم والليلة» رقم (٩٨٦) قال ابن حجر فى «الإصابة» (٤/٣٨٩): حديثٌ صحيح.

قوله: (إنكم تُشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت)، والعبدُ وإن كان له مشيئةٌ فمشيئته تابعة لمشيئة الله، ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه؛ كما قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَما تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. [التكوير: ٢٨ - ٢٩]. وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَما تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣٠].

وفى هذه الآيات والحديث: الردُّ على القدرية والمعتزلة نفاةِ القدر، الذين يُثبتون للعبد مشيئةً تخالف ما أراد الله تعالى من العبد وشاءه.

وسياتى ما يُبطل قولهم - فى باب ما جاء فى مُنكرى القَدَر - إن شاء الله، وأنهم مجوسُ هذه الأمة.

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة فى هذا الباب وغيره، واعتقدوا أنَّ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله فى كلِّ شىء، مما يوافق ما شرعه الله وما يخالفه: من أفعال العباد وأقوالهم. فالكلُّ بمشيئته وإرادته، فما وافق شرعهُ رضيهِ وأحبه، وما خالفه كرهه من العبد؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

[١٥٣/ب] [الزمر: ٧].

وفيه: بيانُ أنَّ الحلف بالكعبة شرك؛ فإنَّ النبى ﷺ أقر اليهودى على قوله: إنكم تشركون.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وله أيضاً، عن ابن عباس: أنَّ رجلاً قال للنبى ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتنى لله ندا، بل ما شاء الله وحده»^(١).

ش: هذا يُقرّر ما تقدّم: من أنَّ هذا شرك؛ لوجود التسوية فى العطف بالوار. وقوله: «أجعلتنى لله ندا؟» فيه: بيانُ أنَّ من سوى العبد بالله ولو فى الشرك الأصغر فقد جعله نداً لله، شاء أم أبى. خلافاً لما يقوله الجاهلون بما يختص بالله

(١) النسائى فى «عمل اليوم والليلة» رقم (٩٨٨)، وقد مضى تخريجُه فى أوّل الكتاب.

تعالى من عبادته، وما يجب النهي عنه من الشرك بنوعيه. ومن يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولابن ماجة: عن الطّفل - أخى عائشة لأمها - قال: رأيتُ كائناً أتيتُ على نفر من اليهود، قلتُ: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزيرُ ابن الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررتُ بنفر من النصارى، فقلتُ: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيحُ ابن الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحتُ، أخبرتُ بها من أخبرت. ثم أتيتُ النبی ﷺ فأخبرته، فقال: «هل أخبرتُ بها أحداً؟» قلتُ: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد؛ فإنَّ طُفَيْلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمةً كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»^(٢).

ش: قوله: (عن الطّفل أخى عائشة لأمها). هو الطّفل بن عبد الله بن سَخْبَرَة، أخو عائشة لأمها، صحابيٌّ له حديثٌ عند ابن ماجة، وهو ما ذكره المصنّف في الباب.

وهذه الرؤيا حق، أقرّها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها. فنهاهم أن يقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله وحده.

وهذا الحديث والذي قبله: أمرهم أن يقولوا: ما شاء الله وحده؛ ولا ريب أنَّ هذا أكملُ في الإخلاص/ وأبعد عن الشرك، من أن يقولوا: ثم شاء فلان، لأن [١/١٥٤] فيه التصريح بالتوحيد، المنافي للتنديد من كل وجه. فالبصيرُ يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص.

وقوله: «كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها» ورد في بعض الطّرق: أنه كان

(١) قطعة من حديث، أخرجه البخارى في «الصحيح» رقم (٣١١٦) ومسلم في «الصحيح» رقم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضى الله عنه.

(٢) ابن ماجة في «السنن» رقم (٢١١٨) قال البوصيرى في «مصابيح الزجاجة» (٢/١٥١): هذا إسناده صحيح رجاله ثقات على شرط مسلم.

يمنعه الحياءُ منهم. وبعد هذا الحديث الذى حدثه به الطفيلُ عن رؤياه، خطبهم ﷺ فنهى عن ذلك نهياً بليغاً.

فما زال ﷺ يبلّغهم حتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعمة، وبلغ البلاغ المبين، صلواتُ الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وفيه معنى قوله ﷺ : «الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(١).

قلتُ: وإن كانت رؤيا منام فهي وحى، يثبت بها ما يثبت بالوحى أمراً ونهياً. والله أعلم^(٢).

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٩٨٩)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٦٣، ٢٢٦٥)، من حديث

أبى سعيد، وأبى هريرة، وابن عمر.

(٢) وذلك لإقرار النبى ﷺ له، وأمره به.

(٤٤)

باب

من سب الدهر فقد آذى الله

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابٌ من سَبِّ الدهر فقد آذى الله .
وقولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. [الجاثية: ٢٤]. فى الصحيح: عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «قال الله تعالى: يُؤْذِنِى ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» وفى رواية: «لا تسبوا الدهر، فإنَّ الله هو الدهر».

ش: قال العمادُ ابن كثير فى (تفسيره): يُخبر تعالى عن دَهْرِيَةِ الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ما ثمَّ إلا هذه الدار، يموت قومٌ ويعيش آخرون، وما ثمَّ معاد ولا قيامة.

وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقولوه الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم يُنكرون البدأة والرجعة.

وتقوله الفلاسفة الدهرية [الدَّوْرِيَّة] ^(١)، المنكرون للصانع ^(٢)، المعتقدون أنَّ فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كلُّ شىء إلى ما كان عليه. وزعموا أنَّ هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أى: يتوهَّمون ويتخيَّلون.

(١) إضافة من (ط) «والفسير».

(٢) ينظر: التعليق على هذا، فى الباب السابق.

[١٥٤/ب] فأماً الحديثُ الذى أخرجه صاحباً (الصحيح)، وأبو داود، والنسائى، من/ رواية سُفيان بن عيينه، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيّب، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذنى ابنُ آدمُ يسبُّ الدهرَ وأنا الدهر، بيدى الأمر، أقلبُ الليل والنهار»^(١). وفى رواية: «لا تسبوا الدهرَ فإنَّ الله هو الدهر»^(٢). وفى رواية: «لا يقل ابنُ آدم: يا خيبة الدهر، فإنى أنا الدهر، أرسل الليل والنهار، فإذا شئتُ قبضتهما»^(٣).

قال فى (شرح السنة): حديثٌ متفق على صحته، أخرجاه من طريق مَعمر، من أوجه عن أبى هريرة. قال: ومعناه أنَّ العرب كانت من شأنها ذم الدهر وسبُّه عند النوازل؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارعُ الدهر، وأبادهم الدهر. فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها، فكان مرجعُ سبها إلى الله عز وجل؛ إذا هو الفاعل فى الحقيقة للأمور التى يصفونها، فنهوا عن سب الدهر. انتهى باختصار^(٤).

وقد أورده ابنُ جرير بسياق غريب جداً، بهذا الطريق. قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذى يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله فى كتابه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. ويسبُّون الدهر، فقال الله عز وجل: «يؤذنى ابنُ آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر، أقلب الليل والنهار»^(٥).

وكذا رواه ابنُ أبى حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شريح بن النعمان، عن ابن عيينه، مثله.

ثم روى: عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٨٢٦، ٦١٨١، ٧٤٩١) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٤٦) وأحمد فى «المسند» (٣٩٥/٢، ٤٩١، ٤٩٦، ٤٩٩).

(٣) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٤٦) وأحمد فى «المسند» (٣١٨/٢)، وأخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦١٨٢) مختصراً.

(٤) البغوى، «شرح السنة» (٣٥٧/١٢).

(٥) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٥٢/٢٥).

هريرة: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يقول الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدى الليل والنهار» وأخرجه صاحبُ الصحيح، والنسائي من حديث يونس بن يزيد، به (١).

وقال محمد بن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: استقرضتُ عبدي فلم يعطني، وسبني عبدي، يقول: وا دهرا، وأنا الدهر» (٢).

قال الشافعي، وأبو عبيد، وغيرهما من الأئمة، في تفسير قوله: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» كانت العربُ في جاهليتها إذا أصابهم شدةٌ أو بلاءٌ أو [١/١٥٥] ملامة، قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله. فكانهم إنما سبوا الله سبحانه؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة. فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الذى يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسنُ ما قيل في تفسيره - وهو المراد - والله أعلم.

وقد غلط ابنُ حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية، فى عدّهم الدهر من الأسماء الحسنى؛ أخذوا من هذا الحديث. انتهى (٣).

وقد تبين معناه فى الحديث، بقوله: «أقلب الليل والنهار» وتقليبه تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه.

وفى هذا الحديث زيادةٌ لم يذكرها المصنف رحمه الله، وهى قوله: «بيدى الأمر».

قوله: وفى رواية «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر».

ومعنى هذه الرواية: هو ما صرح به فى الحديث، من قوله: «وأنا الدهر، أقلبُ الليل والنهار» يعنى: أن ما يجرى فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره يعلم منه تعالى وحكمة، لا يشاركه فى ذلك غيره، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٥٢/٢٥). والحاكم فى «المستدرک» (٤١٨/١) وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) ابن كثير فى «التفسير» (٢٥٣/٧) والغلط فيه من وجهين: أحدهما: أن أسماء الله حسنى، والدهر لا معنى له إلا الوقت، وثانيهما: قوله فى الحديث: «أقلب الليل والنهار» وهى الدهر.

فالواجبُ عند ذلك حمدُهُ في الحالتين، وحُسْنُ الظنِّ به سبحانه وبحمده،
والرجوعُ إليه بالتوبة والإنابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. [الأعراف: ١٦٨]، وقال: ﴿وَبَلَوَكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا
تُرْجِعُونَ﴾. [الأنبياء: ٣٥].

ونسبةُ الفعلِ إلى الدهر، ومُسَبِّتُهُ كثيرٌ في أشعار المولَّدين^(١)، كابن المعتز^(٢)،
والتنبي، وغيرهما.

وليس منه وصفُ السنين بالشدة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ سَعٌّ شَدَادٌ﴾. [يوسف: ٤٨]. قال بعضُ الشعراء:

إِنَّ اللَّيَالِيَّ مِنَ الزَّمَانِ مَهُولَةٌ تُطَوَّى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا الْأَعْمَارُ
فَقَصَارُهُنَّ مَعَ الْهَمُومِ طَوِيلَةٌ وَطَوَالُهُنَّ مَعَ السَّرُورِ قَصَارُ
وقولُ أبي تمام:

أَعْوَامٌ وَصَلَ كَادُ يُنْسَى طَيِّبُهَا ذَكَرُ النَّوَى، فَكَأَنَّهَا أَيَّامُ
ثُمَّ انْبَرَتْ أَيَّامٌ هَجَرَ أَعْقَبَتْ نَحْوَى أَسَى، فَكَأَنَّهَا أَعْوَامُ
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السَّنُونَ وَأَهْلُهَا فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامُ^(٣)

(١) ينظر: «القاموس المحيط» و«كتاب عيار الشعراء» (١٢).

(٢) أبو العباس، عبد الله بن المعتز بن المتوكل، تولَّى الخلافةَ مدة قصيرة، بعد خلع المُقتدر، مات (٢٩٦هـ)
«وفيات الأعيان» (٢/٢٦٣).

(٣) أبو تمام، «الديوان» (٢٨٢).

(٤٥)

باب

التسمي بقاضي القضاة ونحوه

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ التسمي بقاضي القضاة ونحوه.

ش: ذكر المصنّف رحمه الله هذه الترجمة: إشارة إلى النهي عن التسمي بقاضي القضاة، قياساً على ما في حديث / الباب؛ لكونه يُشبهُ في المعنى فيُنهى عنه. [١٥٥/ب]

قال المصنّف رحمه الله تعالى: في الصحيح: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أخنع اسمٍ عند الله رجلٌ تسمَّى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله»^(١).

قال سفيان: مثلُ شاهان شاه^(٢).

ش: لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى. فهو مَلِكُ الأملاك، لا ملك أعظم ولا أكبر منه، ومالك الملك ذو الجلال والإكرام. وكلُّ مُلك يؤتبه الله من يشاء من عباده فهو عاريةٌ يُسرّع ردها إلى المعير، وهو الله. ينزع الملك من ملكه تارة، وينزع الملك منه تارة فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه.

وأما رب العالمين فملكه دائمٌ كامل لا انتهاء له، بيده القسط يخفضه ويرفعه^(٣)، يحفظ على عباده أعمالهم بعلمه سبحانه، وما تكتبه الحفظة عليهم. فيُجازى كلُّ عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ كما ورد في الحديث «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله»^(٤).

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٦٢٠٦) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢١٤٣).

(٢) ينظر: ابن رجب في «التاريخ» (١/٨٤).

(٣) قطعة من حديث، أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٤٦٨٤، ٥٣٥٢، ٦٤٩٦، ٧٤١١) ومسلم في

الصحيح رقم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٩٦/٥) من حديث حذيفة.

قوله: (قال سفيان - يعنى ابن عيينة - مثل شاهان شاه). عند العجم. عبارة عن ملك الأملاك، ولهذا مثل به سفيان؛ لأنه عبارة عنه بلغة العجم.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وفى رواية: «أغيظُ رجل على الله يوم القيامة وأخبثُهُ»^(١).

قوله: «أخنع» يعنى: أوضع.

ثم: قوله: «أغيظ» من الغيظ، وهو مثل الغضب والبغض. فيكون بغضاً إلى الله، مغضوباً عليه، والله أعلم.

قوله: «وأخبثُهُ» وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيثٌ عند الله. فاجتمعت فى حقه هذه الأمور؛ لتعاضده فى نفسه، وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التى هى من أعظم التعظيم. فتعظمه فى نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل، وضعه عند الله يوم القيامة. فصار أخبثَ الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقّهم؛ لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم، لتعاضده على خلق الله بنعم الله.

قوله: (أخنع، يعنى أوضع). هذا هو معنى أخنع، فيفيد ما ذكرنا فى معنى أغيظ، أنه يكون حقيراً بغضاً عند الله.

وفيه: التحذيرُ من كل ما فيه تعاضد؛ كما أخرج أبو داود، عن أبى مجلز، قال: خرج معاويةُ على ابن الزبير، وابن عامر. فقام ابن عامر، وجلس ابن الزبير. فقال معاوية لابن عامر: اجلس، فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يتمثل له الرجال/ قياماً فليتبوأ مقعده من النار» أخرجه الترمذى أيضاً، وقال حسن^(٢).

وعن أبى أمانة رضى الله عنه، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متكئاً على

(١) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢١٤٣) وأحمد فى «المسند» (٣١٥/٢).

(٢) أبو داود فى «السنن» رقم (٥٢٢٩) والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٧٥٦)، قال ابن القيم فى «التهذيب» (٨٤/٨): وهذا الإسناد على شرط الصحيح. ينظر: ابن تيمية «فتاوى فى حكم القيام» (١٢).

عصا، فقمنا إليه، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضا» رواه أبو داود^(١).

وقوله: «أغبطُ رجل» هذا من الصفات التي تُمرُّ كما جاءت، وليس شيء مما ورد في الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى، إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل، كما تقدم. والبابُ كله واحد، وهذا هو قول أهل السنة والجماعة، من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرقة الناجية من الثلاث والسبعين فرقة. وهذا التفرُّق والاختلاف إنما حدث في أواخر القرن الثالث وما بعده، كما لا يخفى على من له معرفةٌ بما وقع في الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم، والله المستعان.

(١) أبو داود في «السنن» رقم (٥٢٣٠). وأخرج المرفوع، مسلم «في الصحيح» رقم (٤١٣) من حديث حابر. وأصله في «صحيح البخاري» رقم (٦٨٨) من حديث أم المؤمنين عائشة.



(٤٦)

باب

احترام أسماء الله تعالى ، وتغيير الاسم لأجل ذلك

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ احترامِ أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم لأجل ذلك.

عن أبي شريح: أنه كان يُكنى أبا الحكم. فقال له النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ» فقال: «إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كَلَا الْفَرِيقَيْنِ. فقال: «مَا أَحْسَنَ هَذَا. فما لك من الولد؟» قلت: شريح ومسلم وعبد الله. قال: «فمن أكبرهم؟» قلت: شريح. قال: «فأنت أبو شريح» رواه أبو داود، وغيره^(١).

ش: قوله: (عن أبي شريح)، قال في (خلاصة التذهيب): هو أبو شريح الخزاعي، اسمه خويلد بن عمرو، أسلم يوم الفتح. له عشرون حديثاً، واتفقا على حديثين وانفرد البخاريُّ بحديث، وروى عنه: أبو سعيد المقبريُّ، ونافع بن جبير، وطائفة. قال ابنُ سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وستين. وقال الشارح: اسمه هانيء بن يزيد الكندي، قاله الحافظ. وقيل: الحارث الضبابي، قاله المزي^(٢) (٣).

قوله: (يكنى)، الكنية: ما صُدِّرَ بِأَبٍ أَوْ أُمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَاللُّقْبُ مَا لَيْسَ كَذَلِكَ، كَزَيْنِ الْعَابِدِينَ وَنَحْوِهِ.

وقولُ النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ» فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْحَكَمُ فِي

(١) أبو داود في «السنن» رقم (٤٩٥٥)، وهو حديث صحيح.

(٢) المزي، «تهذيب الكمال» (٣٣/٤٠٠).

(٣) الشارح، سليمان بن عبد الله «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (٦١٥)

الدنيا والآخرة؛ يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزله على أنبيائه ورسله، وما من قضية إلا والله فيها حكمٌ مما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة.

[١٥٦/ب] وقد يسر الله معرفة أكثر ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة؛ فإنها لا تجتمع على ضلالة^(١)، فإن العلماء وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحداً.

فمن رزقه الله تعالى قوة الفهم، وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء، يسر له ذلك بفضلله ومنه [عليه، وإحسانه إليه]. فما أجّلها من عطية، فنسأل الله من فضله^(٢).

وقوله: «وإليه الحكم في الدنيا والآخرة» كما قال تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾. [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾. [النساء: ٥٩].

فالحكم إلى الله: هو الحكم إلى كتابه. والحكم إلى رسوله: هو الحكم إليه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته.

وقد قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن، قال له: «بِمَ تحكم؟» قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟» قال بسنة رسول الله ﷺ. قال: «فإن لم تجد؟» قال: اجتهد رأيي. فقال: «الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله»^(٣).

فمعاذ من أجل علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة؛ ولهذا ساغ له الاجتهاد إذا لم يجد للقضية حكماً في كتاب الله ولا في سنة رسوله. بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط في الأحكام، ممن يجهل حكم الله في كتابه وفي سنة رسوله، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة، وهيهات!!

(١) قطعة من حديث، أخرجه أبو داود في «السنن» رقم (٤٢٥٣) والطبراني في «الكبير» رقم (٣٤٤٠) وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٩٢) عن أبي مالك الأشعري.

(٢) ساقط من الأصل، وهو انتقال نظر.

(٣) مضى تخريجه.

وأما يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله، إذا نزل لفصل القضاء بين العباد، فيحكم بين خلقه بعلمه. وهو الذى لا يخفى عليه خافية من أعمال خلقه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. [النساء: ٤٠]. والحكم يوم القيامة إنما هو بالحسنات والسيئات، فيؤخذ للمظلوم من الظالم، من حسناته بقدر ظلامته إن كان له حسنات. وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم، فطُرح على سيئات الظالم^(١)، لا يزيد على هذا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، ولا ينقص هذا عن حقه بمِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

قوله: فَإِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِي كَلَا الْفَرِيقَيْنِ، فقال: «ما أحسن هذا» فالمعنى - والله أعلم - أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه/ صاحبُ إنصافٍ وتحرُّ للعدل بينهم، ومعرفة ما يُرضيهم من الجانبين، [١/١٥٧] صار عندهم مرضيا.

وهذا هو الصلح؛ لأن مداره على الرضى لا على إلزام، ولا على أحكام الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا على الاستناد إلى أوضاع الجاهلية: من أحكام كُبرائهم وأسلافهم، التى تخالف حكم الكتاب والسنة. كما قد يقع اليوم كثيرا، كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله ولا إلى حكم رسوله. وإنما المعتمدُ عندهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم.

وقد يلتحق بهذا بعضُ المقلدة لمن لا يسُغُ تقليده، فيعتمدُ على تقليده ويترك ما هو الصواب، الموافق لأصول السنة والكتاب، والله المستعان.

وقوله: «فما لك من الولد؟» قال: شريح، ومسلم، وعبد الله، قال: «فمن أكبرهم؟» قلت: شريح. قال: «فأنت أبو شريح» فيه: تقديمُ الأكبر فى الكنية وغيرها غالبا. وجاء هذا المعنى فى غير ما حديث، والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٥٨١) من حديث أبى هريرة.



(٤٧)

باب

من هزل بشئ، فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابٌ من هزل بشئ فيه ذكرُ الله أو القرآن أو الرسول.

ش: أى: فقد كفر.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿وَلْتَن سَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِالله وآياته ورسوله كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾. [التوبة: ٦٥].

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة - دخل حديثُ بعضهم فى بعض - أنه قال رجلٌ فى غزوة تبوك: ما رأينا مثل قُرأتنا هؤلاء أرغبَ بطونا، ولا أكذبَ السُّنا، ولا أجبنَ عند اللقاء، يعنى رسول الله ﷺ وأصحابه القُراء. فقال له عوفُ بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ. فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجلُ إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونتحدثُ حديثَ الركب؛ نقطع به عنا الطريق. قال ابن عمر: كأنى انظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإنَّ الحجارة تنكبُ رجله، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. فيقول له رسولُ الله ﷺ ﴿أبِالله وآياته ورسوله كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾. [التوبة: ٦٥ - ٦٦]. ما يلتفت إليه، وما يزيده عليه^(١).

ش: قال العمادُ ابن كثير رحمه الله فى (تفسيره): قال أبو معشر المدنى، عن

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٦٩١٢، ١٦٩١٦، ١٦٩١١، ١٦٩١٤، ١٦٩١٥) وإسناده

محمد بن كعب القرظي، وغيره، قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قرائنا هؤلاء؟ إلا أرغبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال: ﴿أبأله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعمة عن طائفة منكم نعتب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾. [التوبة: ٦٥ - ٦٦]. وإن رجليه ليسفعان الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنسعة ناقة رسول الله ﷺ.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر، قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوما: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقا بحقبة ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أبأله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾. وقد رواه الليث، عن هشام بن سعد، بنحو من هذا.

قال ابن إسحاق، وقد كان جماعة من المنافقين، منهم: وديعة بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع، حليف لبني سلمة، يقال له: مخشى ابن حمير، يُشِيرُونَ إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: اتحسبون جلاد بني الأصفر يقتال العرب بعضهم بعضا؟ والله لكانا بكم غدا مقرنين في الحبال؛ إرجافاً وترهيباً للمؤمنين. فقال مخشى بن حمير: والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإنا نتفلت أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه.

وقال رسول الله ﷺ - فيما بلغني - لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا. فإن أنكروا، فقل: بلى قُلْتُمْ كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار، فقال: ذلك لهم. فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت - ورسول الله ﷺ واقف على راحلته - فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول

الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مخشى بن حمير: يا رسول الله قعد بى اسمى واسم أبى، فكان الذى عناء - أى: بقوله تعالى: ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذِّبُ طَائِفَةً﴾ - فى هذه الآية: مخشى بن حمير، فسُمي: عبد الرحمن، وسأل الله أن يُقتل شهيدا لا يُعلم بمكانه. فقتل يوم اليمامة^(١)، فلم يوجد له أثر^(٢).

وقال عكرمة فى تفسير هذه الآية: كان رجلٌ ممن - إن شاء الله - عفا عنه، يقول: اللهم إنى أسمع آية أنا أُعْتَى بها، تقشعر منها الجلود ويجبُ منها القلب. اللهم فاجعل وفاتى قتلا فى سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسَّلت، أنا كفنت، أنا دفنت، قال: فأصيب يوم اليمامة، فما أحدٌ من المسلمين إلا وقد وجد غيره^(٣).

قوله: / ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أى: بهذا المقال الذى استهزأتم [١/١٥٨] به ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذِّبُ طَائِفَةً﴾ أى: لا يُعْفَى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بأنهم كانوا مجرمين﴾ أى: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة، انتهى^(٤).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقد أمره الله أن يقول: ﴿قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ وقول من يقول: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولا بقلوبهم: لا يصح؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم؛ فإنهم لم يزالوا كافرين فى نفس الامر، وإن أُريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يُظهروا للناس إلا خواصهم، وهم مع خواصهم مازالوا كذلك، ولا يدل اللفظ على أنهم مازالوا منافقين^(٥).

وقال رحمه الله فى موضع آخر: فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم، مع قولهم: إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل إنما كنا نخوض ونلعب.

وبيّن أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا من شرح صدرأ بهذا الكلام، ولو كان الإيمان فى قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام. والقرآنُ بيّن أن

(١) وكانت وقعة اليمامة فى سنة إحدى عشرة، «تاريخ ابن كثير» (٣/ ٣٣٠).

(٢) ذكره ابن هشام فى «السيرة» (٢/ ٥٢٤).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٦٩١٣).

(٤) ابن كثير فى «التفسير» (٤/ ١١١ - ١١٣).

(٥) ابن تيمية فى «كتاب الإيمان» (٢٥٩).

إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه؛ كقوله: ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولّى فريقٌ منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريقٌ منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مُذعنين * أفنى قلوبهم مرضٌ أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون * إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴿ [النور: ٤٧ - ٥١] فنفى الإيمان عمّن تولّى عن طاعة الرسول، وأخبر أنّ المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبيّن أنّ هذا من لوازم الإيمان. انتهى.

وفيه: بيان أنّ الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها، أو عمل يعمل به. وأشدّها خطراً إرادات القلوب، فهي كالبحر الذى لا ساحل له^(١). ويُفِيد الخوف من النفاق الأكبر؛ فإنّ الله تعالى أثبت لهؤلاء إيماناً قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابنُ أبى مُليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه^(٢). نسأل الله السلامة والعفو والعافية فى الدنيا والآخرة.

(١) ينظر: ابن القيم، «طريق الهجرتين» (٢٢١).

(٢) أخرجه أبو بكر الخلال فى كتاب «السنة» رقم (١٠٨١)، ومحمد بن نصر المروزي فى «تعظيم قدر الصلاة» رقم (٦٨٨) والبخارى فى «الصحيح» (١٠٩/١) تعليقا.

(٤٨)

باب

قول الله تعالى:

﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي﴾

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿ولئن أذقناه رحمةً منا من بعد ضراءٍ مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعةَ قائمةً ولئن رُجعت إلى ربّي إنّ لي عنده للحُسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذابٍ غليظ﴾. [فصلت: ٥٠].

ش: ذكر المصنّف رحمه الله تعالى عن ابن عباس، وغيره من المفسرين - في معنى هذه الآية وما بعدها - ما يكفى في المعنى ويشفى.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: قال مُجاهد: هذا بعملى، وأنا محقّق به. وقال ابن عباس: يُريد من عندى. وقوله: ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ [القصص: ٧٨]. قال قتادة: على علم منى بوجوه المكاسب^(٢). وقال آخرون: على علم من الله أنى له أهل^(٣). وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف^(٤).

ش: وليس فيما ذكره اختلاف، وإنما هى أفراد المعنى.

قال العمادُ ابن كثير رحمه الله - فى معنى قول الله تعالى: ﴿ثم إذا خولناهم نعمَةً منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة﴾. [الزمر: ٤٩]. يُخبر أنّ الإنسان فى حال الضرّ يَضْرَع إلى الله عز وجل، ويُتّيب إليه ويدعوه، ثم إذا خولّه نعمَةً منه

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٣/٢٥).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٦/٤٤٠).

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن السدى، كما فى «المصدر السابق».

(٤) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٢/٢٤) والقرائى وعبد بن حميد وابن المنذر، كما فى «الدر

المنثور» (٧/٢٣٤).

طغى وبغى و ﴿قال إنما أوتيته على علم﴾ أى: لما يعلم الله استحقاقى له، ولولا أنى عند الله خصيصٌ لما خولنى هذا.

قال الله عز وجل: ﴿بل هى فتنة﴾ أى: ليس الأمر كما زعم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك ﴿بل هى فتنة﴾ أى: اختبار ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ أى: هذه المقالة، وزعم هذا الزعم، وادعى هذه الدعوى كثيرٌ من سلف من الأمم ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أى: فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون؛ كما قال تعالى مُخبراً عن قارون: ﴿إذ قال له قومُه لا تفرح إن الله لا يُحبُّ الفرحين * وابْتَغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرةَ ولا تنسِ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إنَّ الله لا يُحبُّ المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندى أولم يعلم أنَّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدُّ منه قوةً وأكثرُ جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾. [القصص: ٧٦ - ٧٨]. وقال تعالى: ﴿وقالوا نحن أكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحن بمُعذِّبين﴾. [سبا: ٣٥]. انتهى^(١).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن أبى هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ ثلاثةً من بنى إسرائيل: أبرص وأقرع، وأعمى. فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً. فأتى الأبرص، فقال: أىُّ شىء أحبُّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني/ الذى قد قدرنى الناس به. قال: فمسحه فذهب عنه قدره، فأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا. قال: أىُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: الإبل أو البقر - شك إسحاق - فأعطى ناقهً عُشراء، فقال: بارك الله لك فيها. قال: فأتى الأقرع، فقال: أىُّ شىء أحبُّ إليك؟ قال: شعرٌ حسن، ويذهب عني الذى قد قدرنى الناس به. فمسحه، فذهب عنه، وأعطى شعرا حسنا. قال: أىُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر أو الإبل، فأعطى بقرة حاملا. فقال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى، فقال: أىُّ شىء أحبُّ إليك؟ قال: أن يردَّ الله علىَّ بصرى، فأبصر به الناس. فمسحه، فردَّ الله إليه بصره، قال: فأىُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم.

(١) ابن كثير فى «التفسير» (٩٦/٧).

فأعطى شاة والدا، فأنْتَجَ هذان، ووَلَدَ هذا. فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم. قال: ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بى الحبالُ فى سفرى هذا، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بغيراً أتبلِّغ به فى سفرى، فقال: الحقوقُ كثيرة!، فقال له: كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقْدَرُكَ الناس، فقيراً، فأعطاك الله المال؟ فقال: إنما ورثتُ هذا المال كابرًا عن كابر، قال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت. قال: وأتى الاقرع فى صورته وهيته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، قال: فأتى الأعمى فى صورته وهيته، فقال: رجل مسكين، وابن سبيل. قد انقطعت بى الحبال فى سفرى. فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذى ردَّ عليك بصرك شاةً أتبلِّغ بها فى سفرى، فقال: قد كنتُ أعمى فردَّ الله علىَّ بصرى، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله. فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضى الله عنك، وسخط على صاحبيك». أخرجاه^(١).

ش: (أخرجاه). أى: البخارى، ومسلم.

والناقةُ العُشراء - بضم العين وفتح الشين وبالد - هى الحامل.

قوله: «أنتج» وفى رواية «فتتج» معناه: تولَّى نتاجها، والناتِجُ للناقة كالقابلة للمرأة.

قوله: «وَلَدَ هذا» هو بتشديد اللام، أى: تولَّى ولادتها، وهو بمعنى «أنتج» فى الناقة. فالمولد والناتِج والقابلة بمعنى واحد، لكن هذا للحيوان، وذلك لغيره.

وقوله: «انقطعت بى الحبال» هو بالخاء المهملة والباء الموحدة، أى: الأسباب.

وقوله: «لا أجهدك» معناه: لا أشق عليك فى ردِّ شيء تأخذه، أو تطلبه من مالى، ذكره النووى^(٢) (٣).

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٤٦٤، ٦٦٥٣)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٩٦٤).

(٢) كتب فى هامش الأصل ما نصه: صح أصل المصنف.

(٣) النووى فى «المنهاج» (٩٨/١٨).

وهذا حديثٌ عظيم، وفيه مُعتبر: فإنَّ الأوَّلين جحدوا نعمة الله، فما أقرَّ الله بنعمة، ولا نسبوا النعمة إلى المُنعم بها، ولا أديا حق الله فيها بنعمه، فحلَّ عليهما السخط.

وأما الأعمى: فاعترف بنعمة الله، ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدَّى حق [١٥٩/ب] الله فيها. فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة، لما أتى بأركان الشكر/ الثلاثة التي لا يقوم الشكرُ إلا بها، وهى: الإقرارُ بالنعمة، ونسبُها إلى المُنعم، وبذلُها فيما يحب.

قال العلامة ابن القيم: أصلُ الشكر: هو الاعترافُ بإنعام المُنعم، على وجه الخضوع له والذل والمحبة. فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلا بها، لم يشكرها. ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها، لم يشكرها أيضا. ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكرُ لنعمة المنعم عليه بها، فقد كفرها. ومن عرف النعمة والمنعم، وأقر بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له ويحبه ويرض به وعنه، لم يشكرها أيضا.

ومن عرفها وعرف المنعم وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضى به وعنه، واستعملها فى محابه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها. فلا بد فى الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميلُ إلى المنعم ومحبته والخضوع له^(١).
قوله: «قد قدرنى الناس» بكراهة رؤيته وقربه منهم.

(١) ينظر: ابن القيم، «مدارج السالكين» (٢/٢٤٢).

(٤٩)

باب

قول الله تعالى:

﴿فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يُشركون﴾. [الأعراف: ١٩٠].

ش: قال الإمام أحمد رحمه الله - في معنى هذه الآية - : حدّثنا عبد الصمد، حدّثنا عمر بن إبراهيم، حدّثنا قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَةَ، عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سَمِّيه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش. فكان ذلك من وحى الشيطان وأمره».

وهكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن بشار، بنُدار، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به.

ورواه الترمذی - في تفسير هذه الآية - عن محمد بن المثني، عن عبد الصمد، به، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ؛ لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم. ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه.

ورواه الحاكم في (مستدرکه)، من حديث عبد الصمد، مرفوعاً، وقال: هذا حديثٌ صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في

(تفسيره)، عن أبي زرعة الرازي، عن هلال بن قياض، عن عمر بن إبراهيم، به مرفوعاً^(١).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن «جعل له شركاء فيما آتاهما» قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم^(٢).

وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: [١/١٦٠] هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولادا فهو دوا ونصروا^(٣). وهذا إسناد صحيح عن الحسن رحمه الله^(٤).

قال العماد ابن كثير في (تفسيره): وأما الآثار: فقال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادا فتعبدهم الله، وتسميه: عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت؛ فأتاها إبليس وآدم فقال: أما إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش، فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله «هو الذي خلقكم من نفس واحدة» إلى آخر الآية^(٥) [الأعراف: ١٨٩].

وقال العوفي، عن ابن عباس: فأتاهما الشيطان فقال: هل تدریان ما يولد لكما؟ أم هل تدریان ما يكون: أبهيم أم لا؟ وزين لهما الباطل؛ إنه غوى مبين. وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بى لم يخرج سويا، ومات كما مات الأول. فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك

(١) أحمد في «المسند» (١١/٥) وابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (١٥٥١٣)، والترمذي في «الجامع» رقم (٣٠٧٩) والحاكم في «المستدرک» (٥٤٥/٢) وصححه ووافقه الذهبي وابن أبي حاتم في «التفسير» كما في «الدر المنثور» (٦٢٣/٣) قال ابن كثير في «التاريخ» (٨٩/١): رواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه. فهذه حلة قاذحة في الحديث، والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إلى النبي - ﷺ - خطأ، والصواب وقفه. والله أعلم. وقال في «التفسير» (٥٣٩/٣): هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه وذكرها.

(٢) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (١٥٥٢٦).

(٣) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (١٥٥٢٨).

(٤) ابن كثير، «التفسير» (٥٣٠/٣).

(٥) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (١٥٥١٦).

قول الله تعالى: ﴿فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾^(١).

وذكر مثله: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. ورواه ابن أبي حاتم.
وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه: كمجاهد، وعكرمة،
وسعيد بن جبير، ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدي، وجماعة من الخلف. ومن
المفسرين ومن المتأخرين، جماعات لا يحصون كثرة.

قال العماد ابن كثير: وكأنه أصله - والله أعلم - مأخوذ من أهل الكتاب^(٢).
قلت: وهذا بعيد جداً^(٣).

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم مُعَبَّدٍ
لغير الله، كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك. حاشى عبد المطلب^(٤).
ش: ابن حزم: هو عالم الأندلس، أبو محمد، على بن أحمد بن سعيد بن
حزم القرطبي الظاهري. صاحب التصانيف، توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة.
وله اثنتان وسبعون سنة.

وعبد المطلب هذا: هو جدُّ رسول الله ﷺ، وهو ابنُ هاشم بن عبد مناف بن
قُصَي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن
كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وما [١٦٠/ب]
فوق عدنان مختلف فيه. ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل
عليهما السلام^(٥).

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (١٥٥١٧).

(٢) ابن كثير في «التفسير» (٥٣١/٣).

(٣) قال سليمان بن عبد الله في «تيسير العزيز الحميد» (٦٣٠): وإذا تأملت سياق الكلام من أوله إلى آخره مع
ما فسر به السلف تبين قطعاً أن ذلك في آدم وحواء عليهما السلام. والعجيب ممن يكذب بهذه القصة
وينسى ما جرى أول مرة!

وقال ابن كثير في «التفسير» (٥٣١/٣): وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا،
وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء.

(٤) ابن حزم «مراتب الاجماع» (١٥٤).

(٥) قال ابن كثير في «التاريخ» (١٨١/٢): لا خلاف في أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل
عليهما السلام، واختلفوا في عدة ما بينهما، وكره بعض السلف الاشتغال بها، وأما الأنساب إلى عدنان
فم محفوظة شهيرة جداً.

حكى رحمه الله: اتفاق العلماء على تحريم كل ما عبّد لغير الله؛ لأنه شرك في الربوبية والإلهية؛ لأن الخلق كلهم مُلكُ الله وعبيد له، استعبدتهم لعبادته وحده، وتوحيده في ربوبيته وإلهيته: فمنهم من عبد الله وحده في ربوبيته وإلهيته، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته. وأحكامه القدرية جارية عليهم ولا بُد؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾. [مريم: ٩٣] فهذه هي العبودية العامة. وأمّا العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾. [الزمر: ٣٦]. ونحوها.

قوله: (حاشى عبد المطلب)، هذا استثناء من العموم المستفاد من كل. وذلك أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيه؛ لأن أصله من عبودية الرق^(١).

وذلك أن المُطَلَّب أخا هاشم قدم المدينة، وكان ابن أخيه شيبه هذا قد نشأ في أخواله بنى النجار من الخزرج، لأن هاشماً تزوّج فيهم امرأة، فجاءت منه بهذا الابن.

فلما شبّ في أخواله وبلغ سنّ التمييز، سافر به عمّه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته. فقدم به مكة وهو رديفه، فرآه أهل مكة وقد تغيّر لونه بالسفر، فحسبوه عبداً للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب. فعلق به هذا الاسم وركبه، فصار لا يذكر ولا يُدعى إلا به، فلم يبق للأصل معنى مقصود. وقد قال النبي ﷺ «أنا ابن عبد المطلب»^(٢).

وقد صار معظماً في قريش والعرب، فهو سيّد قريش وأشرفهم في جاهليته، وهو الذى حفر رمزم وصارت له وفي ذريته من بعده.

وعبدُ الله: والدُ رسول الله ﷺ أحدُ بنى عبد المطلب، وتوفى في حياة أبيه؛ قال الحافظ صلاح الدين العُلّاى في كتابه (الدرة السنية في مولد خير البرية): كان

(١) وقال ابن معمر، كما في «الدرر السنية» (٤١٥/٣) سبب الاستثناء، لظاهر ما صح عن النبي ﷺ أنه قال في غزوة حنين، لما انتهزم عنه أصحابه إلا قليلاً «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» ويأتى.

(٢) أخرجه البخارى في «الصحيح» رقم (٢٨٦٤، ٢٨٧٤، ٢٩٣٠، ٣٠٤٢، ٤٣١٥، ٤٣١٦، ٤٣١٧)، ومسلم في «الصحيح» رقم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب.

سنُّ أبيه عبد الله حين حملت منه آمنةُ برسول الله ﷺ نحو ثمانية عشر عاماً، ثم ذهب إلى المدينة ليمتار منها تمراً لأهله، فمات بها عند أخواله بنى النجَّار، والنبي ﷺ / حملٌ على الصحيح. انتهى.

[١/١٦١]

قلتُ: وصار النبي ﷺ لما وضعت أمُّه في كفالة جده عبد المطلب.

قال الحافظُ الذهبي: وتوفي أبوه عبد الله ولِلنبي ﷺ ثمانية وعشرون شهراً، وقيل: أقل من ذلك، وقيل: وهو حمل. توفي بالمدينة، وكان قد قدمها ليمتار بها تمراً، وقيل: قد مرَّ بها راجعاً من الشام، وعاش خمساً وعشرين سنة. قال الواقدي: وذلك أثبت الأقاويل في سنِّه ووفاته.

وتُوفيت أمُّه آمنة بالأبواء^(١)، وهي راجعةٌ به ﷺ إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار، وهو يومئذ ابنُ ست سنين ومائة يوم. وقيل: ابنُ أربع سنين.

فلما ماتت أمُّه حملته أمُّ أيمن مولأته إلى جدِّه، فكان في كفالته إلى أن تُوفى جدُّه، ولِلنبي ﷺ ثمانين سنين، فأوصى به إلى عمِّه أبي طالب. انتهى كلامُ الحافظ^(٢).

قال المصنَّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس في الآية، قال: لما تَغَشَّاهَا آدمُ حملت، فاتاهما إبليسُ. فقال: إني صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة، لتُطِيعُنِي أو لأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنِي أَيْلٍ، فيخرج من بطنك فيشقَّه. ولا فعلنَّ ولا فعلنَّ، يخوفُهما. سمَّياه عبد الحارث. فأبيا أن يُطِيعاه، فخرج ميتاً. ثم حملت، فاتاهما. فقال مثل قوله، فأبيا أن يطِيعاه، فخرج ميتاً. ثم حملت فاتاهما، فذكر لهما. فأدركهما حُبُّ الولد، فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ رواه ابنُ أبي حاتم^(٣).

ش: قد قدَّمنا نظيره عن ابن عباس في المعنى.

قال المصنَّفُ رحمه الله تعالى: وله بسندٌ صحيح، عن قتادة، قال: شُرَكَاءُ في

(١) قرية من أعمال المدينة، بينها وبين الجُحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً. «معجم البلدان» (١/٧٩).

(٢) الذهبي في «تاريخ الإسلام» السيرة (٤٩).

(٣) ابن أبي حاتم في «التفسير»، وأخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٣/٦٢٤).

طاعته، ولم يكن في عبادته^(١). وله بسند صحيح، عن مجاهد - في قوله ﴿لئن آتيتنا صالحاً﴾ قال: اشفقاً أن لا يكون إنساناً. وذكر معناه عن الحسن، وسعيد، وغيرهما^(٢).

قال شيخنا رحمه الله: إنَّ هذا الشرك في مجرد تسمية، لم تُقصد حقيقتها^(٣). وهو محملٌ حسن، يُبين أنَّ ما وقع من الأبوين، من تسميتهما ابنيهما عبد الحارث: إنما هو مجرد تسمية، لم يقصدا تعييده لغير الله. وهذا معنى قول قتادة: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (١٥٥٢١).

(٢) ابن أبي حاتم في «التفسير» كما في «الدر المنثور» (٦٢١/٣).

(٣) المسألة الثالثة.

(٥٠)

باب

قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. [الأعراف: ١٨٠]. ذكر ابنُ أبي حاتم، عن ابنِ عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يُشْرِكُونَ. وعنه: سَمُّوا اللَّاتَ مِنَ الْإِلَهِ، وَالْعَزَى مِنَ الْعَزِيزِ. وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها^(١).

ثم: عن أبي هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وَتَرٌ يُحِبُّ الْوَتَرَ» أخرجه في (الصحيحين)، من حديث سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ^(٢). ورواه البخاري، عن أبي اليمان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عنه^(٣). وأخرجه [الترمذي عن]^(٤) الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب بسنده، مثله.

وزاد بعد قوله: «يُحِبُّ الْوَتَرَ: هو الله الذى لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، [١/١٦١] الباري، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل،

(١) ابن أبي حاتم في «التفسير» كما في «الدر المنثور» (٦١٦/٣).

(٢) البخاري في «الصحيح» رقم (٦٤١٠) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٦٧٧)، وأخرجه أحمد في «المسند» (٤٩٩، ٤٥٨/٢).

(٣) البخاري في «الصحيح» رقم (٢٧٣٦، ٦٤١٠، ٧٣٩٢).

(٤) ساقط في جميع النسخ، والإضافة من «تفسير ابن كثير».

اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلى، الكبير، الحفيظ
 المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم.
 الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولي،
 الحميد، المحصى، المبدى، المعيد، المحيى، المميت، الحى، القيوم، الواحد،
 الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر،
 الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالى، المتعالى، البر، التواب، المستقم، العفو،
 الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى،
 المعطى، المانع، الضار، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقي، الوارث،
 الرشيد، الصبور».

ثم قال الترمذى: هذا حديثٌ غريب، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة،
 ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكرَ الأسماء إلا فى هذا الحديث^(١).
 [والذى عوّل عليه جماعةٌ من الحفاظ: أنَّ سرد الأسماء فى هذا الحديث]^(٢)
 مدرجٌ فيه.

وإنَّما ذلك كما رواه الوليدُ بن مسلم، وعبد الملك الصنعانى، عن زهير بن
 محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنَّهم قالوا ذلك. أى: إنهم جمعوها
 من القرآن؛ كما روى عن جعفر بن محمد، وسفيان، وأبى زيد اللغوى، والله
 أعلم^(٣).

هذا ما ذكره العمادُ ابن كثير فى (تفسيره). ثم قال: ثم ليعلم أنَّ الأسماء
 الحسنى ليست منحصرة فى تسعة وتسعين؛ بدليل ما رواه أحمد، عن يزيد بن
 هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبى سلمة الجهنى، عن القاسم بن عبد
 الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «ما أصاب

(١) الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٥٠٢)، وأخرجه ابن ماجة فى «السنن» رقم (٣٨٦١) بسياق آخر. قال
 البوصيرى فى «مصابيح الزجاجة» (٢٠٨/٣): إسناده طريق ابن ماجة ضعيف.

(٢) ما بينهما ساقطٌ من الأصل، وهو انتقال نظر.

(٣) قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فى «مجموع الفتاوى» (٤٨٢/٢٢): وحفاظُ أهل الحديث يقولون: هذه
 الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم، عن شيوخه من أهل الحديث. وقال ابن القيم فى «مدارج السالكين»
 (٤١٥/٣): والصحيح أنه ليس من كلام النبى - ﷺ -.

أحداً قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك/ أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي. إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً؟ فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: «بلى. ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»، وقد أخرجه أبو حاتم ابن حبان في (صحيحه)^(١).

وقال العوفي، عن ابن عباس - في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ - قال: إلحاد الملحدين: أن دعوا اللات في أسماء الله^(٢).

وقال ابن جريج، عن مجاهد ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: اشتقوا اللات من الله، واشتقوا العزى من العزيز^(٣).

وقال قتادة: يُلْحِدُونَ: يُشْرِكُونَ^(٤). وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب^(٥).

وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدل عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر؛ لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر^(٦).

قال ابن القيم رحمه الله:

وحقيقة الإلحاد فيها الميلُ بالـ إشراك والتعطيل والنكران وأسماءُ الرب تعالى كلها أسماءٌ وأوصافٌ تعرّف بها تعالى إلى عباده، ودلّت على كماله جل وعلا.

(١) أحمد في «المسند» (٣٩١/١ و ٤٥٢) وابن حبان في «الصحيح» (١٦٠/٢) وصححه ابن القيم في «بدائع

الفوائد» (١٦٦/١) و«شفاء العليل» (٤٥٣).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (١٥٤٥٣).

(٣) «المصدر السابق» رقم (١٥٤٥٤).

(٤) «المصدر السابق» رقم (١٥٤٥٦).

(٥) «المصدر السابق» رقم (١٥٤٥٥).

(٦) ابن كثير في «التفسير» (٥١٦/٣).

وقال رحمه الله تعالى: فالإلحاد: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات.

وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات كالإحاد أهل الاتحاد؛ فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها. حتى قال زعيمهم: هو المسمى بمعنى كل اسم مدح عقلاً وشرعاً وعرفاً. وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. انتهى^(١).

قلت: والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة - متقدمهم ومتأخرهم -: إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل؛ كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. [الشورى: ١١].

وأنَّ الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات، يحتذى حذوه ومثاله. [١٦٢/ب] وكما أنه يجب العلم بأنَّ لله ذاتاً حقيقة لا تُشبه شيئاً من ذوات المخلوقين.

فله صفاتٌ حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله، أو تأوَّله على غير ما ظهر من معناه: فهو جهميٌّ، قد اتبع غير سبيل المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. [النساء: ١١٥].

وقال العلامة أيضاً: فائدةٌ جليلة: ما يجرى صفةٌ أو خبراً على الرب تبارك وتعالى، أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات، وموجود. الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله: كالخالق، والرازق.

الرابع: التنزيه المحض، ولا بدَّ من تضمُّنه ثبوتاً؛ إذ لا كمال في العدم المحض، كالقدوس، والسلام.

(١) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (١/١٦٩).

الخامس - ولم يذكره أكثر الناس -: وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل دالٌّ على معانٍ، نحو المجيد، العظيم، الصمد؛ فإنَّ المجيد: من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظة يدلُّ على هذا. فإنَّه موضوعٌ للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استمجد المَرْخُ والعَفَّارُ^(١)، وأمجد الناقة: علفها، ومنه: «ذو العَرْشِ المَجِيدُ» صفةٌ للعرش، لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء بهذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله، كما علَّمناه ﷺ: بأنه في مقام طلب المزيد والتعرُّض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه. فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لى وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم، فهو راجعٌ إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه، ومنه الحديث الذى فى (المسند) والترمذى «أَلْظُوا»^(٢) بيذا الجلال والإكرام»^(٣) ومنه «اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديعُ السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام»^(٤).

فهذا سؤالٌ له وتوسلٌ إليه بحمده، وأنه: لا إله هو المنان. فهو توسلٌ إليه بأسمائه وصفاته، وما أحقَّ ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعاً عند المسؤول. وهذا بابٌ عظيم من أبواب التوحيد.

السادس: صفةٌ تحصل من اقتران أحد الإسمين والوصفين بالآخر/، وذلك [١/١٦٣] قدرٌ رائد على مفرديهما، نحو: الغنى الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد. وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة فى القرآن؛ فإنَّ الغنى صفةٌ

(١) المَرْخُ: شجرٌ سريع الاشتعال. والعَفَّارُ: شجرٌ يتخذ منه الزناد، ومعنى قولهم. استمجد المَرْخُ والعَفَّارُ: استكثرنا من النار. «القاموس المحيط» مادة مجد.

(٢) الظُّ بالشى: إذا لزمه وثابر عليه. ابن الأثير «النهاية» (٤/٢٥٢).

(٣) أحمد فى «المسند» (٤/١٧٧) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٥٢٢) وقال: وهذا حديثٌ غريبٌ والحاكم فى «المستدرک» (١/٤٩٩) وصححه ووافقه الذهبى من حديث أنس، وربيعة بن عامر.

(٤) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (١٤٩٥) والنسائى فى «المجتبى» (٣/٥٢)، وصححه ابن القيم فى «شفاء العليل» (٤٥٨) من حديث أنس.

كمال، والحمد كذلك، واجتماعُ الغنى مع الحمد كمال آخر. فله ثناءٌ من غناه،
وثناءٌ من حمده، وثناءٌ من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد،
والعزيز الحكيم. فتأمله، فإنه من أشرف المعارف^(١).

(٥) ابن القيم في «بدائع الفوائد» (١/١٥٩).

(٥١)

باب

لا يقال: السلام على الله

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابٌ لا يُقال: السلامُ على الله.

فى الصحيح، عن ابن مسعود رضى الله عنه، قال: كنا إذا كنّا مع النبى ﷺ فى الصلاة، قلنا: السلامُ على الله من عباده، السلامُ على فلان، فقال النبى ﷺ: «لا تقولوا: السلامُ على الله؛ فإنَّ الله هو السلام».

ش: هذا الحديث: رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، من حديث شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: كنا إذا جلسنا مع النبى ﷺ فى الصلاة، قلنا: السلامُ على الله قبل عباده، والسلام على فلان وفلان. الحديث^(١)، وفى آخره ذكرُ التشهد الأخير.

ورواه الترمذى، من حديث الأسود بن يزيد، عن ابن مسعود^(٢)، وذكر فى الحديث سبب النهى عن ذلك؛ بقوله: «فإنَّ الله هو السلام ومنه السلام».

وقد كان النبى ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة استغفر ثلاثاً، وقال «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»^(٣).

وفى الحديث: إنَّ هذا هو تحيةُ أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى،^(٤).

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٨٣٥)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٤٠٢) وأبو داود فى «السنن» رقم (٩٦٨) والنسائى فى «المجتبى» (٢/ ٢٤٠) وابن ماجه فى «السنن» رقم (٨٩٩).

(٢) الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٨٤٩)،

(٣) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٥٩١) وأحمد فى «المسند» (٥/ ٢٧٥، ٢٧٩) من حديث ثوبان.

(٤) ورد ذلك فى حديث مُرسَل، مضى تخريجُه فى الباب السادس والثلاثين. وفى «مسند أحمد» (٤/ ٣٨١) من حديث عبد الله بن أبى أوفى «السلام تحية أهل الجنة».

[وفى التنزيل: ما يدلُّ على أنَّ الربَّ تبارك وتعالى يُسَلِّمُ عليهم في الجنة؛ كما قال تعالى]: «سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ». [يس: ٥٨].

ومعنى قوله: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ»: أنه تعالى سالِّمٌ من كل نقص، ومن كل تمثيل. فهو الموصوفُ بكلِّ كمال، المنزَّه عن كل عيب ونقص.

قال في (البدائع): السَّلَامُ اسمُ مصدر، وهو من ألفاظ الدعاء، يتضمَّن [الإنشاء والإخبار. فجهةُ الخبرية فيه لا تُناقض الجهة^(١) الإنشائية، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية، وفيه قولان مشهوران:

الأول: أنَّ الله عز وجل وهو السلام، ومعنى الكلام: نزلت بركته عليكم، ونحو هذا؛ فاختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم السلام دون غيره من الأسماء.

الثاني: أن السلام مصدرٌ بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند [١٦٣/ب] التحية. ومن حُجة أصحاب هذا القول: أنَّه يأتى مُنْكَرًا، فيقول المُسَلِّمُ: سلامٌ عليكم، ولو كان اسمًا من أسماء الله لم يُستعمل كذلك، ومن حجتهم: أنه ليس المقصودُ من السلام هذا المعنى، وإنما المقصودُ منه: الإيذان بالسلامة خبراً ودعاءً.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: وفصلُ الخطاب، أن يُقال: الحقُّ في مجموع القولين، فكلُّ منهما بعضُ الحق، والصواب في مجموعهما.

وإنما يتبين ذلك بقاعدة، وهى: أنَّ حق من دعا الله بأسمائه الحُسنى أن يُسأل في كلِّ مطلوب ويتوسل بالاسم المقتضى لذلك المطلوب، المناسب لحصوله. حتى إنَّ الداعى متشفعٌ إلى الله تعالى، متوسِّلٌ إليه به.

فإذا قال: ربِّ اغفر لى وثبَّ علىَّ إنك أنت التوابُّ الغفور، فقد سأله أمرين وتوسَّلَ إليه باسمين من أسمائه مُقتضيين لحصول مطلوبه.

وقال ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه، وقد سأله ما يدعو به «قل: اللهم

(١) ما بينهما ساقطٌ من الأصل، وهو انتقالُ نظر.

إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١).

فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهمُّ عند الرجل، أتى بلفظها بصيغة اسم من أسماء الله وهو السلام، الذي تُطلب منه السلامة. فتضمَّن لفظُ السلام معنيين: أحدهما: ذكر الله، والثاني: طلبُ السلامة، وهو مقصود المسلم. وقد تضمَّن سلامٌ عليكم: اسماً من أسماء الله تعالى، وطلبُ السلامة منه. فتأمل هذه الفائدة^(٢)!

وحقيقته: البراءة والخلاص، والنجاة من الشرور والعيوب. وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذلك قولك: سلَّمك الله، ومنه دعاءُ المؤمنين على الصراط: رب سلِّم سلِّم^(٣).

ومنه سلِّم الشيء لفلان، أى: خلص له وحده؛ قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾. [الزمر: ٢٩].

أى: خالصاً له وحده، لا يملكه معه غيره. منه السِّلْمُ ضد الحرب؛ لأن كلَّ واحد من المتحاربين يخلص ويسلِّم من أذى الآخر، ولهذا بُنى فيه على المفاعلة، فقبيل: المسألة مثل المشاركة. ومنه: القلبُ السليم، وهو النقيُّ من الدَّغَلِ والعيب.

وحقيقته: الذى قد سلِّمَ الله وحده، فخلص من دَغَلِ الشرك وغِلِّه، ودغَلِ الذنوب والمخالفات، بل هو المستقيم على صدق حبه، وحسن معاملته/. وهذا هو [١/١٦٤] الذى ضمن له النجاة من عذابه، والفوز بكرامته.

ومنه أخذ الإسلام، فإنه من هذه المادة؛ لأنه الاستسلام والانقياد لله والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له. كالعبد الذى سلِّم لمولاه، ليس فيه شركاء متشاكسون. ولهذا ضرب سبحانه هذين المثليْن للمسلم الخالص لربه، وللمشرك به^(٤).

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٨٣٨٧، ٧٣٨٨) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٧٠٥) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) ابن القيم فى «بدائع الفوائد» (١٣٧/٢ - ١٤٢).

(٣) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (١٨٣) من حديث أبى سعيد.

(٤) ابن القيم «بدائع الفوائد» (١٣٣/٢).

(٥٢)

باب

قول: اللهم اغفر لي إن شئت

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ قول: اللهم اغفر لي إن شئت.

ش: يعنى: أن ذلك لا يجوز، لورود النهى عنه فى حديث الباب.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: فى الصحيح، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت، ليعزِم المسألة؛ فإن الله لا مكْرَه له»^(١).

ومسلم: «وليُعْظَم الرِّغْبَةُ، فإنَّ الله لا يتعاضَمُ شَيْءٌ أعطاه»^(٢).

ش: بخلاف العبد؛ فإنَّه قد يعطى السائل مسألته لحاجته إليه، أو لخوفه منه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره.

فالاتقُ بالسائل للمخلوق أن يُعَلِّق حصول حاجته على مشيئة المسؤول، مخافة أن يُعطيه وهو كاره. بخلاف ربِّ العالمين تعالى، فإنه لا يليق به ذلك؛ لكمال غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه، وكلُّهم فقير إليه، مُحتاج لا يستغنى عن ربه طرفه عين، وعطاؤه كلام.

وفى الحديث: «يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاً»^(٣) الليل والنهار؛ رأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغيض ما فى يمينه، وفى يده الأخرى القسط يخفضُهُ ويرفعه»^(٤) يُعطى تعالى لحكمة، ويمنع لحكمة، وهو الحكيمُ الخبير.

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٣٣٩، ٧٤٧٧) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٧٩).

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٧٩).

(٣) سحاً: أى: دائمة الصب بالعطاء.

(٤) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٦٨٤) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٩٩٣) من حديث أبى هريرة.

فالاتقُ بمن سأل الله أن يعزم المسألة، فإن الله تعالى لا يُعطى عبده شيئاً عن كراهة، ولا عن عظم مسألة^(١).

وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحُه:

ويعظمُ في عين الصغير صغارها ويصغر في عين العظيم العظام^(٢)
وأما هذا: بالنسبة إلى ما في نفوس أرباب الدنيا، وإلا فإنَّ العبد يُعطى تارةً ويمنع أكثر، ويُعطى كرهاً والبخل عليه أغلب؛ وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم.

وأما ما يعطيه الله عباده فهو دائمٌ مستمر، يجود بالنوال قبل السؤال. من حين وضعت النطفة في الرحم؛ فنعمه على الجنين في بطن أمه داره، يريه أحسن تربية، فإذا وضعت أمه عطفَ عليه والديه، ورباه بنعمه حتى يبلغ أشده. يتقلب في نعم الله مدة حياته، فإذا كانت حياته على الإيمان والتقوى: ازدادت نعمُ الله [١٦٤/ب] تعالى عليه/ إذا توفاه، أضعاف أضعاف ما كان عليه في الدنيا من النعم التي لا يقدر قدرها إلا الله، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين.

وكلُّ ما يناله العبدُ في الدنيا من النعم، وإن كان بعضُها على يد مخلوق، فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده.

فإن الله تعالى هو المحمود على النعم كلها، فهو الذي شاءها وقدرها، وأجراها عن كرمه وجوده وفضله. فله النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن؛ قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وقد يمنعه تعالى عبده إذا سألَه؛ لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع. وقد يؤخر ما سألَه عبده لوقته المقدَّر، أو ليُعطيَه أكثر، فتبارك الله ربُّ العالمين.

(١) وهكذا: من سأل الله لغيره، فليس له أن يدعو ويستثنى في دعائه. وقد انتشر هذا النوع من الدعوات وظهر حتى بين المنتسبين إلى العلم في هذا الزمان، دون تنبيه إلى ما يتطوَّى عليه من محذور. فالله المستعان.

(٢) بيتٌ من قصيدة طويلة لأبي الطيب المتنبي في سيف الدولة، وأولها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتى على قدر الكرام المكارمُ

الديوان (٢٩٠).

قوله: ولمسلم: «وليعظم الرغبة» أى: فى سؤاله لربه حاجته؛ فإنه يعطى العظام كرمًا وجودًا وإحسانًا.

«فإن الله لا يتعاطمه شيء أعطاء»، أى: ليس شيء عنده يعظم، وإن عظم فى نفس المخلوق؛ [لأن سائل المخلوق]^(١) لا يسأله إلا ما يهون عليه بذله، بخلاف رب العالمين، فإن عطاءه كلامٌ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. [يس: ٨٢] فسبحان من لا يقدر الخلق قدره، لا إله غيره، ولا رب سواه.

(١) ساقط من الأصل.

(٥٣)

باب

لا يقول: عبدي وأمتي

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابٌ لا يقول: عبدي وأمتي.

في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»^(١).

ش: قوله: (بابٌ لا يقول: عبدي وأمتي). ذكر الحديث الذي في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: أطعم ربك وضئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي. ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي».

هذه الألفاظ المنهى عنها: وإن كانت تطلق لغة، فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد، [وسدأ لذرائع الشرك]^(٢)؛ لما فيها من التشريك في اللفظ، لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم.

فإذا أطلق على غيره شاركة في هذا الاسم، فینهى عنه لذلك؛ وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالى، وإنما المعنى أن هذا مالك له؛ فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار. فالنهي عنه حسماً لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقاً للتوحيد وبعداً عن الشرك حتى في اللفظ.

وهذا من أحسن مقاصد الشريعة؛ لما فيه من تعظيم الرب/ تعالى، وبعده عن [١/١٦٥] مشابهة المخلوقين. فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ، وهو قوله:

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٢٥٥٢)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٤٩).

(٢) إضافة من (هـ) و(ط).

سیدی ومولای^(۱). وكذلك قوله: «ولا يقل أحدكم: عبدی وأمتی» لأن العبيد عبيد الله والإماء إماء الله؛ قال تعالى: «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا». [مريم: ۹۳] ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريكٌ في اللفظ، فنهاهم عن ذلك تعظيمًا لله تعالى، وأدبًا وابعادًا عن الشرك، وتحقيقًا للتوحيد، وأرشده إلى أن يقول: «فتاى وفتاتى وغلामى».

وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، فقد بلغ ﷺ أمته كل ما فيه نفع، ونهاهم عن كل ما فيه نقصٌ في الدين. فلا خير إلا دلهم عليه، خصوصًا في تحقيق التوحيد، ولا شرًّا إلا حذرهم عنه صلوات الله وسلامه عليه، خصوصًا ما يُقرب من الشرك لفظًا وإن لم يُقصد، وبالله التوفيق.

(۱) ينظر. ابن حجر، «فتح الباری» (۵/ ۱۸۰) وسيأتى له مزيد بيان في الباب الخامس والستين

(٥٤)

باب

لا يرد من سأل بالله

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب لا يُردُّ من سأل بالله.

عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه». رواه أبو داود، والنسائي بسند صحيح^(١).

ثم: ظاهر الحديث النهي عن ردّ السائل إذا سأل بالله. لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل، بحسب ما ورد في الكتاب والسنة. فيجب إذا سأل السائلُ ماله فيه حقٌّ كبيت المال [أن يُجاب]^(٢)، فيُعطى منه على قدر حاجته [وما يستحقه]^(٣)، وكذلك إذا سأل^(٤) المحتاج من في ماله فضلٌ فيجب أن يُعطيه ما يدفع، على [حسب حاله ومسألته وأما إذا سأل^(٥) من لا فضل عنده، فيُستحب أن يُعطيه على]^(٥) قدر حال المسؤول ما لا يضره ولا يضر عائلته، وإن كان مضطراً وجب أن يُعطيه ما يدفع ضرورته^(٦).

(١) أبو داود في «السنن» رقم (١٦٧٢) والنسائي في «المجتبى» (٨٢/٥)، قال النووي في «رياض الصالحين» (٦٥٣): حديث صحيح.

(٢) إضافة من (ط).

(٣) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٤) ما بينهما ساقط من (ط).

(٥) ما بينهما ساقط من الأصل.

(٦) قال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى في «مدارج السالكين» (٢/٢٣٢): والمسألة في الأصل حرام. وإنما أبيحت للحاجة والضرورة؛ لأنها ظلمٌ في حق الربوبية، وظلمٌ في حق المستول، وظلمٌ في حق السائل.

ومقامُ الإنفاق من أشرف مقامات الدين، وتفاوتُ الناس فيه بحسب ما جيلوا عليه من الكرم والجود، وضدَّهما من البخل والشح. فالأولُ محمودٌ في الكتاب والسنة، والثاني مذمومٌ فيهما.

وقد حثَّ الله تعالى عباده على الإنفاق؛ لعظم نفعه وتعدِّيه، وكثرة ثوابه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. [البقرة: ٢٦٧ - ٢٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾. [الحديد: ٧]. وذلك الإنفاق/ في خصال البر المذكورة في قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. [البقرة: ١٧٧].

فذكره بعد ذكر أصول الإيمان، وقبل ذكر الصلاة. وذلك - والله أعلم - لتعدى نفعه. وذكره تعالى في الأعمال التي أمر بها عباده، وتعبَّد بهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. [الاحزاب: ٣٥].

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء^(١)؛ نصحاءً للأمة وحثاً لهم على ما ينفعهم عاجلاً وآجلاً.

وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رضى الله عنهم بالإيثار، فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ

(١) أخرجه البخاري في «الصحیح» رقم (٩٧٨) ومسلم في «الصحیح» رقم (٨٨٤) عن جابر.

على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ .
 [الحشر: ٩]، والإيثَارُ من أَفْضَل خِصَالِ الْمُؤْمِنِ كَمَا تُفِيدُهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، وَقَدْ
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ
 لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ . [الإنسان: ٨ - ٩] .
 وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي فَضْلِ الصَّدَقَةِ كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ
 رَغِبَ فِي هَذَا وَرَغَّبَ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ ^(١) .

قوله: «ومن دعاكم فأجيبوه» هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض:
 إجابة دعوة المسلم، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين .
 قوله: «ومن صنع/ إليكم معروفاً فكافئوه» نذبههم ﷺ على المكافأة على [١/١٦٦]
 المعروف، ^(٢) فَإِنَّ الْمَكَافَأَةَ عَلَى الْمَعْرُوفِ ^(٢) مِنَ الْمَرْوَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ،
 كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْحَدِيثُ، وَلَا يُهْمَلُ الْمَكَافَأَةُ عَلَى الْمَعْرُوفِ إِلَّا لِلتَّيْمِ مِنَ النَّاسِ،
 وَبَعْضُ اللَّثَامِ يَكْفِيءُ عَلَى الْإِحْسَانِ بِالْإِسَاءَةِ، كَمَا يَقَعُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنْ بَعْضِهِمْ .
 نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

بخلاف حال أهل التقوى والإيمان، فإنهم يدفعون بالحسنة السيئة؛ طاعةً لله
 ومحبةً لما يحبه لهم ويرضاه؛ كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ
 نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ *
 وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونُ﴾ . [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨] وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ
 بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا
 يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ . [فصلت: ٣٤ -
 ٣٥] وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة .

قوله: «فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له» أرشدكم ﷺ إلى أَنَّ الدَّعَاءَ فِي حَقِّ
 مَنْ لَمْ يَجِدِ الْمَكَافَأَةَ مَكَافَأَةً لِلْمَعْرُوفِ، فَيَدْعُو لَهُ بِحَسَبِ مَعْرُوفِهِ .
 قوله: «حتى تُروا - بضم التاء، أى: تظنوا - أنكم قد كافأتموه» ويُحْتَمَلُ أَنَّهَا

(١) ينظر: ابن رجب الحنبلي، «فضل صدقة السر» .

(٢) ما بينهما ساقط من (ط) .

مفتوحة بمعنى: تعلموا؛ ويؤيده ما في (سُنن أبي داود)، في حديث ابن عمر
«حتى تعلموا» فتعين الثاني للتصريح به.

وفيه «ومن سألكم بالله فأجيبوه» أى: إلى ما سأل. فيكون بمعنى: أعطوه!
وعند أبي داود - في رواية أبي نَهِيك - عن ابن عباس «من سألكم بوجه الله
فأعطوه»^(١) وفي رواية عُبَيْد الله القواريري لهذا الحديث «ومن سألكم بالله» كما
في حديث ابن عمر^(٢).

(١) أبو داود في «السنن» رقم (٥١٠٨).

(٢) أبو داود في «السنن» رقم (٥١٠٩).

(٥٥)

باب

لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة.
عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة». رواه أبو داود^(١).

ش: قوله: (باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة).

ذكر فيه حديث جابر - رواه أبو داود، عن جابر - قال: قال رسول الله ﷺ «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة».

وهنا سؤال: وهو أنه قد ورد في دعاء النبي ﷺ عند مُنصرفه من الطائف، حين كذّبه أهل الطائف ومن في الطائف من أهل مكة، فدعا ﷺ بالدعاء المأثور «اللهم إليك أشكو ضعف/ قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. أنت رب [١٦٦/ب] المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يك بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي» وفي آخره «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة: أن يحلّ عليّ غضبك، أو ينزل بي سخطك. لك العُتْبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢)، والحديث المروى في

(١) أبو داود في «السنن» رقم (١٦٧١)، وله شاهد من حديث أبي موسى الأشعري، أخرجه الطبراني في «الدعاء» رقم (٢١١٢) بإسناد حسن، وذكره الألباني في «صحيحته» رقم (٢٢٩٠).

(٢) أخرجه الطبراني في كتاب «الدعاء» رقم (١٠٣٦) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٥/٦): رواه الطبراني، وفيه ابن اسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. والطبري في «التاريخ» (٣٤٥/٢) من حديث عبد الله بن جعفر وأصله في «صحيح البخاري» رقم (٣٢٣١)، ومسلم في «الصحيح» رقم (١٧٩٥) من حديث عائشة.

الأذكار «اللهم أنت أحقُّ من دُكر، وأحقُّ من عُبد - وفى آخره - أعوذُ بنور وجهك الذى أشرقت له السموات والأرض»^(١).

وفى حديث آخر «أعوذ بوجه الله الكريم، وباسم الله العظيم وبكلماته التامة، من شر السَّامة واللامَّة، ومن شر ما خلقت أى ربُّ، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده ومن شر الدنيا والآخرة»^(٢) وأمثال ذلك فى الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان.

فالجواب: أنَّ ما ورد من ذلك فهو فى سؤال ما يُقرب إلى الجنة، أو ما يمنعه من الأعمال التى تمنع من الجنة، فيكون قد سأل بوجه الله وبنور وجهه ما يُقرب إلى الجنة؛ كما فى الحديث الصحيح «اللهم إنى أسألك الجنة وما يقرب إليها من قولٍ أو عملٍ، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قولٍ أو عملٍ»^(٣).

بخلاف ما يختصُّ بالدنيا، كسؤاله المال والرزق والسعة فى المعيشة رغبةً فى الدنيا، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة. فلا ريب أنَّ الحديث يدلُّ على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله.

وعلى هذا: فلا تعارض بين الأحاديث، كما لا يخفى، والله أعلم.

وحديثُ الباب: من جملة الأدلة المتواترة فى الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى؛ فإنَّه صفةُ كمال، وسلْبُه غايةُ النقص والتَّشبيهِ بالناقصات، كسلبهم جميع الصفات أو بعضها. فوقعوا فى أعظمِّ مما فروا منه، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وطريقةُ أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً: الإيمانُ بما وصف الله به نفسه فى

(١) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» رقم (٨٠٢٧) من حديث أبى أمامة، قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (١٠١٧/١٠): وفيه فضال بن جبير، وهو ضعيف مجمع على ضعفه.

(٢) أخرجه بنحوه: البيهقى فى «الاسماء والصفات» (٣٨٩) من حديث ابن مسعود، وعلى بن أبى طالب، وقال: وهو إسنادٌ صحيح.

(٣) أخرجه ابن ماجة فى «السنن» رقم (٣٨٩١) قال البوصيرى فى «مصابيح الزجاجة» (٣/٢٠١): هذا إسناد فيه مقال، أم كلثوم هذه لم أر من تكلم فيها وياقنى رجال الإسناد ثقات. وليس فى هذا ما يوهن الحديث؛ فإنَّ أم كلثوم ممن خرَّج لها مسلم، وقال ابن حجر فى «التقريب» (٨٥٨) ثقة.

كتابه، ووصفه به رسول ﷺ في سُنَّته، على ما يليق بجلال الله وعظمته. فيثبتون ما أثبتته لنفسه في كتابه وأثبتته له رسوله ﷺ، وينفون عنه مشابهة المخلوق؛ فكما أنَّ ذات الرب تعالى لا تُشبه الذوات، فصفاة كذلك لا تشبه الصفات، فمن نفاها فقد سلبه الكمال.

(٥٦)

باب ما جاء في اللو

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في اللو.

ش: أى: من النهى عنه عند الأمور المكروهة، كالمصائب إذا جرى بها القدر؛ لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على مافات، مما لا يمكن استدراكه. فالواجب التسليم للقدر، والقيام بالعبودية الواجبة، وهو/ الصبر على ما [١/١٦٧] أصاب العبد مما يكره. والإيمان بالقدر، أصل من أصول الإيمان الستة. وأدخل المصنّف رحمه الله أداة التعريف على لو - وهذه في هذا المقام لا تفيد تعريفاً كنظائرها - لأن المراد هذا اللفظ، كما قال الشاعر:

رأيت الوليد بن يزيد مباركاً شديداً بأعباء الخلافة كاهله^(١)

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا﴾. [آل عمران: ١٥٤].

ش: قاله بعض المنافقين يوم أحد؛ لخوفهم وجزعهم وخورهم.

قال ابن إسحاق: فحدثني يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير، قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله إنى لأسمع قول مُعْتَب بن قُشَيْر^(٢)، ما أسمعُه إلا كالحُلُم: لو كان لنا من

(١) من كلام ابن ميادة، الرماح بن أبرد بن ثوبان، يمدح به الوليد بن يزيد بن عبد الملك. «خزانة الأدب» للبغدادى (٢/٢٢٦).

(٢) ينظر: ابن حجر، «الاصابة في تمييز الصحابة» (٣/٤٤٣).

الأمر شيء ما قُتلنا ههنا. فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا﴾ لقول مُعْتَب. رواه ابن أبي حاتم^(١).

قال الله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أى: هذا قدرٌ مقدرٌ من الله عز وجل، وحُكْمٌ حتمٌ لازم. لا محيد عنه ولا مناص منه.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾. [آل عمران: ١٦٨].

ش: قال العمادُ ابنُ كثير: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أى: لو سمعوا من مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج، ما قُتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إذا كان القعودُ يَسْلَمُ به الشخص من القتل والموت، فينبغي لكم أن لا تموتوا، والموتُ لا بد آتٍ إليكم ولو كنتم فى بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

قال مُجاهد؛ عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآيةُ فى عبد الله ابن أبي^(٢)، يعنى: أنه هو الذى قال ذلك.

وأخرج البيهقى، عن أنس: أن أبا طلحة قال: غشينا النعاسُ ونحن فى مصافنا يوم أحد، فجعل سيفى يسقط من يدى وأخذه، ويسقط وأخذه. قال: والطائفةُ الأخرى - المنافقون - ليس لها همٌ إلا أنفسهم، أجبنُ قوم، وأرعبه، وأخذله للحق: ﴿يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾. [آل عمران: ١٥٤] إنما هم أهل ريب وشك بالله عز وجل^(٣).

(١) ابن أبي حاتم فى «التفسير» رقم (١٦٩٧)، وابن إسحاق كما فى «تفسير ابن كثير» (١٢٦/٢)، وإسناده حسن.

(٢) ابن كثير فى «التفسير» (١٣٩/٢).

(٣) البيهقى فى «دلائل النبوة» (٢٧٤/٣)، وأخرجه البخارى فى «الصحيح» من وجه آخر رقم (٤٠٦٨) وأحمد فى «المستند» (٢٩/٤).

قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعنى: لا يغشاهم النعاسُ من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: لما ذكر ما/ وقع من عبد الله بن أبى فى غزوة [١٦٧/ب] أحد، قال: فلما انخزل يوم أحد، وقال: يَدْعُ رَأْيِي وَرَأْيَهُ، ويأخذ برأى الصبيان؟ - أو كما قال - انخزل معه خلقٌ كثير، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك. فأولئك كانوا مسلمين، وكان معهم إيمانٌ هو الضوء الذى ضرب الله به المثل. فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على الإسلام، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا، ولا من المنافقين حقاً الذين ارتدوا على الإيمان بالمحنة.

وهذا حالٌ كثير من المسلمين فى زماننا أو أكثرهم، إذا ابتلوا بالمحنة التى يتضعض فيها أهلُ الإيمان، ينقص إيمانهم كثيراً، [وينافق كثير] (١) منهم، ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً.

وقد رأينا من هذا - ورأى غيرنا من هذا - ما فيه عبرة. وإذا كانت العافية أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين. وهم مؤمنون بالرسول باطناً وظاهراً، ولكن إيماناً لا يثبت على المحنة. ولهذا يكثر فى هؤلاء تركُ الفرائض وانتهاكُ المحارم، وهؤلاء من الذين قالوا آمنا، فقليل لهم: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. [الحجرات: ١٤] أى: الإيمان المطلق الذى أهله هم المؤمنون حقاً؛ فإنَّ هذا هو الإيمان إذا أُطلق فى كتاب الله تعالى، كما دل عليه الكتابُ والسنة، فلم يحصل لهم ريبٌ عند المحن التى تقلقل [الإيمان] (٢) فى القلوب. انتهى (٣).

قوله: وقد رأينا من هذا - ورأى غيرنا من هذا - ما فيه عبرة.

قلت: ونحن كذلك، رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو، من إعانتهم العدو على المسلمين، والطعن فى الدين وإظهار العدواة والشماتة، وبذل الجِدِّ فى إطفاء نور الإسلام وذهاب أهله، وغير ذلك مما يطول ذكره، والله المستعان.

(١) ساقط من الاصل.

(٢) ساقط من الاصل.

(٣) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٨٠).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: فى الصحيح، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١).

ش: قوله: (فى الصحيح) أى: صحيح مسلم (عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أحرص) الحديث.

اختصر المصنّف هذا الحديث، وتأمّله: عن النبى ﷺ، أنه قال: «المؤمن القوى خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف/، وفى كل خير. أحرص على ما ينفعك» أى: فى معاشك ومعادك. والمراد: أحرص على فعل الأسباب التى تنفع العبد فى دُنياه وأُخرائه، مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة. ويكون العبد فى حال فعله السبب مُستعيناً بالله وحده دون كلِّ ماسواه؛ ليتم له سببه وينفعه. فيكون اعتماده على الله تعالى فى ذلك؛ لأنه تعالى هو الذى خلق السببَ والمسببَ، ولا ينفعه سببٌ إلا إذا نفعه الله به، فيكون اعتماده فى فعل السبب على الله تعالى. ففعل السبب سنّة، والتوكل على الله توحيد، فإذا جمع بينهما: تم له مراده.

قوله: «ولا تعجزن» النون نون التأكيد الخفيفة، نهاه ﷺ عن العجز وذمه، والعجز مذموم شرعاً وعقلاً.

وفى الحديث «الكيسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى»^(٢).

فأرشده ﷺ فى هذا الحديث إذا أصابه ما يكره، فلا يقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن يقول: قدر الله وما شاء فعل، أى: هذا قدر الله، والواجبُ التسليمُ للقدر، والرضى به، واحتسابُ الثواب عليه.

قوله: «فإن لو تفتح عمل الشيطان» أى: لما فيها من التأسف على ما فات والتحسر ولوم القدر، وذلك يُنافى الصبر والرضى. والصبر واجب، والإيمان

(١) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٤٦١) وقال: هذا حديث حسن، من حديث شداد بن أوس.

بالقدر فرض؛ قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد^(١).

وقال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن^(٢).

قال شيخ الإسلام - وذكر حديث الباب بتمامه - ثم قال في معناه: لا تعجز عن مأمور، ولا تجزع من مقدور. ومن الناس من يجمع كلا الشرين؛ فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله.

والأمر يقتضي الوجوب، وإلا فالاستحباب. ونهى عن العجز، وقال: «إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ»^(٣) والعاجز ضد: الذين هُمْ يَنْتَصِرُونَ. فالأمر بالصبر والنهي عن/ الجزع مأمور به في مواضع كثيرة؛ وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أمر^[ب/١٦٨] بفعله فعليه أن يفعله ويحرص عليه، ويستعين بالله ولا يعجز. وأمر^[ب/١٦٨] أصيب به من غير فعله، فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه.

ولهذا قال بعض العقلاء - ابن المقفع أو غيره - الأمور أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه.

وهذا في جميع الأمور، لكن عند المؤمن: الذي فيه حيلة هو ما أمر الله به، وأحبه له؛ فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وقد أمره بكل خير له فيه حيلة. وما لا حيلة فيه هو ما أصيب به من غير فعله. واسمُ الحسنات والسيئات يتناول قسمين:

فالأفعال: مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾. [الأنعام: ١٦٠]، ومثل قوله تعالى:

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب «الإيمان» رقم (١٣٠) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٥٦٩).

(٢) نقله ابن القيم في «مدارج السالكين» (١٥٢/٢).

(٣) أخرجه أبو داود في «السنن» رقم (٣٦٢٧) وأحمد في «المسند» (٢٥/٦) من حديث عوف بن مالك.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾. [الإسراء: ٧]، ومثل قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾. [الشورى: ٤٠] ومثل قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾. [البقرة: ٨١]، إلى آيات كثيرة من هذا الجنس^(١).

والقسمُ الثاني، ما يجرى على العبد بغير فعله من النعم والمصائب؛ كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾. [النساء: ٧٩]، والآية قبلها. فالحسنةُ في هاتين الآيتين: النعم. والسَّيئةُ: المصائب، وهذا هو الثاني من القسمين.

وأظنُّ شيخُ الإسلام ذكره في هذا الموضع، ولعل الناسخ أسقطه، والله أعلم.

ثم قال رحمه الله تعالى: فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ مَأْمُورًا أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْقَدَرِ عِنْدَ مَا يَوْمَرُ بِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ، ولكن عند ما يجرى عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها. فما أصابك بفعل الأدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه، وارضَ وسلِّمْ؛ قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾. [التغابن: ١١]، ولهذا قال آدم لموسى: «أتلومنى على أمر قدَّره الله علىَّ قبل أنْ أخلق بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى» لأن موسى قال له: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة»^(٢) فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله، لا لأجل كونها ذنبًا.

وأما كونه لأجل الذنب - كما يظنه طوائف من الناس - فليس مراداً بالحديث؛ فَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَدْ تَابَ مِنَ الذَّنْبِ، والتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له، ولا يجوز لومُ التائب باتفاق الناس. انتهى/ (٣).

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٣٨/١٦).

(٢) أخرجه البخارى في «الصحيح» رقم (٣٤٠٩، ٥٧٠٥، ٥٧٥٢، ٦٤٧٢، ٧٥١٥) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٦٥٢) من حديث أبى هريرة.

(٣) ابن تيمية «رسالة شرح كلمات من فتوح الغيب» (جامع الرسائل) (١٣٤/٢).

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: فتضمن هذا الحديث الشريف، أصولاً عظيمة من أصول الإيمان، أحدها: أن الله سبحانه موصوفٌ بالمحبة، وأنه يحب حقيقة.

الثاني: أنه يُحب مُقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوىُّ ويحب المؤمنَ القوى، وهو وترٌ يحب الوتر، وجميلٌ يحب الجمال، وعليمٌ يحب العلماء، ونظيفٌ يحب النظافة، ومؤمنٌ يحب المؤمنين، ومحسنٌ يحب المحسنين، وصابرٌ يحب الصابرين، وشاكرٌ يحب الشاكرين.

ومنها: أن محبته للمؤمنين تفاضل، فيحبُّ بعضهم أكثرَ من بعض.

ومنها: أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعهاده، والحرص: هو بذلُ الجهد واستفراغ الوسع. فإذا صادف ما ينتفع به الحريصُ كان حرصُه محموداً، وكماله كُلُّه في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصُه على ما ينتفع به. فإن حرصاً على ما لا ينفعه، أو فعل ما ينفعه بغير حرص: فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخيرُ كُلُّه في الحرص على ما ينفع.

ولما كان حرصُ الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيتته وتوفيقه: أمره أن يستعين بالله ليجمع له مقامُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن حرصه على ما ينفعه عبادةٌ لله تعالى، ولا يتم إلا بمعونته، فأمره أن يعبدَه وأن يستعين به. فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله، ضدُّ العاجز. فهذا إرشادٌ له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرصُ عليه مع الاستعانة بمن أزمته الأمور بيده، ومصدرها منه، وموردها إليه.

فإن فاته ما لم يُقدِّرْ له، فله حالتان: عجزٌ، وهو مفتاحُ عمل الشيطان؛ فيُلقيه العجزُ إلى لو. ولا فائدة في لوها هنا، بل هي مفتاحُ اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن، وذلك كُلُّه من عمل الشيطان. فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح، وأمره بالحالة الثانية، وهي: النظرُ إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قُدِّرَ،

لم يفتَه ولم يغلبه عليه أحد. فلم يبقَ له ها هنا أنفعُ من شهود/ القدر، ومشيتة [ب/١٦٩]

الرب النافذة التي توجب وجود المقدور، وإن انتفت امتنع وجوده؛ ولهذا قال: «فإن غلبك أمرٌ فلا تقل: لو أنى فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل» فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين: حالة حصول مطلوبه، وحالة فواته. فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغنى عنه العبدُ أبداً، بل هو أشد ضرورة إليه، وهو يتضمن إثبات القدر، والكسب والاختيار، والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً في حالة حصول المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق. انتهى/ (١).

(١) ابن القيم، «شفاء العليل» (٣٣).

(٥٧)

باب

النهي عن سب الريح

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ النهي عن سبِّ الريح .
عن أبيّ بن كعب، أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا تسبُّوا الريح . فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به» .
صححه الترمذی^(١) .

ش: لأنها: إنما تهبُّ عن إيجاد الله تعالى، وخلقه لها وأمره، لأنه هو الذي أوجدها وأمرها . فمسيئتها مسبةٌ للفاعل، وهو الله سبحانه؛ كما تقدم في النهي عن سب الدهر . وهذا يُشبهه، ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه، وبما شرعه لعباده .

فنهى ﷺ أهل الإيمان عما يقوله أهلُ الجهل والجفاء، وأرشدهم إلى ما يُحب أن يُقال عند هبوب الرياح، فقال: «إذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به» يعني: إذا رأيتم ما تكرهون من الريح إذا هبَّت، فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد، وقولوا: «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، وخير ما أمرت به . ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به» .

ففي هذا عبوديةٌ لله، وطاعةٌ له ولرسوله، واستدفاعٌ للشرور به، وتعرض لفضله ونعمته . وهذه حال أهل التوحيد والإيمان، خلافاً لحال أهل الفسوق والعصيان، الذي حُرِّموا ذوق طعم التوحيد الذي هو حقيقة الإيمان .

(١) الترمذی فی «الجامع» رقم (٢٢٥٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح .

(٥٨)

باب

قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

قال المصنّف رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. [الفتح: ٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسرَّ هذا الظنُّ بأنه سبحانه لا ينصرُ رسوله، وأنَّ أمره سيضمحلُّ، وفُسرَّ بأنَّ ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته. ففُسرَّ بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمرُ رسوله، وأن يُظهره الله على الدين كله.

وهذا هو ظنُّ السوء الذي ظنُّ المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظنُّ السوء؛ لأنه ظنُّ غير ما يليقُ به سبحانه، وما يليقُ بحكمته وحمده ووعد الصادق. فمن ظن أنه يُدِيلُ الباطلَ على الحقِّ إدالةً مستقرةً يضمحلُّ معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيةٍ مجردة. فذلك ظنُّ الذين كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظنَّ السَّوءِ فيما يختصُّ بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا مَنْ عَرَفَ الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده. فليَعْتِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا، وليتُبَّ إلى الله وليَسْتَغْفِرْهُ من ظنه بربه ظنَّ السَّوءِ.

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعتُّ على القدر وملازمة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمستقلٌّ ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟! ^(١)

فإن تَنَجُّ منها تَنَجُّ من ذى عظمة وإلا فإنى لا إخالك ناجياً ^(١)
ش: قوله: باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾. الآية:

هذه الآية ذكرها الله تعالى فى سياق قوله تعالى فى ذكر وقعة أحد: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ يعنى: أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأنَّ الله تعالى ينصر رسوله ﷺ، وينجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعنى: لا يغشاهم النعاس، من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَّ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾. [الفتح: ١٢].

وهكذا هؤلاء: اعتقدوا أنَّ المشركين لما ظهوروا تلك الساعة، ظنوا أنها الفيصلة، وأنَّ الإسلام قد باد وأهله. وهذا شأنُ أهل الرِّيب والشك، إذا حصل أمرٌ من الأمور ^(٢) الفظيعة تحصل لهم هذه الأمور ^(٢) الشنيعة.

[١٧٠/ب] عن ابن جريج، قال: قيل: لعبد الله بن أبى: قُتل بنو الخزرج/ اليوم؟ قال: وهل لنا من الأمر من شيء ^(٣).

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى الكلام على ما تَضَمَّتْ وقعة أحد: وقد فُسِّرَ هذا الظن الذى لا يليق بالله سبحانه: بأنه لا ينصر رسوله، وأنَّ أمره

(١) ابن القيم، «زاد المعاد» (٣/٢٢٨) والبيت من كلام الفرزدق.

(٢) ما بينهما ساقط من (ط).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (٨٠٩٣).

سيضمحل، [وأنه يسلمه للقتل]^(١). وفُسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره، ولا حكمة له فيه. ففُسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ، ويظهره على الدين كله.

هذا هو الظن السوء [الذى ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾^(٢) عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً]. [الفتح: ٦].

وإنما كان هذا ظن السوء، وظن الجاهلية - وهو المنسوب إلى أهل الجهل - وظن غير الحق؛ لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنی وصفاته العلى، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفرد به بالإلهية، وما يليق بوعد الصادق الذى لا يخلفه، وبكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجندهم بأنهم هم الغالبون.

فمن ظن به أنه لا ينصر رسوله ولا يتم أمره، ولا يؤيده ويؤيد حربه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُدبّل الشرك على التوحيد، [والباطل على الحق]^(٣) إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً: فقد ظن به السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته؛ فإن حمده وعزته [وحكمته]^(٣) وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يُذلّ حربه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه، المشركين به العادلين به.

فمن ظن به ذلك: [فما عرفه، ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره]^(٣)، فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته، وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة

(١) إضافة من (ط) و«زاد المعاد».

(٢) ما بينهما ليس فى الأصل، وهو انتقال نظر.

(٣) إضافة من (ط) و«زاد المعاد».

عن حكمة، وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فواتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المقتضية لها لا يخرج تقديرها عن الحكمة، لإفضائها إلى ما يُحب وإن كانت مكروهة له. فما قدرها سُدَى ولا شاءها عبثاً، ولا خلقها باطلاً: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾. [ص: ٢٧].

[١/١٧١] وأكثرُ الناس يظنون بالله غير الحق، ظنَّ السوء: فيما يختص بهم، وفيما / يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسمائه وصفاته، و[عرف]^(١) موجب حكمته وحمده.

فمن قنط من رحمته، وأيس من روحه: فقد ظن به ظنَّ السوء. ومن جورَّ عليه أن يُعَذَّب أوليائه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوى بينهم وبين أعدائه: فقد ظن به ظنَّ السوء. ومن ظن أنه يترك خلقه سُدَى مُعْطَلِينَ عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله ولا ينزل إليهم كتبه، بل يتركهم هملاً كالأنعام: [فقد ظن به ظنَّ السوء]^(٢).

ومن ظن أنه لن يجمعهم بعد موتهم للثواب والعقاب، في دار يجازى المحسن فيها بإحسانه والمسيءَ بأساءته، وَيُبَيِّنُ لخلقهِ حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلُّهم صدقه وصدق رسله، وأنَّ أعداءه كانوا هم الكاذبين: فقد ظنَّ به ظنَّ السوء. ومن ظن أنه يُضَيِّع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، وأنه يعاقبه لما لا صُنْع له فيه ولا اختيار له ولا قُدرة ولا إرادة له في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجور عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات، التي يؤيد بها أنبياء ورسله، ويجريها على أيديهم يُضَلُّون بها عباده، وأنه يحسن منه كل شيء حتى يُعَذَّب من أفنى عمره في طاعته، فيخلِّده في الجحيم في أسفل سافلين، وَيُنْعَم من استنفذ عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين في الحسن سواء عنده، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضى بقبح أحدهما وحسن الآخر: فقد ظن به ظنَّ السوء.

(١) إضافة من (ط) و«زاد المعاد».

(٢) ساقط من الأصل و(ض).

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطلٌ وتشبيه وتمثيل، وترك الحقَّ لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة، وأشار إليه إشارات مُلغزٍ لم يصرِّح به، وصرِّح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يتبعوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلَّبوا له وجوهَ الاحتمالات المُستكرهة، والتأويلات [التي هي بالالغار] ^(١) والأحاجي أشبه منها بالكشف/ والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه [١٧١/ب] وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه. بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولُغتهم، مع قُدْرته على أن يصرِّح لهم بالحق الذي ينبغي التصريحُ به، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان: فقد ظن به ظنَّ السوء؛ فإنه إن قال: إنه غيرُ قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح، الذي عبَّر به هو وسلفه: فقد ظن بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادر ولم يُبين، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يُوهم، بل يوقع في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد: فقد ظن بحكمته ورحمته ظنَّ السوء.

ومن ظن أنه وسلفه عبَّروا عن الحق بصريحه، دون الله ورسوله، وأنَّ الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم، وأماً كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلal، وظاهر كلام المُتَهوِّكين الحيارى هو الهدى، والحق: فهذا من أسوأ الظن بالله.

فكلُّ هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية.

ومن ظن به أنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يقدر على إيجاده وتكوينه: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه كان مُعْطَلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حيثنذ بالقُدرة على الفعل، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً: فقد ظن به ظن السوء.

(١) ساقط من الأصل (ض) و(هـ).

ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السموات ولا النجوم، ولا بنى آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئاً من الموجودات فى الأعيان: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا سمع له ولا بصر، ولا علم ولا إرادة، ولا كلام يقوم به^(١)، وأنه لا يكلم أحداً من الخلق ولا يتكلم أبداً، ولا قال، ولا يقول، ولا له أمراً ولا نهى يقوم به: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه ليس فوق^(٢) سمواته، على عرشه باثناً من خلقه، وأن نسبة ذاته إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين، وإلى الأمكنة التى يُرغب عن ذكرها، وأنه أسفل كما أنه أعلى، وأن من قال: سبحان ربى الأسفل، كان كمن قال: سبحان ربى الأعلى: فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن أنه يُحب/ الكفر والفسوق والعصيان، ويحب الفساد، كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح: فقد ظن به ظن السوء. [٢/١٧٢]

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالى ولا يعادى، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرب منه أحد، وأن ذوات الشياطين فى القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يُسوئ بين المتضادين، أو يُفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات فى الجحيم أبد الأبدى بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلده فى العذاب، كما يُخلد من لم يؤمن به طرفة عين، واستنفد ساعات عمره فى مساخطه ومعاذاة رسله ودينه: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أن له ولداً أو شريكاً، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه

(١) «زاد المعاد»: يقول به.

(٢) «زاد المعاد» (ط) الرسالة: أنه فوق. تحريف، فيُستدرك من هنا.

يتقربون بهم إليه، ويتوسَّلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم، فيدعونهم ويخافونهم ويرجونهم: فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه يُنالُ ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يُنال بطاعته والتقرب إليه: فقد ظن به خلاف حكمته، وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا ترك شيئاً لأجله لم يُعَوِّضه خيراً منه: أو من فعل شيئاً لأجله لم يعطه أفضل منه: فقد ظنَّ به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جُرم ولا سبب من العبد، إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا صدَّقه في الرغبة والرغبة، وتضرَّع إليه وسأله: واستعان به وتوكَّل عليه أنه يُخَيِّبه ولا يعطيه ما سأله: فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظن به أنه يُثيبه إذا عصاه، كما يثيبه إذا أطاعه وسأله ذلك في دعائه: فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله.

ومن ظن به/ أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع^(١) في معاصيه، ثم اتخذ من [١٧٢/ب] دونه أولياء، ودعا من دونه ملكاً أو بشراً حياً أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، ويخلصه من عذابه: [فقد ظن به ظن السوء]^(٢).

فأكثُرُ الخلق، بل كلُّهم - إلا من شاء الله - يظنون بالله غير الحق وظن السوء؛ فإنَّ غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق ناقصُ الحظ، وأنه يستحق فوق ما شاء الله [وأعطاه]^(٣)، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونفسي تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به.

ومن فتش نفسه، وتغلغل في معرفة طواياها: رأى ذلك فيها كامناً كمن النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده. ولو فتشت من

(١) أوضع الراكب: إذا أسرع. «غريب الخطابي» (٤٩٩/٢).

(٢) ساقطة من الأصل.

(٣) إضافة من (ط).

فتشت لرأيت عنده تعنتاً^(١) على القدر وملامة له، واقتراحاً له خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلٌ ومستكثر. وفتش نفسك: هل أنت سالم.

فإن تنج منها تنج من ذى عظمةٍ وإلا فإنى لا إخالك ناجياً
فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتّب إلى الله ويستغفره فى كل وقت، من ظنّه بربه ظنّ السوء.

وليظنّ السوءَ بنفسه التى هى مأوى كل سوء، ومنع كل شر، المركبة على الجهل والظلم. فهى أولى بظنّ السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغنى الحميد. الذى له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزّه عن كل سوء فى ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه. فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كلّها حكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماءه كلها حسنى.

فلا تظننّ بربك ظنّ سوء	فإن الله أولى بالجميل
ولا تظننّ بنفسك قطعاً خيراً	فكيف بظالم جان جهول
وقل: يانفسُ مأوى كل سوءٍ	أترجو الخير من ميتٍ بخيل؟
وظنّ بنفسك السّوأى تجدها	كذاك، وخيرها كالمستحيل
وما بك من تقى فيها وخيرٍ	فتلك مواهبُ الربّ الجليل
وليس لها ولا منها، ولكن	من الرحمن، فاشكر للدليل ^(٢)

[١/١٧٣] / قوله: ﴿الظانين بالله ظنّ السوء﴾ قال ابن جرير فى (تفسيره): ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظنّ السوء﴾ الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يظهر كلمته، فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به، وذلك كان السوء من ظنونهم التى ذكرها الله فى هذا الموضع.

(١) «زاد المعاد»: تعتياً (ط): تعنتاً وتعنتاً.

(٢) ابن القيم، «زاد المعاد» (٣/٢٢٨ - ٢٣٦).

يقول تعالى ذكره: على المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن: دائرةُ السوء. يعنى: دائرةُ العذاب تدور عليهم به.

واختلفت القراءُ فى قراءة ذلك، فقرأته عامةُ قراء الكوفة: ﴿دَائِرَةُ السَّوِّءِ﴾ بفتح السين. وقرأ بعضُ قراء البصرة ﴿دَائِرَةُ السُّوِّءِ﴾ بضم السين. وكان القراءُ يقول: الفتح أفشى فى السين. وقلَّ ما تقول العرب ﴿دَائِرَةُ السُّوِّءِ﴾ بضم السين. قوله: ﴿وَعَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ونالهم بغضب منه ﴿ولعنهم﴾. يقول: وأبعدهم، فأقصاهم من رحمته [﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يقول^(١)] وأعدَّ لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ﴿وساءت مصيراً﴾ يقول: وساءت جهنم منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات^(٢).

وقال العماد ابن كثير: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ﴾ بالله ظنَّ السَّوِّءِ: أى: يتهمون الله فى حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ﴾^(٣). وذكر فى معنى الآية الأخرى، نحواً مما ذكره ابن جرير رحمهما الله تعالى.

قوله: (قال ابن القيم رحمه الله تعالى). الذى ذكره المصنف فى المتن قدمته؛ لاندراجها فى كلامه الذى سقته من أوله إلى آخره.

(١) إضافة من (ط) و«التفسير».

(٢) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٧٣/٢٦).

(٣) ابن كثير فى «التفسير» (٣١١/٧).

.

,

(٥٩)

باب

ما جاء في منكري القدر

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في مُنكرى القَدَر.

ش: أى: من الوعيد الشديد، ونحو ذلك.

أخرج أبو داود، عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن ابن عمر رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «القدرية مجوسُ هذه الأمة، إن مَرَضُوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»^(١).

وعن عمر مولى غُفْرَة^(٢)، عن رجلٍ من الأنصار، عن حذيفة - وهو ابن اليمان - رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة مجوس، ومجوسُ [١٧٣/ب] هذه الأمة الذين يقولون: لا قَدَر. من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوه، وهم شيعةُ الدجال، وحقُّ على الله أن يُلحقهم بالدجال»^(٣).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: قال ابنُ عمر: والذي نفسُ ابنِ عمر بيده، لو كان لأحدهم مثلُ أحدٍ ذهباً، ثم أنفقَه في سبيلِ الله ما قبلَه الله منه، حتى يؤمنَ بالقدر. ثم استدلَّ بقولِ النبي ﷺ: «الإيمانُ أنْ تؤمنَ بالله وملائكته، وكتبه ورُسُلَه واليومَ الآخر، وتؤمنَ بالقدر خَيْرَه وشَرَه». رواه مسلم.

ش: حديثُ ابنِ عمر هذا: أخرجه مُسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابنُ ماجه، عن يحيى بن يَعْمَر، قال: كان أوَّلَ من تكَلَّمَ فى القدر بالبصرة معبدُ الجهنى، فانطلقتُ أنا وحُميد بن عبد الرحمن الحِميرى حاجين، أو مُعتمرين،

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٦٩١)، قال الذهبى فى كتاب «الكبائر» (١١٤): رواه ثقات، لكنه منقطع.

(٢) أبو حفص، ابن عبد الله المدنى، ضعيف، وكان كثيرُ الأرسال (ت ١٤٦هـ) «تقريب» (٤١٤).

(٣) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٤٦٩٢)، وأحمد فى «المسند» (٤٠٦/٥، ٤٠٧) وهو حديث حسن.

فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؟ فوقَّ الله لنا عبد الله بن عمر داخلاً المسجد، فاكتنفتُ أنا وصاحبي، فظننتُ أنَّ صاحبي سيكل الكلام إليَّ، فقلت: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قبلنا أناسٌ يقرؤون القرآن، ويتفقرون^(١) العلم، يزعمون أن لا قدر والامر أنف^(٢). فقال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أتي بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلفُ به عبد الله بن عمر، لو أنَّ لأحدهم مثلَ أحد ذهباً فأنفقه ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر.

ثم قال: حدَّثني عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه. وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً» قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»/ قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: «أن تلد الأمة ربَّتْها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البُنيان». قال: فانطلق. فلبثتُ ثلاثاً - وفي رواية مسلم: ملياً - ثم قال: «يا عمر، أتدري من السائل؟». قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنَّه جبريلُ أتاكم يُعلِّمُكم دينكم»^(٣).

ففي هذا الحديث: أنَّ الإيمان بالقدر، من أصول الإيمان الستة المذكورة. فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره، فقد ترك أصلاً من أصول الدين وجحدته، فيُشبهه

(١) يتفقرون العلم: يطلبونه، ويتبعون أثره. ابن الأثير «النهاية» (٤/ ٩٠).

(٢) الامر أنف: أى مُستأنف، لم يسبق به قدر. «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٣٩٤).

(٣) مسلم في «الصحيح» رقم (٨) وأبو داود في «السنن» رقم (٤٦٩٥) والترمذي في «الجامع» رقم (٢٦١٣) والنسائي في «المجتبى» (٨/ ٩٧) وابن ماجه في «السنن» رقم (٦٣).

من قال الله فيهم: «أَفْتَوْمُنُونِ بَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» .
[البقرة: ٨٥].

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن عبادة بن الصامت، أنه قال لابنه: يا بُنى، إنك لن تجد طعمَ الإيمان، حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». يا بُنى، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني».

وفى رواية لأحمد: «إنَّ أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة».

وفى رواية لابن وهب، قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره: أحرقه الله بالنار»^(١).

شئ: قوله: (وعن عبادة)، قد تقدّم ذكره في باب فضل التّوحيد. وحديثه هذا، رواه أبو داود^(٢).

ورواه الإمام أحمد بكماله، قال: حدّثنا الحسن بن سوار، حدّثنا ليث، عن معاوية، عن أيوب بن زياد، حدّثني عبادة بن الوليد بن عبادة، حدّثني أبي، قال: دخلتُ على عبادة وهو مريضٌ أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لى، فقال: أجلسونى. قال: يا بنى إنك لن تجد طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه وكيف أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بنى إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة». يا بنى، إن مت ولست على ذلك دخلت النار.

(١) أخرج هذه الرواية ابن وهب في «القدر» رقم (٢٦) وابن أبي عاصم في كتاب «السنّة» رقم (١١١) والآجرى في «الشرية» (١٨٦).

(٢) أبو داود في «السنن» رقم (٤٧٠٠).

ورواه الترمذى، بسنده المتصل إلى عطاء بن أبى رباح، عن الوليد بن عباد،
عن أبيه، وقال: حسنٌ صحيحٌ غريب^(١).

وفى هذا الحديث ونحوه: بيانٌ شمول علم الله تعالى، وإحاطته بما كان وما
يكون فى الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ
الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ
أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. [الطلاق: ١٢].

وقد قال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - لما سئل عن القدر؛ قال: القدرُ قدرةُ
الرحمن^(٢). واستحسن هذا ابنُ عقيل، من أحمد رحمه الله تعالى^(٣).

والمعنى: أنه لا يمتنع عن قدرة الله شيءٌ. ونفاةُ القدر قد جحدوا كمال قدرة
الله تعالى، فضلوا عن سواء السبيل.

[١٧٤/ب] وقد قال بعض السلف: ناظروهم/ بالعلم، فإن أقرؤا به خُصموا، وإن
جحدوه كفروا^(٤).

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: والناسُ فى باب خلق الرب وأمره، ولم
فعل ذلك، على طرفين ووسط:

فالقدريةُ من المعتزلة وغيرهم قصدوا تعظيم الرب تعالى؛ بتزييه عما ظنوه قُبْحاً
من الأفعال وظلماً. فأنكروا عموم قدرته ومشيتته، ولم يجعلوه خالقاً لشيء، ولا
أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. بل قالوا: يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا
يشأ. ثم إنهم وضعوا لربهم شريعةً فيما يجب عليه ويحرم بالقياس على أنفسهم،
وتكلموا فى التقدير والتجويز بهذا القياس الفاسد الذى شبَّهوا فيه الخالق
بالمخلوق، فضلوا وأضلوا!!!.

(١) أحمد فى «المسند» (٣١٧/٥) والترمذى فى الجامع رقم (٢١٥٦، ٣٣١٦)، قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد»

(١٩٨/٧): رواه الطبرانى فى «الكبير» والأوسط وفى أحدهما: عثمان بن أبى العاتكة، وهو ضعيف.

وقد وثقه دحيم وبقية رجاله ثقات، وفى بعضهم كلام.

(٢) أخرجه ابن هانئ فى «المسائل» رقم (١٨٦٨).

(٣) نقله ابن القيم فى «طريق الهجرتين» (١١٤).

(٤) أخرجه الدارمى فى «الرد على الجهمية» (٧٥) عن عمر بن عبد العزيز.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وفي (المسند)، و(السنن)، عن ابن الديلمى، قال: أتيتُ أبا بن كعب، فقلت: فى نفسى شىء من القدر، فحدثنى بشىء لعل الله يذهب من قلبى، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مُت على غير هذا لكنت من أهل النار، قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثنى بمثل ذلك عن النبى ﷺ. حديثٌ صحيح، رواه الحاكم فى (صحيحه) (١).

ش: قوله: (وفى المسند، وسنن أبى داود، عن ابن الديلمى) وهو أبو بسر، بالسین المَهْمَلَة، وبالباء المضمومة. ويقال: أبو بشر، بالشين المعجمة وكسر الباء، وبعضهم صحح الأول. واسمه عبد الله بن فيروز (٢).

ولفظُ أبى داود، قال: لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه، عذبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم، لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم. ولو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مُت على غير هذا، لكنت من أهل النار. قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، فقال مثل ذلك. قال: ثم أتيت حذيفة بن اليمان، فقال مثل ذلك. قال: ثم أتيت زيد بن ثابت، قال: فحدثنى عن النبى ﷺ مثل ذلك. وأخرجه ابنُ ماجة.

وقال العمادُ ابن كثير: عن سُفيان، عن منصور، عن ربعى بن خراش، عن رجل، عن على بن أبى طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسولُ الله بعثنى بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره». وكذا رواه الترمذى، عن النضر بن شميل، عن شعبة، عن منصور، به. ورواه من حديث أبى داود الطيالسى، عن شعبة، عن ربعى، عن على، فذكره (٣).

(١) أحمد فى «المسند» (١٨٢/٥، ١٨٥، ١٨٩)، وأبو داود فى «السنن» رقم (٤٦٩٩) وابن ماجة فى «السنن» رقم (٧٧) ولم أقف عليه فى «المستدرک» من حديث أبى بن كعب، وزيد بن ثابت.

(٢) ثقة، من كبار التابعين ومنهم من ذكره فى الصحابة. «تقريب» (٣١٧)

(٣) الترمذى فى «الجامع» رقم (٢١٤٦) وقال: حديثُ أبى داود، عن شعبة عندى أصح من حديث النضر

وقد ثبت في (صحيح مسلم)، من رواية عبد الله بن وهب، وغيره، عن أبي هانئ الخولاني، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة - زاد ابنُ وهب - وكان عرشه على الماء»^(١) ورواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ^(٢) (٣).

وكلُّ هذه الأحاديث، وما في معناها: فيها الوعيدُ الشديدُ على عدم الإيمان بالقدر، وهي الحجةُ على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم، ومن مذهبهم: تخليدُ أهلِ المعاصي في النار. وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر، وأعظم المعاصي.

وفي الحقيقة: إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر، فقد حكموا على أنفسهم بالخلود في النار إن لم يتوبوا. وهذا لازمٌ لهم على مذهبهم هذا، / وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة [١٧٥/٢] من إثبات القدر، وعدم تخليد أهلِ الكبائر من الموحدين في النار^(٤).

(١) مسلم في «الصحيح» رقم (٢٦٥٣)، وأخرجه أحمد في «المسند» (١٦٩/٢).

(٢) الترمذي في «الجامع» رقم (٢١٥٧).

(٣) ابن كثير في «التفسير» (٤٦٠/٧).

(٤) إلى هنا ينتهي أصل هذا الشرح، وهو كتاب «تيسير العزيز الحميد» لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

(٦٠)

باب

ما جاء فى المصورين

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء فى المصورين.

عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فليخلقوا ذرّةً أو ليقلقوا حبةً، أو ليقلقوا شعيرةً». أخرجاه^(١).

ولهما، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يُضاهون بخلق الله»^(٢).

ولهما، عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصوّر فى النار، يُجعل له بكل صورةٍ صورها نفسٌ يعذب بها فى جهنم»^(٣).

ولهما، عنه مرفوعاً «من صوّر صورةً فى الدنيا كلّف أن يتفخ فيها الروح، وليس بنافع»^(٤).

ش: قوله: (باب ما جاء فى المصورين).

أى: من عظم عقوبة الله لهم، وعذابه. وقد ذكر النبى ﷺ العلة: وهى المضاهاة بخلق الله؛ لأنَّ الله تعالى له الخلق والأمر. فهو ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، وهو خالق كلِّ شيءٍ، وهو الذى صوّر جميع المخلوقات، وجعل فيها الأرواح التى تحصل بها الحياة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٩٥٣، ٧٥٥٩) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢١١١).

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٩٥٤) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢١٠٦).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٢٢٥، ٥٩٦٣، ٧٠٤٢) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢١١٠).

(٤) البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٩٦٣) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢١١٠).

خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧-٩﴾ . [السجدة: ٧ - ٩] .

فالمصوّرُ لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان أو بهيمة، صار مضاهياً لخلق الله . فصار ما صورّه عذاباً له يوم القيامة، وكُلّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ . فكان أشد الناس عذاباً؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب .

فإذا كان هذا فيمن صورَّ صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان، فكيف بحال من سوى المخلوق برب العالمين وشبهه بخلقه، وصرف له شيئاً من العبادة التي خلق الله الخلق ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره، من كل عمل يُحبه الله من العبد ويرضاه؟ .

فتسوية المخلوق بالخالق، بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه، وجعله شريكاً له فيما اختص به تعالى وتقدس: هو أعظمُ ذنب عُصى الله تعالى به؛ ولهذا أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ لبيان هذا الشرك والنهي عنه، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى . فنجى تعالى رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التوحيد، واستمر على الشرك والتنديد . فما أعظمه من ذنب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ . [النساء: ٤٨، ١١٦] ، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ . [الحج: ٣١] .

قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن أبي الهياج، قال: قال لى على: ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ؟ «أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»^(١) .

ش: قوله: (ولمسلم، عن أبي الهياج). الأسدي، حيّان بن حُصين .

(قال: قال لى على). هو أمير المؤمنين، على بن أبى طالب رضى الله عنه .

قوله: ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ؟ «أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ» .

(١) مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٦٩) .

فيه: التصريحُ بأنَّ النبي ﷺ بعثَ علياً لذلك. أمّا الصور: فلمضاهاتها لخلق الله. وأمّا/ تسوية القبور: فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو من [١٧٥/ب] ذرائع الشرك ووسائله. فصرفُ الهمم إلى هذا وأمثاله، من مصالح الدين ومقاصده وواجباته.

ولمّا وقع التساهلُ في هذه الأمور وقع المحذور، وعظمت الفتنة بأرباب القبور، وصارت محطاً لرحال العابدين المعظمين لها. فصرفوا لها جُلَّ العبادة: من الدعاء والاستعانة والاستغاثة، والتضرع لها، والذبح لها، والنذور، وغير ذلك من كلِّ شركٍ محرّمٍ محظور.

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى -: ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور، وما أمر به وما نهى عنه وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم. رأى أحدهما مضاداً للآخر، مناقضاً له، بحيث لا يجتمعان أبداً. فنهى رسولُ الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يُصلُّون عندها وإليها. ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد؛ مضاهاةً لبيوت الله.

ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها. ونهى أن تُتخذ عيдаً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر.

وأمر بتسويتها؛ كما روى مُسلمٌ في (صحيحه)، عن أبي الهيثاج الأسدي. - فذكر حديثَ الباب -، وحديثُ ثُمّامة بن شُعْبَةَ، وهو عند مسلم أيضاً، قال: كُنَّا مع فضالة بن عُبَيْد بأرض الروم برُودس^(١)، فتَوَفَّى صاحبٌ لنا. فأمر فضالةُ بقبْره فسَوَّى، ثم قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يأمر بتسويتها^(٢).

وهؤلاء يُبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها من الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب.

(١) رُودس. جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، ما زالت تحمل هذا الاسم إلى اليوم، وغالب أهلها من النصارى.

(٢) مسلم في «الصحيح» رقم (٩٦٨).

ونهى عن تخصيص القبر والبناء عليه؛ كما روى مسلم فى (صحيحه)، عن جابر، قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن تخصيص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنى عليه^(١).

ونهى عن الكتابة عليها؛ كما روى أبو داود فى (سُنَّته)، عن جابر: أن رسول الله ﷺ نهى عن تخصيص القبور، وأن يُكتب عليها. قال الترمذى: حديثٌ حسن صحيح^(٢). وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره!

[١/١٧٦] ونهى أن يُزاد/ عليها غيرُ ترابها؛ كما روى أبو داود، عن جابر أيضاً: نهى أن يُجصص القبر، أو يُكتب عليه، أو يُزاد عليه^(٣). وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والأحجار والجص. قال إبراهيم النخعى: كانوا يكرهون الأجر على قبورهم.

والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب: مناقضون لما أمر به رسولُ الله ﷺ، محادون لما جاء به. وأعظمُ ذلك اتخاذها مساجد، وإيقادُ السرج عليها. وهو من الكبائر، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم، بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسى: ولو أُبيح اتخاذُ السرج عليها لم يلعن من فعله. ولأن فيه إفراطاً فى تعظيم القبور، أشبه تعظيم الأصنام.

قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور؛ لهذا الخبر، ولأن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذرُ ما صنعوا» متفق عليه^(٤).

ولأن تخصيص القبور يُشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها، والتقرب إليها. وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها، والصلاة عندها^(٥). انتهى.

(١) مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٧٠).

(٢) أبو داود فى «السنن» رقم (٣٢٢٦) والترمذى فى «الجامع» رقم (١٠٥٢) قال النووى فى «المجموع شرح المهذب» (٢٤٨/٥) إسناده صحيح.

(٣) أبو داود فى «السنن» رقم (٣٢٢٦)، وأخرجه النسائى فى «المجتبى» (٨٦/٤).

(٤) مضى تخريجه.

(٥) مضى تخريجه.

وقد آل الأمرُ بهؤلاء الضُّلال المشركين إلى أنْ شرعوا للقبور حجاً، ووضعوا لها مناسك، حتى صَنَّفَ بعضُ غلاتهم في ذلك كتاباً وسمَّاه: (مناسك حج المشاهد)^(١)، مضاهاةً منه بالقبور للبيت الحرام.

ولا يخفى أنَّ هذا مفارقةٌ لدين الإسلام، ودخولٌ في دين عبَاد الأصنام. فانظروا إلى هذا التباين العظيم: بين ما شرعه رسولُ الله ﷺ وقصدَه من النهي عما تقدم ذكرُه في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه.

ولا ريب أنَّ في ذلك من المفاسد ما يُعجز عن حصره: فمنها: تعظيمُها الموقع في الافتتان بها. ومنها: اتخاذُها أعياداً. ومنها: السفرُ إليها.

ومنها: مُشابهةُ عِبادةِ الأصنام، بما يفعل عندها: من العُكوف عليها والمجاورة عندها، وتعليقِ الستور عليها، وسدانتها. وعبادُها يرجحون المجاورةَ عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويلُ لقيمتها ليلةً يطفأُ القنديلُ المعلقُ عليها!

ومنها: النذرُ لها، ولسدنتها.

ومنها: اعتقادُ المشركين/ بها أنَّ بها يُكشفُ البلاء وينصر على الأعداء، [١٧٦/ب] ويستنزل غيثُ السماء، وتفرج الكروب، وتُقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلى غير ذلك.

ومنها: الدخول في لعنة الله ورسوله، باتخاذ المساجد عليها، وإيقاد السُّرج عليها. ومنها: الشركُ الأكبر، الذي يُفعل عندها.

ومنها: إيذاءُ أصحابها، بما يفعله المشركون بقبورهم. فإنهم يؤذيهم ما يُفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أنَّ المسيح عليه السلام يكره ما يفعل النصراني عند قبره^(٢).

(١) هو: ابن النعمان المُقيّد، محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام العكبري، أبو عبد الله، ويُعرف بابن المعلم الرافضي، من شيوخهم وكهنتهم المخذولين ورئيسهم وأستاذهم هلك عام ٤١٣ هـ «شذرات الذهب» (١٩٩/٣).

(٢) وهو قبرهم المزعوم في فلسطين، قال الله تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإنَّ الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظنَّ وما قتلوه يقينا﴾ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً» [النساء: ١٥٧ - ١٥٨].

وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ، يؤذيهـم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم. ويوم القيامة يتبرؤون منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ: أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٨].

قال الله للمشركين: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾. الآية [المائدة: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾. [سبا: ٤٠ - ٤١].

ومنها: إماتة السنن، وإحياء البدع. ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله؛ فإنَّ عبَاد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام، والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة على الموتى، ما لا يفعلونه فى المساجد، ولا قريباً منه.

ومنها: أنَّ الذى شرعه الرسول ﷺ، [عند زيارة القبور]^(١): إِنَّمَا هُوَ تَذَكُّرُ الآخِرَةِ، والإِحْسَانُ إِلَى الْمَزُورِ بالدعاء له والترحم عليه، والاستغفار له وسؤالِ العافية، فيكون الزائرُ محسناً إلى نفسه، وإلى الميت.

فقلب هَؤُلَاءِ المشركون الأمر، وعكسوا الدين. وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، [١٧٧/٢] ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستئزال البركة منه/ ونصره لهم على الأعداء، ونحو ذلك. فصاروا مسيئين إلى أنفسهم، وإلى الميت.

وكان رسولُ الله ﷺ قد نهى الرجالَ عن زيارة القبور؛ سداً للذريعة. فلما تَمَكَّنَ التوحيدُ فى قلوبهم أذن لهم فى زيارتها على الوجه الذى شرعه، ونهاهم أن يقولوا هُجْراً. ومن أعظم الهُجْر: الشركُ عندها، قولاً وفِعْلاً.

(١) إضافة من (ط) «والإغاة».

وفى (صحيح مسلم)، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «زوروا القبور، فإنها تذكروا الموت»^(١).

وعن ابن عباس، قال: مرَّ رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال: «السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالآثر» رواه أحمد، والترمذى وحسنه^(٢).

فهذه الزيارة التى شرعها رسول الله ﷺ لأئمة، وعلمهم إياها. هل تجد فيها شيئاً مما اعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟! وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم، ونقص إيمانهم: عوّضوا عن ذلك، بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرّد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلّم على النبى ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر، ثم دعا.

ونصّ على ذلك الأئمة الأربعة: أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء، حتى لا يدعو عند القبر؛ فإنّ الدعاء عبادة. وفى الترمذى، وغيره مرفوعاً «الدعاء هو العبادة»^(٣) فجرّد السلف العبادة لله، ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ: من الدعاء لأصحابها، والاستغفار لهم، والترحم عليهم^(٤).

وأخرج أبو داود، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبرى عيداً، وصلّوا علىّ فإنّ صلاتكم تبلغنى حيث كنتم»^(٥) وإسناده جيد، رواه ثقات مشاهير.

وقوله: «ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً» أى: لا تعطّلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور.

(١) قطعة من حديث، عند مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٧٦).

(٢) أحمد فى «المسند» (١١١/٦، ١٨٠، ٢٢١) والترمذى فى «الجامع» رقم (١٠٥٣) واللفظ له.

(٣) مضى تخريجه.

(٤) ابن القيم فى «إغاثة اللهفان» (١/٢١٤ - ٢٢٠).

(٥) أبو داود فى «السنن» رقم (٢٠٤٢) وقد مضى تخريجه.

فأمر بتحري النافلة فى البيوت، ونهى عن تحرى العبادة^(١) عند القبور. وهذا [١٧٧/ب] ضد ما عليه المشركون، من / النصارى وأشباههم.

ثم إن فى تعظيم القبور واتخاذها أعياداً من المفاصد العظيمة التى لا يعلمها إلا الله، ما يغضب لأجله كل من فى قلبه وقاراً لله وغيره على التوحيد، وتهجين وتقبيح للشرك؛ ولكن: ما لجرح بميت إيلام^(٢).

فمن مفاصد اتخاذها أعياداً: الصلاة إليها والطواف بها، وتقيلها واستلامها، وتعفير الخدود على ترابها، وعبادة أصحابها والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الديون، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات، التى كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم.

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيداً، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من كل مكان بعيد. فوضعوا لها الجباه، وقبلوا الأرض وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم الشجيج! ورأوا أنهم قد أربوا فى الربح على الحجيج. فاستغاثوا بمن لا يُبدى ولا يُعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد.

حتى إذا دنوا منها صلّوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرروا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين. فتراهم حول القبر رُكعاً وسجداً، يبتغون فضلاً من الميت ورضواناً، وقد ملؤوا أكفهم خيبة وخسراناً.

فلغير الله - بل للشيطان - ما يُراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويُسأل من تفريج الكربات، وإغناء ذوى الفاقات، ومعافاة ذوى العاهات والبلیات.

(١) (هـ) (ط): النافلة.

(٢) شطر بيت من قصيدة طويلة لأبى الطيب المنبى، أوله: من يهن يسهل الهوان عليه. «الديوان» بشرح العكبرى (٩٢/٤).

ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذى جعله الله مباركاً وهدى للعالمين. ثم أخذوا فى التقييل والاستلام؛ رأيت الحجر الأسود وما يفعل به وقد البيت الحرام؟! ثم عَفَرُوا لديه تلك الجباه والحدود، التى يعلم الله أنها لم تُعَفَّرْ كذلك بين يديه فى السجود.

ثم كَمَلُوا مناسك حجَّ القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلافهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق.

وقد يُعطى لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقرباتهم لغير الله رب العالمين. فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضاً، ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظاً!

فإذا رجعوا، سألهم غلاة المتخلفين: أن يبيع أحدُهم ثواب حجة القبر، بحج [١/١٧٨] المتخلف إلى البيت الحرام. فيقول: لا، ولا بحجك كل عام!!

هذا، ولم نتجاوز فيما حكينا عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم؛ إذ هى فوق ما يخطر بالبال، أو يدور فى الخيال. وهذا مبدأ عبادة الأصنام فى قوم نوح؛ كما تقدم.

وكلُّ من شَمَّ أدنى رائحة من العلم والفقه، يعلم أن أهمَّ الأمور: سندُ الذريعة إلى هذا المحذور، وأنَّ صاحب الشرع أعلمُ بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه، وأحكم فى نهيه عنه وتوعُّده عليه، وأنَّ الخير والهدى فى اتباعه وطاعته والشرُّ والضلال فى معصيته ومخالفته، انتهى كلامه رحمه الله^(١).

(١) ابن القيم فى «إغاثة اللهفان» (١/ ٢١٠ - ٢١٣).

(٦١)
باب
ما جاء في كثرة الحلف

قال المصنّف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في كثرة الحلف .

ش: أى: من النهى عنه، والوعيد.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿واحفظوا أيمانكم﴾

[المائدة: ٨٩].

ش: قال ابن جرير: لا تتركوها بغير تكفير^(١). وذكر غيره من المفسرين، عن ابن عباس: يُريد لا تحلفوا. وقال آخرون: احفظوا أيمانكم عن الحنث^(٢)، فلا تحنثوا^(٣).

والمصنّف، أراد من الآية: المعنى الذى ذكره ابن عباس؛ فإنّ القولين متلازمان. فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث، مع ما يدل عليه من الاستخفاف، وعدم التعظيم لله، وغير ذلك مما ينافى كمال التوحيد الواجب أو عدمه.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: عن أبى هريرة: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الحلفُ منقّةٌ للسلعة، ممحقةٌ للكسب» أخرجاه.

ش: أى: البخارى، ومسلم. وأخرجه أبو داود، والنسائى^(٤).

والمعنى: أنّه إذا حلف على سلعته أنه أعطى فيها كذا وكذا أو أنه اشتراها بكذا

(١) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٥٦٢/١٠).

(٢) الحنث: الإثم، والحلف فى اليمين. «القاموس المحيط» (٧٢٢/١).

(٣) ذكره البغوى فى «التفسير» (٦٢/٢).

(٤) البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٠٨٧) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٦٠٦) وأبو داود فى «السنن» رقم

(٣٣٣٥) والنسائى فى «المجتبى» (٢٤٦/٧).

وكذا، وقد يظنه المشتري صادقاً فيما حلف عليه فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع كذاب، وحلف طمعاً في الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى، فيعاقب بمحق البركة.

فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأساً. وما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، وإن تزخرت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلالٌ وذهابٌ وعقاب.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن سلمان، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم»: أشيظ زان، وعائلٌ مستكبرٌ، ورجلٌ جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه» رواه الطبراني بسند صحيح^(١).

ش: وسلمان: لعلة سلمان الفارسي^(٢)، أبو عبد الله. أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة وشهد الخندق، روى عنه: أبو عثمان النهدي، وشرحيل بن السمط، وغيرهما. قال النبي ﷺ: «سلمانٌ منا أهل البيت»^(٣)، «إن الله يحب من أصحابي أربعة: عليٌّ، وأبو ذر، وسلمان، والمقداد». أخرجه الترمذي، وابن ماجه^(٤).

قال الحسن: كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفاً، يخطب بهم في عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها^(٥). تُوفى في خلافة عثمان، قال أبو عبيد: سنة ست وثلاثين. عن ثلاثمائة وخمسين سنة^(٦)، ويُحتمل: أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي.

(١) الطبراني في «الكبير» رقم (٦١١١) و«الصغير» رقم (٨٢١) و«الأوسط» كما في «الترغيب والترهيب» للمنذري (٥٨٧/٢) وقال: ورواته محتج بهم في الصحيح.

(٢) صرح به الطبراني في «معاجمه» الثلاثة.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨٢/٤)، وابن جرير الطبري في «التفسير» (٢١/١٣٣)، والطبراني في «الكبير» (٦٠٤٠)، والحاكم في «المستدرک» (٥٩٨/٣) وقال الذهبي: سنده ضعيف.

(٤) الترمذي في «الجامع» رقم (٣٧٢٠) وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه في «السنن» رقم (١٤٩).

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨٧/٤) وأبو نعيم في «الحلية» (١٩٧/١).

(٦) قال الذهبي في «سير النبلاء» (٥٥٥/١) وقد فُتشت، فما ظفرت في سنه بشيء سوى قول البحراني، وذلك منقطع لا إسناده له. ومجموع أمره وغزوه وحمته وتصرفه وسفقه للجريد، وأشياء مما تقدم، يُبنى بأنه ليس بمعمّر ولا هرم؛ فقد فارق وطنه وهو حدث، ولعله قدم الحجاز وله أربعون سنة أو أقل، فلعله عاش بضعا وسبعين سنة. وما أراه بلغ المئة.

قوله: «ثلاثة لا يكلمهم الله» نفى كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة، دليل على أنه يكلم من أطاعه، وأن الكلام صفة من صفات كماله. والادلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه، وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة من المحققين: قيام الأفعال بالله سبحانه، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً، ولم يزل متصفاً به.

فهو حادث الأحاد، قديم النوع؛ كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث، وغيرهم من أصحاب الشافعي، وأحمد، وسائر الطوائف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. [يس: ٨٢] فأتى بالحروف الدالة على (الاستقبال، والأفعال الدالة على^(١) الحال والاستقبال أيضاً. وذلك في القرآن كثير.

قال المصنف شيخ الإسلام: فإذا قالوا لنا - يعني النفاة -: فهذا يلزم أن تكون الحوادث قائمة به؟ قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟! ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل.

ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأمراض والنقائص، والله منزّه عن ذلك، ولكن يقوم به ما شاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك، مما دل عليه الكتاب والسنة.

والقول الصحيح: قول أهل العلم، الذين يقولون لم يزل متكلماً إذا شاء؛ كما قال ابن المبارك، وأحمد بن حنبل، وغيرهما من أئمة السنة. انتهى^(٢).

قلت: ومعنى قيام الحوادث به/ تعالى: قدرته عليها، وإيجاده لها بمشيئته [١٧٩/١] وأمره، والله أعلم.

قوله: «ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، فعوقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات.

قوله: «أشيمط زان» صغره تحقيراً له؛ وذلك لأن داعي المعصية ضَعُفَ في حقه، فدلَّ على أن الحامل له على الزنا: محبة المعصية والفجور، وعدم خوفه من الله.

(١) ما بينهما ساقط من (ط).

(٢) ينظر: ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٩٠/٦).

وضعفُ الداعى إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظَ العقوبة عليه، بخلاف الشاب؛ فإنَّ قوة داعى الشهوة منه قد يغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم، ولومها على المعصية، فينتهى ويراجع.

وكذلك العائل المستكبر، ليس له ما يدعو به إلى الكبر؛ لأنَّ الداعى إلى الكبر فى الغالب كثرةُ المال والنعم والرياسة. والعائلُ الفقير لا داعى له إلى أن يستكبر. فاستكباره مع عدم الداعى إليه، يدلُّ على أنَّ الكبر طبيعةٌ له، كامنٌ فى قلبه. فعظمت عقوبته؛ لعدم الداعى إلى هذا الخلق الذميم، الذى هو من أكبر المعاصى.

قوله: «ورجلٌ جعل الله بضاعته» بنصب الاسم الشريف، أى: الحلف به، جعله بضاعته؛ لملازمته له وغلبته عليه.

وهذه أعمالٌ تدل على أنَّ صاحبها إن كان موحدًا فتوحيدُه ضعيف، وأعماله ضعيفة؛ بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصى العظيمة، على قلة الداعى إليها. نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ بالله من كلِّ عمل لا يحبه ربُّنا ولا يرضاه.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وفى الصحيح، عن عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ أمتى قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - قال عمران: فلا أدري، أذكرُ بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً - ثم إنَّ بعدكم قوماً يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السُّمن»^(١).

ثم: قوله: (وفى الصحيح) أى: (صحيح مسلم)، وأخرجه أبو داود، والترمذى، ورواه البخارى بلفظ «خيركم»^(٢).

قوله: «خيرُ أمتى قرنى» لفضيلة أهل ذلك القرن: فى العلم والإيمان، والأعمالِ الصالحة التى يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها العاملون. فغلب

(١) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٥٣٥).

(٢) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٦٥٧) والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٢٢٢، ٢٢٢٣) والبخارى فى «الصحيح» رقم (٢٦٥١، ٣٦٥٠، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥).

الخيرُ فيها وكثر أهلُهُ، وقل الشرُّ فيها وأهلُهُ، واعتزَّ فيها الإسلام والإيمان، وكثرُ فيه العلم/ والعلماء.

[١٧٩/ب]

«ثم الذين يلونهم» فضَّلُوا على من بعدهم: لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعي إليه، والراغب فيه والقائم به. وما ظهر فيه من البدع، أنكر واستعظم وأزِيل، كبِدعة الخوارج والقدرية والرَّافضة. فهذه البدعُ وإنْ كانت قد ظهرت، فأهلها في غاية الذُّلِّ والمقت والهوان والقتل، فيمن عاند منهم ولم يتُب.

قوله: «فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً؟» هذا شكٌّ من راوى الحديث عمران بن حصين، والمشهور في الروايات: أنَّ القرون المفضَّلة ثلاثة. الثالثُ دون الأولين في الفضل؛ لكثرة ظهور البدع فيه، لكنَّ العلماء متوافرون، والإسلام فيه ظاهر، والجهاد فيه قائم. ثم ذكر ما وقع بعد الثلاثة، من الجفاء في الدين، وكثرة الأهواء.

فقال: «ثم إنَّ بعدكم قوماً يشهدون ولا يُستشهدون» لاستخفافهم بأمر الشهادة، وعدم تحریمهم للصدق؛ وذلك لقلَّة دينهم، وضعف إسلامهم. قول: «ويخونون ولا يُؤثَّمون» يدلُّ على أنَّ الخيانة قد غلبت على كثير منهم، أو أكثرهم.

قوله: «ويتذوِّرون ولا يوفون» أي: لا يؤدُّون ما وجب عليهم. فظهورُ هذه الأعمال الذميمة، يدلُّ على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم.

قوله: «ويظهر فيهم السَّمَن» لرغبتهم في الدنيا، ونيل شهواتهم والتَّنعُّم بها وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها.

وفى حديث أنس «لا يأتى زمانٌ إلا والذي بعده شرُّ منه حتى تلقوا ربكم» قال أنس: سمعته من نبيكم ﷺ^(١). فما زال الشرُّ يزيد في الأمة، حتى ظهر الشركُ والبدع في كثيرٍ منهم. حتى فيمن يتسبب إلى العلم، ويتصدَّر للتعليم والتصنيف.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفيه، عن ابن مسعود: أنَّ النبي ﷺ قال: «خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجىء قومٌ تسبق

(١) أخرجه البخارى في «الصحيح» رقم (٧٠٦٨)، وأحمد في «المسند» (١١٧/٣)، (١٣٢، ١٧٩).

شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته». قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد، ونحن صغار^(١).

ش: قلت: وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسى المعاد، فخفَّ أمرُ الشهادة واليمين عنده تحملاً وأداءً؛ لقلَّة خوفه من الله، وعدم مبالاته بذلك.

وهذا هو الغالبُ على الأكثر، والله المستعان. فإذا كان هذا قد وقع في الصدر الأول، ففي ما بعده أكثر بأضعاف. فكُن من الناس على حذر.

قوله: (قال إبراهيم). هو النَّخعي.

[٢/١٨٠] (كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد، ونحن صغار)، وذلك/ لكثرة علم

التابعين، وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه من أفضل الجهاد، ولا يقوم الدين إلا به.

وفى هذا: الرغبةُ في تمرين الصغار على طاعة ربهم، ونهيهم عما يضرهم. وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) مسلم في «الصحيح» رقم (٢٥٣٣).

(٦٢)

باب

ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله.

وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. [النحل: ٩١].

ش: قال العماد ابن كثير: وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الإيمان [المؤكدة] ^(١)؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولا تعارض بين هذا، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] وبين قوله: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لَأَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أى: لا تتركوها بلاء تكفير، و[بين قوله ﷺ] ^(٢) فى (الصحيحين): «إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وتحملتُها» - وفى رواية - «وكفرتُ عن يمينى» ^(٣).

لا تعارض بين هذا كله، وبين الآية المذكورة هنا وهى ^(٢) قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [لأن] ^(٢) هذه الأيمان، المراد بها: الداخلة فى العهود والمواثيق، لا الأيمان الواردة على حث أو منع. ولهذا قال مجاهد، فى الآية: يعنى الحلف، أى: حلف الجاهلية.

ويؤيده: ما رواه الإمام أحمد، عن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) إضافة من (ط) و«التفسير».

(٢) ساقط من الأصل و(ض) و(هـ).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٧١٨، ٦٧١٩) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٦٤٩) من حديث أبى موسى الأشعرى.

«لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة»^(١).

[وكذا رواه مسلم]^(٢). ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف، الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه. فإن في التمسك بالإسلام، حماية وكفاية عما كانوا فيه.

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» تهديد ووعيد، [لمن نقض الأيمان بعد توكيدها]^{(٢)(٣)}.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: وعن بُريدة، قال: كان رسولُ الله ﷺ، إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً. فقال: «اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تَغْلُوا ولا تغدروا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلal - فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم: أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم: أنهم يكونون كأعراب المسلمين. يجري عليهم حكمُ الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفىء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا، فاسألهم الجزية. فإن هم أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم. فإن هم أبوا، فاستعن بالله، وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة نبيه. فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه. ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك. فإنكم إن تخفروا ذمكم وذمة أصحابكم، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله. فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك. فإنك لا تدري: أتصيب فيهم حكمَ الله أم لا؟» رواه مسلم^(٤).

(١) أحمد في «المستد» (٨٣/٤).

(٢) ما بينهما إضافة من (ط) و«التفسير». والحديث رواه مسلم في «الصحيح» رقم (٢٥٣٠).

(٣) ابن كثير في «التفسير» (٥١٦/٤).

(٤) مسلم في «الصحيح» رقم (١٧٣١).

ش: قوله: (عن بُريدة)، هو ابن الحُصيب الأسلمي، وهذا الحديث من رواية ابنه سُلَيْمان عنه. قاله في (المفهم).

قوله: (كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى) فيه من الفقه: تأميرُ الأمراء، ووصيتهم.

قال الحربي: السرية: الخيل تبلغ أربعمئة ونحوها. والجيش: ما كان أكثر من ذلك. وتقوى الله: التحرزُ بطاعته من عقوبته.

قلتُ: وذلك بالعمل بما أمر الله به، والانتهاء عما نهى الله عنه.

قوله: (ومن معه من المسلمين خيراً) أى: ووصاه بمن معه منهم، أن يفعل معهم خيراً: / من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفضِ الجناح لهم، وترك [١٨٠/ب] التعاضم عليهم.

وقوله: «اغزوا باسم الله» أى: اشرعوا في فعل الغزو، مُستعينين بالله مخلصين له. قلتُ: فتكون الباء في بسم الله هنا، للاستعانة والتوكل على الله.

وقوله: «قاتلوا من كفر بالله» هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر، المحاربين وغيرهم. وقد خُصَّص منهم من له عهدٌ، والرهبان والنسوان، ومن لم يبلغ الحُلُم. وقد قال مُتصلاً به: «ولا تقتلوا وليداً» وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان؛ لأنه لا يكون منهم قتال غالباً، فإن كان منهم قتالٌ أو تدبيرٌ قُتلوا. قلتُ: وكذلك الذراري، والاولاد.

قوله: «ولا تَغْلُوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا» الغُلُول: الأخذُ من الغنيمة، من غير قسمتها. والغدر: نقضُ العهد. والتمثيل هنا: التشويهُ بالقتيل، كقطع أنفه وأذنه والعبث به. ولا خلاف في تحريم الغُلُول والغدر، وفي كراهة المثلة.

وقوله: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال، أو خصال» الروايةُ بأو للشك، وهو من بعض الرواة. ومعنى الخلال والخصال، واحد.

وقوله: «فأيتهنَّ ما أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم» قيّدناه، عمّن يوثق بعلمه. وتقيدُهُ بنصب أيتهنَّ؛ على أن يعمل فيها أجابوك، لا على إسقاط حرف الجر.

وما زائدةٌ. ويكون تقدير الكلام: فألى أيتهنَّ أجابوك فاقبل منهم. كما تقول: أجبتك إلى كذا أو فى كذا. فيُعدَّى إلى الثانى بحروف الجر.

قلت: فيكون فى ناصب «أيتهن» وجهان: ذكرهما الشارح^(١). الأول: منصوب على الاشتغال، والثانى: على نزع الخافض.

قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» كذا وقعت الرواية فى جميع نسخ [كتاب]^(٢) مسلم «ثم ادعهم» بزيادة ثم، والصواب إسقاطها. كما روى فى غير (كتاب مسلم)، (كمصنف) أبى داود^(٣)، وكتاب (الأموال) لأبى عبيد؛ لأن ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث الخصال.

وقوله: «ثم ادعهم إلى التحول إلى دار المهاجرين» يعنى المدينة، وكان هذا فى أول الأمر، وقت وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل فى الإسلام. وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة، وغيرها.

قوله: «فإن أبوا أن يتحولوا» يعنى: أن من أسلم ولم يُجاهد ولم يهاجر، لا يُعطى من الخمس ولا من الفىء شيئاً.

[١/١٨١] وقد أخذ الشافعى بالحديث/ فى الأعراب، فلم ير لهم من الفىء شيئاً. وأن لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم، فتدُّ على فقرائهم. كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم فى الصدقة عنده، ومصرف كل مال فى أهله. وسوى مالك وأبو حنيفة بين المالكين، وجوزاً صرفهما للضعيف^(٤).

وقوله: «فإن هم أبوا فاسألهم الجزية» فيه: حجة لمالك وأصحابه، والأوزاعى فى أخذ الجزية من كل كافر: عربياً كان أو غيره، كتابياً كان أو غيره.

وذهب أبو حنيفة إلى أنها تؤخذ من الجميع، إلا من مشركى العرب ومجوسهم. وقال الشافعى: لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب: عرباً كانوا أو عجماء. وهو قول الإمام أحمد فى ظاهر مذهبه، وتؤخذ من المجوس.

(١) يعنى: القرطبي، صاحب كتاب «المفهم» الذى نقل عنه هنا.

(٢) إضافة من (ض) و(ها) و(ط).

(٣) أبو داود فى «السنن» رقم (٢٦١٣).

(٤) ينظر كتاب «الأموال». لابن رجب (١/٤٧٧).

قلتُ: لأن النبي ﷺ أخذها منهم، وقال: «سُنُوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»^(١).

وقد اختلف في القدر المفروض من الجزية، فقال مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورق. وهل ينقص منها الضعيف أو لا؟ قولان. وقال الشافعي: فيه دينارٌ على الغني والفقير. وقال أبو حنيفة، والكوفيون على الغني ثمانية وأربعون درهماً، والوسط أربعة وعشرون درهماً، والفقير اثنا عشر درهماً. وهو قول أحد بن حنبل^(٢).

قال يحيى بن يوسف الصرصرى الحنبلى^(٣).

وقاتل يهوداً والنصارى وعصبة الـ	مجوس، فإن هم سلّموا الجزية اصدد
على الأدون اثني عشر درهماً افرضن	وأربعة من بعد عشرين زيّد
لاوسطهم حالاً، ومن كان موسراً	ثمانية مع أربعين لتتقد
وتسقط عن صبيانهم ونسائهم	وشيخ لهم فإن وأعمى ومقعد
وذى الفقر والمجنون أو عبد مسلم	ومن وجبت منهم عليه فيهدى ^(٤)

وعند مالك، وكافة العلماء: على الرجال الأحرار البالغين العقلاء، دون غيرهم. وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين، لا ممن نأى بداره. ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين، أو حربهم^(٥).

وقوله: «وإذا حاصرت أهل حصن» الكلام إلى آخره، فيه حجة لمن يقول من الفقهاء، وأهل الأصول: إنّ المصيب في مسائل الاجتهاد واحد. وهو المعروف من مذهب مالك، وغيره.

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» كتاب (الزكاة) رقم (٤٣) وعبد الرزاق في «المصنف» (١٠/٣٢٥). قال ابن عبد

البر في «التمهيد» (١١٤/٢): هذا حديث منقطع، ولكن معناه متصل من وجوه حسان.

(٢) ينظر ابن قدامة «المغنى» (٢٠٩/١٣)، وابن القيم «أحكام أهل الذمة» (٢٦/١).

(٣) أبو زكريا، جمال الدين الأنصارى الزُّريانى الضرير، أديب فقيه (ت ٦٥٦هـ) «تاريخ ابن رجب» (٢٦٢/٢).

(٤) من كتاب «الدرة البتية والحجة المستقيمة في نظم مختصر الخرقى». وينظر «المدخل» لابن بدران

(٤٢٨).

(٥) ينظر «الأموال» لابن زنجويه (١١٥/١) «والتمهيد» لابن عبد البر (١٣٠/٢).

ووجه الاستدلال: لأنه ﷺ قد نص على أن الله تعالى حكماً معيناً في [١٨١/ب] المجتهدين. ومن وافقه فهو المصيب، ومن لم يوافقه مخطئ/ (١).

قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله» الحديث.

الذمة: العهد، وتَخَفِر: تنقض، يقال: أَخَفَرَت الرجل: نقضت عهده، وَخَفَرَتْه: أجرته.

ومعناه: أنه خاف من نقض من لم يعرف حقَّ الوفاء بالعهد، كجهلة الأعراب، فكأنه يقول: إن وقع نقض من متعدد، كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى، والله أعلم.

قوله: وقول نافع، وقد سُئِلَ عن الدعوة قبل القتال (٢).

ذكر فيه: أن مذهب مالك، يجمع فيه بين الأحاديث في الدعوة قبل القتال.

قال: وهو أن مالكا، قال: لا يقاتل الكفار قبل أن يُدْعُوا، ولا تُلْتَمَسْ غِرَّتْهُمْ. إلا أن يكونوا بَلَّغَتْهُمْ الدعوة، فيجوز أن تؤخذ غِرَّتْهُمْ.

وهذا الذي صار إليه مالك، وهو الصحيح؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصية، وإنما يقاتلون للدين. فإذا علموا

(١) وما يدل له أيضاً: ما أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٧٣٥٢)، ومسلم في «الصحيح» رقم (١٧١٦)، وأحمد في «المستد» (١٨٧/٢، ١٩٨/٤، ٢٠٤، ٢٠٥) من حديث عمرو بن العاص، أن النبي - ﷺ - قال: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر».

وهذا هو مذهب عامة أهل العلم، ينظر: أبو يعلى الخبلي «العدة في أصول الفقه» (١٥٤٠/٥) والغزالي «المخول» (٤٥١) والقرافي «التقيح» (٤٣٨) وآل تيمية «المسودة» (٤٩٧).

(٢) قاله القرطبي في كتاب «المفهم». وأخرج قول نافع أبو داود في «السنن» رقم (٢٦٣٣) عن ابن عون، قال: كتبتُ إلى نافع أسأله عن دعاء المشركين عند القتال، فكتب إلي: إن ذلك كان في أول الإسلام، وقد أثار نبيُّ الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تُسقى على الماء. فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم، وأصاب يؤمئذ جويرية بنت الحارث. حدثني بذلك عبد الله، وكان في ذلك الجيش. قال أبو داود: هذا حديثٌ نبيل، رواه ابن عون عن نافع، ولم يشركه فيه أحد.

بذلك، أمكن أن يكون ذلك سبباً مُمِلاً لهم إلى الانقياد إلى الحق. بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين، فقد يظنون أنهم يقاتلون للممالك والدنيا، فيزيدون عتواً وبغضاً^(١). والله أعلم.

(١) والأولى، كما ذكر ابنُ عبد البر في «التمهيد» (٢/٢١٦): الدعاءُ قبل القتال؛ لأن رسول الله - ﷺ - كان يأمر سراياه بذلك، وكان يدعو كلَّ من يقاتله. مع اشتهاار كلمته، ودينه في جزيرة العرب. والله أعلم.

(٦٣)

باب

ما جاء في الإقسام على الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في الإقسام على الله^(١).
عن جندب بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى على أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحببتُ عملك» رواه مسلم^(٢).
وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجلٌ عابد. قال أبو هريرة: تكلم بكلمة، أو بقت دنياه وآخرته^(٣).

ش: قوله: (باب ما جاء في الإقسام على الله). ذكر المصنف فيه حديث جندب بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان. قال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى على أن لا أغفر لفلان، إني قد غفرت له، وأحببتُ عملك». رواه مسلم.

قوله: «يتألى» يحلف، والآلية بالتشديد: الحلف.

وصح من حديث أبي هريرة: قال البغوي في (شرح السنة) - وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار - قال: دخلتُ مسجد المدينة، فناداني شيخ فقال: يا يمامي، تعال، وما أعرفه. قال: لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الجنة.

(١) في إحدى نسخ «كتاب التوحيد» الخطية: باب ما جاء في الإقسام على الله بلا علم.

(٢) مسلم في «الصحیح» رقم (٢٦٢١).

(٣) أخرجه أبو داود في «السنن» رقم (٤٩٠١) وأحمد في «المسند» (٣٢٣/٢، ٣٦٣) وابن المبارك في «كتاب

الزهد» رقم (٩٠٠). بإسناد حسن.

قلتُ: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو هريرة. قال، فقلتُ: إنَّ هذه كلمة يقولها أحدنا لأهله إذا غضب، أو لزوجته أو لخدمه، قال: فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ رجلين كانا في بنى إسرائيل متحابين، أحدهما مجتهدٌ في العبادة، والآخر؛ كأنه يقول مذب. فجعل يقول: أقصر عما أنت فيه. قال، فيقول: خلّني وربّي. حتى وجده يوماً على ذنبٍ استعظمه، فقال: أقصر، فقال: خلّني وربّي، أبعتُ على رقيباً. فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبداً. قال: فبعث/ الله إليهما ملكاً، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده. فقال للمذب: ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدی رحمتي؟ قال: لا يارب، قال اذهبوا به إلى النار». قال أبو هريرة: والذي نفسى بيده، لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته^(١).

ورواه أبو داود في (سننه)، وهذا لفظه: عن أبى هريرة رضى الله عنه، ^(٢) قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كان رجلان في بنى إسرائيل متواخين، فكان أحدهما يُذنب، والآخر مُجتهدٌ في العبادة. فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر. فوجده يوماً على ذنب، فقال له: أقصر. فقال: خلّني وربّي، أبعتُ على رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة. فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بى عالماً، أو كنت على ما فى يدى قادراً؟ وقال للمذب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار»^(٣) إلى آخره.

قوله: (فى حديث أبى هريرة أنَّ القائل رجلٌ عابد) يُشير إلى قوله فى هذا الحديث «أحدهما مجتهدٌ فى العبادة».

وفى هذه الأحاديث: بيان خطر اللسان، وذلك يفيد التحرز من الكلام؛ كما فى حديث معاذ، قلت: يارسول الله، وإنا لمواخذون بما نتكلم به؟ قال: «تكلتك

(١) البنى فى «شرح السنة» (١٤/٣٨٤) عن ضمضم بن جوس.

(٢) ما بينهما ساقط من (هـ) و(ط).

(٣) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٩٠١)، وقد مضى تخريجه.

أَمْكُ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ -
إِلَّا حَصَائِدُ السَّيِّئَاتِ؟^(١) وَاللَّهِ أَعْلَمُ.

(١) أخرجه الترمذى فى «الجامع رقم (٢٦١٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه فى «السنن» رقم (٤٠٢١) وأحمد فى «المستد» (٥/٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧)، والطيالسى فى «السنن» رقم (٥٦٠) والنسائى فى «السنن الكبرى» كما فى «تحفة الأشراف» (٨/٤١٠) وابن أبى الدنيا «كتاب الصمت» رقم (٦) والحاكم فى «المستدرک» (٢/٤١٢) وصححه وافقه الذهبى.

(٦٤)

باب

لا يستشفع بالله على خلقه

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب لا يُستشفع بالله على خلقه.

عن جُبَيْر بن مُطْعِم، قال: جاء أعرابيُّ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، نُهكتَ الأنفُس، وجاعَ العيال، وهلكتِ الأموال، فاستسق لنا ربك، فإننا نستشفع بالله عليك، وبك على الله. فقال النبي ﷺ: «سُبْحان الله، سُبْحان الله!» فما زال يُسَبِّح، حتى عُرِفَ ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحك، أتدرى ما الله؟ إن شأن الله أعظمُ من ذلك، إنه لا يُستشفع بالله على أحد». وذكر الحديث، رواه أبو داود^(١).

ثم: قوله: (باب لا يُستشفع بالله على خلقه). وذكر الحديث، وسياقُ أبي داود في (سننه) أتمَّ مما ذكره المصنف رحمه الله، ولفظه: عن جُبَيْر بن محمد بن جبیر بن مُطْعِم، عن أبيه، عن جده، قال: أتى النبي ﷺ أعرابيٌّ، فقال: يا رسول الله، جُهدتِ الأنفُس، وضاعتِ العيال ونُهكتِ الأموال، وهلكتِ الأنعام، فاستسق الله لنا، فإننا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فقال النبي ﷺ: «ويحك! أتدرى ما تقول؟» وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عُرِفَ ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «ويحك! إنه لا يُستشفع بالله على أحدٍ من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك، أتدرى ما الله؟ إنَّ عرشه على سَمَوَاتِهِ لهكذا - وقال بأصبعه مثل القبة عليه - وأَنَّهُ لَيَنْطُ بِهِ أَطِيطُ الرَّحْلُ^(٢) بالراكب». [١٨٢/ب]

(١) أبو داود في «السنن» رقم (٤٧٢٦)، وصححه ابنُ القيم في «تهذيب السنن» (٩٥/٧). وابن كثير في «التاريخ» (٨/١).

(٢) أط الرَّحْل ونحوه، يَنْطُ أَطِيطاً: صَوْتُ «القاموس المحيط» (١٥٦/١).

قال ابنُ يسار^(١) في حديثه: «إنَّ الله فوق عرشه، وعرشه فوق سمواته».

قال الحافظُ الذهبي: رواه أبو داود - بإسنادٍ حسنٍ عنده - في (الرد على الجهمية)، من حديث محمد بن إسحاق بن يسار.

قوله: «ويحك إنه لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه» فإنه تعالى ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، والخير كله بيده. لا مانع لما أعطى، ولا مُعطى لما منع، ولا راد لما قضى وما كان الله ليُعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض، إنه كان عليماً قديراً.

إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كُنْ، فيكون. والخلقُ وما في أيديهم مُلكه يتصرف فيه كيف يشاء. وهو الذي يشفع الشافع إليه، ولهذا أنكر على الأعرابي قوله هذا، وسبح الله كثيراً وعظَّمه؛ لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه ويحمده، إنَّ شأن الله أعظم من ذلك.

وفي هذا الحديث: إثباتُ علوِّ الله على خلقه، وأنَّ عرشه فوق سمواته. وفيه: تفسيرُ الاستواء بالعلو؛ كما فسَّره الصحابةُ والتابعون والأئمة.

خلافاً للمعطلة: من الجهمية، والمعتزلة، ومن أخذ عنهم كالأشاعرة ونحوهم. من ألحد في أسماء الله وصفاته، وصرفها عن المعنى الذي وضعت له ودلَّت عليه، من إثبات صفات الله تعالى، التي دلَّت على كماله جل وعلا.

كما عليه السلفُ الصالح والأئمة، ومن تبعهم ممن تمسَّك بالسنة. فإنَّهم أثبتوا ما أثبتته الله لنفسه، وأثبتته له رسوله من صفات كماله، على ما يليق بجلاله وعظمته. إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل.

قال العلامة ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) - بعد كلام سبق فيما يُعرفُ العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته - قال بعد ذلك:

والثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة، فتُفتح له أبوابُ السماء، فيجول في أقطارها وملكوتهما وبين ملائكتها.

(١) (ط). ابن بشار. تحريف، وهو محمد بن إسحاق بن يسار، أبو بكر المطلبى، مولا هم، صدوق يدلّس ت (١٥٠هـ)، «تقريب» (٤٦٧).

ثم يُفتح له باب بعد باب، حتى ينتهى به سير القلب إلى عرش الرحمن. فينظر سَعَتَهُ وعَظَمَتَهُ، وجلالَه ومجده ورفعته. يرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه، كحَلَقَةٍ ملقاة بأرض فلاة. ويرى الملائكة حَاقِّين من حول العرش، لهم رَجُلٌ بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير.

والأمرُ ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود، التي لا يعلمها إلا ربُّها ومليكيها. فينزل الأمرُ بإحياء قوم وإماتة آخرين/، وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإنشاء مُلْك [١/١٨٣] وسلب ملك. وتحويل نعمة من محل إلى محل.

وقضاء الحاجات، على اختلافها وتباينها وكثرتها: من جبر كسير، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضرر، ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، وردّ أبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف وإغاثة للهِوَف، وإعانة لعاجز، وانتقام من ظالم، وكفّ لعدوان.

فهى مراسيمُ دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة، تنفذ فى أقطار العوالم، لا يشغله سمع شىء منها عن سَمْع غيره، ولا تغلظه كثرة المسائل والحوادث، على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها. ولا تبرم بالراح الملحين، ولا تنقص ذرةً من خزائنه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

فحينئذ يقوم القلبُ بين يدى الرحمن مُطَرَقاً لهيبته، خاشعاً لعظمته عان لعزته. فيسجد بين يدى المَلِكِ الحقِّ المُبِين، سجدةً لا يرفع رأسه منها إلى يوم المَزيد. فهذا سَفَرُ القلب، وهو فى وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من ^(١) أعظم آيات الله، وعجائب صنعه. فيا له من سفر ما أبركه وأروحته، ^(٢) وأعظم ثمرته وربحه، وأجل منفعته وأحسن عاقبته. سفر هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب، لا كالسفر الذى هو قطعة من العذاب. انتهى كلامه رحمه الله تعالى ^(٢).

وأما الاستشفاعُ بالرسول ﷺ فى حياته، فالمرادُ به: استجلابُ دعائه، وليس خاصاً به ﷺ. بل كلُّ حىٍّ صالحٍ يُرجى أن يُستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه

(١) ما بينهما ساقط من (ط).

(٢) ابن القيم فى «مفتاح دار السعادة» (٢١٧).

أَنْ يَدْعُوَ لِلْمَسَائِلِ بِالْمَطَالِبِ الْخَاصَّةِ أَوْ الْعَامَةِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَعْتَمِرَ مِنَ الْمَدِينَةِ: «لَا تَسْنَا يَا أَخِي مِنْ صَالِحِ دُعَاكَ»^(١).

وَأَمَّا الْمَيِّتُ: فَإِنَّمَا يُشْرَعُ فِي حَقِّهِ الدُّعَاءُ لَهُ عَلَى جَنَازَتِهِ، وَعَلَى قَبْرِهِ وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُشْرَعُ فِي حَقِّ الْمَيِّتِ، وَأَمَّا دَعَاؤُهُ: فَلَمْ يُشْرَعْ، بَلْ قَدْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى النَّهْيِ عَنْهُ، وَالْوَعِيدُ عَلَيْهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ لَا يُبْنِيكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤] فَبَيْنَ تَعَالَى أَنْ دُعَاءَ مَنْ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَسْتَجِيبُ شَرَكٌ، يَكْفُرُ بِهِ الْمَدْعُوُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[١٨٣/ب] أَيْ: يُنْكِرُهُ، وَيَعَادِي مِنْ فَعْلِهِ؛ كَمَا فِي آيَةِ الْأَحْقَافِ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحْقَاف: ٦] فَكُلُّ مَيِّتٍ أَوْ غَائِبٍ، لَا يَسْمَعُ وَلَا يَسْتَجِيبُ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ.

وَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَا سِيَّمَا أَهْلَ السَّوَابِقِ مِنْهُمْ كَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا عَنْ غَيْرِهِمْ: أَنَّهُمْ أَنْزَلُوا حَاجَتَهُمُ بِالنَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَفَاتِهِ، حَتَّى فِي أَوْقَاتِ الْجَدْبِ؛ كَمَا وَقَعَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا خَرَجَ لِيَسْتَسْقِيَ بِالنَّاسِ، خَرَجَ بِالْعَبَّاسِ عَمَّ النَّبِيُّ ﷺ فَأَمَرَهُ أَنْ يَسْتَسْقِيَ^(٢)، لِأَنَّهُ حَيٌّ حَاضِرٌ يَدْعُو رَبَّهُ، فَلَوْ جَازَ أَنْ يُسْتَسْقَى بِأَحَدٍ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَاسْتَسْقَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ.

وَبِهَذَا يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْحَيِّ دَعَاؤُهُ إِذَا كَانَ حَاضِرًا. فَإِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا تَوَجَّهُوا إِلَى اللَّهِ بِطَلْبِ الدُّعَاءِ مِمَّنْ يَدْعُوهُ وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ.

فَمَنْ تَعَدَّى الْمَشْرُوعَ إِلَى مَا لَا يُشْرَعُ، ضَلَّ وَأَضَلَّ. فَلَوْ كَانَ دُعَاءُ الْمَيِّتِ خَيْرًا لَكَانَ الصَّحَابَةُ إِلَيْهِ أَسْبَقَ وَعَلَيْهِ أَحْرَصُ، وَبِهِمْ أَلْيَقُ، وَبِحَقِّهِ أَعْلَمُ وَأَقْوَمُ. فَمَنْ تَمَسَّكَ بِكِتَابِ اللَّهِ نَجَا، وَمَنْ تَرَكَهَ وَعَتَمَدَ عَلَى عَقْلِهِ هَلَكَ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «السُّنَنِ» رَقْمَ (١٤٩٨) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «الْجَامِعِ» رَقْمَ (٣٥٥٧) وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ» رَقْمَ (١٠١٠، ٣٧١٠) عَنْ أَنَسٍ.

(٦٥)

باب

ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ (١) حمى التوحيد، وسده طرق الشرك.

عن عبد الله بن الشخير، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «السيد الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجريكم الشيطان». رواه أبو داود بسند جيد (٢).

وعن أنس، أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. فقال: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل». رواه النسائي بسند جيد (٣).

ثم: قوله: (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك) حمايته ﷺ حمى التوحيد، عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمنحل معها التوحيد أو ينقص. وهذا كثير في السنة الثابتة عنه ﷺ، كقوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»

(١) في بعض النسخ الخطية لكتاب «التوحيد»: حماية النبي ﷺ.

(٢) أبو داود في «السنن» رقم (٤٨٠٦) قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٧٩/٥): رجاله ثقات، وقد صححه غير واحد.

(٣) النسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٢٤٨، ٢٤٩) قال ابن عبد الهادي في «الصارم» (٢٤٦). إسناده صحيح.

وتقدم، وقوله: «إنه لا يُستغاث بي، وإنما يستغاث بالله عز وجل»^(١) ونحو ذلك. ونهى عن التماذج، وشدد القول فيه؛ كقوله لمن مدح إنساناً: «ويلك قطعت عُنق صاحبك»^(٢) والحديث أخرجه أبو داود، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه: أن رجلاً أثنى على رجل عند رسول الله ﷺ، فقال له «قطعت عُنق صاحبك - ثلاثاً»^(٣).

وقال: «إذا لقيتم المداحين فاحشوا في وجوههم التراب» أخرجه مسلم، والترمذي، وابن ماجه، عن المقداد ابن الأسود^(٤).

وفى هذه الأحاديث: نهى أن يقولوا: أنت سيدنا، وقال: «السيدُ الله تبارك وتعالى» ونهاهم أن يقولوا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً، وقال: «لا يستجريَنَّكم الشيطان».

وكذلك قوله، فى حديث أنس: أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا فقال/ «يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان» كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح، فيُفَضَّى بهم إلى الغلو.

وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه - ولو بما فيه - من عمل الشيطان؛ لما تفضى محبة المدح إليه من تعظيم الممدوح فى نفسه وذلك يُنافى كمال التوحيد. فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذى لا تدور إلا عليه، وذلك غاية الذل فى غاية المحبة. وكمال الذل يقتضى: الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى، وأنه لا يرى نفسه إلا فى مقام الدم لها، [والمعاقبة لها]^(٥) فى حق ربه. وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات.

(١) مضى تخريبه.

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٦٦٢، ٦٠٦١، ٦١٦٢) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٣٠٠٠) من حديث أبى بكرة.

(٣) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٨٠٥).

(٤) مسلم فى «الصحيح» رقم (٣٠٠٢) والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٣٩٥) وابن ماجه رقم (٣٧٤٢).

(٥) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

ومحبة المدح من العبد لنفسه يُخالف ما يحبه الله منه، والمادح يغرّه من نفسه فيكون آثماً. فمقام العبودية يقتضى كراهة المدح رأساً، والنهى عنه صيانة لهذا المقام. فمتى اخلص الذلّ لله، والمحبة له: خلصت أعماله وصحت. فمتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب: دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد. وإذا أدّاه المدحُ إلى التعاضم في نفسه، والاعجاب بها: وقع في أمر عظيم، ينافى العبودية الخاصة؛ كما في الحديث: «الكبرياءُ ردائي والعظمة إزارى، فمن نازعنى شيئاً منهما عذبت»^(١)، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كبر»^(٢).

وهذه الآفة قد تكون محبة المدح سبباً لها، وسلماً إليها. والعُجب يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب.

وأما المادح، فقد يُفضى به المدح إلى أن يُنزل المدوح منزلة لا يستحقها. كما يوجد كثيراً في أشعارهم، من الغلو الذى نهى عنه الرسول ﷺ وحذر أمته أن يقع منهم. فقد وقع الكثير منه، حتى صرحوا فيه بالشرك فى الربوبية والإلهية والملك، كما تقدّمت الإشارةُ إلى شيءٍ من ذلك.

والنبي ﷺ لما أكمل الله له مقامَ العبودية، صار يكره أن يُمدح؛ صيانةً لهذا المقام. وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحاً لهم، وحمايةً لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده أو يضعفه، من الشرك ووسائله: «فبدّل الذين ظلموا قولاً غيرَ الذى قيل لهم» [البقرة: ٥٩] ورأوا أن فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قرينةٌ من أفضل القربات، وحسنه من أعظم الحسنات.

وأما تسمية العبد بالسيد، فاختلف العلماء فى ذلك:

قال العلامةُ ابنُ القيمِّ فى (بدائع الفوائد): اختلف الناسُ فى جواز إطلاق السيد على البشر. فمنعه قومٌ، ونُقل عن مالك/؛ واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له: يا سيّدنا، قال: «السيد الله»^(٣).

(١) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٢٠) وأبو داود فى «السنن» رقم (٤٠٩٠) واللفظ له، من حديث أبى هريرة.

(٢) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٩١) من حديث ابن مسعود.

(٣) سبق تخريجه.

وجوّزه قومٌ، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار «قوموا إلى سيدكم»^(١) وهذا أصحُّ من الحديث الأول.

قال هؤلاء: السيد أحدٌ ما يضاف إليه، فلا يقال للتميمي سيّد كندة، ولا يقال: الملك سيّد البشر. قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم. وفي هذا نظر؛ فإنَّ السيّد إذا أُطلق عليه تعالى فهو في منزلة المالك، والمولّى، والرب، لا بمعنى الذي يُطلق على المخلوق. انتهى^(٢).

قلتُ: فقد صحَّ عن ابن عباس رضى الله عنهما، أنه قال في معنى قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْنِي رِبَاً﴾ [الأنعام: ١٦٤] أى: إلهاً وسيداً^(٣). وقال في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أنّه السيد، الذى كُمل في جميع أنواع السؤدد^(٤). وقال أبو وائل^(٥): هو السيد الذى انتهى سؤدده^(٦).

وأما استدلالهم بقول النبي ﷺ للأنصار «قوموا إلى سيدكم» فالظاهر: أنَّ النبي ﷺ لم يواجه سعداً به، فيكون في هذا المقام تفصيل. والله أعلم.

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٠٤٣، ٣٨٠٤، ٤١٢١، ٦٢٦٢) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٧٦٨) من حديث أبى سعيد الخدرى.

(٢) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢١٣/٣).

(٣) ذكره البغوى فى «التفسير» (١٤٧/٢).

(٤) أخرجه ابن جرير فى «التفسير» (٣٤٦/٣٠) وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ فى «العظمة» كما فى «الدر المنثور» (٦٨٢/٨).

(٥) شقيق بن سلمة الأسدى الكوفى، ثقة مختصرم، مات فى خلافة عمر بن عبد العزيز، وله مائة سنة. «تقريب» (٢٦٨).

(٦) أخرجه ابن جرير فى «التفسير» (٣٤٦/٣٠) والبخارى فى «الصحيح» (٧٣٩/٨) معلقاً، وابن أبى عاصم فى «السنّة» (٢٢٩/١).

(٦٦)

باب

ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. [الزمر: ٦٧].

عن ابن مسعود، قال: جاء خبرٌ من الأخبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْمَاءَ عَلَى إصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إصْبَعٍ. فيقول: أَنَا الْمَلِكُ. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذُه؛ تصديقاً لقول الحَبَرِ، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. الآية. متفق عليه.

وفى رواية لمسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهنَّ، فيقول: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللَّهُ.

وفى رواية للبخارى: يجعلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إصْبَعٍ. أخرجاه (١).

ثم: قوله: باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣)، ومسلم فى «الصحيح» رقم

أى: من الأحاديث والآثار، فى معنى هذه الآية الكريمة.

قال العمادُ ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى: ما قَدَّرَ المشركون الله حقَّ قَدْرِهِ، حتَّى عبدوا معه غيره. وهو العظيم الذى لا أعظم منه، القادرُ على كلِّ شىء، المالكُ لكلِّ شىء، وكلُّ شىء تحت قهره وقدرته.

قال السُّدى: ما عَظَّمُوهُ حقَّ عَظَمَتِهِ. وقال محمد بن كعب: لو قَدَرُوهُ حقَّ قدره، ما كَذَّبُوهُ.

وقال علىُّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هم الكفار، الذين لم يؤمنوا بقُدْرَةِ الله عليهم. فمن آمن أنَّ الله على كلِّ شىء قدير، فقد قَدَّرَ الله حقَّ قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حقَّ قدره^(١).

وقد وردت أحاديثُ كثيرة متعلقة بهذه الآية، الطريقُ فيها وفى أمثالها: من مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

- وذكر حديث ابن مسعود، كما ذكره المصنف رحمه الله فى هذا الباب - قال: ورواه البخارى فى (صحيحه) فى غير موضع، ومسلم، والإمام أحمد، والترمذى، والنسائى. كلُّهم من حديث سُلَيْمان بن مهران هو الأعمش، عن إبراهيم، عن عُبَيْدة، عن ابن مسعود، بنحوه.

[قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا معاوية، حَدَّثَنَا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله^(٢)]، قال: جاء رجلٌ من أهل الكتاب إلى النبى ﷺ، فقال: يا أبا القاسم، أَبْلَغَكَ أَنَّ الله يحمل الخلائق على إصْبَعٍ، والسموات على إصْبَعٍ، والأرضين على إصْبَعٍ، والشجرَ على إصْبَعٍ، والثرى على إصْبَعٍ. فضحك رسولُ الله ﷺ حتى بدت نواجذُه، قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية. وهكذا رواه البخارى، ومسلم، والنسائى، من طرق عن الأعمش، به^(٣).

وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا الحسين بن حسن الأشقر، حَدَّثَنَا أبو كُدَيْنة، عن

(١) أخرج هذه الآثار: ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٥/٢٤).

(٢) إضافة من (ط) «التفسير».

(٣) مضى تخريجه، فى أول الباب.

عطاء، عن أبي الضحى، عن ابن عباس، قال: مرَّ يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يومَ يجعل الله السموات على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ كلُّ ذلك يُشير بأصبعه. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وكذا رواه الترمذى فى (التفسير)، بسنده عن أبى الضحى مسلم بن صبيح، به. وقال: حسنٌ صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه^(١).

ثم قال البخارى: حدثنا سعيد بن عُفَيْر، حدثنا الليث، حدثنى عبد الرحمن بن خالد بن مُسافر، عن ابن شهاب، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن: أنَّ أبا هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوى السماء يمينه، فيقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟» تفردَّ به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر^(٢).

وقال البخارى فى موضع آخر: حدثنا مُقدَّم بن محمد، حدثنا عمى القاسم بن يحيى، عن عُبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السماء يمينه، ثم يقول: أنا الملكُ» تفردَّ به أيضاً من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر^(٣).

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر، بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول، فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة، عن عبيد الله بن مُقسَّم، عن ابن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية يوماً على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسولُ الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها، ويقبلُ بها ويدبرُ «يمجدُّ الربُّ نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم» فرَجَف برسول الله ﷺ المنبرُ، حتى قلنا: ليخرنُ به^(٤). انتهى^(٥).

(١) أحمد فى «المستد» (٢٥١/١) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٢٣٨).

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٨١٢، ٦٥١٩، ٧٣٨٢، ٧٤١٣)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٧٨٧).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٧٤١٢)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٧٨٨).

(٤) أحمد فى «المستد» (٧٢/٢).

(٥) ابن كثير فى «التفسير» (١٠٣/٧ - ١٠٥).

قال المصنّف رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوى الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهنّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي/ الأرضين السبع، ثم يأخذهنّ بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»^(١).

وروى: عن ابن عباس، قال: ما السمواتُ السبع والأرضون السبع في كفّ الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم^(٢).

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما السمواتُ السبع في الكرسي، إلا كدراهم سبعة ألقيت في تُرسٍ».

قال: وقال أبو ذر: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما الكرسيُّ في العرش إلا كخَلْقَةٍ من حديد ألقيت بين ظَهْرَي فلاةٍ من الأرض»^(٣).

وعن ابن مسعود، قال: بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كلِّ سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء. والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم. أخرجه ابن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زرّ، عن عبد الله. ورواه بنحوه المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله^(٤).
قاله الحافظ الذهبي، قال: وله طرق^(٥).

وعن العباس بن عبد المطلب، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة،

(١) مسلم في «الصحيح» رقم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» (٢٥/٢٤).

(٣) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (٥٧٩٤) قال ابن كثير، في «التاريخ» (١١/١): أول الحديث مُرسَل، وعن أبي ذر منقطع. وقد روى عنه، من طريق أخرى موصولاً.

(٤) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٦) وابن خزيمة في كتاب «التوحيد» رقم (٥٩٤) والطبراني في «الكبير» رقم (٨٩٨٧) وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢٠٣، ٢٧٩) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»

(٨٦/١): ورجاله رجالُ الصحيح.

(٥) الذهبي، «العلو للعلو للغفار» (٦٤).

ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر. بين أسفل وأعلى كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم. أخرجه أبو داود وغيره^(١).

ش: قوله (ولمسلم عن ابن عمر). الحديث. كذا في رواية مسلم. وقال الحميدي: وهي أتم، وهي عند مسلم من حديث سالم، عن أبيه.

وأخرجه البخاري، من حديث عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السماء بيمينه» وأخرجه مسلم، من حديث عبيد الله بن مقسم.

قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها، تدل على عظمة الله وعظم قدرته وعظم مخلوقاته. وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته، وعجائب مخلوقاته.

وكلها تعرف وتدل على كماله وأنه هو المعبود وحده، لا شريك له في ربوبيته وإلهيته. وتدل على إثبات الصفات على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل. وهذا هو الذي دل عليه نصوص الكتاب والسنة، وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى آثارهم على الإسلام والإيمان.

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة، من تعظيم النبي ﷺ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله، وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته.

وتأمل ما فيها من إثبات علو الله على عرشه، ولم يقل النبي ﷺ في شيء منها: إن ظاهرها غير مراد، أو أنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه. فلو كان هذا حقاً: بلغه أميته أمته؛ فإن الله أكمل له الدين وأتم به النعمة، فبلغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه، وعلى أصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

وتلقى الصحابة رضي الله عنهم عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه، من صفات

(١) أبو داود في «السنن» رقم (٤٧٢٣)، وأخرجه الترمذي في «الجامع» رقم (٣٣١٧) وقال: هذا حديث حسن غريب.

كماله ونعوت جلاله . فآمنوا به ، وآمنوا بكتاب الله وما تضمنته من صفات ربهم جل وعلا ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] .

وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم ، والأئمة من المحدثين والفقهاء : كلهم وصفوا الله بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ﷺ . ولم يجحدوا شيئاً من الصفات ، ولا قال أحدٌ منهم : إنَّ ظاهرها غير مراد ، ولا إنه يلزم من إثباتها التشبيه . بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار ، وصنّفوا في ردّ هذه الشبهات المصنّفات الكبار المعروفة ، الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة .

[١/١٨٦] قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله : وهذا/ كتابُ الله من أوله إلى آخره ، وسُنّة رسوله ﷺ ، وكلامُ الصحابة والتابعين ، وكلامُ سائر الأئمة مملوء بما هو نصٌّ ، أو ظاهر : أنَّ الله تعالى فوق كلِّ شيء ، وأنه فوق العرش فوق السموات ، مستوٍ على عرشه ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْقُطْ إِلَى الْأَرْضِ فَنَنفُثُ فِيكَ الرُّوحَ فَاصْبِرْ ﴾ [آل عمران : ٥٥] ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء : ١٥٨] وقوله تعالى : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ * نَزَجَ الْمُتَكَلِّمُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ . [المعارج : ٣ - ٤] .

وقوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة : ٥] وقوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٥] .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [البقرة : ٢٩] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الاعراف : ٥٤] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

استوى على العرش يُدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنهِ ذلكم الله ربكم فاعبدوه
أفلا تذكرون ﴿ [يونس: ٣] فذكر التوحيد في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمدٍ ترونها ثم استوى على
العرش﴾ [الرعد: ٢].

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى
الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٤ - ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ
بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨ - ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيامٍ ثم
استوى على العرش ما لكم من دونه من وليٍّ ولا شفيع أفلا تتذكرون * يدبر الأمر
من السماء إلى الأرض ثم يعرجُ إليه في يومٍ كان مقداره ألف سنةٍ مما تعدُّون﴾
[السجدة: ٤ - ٥].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى
الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] فذكر عموم علمه وعموم
قدرته، وعموم إحاطته وعموم رؤيته.

وقوله: ﴿أَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ
تُمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾
[الملك: ١٦ - ١٧].

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢].

[١٨٦/ب] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي / صِرْ حَا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ *
 أسباب السموات فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَه مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧]. انتهى
 كلامه رحمه الله^(١).

قلت: وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى - فيما صنفوه في الرد على نفاة
 الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم - أقوال الصحابة والتابعين:

فمن ذلك: ما رواه الحافظ الذهبي في (كتاب العلو)، وغيره - بالأسانيد
 الصحيحة - عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، أنها قالت في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ
 عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قلت: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والاقرار
 به إيمان، والجحود به كفر. رواه ابن المنذر، واللالكائي، وغيرهما بأسانيد
 صحاح^(٢).

قال: وثبت عن سفيان بن عيينة، أنه قال: لما سئل ربيعة ابن أبي عبد
 الرحمن: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن
 الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التصديق^(٣).

وقال ابن وهب: كُنَّا عِنْدَ مَالِكٍ، فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﴿الرَّحْمَنُ
 عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَأَطْرَقَ مَالِكٌ، وَأَخَذَتْهُ الرَّحَضَاءُ^(٤)، وَقَالَ:
 الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، وَلَا يُقَالُ: كَيْفَ؟ وَكَيْفَ عَنْهُ
 مَرْفُوعٌ. وَأَنْتَ صَاحِبُ بَدْعَةٍ، أَخْرَجُوهُ. رواه البيهقي بإسناد صحيح، عن ابن
 وهب^(٥).

ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً، ولفظه، قال: الاستواء غير مجهول، والكيف

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٢/٥) وما بعدها. ونقله ابن القيم في «اجتماع الجيوش» (٩٦).

(٢) الذهبي في كتاب «العلو للعلو الغفار» (٦٥)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (٦٦٣)، قال ابن
 تيمية رحمه الله تعالى في «الفتاوى» (٣٦٥/٥): ليس إسناده مما يعتمد عليه.

(٣) أخرجه البيهقي في «الاسماء الصفات» (٥١٦) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (٦٦٥)، قال ابن
 تيمية - رحمه الله تعالى في «الفتاوى» (٣٦٥/٥): ثابت عن ربيعة.

(٤) الرحضاء: عرق المحموم. «غريب الحديث» الخطابي (٥٨٢/٢).

(٥) البيهقي في «الاسماء والصفات» (٥١٦) قال ابن حجر في «فتح الباري» (٤٠٦/١٣): إسناده جيد.

غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة^(١).

قال الذهبي: فانظر إليهم، كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية.

قال البخاري في (صحيحه): قال مجاهد «استوى» علا على العرش^(٢) وقال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين، يقول: «الرحمن على العرش استوى» أي: ارتفع^(٣).

وقال محمد بن جرير الطبري، في قوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى» أي: علا وارتفع^(٤).

وشواهد في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم، فمن ذلك: قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدت بأن وعد الله حقاً وأن النار مشوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحملة ملائكة شداد ملائكة الإله مسومينا^(٥)

وروى الدارمي، والحاكم، والبيهقي بأصح إسناد، إلى علي بن الحسن بن شقيق، قال: سمعت ابن المبارك يقول: نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته، على العرش استوى، بائن من خلقه. لا نقول كما قالت الجهمية^(٦)

قال الدارمي: حدثنا حسن بن الصباح البزار، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، عن ابن المبارك: قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء [١/١٨٧] السابعة، على العرش بائن من خلقه^(٧).

(١) البيهقي في «المصدر السابق».

(٢) البخاري في «الصحيح» (٤٠٣/١٣).

(٣) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (٦٦٢).

(٤) ابن جرير الطبري في «التفسير» (١٣٨/١٦).

(٥) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٧)، والذهبي في «سير النبلاء» (٢٣٨/١).

(٦) الدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٣)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٨) وصححه ابن تيمية في «الحموية» (٤١).

(٧) الدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٣).

وقد تقدم قول الأوزاعي: كُتِبَ - والتابعون متوافرون - نقول: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السُّنَّة^(١).

وقال أبو عمر الطَّلَمَنْكِيُّ^(٢) في كتاب (الأصول): أجمع المسلمون من أهل السُّنَّة، على أَنَّ اللَّهَ استوى على عرشه بذاته.

وقال في هذا الكتاب أيضاً: أجمع أهل السُّنَّة، على أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى استوى على عرشه على الحقيقة، لا على المجاز. ثم ساق بسنده، عن مالك، قوله: اللَّه في السماء، وعلمه في كل مكان.

ثم قال في هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السُّنَّة، أَنَّ معنى قوله: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ» ونحو ذلك من القرآن: أَنَّ ذلك علمه، وَأَنَّ اللَّه فوق السموات بذاته، مستو على عرشه كيف شاء. وهذا لفظه في كتابه^(٣).

وهذا كثير في كلام الصحابة، والتابعين والأئمة: أثبتوا ما أثبته اللَّه في كتابه وعلى لسان رسوله على الحقيقة، على ما يليق بجلال اللَّه وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين. ولم يمثلوا ولم يكتفوا، على ما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب.

وقال الحافظ الذهبي: وأول وقت سُمعت مقالة من أنكر أَنَّ اللَّه تَعَالَى فوق العرش: هو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات. فقتله خالد بن عبد اللَّه القسري، وقصته مشهورة^(٤).

وأخذ عنه هذه المقالة: الجهم بن صفوان، إمام الجهمية. فأظهرها واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين. فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر، مثل الأوزاعي، وأبي حنيفة، ومالك، والليث بن سعد، والثوري، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدى.

(١) أخرجه البيهقي في «الاسماء والصفات» (٥١٥) بسند جيد، كما قال ابن حجر في «فتح الباري» (٤٠٦/١٣).

(٢) أحمد بن محمد بن عبد اللَّه المعافري الأندلسي، حافظ محدث إمام ت (٤٢٩هـ) «سير النبلاء» (٥٦٦/١٧).

(٣) نقله ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (١٤٢).

(٤) ينظر: «تاريخ ابن كثير» (٢١/١٠).

فقال الأوزاعيُّ، إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة: ما أخبرنا عبد الواسع الأبهري بسنده، إلى أبي بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني محمد بن علي الجوهري - ببغداد - حدثنا إبراهيم بن الهيثم، حدثنا محمد بن كثير المصيصي، سمعتُ الأوزاعي يقول: كنا - والتابعون متوافرون - نقول: إنَّ الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السُّنة من صفاته. أخرج البيهقيُّ في (الصفات)، ورواته أئمة ثقات^(١).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: لله أسماء وصفات، لا يسع أحداً ردُّها. ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يُعذر بالجهل. وثُبتت هذه الصفات/، ونُفي عنه التشبيه؛ كما نفى عن نفسه، فقال: ﴿لَيْسَ [١٨٧/ب] كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] انتهى من (فتح الباري)^(٢).

قوله: (وعن العباس بن عبد المطلب)، ساقه المصنّف مختصراً، والذي في (سنن أبي داود): عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنتُ في البطحاء، في عصابة فيهم رسول الله ﷺ. فمرَّت بهم سحابة، فنظر إليها، فقال: «ما تُسمُّون هذه؟» قالوا: السحاب، قال: «والمُزن». قالوا: والمزن، قال: «والعنان» قالوا: والعنان - قال أبو داود: لم أتقن العنان جيداً - قال: «هل تدرون ما بُعد ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندرى، قال: «إنَّ بُعد ما بينهما إمَّا واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك» حتى عدَّ سبع سماوات. «ثم فوق السابعة بحرٌ، بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء. ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء. ثم على ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه، كما بين سماء وسماء. ثم الله تبارك وتعالى، فوق ذلك».

وأخرجه الترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسنٌ غريب، وقال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن^(٣).

(١) مضمي تخريجه.

(٢) ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/٤٠٧).

(٣) مضمي تخريجه في أول الباب.

وروى الترمذى نحوه، من حديث أبى هريرة، وفيه «بَعْدُ ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام» ولا مُنافاة بينهما؛ لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام، هو على سير القافلة مثلاً، ونيف وسبعون سنة على سير البريد. لأنه يصح أن يقال: بيننا وبين مصر عشرون يوماً باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد. وروى شريك بعض هذا الحديث، عن سماك فوقفه، هذا آخر كلامه.

قلت: فيه التصريح بأن الله فوق عرشه، كما تقدّم فى الآيات المحكمات والأحاديث الصحيحة، وفى كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

وهذا الحديث له شواهد فى (الصحيحين) وغيرهما، ولا عبرة بقول من ضَعَفَه؛ لكثرة شواهد التى يستحيل دفعها، وصرفها عن ظواهرها.

وهذا الحديثُ كأمثاله: يدلُّ على عظمة الله وكماله، وعظيم مخلوقاته، وأنه المتصف بصفات الكمال التى وصف بها نفسه فى كتابه، ووصفه بها رسوله ﷺ.

وعلى كمال قدرته، وأنه هوالمعبود وحده لا شريك له، دون كلِّ ما سواه.

وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وصلّى الله على سيد المرسلين وإمام المتقين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. تم كتابُ (فتح المجيد) بعون الملك الحميد.

الفهارس العامة

- ١ - فهرس الآيات الكريمة.
- ٢ - فهرس الأحاديث المسندة.
- ٣ - فهرس المسائل الأصولية.
- ٤ - فهرس المسائل الفقهية.
- ٥ - فهرس الأبواب.

١ - فهرس الآيات الكريمة

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الفاتحة		
إياك نعبد وإياك نستعين	٥	٢٠٨ ، ٤٠٧ ، ٥٥٧
سورة البقرة		
الم * ذلك الكتاب .	١ - ٢	٤٨٠
وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا:	١١	٤٦٤
يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم .	٢١ - ٢٢	٤١ ، ١٠٣ ، ١٣١ ، ٤٨٧
فاتقوا النار التى وقودها الناس .	٢٤	٧٤
هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا .	٢٩	٦١٨
وإياى فارهبون .	٤٠	٣٩٥
ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا .	٤٢	٢٢٨
فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى .	٥٩	٦١١
وإن منها لما يهبط من خشية الله .	٧٤	٢٢٩
بلى من كسب سيئة وأحاطت به .	٨١	٥٥٦
أفتؤمنون ببعض الكتاب .	٨٥	٤٧٨ ، ٥٧٣
وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا .	١٠٢	٣١٥ ، ٣١٦
ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم .	١٢٩	٢٨٧
قل أنتم أعلم أم الله .	١٤٠	١٩٨
وما كان الله ليضيع إيمانكم .	١٤٢	٤٦٨
وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم .	١٥٥ - ١٥٧	٤٢٢ ، ٤٢٦
والهكم إله واحد لا إله إلا هو .	١٦٣	٣٩ ، ٦٦
ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً .	١٦٥	٤٠ ، ١٢٩ ، ٣٨١
إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين .	١٦٦ - ١٦٧	١٣٠ ، ١٣١ ، ٣٩٣

١٦٨	١٧٣	وما أهل به لغير الله .
٥٤٤ ، ٤٩٥ ، ٤٦٩	١٧٧	ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل .
٢٠٧	١٨٦	وإذا سألك عبادى عنى فإنى .
٤٢٧	٢١٦	وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير .
٤٥٤	٢١٧	والفتنة أكبر من القتل .
٤١٦	٢١٨	إن الذين آمنوا والذين هاجروا .
٥٩٣	٢٢٤	ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم .
٢٣٤	٢٥٥	من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه .
٤٦٣ ، ١٣٣ ، ١١٢ ، ٤٤	٢٥٦	فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله .
٥٤٤	٢٧٦ - ٢٦٨	يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات .
١٨١	٢٧٠	وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من .
٢٤١	٢٧٢	ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى .
٣٢١	٢٧٥	الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا .

سورة آل عمران

٤٨٠	٢ - ١	ألم * الله لا إله إلا هو .
٦١٨ ، ٤٧٨	٧	هو الذى أنزل عليك الكتاب منه .
٣٨٢	٣١	قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى .
٦١٨	٥٥	يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى .
٧٢	٥٩	إن مثل عيسى عند الله كمثل .
١٢٠ ، ٣٨	٦٤	قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة .
١٢٧	٨٠	ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة .
٣٥	٩١	ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه .
٢١٨ ، ٢١٦ ، ٢١٤	١٢٨	ليس لك من الأمر شىء .
٥٦١ ، ٥٥٢ ، ٥٥١	١٥٤	ثم أنزل عليكم من بعد الغم .
٢٨٧	١٦٤	لقد من الله على المؤمنين إذ بعث .
٥٥٢	١٦٨	الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا .
٤١٢ ، ٤١٠ ، ٣٩٦ ، ٣٩٥	١٧٣ - ١٧٥	الذين قال لهم الناس إن الناس قد .

١٩٨	١٨٥	كل نفس ذائقة الموت .
١٢٨	١٩٩	وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن .

سورة النساء

٣٢١	١٠	إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً .
٤٨	٣٦	واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً .
٥١١	٤٠	إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن .
٥٧٨ ، ٩٩	١١٦ ، ٤٨	إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر .
٣١٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧	٥١	ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من .
٥١٠ ، ٤٥٢	٥٩	فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله .
٤٧١ ، ٤٦١	٦٠ - ٦٢	ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا .
٤٢	٦٤	وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع .
٤٦٧ ، ٤٦٣ ، ٤٥٤	٦٥	فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك .
٥٥٦ ، ٣٥٨	٧٨ - ٧٩	وإن تصبهم حسنة يقولوا: هذه .
٣٨٩	٨٠	من يطع الرسول فقد أطاع الله .
٤٦٨	٩٢	فتحرير رقبة مؤمنة .
٣٢٠	٩٣	ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه .
٤٩٣	١١٣	وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل .
٥٣٠ ، ٤٦٦ ، ١٩٧	١١٥	ومن يشاقق الرسول من بعد .
٢٣٧	١٢٥	ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه .
٤٣٣	١٤٢	وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا .
٦١٨	١٥٨	بل رفعه الله إليه .
٢٤٧	١٧١	يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم .
٧٢	١٧٢	لن يستنكف المسيح أن يكون .

سورة المائدة

١٦٩	٥	وطعام الذين أوتوا الكتاب .
٥١	٨	ولا يجرمنكم شنآن قوم على .
٤١٢	١١	واتقوا الله وعلى الله فليتوكل .

٤٠٧	٢٣	وعلى الله فتوكلوا إن كنتم .
٤٤٠	٢٧	إنما يتقبل الله من المتقين .
٣٩٥	٤٤	فلا تخشوا الناس واخشون .
٤٥	٤٨	لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً .
٤٦٢	٤٩	وأن احكم بينهم بما أنزل الله .
٤٦٦	٥٠	أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن .
٣٨٣	٥٤	ياأيها الذين آمنوا من يرد منكم .
٢٩٨	٦٠	قل هل أنبئكم بشر من ذلك .
١٧٣	٧٢	إنه من يشرك بالله فقد حرم الله .
٢٤٨	٧٥	ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد .
١٩٣	٧٦	قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك .
١٢٨	٨٣	وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى .
٥٩٣ ، ٥٨٧	٨٩	ذلك كفارة أيما نكم إذا حلقتهم .
٥٨٢ ، ٢٢١	١١٦ - ١١٧	وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم .

سورة الأنعام

٤١٧ ، ٣٨٢ ، ٩٩	١	الحمد لله الذى خلق السموات .
١٩٤	٤٠ - ٤١	قل أرايتم إن أتاكم عذاب .
٤٩٢	٥٠	قل لا أقول لكم عندى خزائن .
٢٤٠ ، ٢٣٣	٥١	وأنذر به الذين يخافون أن .
٢٠٤ ، ١٩٩	٦٣ - ٦٤	قل من ينجيكم من ظلمات البر .
١٩٣	٧١	قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا .
١٣١ ، ٦١	٨٢	الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم .
٤٠	٩٤	ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم .
٣٦٢	٩٧	وهو الذى جعل لكم النجوم .
٤٥٩ ، ١٨٤ ، ١٦٩ ، ١٢٧	١٢١	ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه .
٣٣٣ ، ١٨٩	١٢٨	ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن .
١٨٢	١٣٦	وجعلوا لله ممّاً ذراً من الحرث .

٢٢٢	١٤٩	قل فله الحجة البالغة فلو شاء .
٤٧٩ ، ٣١٨ ، ٥٤ ، ٤٨	١٥٣ - ١٥١	قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم .
٥٥٥	١٦٠	من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها .
١٨٤ ، ١٦٥	١٦٣ - ١٦٢	قل إن صلاتي ونسكى ومحياي ومماتي .
٦١٢	١٦٤	قل أغير الله أبغى رباً .

سورة الأعراف

٤٥٥ ، ٣٠٧	٣	اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا .
٢٢١	٣٠	إنهم اتخذوا الشياطين أولياء .
٤٩١	٣٧	فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً .
٦١٨ ، ٣١٤ ، ١٩٧	٥٤	إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض .
٤٦٥ ، ٢٠٧ ، ١٩٥ ، ١٩٤	٥٦ - ٥٥	ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب .
٦٦	٦٥	والى عاد أخاهم هوداً قال .
٦٧ ، ٦٦	٧٠	أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر .
٤١٥	٩٦ - ٩٩	أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا .
٣٤٣	١١٨	فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .
٣٤	١٢٧	ويذكرك وآلهتك .
٣٠٤	١٣٠	ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين .
٣٤٥	١٣١	فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه .
١٨٢ ، ١٦١ ، ١٥٩	١٣٨	وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا .
١٢٩	١٥٩	ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق .
٥٠٤	١٦٨	وبلوناهم بالحسنات والسيئات .
٧٣	١٧٢	ألست بربكم . قالوا: بلى .
٥٢٧	١٨٠	ولله الأسماء الحسنى فادعوه .
٢١٢ ، ٢١٠	١٨٨	قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرراً .
٥٢٢	١٨٩	هو الذى خلقكم من نفس واحدة .
٥٢٥ ، ٥٢١	١٩٠	فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء .
٢١١	١٩٢ - ١٩١	أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم .

سورة الأنفال

٤٠٩	٢	إنما المؤمنون الذين إذا دُكر الله .
٢٠٥	٩	إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم .
٢٥٢	٣٤	وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا .
٣٧٠ ، ١٣٤	٣٩	وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون .
٤١٠	٦٢	وإن يريدوا أن يخدعوك فإن .
٤١٠	٦٤	ياأيها النبي حسبك الله ومن .

سورة التوبة

١٣٤	٥	فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم .
٣٩٧	١٨	إنما يعمر مساجد الله من آمن .
٣٨٥	٢٤	قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم .
٤٥٨ ، ٤٥٦ ، ٤٥١ ، ١٢٧	٣١	اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً .
٤٤٢	٥٨	ومنهم من يلمزك في الصدقات .
٤١١	٥٩	وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله .
٥١٤ ، ٥١٣	٦٥ - ٦٦	أبالله وآياته ورسوله كنتم .
٤٠٥	٧٨	فاعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم .
١٧٦	١٠٧	والذين اتخذوا مسجداً ضراراً .
١٧٥	١٠٨	لا تقم فيه أبداً، لمسجد أسس على .
٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٢	١١٣	ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا .
٣٦	١١٧	إنه بهم رؤوف رحيم .
٤٩٥	١١٩	ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا .
٤٦٨	١٢٤	فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً .
٢٨٧	١٢٨ - ١٢٩	لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز .

سورة يونس

٦١٩	٣	إن ربكم الله الذي خلق السموات .
٢٠٤	١٢	وإذا مس الإنسان الضر دعانا .
٢٣٤ ، ٢٢٠ ، ١٩٩ ، ١٩٥ ، ٤٠	١٨	ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم .

٤٦٢ ، ٢١٤	٣٠ - ٢٨	ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين .
٣٤٣	٨٢ - ٨١	فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به .
٤٠٨ ، ٤٠٧	٨٤	وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله .
٢٠٠ ، ١٩٤ ، ١٤٩	١٠٧ - ١٠٦	ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا .

سورة هود

٤٣٨ ، ٤٣٧	١٦ - ١٥	من كان يريد الحياة الدنيا .
١١٣	٢٦	أن لا تعبدوا إلا الله .
٣٢	٤١	بسم الله مجريها .
٣٩٥ ، ١٣٧	٥٦ - ٥٤	إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء .

سورة يوسف

٢٦٣	٣٨	واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق .
٢١٢	٤٠	إن الحكم إلا لله أمر إلا تعبدوا إلا إياه .
٤٦٤	٧٢ - ٧٠	ثم أذن مؤذن أيتها العير .
٤١٧	٨٧	إنه لا ينأس من روح الله إلا .
٢٤١	١٠٣	وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين .
١٤٢ ، ٤٠	١٠٦	وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم .
١٠٧	١٠٨	قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على .

سورة الرعد

٦١٩ ، ١١٢	٢	الله الذي رفع السموات بغير عمد .
١٩٤	١٤	له دعوة الحق والذين يدعون من .
٤٨٠ ، ٤٧٣	٣٠	كذلك أرسلناك في أمة قد .

سورة إبراهيم

١١٣	١٠	أفئ الله شك فاطر السموات والأرض .
٣٩٧	١٨	كرماذ اشتدت به الريح في .
٣٠٠	٣٤	وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .
١٠١	٣٥	واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام .
١٠١	٣٦	رب إنهن أضللن كثيراً من الناس .

وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب. ٤٤ ٢١٩

سورة الحجر

قال أبشروني على أن مسني. ٥٤ ٤١٧

ومن يقنط من رحمة ربه إلا. ٥٦ ٤١٦

سورة النحل

يخافون ربهم من فوقهم. ٥ ٦١٨

وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم. ١٥ - ١٦ ٣٦٣ ، ٣٦٢

أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت. ٣٦ ٤٥ ، ٤٤ ، ٤٣

يخافون ربهم من فوقهم. ٥٠ ٣٩٥

وقال الله لا تتخذوا إلهين. ٥١ ٣٩

وما بكم من نعمة فمن الله ثم. ٥٣ - ٥٤ ٥٣٨ ، ١٣٨

إله مع الله. ٦١ - ٦٤ ١٩٧

ويعبدون من دون الله ما لا يملك. ٧٣ ٢١٣

يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها. ٨٣ ٤٨٣ ، ٣٧٤

تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة. ٨٩ ٥٥

وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم. ٩١ ٥٩٣

قل نزله روح القدس من ربك بالحق. ١٠٢ ٣٧٨

إن إبراهيم كان أمة. ١٢٠ ٨٧

ادع إلى سبيل ربك بالحكمة. ١٢٥ ١٠٩

سورة الاسراء

إن أحستهم أحستهم لأنفسكم. ٧ ٥٥٦

من كان يريد العاجلة عجلنا له. ١٨ ٤٣٨

وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه. ٢٣ ٤٧٩ ، ٤٤

واخفض لهما جناح الذل من الرحمة. ٢٤ ٤٤

تسبح له السموات السبع والأرض. ٤٤ ٢٢٩

قل ادعوا الذين زعمتم من دونه. ٥٦ ٢٠٣ ، ١٢٣

أولئك الذين يدعون يبتغون إلى. ٥٧ ٣٨٣ ، ١٢٣

قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا. ١١٠ ٤٨١ ، ٤٧٣ ، ٢٠٦

سورة الكهف

قال الذين غلبوا على أمرهم لتتخذن. ٢١ ٣٠١

قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ. ١١٠ ٤٣١

سورة مريم

رب إنني وهن العظم مني واشتعل. ٤ ١٩٤

فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من. ٣٦ - ٢٩ ٧٢

وجعلني مباركاً أينما كنت. ٣١ ٣١٤

وأعزلكم وماتدعون من دون. ٤٩ - ٤٨ ١٩٤ ، ٨٨

واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا. ٨٢ - ٨١ ٢١٣

تكاد السموات يتفطرن منه. ٩٠ ٢٢٩

إن كل من في السموات والأرض إلا آتى. ٩٣ - ٩٥ ٥٤٢ ، ٥٢٤ ، ٢٣١

سورة طه

تنزيلاً عن خلق الأرض والسموات. ٤ - ٥ ٦١٩

الرحمن على العرش استوى. ٥ ٦٢١ ، ٦٢٠ ، ٣٥

فما بال القرون الأولى. ٥١ ٢٤٣

إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح. ٦٩ ٣٤٣ ، ٣٢٨ ، ٣١٦

يؤمئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن. ١٠٩ ٢٣٥

سورة الأنبياء

وما أرسلنا من قبلك من رسول. ٢٥ ٤٣٢ ، ١٦٦ ، ٦٦ ، ٤٣

بل عباد مكرمون، لا يسبقونه. ٢٩ - ٢٦ ٣٩٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣١

ونبلوكم بالشر والخير فتنة. ٣٥ ٥٠٤

ماهذه التماثيل التي أنتم لها. ٥٢ ١٨٢ ، ١٥٨

قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم. ٦٨ - ٧٠ ٤١٣

سورة الحج

يدعون من دون الله ما لا يضره. ١٢ - ١٣ ٣٠٦

ومن يشرك بالله فكأنما خرّ. ٣١ ٥٧٨ ، ٤٠٨

٢٠١ ، ٦٧ ، ٦٦	٦٢	ذلك بأن الله هو الحق وأن ما .
٢٩٩	٧٢	قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار .
٤١٢	٧٨	واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم .

سورة المؤمنون

١١٣ ، ٦٧	٣٢	أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره .
٨٨	٥٩ - ٥٧	إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون .
٤١٩	٦١ - ٦٠	والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة .
٣٩	٨٩ - ٨٤	قل لمن الأرض ومن فيها إن .
٧٢	٩١	ما اتخذ الله من ولد وما كان .
٥٤٥	٩٨ - ٩٦	ادفع بالتي هي أحسن السيئة .
٢٠١ ، ٣٨	١١٧	ومن يدع مع الله إلهاً آخر .

سورة النور

٤١٩	٣٧	يخافون يوماً تتقلب فيه .
٣٩٧	٣٩	كسراب بقيعة يحسبه الظمآن .
٥١٦ ، ٣٨٧	٥١ - ٤٧	ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا .
٤٥٤	٦٣	فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن .

سورة الفرقان

٣٠٦ ، ٢١١	٣	واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون .
٥٨٢ ، ٢٠٤	١٨ - ١٧	ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله .
٥٨٢	١٩	فقد كذبوكم بما تقولون .
٣٩٤	٢٣	وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه .
٣٠١	٢٤	أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً .
٤٦٩	٤٣	أرأيت من اتخذ إلهه هواه .
٦١٩	٥٩ - ٥٨	وتوكل على الحى الذى لا يموت .
٣٢٠ ، ٤٩	٧٠ - ٦٨	والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر .
١٠٨	٧٤	والذين يقولون ربنا هب لنا .

سورة الشعرا.

٢٩٧	٧١	قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين.
٨٤	٨٩	يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من.
٤٩٢ ، ٣٨٢	٩٨ - ٩٧	تالله إن كنا لفي ضلال مبين.
٢٠١	١٢٣	فلا تدع مع الله إلهاً آخر، فتكون من.
٣٧٧	٢١٠ - ٢١٢	وما تنزلت به الشياطين.
٢١٩ ، ٢١٨	٢١٤	وأنذر عشيرتك الأقربين.
٢٨٨	٢١٥ - ٢١٧	واخفض جناحك لمن اتبعك من.

سورة النمل

٢٠٨	٦٠ - ٦١	أمن خلق السموات والأرض.
٢٠٨ ، ١٩٩	٦٢	أمن يجيب المضطر إذا دعاه.
٢٠٨	٦٣ - ٦٤	أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر.

سورة القصص

٣٩٦	٢١	فخرج منها خائفاً يترقب.
٤٧٠ ، ٤٦٧ ، ٤٥٩	٥٠	فإن لم يستجيبوا لك فاعلم.
٢٤٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤١	٥٦	إنك لا تهدي من أحببت ولكن.
١٣٠	٦٣	تبرأنا إليك ما كانوا إيانا.
٥١٨ ، ٥١٧	٧٦ - ٧٨	إذ قال له قومه لا تفرح إن.
٢١٢ ، ٢٠١	٨٨	ولا تدع مع الله إلهاً آخر.

سورة العنكبوت

٣٩٨	١٠	ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا.
٣٠٦ ، ٢٩٧ ، ٢٠٢ ، ١٠١	١٧	إنما تعبدون من دون الله آوثاناً.
٣٩٣	٢٥	وقال إنما اتخذتم من دون الله.
٤١٠	٤٥	إن الصلاة تنهى عن الفحشاء.
٤٥٥	٥١	أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب.
٣٧٤	٦٣	ولئن سألتهم من نزل من السماء.
٧٠	٦٥	فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله.

سورة الروم

٥٦	٦	وعد الله لا يخلف الله وعده.
٥٦	٤٧	وكان حقاً علينا نصر المؤمنين.

سورة لقمان

٤١٧ ، ٦١	١٣	يا بني لا تشرك بالله إن الشرك
٤٦	١٤	أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير.

سورة السجدة

٦١٩ ، ٦١٨	٥ - ٤	الله الذى خلق السموات والأرض.
٥٧٨	٩ - ٧	الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ.
٣٧٨	١٣	ولكن حق القول منى.
١١٠	٢٤	وجعلنا منهم أئمة.

سورة الأحزاب

٣٦٩	٣٣	ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى.
٥٤٤ ، ٤٩٥	٣٥	إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين.
٤٦٧	٣٦	وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى.
٤٠١	٣٩	الذين يبلغون رسالات.
٣١٠	٤٠	ماكان محمد أباً أحد من رجالكم.
١٦٨ ، ٣٦	٤٣ - ٤٤	هو الذى يصلى عليكم وملائكته.
١٦٨	٦١	معلونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا.
١٦٨	٦٤	إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم.
٣٠٦	٦٧	وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا.

سورة سبا

٢٣٥ ، ٢٢٣ ، ٢١٣	٢٣ - ٢٢	قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله.
٥١٨	٣٥	وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً.
٣٦٩	٣٧	وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم.
٥٨٢ ، ٤٦٢ ، ١٣٠	٤٠ - ٤١	ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول.

سورة فاطر

مايفتح الله للناس من رحمة .	٢	٤٠٢ ، ٢٠٢
هل من خالق غير الله .	٣	١٩٨
إليه يصعد الكلم الطيب والعمل .	١٠	٦١٨
والذين تدعون من دونه مايملكون .	١٣ - ١٤	١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٦٠٨
ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا .	٣٢	٦٢
الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن .	٣٤ - ٣٥	٤٤٦

سورة يس

لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم .	٦	٢١٩
قالوا طائركم معكم أين ذكركم .	١٩	٣٤٦
أأنتخذ من دونه آلهة إن يردن .	٢٣	٢٠٠
والقمر قدرناه منازل .	٣٩	٣٦٧
سلام قولاً من رب رحيم .	٥٨	٥٣٤
ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا .	٦٠ - ٦٢	٢٥٠
إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول .	٨٢	٥٨٩ ، ٥٣٩

سورة الصافات

إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله .	٣٥ - ٣٦	٣٩ ، ٦٩ ، ٢٤٤
بل جاء بالحق وصدق المرسلين .	٣٧	٢٤٤
أتعبدون ما تنحتون .	٩٥	٢٩٧

سورة ص

ذلك ظن الذين كفروا .	٢٧	٥٦٤
----------------------	----	-----

سورة الزمر

والذين اتخذوا من دونه أولياء .	٣	٦٩ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٢٠
وأنزل لكم من الأنعام ثمانية .	٦	٣٧٨
إن تكفروا فإن الله غنى عنكم .	٧	٤٩٨
أمن هو قانت آناء الليل ساجداً .	٩	٨٧ ، ٤١٦ ، ٤١٩
قل الله أعبد مخلصاً له ديني .	١٤	١٩٥

٥٣٥	٢٩	ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء .
١٩٨	٣٠	إنك ميت وإنهم ميتون .
٥٢٤ ، ٤١٢ ، ٣٩٦ ، ٣٩٥ ، ٣٢٩ ، ٧١	٣٦	أليس الله بكاف عبده .
٢٠٢ ، ١٣٧	٣٨	قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله .
١٩٨	٤٢	الله يتوفى الأنفس حين موتها .
٢٣٣ ، ٤٠	٤٣	أم اتخذوا من دون الله شفعاء .
٢٣٤ ، ٤٠	٤٤	قل لله الشفاعة جميعاً .
٢٥٢	٤٥	وإذا ذكر الله وحده اشمأزت .
٥١٧	٤٩	ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال .
١٠٠	٥٣	قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم .
٦١٣	٦٧	وما قدروا الله حق قدره والأرض .

سورة غافر

٦٢٠	٣٦ - ٣٧	وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً .
٢٠٥	٦٠	وقال ربكم ادعوني .
٣٤٠	٨٣	فلما جاءتهم رسلهم بالبينات .

سورة فصلت

١٢٩	٩	وتجعلون له أنداداً .
١١٣	١٤	ان لا تعبدوا إلا الله .
١٠٧	٣٣	ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى .
٥٤٥	٣٤ - ٣٥	ادفع بالتى هي أحسن فإذا .
١٨٧	٣٦	وإما ينزغنك من الشيطان نزغ .
٦١٩	٤٢	تنزيل من حكيم حميد .
١٨٩	٤٤	هدى وشفاء .
٢٠٥	٤٩	لا يستم الإنسان من دعاء الخير .
٥١٧	٥٠	ولئن أذقناه رحمة منا من بعد .
٢٠٤	٥١	وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض .

سورة الشورى

٥١٠	١٠	وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه .
٦٢٣ ، ٥٣٠	١١	ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .
١٢٧	٢١	أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين .
٥٥٦	٤٠	وجزاء سيئة سيئة مثلها .
١٩٧	٤٩	لله ملك السموات والأرض .
٢٤١	٥٢	وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم .

سورة الزخرف

٦٩	٩	ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض .
٢٤٣ ، ٧٧	٢٣	وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية .
١٢٥	٢٦ - ٢٧	وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه .
٣٩	٤٥	واسأل من أرسلنا من قبلك .
٣٩٢	٦٧	الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض .
٦٥	٨٦	إلا من شهد بالحق وهم يعلمون .
١٢٦ ، ٦٩	٨٧	ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله .

سورة الجاثية

٦١٩	٢	تنزيل من الله العزيز الحكيم .
٧٣	١٣	وسخر لكم ما فى السموات وما .
٣٠٧	١٨ - ١٩	ثم جعلناك على شريعة من .
٥٠٢ ، ٥٠١	٢٤	وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا .

سورة الأحقاف

٦٠٨ ، ٢١٣ ، ٢٠٣ ، ١٣٠	٥ - ٦	ومن أضل ممن يدعو من دون .
٨١	١٣	إن الذين قالوا ربنا الله ثم .
١١٣	٢١	ان لا تعبدوا إلا الله .
٢٣٤	٢٨	فلولا نصرهم الذين اتخذوا .

سورة محمد

٦٦ ، ٦٥	١٩	فاعلم أنه لا إله إلا الله .
٤٩٥	٢١	فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم .

٣٦٦	٢٢	فهل عسيتم إن توليتم أن .
٤٦٩	٢٨	ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط .

سورة الفتح

٥٦٣ ، ٥٦١	٦	ويعذب المنافقين والمنافقات .
٥٦٢	١٢	بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول .
٣٨٣	٢٩	أشداء على الكفار رحماء بينهم .

سورة الحجرات

٣٦٩	١٣	إن أكرمكم عند الله أتقاكم .
٥٥٣	١٤	لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا .

سورة الزاريات

٤١	٥٦	وما خلقت الجن والإنس .
----	----	------------------------

سورة النجم

٢٧٩ ، ١٥٥	١٩ - ٢٣	أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة .
٢٣٥	٢٦	وكم من ملك في السموات لا تغنى .
٣٣٩	٣٢	فلا تزكوا أنفسكم .

سورة الرحمن

٣٩٥	٤٦	ولن خاف مقام ربه جنتان .
-----	----	--------------------------

سورة الواقعة

٣٧٤ ، ٣٦٧	٧٥ - ٨٢	فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه .
-----------	---------	-------------------------------

سورة الحديد

٦١٩	٤	هو الذى خلق السموات والأرض .
٥٤٤	٧	وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه .
٢٤٧	١٦	الم يأن للذين آمنوا أن تخشع .
٧٤	٢١	سابقوا إلى مغفرة .
٥٥٥ ، ٤٢٢	٢٢ - ٢٣	ما أصاب من مصيبة فى الأرض .

سورة المجادلة

٣٩١	٢٢	لا تجد قوماً يؤمنون بالله .
-----	----	-----------------------------

سورة الحشر

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم ٩ ٥٤٥ ، ٩٢

سورة الممتحنة

قد كانت لكم أسوة حسنة. ٤ ٤٦٢ ، ٨٨ ، ٣٩

سورة الصف

فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله. ٥ ٤٥٧

سورة التغابن

هو الذى خلقكم فمنكم كافر. ٢ ٣٧٢
ما أصاب من مصيبة إلا باذن. ١١ ٥٥٦ ، ٤٢٢

سورة الطلاق

ومن يتق الله يجعل له. ٢ - ٣ ٤١١ ، ٤٠٤ ، ١٥٠ ، ٩٦
الله الذى خلق سبع سموات. ١٢ ٥٧٤

سورة التحريم

يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم. ٦ ٢١٩
يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين. ٩ ٤٧١

سورة الملك

تبارك الذى بيده الملك وهو. ١ ٣١٤
ليبلوكم أيكم أحسن عملاً. ٢ ٤٣٥
ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح. ٥ ٣٦٢
إن الذين يخشون ربهم بالغيب. ١٢ ٤١٩
أأنتم من فى السماء أن يخسف. ١٦ - ١٧ ٦١٩

سورة القلم

أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ٣٥ - ٣٦ ٣٤٦

سورة المعارج

ذى المعارج تعرج الملائكة. ٣ - ٤ ٦١٨

سورة نوح

أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. ٣ ١٢٠

وقالوا: لا تذرنا كهتكم، ولا تذرنا. ٢٣ ٢٤٨

سورة الجن

قل أوحى إلى أنه استمع نفر. ٢، ١ ٧٠
وأنه كان رجال من الإنس. ٦ ١٨٨
وأن المساجد لله فلا تدعوا. ١٨ ٤٩١، ١٩٤
قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك. ٢٠ - ٢١ ٤٩١، ٢١٠
قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً. ٢١ - ٢٣ ٢١٢

سورة المزمل

ربّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو. ٩ ٤٨٧

سورة المدثر

ويزداد الذين آمنوا إيماناً. ٣١ ٤٦٨
كل نفس بما كسبت رهينة. ٣٨ ١٩٨
هو أهل التقوى وأهل المغفرة. ٥٦ ٨٥

سورة القيامة

أيحسب الإنسان أن يترك سدى. ٣٦ ٤٢

سورة الإنسان

يوفون بالنذر ويخافون يوماً. ٧ ١٨١
ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً. ٨ - ٩ ٥٤٥
إنّ هذه تذكرة فمن شاء اتخذ. ٢٩ - ٣٠ ٤٩٨

سورة عبس

في صحف مكرمة. مرفوعة. ١٣ - ١٦ ٣٧٦

سورة التكويد

إنه لقول رسول كريم ذي قوة. ١٩ - ٢١ ٢٣٠
لمن شاء منكم أن يستقيم. ٢٨ - ٢٩ ٤٩٨

سورة الأعلى

قد أفلح من تزكى. ١٤ ١٣٤

١٣٠	سورة الفجر	٢٥ - ٢٦	فيومئذ لا يعذب عذابه أحد.
	سورة الشرح		
٤١١		٨	والى ربك فارغب.
	سورة العلق		
٣٢		١	اقرأ باسم ربك.
	سورة البينة		
٢٠١		٥	وما أمروا إلا ليعبدوا الله.
٤٢٨		٨	جزاءهم عند ربهم جنات.
	سورة الزلزلة		
٦٢		٦ - ٧	فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره.
	سورة الكوثر		
١٦٦		٢	فصلّ لربك وانحر.
	سورة الاخلاص		
٦١٢		٢	الله الصمد.
	سورة الفلق		
١٨٧		١	قل أعوذ برب الفلق.
٣٢٨ ، ٣١٥		٤	ومن شر النفاثات فى العقد.
	سورة الناس		
٣٤١ ، ١٨٧		١	قل أعوذ برب الناس.

٢ - فهرس الأحاديث المسندة

الحدیث	الراوي	الصفحة
حرف الألف		
أمركم بأربع وأنهاكم.	ابن عباس	١١٥ ، ٤٦٨
أمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما أمين أمين أنس	أنس	٤٦
أتتوني بكتاب اكتب لكم أبالله وآياته ورسوله.	ابن عباس	٥٤ ، ٥١٣
انقل ما يوضع في ميزان.	أبو الدرداء	٤٩٦
اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن	أبو هريرة	٤٢٣
اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله	أبو هريرة	٣١٨
أجعلتني لله ندا؟! بل ما شاء الله وحده	ابن عباس	١٠٤ ، ٤٩٨
اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها	ابن عمر	٢٨٩ ، ٣٨٩
أحبوا الله بكل قلوبكم		
احتج آدم وموسى	أبو هريرة	٥٥٦
احرص على ما ينفعك، واستعن بالله	أبو هريرة	٥٥٤
أحسنها الفأل	عروة بن عامر	٣٥٤
أخاف على أمتي بعدى خصلتين: تكذيباً	أنس	٣٦٤
أخاف على أمتي ثلاثاً: استسقاء	جابر السوائي	٣٧٠
أخاف على أمتي ثلاثاً: حيف الأئمة	أبو محجن	٣٦٤
أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر	محمود بن لبيد	١٠٢ ، ٥١٤
أدرك القوم		
ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة	أبو هريرة	٢٠٥
إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن صبر	محمود بن لبيد	٤٢٧
إذا أراد الله بعبد الخیر عجل له العقوبة	أنس	٤٢٥
إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم	النواس بن سمعان	٢٢٨

٣٨٦	ابن عمر	إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر
٣٥٣	جابر	إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان
٢٢٦	ابن مسعود	إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء الدنيا
٢٢٥	ابن مسعود	إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات
٤١٦	عقبة بن عامر	إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا
٣٩٨	أبو سعيد الخدرى	إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا
٣٤٧	أنس	إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم
٢٢٤	أبو هريرة	إذا قضى الله الأمر فى السماء، ضربت
٢٣٩	أنس	إذا كان يوم القيامة ماج الناس
٦١٠	المقداد بن الأسود	إذا لقيتم المدّاحين، فاحثوا فى وجوههم
١٩٨	أبو هريرة	إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث
٤١٣	أبو هريرة	إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا:
١٤٦	عبد الله بن مسعود	أذهب البأس ربّ الناس، واشف أنت
٣٦٨	أبو مالك الأشعرى	أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا
١٥٧	أبو الطفيل	ارجع فإنك لم تصنع شيئاً، فرجع
٢٨٤		ارجعن مأزورات غير مأجورات
١٤٥	أبو بشير	أرسل رسولاً أن لا يبعثن
٢٦٧	أبو سعيد الخدرى	الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام
٢٧٩	أبو هريرة	استأذنت ربي فى أن استغفر
٢١٢	أبو هريرة	الإسلام أن تعبد الله
٥٧٢	عمر بن الخطاب	الإسلام أن تشهد
٣٩٠	عمرو بن العاص	الإسلام يحو ما قبله
٥٧٧	عائشة	أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهنون
٣٧٤	ابن عباس	أصبح من الناس شاكراً، ومنهم كافر
١٤٧	عوف بن مالك	اعرضوا على رقاكم، لا بأس بالرقى
٥٤٨	سعيد بن المسيب	أعوذ بوجه الله الكريم، وباسم الله العظيم
٣٧٠	أبو ذر	أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية

١٢١		أغار النبی ﷺ على بنی المصطلق
٥٩٤	بريدة	اغزوا بسم الله
٥٠٦		أغیظ رجل على الله يوم القيامة وأخيه
٤٥٢	جابر	افعلوا ما أمرتكم به فلو لا أنى سقت
٤٧	أبو بكرة	ألا أنبتكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى
٤٣٤	أبو سعيد	ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى
٣٢٩	ابن مسعود	ألا أنبتكم ما العضة؟ هى النملة
٥٣١	أنس	الظوا بيذا الجلال والإكرام
١٥٨	أبو واقد الليثى	الله أكبر، إنها السنن. قلتم، والذي
١٥٦	البراء	الله مولانا ولا مولى لكم
٨٤	أنس	اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة
٥٤٧	عبدالله بن جعفر	اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة
٥٤٧	أبو أمامة	اللهم أنت أحق من ذكر، وأحق من عبد
٥٣٣	ثوبان	اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت
٢١١	أنس	اللهم أنت عضدى ونصيرى، بك
٥٣١، ٢٠٦	أنس	اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد
٢٠٦	بريدة	اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله
٥٤٨	عائشة	اللهم إنى أسألك الجنة وما يقرب إليها
٥٣٥	عبد الله بن عمرو	اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً
٤٧٨، ٩٢		اللهم فقه فى الدين وعلمه التأويل
٢٧٥	أبو هريرة	اللهم لا تجعل قبرى وثناً، لعن الله قوما
٢٧٨، ٢٧٥، ١٦١	أبو سعيد الخدرى	اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد
٢١٧	ابن عمر	اللهم العن فلانا
٥٠٥		اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله
٤٥٨	عدى بن حاتم	أليس يحرمون ما أحل الله، فتحرمونه
٢٨٤	ابن عمر	أما إنك لو بلغت معهم الكدى لم
١٥٠	كعب بن مالك	أما وعزتى وعظمتى لا يعتصم بى

٣٦٢	ابن مسعود	أما السماء الدنيا: فإن الله خلقها من
		أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله
١٣٥	ابن عمر	إلا الله، وأن محمداً
		أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله
١٣٤، ١٢١	أبو هريرة	إلا الله، ويؤمنوا
١٣٥، ١٢١	عمر، أبو هريرة	أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله
٥٠٥	أبو هريرة	إن أخرج اسم عند الله رجل تسمى ملك
٤٨٨	الحارث الأشعري	إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام
٤٢٩	ابن مسعود	إن الله بقسطه وعدله
٤٣٨	أبو هريرة	إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة
٨٦	عتبان	إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله
٣٠٣، ٣٠٢	ثوبان	إن الله روى لى الأرض فرأيت مشارقتها
١٧٧	عويم بن ساعدة	إن الله قد أحسن عليكم الشاء بالطهور
٣٦٩	أبو هريرة	إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية
٥٧٦	عبد الله بن عمرو	إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن
٢٩٩	ابن مسعود	إن الله لم يهلك قوماً - أو قال: لم يمسح
٥٠٩	أبو شريح	إن الله هو الحكم وإليه الحكم
٣٣٢	عبد الله بن عمرو	إن الله يفيض البليغ من الرجال الذى
٥٨٨	بريدة	إن الله يحب من أصحابى
٦١٧، ٦١٥	ابن عمر	إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين
٣٧١	ابن عمر	إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر
٣٩٦	أبو سعيد الخدرى	إن الله يقول للعبد يوم القيامة
٥٥٥	عوف بن مالك	إن الله يلوم على العجز
٩٥	أنس	إن أنس كرى
٥٧٢	عبادة بن الصامت	إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: ربّ
٣١٩، ١٣٠، ٥٠	ابن مسعود	أن تجعل لله نداً وهو خلقك
٤٠١	أبو هريرة	أن تعلم أن ما أصابك

٥١٨	أبو هريرة	إن ثلاثة من بنى إسرائيل: أبرص وأقرع
٦٠٢	أبو هريرة	إن رجلين كانا فى بنى إسرائيل متحابين
١٧٥	ابن عمر	أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء راكباً
٤٢٤	أبو أمامة	أن رسول الله ﷺ لعن الخامسة وجهها
١٤٧	ابن مسعود	إن الرقى والتماثيم والتولة شرك
٤٢٧	أنس	إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنَّ
٣٢٥	قيضة	إن العيافة والطُّرق والطيرة من الجبت
٣٤	أبو سعيد	إن عيسى أسلمته أمه إلى الكتاب
٣٥	أبو سعيد الخدرى	إن عيسى ابن مريم قال: الرحمن: رحمن
٥٣٤ ، ٤٤٤		إن فى الجنة شجرة
٥٧٨	أبو الهيثاج	أن لا تدع صورة
٣٧٨	عمرو بن حزم	أن لا يمس القرآن
٥٢٧	أبو هريرة	إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا
٢٢٦	عائشة	إن الملائكة تنزل فى العنَّان - وهو
٣٣٠ ، ٣١٥	ابن عمر	إنَّ من البيان لسحراً
٢٦٨	ابن مسعود	إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم
٤٠٠	أبو سعيد	إن من ضعف اليقين: أن ترضى الناس
٢٢٩	أبو ذر	أن النبىَّ ﷺ أخذ فى يده حصيات
٩٥	جابر بن عبد الله	أن النبىَّ ﷺ بعث إلى أبى بن كعب
٣١٥	عائشة	أن النبىَّ ﷺ سحر حتى إنه ليُخيل إليه
٣٥٥	أنس	أن النبىَّ ﷺ كان إذا خرج لحاجته يحب
٣٥٥	بريدة	أن النبىَّ ﷺ كان لا يتطير من شيء
٩٥	أنس	أن النبىَّ ﷺ كوى أسعد بن زرارة من
٨١	عبد الله بن عمرو	أن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته
٢٨٨	أبو هريرة	إن هذا الدين يُسر
١٧٨	ابن عباس	إن هذا يوم جعله الله للمسلمين عيداً
١٢٩	معاذ	إن يسير الرياء شرك

٥٢٤	البراء بن عازب	أنا ابن عبد المطلب
٢٣٩ ، ٢٣٧	أبو هريرة	أنا سيد الناس يوم القيامة
١٧٦		إننا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن
١٣٨	عمران بن حصين	انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنا
١١١	ابن عباس	إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن
١٢٨	على	إنما الطاعة في المعروف
٣٥٩	الفضل بن عباس	إنما الطيرة ما مضاك أو ردك
٦١٠ ، ٢٠٩	عبادة بن الصامت	إنه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله
٦٢	عبد الله بن مسعود	إنه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال
١٥٣	أبو هريرة	إنهما لا يُظهرا
٢٧٢ ، ٢٦٤	جندب بن عبد الله	إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم
٥٩٣	أبو موسى الأشعري	إني والله إن شاء الله لا أحلف على
٥٨	أبو الدرداء	إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق
٣٩٢	ابن مسعود	أوثق عرى الإيمان الحب في الله
١٨٥	عبد الله بن عمرو	أوفى بنذكرك
٢٥٩	أم سلمة	أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح
٢٥٥	ابن عباس	إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان
٥٥	عبادة بن الصامت	إياكم يبايعني على هؤلاء الآيات
٤٣٤	محمود بن لبيد	أيها الناس إياكم وشرك السرائر

حرف الباء.

٣٩٠	عدي بن حاتم	بش الخطيب أنت
٣٩٢	ابن عمر	بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً
٤٨ ، ٣١	ابن عباس	بسم الله الرحمن الرحيم من محمد ﷺ
٢٨٨	جابر، وعائشة وأبو أمامة	بُعِثت بالخفية السمحة
١٢٦	عدي بن حاتم	بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال، وحلّلوا
٤٥٢	سراقة	بل للأبد

حرف التاء

٤٢٥	أنس	تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول
٣٠٥	عبد الله بن مسعود	تدور رحي الإسلام لخمس وثلاثين
٤٤٣ ، ٤٤١ ، ٤٣٧	أبو هريرة	تعس عبد الدينار
٤٣٤	أبو ذر	تلك عاجل بشرى المؤمن

حرف الثاء

٦٠٢	معاذ	ثكلتك أمك يامعاذ، وهل يكب الناس
٤٧٠ ، ٣٨٨ ، ١٣٢	أنس	ثلاث من كن فيه وجد حلاوة
٣٦٦	أبو موسى	ثلاثة لا يدخلون الجنة: مُدمن الخمر
٥٨٨	سلمان	ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم

حرف الجيم

٢٧٢ ، ٢٦٨ ، ٢٦٤	جابر بن عبد الله	جُعِلَت لى الأرض مسجداً وطهوراً
-----------------	------------------	---------------------------------

حرف الحاء

٣٥٤	أنس	حُبب إلى من دنياكم
٣٠١	ابن عمر	حتى لو كان فيهم من يأتى أمة علانية
٣٢١	جندب	حد الساحر: ضربه بالسيف
٤٤٨	عثمان	حرس ليلة فى سبيل الله أفضل من ألف
٤١٣	عمرو بن حزم	حسبنا الله ونعم
٥٨٧	أبو هريرة	الحلف منفقة للسلعة، محقة للكسب
٣٢٧	أبو هريرة	الحياء شعبة من الإيمان

حرف الخاء

٥٩٠	عمران بن حصين	خير أمتى قرنى: ثم الذين يلونهم
٨١	عبد الله بن عمرو	خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت
٥٩١	ابن مسعود	خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم

حرف الدال

١٧٢	طارق بن شهاب	دخل الجنة رجل فى ذباب، ودخل
٢٠٥	جابر	الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين

٢٠٥	أنس	الدعاء مخ العبادة
٥٨٣	النعمان بن بشير	الدعاء هو العبادة
١٧٨	عائشة	دعهما يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيداً

حرف الـ ذال

	الاقرع بن حابس،	ذاك الله
٤٠٣	والبراء بن عازب	
٣٥٠	معاوية بن الحكم	ذلك شيء يجده أحدكم

حرف الـ راء

٢٣٠	ابن مسعود	رأى رسول الله ﷺ جبريل في
٤٤٨	أبو هريرة	ربّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم
٥٣٥	المغيرة	ربّ سلّم
٤٧	عبد الله بن عمرو	رضي الرب في رضي الوالدين
٤٧	أبو هريرة	رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم
٩٤	أبو سعيد	رقى جبريلُ النبي ﷺ
٩٤	عائشة	رقى النبي ﷺ أصحابه
٥٠٠	عبادة بن الصامت	الرؤيا الصالحة جزء من ستة

حرف الـ زاي

٥٨٣	أبو هريرة	زوروا القبور، فإنها تذكر الموت
-----	-----------	--------------------------------

حرف الـ سين

٥٨٣	ابن عباس	السلام عليكم يا أهل القبور
٦٠٥		سبحان الله سبحان الله
٥٨٨		سلمان منا أهل البيت إن الله يحب من
٢٠٥	أنس	سلوا الله كل شيء
٧٧	عائشة، أبو هريرة	سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته
٥٧٩	فضالة	سمعتُ رسول الله ﷺ يأمر
٥٩٧		سنوا بهم سنة أهل الكتاب
٦١١، ٦١٠، ٦٠٩	عبدالله بن الشخير	السيد الله تبارك وتعالى

سئل النبي ﷺ أى الناس أشد بلاءً سعد ٤٢٨

حرف الشين

الشرك بالله ابن عباس ٤١٧
الشرك فيكم أخفى من ديب النمل أبو بكر ١٠٣
الشفاء فى ثلاث: شربة عسل ابن عباس ٩٥
الشهادة بالجنة لثابت وابن سلام والذي ضرب فى الخمر ابن عمر ١١٧
الشؤم فى ثلاث: فى المرأة، والدابة ابن عمر ٣٥١

حرف الصاد

الصبر ضياء أبو مالك الأشعرى ٤٢١
صلاة فى مسجد قباء كعمرة أسيد الأنصارى ١٧٥

حرف الطاء

طوبى لمن رأى طوبى لمن رأى أبو سعيد ٤٤٤
الطيرة شرك، الطير؛ شرك، ومامن ابن مسعود ٣٥٦

حرف العين

عُرِضت على الأمم، فرأيت النبىء ابن عباس ٨٩

حرف الفاء

فإن استطعت أن تعمل بالرضى فى ابن عباس ٤٠١
فأمرهم النبىء ﷺ إذا قتيلة ٤٩٧
فإن الله حرم على النار من قال عتيان ٧٥
فذهب فإذا رأيتها أبو أيوب ٣٥٣
فضحك النبىء ﷺ ابن مسعود ٦١٣
فلعلّ طباً أصابه، ثم نشره ٣٤١
فيكذبون معها مائة كذبة عائشة ٣٣٨

حرف القاف

قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم انك مدعوتنى أنس ٨٣
قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء أبو هريرة ٤٣٢
قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب أبو هريرة ٥٧٧

١٥٢	أنس	قال الله تعالى: يا ابن آدم، لو أتيتني
٥٠١	أبو هريرة	قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب
٨٥	أنس بن مالك	قال ربكم: أنا أهل أن أتقى فلا يجعل
٦٠١	جندب بن عبد الله	قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان
٨٠	أبو سعيد الخدري	قال موسى: يارب، علمنى شيئاً
٥٧١	ابن عمر	القدرية مجوس هذه الأمة
٤٩	طارق المحاربى	قولوا لا إله إلا الله تفلحوا
٦١٢	أبو سعيد الخدري	قوموا إلى سيدكم

حرف الكاف

٣٥٤	عائشة	كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء
٣٥٤	ابن مسعود	كان رسول الله ﷺ يحب حسن الصوت بالقرآن
٣٥٤	أبو ذر	كان رسول الله ﷺ يحب معالى الأخلاق
٤٧٩	ابن مسعود	كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد
٢٠٦	ابن عباس	كان النبی ﷺ يدعو ربه مرة يقول
٥٤٤	جابر بن عبد الله	كان النبی ﷺ يحث أصحابه على الصدقة
٢٣٠	ابن عمر وغيره	كان النبی ﷺ يخطب إلى جذع
٣١٨	ابن عباس	كانت راية رسول الله ﷺ سوداء
٣١٨	ابن عمر	الكبائر تسع
٦١١	أبو سعيد الخدري	الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري
٣٠		كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد
٣٠		كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله
٣١	أبو هريرة	كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بذكر الله
٣١		كل أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله
٣٤٩	جابر	كل بسم الله ثقة بالله
٣٢٠	معاوية	كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل
٣٠٧	العرباض بن سارية	كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة
٥٧٧	ابن عباس	كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة
٢٢٩	ابن مسعود	كنا نسمع تسييح الطعام

٢٨٣	بريدة	كنت نهيتكم عن زيارة القبور
٥٥٤	شداد بن أوس	الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد
٥١١، ٤٥٦	عمر	كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟
٢١٥	أنس	كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم؟
٢١٣	أنس	كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم؟

حرف السلام

٣٤	عائشة	لا أحصى ثناء عليك أنت
٩٤	عوف بن مالك	لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً
٢٩١	مولى المهري	لا تتخذوا بيتي عيداً
٢٩٣، ٢٩١، ٢٩٠، ١٧٨	على	لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً
٥٨٣، ٢٨٩	أبو هريرة	لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا
٢٨٩	ابن عمر	لا تجعلوا بيوتكم مقابر فإن الشيطان
٥١٠	أبو مالك	لا تجتمع أمتى على ضلالة
٤٩٥	ابن عمر	لا تحلفوا بأبائكم. من حلف له بالله
٣١٠	عقبة بن عامر	لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على
٥٥٩	أبي بن كعب	لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ماتكروهن
١٥٣	ابن مسعود	لا تستنجوا بالروث ولا العظام
٢٩٤	أبو سعيد	لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد:
٣١٩	صفوان بن عسال	لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا
٢٧٢	أبو مرثد	لا تصلوا إلى القبور
٦٠٩، ٢٥٤، ٢٤٧	عمر بن الخطاب	لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم
٢٩٥	بصرة بن أبي	لا تعمل المطى إلا إلى ثلاثة
	بصرة الغفاري	
٥٣٣	ابن مسعود	لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله
٤٩٢	حذيفة	لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان
٣٠٩	أبو هريرة	لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات
٣١٢، ٩٩	أنس	لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض:

٥٠٧	أبو أمامة	لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يُعظم
٦٠٧	ابن عمر	لا تنسنا يا أخى من صالح دعائك
٥٩٤	جبير بن مطعم	لا حلف فى الإسلام وأيما حلف كان
٩١، ٨٩	عمران بن حصين	لا رقية إلا من عين أو حمة
	بريدة بن الحصيب	
٣٤٧	أبو هريرة	لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر
٣٥٣	أنس	لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل
٣٥٢		لا غول ولكن السعالى
١٨٥	عمران بن حصين	لا نذر فى غضب، وكفارته كفارة
١٧٩	عائشة	لا نذر فى معصية، وكفارته كفارة
٥٩١	أنس	لا يأتى زمان إلا والذى
٤٧٢		لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه
٣٩٠، ٣٨٨	أنس	لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحبّ
٣٩٢	عمرو بن الجموح	لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحبّ
٥٠	ابن مسعود	لا يحل دم امرئ مسلم
٦١١	ابن مسعود	لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال
٤٦٨	أبو هريرة	لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن
٥٤٧	جابر	لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة
٣٤٨	ابن مسعود	لا يعدى شيء - ثلاثاً - فقال
٤٧٦	عوف بن مالك	لا يقص إلا أمير
٣٤٨، ٣٤٧	أبو هريرة	لا يُورد ممرض على مصح
٥٤١	أبو هريرة	لا يقولن أحدكم أطعم
٥٣٧	أبو هريرة	لا يقولن أحدكم اللهم
٣٨٦، ١٧٣	أنس	لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه
٤٦٧	عبد الله بن عمرو	لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً
٥٧٥	على بن أبى طالب	لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد
١١٧	سلمة بن الأكوع	لأعطين الراية - أو: لياخذن الراية -

١١٦	سهل بن سعد	لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله
٣٠٧، ٣٠١	أبو سعيد	لتتبعن سنن من كان قبلكم
١٦٧	عليّ	لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من
٢٩٣، ٢٧١، ٢٦١	عائشة	لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا
٥٨٠، ٣٠١		
٢٨١	ابن عباس	لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور
٢٨٣، ٢٨٢، ٢٨١	حسان بن ثابت	لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور
٥٧١	حذيفة	لكل أمة مجوس، ومجوس هذه
٢٣٨	أبو هريرة	لكل نبيّ دعوة مستجابة، فتعجل كل
٥٤١	أبو هريرة	لا يقولن أحدكم أطعم
٥٣٧	أبو هريرة	لا يقولن أحدكم اللهم
٤٥٢	عائشة	لو استقبلت من أمرى ما استدبرت
٥٧٥	أبيّ بن كعب	لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه
٥٧٥	أبيّ بن كعب	لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك
٤٢٣	جابر	ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك
٢٠٥	أبو هريرة	ليس شيء أكرم على الله من الدعاء
٦٢	عبدالله بن مسعود	ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم
٣٣٦	عمران بن حصين	ليس منا من تطير أو تطير له
٤٢٤	ابن مسعود	ليس منا من ضرب الخدود، وشق

حرف الميم

٥٢٩	عبد الله بن مسعود	ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن
٤٢١	أبو سعيد الخدرى	ما أعطى أحدٌ عطاء خيراً وأوسع من
٩٦	أبو هريرة	ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء
١٠٢	عبدالله بن عمرو	ما بعث الله من نبيّ إلا كان حقاً عليه
٢٨٨	أبو ذر	ما بقى شيء يُقرب من الجنة ويباعد
٦٢٣	العباس	ما تسمون هذه
٦١٦	زيد	ما السموات السبع فى الكرسى، إلا

٦١٦	أبو ذر	ما الكرسي في العرش إلا كحلقة
٢٢٧	ابن عباس	ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا
٥٦	عمر	معاذٌ يحشر يوم القيامة أمام العلماء
٣٧	على	الملائكة تصلى على أحدكم ما دام في
٣٦٣		بما أخاف على أمتي
٣٣٤	أبو هريرة	من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما
٣٣٣	حفصة	من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه
٣٣٥		من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له
٣٣٤	أبو هريرة	من أتى كاهناً فصدقه بما يقول
٥٠٦	معاوية	من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً
٤٧٠ ، ٣٩٢	أبو أمامة	من أحب الله وأبغض الله وأعطى
٣٠٧	أنس	من أحدث حدثاً، أو آوى محدثاً
٣٠٧	عائشة	من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد
٤٠٤	عائشة	من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله
٥٤٣	ابن عمر	من استعاذ بالله فأعيذوه
٩٤	جابر	من استطاع منكم أن ينفع أخاه
٣٤٦٣ ، ٣٢٧	ابن عباس	من اقتبس شعبة من النجوم فقد
٤٠٣	عائشة	من التمس رضى الله بسخط الناس، رضى
٤٠٣	عائشة	من التمس رضى الله بسخط الناس، كفاه
١٤١ ، ١٠٤	عقبة بن عامر	من تعلّق تميمه فقد أشرك
١٤٦ ، ١٤٠	عقبة بن عامر	من تعلّق تميمه فلا أتم الله له
٤١١ ، ١٥٠	عبدالله بن عكيم	من تعلّق شيئاً وكل إليه
٣١٦	صفوان بن سليم	من تعلّم شيئاً من السحر قليلاً كان
١٨٢		من حلف باللات والعزى
٤٩٠	عمر بن الخطاب	من حلف باللات والعزى
٣٥٧	عبدالله بن عمرو	من رده الطيرة عن حاجته فقد أشرك
٥٤٦	ابن عباس	من سألكم بوجه الله فأعطوه

٣٤٨	أسامة بن زيد	من سمع به فى أرض فلا يقدمُ عليه
٦٥	عبادة بن الصامت	من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا
١٣٤	جابر	من شهد أن لا إله إلا الله وخلع
٢٨٥	أبو هريرة	من صلى على جنازة فله قيراط، ومن
٤٣٣	شداد بن أوس	من صلى يُرائى فقد أشرك ومن صام
٤٠٢	ابن عمر	من صنع إليكم معروفاً فكافئوه
٥٧٧	ابن عباس	من صور صورة فى الدنيا كُلّف أن
١٧١	عائشة	من ظلم شبراً من الأرض طوّقه
٣٢٨	أبو هريرة	من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر
١٢٩	ابن عباس	من قال فى القرآن برأيه
١٣٢	طارق بن أشيم	من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد
٢٣٨ ، ٢٣٧	أبو هريرة	من قال لا إله إلا الله خالصاً
١٥٣	سعيد بن جبير	من قطع تيممة من إنسان كان
١٧٠	عبدالله بن عمرو	من الكبائر شتم الرجل والديه، قالوا
٤٠٢	أبو هريرة	من لا يشكر الناس لا يشكر الله
١٠٤ ، ٧٦	أنس بن مالك	من لقى الله لا يُشرك به شيئاً دخل
٤٧٢	جابر	من لكعب بن الأشرف فإنه قد
٢٠٥	أبو هريرة	من لم يسأل الله يغضب عليه
٤٢٩	أنس	من لم يصبر على بلائى ولم يرض
١٠٣	ابن مسعود	من مات وهو يدعو من دون الله
١٨٥	عائشة	من نذر أن يطيع الله فليطعه . ومن
١٨٩	خولة بنت حكيم	من نزل منزلاً، فقال: أعوذ بكلمات
١٣٣	أبو مالك الأشجعى	من وحّد الله وكفر بما يُعبد من دون
٤٩٩	معاوية	من يُرد الله به خيراً يفقه فى الدين

حرف النون

٢٥٦	ابن عباس	نعم بأمثال هؤلاء فارموا . وإياكم
٤٨	أبو أسيد الساعدى	نعم، الصلاة عليهما، والإستغفار

٩٦	أسامة بن شريك	نعم يا عباد الله تداووا فإن الله عز
٥٨٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٠	جابر	نهى أن يجصص القبر أو يكتب
١٦٩	أبو هريرة	نهى عن ذبائح الجن
٢٨٣	عائشة	نهى عن زيارة القبور
٢٨٥	أم عطية	نهى النساء عن اتباع

حرف الهاء

٥٢	ابن مسعود	هذا سبيل الله
٤٨١		هذا ما صالح عليه
٤٢٥	أسامة بن زيد	هذه رحمة جعلها الله في قلوب
٤٩٩	الطفيل	هل أخبرت بها أحداً
٦١٦	العباس بن عبدالمطلب	هل تدرون كم بين السماء والأرض
٣٧١	زيد بن خالد	هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله
٤٤٩	أبو هريرة	هل تستطيع أن تصلى
١٧٧	ثابت بن الضحاك	هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية
٢٥٦	ابن مسعود	هلك المتنطعون. ثلاثاً
١٧٦	أبو سعيد	هو مسجدى هذا
٣٤١	جابر	هى من عمل الشيطان

حرف الواو

٣٨٦	عمر	والذى نفسى بيده حتى أكون
٣٠٣	أبوهريرة، وجابر	والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما
٣١١	أبو هريرة	والذى نفسى بيده لينزلن فيكم ابنُ مريم
٥٥	جابر	وإنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به
٣٦٧	على	﴿وتجعلون رزقكم﴾: يقول شكركم
٣٤٨		وفرّ من المجذوم كما تفر من الأسد
٣٠٥	المغيرة بن شعبة	ولا راد لما قضيت
٨٤	أبو ذر	ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم
٦٠٥	جبير بن مطعم	ويحك، أتدرى ما تقول

ريحك، ماهذه؟ قال: من الواهنة
ويلك، قطعت عنق صاحبك

عمران بن حصين ١٣٨

٦١٠

حرف الياء

٦٣	أبو بكر الصديق	ياأبا بكر، ألت تنصب؟ ألت
٦١٠، ٦٠٩	أنس	ياأيها الناس قولوا
٢٢٠	أبو هريرة	يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً
٤٨١	ابن عباس	يارحمن يارحيم
١٥١	رويفع بن ثابت	يارويفع، لعل الحياة ستطول بك
٢٤١	المسيب	ياعم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج
٥٥	معاذ بن جبل	يامعاذ، أتدرى ما حق الله على
٧٦	أنس بن مالك	يامعاذ، قال: لبيك يا رسول الله
٢١٨	أبو هريرة	يامعشر قريش - أو كلمة نحوها -
٣٠٦	أبو هريرة	يتقارب الزمان وينقص العلم، وتظهر
١١٠	عبدالله بن عمرو	يُحشر المتكبرون أمثال
٨٢، ٧٨	عبد الله بن عمرو	يُصاح برجل من أمتى على رؤوس
٣٢٢	بريدة	يُضرب ضربة واحدة فيكون أمة
٦١٦	ابن عمر	يطوى الله السموات يوم القيامة
٦١٥	أبو هريرة	يقبض الله تعالى: الأرض ويطوى السماء
٤٣	أنس بن مالك	يقول الله تعالى: لأهون أهل النار
٥٠٣	أبو هريرة	يقول الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر
٥٠٣	أبو هريرة	يقول الله عز وجل: استقرضت عبدى
٣١٠	حذيفة	يكون فى أمتى كذابون دجالون
٦١٥	ابن عمر	يمجد الرب نفسه
٥٣٧	أبو هريرة	يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة

٣ - فهرس المسائل الأصولية

الموضوع	الصفحة
قبول خبر الواحد العدل	١١٤
معنى الصحابي	١٧٢
قول الصحابي أو فعله ليس حجة على الحديث	٢٨٥
الاجماع حجة	٣١٢
العام لا يعارض الأدلة الخاصة	٢٨٤
النكرة في عموم النهي	٤٣١
الكفار مخاطبون بفروع الشريعة	١١٤
المطلق يحمل على المقيد	١٧٩
التقييد نوع من النسخ	٤٣٨
رد التشابه إلى المحكم	٤٧٩
مفهوم العدد ليس بحجة	٣١٨
تعقيب الوصف بالحكم بالفاء	١٧٨
الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة	٢٨٤
الخصائص لا يقاس عليها	١٦٣
اعتبار المقاصد	١٣٩
سد الذريع	١٤٩ ، ١٦١ ، ١٧٨ ، ٢١٠ ، ٢٦٠ ، ٥٣٥ ، ٥٧٩ ، ٥٨٥
الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء	١٦١
شرع من قبلنا	١٦٢
فوائد النظر في كلام المجتهدين	٤٥٦
الحق في المسألة واحد	٤٥٦ ، ٥٩٨
لا إنكار في مسائل الاجتهاد	٤٥٣
إذا استبان الدليل وجب الأخذ به وترك الاجتهاد	٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧

٤٥٥ ، ٣١٢	الاجتهاد لا ينقطع
٤٥٦ ، ٤٥٣	لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد
٥١٠ ، ٤٦٣	تقليد الجاهل
١٧٨	استفصال المفتى
١٢١	الحلف على الفتيا

٤ - فهرس المسائل الفقهية

الطهارة

١٥٣	الاستنجاء بالروث والعظام
١٤٩	حمل القرآن أو بعضه حال قضاء الحاجة
٣٧٨	حكم مس المحدث المصحف
١٧١	حكم الواصلة والواشمة

الصلاة

٤١	معنى العبادة
١٢٤	ما تتم به العبادة
١٦٧	أجل العبادات البدنية
٢٠٧	معنى الصلاة
١٦٦	ما تضمنته الصلاة من أنواع العبادة
١١٦	شأن الصلاة
١١٥ ، ٨٥	متى فرضت الصلاة
١٣٥	قتال تارك الصلاة
١٨٧	الصلاة لله ولغيره
٧٨	كثرة الصلاة
٣٣٤	ما يسلب أجر الصلاة
٤٦٨	حكم الصلاة قبل تغيير القبلة
٢٧٢ ، ٢٦٨	معنى المسجد
٥٧٩ ، ٣٠٧ ، ٢٦٩ ، ٢٦١	حكم بناء المساجد على القبور
١٧٦	إذا بنى المسجد للمعصية
٥٨٠ ، ٥٧٩ ، ٢٧٢ ، ١٨٧	حكم الصلاة عند القبور وإليها

٢٠٦	الدعاء الذى لا تصح الصلاة إلا به
٢١٧	الدعاء على المشركين بأعيانهم فى الصلاة
١٥٢	عقد اللحية فى الصلاة
٢١٧	معنى قول الإمام سمع الله لمن حمده
٢١٨	للإمام أن يجمع بين التسميع والتحميد
٥٨٤	صلاة النافلة فى البيوت

الجنائز

٢٨٢	زيارة النساء للقبور
-----	---------------------

الزكاة

١٦٧	أجل العبادات المالية
١١٣	وجوب الزكاة
١١٣	البلوغ والعقل ليس من شروط الزكاة
١١٤	ما يخرج من الزكاة
١١٣	من يتولى قبض الزكاة
١١٤	بعث العمال لجباية الزكاة
١١٤	وعظ العمال والأمراء
١٣٥ ، ١١٨	قتال مانعى الزكاة
١١٣	مصارف الزكاة

الصيام

١١٥	الصوم أمر باطن
٧٨	كثرة الصيام
١٣٥	قتال تاركى الصيام
٣٩	الصوم للكواكب

الحج

١١٥	الحج وجوبه خاص
٤٣٣	الإخلاص فى الحج
٥٨٣	الدعاء عند الزيارة

١٣٥	قتال تاركى الحج
٥٨٤ ، ٥٨١	حج المشاهد

الجهاد

٥٩٨ ، ١٢٠	الدعوة قبل القتال
١١٨	الآداب عند القتال وترك الطيش
٥٩٧ ، ٥٩٦	من تؤخذ منه الجزية
٥٩٧	مقدار الجزية
٥٩٦	أهل الفىء

المعاملات

٥٨٧	الحلف فى البيع
١٧٠	تغيير حدود الأرض أو الطرق
١٧١	حكم أكل الربا
٥١١	معنى الصلح
٤٠٨	حكم الوكالة
٥٨٠ ، ٥٧٩	الوقف على القبور

الجنايات والحدود

٣٢٠	حكم قتل المؤمن تعمداً
٥٨١	ضعف الداعى يوجب تغليظ العقوبة
٩٧ ، ٩٤	حكم التداوى والكى بالنار
١١٨	الضرب فى الخمر
١٣٦	قتال البُغاة
٣١٦	تعلم السحر
٣٢٢	حكم قتل الساحر

الذبائح

١٧٠	ما ذبح عند استقبال الأمراء ونحوهم
١٦٨	الذبيحة إذا ذكر عليها اسم المسيح أو غيره .
١٦٩	ذبيحة المرتد

النذر

١٨٥ ، ١٧٨	الوفاء بالنذر
١٨٥ ، ١٨٢ ، ١٧٩	نذر المعصية وما يجب به
١٨٥	النذر المكروه
١٨٣	نذر المجازاة
١٧٩	النذر بما لا يملك

٥ - فهرس الأبواب

الرقم	الصفحة	الباب
(١)	٦١	باب بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب
(٢)	٨٧	باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب
(٣)	٩٩	باب الخوف من الشرك
(٤)	١٠٧	باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله
(٥)	١٢٣	باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله
		باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه
(٦)	١٣٧	
(٧)	١٤٥	باب ما جاء في الرقي والتمايم
(٨)	١٥٥	باب من تبرك شجرة أو حجر ونحوهما
(٩)	١٦٥	باب ما جاء في الذبح لغير الله
(١٠)	١٧٥	باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله
(١١)	١٨١	باب من الشرك النذر لغير الله
(١٢)	١٨٧	باب من الشرك الاستعاذة بغير الله
(١٣)	١٩٣	باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره
(١٤)	٢١١	باب قول الله تعالى (أشركون مالا يخلق شيئا) الآية
(١٥)	٢٢٣	باب قول الله تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا الآية)
(١٦)	٢٣٣	باب الشفاعة
(١٧)	٢٤١	باب قول الله تعالى (انك لا تهدى من أحببت) الآية
(١٨)	٢٤٧	باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو
(١٩)	٢٥٩	باب ما جاء من التغليب فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح
(٢٠)	٢٧٥	باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً
(٢١)	٢٨٧	باب ما جاء في حماية المصطفى (ﷺ) جناب التوحيد

الرقم	الصفحة	الباب
(٢٢)	٢٩٧	بابُ ما جاء أن بعض هذه الأمة يَعْبُدُ الْاَوْثَان
(٢٣)	٣١٥	بابُ ما جاء فى السَّحَر
(٢٤)	٣٢٥	بابُ بيان شَيْءٍ من أنواع السحر
(٢٥)	٣٣٣	بابُ ما جاء فى الكُهَّان ونحوهم
(٢٦)	٣٤١	بابُ ما جاء فى النَّشْرَة
(٢٧)	٣٤٥	بابُ ما جاء فى التَّطْيِير
(٢٨)	٣٦١	بابُ ما جاء فى التَّنْجِيم
(٢٩)	٣٦٧	بابُ ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء
(٣٠)	٣٨١	بابُ قول الله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا) الآية
(٣١)	٣٩٥	بابُ قول الله تعالى (اينما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) الآية
(٣٢)	٤٠٧	بابُ قول الله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)
(٣٣)	٤١٥	بابُ قول الله تعالى (أفأمنوا مكر الله) الآية
(٣٤)	٤٢١	بابُ من الايمان بالله الصبر على أقدار الله
(٣٥)	٤٣١	بابُ ما جاء فى الرياء
(٣٦)	٤٣٧	بابُ من الشرك إرادة الانسان بعمله الدنيا
(٣٧)	٤٥١	بابُ من أطاع العلماء والأمرأ فى تحريم ما أحل الله
(٣٨)	٤٦١	بابُ قول الله تعالى (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا) الآية
(٣٩)	٤٧٣	بابُ من حجد شيئا من الأسماء والصفات
(٤٠)	٤٨٣	بابُ قول الله تعالى (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) الآية
(٤١)	٤٨٧	بابُ قول الله تعالى (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون)
(٤٢)	٤٩٥	بابُ ما جاء فىمن لم يقنع بالحلف بالله
(٤٣)	٤٩٧	بابُ قول ما شاء الله وشئتَ
(٤٤)	٥٠١	بابُ من سبَّ الدهرَ فقد أذى الله
(٤٥)	٥٠٥	بابُ التَّسْمِى بقاضى القضاة ونحوه
(٤٦)	٥٠٩	بابُ احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك
(٤٧)	٥١٣	بابُ من هزل بشيئ فيه ذكرُ الله أو القرآن أو الرسول

الرقم	الصفحة	الباب
٥١٧	(٤٨)	بابُ قولِ الله تعالى (ولئن أذقناه رحمةً منا من بعد ضراءِ) الآية
٥٢١	(٤٩)	بابُ قولِ الله تعالى (فلما أتاها صالِحاً جعلاً له شركاءِ) الآية
٥٢٧	(٥٠)	بابُ قولِ الله تعالى (ولله الأسماءُ الحُسنى فادعوه بها) الآية
٥٣٣	(٥١)	بابُ لا يُقال: السلامُ على الله
٥٣٧	(٥٢)	بابُ قول: اللهم اغفر لى إن شئت
٥٤١	(٥٣)	بابُ لا يقول: عبدى وأمتى
٥٤٣	(٥٤)	بابُ لا يُردُّ مَنْ سأل بالله
٥٤٧	(٥٥)	بابُ لا يُسأل بوجهِ الله إلا الجنة
٥٥١	(٥٦)	بابُ ما جاء فى اللو
٥٥٩	(٥٧)	بابُ نهى عن سبِّ الرّيح
٥٦١	(٥٨)	بابُ قولِ الله تعالى (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)
٥٧١	(٥٩)	بابُ ما جاء فى منكرى القدر
٥٧٧	(٦٠)	بابُ ما جاء فى المصورين
٥٨٧	(٦١)	بابُ ما جاء فى كثرةِ الحلف
٥٩٣	(٦٢)	بابُ ما جاء فى ذمّةِ الله وذمّةِ رسوله
٦٠١	(٦٣)	بابُ ما جاء فى الإقسام على الله
٦٠٥	(٦٤)	بابُ لا يُستشفعُ بالله على خلقه
٦٠٩	(٦٥)	بابُ ما جاء فى حمايةِ المصطفى (ﷺ) رَحِمَى التَّوْحِيدِ
٦١٣	(٦٦)	بابُ ما جاء فى قولِ الله تعالى (وما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِهِ) الآية

